سلسلة إصدارات مؤسسة ديوان المسلم (١٤)

إشراقات سورة الكهف

تفسير تدبري موضوعي لسورة الكهف

ناصر بن سليمان العمر
المشرف العام على مؤسسة ديوان المسلم
الأمين العام لرابطة علماء المسلمين

الطبعة الأولى

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العمر، ناصر بن سليمان
إشراقات سورة الكهف: تفسير تدبري موضوعي لسورة الكهف /
ناصر بن سليمان العمر - الرياض. ١٤٣٤هـ.
٧٣٦ ص ؛ ١٧ × ٢٤سم
ردمك: ١-١٩٥٦-٠١-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن، سورة الكهف، تفسير ٢- القرآن، التفسير الحديث
أ- العنوان
ديوي: ٢٢٧.٦ ١٤٣٤/٢٥٩٥

رقم الإيداع: ١٤٣٤/٢٥٩٥
ردمك: ١-١٩٥٦-٠١-٦٠٣-٩٧٨

مؤسسة ديوان المسلم
ص.ب ٩٣٤٠٤ الرياض ١١٦٨٤
هاتف: ٢٥٤٩٩٩٢ فاكس: ٢٥٤٩٩٩٦

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وبعد.

فبين يديك أيها القارئ الكريم كتاب نتناول فيه سورة الكهف بالشرح والتحليل، والتدبر والتفسير، وإنما اخترنا هذه السورة، لأن كثيراً من الناس يقرؤونها يوم الجمعة أو ليلتها طلباً للأجر، فالفائدة من تقريب معانيها للناس كبيرة، لأن منهم من قد يمر على بعض آياتها دون فهم، أو تنبه لأسرارها، أو إدراك لمقاصدها. ولما كان الأَولى أن تُقرأ بفهم وتدبر، ثم تعلم الأهلَ والأبناءَ والتلاميذَ للعمل، فقد رأيت أن أفردها بكتاب يعين على تدبرها على الوجه الذي ينتفع به، فإن الفائدة لتالي القرآن إنما تتحقق بتدبر آياته، وفهم المراد عن الله عز وجل، ثم العمل به، لا الاكتفاء بالتلاوة دون فهم وتدبر، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص]، وقد نعى الله عز وجل على من لا يتدبر القرآن فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد]! فلا بد إذاً من القراءة بتدبر، وهو ما نرجوه من الكتاب.

إن التدبر منحة من الله يفتح بها على من يشاء، فيريهم من حكم وأسرار ولطائف الآيات ما لا يكاد يدرَك بغير تدبر، والأمر يحتاج إلى شيء من الدُّربة، وكثير من الصبر والرجوع إلى كلام أهل العلم ليستضاء به، كي لا يضل المرء برأيه عن سواء السبيل، وقبل كل ذلك فلا بد من الإخلاص وصدق التوجه إلى الله والتوكل عليه، إذ ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر].

فإذا داوم المرء على التدبر صار له عادة وسجية في كل شؤون حياته،

فيعالج المشكلات العامة والخاصة، وهذا من بركة القرآن الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت]. أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب كاتبه وقارئه، وأن يجعل ما فيه خالصاً لوجهه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

مقدمات بين يدي السورة

يحسن بنا قبل الشروع في التفسير أن نذكر مقدمات تعين القارئ على التدبر والتفكر، مع ما فيها من فوائد عامة تتعلق بالقرآن.

أولاً - اسمها:

سور القرآن تسمى بما له تعلق بشيء مما ذكر فيها، تنبيهاً على أهميته وصرفاً للأنظار للتأمل والتدبر فيه، فسورة البقرة مثلاً نسبة إلى قصة بقرة بني إسرائيل، وسورة المائدة نسبة للمائدة التي طلب الحواريون إنزالها، فكان في إنزالها آية عظيمة لهم ولمن جاء بعدهم، وسورة لقمان لورود ذكره فيها، لفتاً لما أجرى الله ﷻ من صنوف الحكمة على لسانه. فكذلك هذه السورة، فقد اشتهرت بسورة الكهف، وتسمى سورة أهل الكهف، وسورة أصحاب الكهف، ومرجعها جميعاً إلى أول قصة وردت فيها، قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾ [الكهف] ، وهي قصة عجيبة جليلة تدل على كمال قدرة الله ﷻ وإرادته وقيوميته، وقد حوت كثيرا من العبر والدروس التي يحتاجها المؤمنون دائما فناسب أن تسمى السورة بها.

وقد جاءت تسمية هذه السورة على لسان النبي ﷺ في غير ما حديث، كقوله في حديث الدجال الذي رواه النواس ابن سمعان رضي الله عنه: "فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف"(١)، وقوله في حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه: "وليقرأ فواتح سورة أصحاب الكهف"(٢)، قال المخللاتي: (وتسمى

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٥٠ (٢٩٣٧).

(٢) المستدرك ٤/ ٥٨٠ (٨٦٢٠)، قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

سورة أهل الكهف، وعن ابن عباس أنها تدعى في التوراة السورة الحائلة؛ لكونها حائلة بين قارئها والنار)[١]، وقد رُوي مرفوعا لكنه ضعيف[٢].

ثانياً- لمحة عن الكهوف:

١) لابد أن نعلم أن لله تعالى حكما، علمها من علمها وجهلها من جهلها، وأكثر خَلْقِ الله مخلوق لِحِكَمٍ يجهلها أكثرُ الخلق، فقد نجهل حكمة خلق الدودة أو الحشرةَ أو الصخرةً أو الذرة، ولكن الله خلقها لحكمة ما خلقها باطلاً، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الدخان]، فكل هذا الكون مخلوق لحكمة ولم يخلق عبثاً. وقد أثنى الله على المتفكرين في المخلوقات فقال: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران]، وفي المقابل ذم آخرين فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ص].

والكهوف من جملة خلق الله، لم توجد عبثاً، بل خلقها الله بما شاء من الأسباب، لما يشاء من الحكم، وعلينا أن نتفكر فيها؛ وأن ننظر في عجائبها ونلتمس منافعها.

٢) الكهف: هو الشق المتسع في جبل، فإن لم يكن متسعاً فهو غار،

---

(١) شرح المخللاتي على ناظمة الزُّهر في عدِّ آيات المثاني للشاطبي ١/ ١٥٦.

(٢) انظر شعب الإيمان للبيهقي ٥/ ٤٥٧ (٢٣٤٨)، والسلسلة الضعيفة ٧/ ٢٥٦ (٣٢٥٩).

أشار إلى هذا الفرق الليث وغيره من علماء اللغة[1]. وأما أهل العلوم الطبيعية المعاصرة فلا يفرقون بين الكهف والغار غالباً، ويعرف كثير منهم الكهف بأنه: تجويف طبيعي تحت سطح الأرض أو في الصخور يسمح بدخول الإنسان فيه، فهذا حد أصغره، وأما أكبر الكهوف المكتشفة الآن فيبلغ طول امتدادات أفرعه ٣٩٠ ميلاً (نحو ٦٢٧ كلم)، ويسمى كهف المأموث بولاية كنتاكي في أمريكا، بعده كهف آخر في أمريكا يبلغ طول أفرعه ١٥٠ ميلاً (نحو ٢٤٢كلم)، وهو قريب من طول كهف ثالث في أوكرانيا، يضاهيهما رابع في ماليزيا، وبعض الكهوف عميق، ينزل إلى الأسفل قرابة الكيلومتر وربما أكثر من ذلك، وبعضها يتدرج في الارتفاع، وعجائب الله في خلقها ومخلوقاتها وأشكال تجاويفها كثيرة ربما طالع بعضنا شيئاً يسيراً يشبهها في الصمّان أو غيرها.

ومن الفروق بين التعريف اللغوي وتعريف علماء الطبيعة:

• أن ما يسع إنساناً واحداً أو اثنين ونحوه يسمى غاراً في اللغة، ولا يسمى كهفاً إلّا إذا كان متسعاً، ومن أدلة أن ما يسع اثنين يسمى غاراً قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]، ومن لوازم اتساع الكهف أن تكون له رهبة بسبب الظلمة وأصداء الأصوات وما قد يكون فيه من المخلوقات.

• أن الكهف في اللغة إذا أطلق يكون في الجبل لا غير، لا يكون في الأرض السهلة المنبسطة، أو الوهدة المنخفضة، بل الأرض الوعرة

(١) ينظر المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ٤/ ١٤٥، والعباب الزاخر للصاغاني ٢/ ١١، والقاموس وغيرها.

المرتفعة، فإذا كان في غير الجبل قُيِّد فقيل كهف في البحر أو في كذا ليُمَيَّز.

٣) من مميزات الكهوف بالمعنى اللغوي أنها مآوٍ آمنة، يلجأ إليها الناس، لوعورة مسالكها وبعدها عن المدن والبنايات في العادة.

ولهذا فإن الباحث عن موضع أصحاب الكهف المذكورين في القرآن يجد عجباً من اختلاف الناس!

فمن قائل في القدس، ومن قائل في الأردن، ومن قائل في أفسس، ومن قائل في أبسس -وهي غير الأولى- ومن قائل بآسيا الصغرى (تركيا)، ومن قائل في أسكتلندا؛ قال ابن عاشور: (الأخبار الزائفة عن تعيينه ... كثيرة. وفي جنوب القطر التونسي موضع يدعى أنه الكهف، وفي مواضع أخرى من بادية القُطْر مشاهد يسمونها السبعة الرقود، اعتقاداً بأن أهل الكهف كانوا سبعة، وستعلم مثار هذه التوهمات)[1].

والمقصود: أن سبب هذا الاضطراب هو كون الكهوف اتخذت ملاجئ على مدار التاريخ، وكثير ممن لم يحقق كلما وجد كهفاً فيه آثار حياة سابقة بعدد معين، حمله على قصة أصحاب الكهف تخرصاً بالظن، بل الأطرف أن بعض الذين وجدوا كهوفاً فيها أموات حملوها على قصة أصحاب الكهف، وبنوا على عدد الجثث عدد أصحاب الكهف!

مع أن الدراسات التاريخية والإنسانية تفيد بأن الكهوف استخدمتها بعض الأمم عوضاً عن دفن الموتى قديماً! فلا يبعد أن يكون ذلك الكهف مجرد مقبرة! وفي الآثار الثمودية والنبطية قريباً من العلا مثلاً ما يشعر بأن القوم اتخذوا بعض الكهوف (ربما الطبيعية) مقابر، كما أخبر الله تعالى أنهم نحتوا من الجبال بيوتاً.

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٣٥.

وقد أفادت الدراسات الإنسانية التاريخية بوجود حياة في بعض الكهوف بعضها يعود إلى ٤٠٠٠٠ سنة (أربعين ألف سنة) فيما زعموا، ذكروا ذلك عن كهوف (نياه) في ماليزيا، وذكروا عن كهوف أخرى في جنوب أفريقيا ما هو أبعد في التاريخ من ذلك. فالكهوف إذاً لجأ إليها الناس من قديم الزمان فراراً من الفتن أو الاضطهاد من عدو غاشم ونحوه.

٤) تختلف أنواع الكهوف في طبيعتها وتتفاوت تفاوتاً كبيراً، من حيث: امتدادها، وسعتها، وسفولها، وصعودها، وطريقة تكونها، ومادتها؛ فبعضها من الأحجار الجيرية، وبعضها يغلب على تكوينه الرخام، وبعضها الملح، وبعضها من أنواع أخرى من الصخور، وأكثرها من الأحجار الجيرية، التي تذوب وتتسع بفعل عوامل مختلفة. وبعضها قد تتصل به عيون، وبعضها قد يتجمد به الماء، وبعضها قد يحتوي كميات من مياه حمضية أو مياه عذبة أو غيرها.

٥) تختلف الكهوف في مدد تكونها، فقد يحدث بركان أو زلزال فيكَوِّن بعضَها فجأة، وقد تحدِث عوامل التعرية بعضَها على امتداد الأعوام والآجال البعيدة، وفي الظروف العادية لا تتشكل الكهوف بسرعة، بل تحتاج إلى مدد بعيدة وآجال طويلة جداً للتشكل، أما تحت الظروف غير الاعتيادية فيمكن أن تتشكل بسرعة.

٦) الناس لا تلجأ إلى العيش في الكهوف عادة إلَّا بسبب ظروف طارئة أو شدة نازلة، خوفاً من عدو في الغالب، فهم يحتاجون لسهول يرعون فيها، وأراض يحرثونها ويزرعونها، وتجرى فيها معاملاتهم. أما الكهوف فهي ملاجئ يفزع الناس إليها للضرورة غالباً، وللنزهة أحيانا.

ثالثاً - العلاقة بين الكهوف وبين اسم السورة:

إذا علمنا أن فرار الناس إلى الكهوف خوف اضطهاد ديني وقع في التاريخ مراراً، علمنا أن للكهف تعلقاً أكبر، وبعداً أوسع في علاقته بهذه السورة؛ فلقد ذكرت هذه السورة أعظم الفتن التي تجتال البشرية عبر الزمن: الفتنة في الدين، كما في قصة أصحاب الكهف، والفتنة في المال والولد، كما في قصة صاحب الجنتين، والفتنة في العلم، كما في قصة موسى والعبد الصالح عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، والفتنة في السلطان، كما في قصة ذي القرنين، وفي وسطها الإشارة إلى الفتنة الأولى فتنة إبليس للأبوين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وقد قدم لهذه الموضوعات وعقب بذكر أسباب الوقاية منها التي فيها العصمة وطرق معالجتها حين التعرض لها. فسورة الكهف تضع للمؤمن كهوفاً تعصمه من أشد الفتن في حياته، ومن ثم فهي عاصمة من أعظَم فتن الدنيا على الإطلاق؛ فتنة الدجال؛ فمن فزع إلى قراءتها فزع إلى ملجأ حصين وكهف واسع، يضيء له نوراً مبيناً يسترشد به في طريق سيره إلى الله. وإذا كانت السورة كالكهف تنحت في نفوس قارئيها كهوفاً تعصمهم وتكون كالملاجئ بالنسبة لهم، فقد تقدم ذكر الكهوف وبيان بعض أحوالها وتباينها في صفاتها، فمنها الكبير المتسع المهيب، ومنها دون ذلك، ومنها ما تكون مادته شريفة عزيزة ومنها دون ذلك، ومنها التي تتشكل في أوقات الأزمات بعد الزلزلة والشدة، ومنها ما تنحته القطرات على مرور الدهور والأعصار. وهكذا المتدبر لهذه السورة، فبقدر استفادته منها وتدبره لمعانيها وتحققه بما فيها، تكون صفات كهفه الذي يفزع إليه حال الملمة وأمام الفتن. والذي لم تُفده سورة الكهف نجاةً في حياته من فتن الدنيا، فحري ألا تعصمه من فتنة الدجال!

رابعاً - وقت نزولها:

الصحيح من أقوال أهل العلم أن المكِّيَّ ما نزل قبل الهجرة، والمدنِيَّ ما نزَل بعدها وإن نزل بغيرهما، كقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣] نزلت بعرفة عام حجة الوداع، فهي داخلة في المدني على هذا التقسيم.

وقد نزلت سورة الكهف في مكة قبل الهجرة، فهي مكية على كل حال[١]، وقال ابن عطية والقرطبي: (مكية في قول جميع المفسرين، وروي عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله: ﴿جُرُزًا﴾، والأول أصح)[٢]، وقد استُثنيت منها بعض الآيات، قال المخللاتي: (عن ابن عباس وقتادة استثناء آيات منها وهي قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾، إلى تمام القصة نزل بالمدينة، واستثنى بعضهم من أول السورة إلى ﴿جُرُزًا﴾، وآية ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾، و ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلى آخر السورة)[٣]، وذكر الطبري عن عمرو بن قيس الكندي، أنه سمع معاوية بن أبي سفيان تلا هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ وقال: (إنها آخر آية نزلت من القرآن)[٤]، فإن ثبت ما نقل عن ابن عباس ومعاوية رضي الله عنهما، صح هذا الاستثناء، وأما ما لم يثبت استثناؤه فله حكم السورة العام، كما قال

---

(١) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة ١/ ١٩.

(٢) تفسير ابن عطية ٣/ ٤٩٤، تفسير القرطبي ١٠/ ٣٠١.

(٣) شرح المخللاتي ١٥٦، وانظر الإتقان ١/ ٥٠.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ١٣٦.

العلامة ابن عثيمين رحمه الله[١].

وقد يستدل بعض من قال بمدنية آية ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾ بحديث رواه ابن ماجه في سننه عن خباب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ ...إلى قوله... فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾ قال: "جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري، فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب، قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين. فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم، فأتوه فخلوا به وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت. قال: نعم. قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً، قال: فدعا بصحيفة، ودعا علياً ليكتب ونحن قعود في ناحية، فنزل جبرائيل عليه السلام فقال: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾ [الأنعام] ثم ذكر الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ [الأنعام]. ثم قال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]. قال: فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته، وكان رسول الله ﷺ يجلس معنا، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ ولا تجالس الأشراف ﴿تُرِيدُ

(١) أول تفسيره لسورة الكهف؛ قال: (الأصل أن السُّوَر المكيَّة مكيَّةٌ كلها وأن المدنيَّة مدنيَّةٌ كُلُّها، فإذا رأيت استثناءً فلا بد من دليل).

﴿زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ يعني عيينة والأقرع"[١]، إلا أن الحافظ ابن كثير رحمه الله قال بعد أن أورد طرفاً من هذا الحديث: (وهذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية، والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر)[٢]، يريد رحمه الله بالآية آية الأنعام، وأيده الألباني[٣].

وعلى التنزل بحفظ قوله: (يعني الأقرع وعيينة)، فلا يلزم منه أن تكون الآية نزلت فيهما، قال ابن تيمية رحمه الله: (وقولهم نزلت هذه الآية فى كذا؛ يراد به تارة أنه سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل فى الآية وإن لم يكن السبب، كما تقول عنى بهذه الآية كذا)[٤]، ثم على التنزل أنها نزلت فيهما؛ فيحتمل أن تكون نزلت مرتين؛ مرة في مكة والثانية في الأقرع وعيينة في المدينة، وبهذا يزول الإشكال، قال الزركشي: (قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة تقتضي نزول آية وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها، فتؤدى تلك الآية بعينها إلى النبي ﷺ تذكيراً لهم بها وبأنها تتضمن هذه)[٥]، والله أعلم.

مميزات القرآن المكي:

- من أهم ما يميز المكي عن المدني: أن أغلب السور المكية يكون النداء فيها للناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، أما السور المدنية فغالبها يكون النداء فيه للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وقد يختلف هذا في بعض المواضع.

- قال الزركشي: (كل سورة فيها ﴿كَلَّآ﴾ فهي مكية، وكل سورة

(١) سنن ابن ماجه ٢/ ١٣٨٢ (٤١٢٧)، وصححه الألباني.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٦٠.
(٣) السلسلة الصحيحة ٧/ ٨٧٥-٨٧٦ (٣٢٩٧).
(٤) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٣٩.
(٥) البرهان في علوم القرآن ١/ ٣١.

أولها حروف المعجم فهي مكية، إلا البقرة وآل عمران، وفي الرعد خلاف؛ وكل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة، وكل ما كان فيه ذكر القرون الماضية فهي مكية)[1].

- قال ابن تيمية: (السور المكية تضمنت الأصول التى اتفقت عليها رسل الله، إذ كان الخطاب فيها يتضمن الدعوة لمن لا يقر بأصل الرسالة، وأما السور المدنية ففيها الخطاب لمن يقر بأصل الرسالة؛ كأهل الكتاب الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وكالمؤمنين الذين آمنوا بكتب الله ورسله، ولهذا قرر فيها الشرائع التي أكمل الله بها الدين، كالقِبلة والحج والصيام والاعتكاف والجهاد وأحكام المناكح ونحوها، وأحكام الأموال، بالعدل: كالبيع، والإحسان: كالصدقة، والظلم: كالربا، وغير ذلك مما هو من تمام الدين)[2].

- ومما يميز المكي أنه كما قال الزرقاني: (حمل حملة شعواء على الشرك والوثنية، وعلى الشبهات التي تَذَرَّع بها أهل مكة للإصرار على الشرك والوثنية، ودخل عليهم من كل باب، وأتاهم بكل دليل، وحاكمهم إلى الحس، وضرب لهم أبلغ الأمثال، حتى انتهى بهم إلى أن تلك الآلهة المزيفة لا تقدر أن تخلق مجتمعة أقل نوع من الذباب، بل لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شر عادية الذباب)[3].

- ومما يميزه كذلك أنه كما قال أيضاً: (سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه، حتى جاءت السور المكية قصيرة الآيات صغيرة السور، لأنهم كانوا أهل فصاحة ولَسَن، صناعتهم الكلام، وهمتهم البيان،

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ١٨٨.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ١٦٠.
(٣) مناهل العرفان ١/ ١٤٢.

فيناسبهم الإيجاز والإقلال، دون الإسهاب والإطناب)[1].

وللتوسع في ذلك يرجع لكتب علوم القرآن.

خامساً- سبب نزولها:

قال ابن عاشور: (وسبب نزولها ما ذكره كثير من المفسرين وبسطه ابن إسحاق في سيرته بدون سند، وأسنده الطبري إلى ابن عباس بسند فيه رجل مجهول: أن المشركين لما أهمهم أمر النبي ﷺ وازدياد المسلمين معه، وكَثُر تساؤلُ الوافدين إلى مكة من قبائل العرب عن أمر دعوته، بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة (يثرب)، يسألونهم رأيهم في دعوته، وهم يطمعون أن يجد لهم الأحبار ما لم يهتدوا إليه مما يوجهون به تكذيبهم إياه. قالوا: فإن اليهود أهل الكتاب الأول وعندهم من علم الأنبياء -أي صفاتهم وعلاماتهم- علم ليس عندنا، فقدم النضر وعقبة إلى المدينة، ووصفا لليهود دعوة النبي ﷺ وأخبراهم ببعض قوله. فقال لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم بهن فهو نبيء، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّل، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؟ وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وسلوه عن الروح ما هي؟ فرجع النضر وعقبة فأخبرا قريشاً بما قاله أحبار اليهود، فجاء جمع من المشركين إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن هذه الثلاثة، فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم بما سألتم عنه غداً -وهو ينتظر وقت نزول الوحي عليه بحسب عادة يعلمها- ولم يقل: إن شاء الله. فمكث رسول الله ثلاثة أيام لا يُوحَى إليه، وقال ابن إسحاق: خمسة عشر

---

(١) مناهل العرفان ١/ ١٤٣.

يوماً، فأرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً وقد أصبحنا اليوم عدة أيام لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، حتى أحزن ذلك رسولَ الله ﷺ وشق عليه، ثم جاءه جبريل عليه السلام بسورة الكهف، وفيها جوابهم عن الفتية وهم أهل الكهف، وعن الرجل الطواف وهو ذو القرنين، وأُنزِل عليه فيما سألوه من أمر الروح ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ من سورة الإسراء. قال السُّهيلي: وفي رواية عن ابن إسحاق من غير طريق البكائي -أي زياد بن عبد الله البَكَّائي الذي يروي عنه ابن هشام- أنه قال: فناداهم رسول الله ﷺ: "هو -أي الروح- جبريل"، وهذا خلاف ما روى غيره أن يهود قالت لقريش: سلوه عن الروح فإن أخبركم به فليس بنبيء، وإن لم يخبركم به فهو نبيء ا.هـ وأقول: قد يجمع بين الروايتين بأن النبي ﷺ بعد أن أجابهم عن أمر الروح بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ بحسب ما عنوه بالروح، عدل بهم إلى أمر أَولى، وهو الروح الذي تكرر في القرآن كقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء] وقوله: ﴿وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] وهو من ألقاب جبريل، على طريقة الأسلوب الحكيم، مع ما فيه من الإغاظة لليهود لأنهم أعداء جبريل كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧] الآية، ووضحه حديث ابن سلام في قوله للنبي ﷺ حين ذكر جبريل عليه السلام: "ذاك عدو اليهود من الملائكة"، فلم يترك النبي ﷺ لهم منفذاً قد يلقون منه التشكيك على قريش إلا سده عليهم.

وقد يعترضك هنا أن الآية التي نزلت في أمر الروح هي من سورة الإسراء، فلم تكن مقارِنة للآية النازلة في شأن الفتية وشأن الرجل الطواف، فماذا فرق بين الآيتين؟ وأن سورة الإسراء يُروى أنها نزلت قبل

سورة الكهف فإنها معدودة سادسة وخمسين في عداد نزول السور، وسورة الكهف معدودة ثامنة وستين في النزول.

وقد يجاب عن هذا بأن آية الروح قد تكون نزلت على أن تلحق بسورة الإسراء، فإنها نزلت في أسلوب سورة الإسراء وعلى مثل فواصلها، ولأن الجواب فيها جواب بتفويض العلم إلى الله وهو مقام يقتضي الإيجاز، بخلاف الجواب عن أهل الكهف وعن ذي القرنين فإنه يستدعي بسطاً وإطناباً ففرقت آية الروح عن القصتين، على أنه يجوز أن يكون نزول سورة الإسراء مستمراً إلى وقت نزول سورة الكهف فأُنزِل قرآنٌ موزعٌ عليها وعلى سورة الكهف)(١)، وبرغم أن في سند القصة مجهولاً إلا أن العلماء والمفسرين قد تتابعوا على ذكر هذا السبب مقرين له، والله أعلم.

-**فائدة عظيمة جليلة:**

وعلى سبب النزول هذا يكون دليلا من الأدلة المتكاثرة على نبوة محمد ﷺ وصدقه، لأنه مبلغ ولا يأتي بشيء من عند نفسه، ولو كان متقولاً لاخترع جواباً لما تأخر الوحي عنه، وهم قد طالبوه في غير هذا الموقف بمثل ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)﴾ [الأعراف]، وهذا الذي طلبوه من جهلهم وخفة عقولهم، أو إمعاناً منهم في الكفر والتكذيب، قال الطبري رحمه الله: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، للقائلين لك إذا لم تأتهم بآية: "هلا أحدثتها من قبل نفسك!": إن ذلك ليس لي، ولا يجوز لي فعله؛ لأن الله إنما أمرني باتباع ما يوحى إليّ من

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٤٢-٢٤٤.

عنده، فإنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي، لأني عبده، وإلى أمره أنتهي، وإياه أطيع)(١). وجبريل ﷺ لم ينزل بالأجوبة إلا لما أمره الله بذلك، فكان هذا التأخر في نزول جبريل دليلاً على نبوة وصدق النبي ﷺ لو كانوا يعقلون.

سادساً - عدد آياتها:

قال الشهاب الدمياطي رحمه الله: (آيها مائة وخمس حِرْمِيٌّ، وست شامي، وعشر كوفي، وإحدى عشرة بصري)(٢)، والمقصود بقولهم حرمي أي في عد قراء الحرمين المكي والمدني، وشامي في عد قراء الشام، وكوفي في عد قراء الكوفة، وبصري في عد قراء البصرة؛ ومرجع هذا الاختلاف إلى اختلافهم في بعض الآيات، إذ يعدها بعضهم آية واحدة ويقسمها آخرون إلى آيتين. وتظهر فائدة معرفة عدد الآيات في أمور؛ قال السيوطي رحمه الله: (يترتب على معرفة الآي وعدها وفواصلها أحكام فقهية منها: اعتبارها فيمن جهل الفاتحة، فإنه يجب عليه بدلها سبع آيات. ومنها: اعتبارها في الخطبة فإنه يجب فيها قراءة آية كاملة، ولا يكفي شطرها إن لم تكن طويلة، وكذا الطويلة على ما أطلقه الجمهور... ومنها: اعتبارها في السورة التي تقرأ في الصلاة أو ما يقوم مقامها، ففي الصحيح أنه ﷺ كان يقرأ في الصبح بالستين إلى المائة. ومنها: اعتبارها في قراءة قيام الليل. ففي أحاديث من قرأ بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ بخمسين آية في ليلة كتب من الحافظين، ومن قرأ بمائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ بمائتي آية كتب من الفائزين، ومن قرأ بثلاثمائة آية كتب له قنطار من الأجر، ومن قرأ بخمسمائة وبسبعمائة وألف آية، أخرجها الدرامي في

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣٤٣.

(٢) اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ١/ ٥١١.

مسنده مفرقة. ومنها: اعتبارها في الوقف عليها)[1]، وإن كان في بعض ما ذكره نظر.

سابعاً- من مزاياها:

١) أنها كلها محكمة، قال ابن سلامة رحمه الله: (أجمع أهل العلم أن ليس فيها ناسخ ولا منسوخ إلا قول السدي إذ قال: فيها آية منسوخة، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ لأن عنده هذا تخيير، وعند جماعة: هذا تهديد ووعيد، نسخها عنده قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾)[2]، وذكر مثله ابن حزم رحمه الله إلا أنه نسب القول بالنسخ للسدي وقتادة[3]. ولا موجب هنا للقول بالنسخ على اصطلاح الأصوليين، لأن النسخ في لسان المتقدمين أعم منه عند المتأخرين، إذ يشمل التقييد والتخصيص كما أشار إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية في غير موضع، وعليه يحمل كلام السدي وقتادة إن ثبت.

٢) أنها إحدى خمس سور افتتحت بالحمد، وهي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، قال ابن عاشور: (موقع الافتتاح بهذا التحميد كموقع الخطبة يفتتح بها الكلام في الغرض المهم)[4]، يشير إلى أهمية ما تضمنته من موضوعات، وكل السور تضمنت من المعاني الجليلة، والموضوعات المهمة ما ينبغي أن يعتنى به، فتنوعت فواتح السور تنوعاً يلفت أنظار السامعين، بما يناسب موضوعاتها.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ١/ ٨٢.
(٢) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة المقري ١/ ١٩.
(٣) الناسخ والنسوخ لابن حزم ص ٤٤.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٢٥.

٣) ذُكر أنها نزلت كاملة ومعها سبعون ألفاً من الملائكة[1].

٤) أنها تشرع قراءتها كل جمعة، مما يدل على عظم ما تضمنته من موضوعات يحسن بالمسلم أن يستحضرها من الجمعة للجمعة فلا تغيب عن ذهنه.

ثامناً- فضائلها:

نص جمع من أهل العلم على فضلها في مصنفاتهم، فبوب البخاري رحمه الله (باب فضل سورة الكهف)، وأتى مسلم رحمه الله بأحاديث في فضلها في صحيحه، وبوب النووي[2] رحمه الله (باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي)، وبوب الترمذي رحمه الله (باب ما جاء في فضل سورة الكهف)، فمن هذه الفضائل:

١.أن قراءتها سبب لتنزل السكينة، وإن كان ذلك عاما في القرآن إلا أنه ورد حديث يخصها؛ فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: "كان رجل[3] يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشطنين[4] فتغشته سحابة، فجعلت تدور وتدنو، وجعل فرسه ينفر منها، فلما أصبح أتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له فقال: تلك السكينة تنزلت للقرآن"[5]، وهذا يدعونا للإقبال على تلاوة القرآن عامة وهذه السورة خاصة، إذ ما أحوجنا اليوم في كل شؤوننا إلى السكينة، فعواقبها محمودة، وتدل على الحكمة وبُعد النظر، وبغيرها يتخذ

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٤٢.

(٢) تراجم أبواب صحيح مسلم ليست من وضعه، وإنما وضعها من جاء بعده كالقرطبي في المفهم والنووي في نسخة الصحيح المنتشرة وغيرهما، رحم الله الجميع.

(٣) قال الحافظ ابن كثير في التفسير ٥/ ١٣٣: وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أُسَيْدُ بن الحُضَيْر، كما تقدم في تفسير البقرة.

(٤) تثنية شَطَن، وهو الحبل، ينظر لسان العرب ١٣/ ٢٣٧ مادة (شطن).

(٥) صحيح البخاري ٤/ ١٩١٤ (٤٧٢٤)، صحيح مسلم ١/ ٥٤٧ (٧٩٥).

الإنسان قرارات غير محمودة، وقد يتعلق الأمر بدينه فتعظم خسارته.

٢.أن قراءتها تنير لصاحبها، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: "إن من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين"(١)، وفي رواية عند البيهقي: "أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق"(٢)، وقال ﷺ: "من قرأ سورة الكهف كما أنزلت، كانت له نوراً يوم القيامة من مقامه إلى مكة"(٣)، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: "من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة، أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق"(٤).

٣.أن قراءتها أو قراءة آيات منها تعصم من فتنة الدجال، فعن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال: "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال"(٥)، وعن النواس بن سمعان ﷺ أن النبي ﷺ قال: "فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف"(٦)، وفي لفظ بزيادة: "فإنها جواركم من فتنته"(٧)، وعن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال: "من قرأ عشر آيات من آخر الكهف عصم من فتنة الدجال"(٨)، وعن

---

(١) المستدرك ٢/ ٣٩٩ (٣٣٩٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٠).

(٢) سنن البيهق الكبرى ٣/ ٢٤٩ (٥٧٩٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧١).

(٣) المستدرك ٥/ ١٣٧ (٢٠٢٧)، وصححه الألباني في الصحيحة ٦/ ٣١٢ (٢٦٥١).

(٤) سنن الدارمي ٢/ ٥٤٦ (٣٤٠٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/ ١٨٠ (٧٣٦).

(٥) صحيح مسلم ١/ ٥٥٥ (٨٠٩).

(٦) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٥٠ (٢٩٣٧).

(٧) سنن أبي داود ٢/ ٥٢٠ (٤٣٢١) وصححه الألباني.

(٨) مسند أحمد بن حنبل ٦/ ٤٤٦ (٢٧٥٥٦)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ موقوفاً قال: "من قرأ سورة الكهف كما أنزلت ثم خرج إلى الدجال لم يُسَلَّط عليه أو لم يكن له عليه سبيل"[١].

٤.ما سبق ذكره من الفضائل ثابت وصحيح، بيد أنه وردت لهذه السورة فضائل أخرى لا تصح، فمن ذلك ما ذكره الألوسي رحمه الله في التفسير، قال: (وجاء في حديث أخرجه ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: "إن من قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بعثه الله تعالى أي الليل شاء"[٢]، وقد جربتُ ذلك مراراً فليُحْفَظ، والله تعالى الموفق)[٣]، وقال وقال القرطبي: (وعن ابن عباس أنه قال له رجل: إني أضمر أن أقوم ساعة من الليل فيغلبني النوم، فقال: إذا أردت أن تقوم أي ساعة شئت من الليل فاقرأ إذا أخذت مضجعك: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ إلى آخر السورة فإن الله تعالى يوقظك متى شئت من الليل)[٤]، فهذا وأمثاله إن ثبت ثبت به الأثر يُصار إليه، وإلا فلا يزعم فضيلة أو خصيصة بغير برهان سوى تجربة من اتفقت له مرة أو مراراً، بل تنظر فيه العادة المطردة وإلَّا فلا تجعل خصيصة.

○ **تنبيه:** تذكر بعض كتب التفاسير وفضائل القرآن وغيرها لبعض الآيات خصائص، وما تمتاز به بعض السور والآيات من الخصائص أمر مسلم وثابت في الشريعة المطهرة، إلا أن ثبوتها لا يكون إلا بأحد أمرين:

▪ فإما أن تثبت بالنص كما في حديث قراءة آية الكرسي، إذ أقر النبي

---

(١) المستدرك ٤/ ٥٥٧ (٨٥٦٢)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح.

(٢) قال الألباني في ضعيف الجامع (٢١٦٠): ضعيف جداً.

(٣)روح المعاني ١٥/ ٢٠٠.

(٤) تفسير القرطبي ١١/ ٧٢.

ﷺ قول من قال إن قارئها لن يزال عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح[1]، فهذا لا إشكال فيه.

▪ وإما أن تثبت بالعادة المطردة الثابتة بنقل الثقات المتعلقة بأمر مشروع، كنحو ما ثبت من تأثير بعض الآيات دون بعض على المصروع والممسوس أو المعان.

ولكن يراعى فيما سبق أمور:

• فلا يصلح أن يردد المرء أسماء جن أو كلمات غير مفهومة بزعم أنها أسماء حراس أو خدام لآية ما أو غير ذلك، وإن ثبت أن بتكرارها يجيئه خادم من الجان يطيعه، فما يدريه ألا يكون في الكلام كفر وألا يكون من يأتيه شيطان! فيلزم ألا يكون في الأمر محظور مقطوع به أو مظنون.

• ولا يصلح أن نقرر حكماً عاماً يتعلق بالآية لمجرد حدث تكرر مرتين أو ثلاثة لشخص أو شخصين، فقد يكون حصل له من قبيل المصادفة، أو لسبب آخر غير ما ظنه سبباً، وقد يكون ذلك الحدث وإن تكرر من باب الكرامة لذلك الشخص دون غيره، ولعل من هذا القبيل ما ذكره الألوسي رحمه الله آنفاً، ونقل مثله القاسم بن سلام رحمه الله إذ قال: (حدثنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، عن عبدة بن أبي لبابة، قال: سمعت زر بن حبيش يقول: "من قرأ آخر سورة الكهف لساعة يريد أن يقومها من الليل قامها". قال: قال عبدة: فجربناه، فوجدناه كذلك. وقال ابن كثير: وقد جربناه أيضا في السرايا غير مرة، فأقوم في الساعة التي أريد. قال: وأبتدئ من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ...﴾ إلى

---

(١) أصله في صحيح البخاري ٢/ ٨١٢ (٢١٨٧).

آخرها)[1]، ولعل منه كذلك ما وقع لبعض المشايخ المعاصرين إذ كان في بلاد غريبة وخاف على نفسه من العدو فقرأ بعض الآيات فأعمى الله أبصارهم عنه، وقد ذكر القرطبي رحمه الله حوادث مماثلة وذكر قصة حصلت له[2]، فمثل هذه الحوادث إن تكررت وثبت أن لها حكم العادة المطردة فيمكن أن تثبت بها فضيلة للآية، أما إن بقيت حوادث فردية فلا، وهذا ما يفهم من كلام القرطبي رحمه الله، إذ قال: (اتفق لي... مثل هذا)، فكأنه يشير إلى أن الأمر رغم تكرره لم يصل حد العادة المطردة فيكون خاصية للآية.

والخلاصة أن قراءة آية ما وتكرارها مشروع، للتداوي أو التوسل، إلا أنه لا يجوز أن يُعتَقَد لها خصوصية تقع لكل من قرأها بتلك النية، إلا إذا ثبت بالنص أو بالتجارب المتكررة المتتابعة، ومن ثم فلا يقال فعلت هذا فلم يحصل الأثر، فإن عدم تحققه في وقت ما لا يقدح في ثبوت الفضيلة، فقد يكون لمانع، كالوقوع في معصية؛ وأما ما ثبت بالعادة المطردة فإننا نرجوه ولا ننزله منزلة ما ثبت بالنص.

- ولا يصلح كذلك أن نحدث في صفة الآية أو عددها ما لم يرد بنص، فالعبادة توقيفية، وإحداث صفة أو التحديد بعدد لم يثبت بالنص بدعة، ولا يصلح أن نجعل لبدعة لم يأت بها الشرع خاصية بزعم أن العادة أفادت تأثيرها. فلا يصح أن نقول من قرأ سورة الفاتحة سبع مرات شفي من لدغة العقرب بدعوى أن هذا ثبت بالتجربة، وما يدرينا أن الشفاء لم يقع بعد المرة الأولى أو السادسة مثلاً! ولكن نقول: الرقية بالفاتحة فيها شفاء دون تقييد بعدد، بل الأمر على إطلاقه، والمطلق يصدق بمرة ولا

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام ١/ ٤٢٧.
(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ٢٣٤.

يختص بها كما يتوهم البعض، فلا يقيد بعدد معين بل قد يكرر الإنسان القراءة أو الذكر حتى يحصل المقصود.

فوائد متعلقة بفضائل السورة

الفائدة الأولى- في الآيات التي تقرأ على الدجال:

سبق أن قراءة هذه السورة تعصم من فتنة الدجال، ولكن قد اختلفت الروايات في عدد ما يقرأ عليه، فورد أنها عشر، أو خمس، أو ثلاث، وورد قراءة الكهف أو بعضها دون تحديد عدد؛ كما اختلفت الروايات في تحديد موضع ما يقرأ، فورد أنه من فواتحها وورد من خواتمها، وقد جاءت روايات بلفظ القراءة، وأخرى بلفظ الحفظ، فمن المهم إذاً أن يعرف المسلم ما ينبغي فعله إذا خرج الدجال في وقته، أعاذنا الله من فتنته.

ولكن قبل البحث في ذلك يحسن بنا أن نبين عظم خطر هذه الفتنة التي يتعوذ منها المؤمن كل صلاة امتثالاً لأمر النبي ﷺ إذ قال: "إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال"[1]. يبي

إن فتنة الدجال هي أعظم فتنة تمر على البشرية منذ خُلِق آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، قال ﷺ: "ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال"[2]، قال النووي رحمه الله في الشرح: (المراد أكبر فتنة وأعظم شوكة)[3]، وقد حذر النبي ﷺ من فتنته، بل إن كل الأنبياء حذروا أقوامهم من فتنته، فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور،

(١) صحيح مسلم ١/ ٤١٢ (٥٨٨).
(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٦٦ (٢٩٤٦).
(٣) شرح النووي على مسلم ١٨/ ٨٧.

ومكتوب بين عينيه ك ف ر"[١]، فإن كان الأنبياء يحذرون أقوامهم في تلك الأزمنة التي يعلم الله أن الدجال لن يخرج فيها ليتقوا فتنته، فكيف بنا ونحن آخر الأمم وهو خارج فينا لا محالة!

ولشدة حرص النبي ﷺ على أمته فقد حذر منه أشد تحذير، وفصَّل ما يكون من شأنه حين يخرج تفصيل المشفق على أمته من هول فتنته، فعن جنادة بن أبي أمية الأزدي قال: "ذهبت أنا ورجل من الأنصار إلى رجل من أصحاب النبي ﷺ فقلنا: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ يذكر في الدجال، ولا تحدثنا عن غيره وان كان مُصَدَّقاً. قال: خطبنا النبي ﷺ فقال: أنذرتكم الدجال ثلاثاً، فإنه لم يكن نبي قبلي إلا قد أنذره أمته، وإنه فيكم أيتها الأمة، وإنه جعد آدم ممسوح العين اليسرى، معه جنة ونار، فناره جنة وجنته نار، ومعه جبل من خبز ونهر من ماء، وإنه يمطر المطر ولا ينبت الشجر، وإنه يسلط على نفس فيقتلها ولا يسلط على غيرها، وإنه يمكث في الأرض أربعين صباحاً يبلغ فيها كل منهل، ولا يقرب أربعة مساجد؛ مسجد الحرام ومسجد المدينة ومسجد الطور ومسجد الأقصى، وما يُشبَّه عليكم؛ فإن ربكم ليس بأعور"[٢]، وعن النواس بن سمعان ﷺ قال: "ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال: ما شأنكم؟ قلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل. فقال: غيرَ الدجال أخوفني عليكم! إن يخرج وأنا فيكم فأنا

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٠٨ (٦٧١٢)، صحيح مسلم ٤/ ٢٢٤٨ (٢٩٣٣).

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٥/ ٤٣٥ (٢٣٧٣٥)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط عينه طافئة كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يميناً وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا! قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يوماً، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم. قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا، اقدروا له قدره. قلنا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرىً، وأسبغه ضروعاً، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفَسه إلا مات، ونفَسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قومٌ قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة"[١].

وبرغم ما في قصة الدجال من فتنة عظيمة، إلا أن النبي ﷺ يقول كما

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٥٠ (٢٩٣٧).

في الحديث السابق: "غير الدجال أخوفني عليكم"، بمعنى أخاف عليكم منه، لكن أخاف عليكم من أمور أخرى أكثر منه، فإنه إن لم يخرج في زمانكم فهناك فتن أخرى يمكن أن تصيبكم وتصيب غيركم ممن يأتي بعدكم ولا يدركه، فحذرهم منها وحذر كل أمته منها؛ كفتنة الدنيا والمال والولد والنساء وفتنة الأئمة المضلين وغير ذلك، ثم بين لهم النبي ﷺ أن فتنته وإفساده سيعمان الأرض "فعاث يميناً وعاث شمالاً"، ثم أوصى ﷺ بوصية جامعة "يا عباد الله فاثبتوا"، وما أحوجنا اليوم إلى الثبات في وجه الفتن وقد كثرت، حتى وقع ما أخبر به من لا ينطق عن الهوى من وقوع التبديل والتغيير، وحيث صرنا نرى الرجل وقد أصبح مؤمناً ثم تميد به الشبهات فيمسي كافراً والعياذ بالله.

فلعظيم فتنة الدجال، ينبغي لكل مسلم أن يعرف الآيات التي تعصم منه بإذن الله، وقد ورد أن العصمة تكون بقراءة الآيات من فواتح الكهف دون تحديد لعددها كما في حديث النواس رضي الله عنه السابق "فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف"، كما ورد أنها الثلاث الأول، فعن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: "من قرأ ثلاث آيات من أول الكهف عصم من فتنة الدجال"(١)، وجاء أنها العشر الأواخر، فعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ

(١) سنن الترمذي ٥/ ١٦٢ (٢٨٨٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقد نقل ابن كثير رحمه الله في التفسير تصحيح الترمذي ولم يتعقبه بشيء، قال الألباني رحمه الله في "السلسلة الضعيفة والموضوعة" (٣/ ٥٠٩): الحديث صحيح بغير هذا اللفظ، وأما هذا فشاذ. وقال: لم يتنبه الحافظ ابن كثير لشذوذ رواية الثلاث، فذكرها من رواية الترمذي وأقره على تصحيحها.

أنه قال: "من قرأ عشر آيات من آخر الكهف عصم من فتنة الدجال"[١]، وفي رواية "من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف"، وفي رواية النسائي: "من قرأ عشر آيات من الكهف عصم من فتنة الدجال"[٢]، كما جاءت أحاديث بلفظ الحفظ دون القراءة،؛فعن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال"[٣]، وعند مسلم وأبي داود: "من آخر الكهف"[٤]، وفي رواية: "من خواتيم سورة الكهف"[٥].

فيتحصل من الروايات السابقة أن العصمة من الدجال تكون بما يلي:

= قراءة فواتح سورة الكهف دون تحديد.

= قراءة الآيات الثلاث الأول.

= قراءة العشر الأواخر.

= قراءة عشر آيات مطلقاً.

= حفظ الآيات العشر الأول.

= حفظ الآيات العشر الأواخر.

وقد ذهب بعض العلماء لبعض ما سبق دون بعض؛ فيفهم من صنيع ابن حبان رحمه الله في صحيحه أن القراءة تكون للعشر الأواخر[٦].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سنن النسائي الكبرى ٥/ ١٥، وإسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين خلا معدان وهو ابن أبي طلحة فمن رجال مسلم.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٥٥٥ (٨٠٩)، سنن أبي داود ٤/ ١١٧ (٤٣٢١) وصححه الألباني.

(٤) صحيح مسلم ١/ ٥٥٦ (٨٠٩)، سنن أبي داود ٤/ ١١٧ (٤٣٢٣)، وصححه الألباني.

(٥) سنن أبي داود ٤/ ١١٧ (٤٣٢٣)، وصححه الألباني.

(٦) صحيح ابن حبان ٣/ ٦٦ (٧٨٦)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

وصرح ابن القيم رحمه الله بأن الراجح هو العشر الأول[1]؛ وبمثل ذلك قال الألباني رحمه الله وحكم بالشذوذ على لفظ "من آخر الكهف" ورأى أن المحفوظ هو "من أول الكهف"، وأن هذا هو ترجيح مسلم رحمه الله[2].

وقد ذهب آخرون إلى القول بأن هذه الخاصية لكل من العشر الأول والأواخر، وهو ما قد يفهم من صنيع النووي رحمه الله[3]، والسيوطي كذلك[4]، وإلى هذا ذهب ابن كثير رحمه الله في تفسيره إذ أورد كثيراً من الأحاديث المتعلقة بالمسألة تحت: (ذكر ما ورد في فضلها، والعشر الآيات من أولها وآخرها، وأنها عصمة من الدجال) فأطلق القول في العشر من أولها وآخرها، وممن ذهب إلى ذلك المباركفوري[5] والعظيم آبادي[6] رحمهما الله.

وعلى فرض كون لفظ الثلاث محفوظاً كما ذهب إليه الترمذي وابن كثير وغيرهما، فقد جُمِع بينه وبين لفظ العشر بوجوه، قال القاري رحمه الله: (قيل وجه الجمع بين الثلاث وبين العشر أن حديث العشر متأخر ومن عمل بالعشر فقد عمل بالثلاث... وقيل حديث العشر في الحفظ وحديث

---

(١) جلاء الأفهام ١/ ٣٢٤.

(٢) السلسلة الصحيحة ٢/ ١٢٢ (٥٨٢)*.

* تنبيه: اختلف قول الألباني رحمه الله في هذه المسألة، حيث كان يرى شذوذ لفظ "من آخر الكهف"، ثم صححه لوجود شاهد يقويه ومن ثم صحح العمل بأيهما، ثم عاد للحكم عليه بالشذوذ لتبينه أن الشاهد من رواية شعبة وهو نفس راوي الحديث المشهود له، وخلاصة قوله في المسألة يظهر في الصحيحة ٦/ ٣١٢ (٢٦٥١).

(٣) شرح النووي على مسلم ٦/ ٩٣.

(٤) شرح السيوطي على مسلم ٢/ ٤٠٣.

(٥) تحفة الأحوذي ٨/ ١٥٨.

(٦) عون المعبود ١١/ ٣٠٤-٣٠٥.

الثلاث في القراءة، فمن حفظ العشر وقرأ الثلاث كفي وعصم من فتنة الدجال، وقيل من حفظ العشر عصم من لقيه ومن قرأ الثلاث عصم من فتنته إن لم يلقه)(١).

وجعل القرطبي(٢) رحمه الله هذه الفضيلة للسورة كلها(٣)، ويشهد لهذا القول رواية النسائي وفيها: "من قرأ عشر آيات من الكهف ..".

والأَولى أن تحفظ السورة كلها، وتقرأ كلها على الدجال إن استطاع؛ فإن تضايق الوقت قرأ العشر من أولها والعشر من آخرها، فإن لم يسعه ذلك فليقرأ العشر الأول إذ لم يقع -كما قال ابن القيم رحمه الله آنفاً- في الرواية بها عن النواس رضي الله عنه اختلاف، كما لم يقع خلاف بين أهل العلم في صحتها.

ويؤيد قراءة السورة كلها ما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "من قرأ سورة الكهف كما أنزلت ثم خرج إلى الدجال لم يسلط عليه أو لم يكن له عليه سبيل"(٤)، فإن كان هذا فهمه رضي الله عنه لما سمعه من النبي ﷺ فهو مقدم على فهم غيره، وإلا فهو مما لا يقال بالرأي، فيكون له حكم الرفع.

الفائدة الثانية- الأسباب الداعية لكون السورة عاصمة من الدجال:

من ذلك ما سبق نقله عن النووي رحمه الله، وتابعه عليه السيوطي، وقد أجمل القرطبي رحمه الله هذه الأسباب في المفهم فقال: (... فقيل لما في قصة أصحاب الكهف من العجائب والآيات، فمَن علمها لم يستغرب أمر

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للقاري ٦/ ٤٨٧.
(٢) الإمام الحافظ أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٥٧٨-٦٥٦هـ)، وهو شيخ الإمام القرطبي صاحب التفسير.
(٣) المفهم ٢/ ٤٣٩.
(٤) سبق تخريجه.

الدجال، ولم يَهُلْه ذلك، فلا يفتتن به. وقيل: لما في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ إلى آخر السورة من المعاني المناسبة لحال الدجال، وهذا على رواية من روى: من آخر الكهف. وقيل لقوله تعالى: ﴿قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ تمسكاً بتخصيص البأس بالشدة واللدنية، وهو مناسب لما يكون من الدجال من دعوى الإلهية واستيلائه وعظيم فتنته، ولذلك عظَّم ﷺ أمره وحذَّر منه وتعوذ من فتنته، فيكون معنى هذا الحديث أن من قرأ هذه الآيات وتدبرها ووقف على معناها حذِره فأمن من ذلك. وقيل ذلك من خصائص هذه السورة كلها ... وعلى هذا تجتمع رواية من روى "من أول سورة الكهف" ورواية من روى: "من آخرها" ويكون ذِكر العشر على جهة الاستدراج في حفظها كلها. وقيل: إنما كان ذلك لقوله: ﴿قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ فإنه يهون بأس الدجال. وقوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ۝٢﴾ فإنه يهون الصبر على فتن الدجال بما يظهر من جنته وناره وتنعيمه وتعذيبه. ثم ذمُّه تعالى لمن اعتقد الولد، يُفهَم منه أن من ادعى الإلهية أولى بالذم، وهو الدجال. ثم قصة أصحاب الكهف فيها عبرة تناسب العصمة من الفتن، وذلك أن الله تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ۝١٠﴾ فهؤلاء قوم ابتلوا فصبروا، وسألوا إصلاح أحوالهم، فأُصلِحت لهم، وهذا تعليم لكل مدعو إلى الشرك، ومن روى: "من آخر الكهف"، فلما في قوله تعالى: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ۝١٠٠﴾ فإن فيه ما يُهَوِّن ما يظهره الدجال من ناره. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ تنبيه على أحوال تابعي الدجال، إذ قد عموا عن ظهور الآيات التي تكذبه،

والله أعلم)[١].

ويقول د. عويض العطوي: (لقد اشتملت هذه السورة على قصص أربع رئيسة، تمثل كل واحدة منها فتنة مؤثرة في الإنسان وهي:

١ - الفتنة في الدين، ويمثل ذلك قصة أصحاب الكهف.

٢ - الفتنة في المال، ويمثل ذلك قصة صاحب الجنتين.

٣- الفتنة في العلم ويمثل ذلك قصة موسى والعبد الصالح عليهما السلام.

٤ - الفتنة في السلطان، ويمثل ذلك قصة ذي القرنين.

والدجال يأتي بفتن كبرى تشبه هذه الفتن، فهو يفتن الناس عن دينهم، ويفتنهم بالمال، والعلم، والسلطان.

فأما فتنة الدين فتظهر من قوله ﷺ: "فيمر بالحي فيدعوهم فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذرى، وأمده خواصر، وأسبغه ضروعاً، ويمر بالحي فيدعوهم فيردوا عليه قوله فتتبعه أموالهم فيصبحون ممحلين ليس لهم من أموالهم شيء، ويمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، قال: ويأمر برجل فيقتل فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل إليه يتهلل وجهه"[٢].

ومما يبين عظم تلك الفتنة، وعظم شأن العلم والبصيرة فيها قوله ﷺ: "يأتي الدجال وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة، فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل، وهو خير الناس أو من

(١) المفهم ٢/ ٤٣٩-٤٤٠.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٤/ ١٨١ (١٧٦٦٦)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

خيار الناس، فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه. فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته هل تشكون في الأمر؟ فيقولون: لا. فيقتله ثم يحييه فيقول: والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم. فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه"[1].

وأما فتنة المال فذلك ظاهر في النص السابق، مما يتعلق بإمطار السماء، وإنبات العشب، وما يتصل بالبهائم والكنوز، ونلحظ من ذلك كيف جمع بين فتنة أهل المدر (القرى والمدن) بالذهب والوَرِق، وأهل الوبر، أهل الشاء والنعم الذين يهمهم أمر المطر والكلأ.

وأما فتنة العلم، فقد ورد أنه يتصور للرجل شيطانان في صورة أبيه وأمه، ويدعوانه إلى الشرك بالله، ويخبر بأمور عظيمة يفتن بها الناس، وذلك من العلم الذي يجهله الناس فيفتنون عند سماعه، كما هو حال الخضر مع موسى عليه السلام، إذ أطلعه على عجائب لا يعرفها، ويظهر كل هذا في قوله ﷺ: "يا عباد الله! أيها الناس! فاثبتوا فإني سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه قبلي نبي ... يقول: أنا ربكم، ولا ترون ربكم حتى تموتوا، وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإنه مكتوب بين عينيه: كافر، يقرؤه كل مؤمن، كاتب أو غير كاتب. وإن من فتنته أن معه جنة ونارا، فناره جنة، وجنته نار، فمن ابتلي بناره فليستغث بالله، وليقرأ فواتح الكهف ... وإن من فتنته أن يقول للأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك، أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بني اتبعه، فإنه ربك، وإن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة فيقتلها،

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٠٨ (٦٧١٣).

ينشرها بالمنشار حتى تلقى شقين، ثم يقول: انظروا إلى عبدي هذا، فإني أبعثه، ثم يزعم أن له رباً غيري، فيبعثه الله، ويقول له الخبيث: من ربك؟ فيقول: ربي الله، وأنت عدو الله، أنت الدجال، والله ما كنت قط أشد بصيرة بك مني اليوم"(١).

وأما فتنة السلطان، فإنه يجوب الأرض كلها كما هو حال ذي القرنين، وقد حدّث عنه النبي ﷺ في ذلك بقوله: "ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال، إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج الله كل كافر ومنافق"(٢).

فنعلم من هذا عظم التناسب بين قصص السورة، وعلاقة ذلك بالعصمة من فتنة الدجال) ا.هـ بتصرف.

الفائدة الثالثة - وقت قراءة السورة:

ذكرنا فيما سبق أن من فضائل هذه السورة أنها تضيء لقارئها، وقد ورد الأثر بهذا الفضل في قراءتها يوم الجمعة، وورد في بعض ألفاظه ليلة الجمعة، وورد مطلقاً من غير تقييد بالجمعة كما مر معنا في الفضائل، وقد ذهب بعض المعاصرين إلى ترجيح الأثر المطلق على المقيِّد بالجمعة من الناحية الحديثية، وهذا المطلق يقتضي أن من قرأها مرة كان له ذلك الفضل، ويحتمل أن يكون قرأها فيه بمعنى حفظها، ولو قرأها المرء كل جمعة خرج من الإشكال، وتحقق المقصود على ما جاء في الآثار المطلقة والمقيدة، لاسيما أن أثر قراءتها يوم الجمعة أو ليلة الجمعة قوي الإسناد،

---

(١) سنن ابن ماجه ٢/ ١٣٥٩ (٤٠٧٧) وفيه فقرات ضعيفة، وما ذكرناه صححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٧٥).

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٦٦٥ (١٧٨٢)، صحيح مسلم ٤/ ٢٢٦٥ (٢٢٦٥).

وله شواهد محتملة في آثار أخرى، ولا خلاف بينه وبين المطلق فيقضي المقيَّدُ على المطلق.

والظاهر كذلك استواء آثار قراءتها ليلة الجمعة أو يومها، فالليل تابع للنهار، والآثار قد جاءت بهذا وهذا، كما نقل المناوي عن الحافظ ابن حجر(١)، وقد نص الشافعي رحمه الله عليه(٢)، والله أعلم.

تاسعاً- أسرار ولطائف:

دأب كثير من أهل العلم على استنباط ما في القرآن من لطائف وأسرار، وهذا بحر لُجِّيٌّ، وباب واسع، يوفق الله له من يريد ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البقرة]، وفيما يلي نذكر شيئاً من لطائف هذه السورة وأسرارها:

أ- **في فواتح السورة:** لفاتحة الكلام أهمية كبيرة وأثر لا يخفى، قال السيوطي رحمه الله: (قال أهل البيان: من البلاغة حسن الابتداء؛ وهو أن يتأنق في أول الكلام لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان محرراً أقبل السامع على الكلام ووعاه، وإلا أعرض عنه ولو كان الباقي في نهاية الحسن... قالوا: وقد أتت جميع فواتح السور على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها؛ كالتحميدات، وحروف الهجاء، والنداء، وغير ذلك)(٣)، وقال ابن عاشور: (الشأن في الخطاب بأمر مهم لم يسبِق للمخاطَب به خطابٌ من نوعه، أنْ يُسْتأنَس له قبل إلقاء المقصود، وأن يهيَّأَ لتلقيه، وأن يشوَّق إلى سماع ذلك،

---

(١) فيض القدير ٦/ ٢٥٨.
(٢) الأم ١/ ٢٣٩.
(٣) الإتقان ٢/ ٢٨٣.

وتُراضَ نفسه على الاهتمام بالعمل به)(١).

وقد افتتحت السورة بالحمد على إنزال الكتاب: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١-٢] ولهذا لطائف، منها:

• **اللطيفة الأولى:** سبق معنا أن الوحي لما تأخر بجواب أسئلة قريش، وجد الكفار فرصة للتشكيك والإرجاف، حتى قالوا: (إن محمداً قد تركه ربه الذي كان يأتيه من الجن، وقال بعضهم: قد عجز عن أكاذيبه، إلى غير ذلك)(٢)، فلما نزلت سورة الكهف بعد انقطاع، بأجوبة أسئلة القوم التي ظنوها معجزة، ناسب أن تفتتح بالحمد لوجهين:

الأول- أن نزولها كان رداً على تخرصات وبياناً لتمام إنعام الله على عبده ﷺ، قال ابن الزملكاني: (لما احتبس الوحي وأرجف الكفار بسبب ذلك، أنزلها الله رداً عليهم، وأنه لم يقطع نعمه عن نبيه ﷺ، بل أتم عليه بإنزال الكتاب، فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة)(٣).

والثاني- أن الكفار كانوا يحبون مَساءة النبي ﷺ وأصحابه، فكأنهم وجدوا في تأخر الجواب بغيتهم، فنزلت السورة قاطعة لآمالهم ومبددة لأحلامهم، ذكره ابن عطية(٤).

• **اللطيفة الثانية:** الحمد يكون لسببين؛ أولهما صفات المحمود الذاتية، وثانيهما أفعاله التي يستحق الحمد عليها(٥)، وقد اشتملت فاتحة الكهف على مُوجِبَي الحمد، فـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، حمد لذاته العلية المتصفة

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٤.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٢٨٥.

(٣) نقله عنه الزركشي في البرهان في علوم القرآن ١/ ٣٩.

(٤) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٢٨٥.

(٥) شرح التلويح على التوضيح ١/ ٨.

بالصفات الكاملة الزكية، إذ المعنى: الحمد لله المستحق لجميع المحامد لا لشيء غير ذاته، الحائز لجميع الكمالات[١]، وأما موجب الحمد الثاني وهو جميل النعم، فقد خص بالذكر هنا نعمة الدين، وهي إنزال الكتاب المستقيم الذي لا اعوجاج فيه على خاتم رسله الموصوف بالعبودية تشريفاً وتعظيماً، وهذه النعمة من أعظم نعم الله ﷻ على العباد، يقول البقاعي رحمه الله: (فإن نظام العالم وبقاء النوع الإنساني يكون بالنبي والكتاب)[٢].

● **اللطيفة الثالثة:** سورة الكهف واحدة من خمس سور افتتحت بالحمد، وهي على ترتيب المصحف: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر؛ وقد اشتمل الحمد في فواتح السور الخمس على حمد الله جل وعلا لذاته العلية المتصفة بصفات الكمال الذي لا يعتريه نقص بحال، وحمده على ما أفاض به من نعمائه على خلقه.

أما حمده سبحانه لذاته المتصفة بصفات الكمال ففي قوله عز من قائل في كل منها: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، قال السيوطي رحمه الله: (في تفسير الخويي ابتدئت الفاتحة بقوله الحمد لله رب العالمين، فوصف بأنه مالك جميع المخلوقين، وفي الأنعام والكهف وسبأ وفاطر لم يوصف بذلك بل بفرد من أفراد صفاته؛ وهو خلق السموات والأرض والظلمات والنور في الأنعام، وإنزال الكتاب في الكهف، وملك ما في السموات وما في الأرض في سبأ، وخلقهما في فاطر)[٣].

وأما الحمد على النعم فقد قال الرازي رحمه الله: (نِعَمُ الله مع كثرتها

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ١/ ١.
(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١١٨.
(٣) الإتقان ٢/ ٣٠٢.

وعدم قدرتنا على إحصائها منحصرة في قسمين: نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، فإن الله تعالى خلقنا أولاً برحمته، وخلق لنا ما نقوم به، وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالإعادة؛ فإنه يخلقنا مرة أخرى، ويخلق لنا ما يدوم، فلنا حالتان الابتداء والإعادة، وفي كل حالة له تعالى علينا نعمتان؛ نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء)(١)، وقد اشتملت الفاتحة على حمده تعالى على الأحوال الأربع المذكورة في كلام الرازي، والتي يسميها البقاعي الإيجاد والإبقاء الأول، والإيجاد والإبقاء الثاني، فيقول رحمه الله: (أما الإيجاد الأول فبقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فإن الإخراج من العدم إلى الوجود أعظم تربية(٢)، وأما الإبقاء الأول فبقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي المنعم بجلائل النعم ودقائقها التي بها البقاء، وأما الإيجاد الثاني فبقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وهو ظاهر، وأما الإبقاء الثاني فبقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ إلى آخرها، فإن منافع ذلك تعود إلى الآخرة)(٣).

ثم جاء الحمد على النعم في السور الأربع الأخرى، على واحد من أنواع النعم التي جمعت في الفاتحة، يقول التفتازاني: (أشير في الفاتحة إلى الجميع، وفي الأنعام إلى الإيجاد وفي الكهف إلى الإبقاء أولاً، وفي سبأ إلى الإيجاد وفي الملائكة(٤) إلى الإبقاء ثانياً)(٥)، ونجد تفصيل ذلك عند الرازي إذ يقول: (﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[الأنعام: ١]

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٢/ ٣٩٢.
(٢) يقول البيضاوي رحمه الله في تفسيره ١/ ٤: الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية: وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً... وقيل: هو نعت من رَبَّه يربه... ثم سمي به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه.
(٣) نظم الدرر للبقاعي ١/ ٥.
(٤) أي سورة فاطر.
(٥) شرح التلويح على التوضيح ١: ص ٨.

إشارة إلى الشكر على نعمة الإيجاد ويدل عليه قوله تعالى... ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ [الأنعام: ٢] إشارة إلى الإيجاد الأول وقال في السورة الثانية وهي الكهف ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا ﴾ [الكهف: ١، ٢] إشارة إلى الشكر على نعمة الإبقاء، فإن الشرائع بها البقاء، ولولا شرع ينقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه، ولوقعت المنازعات في المشتبهات وأدى إلى التقاتل والتفاني، ثم قال في هذه السورة(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾، وقال في الملائكة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ [فاطر: ١] والملائكة بأجمعهم لا يكونون رسلاً إلا يوم القيامة يرسلهم الله مُسَلِّمين كما قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وقال تعالى عنهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧٣])(٢).

• **اللطيفة الرابعة:** تعلق الحمد بقراءة فواتح السورة على الدجال والعصمة منه، فالله محمود على صفاته، والدجال معيب في صفته؛ أعور العين اليمنى كأنها عنبة طافية، بل جاءت أخبار قال بموجبها بعض أهل العلم تفيد أن كلتا عينيه معيب(٣)، والله تعالى منزه عن ذلك؛ بل أجمع أهل السنة على أن له عينين تليقان به ﷻ، ولهذا الكمال استحق الحمد ابتداءً، ثم استحق الحمد على ما أسبغه من فيض الإنعام.

أما الدجال فلا يحمد على شيء البتة، فهو في ذاته وصفاته ناقص

(١) سورة سبأ.
(٢) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٢/ ٣٩٢.
(٣) انظر بسط ذلك في فتح الباري لابن حجر ١٣/ ٩٧-٩٨.

معيب قبيح الصورة، وأما يجري على يديه فليس راجعاً إلى ذاته وإلا فأين هو الآن؟ لكنها فتنة من الله ﷻ لمن أعرض عن الحق المبين. كما أن النقص ملازم للدجال في عطائه وإنعامه، فهو يعطي من يتبعه ويمنع من كفر به، والله ﷻ يعطي الدنيا عبيده كلهم مؤمنهم وكافرهم ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء]؛ وعطاء الدجال عطاء كاذب بل هو عكس للحقيقة، فجنته نار وناره جنة، وعطاء الله حق كله، وعطاء الله لا ينفد والدجال عطاؤه مؤقت.

فلهذا كله كان في افتتاح السورة بالحمد وجعل فواتحها عصمة من الدجال، مناسبة عظيمة، فمن تأمل ذلك ثبت الله قلبه وأراه الحق حقاً، وعصمه من الانخداع ببهرجه ودجله وزيف دعواه.

ب- في موضع السورة من المصحف: قال ابن عاشور رحمه الله: (كرامة قرآنية: لوضع هذه السورة على هذا الترتيب ... قرابة نصف المصحف، وهي مفتتحة بالحمد حتى يكون افتتاح النصف الثاني من القرآن بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كما كان افتتاح النصف الأول بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾)[1]، وقال رحمه الله أيضاً: (سور خمس مفتتحة بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهنّ كلها مكية وقد وضعت في ترتيب القرآن في أوله ووسطه، والربع الأخير، فكانت أرباع القرآن مفتتحة بالحمد لله؛ كان ذلك بتوفيق من الله أو توقيف)[2].

ج- في المناسبات: والمراد بها بيان مناسبات ترتيب السور، وحكمة وضع كل سورة منها في موضعها من المصحف.

وقد تلمس بعض العلماء لطائف وأسرار ترتيب السور في المصحف

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٤٥.
(٢) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٣٥، من تفسير سورة سبأ.

واعتنوا بها، كما أشار السيوطي[١]، فمنها:

- **اللطيفة الأولى- مناسبتها لما قبلها:**

قال السيوطي: (قال بعضهم[٢]: مناسبة وضعها بعد سورة الإسراء: افتتاح تلك بالتسبيح وهذه بالتحميد، وهما مقترنان في القرآن وسائر الكلام بحيث يسبق التسبيح التحميد، نحو: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ وسبحان الله وبحمده. قلتُ: مع اختتام ما قبلها بالتحميد أيضاً، وذلك من وجوه المناسبة بتشابه الأطراف. ثم ظهر لي وجه آخر أحسن في الاتصال وذلك: أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا النبي ﷺ عن ثلاثة أشياء: عن الروح، وعن قصة أصحاب الكهف، وعن قصة ذي القرنين، وقد ذكر جواب السؤال الأول في آخر سورة بني إسرائيل[٣]، فناسب اتصالها بالسورة التي اشتملت على جواب السؤالين الآخرين. فإن قلتَ: هلا جمعت الثلاثة في سورة واحدة؟ قلتُ: لـمَّا لم يقع الجواب عن الأول بالبيان[٤]، ناسب فصله في سورة. ثم ظهر لي وجه آخر: وهو أنه لما قال فيها: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ والخطاب لليهود، واستظهر على ذلك بقصة موسى في بني

---

(١) الإتقان ٢/ ٢٨٨.

(٢) ذكر الرازي (ت٦٠٦) هذه النكتة في تفسيره، وقال السيوطي في الإتقان ١/ ٣٦٤: "في تذكرة الشيخ تاج الدين السبكي ومن خطه نقلت: سئل الإمام ما الحكمة في افتتاح سورة الإسراء بالتسبيح والكهف بالتحميد؟ وأجاب بأن التسبيح حيث جاء يقدم على التحميد نحو فسبح بحمد ربك، سبحان الله والحمد لله"اهـ، وعنى بالإمام -والله أعلم- والده تقي الدين السبكي (ت٧٥٦).

(٣) وهو من أسماء سورة الإسراء.

(٤) لأن الجواب كان بتفويض العلم لله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء:٨٥].

إسرائيل مع الخضر، التي كان سببها ذكر العلم والأعلم، وما دلت عليه من إحاطة معلومات الله ﷻ التي لا تحصى، فكانت هذه السورة كإقامة الدليل لما ذكر من الحكم، وقد ورد في الحديث أنه لما نزل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ قال اليهود: قد أُوتينا التوراة، فيها علم كل شيء، فنزل: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾، فهذا وجه آخر في المناسبة وتكون السورة من هذه الجهة جواباً عن شبهة الخصوم فيما قُدِّر بتلك. وأيضاً فلما قال هناك: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ١٠٤﴾ شرح ذلك هنا وبسطه، بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ إلى ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ٩٩ وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠﴾ فهذه وجوه عديدة في الاتصال)[1].

- **اللطيفة الثانية - مناسبتها لما بعدها:**

قال السيوطي عن سورة مريم: (ظهر لي في وجه مناسبتها لما قبلها أن سورة الكهف اشتملت على عدة أعاجيب: قصة أصحاب الكهف... وقصة موسى مع الخضر ... وقصة ذي القرنين. وهذه السورة فيها أعجوبتان قصة ولادة يحيى بن زكريا، وقصة ولادة عيسى، فناسب تتاليهما، وأيضاً فقد قيل: إن أصحاب الكهف يبعثون قبل قيام الساعة، ويحجون مع عيسى ابن مريم حين ينزل، ففي ذكر سورة مريم بعد سورة أصحاب الكهف ... ما لا يخفى من المناسبة، وقد قيل أيضاً: إنهم من قوم عيسى، وإن قصتهم كانت في الفترة، فناسب توالي قصتهم وقصة نبيهم)[2].

---

(١) أسرار ترتيب القرآن ص١٢-١٣.

(٢) أسرار ترتيب القرآن ص١٣.

• **اللطيفة الثالثة- مناسبة فاتحتها لخاتمة ما قبلها:**

قال البقاعي: (لما ختمت تلك بأمر الرسول ﷺ بالحمد عن التنزه عن صفات النقص لكونه أعلم الخلق بذلك، بدئت هذه بالإخبار باستحقاقه سبحانه الحمد على صفات الكمال التي منها البراءة عن كل نقص، منبهاً بذلك على وجوب حمده بما شرع من الدين ... فقال ملقناً لعباده حمده، معلماً لهم كيف يثنون عليه، مفقهاً لهم في اختلاف العبارات باختلاف المقامات: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ أي الإحاطة بصفات الكمال ﴿لِلَّهِ﴾ أي المستحق لذلك لذاته)[1].

• **اللطيفة الرابعة- مناسبة خاتمتها لفاتحتها:** وتظهر من وجوه:

١- لما افتتحت السورة بالتوحيد بحمد الله على كمال ذاته وصفاته وأفعاله كما تقدم، ناسب أن تختم بالتوحيد وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠]، وقد اشتملت فاتحة السورة وخاتمتها على أنواع التوحيد الثلاثة، قال ابن القيم رحمه الله: (التوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد، ونوع في الإرادة والقصد ... وهذا الثاني أيضاً نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الإلهية، فهذه ثلاثة أنواع)، إلى أن قال: (فأما توحيد العلم فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال، والتنزيه عن العيوب والنقائص، وقد دل على هذا شيئان: مجمل ومفصل؛ أما المجمل فإثبات الحمد له سبحانه)[2]، وهذا الحمد هو ما افتتحت به السورة وهو النوع الأول من التوحيد، أما النوعان الآخران

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١١٨.
(٢) مدارج السالكين ١/ ٤٨.

فقد وردا في آخر السورة، فتوحيد الربوبية يستفاد من قوله تعالى: ﴿لِكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾، ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾، وأما توحيد الألوهية ففي صريح قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾.

٢- وكذلك لما افتتحت بالثناء على الله ببيان كمال إنعامه على نبيه ﷺ بإنزال الكتاب القيم الذي لا عوج له والذي هو كلام الله وصفة من صفاته، ناسب أن تختتم بالثناء عليه سبحانه ببيان عظم هذه الصفة: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف].

٣- قال ابن عاشور رحمه الله في تفسير ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾﴾: (لما ابتدئت السورة بالتنويه بشأن القرآن ثم أفيض فيها من أفانين الإرشاد والإنذار والوعد والوعيد، وذكر فيها من أحسن القصص ما فيه عبرة، وما هو خفي من أحوال الأمم، حُوِّل الكلام إلى الإيذان بأن كل ذلك قليل من عظيم علم الله تعالى ... لأن المشركين لما سألوه عن أشياء يظنونها مفحمة للرسول وأن لا قبل له بعلمها علمه الله إياها، وأخبر عنها أصدق خبر ... أتبع ذلك بما يعلم منه سعة علم الله وسعة ما يجري على وفق علمه من الوحي إذا أراد إبلاغ أحد من رسله. وفي هذا رد عجز السورة على صدرها)[1].

د- **في خواتم السورة:** قال السيوطي رحمه الله: (هي أيضاً مثل الفواتح في الحسن لأنها آخر ما يقرع الأسماع، فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام، حتى يبقى معه للنفوس تشوق إلى ما يذكر بعد، لأنها بين أدعية، ووصايا، وفرائض، وتحميد، وتهليل،

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٤٤١.

ومواعظ، ووعد ووعيد، إلى غير ذلك)[1].

وقد بسط سبحانه في هذه السورة جواب سؤالين من أسئلة قريش الثلاثة[2] وأنهى ذلك بقصة ذي القرنين، ولما كان من المفترض أن يؤمنوا في الحال إذ جاءهم بجواب ما سألوه عنه، فقد أتبع الله قصة ذي القرنين ببيان ما أعده للكافرين المكذبين، إنذاراً لمن أعرض عن الحق المبين الذي جاءهم في السورة فقال: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف: ٩٩-١٠٦]، ثم بشر من آمن فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف]، والتعقيب بهذا البيان غاية في الإبداع، إذ جواب أسئلة المشركين ليس مقصوداً لذاته، لكن المراد أن يتحققوا من سعة علم الله وصدق رسوله ﷺ ليؤمنوا به ويتبعوه، فإن هم فعلوا فلهم البشرى، وإن لم يفعلوا بان كذبهم وعنادهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً فحق عليهم العذاب.

ولما اشتملت هذه السورة على جواب أسئلة المتعنتين، وكان هذا الجواب بكلام الله ﷻ، جاءت الخاتمة وثيقة الصلة بذلك: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]، إيذاناً بأن علم الله ﷻ لا نهاية له، وأنهم مهما تعنتوا في إيراد الأسئلة فلن يعجزوا الله أن يأتيهم بجوابها، وإعلاماً لهم بأن النبي ﷺ

---

(١) الإتقان ٢/ ٢٨٦.

(٢) أما جواب الثالث فجاء في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

ليس له من الأمر شيء، وأنه لا يجيبهم من تلقاء نفسه لأنه لا يعلم الغيب، وفي هذا الختام من الجمال والجلال ما لا يخفى.

عاشراً- أغراض السورة: لهذه السورة أغراض كثيرة جداً، وقد سرد ابن عاشور رحمه الله ما ظهر له منها حسب ترتيب ورودها فيها بقوله: (افتتحت بالتحميد على إنزال الكتاب للتنويه بالقرآن، تطاولاً من الله تعالى على المشركين وملقنيهم من أهل الكتاب.

وأدمج فيه إنذار المعاندين الذين نسبوا لله ولداً، وبشارة للمؤمنين، وتسلية رسول الله ﷺ عن أقوالهم حين تريث الوحي، لِما اقتضته سنة الله مع أوليائه من إظهار عتبه على الغفلة عن مراعاة الآداب الكاملة.

وذكر افتتان المشركين بالحياة الدنيا وزينتها وأنها لا تكسب النفوس تزكية.

وانتقل إلى خبر أصحاب الكهف المسؤول عنه.

وحذرهم من الشيطان وعداوته لبني آدم ليكونوا على حذر من كيده.

وقدم لقصة ذي القرنين قصة أهم منها وهي قصة موسى والخضر عليهما السلام لأن كلتا القصتين تشابهتا في السفر لغرض شريف، فذو القرنين خرج لبسط سلطانه على الأرض، وموسى عليه السلام خرج في طلب العلم، وفي ذكر قصة موسى تعريض بأحبار بني إسرائيل، إذ تهمموا بخبر ملك من غير قومهم ولا من أهل دينهم، ونسوا خبراً من سيرة نبيهم.

وتخلل ذلك مستطردات من إرشاد النبي ﷺ وتثبيته، وأن الحق فيما أخبر به، وأن أصحابه الملازمين له خير من صناديد المشركين، ومن الوعد والوعيد، وتمثيل المؤمن والكافر، وتمثيل الحياة الدنيا وانقضائها وما يعقبها من البعث والحشر، والتذكير بعواقب الأمم المكذبة للرسل، وما ختمت به من إبطال الشرك ووعيد أهله؛ ووعد المؤمنين بضدهم، والتمثيل لسعة علم الله تعالى.

وختمت بتقرير أن القرآن وحي من الله تعالى إلى رسوله ﷺ فكان في هذا الختام محسّن رد العجز على الصدر)[1].

ويمكن أن نقول إن لهذه السورة نوعين من الأغراض؛ نوع يتعلق بمقاصد السورة ومحاورها الرئيسة، والنوع الثاني جاء في أثناء السورة كتنبيهات أو إشارات عابرة، وبيان ذلك كما يلي:

١- مقاصد السورة ومحاورها الرئيسة:

يقرر صاحب الظلال أن المحور الموضوعي للسورة هو تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج النظر والفكر، وتصحيح القيم بميزان العقيدة، وقد أطال في بيان ذلك، وهو كما قال فقضية التوحيد بأنواعه والإيمان بشكل عام ولا سيما باليوم الآخر حاضرة جداً في هذه السورة.

يقول رحمه الله: (فأما تصحيح العقيدة فيقرره بدؤها وختامها.

في البدء: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

وفي الختام: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ وهكذا يتساوق البدء والختام في إعلان الوحدانية وإنكار الشرك ... ويلمس سياق السورة هذا الموضوع مرات كثيرة في صور شتى)[2].

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٢٥١٣.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٥٠.

ومن أبرز قضايا الاعتقاد في السورة إثبات اليوم الآخر، وما فيه من النعيم للمؤمنين والعذاب للكافرين، وأدلة البعث، كما في معجزة أصحاب الكهف، ولذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾، ونجده في قصة صاحب الجنتين، والتعقيب على من ظن خلود الدنيا، ونجده في التعقيب على قصة ذي القرنين وختامها، ونجده في التعقيب على قصة آدم عليه السلام وفيما بين ذلك.

وأما قضية تصحيح منهج الفكر والنظر، فقضية بالغة الأهمية، على مستوى الفرد أو المجتمع أو الأمة، وأمتنا في هذا الزمان في أمس الحاجة إلى هذا التصحيح، والمقصود به أن يتحرر العقل والفكر من قوالب التقليد الأعمى والتعصب؛ أما التعصب؛ سواء كان لعالم أو لجماعة أو لحزب أو لقبيلة أو لبلد، فهو من دعاوى الجاهلية المقيتة، التي قال عنها النبي ﷺ: "ما بال دعوى الجاهلية؟!... دعوها فإنها منتنة"(١).

وأما التقليد، وهو أخذ القول دون حجة، فمن خلال الواقع والخبرة والتجربة لا يشك الإنسان أنه أخر الأمة وعاق حركتها، فالتقليد يسوغ للعامي، بل هذا هو الواجب عليه كما قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل]، وبرغم ذلك فواجب عليه أن يجتهد، ويتحرى فيمن يستفتيه العلم والديانة؛ وأما العالم المتمكن من أداوت الاجتهاد فلا يجوز له التقليد بل يحرم عليه، وعلى القول الراجح بأن الاجتهاد يتجزأ فليس لمن له القدرة على الاجتهاد في مسألة أن يقلد فيها، ويلحق بالعالم في عدم التقليد طالب العلم الذي يتمكن من النظر في أدلة أهل العلم وحججهم والموازنة بينها، وهذه مرتبة الاتباع وسطا بين الاجتهاد والتقليد.

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٨٦١ (٤٦٢٢)، صحيح مسلم ٤/ ١٩٩٨ (٢٥٨٤)

ونحن عندما ندعو لتحرير العقل من التقليد والتعصب، ندعو لتحرر منضبط بضوابط الشرع وقواعده وأصوله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب]، وكما قيل: إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل؛ فما ضر الفلاسفةَ والمتكلمين من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم، إلا أنهم حكموا عقولهم وانفلتوا من ضوابط الشرع، ما بين غال في ذلك ومتوسط، ولكن يجمعهم جميعاً هذا الخلل المنهجي.

وقد خلفهم اليوم من يسمون بالعقلانيين والتنويريين وأمثالهم، وهذا من تسمية الأشياء المستقبحة بأسماء لامعة محببة للنفوس فينخدع بها من حرم ثاقب النظر؛ فهؤلاء قد انفلتوا من النصوص وأطلقوا لعقولهم القاصرة العنان وجعلوها حاكمة على شرع الله! تجد أحدهم لا يعقل حديث الذبابة أو لا يعقل حديث لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة، فيبادر إلى رده وإبطاله بحجة أنه مما لا يعقل، ولا يمنعه من ذلك أن يكون الحديث صحيحاً بله في الصحيحين، ولا يعنيه أن تكون الأمة قد اتفقت على التسليم لهذا الحديث، فكل هذا لا قيمة له عنده.

وشر من ذلك أن يعمد أحدهم لما هو معلوم من الدين بالضرورة ككون ميراث المرأة على النصف من نصيب الرجل، فيرد ذلك بحجة أن العقل لا يعقله في زمان استقلت فيه المرأة بشخصيتها، وصارت تزاحم الرجل في ميادين العمل كلها، فيزيد بذلك ضغثاً على إبالة!

فالعقل مهم، وتحرير الفكر من القيود التي تعوق حركته مطلوب، وقد أحسن من قال: تحرير العقول أولى من تحرير الرقاب! لكن التوسط

واجب، فلا انفلات من ضوابط الشرع، ولا تقليد أو تعصب، وعند التدقيق والتحقيق فإن العقل الصريح الخالص لا يمكن بحال أن يخالف النقل الصحيح، فكلاهما من لدن حكيم خبير أتقن كل شيء، وقد ألف شيخ الإسلام رحمه الله سفراً حافلاً في عدة مجلدات بين فيه هذه الحقيقة الجلية، وهو الكتاب الموسوم بدرء تعارض العقل والنقل.

فهذه السورة تصحح منهج الفكر بالنظر في حواراتها؛ حوار أهل الكهف مع قومهم من أهل الشرك، وحوارهم فيما بينهم، وحوار صاحب الجنتين مع صاحبه، وحوار موسى عليه السلام والخضر، وحوار ذي القرنين مع القوم بين السدين، إلى غير ذلك مما نعرض له في حينه.

ومن هذه المقاصد الرئيسة أيضاً موضوع الفتن، إذ تناولت السورة كما أشرنا ما يتعلق بالفتنة في الدين، والمال، والعلم، والسلطان، وفي أثناء الكلام عنها دروس عظيمة، ومنهج للنجاة منها كما سيأتي إن شاء الله.

٢- **الإشارات والتنبيهات:** وفيما عدا ما سبق تأتي باقي أغراض السورة كإشارات وتنبيهات عابرة، كما ذكر ابن عاشور رحمه الله، ومنها:

= ضبط اللسان والارتقاء إلى ذرى سلوكية عالية في الخطاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [٢٣-٢٤]، وقول الخضر عن السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [٧٩]، وقوله عن والدي الغلام: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ [٨١]، وقوله عن الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ [٨٢]، مع أنه فعل كل ذلك بأمر الله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [٨٢]، وسيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله.

= إرشاد أهل الفضل ممن هم في موضع القدوة للناس كالعلماء والدعاة وطلاب العلم إلى ضرورة التعفف عن المال وعما في أيدي الناس،

كما قال ذو القرنين: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [٩٥].

= بيان أهمية الرفقة الصالحة، كما في قصة أهل الكهف، وقصة الرجلين، وقصة موسى والخضر.

إلى غير ذلك من الإشارات كما سيأتي في أثناء السورة.

حادي عشر - أسلوب السورة:

قال في الظلال: (القصص هو العنصر الغالب في هذه السورة. ففي أولها تجيء قصة أصحاب الكهف، وبعدها قصة الجنتين، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس. وفي وسطها تجيء قصة موسى مع العبد الصالح. وفي نهايتها قصة ذي القرنين، ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة ...)[١].

وفي القرآن كثير من القصص توزعت على سوره، وهناك سورة كاملة اسمها القصص، كما أن سورة يوسف عليه السلام كلها تقريباً ليست سوى قصة هذا النبي الكريم مع أبيه وإخوته وأهل مصر، وقد قال بعض العلماء إن القرآن يشتمل على قصص وشرائع وصفات[٢]، فبهذا الاعتبار تمثل القصص ثلث القرآن، مما يدل على عناية كبيرة بهذا الأسلوب في الخطاب.

إن الغرض من قصص القرآن ليس سرداً مجرداً للأحداث، بل الحكم والفوائد والمواعظ التي سيقت من أجلها، وقد أخرج أهل العلم من هذه الفوائد لنا كنوزاً غالية، قال ابن القيم رحمه الله عن قصة يوسف عليه السلام: (وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة)[٣]، وذكر الشيخ ابن سعدي رحمه الله في قصة الخضر أكثر من ثلاثين فائدة، وفي هذا

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٥٠.
(٢) انظر البرهان للزركشي ١/ ٤٤٥.
(٣) الجواب الكافي ١/ ١٤٩.

أهمية أسلوب القصص في الكلام والتوجيه والإرشاد، وقد كان القرآن يتنزل على رسول الله ﷺ بقصص الأمم السابقة وحالهم مع إخوانه الأنبياء، تثبيتاً لقلبه، وتسلية له عما يصيبهم من غم تكذيب قومه له، فتزكي القصص نفوس أصحابه، وتثبتهم، وتبشرهم، وتبين لهم مآل الأمم المكذبة، شحذا لهممهم وتقوية لعزائمهم وإنارة لبصائرهم.

إن الواقع يشهد أن للقصص أثراً كبيراً في التربية، وشعوب العالم تستخدم القصة كعامل رئيس في التربية، وكذلك اهتم القرآن بالقصص، فلا بد من اعتناء المربين بهذا، وبدلا من القصص الخيالية للحيوانات أو الحشرات، نلتفت لقصص القرآن والسنة، ونعرضها بأسلوب مبسط تتخلله الآيات والأحاديث المتعلقة بالقصة، والتجربة تشهد أن هذا الأسلوب محبب للأطفال.

التفسير

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف].

مسائل تتعلق بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

ابتدأ سبحانه هذه السورة بحمد نفسه على إنزال الكتاب على عبده محمد ﷺ، وقد مر معنا آنفاً ما في استهلال السورة بالحمد من مناسبة للسورة السابقة وخاتمتها، وما فيه كذلك من مناسبة للحال المروية في سبب النزول، وما فيه من مناسبة لعصمة قارئ فواتحها على الدجال من فتنته، وفيما يلي نتناول الحمد بشيء من البسط والتفصيل.

أولاً- معنى الحمد:

قال ابن القيم رحمه الله: (الحمد: إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه)[1]، وقال ابن عثيمين رحمه الله: (الحمد: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، فيقال: حمد فلان ربه، أي: وصفه بصفات الكمال مع محبته وتعظيمه)[2]، وإنما قيد بالمحبة والتعظيم لأن الإنسان قد يصف غيره بما فيه من صفات الكمال، طمعاً فيما بين يديه أو خشية فوات إحسانه، دون أن يقوم في القلب حب أو إرادة، وليس حمد الله من هذا.

وقد قيل غير ذلك، ومن أشهر الأقوال أن الحمد هو: الثناء بالجميل

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٣٢٥.

(٢) الشرح الممتع صفة الصلاة ٣/ ٧٤.

على الجميل، وهذا غير مسلم عند بعض العلماء، قالوا: لأن الثناء ليس حمداً مجرداً بل هو تكرار الحمد، قال ابن القيم ﷺ: (الثناء مأخوذ من الثني، وهو العطف وردّ الشيء بعضه على بعض، ومنه ثنيت الثوب، ومنه التثنية في الاسم، فالمُثْني مكرر لمحاسن من يثني عليه مرة بعد مرة)[1]، ﷺ: (ثم تأمل تنزيل قوله تعالى، فيما رواه عنه رسول الله، حين يقول العبد: الحمد لله رب العالمين، فيقول الله: حمدني عبدي، فإذا قال: الرحمن الرحيم، قال: أثنى علي عبدي، لأنه كرر حمده)[2]، وبمثله استدل ابن عثيمين ﷺ في رده تعريف الحمد بالثناء[3].

وقيده بعض العلماء بقوله: هو الثناء على الجميل الاختياري، ليخرج الصفات اللازمة، لأنها مختصة عنده بالمدح، وهذا ليس بالجيد، فالصحيح أن الحمد يشمل الجميل الاختياري وغيره، فأصله اللغوي كما ذكر ابن فارس يدل على خلاف الذم[4]، وهذا عام في الصفات الذاتية والاختيارية، ولهذا ذكر الأعشى حمد النعمان مقروناً بصفاته الاختيارية وغيرها:

إليك أبيتَ اللَّعنَ كان كَلاَلُهَا إلى الماجد الفَرْعِ الجَوادِ المُحَمَّدِ

والمحمد الذي كثرت صفاته المحمودة.

وإلى ذلك أشار ابن عثيمين ﷺ[5].

ثانياً- الفرق بين الحمد وكل من المدح والثناء والشكر:

١- الفرق بين الحمد والمدح: قال ابن القيم ﷺ: (الصواب

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٣٢٧.

(٢) السابق.

(٣) الشرح الممتع صفة الصلاة ٣/ ٧٤.

(٤) معجم مقاييس اللغة {حمد} ص٢٦٢.

(٥) الشرح الممتع صفة الصلاة ٣/ ٧٤.

في الفرق بين الحمد والمدح أن يقال: الإخبار عن محاسن الغير؛ إما أن يكون إخباراً مجرداً من حب وإرادة، أو مقروناً بحبه وإرادته، فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني فهو الحمد.

فالحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه، ولهذا كان خبراً يتضمن الإنشاء، بخلاف المدح فإنه خبر مجرد، فالقائل إذا قال: الحمد لله، أو قال: ربنا لك الحمد، تضمن كلامه الخبر عن كل ما يحمد عليه تعالى باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد الحمد المحققة والمقدرة، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى، ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا ينبغي إلا لمن هذا شأنه، وهو الحميد المجيد... وتأمل الإنشاء الثابت في قولك: ربنا لك الحمد، وقولك: الحمد لله، كيف تجده تحت هذه الألفاظ، ولذلك لا يقال موضعَها: المدح لله تعالى، ولا ربنا لك المدح)[1].

٢- الفرق بين الحمد والثناء: قال ﷺ: (من حيث اعتبار الخبر نفسه ينشأ التقسيم إلى الثناء والحمد، فإن الخبر عن المحاسن إما متكرر أو لا، فإن تكرر فهو الثناء، وإن لم يتكرر فهو الحمد ... فالمُثْنِي مكرر لمحاسن من يثني عليه مرة بعد مرة)[2].

٣- الفرق بين الحمد والشكر: ذكر ابن كثير ﷺ أن بينهما عمومًا وخصوصًا ثم قال: (فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حَمدته لفروسيته،

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٣٢٥.

(٢) بدائع الفوائد ٢/ ٣٢٧.

وحمدته لكرمه. وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول. والشكر أعم من حيث ما يقعان به، لأنه يكون بالقول والعمل والنية، كما تقدم، وهو أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية، لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه إليّ. هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين، والله أعلم)(١).

ثالثاً- فائدة تعريف الحمد باللام:

قال ابن كثير رحمه الله: (والألف واللام في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾، لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى، كما جاء في الحديث: "اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله"(٢) الحديث)(٣)، وهذا بخلاف (حمداً لله الذي أنزل الكتاب) مثلاً، فقد يفهم أنه على نعمة إنزال الكتاب خاصة، أو على صفة إنزال الكتاب دون غيرها.

رابعاً- المراد باللام في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾: اللام هنا للاستحقاق والاختصاص، قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله: (فالمستحق للحمد المطلق هو الله، والمختص به هو الله؛ ولهذا كان النبي ﷺ إذا أصابته السراء قال: "الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات"(٤)، وإن أصابته الضراء قال: "الحمد لله على كل حال"(٥)، أما غير الله فيحمد على أشياء خاصة)(٦).

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٢٨.
(٢) مسند أحمد بن حنبل ٥/ ٣٩٥ (٢٣٤٠٣)، وضعفه الأرناؤوط.
(٣) تفسير ابن كثير ١/ ١٣١.
(٤) سنن ابن ماجه ٢/ ١٢٥٠ (٣٨٠٣)، وحسنه الألباني.
(٥) السابق.
(٦) مقدمة الشرح الممتع ١/ ٣.

خامساً - لماذا يسند الحمد المُعَرَّف بالألف واللام للفظ الجلالة دائماً؟

لفظ الجلالة (الله) عَلَم على ذاته سبحانه؛ قيل جامد، وقيل مشتق، والصحيح أنه مشتق من الإله، ثم أدغمت اللام في اللام، وحذفت الهمزة تخفيفاً، وفخمت اللام فصارت الله. والإله فِعال بمعنى مفعول لأنه مألوه، أي معبود، والله هو الإله المعبود بحق، وما دونه فآلهة باطلة.

وقد جعل تعالى الحمد متعلقاً باسمه (الله)، فكأن معنى الحمد لله: الوصف بجميع المحامد للإله المعبود بحق، إذ لا يليق تعليقها إلَّا به، وفي جعل الحمد متعلقاً بهذا الاسم إشارة يُردُّ بها على من جعل متعلق الحمد الجميل الاختياري، فالله تعالى أسند الحمد لاسم أشهر علم على ذاته، وفي ذلك تنبيه على استحقاق ذاته العلية للحمد قبل أن يخلق الخلق.

وقد جاء الحمد في القرآن مسنداً إلى غير لفظ الجلالة في غير موضع، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر]، وغيرها، إلا أن الحمد المعرف بالألف واللام جاء في كل المواضع مسنداً إلى (الله) دون غيره، فلم يَرِد: الحمد للرحمن، أو الحمد للقادر، أو الحمد للغفور، ونحو ذلك.

والسبب في ذلك أن إسناد الحمد للرحمن أو القادر أو الغفور وغيرها من الأسماء الحسنى، قد يُشعر باختصاصه بتلك للصفة، فيكون الحمد على الرحمة أو على القدرة أو على المغفرة، فإسناد الحمد (لله) يجمع ذلك كله، فعبر باسمه الأخص في مسماه ومعناه، الذي لا يشاركه فيه أحد غيره، فهو حمد لذات الله ﷻ المتصفة بصفات الكمال الذاتية والاختيارية، والله أعلم.

فإن قيل: اسم الرحمن كذلك مما لا يشاركه فيه غيره، وتسمية غيره

كمسيلمة به من باب المكابرة والعناد والمضاهاة لاسم الله ﷻ، فيجاب بأن اسم الرحمن وإن كان مختصاً بالله جل وعلا، إلا أنه ليس أخص أسمائه، أما اسم الله فدال على الذات التي لها الأسماء الحسنى ومنها الرحمن، فيكون بذلك أخص أسمائه، وهذا محل اتفاق. وقد ذكر ابن القيم هذا المعنى(١).

مسائل تتعلق بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾

أولاً- تخصيص نعمة إنزال الكتاب على عبده بالحمد:

لقد حمد الله نفسه في مقام ذكر إنزال الكتاب على عبده محمد ﷺ ليبين أنه نعمة عظيمة تستوجب حمدنا له سبحانه، كيف لا وقد هدانا بهذا الكتاب بعد الضلال، وأخرجنا به من الظلمات إلى النور، وأعزنا به من بعد الذل، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢﴾ [الجمعة]، والآية الأخرى في الحديد، وقال النبي ﷺ للأنصار: "ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟"(٢)، ففي ذكر نعمة تنزيل القرآن امتنان على المؤمنين من هذه الأمة، أن خص الله نبيهم بهذا الكتاب، الذي لم يُؤت أحد من الأنبياء قبله مثله، وفيه أيضاً امتنان على أمة الدعوة من الثقلين الذين بعث فيهم نبينا ﷺ على فترة من الرسل ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

إن لله ﷻ على العباد نعماً كثيرة تستوجب الحمد، وقد يخص الله بعضها بالذكر لشرفها، أو لمعنى اقتضى تخصيصها، وقد اجتمع السببان في ذكر إنزال الكتاب هنا، لأنه نعمة من أجلِّ النعم، إذ فيه كل ما تحتاج إليه

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٢-٣٣.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٥٧٤ (٤٠٧٥)، صحيح مسلم ٢/ ٧٣٨ (١٠٦١).

الأمة مما يتعلق بصلاح الدارين، كما أن تخصيص هذه النعمة بالذكر في أول السورة مناسب لما جاءت به من أجوبة على مسائل اليهود والمشركين.

ثانياً- تشريف النبي ﷺ: من وجوه؛ أحدها أنه تعالى لم يقل: (الحمد لله الذي أنزل الكتاب)، بل قرن ذكره ﷺ بذكر نعمة إنزال الكتاب، والثاني أنه قدم ذكره على ذكر الكتاب، ليبين عظيم منزلته، والثالث أنه وصفه بالعبودية، إذ هي مقام عظيم، (يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى ... وقد سمى الله رسوله بعبده في أشرف مقاماته فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، فسماه عبدًا عند إنزاله عليه، وعند قيامه بالدعوة، وعند إسرائه به، وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين ...)(١).

وفي ذكر العبودية مقترنة بذكر نعمة إنزال الكتاب إشارة إلى أن مَنْ مَنَّ الله عليه بالعلم ينبغي أن يكون عبداً لله، بل وفي كل النعم، ومَن مِن الخلق يخلو من ذلك؟! فيا من شرفه الله ومنّ عليه ورفعه على ما سواه من الخلائق كن عبداً لله.

وقد ناسب هنا أن يذكر الله تعالى نبيَّه ﷺ باسم العبودية من وجوه:

أحدها: أن انقطاع الوحي وتأخره عنه -على ما روي- لم يخرجه عن حد العبودية، فبرغم أنه قد شق عليه، إلا أنه صبر ورضي بقضاء الله.

ثانيها: أن وعده المشركين بالجواب لم يتجاوز به عتبات العبودية، لأنه إنما كان ينتظر الوحي ليأتيه بالجواب من رب البرية.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٣٦.

ثالثها: أن الخطاب تذكير للنبي ﷺ بالتزام العبودية في كل أحواله.

رابعها: أنه أضاف وصفه بالعبودية إليه تشريفاً له: (عبده).

خامسها: إثبات شرف وصف العبودية له، فهو عبد قائمٌ بحق سيده ومولاه سبحانه وتعالى بشهادة الله له، فهو عبد يشرف بالنسبة.

سادسها: أن وصفه بالعبودية بعد حمده مشعر بقيامه بحق الحمد.

وإذا كان مقام العبودية عظيماً فله لوازم عظيمة، من أهمها تسليم العبد أموره كلها لربه، تسليماً مطلقاً مصحوباً بالإيمان الجازم، وبقدر ما يرتقي يرتقي في عبوديته، حتى يصل إلى تحقيق هذا المقام فترتفع مكانته عند الله ﷻ؛ كحال السيد مع ما ملكت يمينه -ولله المثل الأعلى- فإن مكانة العبد عند سيده ترتفع بمقدار ما يستجيب لأوامره دون تردد أو تكاسل أو مناقشة، فكيف في حق الله جل وعلا على خلقه!

فمن حاكَ في صدره شيء فيما يتعلق بحق الله والتسليم لشريعته، فلم يرتقِ كما ينبغي في مقام العبودية، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء]، فأقسم بنفسه أن أحداً لا يؤمن حتى يجعل الشريعة حاكمة في كل الحوادث والقضايا، ويجمع إلى ذلك سلامة الصدر من الحرج في ذلك، ثم الاستسلام والانقياد القلبي المطلق، فيجمع الإنسان انقياد الظاهر والباطن لله ﷻ وشرعته، فإن فعل ذلك حقق مقام العبودية.

أما من ضعفت عبوديته، فيكون كالريشة في مهب الريح، تثور في قلبه شبهات فينساق معها يمنة ويسرة، ولو حقق العبودية لردها وما التفت إليها، أما من حقق مقام العبودية لله ﷻ كما ينبغي فإن قلبه ثابت كالجبال الرواسي لا تضره الفتن؛ ونظرة سريعة على ما كان يوم الإسراء تبين ذلك

وتجليه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقالوا: هل لك إلى صاحبك، يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، قال: أوَقال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أوَتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سمي أبو بكر الصديق"(١)، فشتان بين موقف أبي بكر وموقف من ارتد، إذ سما هو بإيمانه على فتنة الشبهة، وحقق مقام العبودية، وسقط أولئك في حمأة الفتنة.

ولئن حقق النبي ﷺ العبودية حتى يشاد به في هذا المقام الشريف، فحري بالأمة أن تقتدي به فتشكر ربها على إنزال الكتاب، بتحقيق العبودية، وفقاً لما شرعه، لا بالآراء والأهواء، ومن جملة القيام بحق العبودية تحكيمه في جميع شؤون الحياة، مع التسليم المطلق كما سبق.

ثالثاً- وصف المُنزَل -وهو القرآن - بالكتاب: وفيه إشارة إلى وجوب كتابته وجمعه وجوباً كفائياً كما ذكر بعض أهل العلم، إذ المعنى: الحمد لله الذي أنزل كلامه المكتوب، فالكتاب فِعال بمعنى مفعول: أي مكتوب، فهو (إما مصدر كاتب المصوغ للمبالغة في الكتابة، فإن المصدر يجيء

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم ١٠/ ١٩٨ (٤٣٨١)، وصححه الحاكم، والألباني في الصحيحة ١/ ٥٥٢ (٣٠٦).

بمعنى المفعول كالخلق(١)، وإما فعال بمعنى مفعول كلباس بمعنى ملبوس وعماد بمعنى معمود به. واشتقاقه من كَتَبَ بمعنى جمع وضم، لأن الكتاب تجمع أوراقه وحروفه، فإن النبي ﷺ أمر بكتابة كل ما ينزل من الوحي وجعل للوحي كُتَّاباً، وتسمية القرآن كتاباً إشارة إلى وجوب كتابته لحفظه. وكتابة القرآن فرض كفاية على المسلمين)(٢)، وقد قام أبو بكر ﷺ بهذا الواجب في خلافته، ولم تتم هذه المهمة في حياة النبي ﷺ لأن القرآن كان يتنزل، وكلما نزل منه شيء أخبرهم ﷺ بموضعه من سورة كذا بعد آية كذا، فلا يتم الغرض من جمعه والوحي ما زال يتنزل.

- **فائدة**: الكتاب من أسماء القرآن كما علمت، وللقرآن أسماء أخرى كثيرة، أوصلها بعض أهل العلم في مصنف له إلى نيف وتسعين، وعد بعضهم للقرآن خمسةً وخمسين اسماً سردها الزركشي(٣)، وقال شيخ الإسلام ﷺ: (فصل أسْمَاء القُرآن: القرآن، الفرقان، الكتاب، الهدى، النور، الشفاء، البيان، الموعظة، الرحمة، بصائر، البلاغ، الكريم، المجيد، العزيز، المبارك، التنزيل، المنزل، الصراط المستقيم، حبل الله، الذكر، الذكرى، تذكرة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ٤٨﴾ [الحاقة]، ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ٥٥﴾ [المدثر]، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٧٩]، و[آل عمران: ٣]، و﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس:٣٧]، [يوسف:١١١]، المهيمن عليه، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، المتشابه، المثاني، الحكيم:

---

(١) الخلق يأتي بمعنى المخلوق، كما تقول: هذا الحيوان خلق من خلق الله أي من مخلوقاته، ويأتي معبراً عن المعنى المصدري الذي هو فعل الله تعالى، كما في قول القائل: خلق الله متقن.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٦٦.

(٣) ينظر البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٧٣.

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾ [لقمان]، محكم، المفصل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤]، البرهان: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۝١٧٤﴾ [النساء]، على أحد القولين، الحق: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ١٠٨]، عربي مبين، أحسن الحديث، أحسن القصص على قول،كلام الله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، العلم: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١]، العلي الحكيم: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ ﴾ [الزخرف: ٤]، القيم: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ ﴾ [البينة]، ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا ﴾ [الكهف]، وَحْي في قوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم]، حكمة في قوله: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ﴾ [القمر]، وحُكماً في قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ [الرعد: ٣٧]، ونبأ -على قول- في قوله: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ﴾ [النبأ]، ونذير -على قول-: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ ﴾ [النجم]، في حديث أبي موسى شافعاً مشفعاً وشاهداً مصدقاً، وسماه النبي ﷺ: "حُجَّة لك أو عليك" وفي حديث الحارث عن علي: "عِصْمَة لمن استمسك به". وأما وصفه بأنه يقص وينطق ويحكم ويفتي ويبشر ويهدي فقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [النمل]، ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الجاثية: ٢٩]، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [النساء: ١٢٧]، أي: يفتيكم، أيضاً: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [الإسراء: ٩])[1]. وكأن الآيات شواهد على أوصاف له، فعدها بعضهم أسماء.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٤/ ١٠٢.

- **فائدة ثانية:** كثيراً ما يجيء الكتاب في القرآن مراداً به القرآن نفسه، وقد يراد به غيره؛ كجنس ما أنزل الله على رسله كما في قوله: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقد جاء هذا في مواضع، وقد يراد به اللوح المحفوظ كما في قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله: ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ٧٩ ﴾ [الواقعة]، وقوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ٣٩ ﴾ [الرعد]، وقد يراد به كتاب الأعمال: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف: ٤٩]. وقد يراد به التوراة والإنجيل كما في قوله تعالى: ﴿ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ [الأنعام: ١٥٦]، وكثيراً ما يجيء جمع التوراة والإنجيل على أنهما كتاب، فالتوراة هي أصل تشريعهم والإنجيل متمم لها مخفف بعض أحكامها، ولهذا يقال لليهود والنصارى: ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وقد يراد به التوراة خاصة كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [البقرة: ٥٣]، وهذا كثير، وقد يراد به الإنجيل خاصة كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ٣٠ ﴾ [مريم]، وهذا لعله الموضع الوحيد.

رابعاً- إنزال الكتاب من الله، والتنزيل على محمد ﷺ: أما تنزيله من الله سبحانه فقد تظاهرت عليه أدلة الكتاب، والآيات في ذلك كثيرة جداً، وهو هنا واضح بيِّن ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ﴾، وفي هذا رد على أهل الإفك ممن زعم أن محمداً ﷺ قد تركه ربه، ومن زعم أنه من عند نفسه إلى غير ذلك من افتراءاتهم، فليس في إنزاله من الله ريب، وليس في تبليغ النبي ﷺ عيب بل هو التزام منه بالعبودية، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وغير ذلك من الآيات.

فوائد تتعلق بأوصاف القرآن في هذه الآيات:

لقد وصف الله كتابه في الآيات السابقة بعدد من الأوصاف تغري بالتزامه والعمل به، وتحذر من تركه ومخالفة أمره، وهذه الأوصاف هي:

١- **وصفه بأنه منزل من الله تعالى:** فما جاء من العلي العظيم، واجب الاحترام والتعظيم، كيف لا وقد نوه الله بمحامد نفسه قبل ذكر إنزاله الكتاب، فهو قد أنزل من عند من له المحامد كافة سبحانه، ولو أن كتاباً جاء أحدَنا من ملِك أو مُعظَّم لالتزم به وعظَّمه، فكيف بكتاب جاءنا من ملك تام الملك، حكيم في أمره وتدبيره، له كل صفات الحمد! إله مستحق للعبادة لذاته، ونحن مع هذا عبيده لا يخرج أحد منا عن الخضوع لأمره وقدره الكوني، أفلا يجب علينا الخضوع لأمره الشرعي؟

٢- **وصفه بأنه منزل على محمد ﷺ:** وهذا مشعر بضرورة التأسي به في إجلال وتوقير هذا الكتاب، وبإقامة الحروف والحدود، لا تضييعها، فهو ﷺ قد دعا إليه وحض على التمسك به حياته كلها، وكان مثالاً يحتذى في ذلك، وأسوة حسنة، حتى قالت عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلقه: "كان خلقه القرآن"[1]، فحري بأتباعه أن يكونوا كذلك، لا ممن شكاهم ﷺ بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ٣٠﴾ [الفرقان].

فائدة- قال ابن القيم رحمه الله: (هجر القرآن أنواع؛ أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه، والثاني: هجر العمل به والوقوف عند

---

(١)مسند أحمد بن حنبل٦/ ١٦٣ (٢٥٣٤١)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به، والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم، والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه، والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به؛ وكل هذا داخل في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾ [الفرقان]، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض)[١].

٣- **وصفه بصفة سلبية وهي قوله:** ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾: فنفى العوج عن الكتاب، والعوج (يدلُّ على مَيَلٍ في الشَّيء أو مَيْل[٢]، وفروعُه ترجع إليه)[٣]، فلا ميل ولا انحراف في الكتاب عن الصواب بحال، كما قال الشنقيطي رحمه الله: (لم يجعل في القرآن عوجاً. أي لا اعوجاج فيه البتة، لا من جهة الألفاظ، ولا من جهة المعاني. أخباره كلها صدق، وأحكامه عدل، سالم من جميع العيوب في ألفاظه ومعانيه، وأخباره وأحكامه. لأن قوله "عوجا" نكرة في سياق النفي، فهي تعم نفي جميع أنواع العوج ... بينه في مواضع أخر كثيرة كقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٢٨﴾ [الزمر]، وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١١٥﴾ [الأنعام]، فقوله "صدقاً" أي في الأخبار، وقوله "عدلاً" أي في

---

(١) الفوائد ١/ ٨٢.

(٢) الفرق بين المَيَل والمَيْل أن الأول يكون خلقة في الشيء، ينظر مقاييس اللغة ٥/ ٢٩٠ مادة (ميل).

(٣) مقاييس اللغة ٤/ ١٤٧.

الأحكام)[1]، وهذا من أجود ما قيل في معنى الكلمة هنا، وهو يتضمن نحو ما قاله ابن عاشور ويزيد، إذ قال: (... والمقصود من هذه الجملة المعترضة أو الحالية إبطال ما يرميه به المشركون من قولهم: افتراه، وأساطير الأولين، وقول كاهن، لأن تلك الأمور لا تخلو من عوج)[2]، ثم قال رحمه الله: (فالمعنى: أنه متصف بكمال أوصاف الكتب؛ من صحة المعاني، والسلامة من الخطأ والاختلاف. وهذا وصف كمال للكتاب في ذاته، وهو مقتض أنه أهل للانتفاع به، فهذا كوصفه بأنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في سورة البقرة)[3].

٤- **وصفه بأنه قيم:** قال الشنقيطي: (وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿قَيِّمًا﴾ أي مستقيماً لا ميل فيه ولا زيغ... وهذا الذي فسرنا به قوله تعالى: ﴿قَيِّمًا﴾ هو قول الجمهور وهو الظاهر، وعليه فهو تأكيد في المعنى لقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾، لأنه قد يكون الشيء مستقيماً في الظاهر وهو لا يخلو من اعوجاج في حقيقة الأمر، ولذا جمع تعالى بين نفي العوج وإثبات الاستقامة. وفي قوله "قيماً" وجهان آخران من التفسير:

الأول- أنه قيم على ما قبله من الكتب السماوية، أي مهيمن عليه، وعلى هذا التفسير فالآية كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٨٤] الآية ...

الثاني- أن معنى كونه "قيماً" أنه قيم بمصالح الخلق الدينية والدنيوية، وهذا الوجه في الحقيقة يستلزمه الوجه الأول)[4].

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٦٩.
(٢) تفسير التحرير والتنوير ٨/ ٣٢٥.
(٣) السابق ٨/ ٣٢٦.
(٤) أضواء البيان ٣/ ٢٧٠-٢٧١.

و ﴿قَيِّمًا﴾ حال من الكتاب، أي أنزل الكتاب على عبده حال كونه قيماً، فهو قيم على هداية الأمة وصلاحها، وكل حاجات الأمة فيه، كما في قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، على أن المراد هنا القرآن.

- **فائدة:** المدح يكون بالنفي كما يكون بالإثبات، وقد مدح الله ﷻ القرآن هنا بالأمرين، لبيان منزلة هذا القرآن، فقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ فهذا نفي، وقال: ﴿قَيِّمًا﴾ وهذا إثبات، ولهذا في القرآن نظائر عديدة.

٥- **أنه نذير بأس شديد من لدن الله تعالى:** وذلك قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾، قال ابن فارس: (النون والذال والراء كلمةٌ تدل على تخويف أو تخوُّف)[١]، قال ابن كثير: (أي: لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به، ينذره بأسًا شديدًا، عقوبة عاجلة في الدنيا، وآجلة في الآخرة، ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: من عند الله الذي لا يُعَذِّب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد)[٢]، وفي هذا تخويف ووعيد عظيم، فإن العذاب إذا جاء من قوي شديد البأس كان عظيماً، فكيف إذا جاء ممن له كمال العظمة والبأس!

هذا العذاب مناسب لحال من أعرض عن الكتاب المنزل من الله سبحانه، ولم يجعل له عوجاً بل جعله قيماً، فيكون المعنى: الله أنزل الكتاب لينذر العباد بأساً، قال ابن جرير: (فإن قال قائل: فأين مفعول قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾؟ فإن مفعوله محذوف، اكتفي بدلالة ما ظهر من الكلام عليه من ذكره، وهو مضمر متصل بينذر قبل البأس، كأنه قيل: لينذركم بأساً، كما قيل: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، إنما هو: يخوّفكم أولياءه)[٣]،

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٣٣١.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٣٥.
(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٥٩٣

وقال البقاعي: (وقصره على المفعول الأول[1] ليعم كل من يصح قبوله الإنذار ولو تقديراً، وليفيد أن الغرض بيان المنذَر به لا المنذَر)[2].

واللام في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ لام التعليل؛ أي أنزله لأجل أن ينذر الثقلين بأسه، فإنذارهم مراد من إنزال الكتاب.

وإذا تقرر أن القرآن ينذر بأساً شديداً، فحق على كل عاقل أن يلتزم بكل ما فيه اتقاء ذلك البأس.

٦- **أنه يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات:** يبشرهم أي يفرحهم بأن لهم أجراً حسناً، فهو بشرى للذين استجابوا لله ووعوا النذارة أن عملهم ليس بالمجان! وأن عاقبتهم ليست هي مجرد النجاة من الوعيد، بل لهم على عملهم أجر، وليس أجراً زهيداً بل أجراً حسناً.

وقد جمعَت الآيات الكريمة وصف القرآن بالبشارة والنذارة، والجمع بينهما منهج قرآني، إذ تأتي الآيات التي يبين فيها الله ﷻ ما أعده لمن كفر به وعصى أمره من العذاب، لاحقة للآيات التي يبين فيها ما أعده لمن آمن به واستقام على أمره من الثواب، أو العكس، كقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة]، وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد]، وهذا الأسلوب صادر من حكيم عليم، يعلم ما يصلح لعباده وما يصلحهم، وفيه فائدة عظيمة للمربين وأولياء الأمور ليسلكوا هذه السبيل، فينذروا ويبشروا، إذ الإنسان يحتاج إلى هذين وفيهما صلاح أحواله.

---

(١) يريد بذلك قوله تعالى: بأساً.

(٢) تفسير البقاعي ٥/ ١١٩.

وقوله: ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ ﴾، يعني أن الأجر دائم، وحرف الجر (في) يفيد أن الأجر هو الجنة دار الخلود التي فيها ما أعده الله للعاملين، والأجر الحسن درجات وأنواع، ولكل عامل من ذلك حظه بحسب الإيمان والعمل الصالح، وهما شرطا الأجر الحسن. وقد وعد الله رجالاً فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩ ﴾ [الحج]، وليس هؤلاء كالذين جاؤوا من بعدهم.

وفي هذه الآية الكريمة ترغيب في الاستقامة على هدي الكتاب القيم الذي ليس فيه عوج، ببيان ما في ذلك من الأجر الحسن، بعد ما ذكر من الترهيب من البأس الشديد، لمن انحرف عن هديه، فهذه ستة أوصاف للكتاب تغري بالتزامه والعمل به، وتنذر تركه ومخالفة أمره، وفي كتاب الله غيرها كثير، قد مضت الإشارة في أسماء القرآن إلى بعضها[1].

ومن العجائب أن يختص الله هذه الأمة بهذا الكتاب الذي هذه أوصافه، ثم نرى فئاماً منها يتنكبون طريقه، ويلتمسون الهدى من غير سبيله، ويزيد العجب أن يتولى كبر ذلك نفر من المثقفين وأصحاب الشهادات، ممن يفترض أن يكونوا أول داع للتمسك به، والعجب يزول عندما نعلم أن كثيراً منهم ربوا على أعين الأعداء، وغُذُّوا بِلِبانهم، فأشربت قلوبهم الفتنة فلم تميز بين الحق والباطل، أو أشربت هواها، فأنى لأصحابها أن يروا الحق! قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣ ﴾ [الجاثية].

إن واقع الأمة اليوم يبعث على الحزن والأسى، إذ ضلت ضلالاً بعيداً

---

(١) انظر ص٦٦.

في باب تحكيم القوانين الوضعية في كثير من نواحي الحياة، ومن تأمل دساتير كثير من البلاد العربية وجد الإسلام فيها مصدرا من مصادر التشريع، أو أنه المصدر الأول من مصادره، وهو ما قد ينخدع به بعض الناس ويسرون، لكن الحقيقة أن من وضعوا هذه الدساتير، أرادوا أن الإسلام مصدر، معه مصادر أخرى، كالقوانين الفرنسية أو الإنجليزية وغيرها، ولهذا قالوا مصدر (مِن) مصادر التشريع، ولم يقولوا مصدر التشريع، فليس هو المصدر الوحيد، وهذا باب شر عظيم كما لا يخفى.

وهذا لا يعني ألا نستفيد من الآخرين، بل لنا أن نستفيد من الشرق والغرب، ومن الدنيا كلها إن وجدنا عندهم ما يفيد، ولكن بضوابط القرآن والشرع المطهر، ودون تفريط في الثوابت.

إن هؤلاء الذين يعدلون بالقرآن غيره، إنما يقدحون في القرآن في حقيقة الأمر، فلو أن شخصاً له قيِّم، ثم ذهب إلى غيره لقضاء حوائجه، لكان هذا قدحاً فيه، واتهاماً له بالتقصير؛ فلو ذهب ذهب ابن لرجل ثري يقترض من بعض الناس، لا يرضى الأب بذلك لأنه قدح فيه. فكذلك القرآن، قيِّم على هذه الأمة، وقد بين الله فيه ما ينفعها في عاجلها وآجلها، فالإعراض عنه كلياً أو جزئياً قدح فيه، والله المستعان.

وغني عن البيان أن الأخذ بالقرآن يتضمن بالسنة، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم]، وغيرها.

فيكون معنى الآيات السابقة: الوصف بالمحاسن التامة، مع المحبة والتعظيم والإجلال، لله الذي لا معبود بحق إلا هو، لذاته وأوصافه

وأفعاله، الذي أنعم على الناس بأعظم نعمة، كتابه العزيز الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، على نبيه القائم بحق العبودية على أكمل وجه، ليتأسى به أتباعه، وليخوف به من عصاه عذاباً شديداً لعلهم ينتهون، ويفرح عباده الذين آمنوا وأتبعوا إيمانهم بالأعمال الصالحة أن لهم فوق النجاة من العذاب مثوبة حسنة في الجنان خالدين فيها أبداً.

من فوائد الآيات الكريمة:

١- وصف الله بكل صفات الحمد اللائقة، ويستحق للحمد عليها.

٢- القرآن كلام الله منزل.

٣- العبودية لله شرف عظيم، للنبي ﷺ منه النصيب الأوفى.

٤- الإشارة إلى صفة العلو، فالله هو الذي أنزل القرآن وهو كلامه وصفة من صفاته منه بدأ وإليه يعود، فنزوله يدل على علو مُنزِله سبحانه.

٥- القرآن سالم من كل عيب في لفظه ومعناه.

٦- أفعال الله تعالى لها حِكَم تعلل بها.

٧- أنزل الله القرآن نذارة للمعرضين عنه وبشارة للمؤمنين به.

٨- الجنة دار المقامة لا تبيد ولا يحول نعيمها ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ٣﴾

التمهيد للشروع في موضوعات السورة الرئيسة

قال تعالى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ [الكهف].

لما حمد الله تعالى نفسه على إنزال الكتاب بشيراً ونذيراً كما فُصِّل، شرع في بيان ما أجمله، وخص بعضه بالذكر لاقتضاء المقام له، فذكر أن من جملة إنذار الله بالقرآن إنذاره الذين قالوا اتخذ الله ولداً، قال الرازي: (اعلم أن قوله تعالى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾ [الكهف: ٢] ... فالأول عام في حق كل من استحق العذاب، والثاني خاص بمن أثبت لله ولداً. وعادة القرآن جارية بأنه إذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيهاً على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلي ... العطف يدل على أن أقبح أنواع الكفر والمعصية إثبات الولد لله تعالى)(١)، والذين قالوا اتخذ الله ولداً أصناف ثلاثة:

١- المشركون، وهم المعنيون بالخطاب ابتداء، إذ زعموا أن الملائكة بنات الله، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النحل]، وغيره.

٢- اليهود، وقد قالت بذلك طائفة منهم اندثرت اليوم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠]، قال البقاعي: (القائل لهذا

(١) تفسير الرازي ١٠/ ١٥٦.

القول منهم؛ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم أربعة، وقيل: قائله واحد وأسند إلى الكل، كما يقال: فلان يركب الخيول، وقد لا يكون له إلا فرس واحد، وهو كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقيل: كان فاشياً فيهم، فلما عابهم الله به تركوه، وهم الآن ينكرونه، والله تعالى أصدق حديثاً)[١]، وفي هذا جواز نسبة القول تقول به طائفة إلى الكل إذا لم يلق حقه من نكيرهم، ومن هنا تعرف غلط من يدافع عن مذاهبَ أو تياراتٍ منحرفة لأن قلة من أهلها لم تقل بقول الأكثرين، بل غلط من ينفي نسبتهم لباطل قال به بعضهم ولم يلق حقه من الإنكار عندهم.

واليهود وإن لم يدخلوا بالأصالة في الخطاب فهو يتناولهم تبعاً، وفيه مناسبة لسبب النزول من سؤال المشركين اليهودَ وإرسالِهم النضر بن الحارث وعقبةَ بنَ أبي معيط إلى المدينة يتقصيان شأن محمد ﷺ. فكأنه يقول للمشركين من قريش: هؤلاء الذين سألتم وإليهم رجعتم، داخلون في نذارة الكتاب؛ لافترائهم على الله، أو لسكوتهم، فصاروا وإياهم سواء.

٣- النصارى، وهؤلاء يتناولهم عموم اللفظ، وهم من أحق الناس به لاعتقاد عامتهم أن المسيح عليه السلام ابن الله، بل هذا أصل دينهم.

لطيفة- سبق أن المفعول في ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ حُذِف، وهو المنذَر، وأثبِت المنذَر به وهو (بأساً)، و هنا ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ٤﴾ حذف المنذَر به، وأثبت المنذَر الذين قالوا اتخذ الله ولداً، فما حذف في الأولى أثبت في الثانية، وما حذف في الثانية أثبت في الأولى، وقد استنبط أهل العلم لهذا الحذف والتغاير سبباً لطيفاً، قال البقاعي: (وقصره

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٣/ ٤٣٨.

على المفعول الأول[1] ليعم كل من يصح قبوله الإنذار ولو تقديراً، وليفيد أن الغرض بيان المنذَر به لا المنذَر)[2]، وفي الموضع الثاني قال: (واقتصر هنا على المفعول الأول[3] ليذهب الفكر في الثاني -الذي عبر عما يحتمل تقديره به فيما مضى بـ ﴿لَّدُنۡهُ﴾ - كل مذهب فيكون أهول)[4].

وقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ﴾ [الكهف: ٥]، يصدق على الأصناف الثلاثة السابقة، وقوله: (به) نفى عنهم العلم بقولهم: (اتخذ الله ولداً)، وهذا لا يمنع أن يكون عندهم علم آخر، بل قد أثبت الله للكفار علماً فقال: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الروم: ٧]، وهذا من العدل، فتوخي الدقة في الكلام من دروس هذه السورة، في هذا الموضع وغيره.

يقول الشنقيطي رحمه الله: (يعني أن ما نسبوه له جلَّ وعلا من اتخاذ الولد لا علم لهم به، لأنه مستحيل)[5]، قال ابن عاشور: (وعطف ﴿وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ﴾ لقطع حجتهم لأنهم كانوا يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف]، فإذا لم يكن لآبائهم حجة على ما يقولون، فليسوا جديرين بأن يُقلدوهم)[6].

وقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ فيه تشنيع، واستعظام لما نسبوه إلى الله عز وجل من الولد، قال

(١) وهو هنا (بأساً).
(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١١٩.
(٣) وهو هنا جملة (الذين قالوا اتخذ الله ولداً).
(٤) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٢٠.
(٥) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٧٤.
(٦) التحرير والتنوير ٨/ ٣٢٨.

الألوسي: (أي عظمت مقالتهم هذه في الكفر والافتراء لما فيها من نسبته تعالى إلى ما لا يكاد يليق بكبريائه جل وعلا... و ﴿كَلِمَةً﴾ نصب على التمييز، وكأنه قيل: ما أكبرها كلمة! وقوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صفة ﴿كَلِمَةً﴾ ... فإن كثيراً مما يوسوس به الشيطان وتحدث به النفس لا يمكن أن يتفوه به، بل يصرف عنه الفكر، فكيف بمثل هذا المنكر!)(١).

والكلمة هي: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، وسميت الجملة كلمة، لأن العرب تعبر بالكلمة عن الكلمة المفردة غير المركبة، والكلام الكثير، ولهذا سموا القصيدة كلمة.

وقوله: ﴿تَخْرُجُ﴾ عبر بالمضارع المفيد للاستمرار، ليدل على استمرائهم لها وتكرارهم لقولها، وفيه استحضار صورة خروجها من أفواههم تخييلاً لفظاعتها، قال الرازي: (قوله: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ يدل على أن هذا الكلام مستكره جداً عند العقل ... فكأنه شيء يجري به لسانهم على سبيل التقليد، لأنهم مع أنها قولهم، عقولهم وفكرهم تأباها وتنفر عنها)(٢)، وفيه نكتة أخرى؛ قال ابن كثير: (أي: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم؛ ولهذا قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾)(٣)، فجاءت الجملة مشعرة بأن دعواهم مجرد زعم لا حقيقة له، ولذا قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾، ويدل على ذلك أن أحدهم لو أخبر أن راهباً مقدما عندهم تزوج وله ولد لاستعظم ذلك وأنكره، وكاد يبطش بقائله، ولكن تاهت العقول فنسبوا للرب ما نزهوا عنه بعض الخلق!

وقوله تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾: أي لا صفة لقولهم ذلك إلَّا صفة

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٤٩.
(٢) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ١٥٧.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٣٦.

الكذب، قال ابن حبان: (وهذه لفظة مستعملة لأهل الحجاز إذا أخطأ أحدهم يقال له: كذب)[١]، وقال الحافظ: (وهو لغة أهل الحجاز، يطلقون الكذب على ما هو أعم من العمد والخطأ)[٢].

وفي الآية تنبيه على عظيم أثر الكلمة وخطرها، فبعض الناس يطلق الكلام على عواهنه دون نظر في عواقبه، فيجر على نفسه ومن حوله الويلات، وبعضهم يستمرئ الوقوع في الأعراض، ويقذفهم بعظائم الأمور بغير بينة، ولا يلقي لذلك بالاً، قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ١٥﴾ [النور]، وبعض الناس قد يطلق عبارات لا يلقي لها بالاً فتخرجه من الإسلام، وفي الحديث الصحيح: "وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم"[٣]، فلا بد من الحذر وكف اللسان، ففيه السلامة من العطب. وقد قال ﷺ لمعاذ ﵁: "ألا أخبرك برأس الأمر كله، وعموده، وذروته، وسنامه؟ قلت: بلى يا نبي الله! فأخذ بلسانه، قال: كُفَّ عليك هذا. فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون مما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبُّ الناسَ في النار على وجوههم -أو على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم!"[٤].

ثم قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾

﴿بَـٰخِعٌ﴾: أي مهلك نفسك بحزنك عليهم؛ ﴿بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ القرآن،

---

(١) صحيح ابن حبان ٥/ ٢٣.
(٢) فتح الباري ٢/ ٤٩٠.
(٣) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٧٧ (٦١١٣).
(٤) سنن الترمذي ٥/ ١١ (٢٦١٦)، وصححه الألباني.

والفاء في قوله: فلعلك، يشعر بربط المعنى بما قبلها، فكأن شركهم وكذبهم هو سبب الأسف، وقوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ يشعر بشدة نفرتهم وسرعة مفارقتهم حين تولوا عن إجابة النبي ﷺ، فلا يكاد يدرك غير آثارهم!

قال صاحب الأضواء: (اعلم أولاً أن لفظة "لعل" تكون للترجي في المحبوب، وللإشفاق في المحذور. واستظهر أبو حيان في البحر المحيط أن "لعل" في قوله هنا ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾، للإشفاق عليه ﷺ أن يبخع نفسه لعدم إيمانهم به. وقال بعضهم إن "لعل" في الآية للنهي. وممن قال به العسكري، وهو معنى كلام ابن عطية كما نقله عنهما صاحب البحر المحيط. وعلى هذا فالمعنى: لا تبخع نفسك لعدم إيمانهم. وقيل: هي في الآية للاستفهام المضمن معنى الإنكار -إتيان لعل للاستفهام مذهب كوفي معروف- وأظهر هذه الأقوال عندي في معنى "لعل" أن المراد بها في الآية النهي عن الحزن عليهم، وإطلاق لعل مضمنة معنى النهي في مثل هذه الآية أسلوب عربي يدل عليه سياق الكلام. ومن الأدلة على أن المراد بها النهي عن ذلك، كثرة ورود النهي صريحاً عن ذلك، كقوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨]، وكقوله: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقوله: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٨﴾ [المائدة]، إلى غير ذلك من الآيات، وخير ما يفسر به القرآن القرآن)[1].

أقول: والجمع ممكن، قال ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى مسليًا رسوله ﷺ في حزنه على المشركين، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه... لا تهلك نفسك أسفًا ... بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٧٧.

عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات)[١].

وقوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾، (قال القرطبي: آثارهم جمع أثر. ويقال إثر. والمعنى: على أثر توليهم وإعراضهم عنك. وقال أبو حيان في البحر: ومعنى "على آثارهم" من بعدهم، أي بعد يأسك من إيمانهم. أو بعد موتهم على الكفر. يقال: مات فلان على أثر فلان، أي بعده. وقال الزمخشري: شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به، وما داخله من الوجد والأسف على توليهم، برجل فارقته أحبته وأعزته، فهو يتساقط حسرات على آثارهم، ويبخع نفسه وجداً عليهم، وتلهفاً على فراقهم! والأسف هنا: شدة الحزن)[٢].

(١)تفسير ابن كثير ٥/ ١٣٧.

(٢)أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٧٧.

خواطر تربوية نفسية

الأولى- تقسيم أسف الدعاة على عدم استجابة المدعوين:

مما لا شك فيه أن الداعية إلى الله يتمنى لو آمن له وأطاعه كل من يتوجه إليه بالدعوة، وبالتالي فإن عدم الاستجابة تولد لديه في كثير من الأحيان شعوراً بالأسى والأسف، إلا أن مبعث هذا الأسف يتفاوت بين الدعاة، فمنهم من يأسف لأن من دعاه لم يستجب له، ومنهم من يأسف لأن من دعاه لم يستجب للحق الذي دعاه إليه، وشتان بين هذا وذاك، وقد يكون مرجع هذا التفاوت إلى تفاوت في أصل النية، وقد يرجع إلى خلل في التصور وغفلة من الداعية، وقد يكون غير ذلك، قال الشيخ محمد بن عثيمين ﷺ في تفسير الآية بعد أن بين أن وظيفة النبي ﷺ هي البلاغ: (وهكذا ورثته من بعده: العلماء، وظيفتهم البلاغ، وأما الهداية فبيد الله، ومن المعلوم أن الإنسان المؤمن يحزن إذا لم يستجبِ الناس للحق، لكنَّ الحازنَ إذا لم يقبل الناس الحق على نوعين:

١ - نوع يحزن لأنه لم يُقبَل.

٢ - ونوع يحزن لأن الحق لم يُقبَل.

والثاني هو الممدوح، لأن الأول إنما يدعو لنفسه، والثاني إذا دعا فإنما يدعو إلى الله، ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

لكن إذا قال الإنسان: أنا أحزن لأنه لم يُقبل قولي، لأنه الحق، ولذلك لو تبين لي الحق على خلاف قولي أخذت به، فهل يكون محموداً؟

الجواب: يكون محموداً، لكنه ليس كالآخر الذي ليس له همٌّ إلَّا قبول

الحق، سَواء جاء من قِبَله، أو جاء من قِبَل غيره)[١].

قال أحد الفضلاء: إذا أردت أن تفرق بين أسفك لعدم قبول الناس للحق، وأسفك لعدم قبول الناس لكلامك، فانظر لأسفك إن بلغك أن أناساً لم يقبلوا الحق من شيخ ما، وتخيل نفسك مكانه ومدى أسفك عندها، فالفرق بين الأسف الأول والثاني هو حظ نفسك فاحذره!

فعلى الداعية أن يجاهد نفسه حتى يكون همه أن يوصل الحق للناس، وأن يكون حزنه إن ردوه لرد الحق لا لرد قوله، فإن فعل فيوشك أن يبلغ أعلى المقامات، وما أعظم كلام الشافعي ﷺ إذ قال: (ما ناظرت أحداً قط على الغلبة، وبودي أن جميع الخلق تعلموا هذا الكتاب على أن لا ينسب إلي منه شيء)[٢]، فلله دره من إمام، ما أعظم تجرده، وصدق قصده!

الثانية- نتائج أسف الدعاة على عدم استجابة المدعوين:

إذا أخلص الدعاة النية لله وجعلوا أسفهم -إن لم يُستجَب لدعوتهم- على عدم قبول الحق لا على رد كلامهم، فأسفهم محمود، وتتفاوت صورته بين الدعاة، فمنهم من أسفه مشوب بالإشفاق على المدعويين، ومنهم من أسفه مشوب بالقوة والشدة عليهم، ولكلٍّ سلف من الأنبياء؛ فأسف نبينا محمد ﷺ المذكور في آية الكهف على المشركين من قومه كاد يهلكه ويذهب بنفسه؛ ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ ﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨]، وهذا شبيه بأسف يعقوب على فراق يوسف، فكأن حرصه ﷺ على هداية قومه وسلامتهم

---

(١)من تفسيره ﷺ لسورة الكهف بتصرف يسير.

(٢)سير أعلام النبلاء ١٠/ ٧٦.

كحرص يعقوب عليه السلام أن يرجع إليه ولده ويسلم من كل مكروه. وفي المقابل نجد أسف موسى عليه السلام يوم عصته بنو إسرائيل واتخذت العجل، إذ رجع إليهم ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠] و[طه:٨٦]، فهو أسف مصحوب بالغضب، حتى ألجأه الغضب إلى أن ألقى ألواح التوراة وأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه وقال: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، فتلك منزلة وهذه منزلة.

هذا وإن الحكمة في الدعوة تقضي باستعمال اللين والرفق في موضعهما، واستعمال الشدة والقوة في موضعهما، إذ لكل مقام مقال، ومما لا شك فيه أن أحق الناس بمثل هذه الحكمة هم الأنبياء، ومن طالع سيرهم لمس تنوعاً في مواقفهم مع أقوامهم يدور بين اللين والشدة بحسب الحال، وحتى من اشتهر منهم بالشدة كنوح وموسى عليهما السلام، فإن هذا لا يعني أن دعوتهما كانت مصحوبة بالشدة طوال الوقت، وكذلك من اشتهر منهم باللين كنبينا محمد ﷺ، فإن هذا لا يعني أن دعوته لم يكن فيها شدة طوال الوقت، وبالمثال يتضح المقال:

فنوح عليه السلام دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وصبر على أذاهم وإعراضهم واتهامهم له بشتى التهم، ولم يقابلهم إلا بالرفق واللين، وما استعمل عليه السلام الشدة معهم إلا لما علم بوحي الله أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، فلما سخروا منه اشتد وقابل إساءتهم بمثلها فقال: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود]، وكذلك كانت دعوته على أهل الأرض من الكفار: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح]، بعد أن أيقن أنهم لن يؤمنوا وأن بقاءهم شر محض ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾

[نوح]، وقد أجاب الله دعاءه فكانت هذه الشدة في محلها.

وهذا موسى عليه السلام يأمره ربُّه عز وجل من اليوم الأول الذي يرسله فيه لفرعون - مع شدة كفره وبغيه- أن يقول له قولاً ليناً، لما يرجى من الاستجابة، فهو أول ما يُبدأ به وهو الأصل في الدعوة ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه]، فيستجيب عليه السلام ويقول له: ﴿وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ [طه]، ثم يصبر على سخرية فرعون واستكباره، واتهامه له بالجنون والسحر، وهمه بقتله، ونقضه وعده إن كُشف عنهم الرجز؛ فخلال كل هذه الأحداث كان موسى عليه السلام ليناً رفيقاً يصبر ويحتسب، ولم يمنعه ذلك من أن يوصل الحق ولو كان مراً ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه]، فلما عاد فرعون لصب العذاب على بني إسرائيل ونقض وعوده أيس موسى عليه السلام منه، وغلب على ظنه أنه لن يؤمن، وأن بقاءه شر محض لما فيه من الكفر وإضلال الخلق، وتأكد لموسى عليه السلام ذلك لما قال: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء]، فهنا ترك الرفق واللين ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء]، ثم دعا عليه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس]، فاستجاب الله عز وجل دعوته و ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، استجابة تدل على أن هذه الشدة كانت في محلها.

وحتى عندما رجع موسى غضبان أسفاً، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، فإنه ما لبث أن هدأ غضبه، ثم سأل الله عز وجل التوبة على قومه، فعن ابن

إسحاق: (سأل موسى ربه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا، إلا أن يقتلوا أنفسهم. قال: فبلغني أنهم قالوا لموسى: نصبر لأمر الله! فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده. فجلسوا بالأفنية، وأَصْلَتَ عليهم القوم السيوف، فجعلوا يقتلونهم. وبكى موسى)(١)، وعن السدي: (كثر القتل، حتى كادوا أن يهلكوا، حتى قتل بينهم سبعون ألفاً، وحتى دعا موسى وهارون: ربنا هلكت بنو إسرائيل! ربنا البقية البقية!)(٢)، فهذا مما يدل على شفقته ورحمته بقومه ﷺ، وإن كان غضب منهم.

وفي المقابل فإن لين نبينا ﷺ ورفقه اللذين تميز بهما لم يحولا بينه وبين الشدة والقسوة في مواطن، فعن ابن مسعود ﷺ "أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان، فيضعه على ظهر محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فجاء به، فنظر حتى سجد النبي ﷺ ووضعه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر لا أغني شيئاً، لو كان لي منعة، قال: فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعض، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة فطرحت عن ظهره، فرفع رأسه ثم قال: اللهم عليك بقريش، ثلاث مرات، فشق عليهم إذ دعا عليهم، قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمَّى: اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبةَ بنِ ربيعة، وشيبةَ بنِ ربيعة، والوليدِ بنِ عتبة، وأميةَ بنِ خلف، وعقبةَ بنِ أبي معيط، وعد السابع فلم نحفظه، قال: فوالذي نفسي بيده، لقد

---

(١) تفسير الطبري ٢/ ٧٧.
(٢) تفسير الطبري ٢/ ٧٥.

رأيت الذين عد رسول الله ﷺ صرعى في القليب، قليب بدر"[١]، ومرة أخرى يجلس مشركو قريش عند الكعبة يتباحثون في أمر النبي ﷺ، يقول عمرو بن العاص ﵁: "فبينما هم كذلك، إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفاً بالبيت، فلما أن مر بهم غمزوه ببعض ما يقول، قال: فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فقال: تسمعون يا معشر قريش! أما والذي نفس محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح. فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع"[٢]، فهذا وأمثاله يشهد لما نقول.

وبرغم ما سبق فإننا نجد أحياناً أن أحد جانبي اللين والشدة يغلب على الفاضل في غير موضعه، فلا يكون ذلك ممدوحاً منه في هذا المقام، وقد وقع ذلك لنبينا ﷺ في بعض المواطن فلم يقره الله على بعض وعاتبه على بعض، فمن ذلك ما نزل من قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [آل عمران]، إذ دعا النبي ﷺ على أشخاص بأعيانهم وعلى قريش وعلى بعض أحياء العرب، فنزلت الآية لا تقره ﵇ على دعائه، لأن بعض هؤلاء قدر الله أن يسلموا، ففي حديث أنس ﵁ "أن رسول الله ﷺ كسرت رَباعيَتُه يوم أحد، وشج في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وشجوا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾"[٣]،

(١) صحيح البخاري ١/ ٩٤ (٢٣٧)، صحيح مسلم ٣/ ١٤١٨ (١٧٩٤).
(٢) مسند أحمد بن حنبل ٢/ ٢١٨ (٧٠٣٦)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.
(٣) البخاري تعليقاً ٤/ ١٤٩٣، صحيح مسلم ٣/ ١٤١٧ (١٧٩١).

وقد أسلم منهم قبل الفتح رجال، ثم أسلم من بقي منهم بعده إلا قليلاً ممن قتل؛ وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الآخرة من الفجر يقول: "اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً، بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد. فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾"(١).

وقد وردت تسميتهم في رواية سالم قال: "كان رسول الله ﷺ يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام. فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾"(٢)، قال الحافظ: (هو مرسل، والثلاثة الذين سماهم قد أسلموا يوم الفتح، ولعل هذا هو السر في نزول قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾)(٣)، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: "اللهم العن فلاناً وفلاناً -لأحياء من العرب(٤)- حتى أنزل الله(٥) ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٤٩٣ (٣٨٤٢).
(٢) السابق.
(٣) فتح الباري ٧/ ٣٦٦.
(٤) جاء التصريح عند مسلم أنها: لحيان ورعل وذكوان وعصية.
(٥) قال الحافظ رحمه الله في الفتح ٨/ ٢٢٧: قوله: حتى أنزل الله (ليس لك من الأمر شيء)، تقدم استشكاله في غزوة أحد، وأن قصة رعل وذكوان كانت بعد أحد، ونزول (ليس لك من الأمر شيء) كان في قصة أحد، فكيف يتأخر السبب عن النزول! ثم ظهر لي علة الخبر وأن فيه إدراجاً، وأن قوله: حتى أنزل الله، منقطع من رواية الزهري عمن بلّغه، بين ذلك مسلم في رواية يونس المذكورة فقال هنا: (قال) يعني الزهري (ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما نزلت)، وهذا البلاغ لا يصح لما ذكرته، وقد ورد في سبب نزول الآية شيء آخر، لكنه لا ينافي ما تقدم، بخلاف قصة رعل وذكوان، فعند أحمد ومسلم من حديث أنس أن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد، وشج وجهه، حتى سال الدم على وجهه، فقال: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟ فأنزل الله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ الآية، وطريق الجمع بينه وبين حديث ابن عمر أنه ﷺ دعا على =

شَيْءٌ ﴾. الآية"[١]، قال الطبري رحمه الله: (ليس إليك، يا محمد، من أمر خلقي إلا أن تُنفِذَ فيهم أمري، وتنتهيَ فيهم إلى طاعتي، وإنما أمرهم إليَّ، والقضاء فيهم بيدي دون غيري، أقضي فيهم وأحكمُ بالذي أشاء، من التوبة على من كفر بي وعصاني وخالف أمري، أو العذاب؛ إما في عاجل الدنيا بالقتل والنِّقَم المبيرة، وإما في آجل الآخرة بما أعددتُ لأهل الكفر بي)[٢].

وفي المقابل نجد الله عتب على نبيه عليه السلام في بعض المواطن لتغليبه اللين والرفق في غير موضعه، وطبيعة الإنسان تحدد ميله إلى أحد الجانبين، ونبينا ﷺ قد وصفه ربه بالرأفة والحرص على المؤمنين: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]، فما يقع من ميل إلى الشدة في غير موضعه قليل إذا ووزن باللين، ومن ذلك:

١- قال في أبي طالب: "أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك"[٣].
٢- قصة أسارى بدر.
٣- صلاته على ابن أبي بن سلول وقيامه على قبره.
٤- إذنه للمنافقين المتخلفين في غزوة تبوك عن جيش العسرة.

=المذكورين بعد ذلك في صلاته فنزلت الآية في الأمرين معاً، فيما وقع له من الأمر المذكور، وفيما نشأ عنه من الدعاء عليهم، وذلك كله في أحد بخلاف قصة رعل وذكوان فإنها أجنبية، ويحتمل أن يقال إن قصتهم كانت عقب ذلك وتأخر نزول الآية عن سببها قليلاً ثم نزلت في جميع ذلك، والله أعلم.

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٦٦١ (٤٢٨٤)، صحيح مسلم ١/ ٤٦٦ (٦٧٥).

(٢) تفسير الطبري ٧/ ١٩٤.

(٣) صحيح البخاري ١/ ٤٥٧ (١٢٩٤)، صحيح مسلم ١/ ٥٤ (٢٤).

وغيرها من القضايا التي نجد فيها أثر نفسه ﷺ السمحة، وتفصيل ذلك يطول، فنكتفي بقصة أسارى بدر، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخبره أنهم لما أسروا الأسارى يوم بدر، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا نبي الله! هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قلت: لا والله! ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان -نسيباً لعمر- فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهوَ ما قلتُ، فلما كان من الغد جئتُ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدَين يبكيان، قلت: يا رسول الله! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة -شجرة قريبة من نبي الله ﷺ- وأنزل الله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ -إلى قوله- ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩]، فأحل الله الغنيمة لهم(١)، وعن ابن مسعود رضي الله عنه بسياق أتم، وفيه: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟ فذكر نحوا من قول أبي بكر وعمر ثم قال: وقال ابن رواحة(٢): يا رسول الله! انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم ناراً. قال: فقال

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٣٨٣ (١٧٦٣).

(٢) صوب الطبراني في موضع أنه عبد الله بن حبش لا ابن رواحة انظر المعجم الكبير ١٠/ ١٤٤ (١٠٢٥٩).

العباس: قطعت رحمك! قال: فدخل رسول الله ﷺ ولم يرد عليهم شيئاً، قال: فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول ابن رواحة. قال: فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: [إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة](١)، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦﴾ [إبراهيم]، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١١٨﴾ [المائدة]، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦﴾ [نوح]، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٨٨﴾ [يونس]. أنتم عالة، فلا ينفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضربة عنق ... فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧﴾ إلى قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨﴾ [الأنفال](٢).

وهذه حال كثير من أفاضل الدعاة اليوم؛ ربما حبى الله بعضهم نفوساً فيها رحمة عظيمة ورأفة، فتلك سجيتهم، منّ الله عليهم بها فسخروها في الخير؛ حريصين على هداية الخلق ونفعهم، ثم قد يغلب عليهم هذا الطبع في غير موضعه فيجنحون إلى تسامح لا يقرون عليه.

---

(١) ما بين المعكوفين [ ] زيادة عند أحمد.

(٢) مسند الإمام أحمد ١/ ٣٨٣ (٣٦٣٢)، والحاكم ٣/ ٢٤ (٤٣٠٤)، وصححه ووافقه الذهبي، وأعِل الأثر بالانقطاع غير أن أصل اختلاف أبي بكر وعمر في الأسرى ثابت كما في الحديث السابق، وانظر إرواء الغليل ٥/ ٤٤-٤٨.

ومنهم من فيهم غلظة وشدة وقوة عظيمة في الحق، سخروها في الخير أيضاً؛ حريصين على النكاية بأعداء الله وكبتهم، فيغلب عليهم ذلك الطبع في مواطن لا تناسبه فلا يقرون على شدتهم فيها، فالأمر كما قيل:

فوضْعُ النَّدى في موضِعِ السيفِ بالعُلا.. مُضِرٌّ كوضْعِ السيفِ في موضع النَّدى(١)

ومن الدعاة من ارْتَبكت نفسه فتركَّبَت من الخليطين، فتجد فيه من طبع الأول ومن طبع الثاني، فتأمل مَن تعرف سيرته تجد مصداق ذلك.

وذلك كله ليس عيباً أو نقصاً بالنسبة للبشر، فلكل جبلة جبله الله عليها، فمن جبل على اللين فهو يعمل بمقتضاه، ومن جبل على الشدة فهو يعمل بمقتضاها، ولم ينفك عن هذا الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٤]، وقال ﷺ: "كل ميسر لما خلق له"(٢)؛ إلا أن هناك دائرة واسعة يدخل فيها الشديد واللَّيِّن ومن بينهما، لا ينبغي لأحد أن يتعداها؛ لا بمزيد شدة تخرجه إلى التضييق ولا بمزيد لين يخرجه إلى تتبع الرخص، وهذه هي دائرة الوسطية الحقة، لا المدعاة التي تضيع فيها الحدود، وتُتعدى المحارم بدعوى التيسير، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة: ١٨٧]، و﴿ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وعلى ما سبق، ينبغي للمربين أن يسعوا لاكتشاف طباع من ولاهم الله أمرهم، ليوجهوهم بما يتفق مع قدراتهم وطباعهم، كي يأخذوا دورهم الفعال متحركين داخل تلك الدائرة، وهذا أولى مما قد يلجأ إليه بعضهم من محاولة تغيير الطباع، فهذا لا يجدي في الغالب، إذ الطبع كما يقال يغلب

---

(١) البيت لأبي الطيب المتنبي وهو من البحر الطويل.

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٢٧٤٥ (٧١١٢)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٤١ (٢٦٤٩).

التطبع، وفرق بين تغيير الطباع وتغيير الأخلاق الفاسدة فهذا مطلوب.

فاكتشاف الطباع والقدرات وتوجيهها للعمل داخل تلك الدائرة خير عميم للأفراد والمجتمع، فهذا للعلم أو للجهاد وذاك لقضاء الحوائج، وهكذا، وما أفقه الإمام مالكا رحمه الله، إذ كتب إليه عبد الله العمري يحضه على التفرغ للعبادة، فكتب إليه ما يكتب بماء الذهب: (إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرُبَّ رجل فُتِح له في الصلاة، ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد؛ فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فُتِح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر)(١).

أما ما يقع من خروج من جانبي اللين أو الشدة، كما سبق، فهو أمر لا مفر منه، ويدخل تحت قوله عليه السلام: "كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون"(٢)، لكن الإشكال عندما يسترسل المخطئ مع الطبع فلا يرعوي عنه إن ذُكِّر بمقتضى الشرع في الواقعة المعينة، سواء حمله هواه إلى الجنوح نحو تأويلات بعيدة تتفق مع طبعه، أو أعرض عن الناصح المذكر.

الثالثة: آثار عدم استجابة الناس في الدعاة:

إذا كان الداعية يأسف لعدم استجابة الناس، وإذا كان الأسف ينقسم إلى محمود وغير محمود كما سبق، فإن عدم الاستجابة قد ينعكس على الداعية سلباً، فيؤدي إلى شيء من الانحراف في مسيرته، ويمكن هنا أن نسجل نوعين رئيسين من الانحراف؛ الأول: الاستعجال في غير محله،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ١١٤.

(٢) سنن الترمذي ٤/ ٦٥٩ (٢٤٩٩)، وحسنه الألباني.

والثاني: التأني في غير محله، فهناك مواقف تستلزم التأني ويقبح فيها الاستعجال، ومواقف أخرى تستلزم الاستعجال ويقبح فيها التأني.

إن بعض الدعاة إذا رأى عدم استجابة الناس له ربما وقع في أحد الأمرين، ولكل منهما عواقبه الوخيمة؛ أما الاستعجال في غير موضعه فيوقع صاحبه في واحد من أمور ثلاثة؛ التنازل، أو الغلو، أو القنوط.

ومثال التنازل، ما يقوم به بعض الدعاة من تجاوزات شرعية فيما يتعلق بالاختلاط مثلاً أو سماع المعازف أو الحجاب، فتجده يرخص أو يترخص فيها، وقد ابتلي الناس بعدد من هؤلاء "الدعاة"، أتيحت لبعضهم مجالات واسعة في القنوات والفضائيات، فعم البلاء وطم، وحجة بعضهم في هذا تأليف قلوب الجمهور، ولو أنهم فقهوا قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ [هود]، لما سولت لهم أنفسهم ذلك، ولو جمعوا إلى ذلك فقه قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص]، لعلموا أن الذي عليهم هو الدعوة على بصيرة دون تعد لحدود الله، والنتائج ليست إليهم، والهداية ليست بأيديهم، فاطمأنوا، ولم يحملهم إعراض الناس على الجزع الباعث على الاستعجال المذموم.

ومثال الغلو، ما نراه عند بعض الحركات الإسلامية من الإياس من الناس، فيلجؤون إلى العنف لتغيير فساد الواقع، قد يكون عنفاً فكرياً، وقد يتجاوز حدود الفكر إلى العنف المادي، وذلك بمحاولة فرض الرؤى والأفكار بالقوة، وتغيير ما يرونه منكراً بالقوة كذلك، دون مراعاة للمصالح والمفاسد، ودون بحث كاف للمسألة أحيانا ليعلم ضوابط تغيير المنكر باليد، حتى يصل الأمر بالبعض إلى حمل السلاح، وإتلاف الأموال

وإزهاق الأرواح المحرمة، والواقع خير شاهد على وبال مثل هذا الاستعجال؛ على أصحابه، وعلى الدعوة، وعلى المجتمع.

ومثال القنوط، ما يحصل لكثير من الأفراد الصالحين، إذ تضيق عليهم الأرض لكثرة مخالفة الناس لهم وعدم استجابتهم للناصحين، فينغلقون على أنفسهم، ويفقدون الأمل في صلاح الناس، ولسان حالهم يقول: هلك الناس، ولا خير فيهم! وفي الصحيح، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم"[1]، قال النووي رحمه الله: (رُوِي أهلكهم على وجهين مشهورين، رفع الكاف وفتحها، والرفع أشهر ... وأما رواية الفتح، فمعناها هو جعلهم هالكين، لا أنهم هلكوا في الحقيقة، واتفق العلماء على أن هذا الذم إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء على الناس واحتقارهم، وتفضيل نفسه عليهم، وتقبيح أحوالهم، لأنه لا يعلم سر الله في خلقه، قالوا: فأما من قال ذلك تحزناً لما يرى في نفسه وفي الناس من النقص في أمر الدين، فلا بأس عليه)[2].

وكم رأينا من أناس كانوا في زمن الشباب يمتلؤون حماسة ونشاطاً في الدعوة إلى الله، لكن اندفاعهم غير المنضبط، أدى بهم إلى الشعور بالإحباط من عدم الاستجابة كما يرجون، فانزووا، حتى لا يكاد أهل مسجدهم يستفيدون منهم بشيء، ورأينا من إخوانهم من كان يحمل مثل حماستهم إلا أنهم استمعوا لنصح مشايخهم، فانضبط اندفاعهم، وسارت سفينة دعوتهم، ربما أبطأ، لكن بعمق ورسوخ ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٢٤ (٢٦٢٣).

(٢) شرح النووي على مسلم ١٦/ ١٧٥.

رَبِّهَاۗ﴾ [إبراهيم: ٢٥]، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وأما التأني في غير موضعه فيضيع على صاحبه الفرص، وكثير يقع في هذا الأمر بدعوى الحكمة وعدم الاستعجال، والأمر يحتاج إلى فقه وفهم وتقدير للأمور، إلى حكمة حقيقية غير متوهمة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وهذا النوع من الدعاة قد يدفعه ضياع الفرص إلى القنوط أو التنازل، كما قلنا عن الاستعجال.

والذين وفقوا للصواب بين هؤلاء وهؤلاء؛ فيستعجلون في محل يقتضي الاستعجال، ويتأنون في محل يقتضي الأناة، كما قال الشاعر:

قد يُدرِكُ المتأني بَعضَ حاجَتِهِ ... وقد يكونُ مع المُستَعجِلِ الزَّلَلُ

وربما فات قوماً جُلُّ أمرهم ... مع التأني وكان الرأي لو عَجِلوا!(١)

وكثير من الناس يستشهد بالبيت الأول دون الثاني، مع أن البيتين مرويان لنفس الشاعر وفي نفس القصيدة!

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ٨﴾

فلما ذكر الله تعالى طائفة من المنذَرين وهم الذين قالوا اتخذ الله ولدا، وذكر حالهم وبين اتِّباعهم الجهل في زعمهم على ربهم، وعظّم افتراءهم عليه، ثم نهى النبي ﷺ عن الأسف عليهم، وذلك مناسب لعظم افترائهم، ناسب أن يُذَكِّر سبحانه عباده بالغاية من خلق الأرض وما عليها، وهي الاختبار الذي لابد من مفلح فيه وخاسر، وأن يبين مآلها وما عليها بعد هذا الاختبار، وأنها دار فناء لا دار بقاء، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بها وبما

---

(١) البيتان للقطامي التغلبي (ت١٣٠ هـ)، وهما من البحر البسيط.

عليها من الزينة الزائلة، وفي هذا البيان علة إرشاده ﷺ إلى الإعراض عن غير ما يقدر عليه من التبليغ للبشارة والنذارة، كالأسف والحزن عليهم، وهي أن الخلق لن يخرجوا عن مشيئته سبحانه التي قضت بخسارة بعضهم، لاستحقاقهم ذلك بإعراضهم عما جاءهم به ﷺ في هذا الكتاب من البشارة والنذارة، وأن الإيمان لا يقدر على إدخاله قلوبَهم غيره سبحانه، وأن وراءهم يوم هول عظيم آت لا محالة[1]، فتجد فيه كل نفس ما عملت محضراً، فلا تأسف عليهم.

---

(١) وجدت بعض هذا المعنى عند البقاعي، ثم وجدت ابن عاشور رحمه الله يقول في التحرير والتنوير٨/ ٣٣١:
(مناسبة موقع هذه الآية هنا خفية جداً أعوز المفسرين بيانُها، فمنهم ساكت عنها، ومنهم محاول بيانها بما لا يزيد على السكوت. والذي يبدو: أنها تسلية للنبي ﷺ على إعراض المشركين، بأن الله أمهلهم وأعطاهم زينة الدنيا لعلهم يشكرونه، وأنهم بطروا النعمة، فإن الله يسلب عنهم النعمة فتصير بلادهم قاحلة. وهذا تعريض بأنه سيحل بهم قحط السنين السبع التي سأل رسولُ الله ربَّه أن يجعلها على المشركين كسنين يوسف عليه السلام.
ولهذا اتصال بقوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢]. وموقع (إن) في صدر هذه الجملة موقع التعليل للتسلية التي تضمنها قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ [الكهف: ٦]، ويحصل من ذلك تذكير بعضهم قدرة الله تعالى، وخاصة ما كان منها إيجاداً للأشياء وأضدادها؛ من حياة الأرض وموتها، المماثل لحياة الناس وموتهم، والمماثل للحياة المعنوية والموت المعنوي من إيمان وكفر، ونعمة ونقمة، كلها عِبَر لمن يعتبر بالتغير، ويأخذ الأهبة إلى الانتقال من حال إلى حال، فلا يثق بقوته وبطشه، ليقيس الأشياء بأشباهها ويعرض نفسه على معيار الفضائل وحسنى العواقب.
وأوثر الاستدلال بحال الأرض التي عليها الناس لأنها أقرب إلى حسهم وتعقلهم).
وعندي أن ما أثبت أليق، وأن الشيخ وقع فيما وصف! فالكلام جاء في صدد أسفه ﷺ عليهم، وحرصه على هدايتهم، فالحرص الباخع لم يكن سببه ما آتاه الله أهل الكفر، ولكن سببه عدم استجابتهم أغنياء كانوا أو فقراء، موسرين أو معدمين، فهو ﷺ حزين لما يخافه عليهم من مآل، ولم يكن حزنه تغيظاً عليهم، والله أعلم.

وفي الآية مشروعية التزين، فلا اعتبار لمن يحرم الزينة والتزين، بل من حرم شيئاً من ذلك من تلقاء نفسه فقد تشبه بكفار العرب الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ [الأعراف: ٣٢]، قال الطبري رحمه الله: (قل، يا محمد، لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يتعرّون عند طوافهم بالبيت، ويحرمون على أنفسهم ما أحللتُ لهم من طيبات الرزق: من حرَّم، أيها القوم، عليكم زينة الله التي خلقها لعباده، أن تتزيَّنوا بها، وتتجملوا بلباسها، والحلال من رزق الله الذي رزق خلقه لمطاعمهم ومشاربهم)(١)، ثم ذكر إجماع أهل التأويل على أن هذا هو المراد بالزينة(٢)، وفرق بين أن يتزين الإنسان أو يتخذ زينة مما أباحه الله باعتدال، وبين أن يفعل ذلك بتبذير أو سرف أو مفاخرة، وفي الحديث: "كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مَخِيلة"(٣)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كل ما شئت، والبَس واشرب ما شئت، ما أخطأتك اثنتان: سرف أو مخيلة"(٤)، وفرق بين أن يتخذ المرء الزينة المباحة دون أن يتعلق بها قلبه، وبين أن تصبح أكبر همه وتملأ قلبه.

أما من ترك شيئاً من الزينة تورعاً وزهداً فليس له أن يحمل الناس أو يفتيهم بالورع، لكن الفتوى تكون بالتقوى، أي بالحلال والحرام، وأما الورع فيرشد إليه إرشاداً من باب طلب الكمال.

قال ابن عاشور: (لنبلوهم أيهم أحسن عملا، أي أفوَتَ في حسن

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٣٩٥.

(٢) السابق ١٢/ ٣٩٦.

(٣) ذكره البخاري في أول كتاب اللباس من الصحيح تعليقاً ٥/ ٢١٨٠.

(٤) السابق تعليقاً، وقد ذكر الحافظ في الفتح من وصل هذا الأثر والحديث السابق، انظر الفتح ١٠/ ٢٥٣.

العمل؛ من عمل القلب الراجع إلى الإيمان والكفر، وعمل الجسد المتبدي في الامتثال للحق والحيدة عنه، فمجموع الناس متفاوتون في حسن العمل. ومن درجات التفاوت في هذا الحسن تعلم بطريق الفحوى درجة انعدام الحسن من أصله وهي حالة الكفر وسوء العمل)[١]، وقال الشنقيطي: (وهذه الحكمة التي ذكرها هنا لجعل ما على الأرض زينة لها وهي الابتلاء في إحسان العمل، بين في مواضع أخر أنها هي الحكمة في خلق الموت والحياة والسموات والأرض، قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾ [هود: ٧]، وقد بين ﷺ الإحسان بقوله: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[٢])[٣].

وهنا نكتة لطيفة، إذ لم يقل: (أكثر عملاً)، فلم يعلق المدحَ بالكثرة ولكن علَّقه بالحُسن، وهذا المعنى تكرر في السورة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ [الكهف]، وجاء في غيرها من السور، فمنه ما قاله العلامة الشنقيطي قريباً، ومنه قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢١﴾ [التوبة]، وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [النحل]، وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ [الأحقاف]، وغيرها.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: (وعلى هذا، لو صلى الإنسان أربع

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٥٧.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٢٧ (٥٠)، صحيح مسلم ١/ ٣٦ (٨).

(٣) أضواء البيان ٣/ ٢٧٩.

ركعات لكنْ على يقين ضعيف، أو على إخلال باتباع الشرع، وصلى آخر ركعتين بيقين قوي ومتابعةٍ قوية، فأيهما أحسن؟ الثاني بلا شك أحسن وأفضل، لأن العبرة بإحسان العمل وإتقانه إخلاصاً ومتابعة)(١)، ثم ضرب مثلاً يبين أن الشرع قد يأتي بتفضيل العمل القليل على الكثير فقال: (في بعض العبادات الأفضل التخفيف؛ كركعتي الفجر مثلاً، لو قال إنسان: أنا أحب أن أطيل فيها، في قراءة القرآن، وفي الركوع، والسجود والقيام، وآخر قال: أنا أريد أن أخفف، فالثاني أفضل)(٢). وعن عائشة رضي الله عنها: "سئل النبي ﷺ، أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: أدومها وإن قل"(٣)، فالعمل الدائم القليل، أحسن وأحب إلى الله من المتقطع الكثير.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾.

قال ابن إسحاق: (يعني الأرض، إن ما عليها لفان وبائد وإن المرجع لإلى الله، فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى)(٤). و(جرزاً) أي جرداء، كأن في هذا إشارة إلى تهيئتها ليوم البعث حيث يجمع الله الأولين والآخرين في أرض خالية، كما أثر عن سهل بن سعد رضي الله عنه في تفسير ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾ [النازعات] قال: (أرض بيضاء عفراء خالية كالخُبزَة النَّقِيّ)(٥).

والمعنى: (إنَّا جعلنا ما على وجه الأرض من المخلوقات جَمالاً لها، ومنفعة لأهلها؛ لنختبرهم: أيُّهم أحسن عملاً بطاعتنا، وأيهم أسوأ عملاً بالمعاصي، ونجزي كلاً بما يستحق، وإنَّا لجاعلون ما على الأرض من تلك

---

(١) من تفسيره رحمه الله لسورة الكهف.
(٢) السابق.
(٣) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٧٣ (٦١٠٠)، صحيح مسلم ١/ ٥٤١ (٧٨٣).
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٣٧.
(٥) تفسير ابن كثير ٨/ ٣١٤.

الزينة عند انقضاء الدنيا ترابًا، لا نبات فيه)[١].

وقد اختلف في عموم ﴿مَا عَلَيْهَا﴾، هل كل ما على الأرض زينة لها، أم ما يصلح أن يكون زينة؟ فاستدل قوم بظاهر عموم الاسم الموصول، واستدل آخرون على أنه مخصوص بذكر البلاء والمبتلى، فناسب أن يكون المبتلى غير البلاء، وأن المقصود الزينة التي يحصل لهم بها الابتلاء.

والآية تشعر بعموم مخصوص وهو الزينة التي يصلح أن تكون ابتلاء، لا كل زينة، فضلاً عن كون كل ما على الأرض ظاهراً أو باطناً من جن وإنس ودواب وهوام ومنخفض ومرتفع زينةً لها، والله أعلم.

وهذه الزينة التي يكون بها الابتلاء أنواع، منها ما نص عليه في نحو قوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، وقوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]، وكذا كل نعمة هي زينة يختبر الله العباد بما عملوا فيها هل شكروا لله نعمته أم كفروها.

قال الشنقيطي: (وهذا ... فيه أكبر واعظ للناس، وأعظم زاجر عن اتباع الهوى، وإيثار الفاني على الباقي، ولذا قال ﷺ: "إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون. فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء"[٢])[٣].

ثم ضرب الله بعد ذلك مثلاً بفتية لم يغتروا بزخرف الدنيا، فلم يؤثروها على ما علموا من الحق، بخلاف هؤلاء المشركين السائلين عنهم، فكان في هذا تعريض بهؤلاء المشركين، الذين عميت بصائرهم عن الحكم

---

(١) التفسير الميسر مجمع الملك فهد ٥/ ١١٣.
(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٩٨ (٢٧٤٢).
(٣) أضواء البيان ٣/ ٢٧٩-٢٨٠.

العظيمة في قصة الفتية، وما فيها من إبطال ما هم عليه من إنكار البعث والنشور، وصحة ما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ، لو كانوا يعقلون!

إجمال قصة أصحاب الكهف وغرضها

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الكهف].

وهذا إجمال لخبر أصحاب الكهف الذين سأل عنهم كفار قريش، ولئن كان اليهود قد أشاروا على القوم بهذا السؤال وغيره ليختبروا صدق النبي ﷺ في دعوى الرسالة، فقد أراد الكفار من هذا السؤال تعجيزه ﷺ ليسوغوا لأنفسهم ما هم عليه من تكذيبه والكفر بما جاء به.

فجاء جواب القرآن على خلاف مرادهم من وجوه؛ **الأول** مجرد الرد أطاح بأحلامهم في انقطاع الوحي، **والثاني** موافقة الرد لما يعلمه اليهود من القصة، وإلا لاحتجوا بالمخالفة لما يعلمه أهل الكتاب، **والثالث** لم يأت الجواب بسرد الأحداث سرداً مجرداً، بل جاء أيضا بتقرير قضايا العقيدة؛ كإثبات الألوهية لله وحده، والبراءة من المعبودات سواه ومن عابديها، وتضمن إثبات البعث، وعظيم قدرة الله ﷻ، إلى غير ذلك.

وبالتأمل نجد أن الله قد قدم لهذا الجواب أيضاً بخلاف ما يتمنى القوم، فقد أكد أولاً أن هذا الكتاب القيِّم منزل من عنده سبحانه على عبده محمد ﷺ، إثباتاً لصدقه نبوته فقال: ﴿ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾ [النساء]، والآيات في ذلك كثيرة؛ وشهادته سبحانه أقوى في الدلالة على صدقه عليه السلام من نجاحه

في الاختبار الذي أشار به اليهود، فلا يبعد أن يكون علم اليهود بالقصة مخالفاً للحق الذي قصه الله على نبيه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾ [النساء]، ثم أنذر من يخالف أمره وبشر من يتبع ما في القرآن من الهدى، ثم خص من ينسب له الولد بغير علم -ومن سأل عن أهل الكهف منهم- بالنذارة، ونهى نبيه ﷺ عن الأسى والحزن على من أصر منهم على التكذيب، ثم بعد أن أكد الله صيرورة الأرض يوم القيامة صعيداً جرزاً، تمهيداً لإثبات البعث، ذكر الخبر الذي سأل عنه القوم.

التفسير التفصيلي

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾

قال الشنقيطي رحمه الله: (﴿ أَمْ ﴾ ... هي المنقطعة على التحقيق، ومعناها عند الجمهور «بل والهمزة» وعند بعض العلماء بمعنى «بل» فقط، فعلى القول الأول فالمعنى: بل أحسبت، وعلى الثاني فالمعنى: بل حسبت، فهي على القول الأول جامعة بين الإضراب والإنكار، وعلى الثاني فهي للإضراب الانتقالي فقط)[1].

وهذا الإضراب كما قال ابن عاشور، إضراب انتقال من المقدمة إلى المقصود، قال: (هذا من المقاصد التي أنزلت السورة لبيانها ... هو كالانتقال من الديباجة والمقدمة إلى المقصود. على أن مناسبة الانتقال إليه تتصل بقوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾، إذ كان مما صرف المشركين عن الإيمان إحالتهم الإحياء بعد الموت، فكان ذكر أهل الكهف وبعثهم ... مثالاً لإمكان البعث)[2].

قال الشنقيطي: (وأظهر الأقوال في معنى الآية الكريمة: أن الله يقول لنبيه ﷺ: إن قصة أصحاب الكهف وإن استعظمها الناس وعجبوا منها، فليست شيئاً عجباً بالنسبة إلى قدرتنا وعظيم صنعنا)[3]، وقال ابن كثير رحمه الله: (أي: ليس أمرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا، فإنَّ خلْق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب،

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٨٠.

(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٣٣.

(٣) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٨٠.

وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء، أعجب من أخبار أصحاب الكهف والرقيم، كما قال ابن جريج عن مجاهد: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾، يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك!)[1].

وهذا صحيح لا مرية فيه، إلا أن الناس لكثرة مشاهدة الآيات في الآفاق وفي أنفسهم وإلفهم لها، تصبح في نظرهم أشياء عادية لا تستوقف إلا من قال عنهم: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران]، فكأن معنى (أم حسبت): بل هناك ما هو أعجب.

وأيضاً، فقصة أصحاب الكهف تعجب منها الناس، فبين الله أنها ليست أعجب القصص! ولا أعجب أخبار القرآن، بل في نفس السورة أعجب منها، كقصة الخضر مع موسى عليهما السلام، وقصة ذي القرنين، فإن في هاتين عجائب لا نظير لها في سائر القرآن بخلاف قصة أصحاب الكهف فإن لها نظائر مثلها أو أعظم في القرآن، ومن ذلك خبر الذي أماته الله مائة عام، وخبر الألوف الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت ونحوهما.

على أن العجب في الآية ليس عجب شك وارتياب، لكنه عجب تعظيم وإجلال لقدرة الله، إذ ليس في خلق الله ما يصعب عليه سبحانه، قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود].

وأصحاب الكهف هم الفتية الآتي ذكرهم، سموا بذلك نسبة إلى

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٣٨.

الكهف الذي أووا إليه، والكهف تقدم الكلام عليه، وهو كما قال ابن منظور: (كالمَغارة في الجبل إلا أَنه أَوسع منها، فإذا صغر فهو غار)[١]؛ وملخص قصتهم أنهم فتية آمنوا بالله وكانوا في زمن ملك ظالم يعذب كل من آمن بالله، فخافوا من التعذيب وخافوا أشد من ذلك الفتنة في الدين، ففروا بدينهم وأووا إلى هذا الكهف، فرقدوا رقدة طويلة ثم بعثهم الله بعد هلاك أهل زمانهم، ليكونوا للناس آية.

قال صاحب الأضواء رحمه الله: (اختلف العلماء في المراد بـ{الرقيم} في هذه الآية على أقوال كثيرة، قيل: الرقيم اسم كلبهم، وهو اعتقاد أمية بن أبي الصلت إذ يقول:

وَلَيسَ بِها إِلا الرَّقيمُ مُجاوراً وَصِيدَهُمُ وَالقومُ في الكَهفِ هُمَّدُ[٢]

وعن الضحاك أن الرقيم: بلدة بالروم، وقيل: اسم الجبل الذي فيه الكهف، وقيل: اسم للوادي الذي فيه الكهف، والأقوال فيه كثيرة. وعن ابن عباس أنه قال: لا أدري ما الرقيم؟ أكتاب أم بنيان؟

وأظهر الأقوال عندي ... أن الرقيم معناه: المرقوم، فهو فعيل بمعنى مفعول، من رقمت الكتاب إذا كتبته، ومنه قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ [المطففين]، سواء قلنا: إن الرقيم كتاب كان عندهم فيه شرعهم الذي تمسكوا به، أو لوح من ذهب كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم وقصتهم وسبب خروجهم، أو صخرة نقشت فيها أسماؤهم)[٣].

وأصحاب الكهف وأصحاب الرقيم شيء واحد، قال الشنقيطي:

---

(١) لسان العرب ٩/ ٣١٠.

(٢) البيت من البحر الطويل، وأمية بن أبي الصلت ت (٥ هـ).

(٣) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٨١.

(والظاهر أن أصحاب الكهف والرقيم طائفة واحدة أضيفت إلى شيئين أحدهما معطوف على الآخر، خلافاً لمن قال: إن أصحاب الكهف طائفة، وأصحاب الرقيم طائفة أخرى، وأن الله قص على نبيه في هذه السورة قصة أصحاب الكهف ولم يذكر له شيئاً عن أصحاب الرقيم؛ وخلافاً لمن زعم أن أصحاب الكهف هم الثلاثة الذين سقطت عليهم صخرة فسدت عليهم باب الكهف ... واعلم أن قصة أصحاب الكهف وأسماءهم، وفي أي محل من الأرض كانوا، كل ذلك لم يثبت فيه عن النَّبي ﷺ شيء زائد على ما في القرآن، وللمفسرين في ذلك أخبار كثيرة إسرائيلية أعرضنا عن ذكرها لعدم الثقة بها)[١].

أقول: ينبغي أن يُعلَمَ أن المقصود من قصص القرآن هو الاعتبار واستخلاص الدروس والفوائد مما ينفع الناس في دنياهم وأخراهم، وأما ما يشبه الكلام عن أسماء أصحاب الكهف وزمانهم ومكان كهفهم، مما لم يذكر في القرآن ولا في السنة، فلا فائدة ترجى من ذلك. إلا أن من طالع كتب التفسير وجد من ذكر ذلك شيئاً كثيراً حتى ذكر بعضهم اسم الكلب، وأنا أنصح بالبعد عن تتبع هذه الأشياء التي لا طائل من ورائها.

إن ما سكت الله عنه مما ينفع الناس عفو كما قال عليه السلام: "ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله العافية"[٢]. فكيف بمثل هذه الأمور؟ وأي شيء سيفيد هذا الكلام! نعم، قد ثبت في الحديث: "حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"[٣]، لكن هذا فيما يفيد ولا يسبب خلافا لا طائل من ورائه.

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٨١.

(٢) المستدرك ٢/ ٤٠٦ (٣٤١٩)، وانظر السلسلة الصحيحة ٥/ ٣٢٥ (٢٢٥٦).

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٢٧٥ (٣٢٧٤).

قال ابن كثير ﷺ: (... وما كان من هذا الضرب منها فقد ترخص كثير من السلف في روايتها، وكثير من ذلك ما لا فائدة فيه، ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين، ولو كانت فيه فائدة تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة. والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية، لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم)[1].

ولا بد أن يتنبه طالب العلم إلى أن المطلوب تحصيله هو العلم النافع، وقد كان من دعاء النبي ﷺ: "اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَع"[2].

فائدة- من حماية جناب التوحيد اندثار آثار هؤلاء

إن المتأمل لحال كثير من الناس يلمس تعلقهم بالأوهام، ومن ذلك أوهام وتخيلات باطلة شاعت عن أصحاب الكهف، قال ابن عاشور ﷺ: (الأخبار الزائفة عن تعيينه في مواضع من بلدان المسلمين من أقطار الأرض كثيرة)[3]، وقال أيضا: (وقصة أهل الكهف لها اتصال بتاريخ طور كبير من أطوار ظهور الأديان الحق، وبخاصة طور انتشار النصرانية في الأرض، وللكهوف ذكر شائع في اللَّوْذ إليها والدفن بها، وقد كان المتنصرون يُضطهدون في البلاد، فكانوا يفرون من المدن والقرى إلى الكهوف يتخذونها مساكن، فإذا مات أحدهم دفن هنالك، وربما كانوا إذا قتلوهم وضعوهم في الكهوف التي كانوا يتعبدون فيها)[4]، فمن هنا -والله أعلم- وقع

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٣٤٧-٣٤٨.

(٢) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٨٨) ٢٧٢٢.

(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٣٥.

(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٣٦.

الاشتباه وثارت التوهمات.

وأياً كان مثارها فإنها ثارت في كثير من الأقطار، ومن أجرى بحثاً يسيراً على الشابكة العالمية عن موقع أصحاب الكهف وجد عجباً!

وإن كانت هذا يثير العجب، فالأعجب أن يأتي قوم زاعمين عثورهم على قبورهم، ثم يقومون بعمل برامج متلفزة يصورون فيها قبورهم وهياكلهم، ونُذَكِّر هؤلاء الزاعمين رؤيتهم، الواصفين قبورهم وقبر كلبهم وبقايا هياكلهم العظمية، بقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ [الكهف]، فإن كان هذا الخطاب لنبينا ﷺ، أيمكن الله هؤلاء أو غيرهم من رؤيتهم والاطلاع عليهم بكل هدوء واطمئنان؟ والحقيقة أن بعض الناس يستخِفُّون بالعقول فيصورون هذه البرامج لأكل أموال الناس، وما بني على باطل فهو باطل، كما قال الشاعر:

وَهَل يُنبِتُ الخَطِّيَّ إِلّا وَشيجُهُ ... وَتُغرَسُ إِلّا في مَنابِتِها النَّخلُ(١)

وقد سبق في علم الله أن عادة الناس التعلق بالأوهام، فمنع مِن علم قبور الأنبياء الذين هم محل عناية متبوعيهم، ومحط رعاية وتعظيم يفوق تعظيم أصحاب الكهف، فكيف بقبور هؤلاء! قال شيخ الإسلام: (وليس في الأرض قبر اتفق الناس على أنه قبر نبي غير قبره، وقد اختلفوا في قبر الخليل وغيره)(٢)، وقال في موضع آخر: (وسبب اضطراب أهل العلم بأمر القبور أن ضبط ذلك ليس من الدين، فإن النبي قد نهى أن تتخذ القبور مساجد، فلما لم يكن معرفة ذلك من الدين لم يجب ضبطه)(٣).

وقد اتفق أئمة الإسلام على أنه لا يشرع بناء هذه المشاهد على القبور،

---

(١) البيت من البحر الطويل، وهو لزُهَير بن أبي سُلمَى (ت ١٣ ق. هـ).

(٢) مجموع الفتاوى ٢٧/ ١١٦.

(٣) السابق ٤/ ٥١٦.

ولا يشرع اتخاذها مساجد، ولا يشرع الصلاة عندها، ولا يشرع قصدها لأجل التعبد عندها بصلاة أو اعتكاف أو استغاثة أو ابتهال أو نحو ذلك، وكرهوا الصلاة عندها، ثم إن كثيراً منهم قال إن الصلاة عندها باطلة لأجل نهي النبي عنها)[1].

وقال: (ولم يكن على عهد الصحابة قبر نبي ظاهر يزار، لا بسفر ولا بغير سفر، لا قبر الخليل ولا غيره، ولما ظهر بتستر قبر دانيال -وكانوا يستسقون به- كتب فيه أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه يأمره أن يحفر بالنهار ثلاثة عشر قبراً ويدفنه بالليل في واحد منها ويعفي القبور كلها لئلا يفتتن به الناس، وهذا قد ذكره غير واحد، وممن رواه يونس بن بكير في زيادات مغازي ابن إسحق عن أبي خلدة خالد بن دينار حدثنا أبو العالية قال: "لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف له فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعباً فنسخه بالعربية فأنا أول رجل من العرب قرأه، قرأته مثلما قرأ القرآن هذا، فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد. قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس لا ينبشونه، قلت: وما يرجون فيه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون، فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له دانيال. فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة. قلت: ما كان تغير منه شيء؟ قال: لا إلا شعيرات من

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٧/ ٤٤٧-٤٤٨.

قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع". ولم تدع الصحابة في الإسلام قبراً ظاهراً من قبور الأنبياء يفتتن به الناس، ولا يسافرون إليه ولا يدعونه ولا يتخذونه مسجداً، بل قبر نبينا حجبوه فى الحجرة ومنعوا الناس منه بحسب الإمكان، وغيره من القبور عفوه بحسب الإمكان إن كان الناس يفتتنون به، وإن كان لا يفتتنون به فلا يضر معرفة قبره)(١).

ومن هذا نعلم سبب ترك ذكر محل الكهف وأصحابه، ونعلم تخرص الذين عنَّوا أنفسهم بتعيينه، وليس في عملهم ما يحمد لهم، بل لو عرف فالواجب اعتزال الغيران والبوادي والمناطق المنقطعة عن الناس إلَّا في زمن الفتنة.

أما قصد الصلاة والدعاء عند تلك الكهوف والغيران وما أشبهها فهو كما قال ابن تيمية: (من البدع المحدثة المنكرة في الإسلام ... بل هو من أسباب الشرك وذرائع الإفك)(٢).

وسفر الناس إلى تلك الكهوف والغيران اعتقاداً لفضلها محرم بالإجماع، فإن (مِن الناس مَن يسافر إلى ما يعتقد فضله من الجبال والغيران، وإذا كان الطور الذي كلم الله عليه موسى وسماه البقعة المباركة والوداي المقدس لا يستحب السفر إليه، فغير ذلك من الجبال أولى أن لا يسافر إليه، وقولي بالإجماع أعني به إجماع السلف والأئمة، فإن الصحابة كابن عمر وأبي سعيد وأبي بصرة وغيرهم فهموا من قول النبي ﷺ: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد"(٣) أن الطور الذي كلم الله عليه موسى وسماه الوادي المقدس

---

(١) السابق ٢٧/ ٢٧١.

(٢) الفتاوى ٢٧/ ١٤٥.

(٣) صحيح البخاري ١/ ٣٩٨ (١١٣٢)، صحيح مسلم ٢/ ١٠١٤ (١٣٩٧).

والبقعة المباركة داخل في النهي، ونهوا الناس عن السفر إليه، ولم يخصوا النهي بالمساجد، ولهذا لم يوجب أحد ذلك بالنذر، وما علمت في هذا نزاعاً قديماً)[١].

إذا علم ما سبق فإن من نعم أن منَّ علينا بهذين الإمامين؛ محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود رحمهما الله، اللذين اتفقا على نشر عقيدة التوحيد الصافية بدل البدع والشركيات؛ إذ كان الناس لعشرات السنين إلى أول عهدهما -حتى في نجد- يذهبون إلى الشجر والحجر لقضاء حوائجهم، تأتي المرأة فتقول: يا فحل الفحول هب لي زوجاً قبل الحول!

لقد كانت جزيرة العرب أرض التوحيد من فجر الإسلام، ومع مرور الأيام دخلها شيء من العبادات الباطلة ثم عادت بفضل الله لعقيدة التوحيد.

واليوم يراد لهذه البلاد أن تعود من جديد إلى الأوهام والشركيات، ومن أخطر الأمور أن ينشط أهل البدع والأهواء، فمسجد البيعة عند الجمرات ما كنا نعرفه إلا أنهم أظهروه الآن، ورأى بعض العلماء الناس عنده يتمسحون به ويأخذون الصور، ولا ندري ماذا يحصل بعد ذلك، ويحاولون الآن إظهار قبر آمنة أم النبي ﷺ، وكذلك مسجد عمر الذي أمر بقطع الشجرة التي قيل إن البيعة تمت عندها خشية أن يفتتن الناس بها فتعبد أو تعمل عندها البدع، فلا بد من إلغاء كل باطل أو ما يؤدي إليه حماية لجناب التوحيد.

(١) مجموع الفتاوى ٢٧/ ٢٥٠.

فائدة وتنبيه:

النهي عن السفر تعظيماً لبقعة ما، لا يشمل قصد التجارة أو النزهة أو نحو ذلك ما لم يتضمن محذوراً آخر، فمن ذهب لما يُزعم أنه الكهف في الأردن مثلاً بقصد الفرجة والسياحة فلا محذور في فعله، إلَّا إن ترتب عليه محذور آخر؛ كأن يكون من أهل العلم ويخشى فهم العامة أن زيارته قربة، أو أن تعظيمه مشروع ونحو ذلك.

فالمنهي عنه سفر التعظيم ولو لم يحدث فيها عبادة، فإن أحدث عبادة أو اعتقد فضل العبادة فيه كان أقبح، كأن يعتقد في غار حراء أو غار ثور ويحرص على الصلاة فيه.

فرع عن هذا: لما مات الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله أبى قوم السفر للصلاة عليه، وقالوا: "لا تشد الرحال..." الحديث، وهذا نظرٌ غير موفق، فالتاجر يشد رحله يبتغي من فضل الله، وطالب العلم يشد رحله في طلبه، وجرت عادة الناس بشد رحالهم لأغراض كثيرة، فجعل النهي في الحديث عاماً لكل ذلك خطأ ظاهر، فالمنهي عنه هو المتضمن تعظيم بقعة بعينها وقصدها لأجل ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾

قال ابن فارس رحمه الله: (أوي: الهمزة والواو والياء أصلان: أحدهما التجمُّع... قال الخليل: يقال أوَى الرّجلُ إلى منزله وآوَى غَيرَه أُوِيّاً وإيواءً. ويقال أوَى إواءً أيضاً. والأُوِيُّ أحسن. قال تعالى: ... ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]. والمأوَى: مكانُ كلِّ شيءٍ يُأوى إليه ليلاً أو نهاراً. وأوَت

الإبلُ إلى أهلها تأوِي أُوِيّاً فهي آوِيةٌ. قال الخليل: التأوِّي التجمُّع)[١]، ولم يصب من جعله مجازاً، أصله الإرجاع، بل أصله ما قدم هنا. وتأمل هذا المعنى في قوله: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [يوسف]، وهكذا أوى هؤلاء الفتية إلى الكهف، كما أوى الصحابة بعدهم إلى ملك الحبشة، فنشر لهؤلاء وهؤلاء ربهم من رحمته الواسعة ما شاء!

والفتية جمع قلة لفتى، وجمع القلة يأتي على أوزان أربعة: أفعِلة كأرغفة، وأفعُل كأبحر، وأفعال كأحمال، وفِعْلة كفتية، ومدلوله من الثلاثة إلى العشرة، واختلف في دخول العشرة واتفق على أن ما بعدها كثير[٢].

فدل ذلك على أن عددهم ينحصر فيما بين الاثنين والعشرة، مع احتمال دخول العشرة دون الاثنين، وهذا من الفوائد، ويبين مكانة هذه اللغة وكيف يكون لاختلاف الأوزان فيها دلالة على المعنى؛ فهم قلة لم يكن لهم عدد يتقوون به، ومع قلتهم كانوا فتية، والفتى يكون اسماً وصفة، ويقال في الأصل للشاب الحدث الطري، ويمتد من أول الشباب إلى أن يقوى ويشتد فيبلغ مداه في نحو الثلاثة والثلاثين، وقد تزيد بحسب اختلاف الناس، فما بين ذلك سن الفتوة، فهو في أصله تعبير عن مرحلة عمرية.

فائدة- جمع الألوسي كلام أهل العلم في ذكر **مراحل نمو الإنسان** فقال: (قد ذكر غير واحد أن ابن آدم ما دام في الرحم فهو جنين، فإذا ولد فهو وليد؛ ثم ما دام يرضع فهو رضيع، ثم إذا قطع اللبن فهو فطيم، ثم إذا دب

---

(١) مقاييس اللغة ١/ ١٥١.

(٢) انظر البحر المحيط للزركشي ٤/ ١٢٤.

ونما فهو دارج، فإذا بلغ خمسة أشبار فهو خماسي، فإذا سقطت رواضعه فهو مثغور، فإذا نبتت أسنانه فهو مثغر، بالتاء والثاء كما قال أبو عمرو، فإذا قارب عشر سنين أو جاوزها فهو مترعرع وناشيء؛ فإذا كان يبلغ الحلم أو بلغه فهو يافع ومراهق، فإذا احتلم واجتمعت قوته فهو حَزَوَّر، واسمه في جميع هذه الأحوال غلام؛ فإذا اخضر شاربه وأخذ عذاره يسيل قيل: قد بقل وجهه، فإذا صار ذا فتاء فهو فتى وشارخ، فإذا اجتمعت لحيته وبلغ غاية شبابه فهو مجتمع، ثم ما دام بين الثلاثين والأربعين فهو شاب، ثم كهل إلى أن يستوفي الستين -ويقال لمن لاحت فيه أمارات الكبر وخطه الشيب- ثم يقال شابَ، ثم شمط، ثم شاخ، ثم كبر، ثم هرم، ثم دلف، ثم خرف، ثم أهتر، ومحا ظله إذا مات. وهذا الترتيب إنما هو في الذكور، وأما في الإناث فيقال للأنثى ما دامت صغيرة: طفلة، ثم وليدة إذا تحركت، ثم كاعب إذا كعب ثديها، ثم ناهد، ثم معصر إذا أدركت، ثم عانس إذا ارتفعت عن حد الإعصار، ثم خود إذا توسطت الشباب، ثم مسلف إذا جاوزت الأربعين، ثم نصف إذا كانت بين الشباب والتعجيز، ثم شهلة كهلة إذا وجدت من الكبر وفيها بقية وجلد، ثم شهربة إذا عجزت وفيها تماسك، ثم حيزبون إذا صارت عالية السن ناقصة العقل، ثم قلعم ولطلط إذا انحنى قدّها وسقطت أسنانها)[(١)].

واسم الفتى بمجرده ليس بمدح ولا ذم، كاسم الشاب والحدث، ولهذا وصف به المتقين والكافرين، قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ [يوسف: ٣٦]، ولكن الشاب ألين من الشيخ، فصار في طبعه بذل وسخاء وكرم لايوجد في الشيوخ، فصاروا يعبرون بالفتى عن السخي والكريم، ثم

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ٣/ ٤٣.

استعمل بمعنى المتصرف بمكارم الأخلاق، ولذا نجد أكثر المجاهدين من الشباب؛ لأنهم يسخون بأنفسهم أكثر من غيرهم، وصغار الصحابة كانوا يأتون النبي ﷺ شاكين: أجزت فلاناً ولم تجزني! وهو يؤخرهم حتى يبلغوا.

وفي وصف أصحاب الكهف بالفتية ثناء عليهم بدلالة السياق، لأن الفتى يألف اللهو والباطل، فلما لم يصرفهم ذلك عن المعالي استحقوا التنويه.

فالشباب طاقة عظيمة وثروة كبيرة للأمة، والتغيير في الأمم إنما يكون بسواعد شبابها وتضحياتهم، وقد كان أبو بكر ﷺ في الثامنة والثلاثين عندما أسلم، قال ابن كثير رحمه الله: (وهم الشباب، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وعَسَوا[1] في دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شبابًا؛ وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بَقوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل)[2].

وهؤلاء الفتية مع صغر سنهم، المستلزم عادة قلة العلم والخبرة، أنعم الله عليهم بالعلم وألهمهم الصواب، فأحسنوا التصرف فنجوا بدينهم وأووا إلى الكهف؛ وقد أثنى الله ﷻ على إبراهيم ﵇ بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١﴾ [الأنبياء]، قال ابن كثير: (أي: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه)[3]، فليس بعزيز عليه سبحانه أن يمنَّ على أبناء خير الأمم بمثل ذلك، بل وقع هذا كثيراً، ومن تصفح كتب السير والتراجم وجد ذلك بين الفتية من الصحابة ومن جاء بعدهم، فمن

---

(١) عسوا: أي كبروا واشتدوا، انظر لسان العرب، مادة (عسا) ١٥/ ٥٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ٣٤٧.

ذلك ما ذكره الطرطوشي رحمه الله قال: (لما ولي عمر بن عبد العزيز وفد عليه الوفود من كل بلد، فوفد عليه الحجازيون، فتقدم منهم غلام للكلام وكان حديث السن، فقال عمر: لينطق من هو أَسَنُّ منك. فقال الغلام: أصلحَ اللهُ أميرَ المؤمنين! إنما المرء بأصغرَيه: قلبِه ولسانِه، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً، فقد استحق الكلام، وعرف فضله من سمع خطابه، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن لكان في الأمة من هو أحق منك بمجلسك هذا. فقال عمر: صدقت! قل ما بدا لك)(١).

ونحن اليوم لدينا والحمد لله شباب عندهم من العقل والحكمة والرزانة ما يثلج القلوب، وبعضهم لم يبلغ العشرين، بل منهم من يشهد له أصدقاؤه بحكمته وعقله مذ كان صبياً في العاشرة أو قبلها، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، إلا أن الإنسان كالغرسة، تحتاج من يتعاهدها كي تؤتي أكلها، لذا فإننا نحتاج لبث روح الحكمة في أولادنا منذ الصغر، لا سيما في هذه الأيام مع إطلاق الشباب للأحكام دون ترو، وما يتبع ذلك من تهورات، مع أنها قد تكون في بدافع الغيرة مع صدق النية، لكن الغيرة وحدها لا تكفي، لأنها بغير حكمة وتعقل تدفع للأخطاء، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: "وكم من مريد للخير لن يصيبه"(٢)، وقد كان الشباب يضحون عبر التاريخ ويبذلون الغالي والرخيص، إلا أن التضحية قد تكون صحيحة ومفيدة وفي مكانها، وقد تكون غير ذلك.

والخبر يشعر **بوفور عقول** هؤلاء الفتية، إذ لم تدفعهم حمية الشباب، وفورة القوة النفسية في تلك المرحلة إلى تصرفات غير محسوبة، أو مواجهات

---

(١) سراج الملوك ١/ ٢٦.

(٢) سنن الدارمي ١/ ٧٩ (٢٠٤)، قال حسين سليم أسد: إسناده جيد.

مستعجلة، ولم يدخلوا في مغامرات كما يحصل من بعض الشباب هداهم الله، بل انسحبوا معتزلين في هدوء، وهذا من حكمتهم التي أوتوها مع صغر سنهم وقلة خبرتهم، فإنهم لما علموا أنه لا ينبغي لأحد أن يأمن على نفسه من الفتنة أو يلقي بها في التهلكة فروا بدينهم، وما قالوا: نحن لا نخشى شيئاً ولا نبالي بما يفعله قومنا! وهذا درس عظيم، فلا ينبغي لأحد أن يقدم على الفتنة راضياً مختاراً ما دام في سعة من ذلك، ولا أن يأمن على نفسه قائلاً: أنا إن ابتليت سأصبر. وما يدريه! بل ليسأل الله السلامة والثبات إن تعرض لها، وليتبرأ من حوله وقوته، وفي الحديث: "أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا"(١).

وكم رأينا ومر بنا أناس كانوا يقولون: لو ابتلينا لصبرنا ولفعلنا وفعلنا، وأعلنوا ذلك على الملأ! لكنهم لما ابتلوا فتنوا ولم يصبروا، نسأل الله العافية، فالفتنة شديدة، ولا ينبغي لأحد أن يذل نفسه ولا أن يعرضها للبلاء، فعن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه. قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: يتعرض من البلاء لما لا يطيق"(٢)، ومع بدء الصحوة المباركة طلب بعض الدعاة النصيحة من أحد كبار العلماء فنصحه ألا يدخل في الفتن وأن ينأى بنفسه عنها، قال: ولا تحدثك نفسك أنك ستدخل ثم تخرج سالماً، فإنك لو دخلت قد لا تستطيع أن تخرج، وقد تخرج وقد تلوثت بالفتنة، لكنك تستطيع ابتداء ألا تدخل!

وفرق بين أن يأتي البلاءُ المرءَ ولم يختره، فيصبر لقضاء الله وقدره، أو

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٠٨٢ (٢٨٠٤)، صحيح مسلم ٣/ ١٣٦٢ (١٧٤٢).
(٢) سنن الترمذي ٤/ ٥٢٢ (٢٢٥٤)، وصححه الألباني.

يرضى، وبين أن يتعرض بنفسه للبلاء بلا داع، ونبي الله يوسف ﷺ لما قالت امرأة العزيز: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾ [يوسف] وجد نفسه بين ابتلاءين فاختار السجن في سبيل الله على أن يقع فيما حرم الله، لكنه لم يعرض نفسه لفتنة السجن قائلاً: اسجنوني! لكنه لما خير بين أمرين اختار السجن.

إن الابتلاء سنة ماضية، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت]، وعن سعد ﷺ قال: "قلت يا رسول الله: أي الناس أشد بلاء؟ قال الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه"(١)، والأنبياء أحب الخلق إلى الله منهم من ضُرِب، ومن سُجِن، ومن أُخرِج من أرضه، بل ومن قُتِل، ثم على طريقهم سار الكُمَّل من أتباعهم.

لقد ضُرب الأئمة؛ أبو حنيفة ومالك وأحمد، وسجن الإمام أحمد والعز بن عبد السلام وابن تيمية وابن القيم وغيرهم، إلا أنهم لم يلقوا بأنفسهم في خضم الفتن، ولم يختاروا السجن والضرب طواعية، لكنهم لما خيروا بين قول الحق أو أداء ما عليهم وبين الضرب أو السجن اختاروا الثاني رضا بقضاء الله وقدره، فالمقصود: أن وقوع الابتلاء شيء، وتعريض النفس له شيء آخر.

دخل أولئك النفر الكهف وهم فتية، ومن كانت هذه سنه لم يكن غالبا من أهل المناصب، وهذا مما يبطل ما رُوي في تسميتهم، وأنهم كانوا مستشاري الملك، وفي تسميتهم أثر آخر عن ابن عباس وفيه نظر.

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٦٠١ (٢٣٩٨)، قال الألباني: حسن صحيح.

ومن الخرافات التي رتبت عليه أن لأسمائهم تلك خواص، وذكروا من خواصها أشياء كثيرة عجيبة؛ ككتابتها لإطفاء الحريق، وللهرب من الطالب، ولإسكات بكاء الصغير، ولأمراض مختلفة، وللغنى، وللجاه، وللدخول على السلاطين، إلى غير ذلك من الخصائص التي لم تكن في كتابة أسماء الله ﷻ الثابتة! ومع ذلك قال بها بعض أهل العلم وزعم أنها مجربة، ولو صح هذا لم يؤمَن أن تكون أسماء شياطين ورُقية أفاكين، إذ خرق العادة قد يكون لأولياء الشيطان استدراجاً، كما يكون لأولياء الرحمن إكراماً وامتحاناً.

وهؤلاء الفتية مع قلتهم وحداثة أسنانهم عرفوا الحق وانقادوا إليه، وذلك لأن **من سمات الحق أنه بيِّن واضح، لا يحتاج إلى فيلسوف أو متقعر في علم الكلام ليبينه**، ومع وضوح الحق لم يهتد إليه قومهم وفيهم من هم أسن وأشرف، بل توعدوا من آمن وهددوه، فليست الهداية للعبد ولا بكسبه وذكائه وعلو قدره، إنما هي محض فضل من الله لمن طهر قلبه، ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد].

ثم قال تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

دعا الفتية بهذا الدعاء لما أووا إلى الكهف، وهذا دعاء الراسخين في العلم؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران]، مما يدل على أن من وسائل الثبات سؤال الله ﷻ الرحمة والرشاد؛ وكأني بالفتية لما صدقت قلوبهم تحركت جوارحهم فخرجوا بأبدانهم من أرض الكفر وأووا

إلى الكهف، وتحركت ألسنتهم لتوافق قلوبهم بطلب الرحمة والرشاد، مما يدل على أن من ثمار العزلة الشرعية نيل رحمة الله، فابتغى هؤلاء بعزلتهم رحمة ربهم، فدعوا بهذا الدعاء.

والرشد الذي سأله الفتية في الآية معنى جامع، قال فيه ابن القيم ﷺ: (هو العلم بما ينفع والعمل به، والرشد والهدى إذا أفرد كل منهما تضمن الآخر، وإذا قرن أحدهما بالآخر فالهدى هو العلم بالحق، والرشد هو العمل به. وضدهما الغي واتباع الهوى، وقد يقابل الرشد بالضر والشر، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ [الجن]، وقال مؤمنو الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن]، فالرشد يقابل الغي كما في قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، ويقابل الضر والشر كما تقدم، وذلك لأن الغي سبب لحصول الشر والضر ووقوعهما بصاحبه، فالضرر والشر غاية الغي وثمرته، كما أن الرحمة والفلاح غاية الهدى وثمرته)[1].

فالفتية لجؤوا إلى الكهف بأبدانهم وإلى الله بقلوبهم، فأووا إلى ركن شديد، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: (إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا) فعبر بالفاء الدالة على التعقيب بلا تراخ، ومع ذلك اعتنى الفتية بألفاظ الدعاء، فسألوا الله أن يؤتيهم من لدنه رحمة، وفي هذا أدب مع الله إذ تضمن إثبات الرحمة له وإفراده بذلك، من عنده لا من غيره، ثم سألوه أن يحدث لهم من أمرهم رشداً. فأنت تراهم كما قال القشيري قد (أَخذُوا في التبرِّي مِنْ حَوْلِهِم وقُوَّتِهم، ورجعوا إلى الله بِصِدْق فَاقَتِهم، فاستجاب لهم دعوتَهم،

(١) إغاثة اللهفان ٢/ ١٦٨.

ودفع عنهم ضرورتهم، وبَوَّأهم في كنف الإيواء مقيلاً حسناً)[١].

ويظهر أن الفتية قد اتخذوا قرارهم بالفرار بدينهم على عجل، لأمر دهمهم وأشعرهم باقتراب الخطر منهم، مما استدعى ضرورة الخروج دون استعداد كاف، لأنهم حين أفاقوا أرسلوا من يحضر طعاماً إذ لم يكن معهم ما يكفي من الزاد، فلهذا دعوا بهذا الدعاء العظيم حين أووا إلى الكهف: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف]، فكان طلب الفتية الرحمة والرشاد في تلك الحال من أحسن الدعاء، ويدل على رسوخ العلم واليقين لسببين؛ **الأول** أن خروجهم بغير زاد واكتمال استعداد لم يكن تفريطاً في الأخذ بالأسباب لكنه اضطرار، فكان سؤالهم التوفيق للرشد من تمام التوكل، قال البغوي: (﴿وَهَيِّئْ لَنَا﴾: يسر لنا ﴿مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: ما يلتمس من رضاك وما فيه رشدنا)[٢]، فخروجهم على هذه الحال يشبه خروج موسى عليه السلام من مصر خوفاً من فرعون وجنوده، كما نقل البغوي[٣]، وفي هذا الشبه مناسبة على القول بأنهم كانوا على دين موسى عليه السلام.

وأما الثاني فلأنهم مطاردون مطلوبون لإيمانهم، يراودون على الشرك بالله ربهم، ومن كانت هذه حاله إن لم يرحمه الله ويثبته على الدين ويلهمه الرشاد فقد يزيغ قلبه، فتزل قدم بعد ثبوتها، وهذا حال كثير من المغترِّين.

فهكذا ينبغي أن يكون المسلم، ولا سيما الداعية الذي يتربص به الشانؤون؛ يلهج بسؤال الله الهداية إلى الرشاد في أمره كله، عسى الله أن

(١) تفسير القشيري ٤/ ٣٣٣.
(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٥٥.
(٣) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٦/ ١٩٩.

يستجيب له فيصلح من أمره كما صنع بأصحاب الكهف؛ فقد استجاب لهم وهيَّأ لهم من أمرهم رشداً، فصرف أعداءهم، وهيَّأ لهم موضع الكهف، على جهة صالحة لبقاء أجسامهم سليمةً، وقلبهم ذات اليمين وذات الشمال لئلا تتأثر أجسامهم، وأنامهم نوماً طويلاً ليمضي عليهم الزمن الذي تتغير فيه أحوال المدينة، وحصل أعظم رَشَدهم في الدنيا بالثبات على الدين الحق ومشاهدته بعد بعثهم منصوراً متبَعاً، فحفظ الله أبدانهم وأديانهم، وجعلهم آية على صدق الدين وعلى قدرة الله التامة وعلى البعث، ونشر لهم من الثناء الحسن بين أصحاب الملل، وأنزل فيهم قرآناً يتلى إلى يوم القيامة يثبت لهم صريح الإيمان ومزيد الهداية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ثم قال سبحانه: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

فذكر -بعد ما سبق- من لطيف صنعه لهم ما فيه آية، قال ابن جرير: (﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ بالنوم في الكهف؛ أي ألقينا عليهم النوم، كما يقول القائل لآخر: ضربك الله بالفالج، بمعنى ابتلاه الله به، وأرسله عليه)(١)، قال الشنقيطي: (فضربُه جل وعلا على آذانهم في هذه الآية كناية عن كونه أنامهم، ومفعول «ضربنا» محذوف، أي ضربنا على آذانهم حجاباً مانعاً من السماع فلا يسمعون شيئاً يوقظهم. والمعنى: أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات)(٢)، وقال أبو حيان: (﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ استعارة بديعة للإنامة المستثقلة التي لا يكاد يسمع معها، وعبر بالضرب ليدل على قوة المباشرة واللصوق واللزوم، ومنه ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وضرب الجزية، وضرب البعث. وقال الفرزدق(٣):

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦١٣.
(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٨٣.
(٣) هو همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي، أبو فراس، (٣٨ - ١١٠ هـ).

ضَرَبَت عَلَيكَ العَنكَبوتُ بِنَسجِها ... وَقَضى عَلَيكَ بِهِ الكِتابُ المُنزَلُ[١]

وقال الأسود بن يعفر[٢]:

وَمن الحوادث لا أبالك أنني ... ضُربت عليَّ الأرضُ بالأسدادِ[٣]

وقال آخر[٤]:

إِنَّ المُروءَةَ والسَّماحَةَ وَالنَّدى ... في قُبَّةٍ ضُرِبَت عَلى ابنِ الحَشرَجِ[٥]

استعير للزوم هذه الأوصاف لهذا الممدوح. وذَكَر الجارحة التي هي الآذان، إذ هي يكون منها السمع، لأنه لا يستحكم نوم إلا مع تعطل السمع. وفي الحديث: «ذلك رجل بال الشيطان في أذنه»[٦] أي استثقل نومه جداً حتى لا يقوم بالليل)[٧].

وفي قوله (فضربنا على آذانهم) لطيفة، فمن أراد النوم الهادئ فليسد أذنيه، وهذه نظرية علمية صحيحة، ولكن لها محذور فقد لا يستيقظ للصلاة، فلا بد من التحرز من مثل ذلك بتوصية من يوقظه.

وقوله: ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾، قال الطبري: (معدودة)[٨]، وقيل: ذوات عدد عدد على أنه مصدر وصف بالتأويل الشائع، وقيل: مصدر لفعل مقدر أي

---

(١) البيت من بحر الكامل.

(٢) الأسود بن يعفر النهشلي الدارمي التميمي، أبو نهشل، ت (٢٣ ق. هـ).

(٣) البيت من بحر الكامل.

(٤) هو زياد بن سليمان أو سليم الأعجم، أبو أمامة العبدي، مولى بني عبد القيس، ت (١٠٠ هـ).

(٥) البيت من البحر الكامل.

(٦) أصله في صحيح البخاري ١/ ٣٨٤ (١٠٩٣).

(٧) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٢٠.

(٨) تفسير الطبري ١٧/ ٦١٣.

تعد عدداً.

وكلمة (عدداً) تستعمل في الكثرة والقلة، وانتقد بعضهم استخدامها في الكثرة، ولا وجه لهذا النقد، لقوله سبحانه: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾، قال غير واحد من المفسرين: أي كثيرة، ولا شك أن تسعة وثلاثمائة عام كثيرة! ولكن لا يقتصر ذكرها على إرادة الكثير.

والحاصل أن الفتية لبثوا في الكهف سنين عدداً جاء تفسيرها في الآية الأخرى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

فقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي أثرناهم من رقدتهم، وأيقظناهم، قال القرطبي رحمه الله: (ويقال لمن أُحييَ أو أقيمَ من نومه: مبعوث، لأنه كان ممنوعاً من الانبعاث والتصرف)[1]، وللتعبير بالبعث دلالة عظيمة على البعث بعد الموت، وأنه من جنس البعث من النوم، وفيه مناسبة لخطاب منكري البعث، وهكذا كلما تقدم جواب سؤالهم آية بعد أخرى، يأتي بخلاف مقصودهم، ويعيدهم إلى القضايا الرئيسة التي ينبغي أن يبحثوا فيها، ويعملوا عقولهم، مَن خلقهم، ولماذا، وماذا بعد الموت؟

وقوله: {لنعلم} أي لنراه ونعلمه علم ظهور ووجود، والله تعالى يعلم ما سيكون من الأشياء قبل وقوعها، لا يخفى عليه شيء، فإذا وقعت علم وجودها، وهو علم غير الأول؛ وحجة الله على خلقه إنما تقوم بوقوع الفعل من المخلوقين، فهو لا يؤاخذهم بما علمه كائناً في المستقبل قبل أن يكون، وإنما يؤاخذهم بما قد كان منهم، اقتضى ذلك عدله ورحمته.

قال شيخ الإسلام: (فهذا هو العلم الذي يتعلق بالمعلوم بعد وجوده،

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٦٣.

وهو العلم الذي يترتب عليه المدح والذم، والثواب والعقاب؛ والأول هو العلم بأنه سيكون، ومجرد ذلك العلم لا يترتب عليه مدح ولا ذم، ولا ثواب ولا عقاب... وكذلك المفسرون قالوا: لنعلمه موجوداً بعد أن كنا نعلم أنه سيكون)[١].

قال الشنقيطي رحمه الله: قوله جل وعلا {ثم بعثناهم لنعلم} لا يدل على أنه لم يكن عالماً بذلك قبل بعثهم وإنما علم بعد بعثهم كما زعمه بعض الكفرة الملاحدة! بل هو جل وعلا عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون، والآيات الدالة على ذلك لا تحصى، ومن أصرح الأدلة على ذلك قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران]، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بعد ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾ دليل واضح في ذلك. وإذا حققت ذلك فمعنى ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ أي نعلم ذلك علماً يظهر الحقيقة للناس، فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك دون خلقه[٢].

قال الشيخ ابن عثيمين: (أما تحقق وقوع المعلوم بالنسبة لله، فلا فرق بين ما علم أنه يقع، وما علم أنه وقع، كلٌّ سواء، وأما بالنسبة لنا، صحيح أَنَّا نعلم ما سيقع في خبر الصادق، لكن ليس علمنا بذلك كعلمنا به إذا شاهدناه بأعيننا، ولذلك جاء في الحديث الصحيح: "ليس الخبر كالمعاينة"[٣])[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/ ٤٩٦.

(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٨٤-٢٨٥ بتصرف واختصار.

(٣) المستدرك ٢/ ٣٥١ (٣٢٥٠)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٤) تفسير القرآن للعثيمين، تفسير سورة الكهف، ٦/ ١٦.

وأما قوله: ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾، فقد قال القرطبي: (الحزبان: الفريقان، والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا لبثهم قليلاً، والحزب الثاني أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية، وهذا قول الجمهور من المفسرين، وقالت فرقة: هما حزبان من الكافرين، اختلفا في مدة أصحاب الكهف، وقيل: هما حزبان من المؤمنين، وقيل غير ذلك مما لا يرتبط بألفاظ الآية)(١).

وقال الألوسي: (﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ أي منهم؛ وهم القائلون: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]، والقائلون: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩]، وقيل أحد الحزبين الفتية الذين ظنوا قلة زمان لبثهم، والثاني أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم، وكان عندهم تاريخ غيبتهم، وزعم ابن عطية أن هذا قول جمهور المفسرين، وعن ابن عباس أن أحد الحزبين الفتية، والآخر الملوك الذين تداولوا ملك المدينة واحداً بعد واحد، وعن مجاهد: الحزبان قوم أهل الكهف؛ حزب منهم مؤمنون، وحزب كافرون، وقال الفراء: الحزبان مؤمنان كانوا في زمنهم، واختلفوا في مدة لبثهم، وقال السدي: الحزبان كافران، والمراد بهما اليهود والنصارى الذين علَّموا قريشاً سؤال رسول الله ﷺ عن أهل الكهف؛ وقال ابن حرب: الحزبان الله سبحانه وتعالى، والخلق كقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، والظاهر هو الأول، لأن اللام للعهد ولا عهد لغير من سمعت)(٢)، وهذا الذي استظهره مال إليه الشيخ محمد بن عثيمين(٣)، وتعقب هذا المعنى ابن عاشور بقوله: (فقيل: هما فريقان من أهل الكهف أنفسهم، على أنه المشار

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٦٤.
(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٦٢.
(٣) التفسير ٦/ ١٦.

إليه بقوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩]، وفي هذا بعد من لفظ حزب، إذ كان القائل واحداً والآخرون شاكين، وبعيد أيضاً من فعل ﴿أَحْصَىٰ﴾ لأن أهل الكهف ما قصدوا الإحصاء لمدة لبثهم عند إفاقتهم بل خالوها زمناً قليلاً. فالوجه: أن المراد بالحزبين حزبان من الناس -أهل بلدهم- اختلفت أقوالهم في مدة لبثهم بعد أن علموا انبعاثهم من نومتهم، أحد الفريقين مصيب والآخر مخطئ، والله يعلم المصيب منهم والمخطئ، فهما فريقان في جانبي صواب وخطأ كما دل عليه قوله: ﴿أَحْصَىٰ﴾)[1].

وقوله: ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾، قال ابن جرير: (يقول: أصوب لقدر لبثهم فيه أمداً، ويعني بالأمد: الغاية)[2]، وعلى هذا فأحصى أفعل تفضيل منصرف إلى ما في معنى الإحصاء من الضبط والإصابة، وذهب آخرون إلى أن أحصى فعل ماض، قال الزمخشري: (﴿أَحْصَىٰ﴾ فعل ماض أي أيهم ضبط ﴿أَمَدًا﴾ لأوقات لبثهم. فإن قلت: فما تقول فيمن جعله من أفعل التفضيل؟ قلت: ليس بالوجه السديد، وذلك أن بناءه من غير الثلاثي المجرّد ليس بقياس)[3]، ويقوي هذا القول أن المخطئ من الحزبين لا يشترك مع الآخر في المعرفة، فاقتضى ذلك أن يكون التفضيل على خلاف أصله، والأمر محتمل. قال ابن عاشور: (و﴿أَحْصَىٰ﴾ يحتمل أن يكون فعلاً ماضياً، [و] أن يكون اسم تفضيل... فالوجه أن ﴿أَحْصَىٰ﴾ اسم تفضيل، والتفضيل منصرف إلى ما في معنى الإحصاء من الضبط والإصابة. والمعنى: لنعلم أي الحزبين أتقن إحصاءً، أي عداً بأن يكون هو الموافق للواقع ونفس الأمر،

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٤٠.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦١٣.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٩٧.

ويكون ما عداه تقريباً ورجماً بالغيب. وذلك هو ما فصله قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ﴾ [الكهف: ٢٢] الآية)[١].

- **فائدة:** الحزب تطلق على المجموعة والفئة والطائفة، وفي القرآن لا يوصف أصحاب الحق إلا بالحزب الواحد فلم يوصفوا بالأحزاب، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ٥٦﴾ [المائدة]، وقال: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة]، أما الكفار فوصفهم بالحزب كما في: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٩﴾ [المجادلة]، ووصفهم بالأحزاب ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الروم]، والآية تبين خطر التفرق والتحزب وتنهى عنه نهياً شديداً، ومثلها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ١٥٩﴾ [الأنعام]، فكل من تحزب أو فرق الأمة بالوصف المتقدم فله من الوعيد نصيب، وأما تنوع الجماعات للتعاون على البر والتقوى، كجماعات حفظ القرآن أو الجماعات الدعوية أو الجمعيات الخيرية أو كهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما أشبه ذلك، فجائز ما دام الولاء لدين الإسلام وأهله، فإن تحول الولاء للجماعة عاد الذم لهذا لا للاجتماع على الخير.

إن بعض أعداء الله يتآلفون ويجتمعون ليحققوا مصالحهم، وبعض المسلمين والدعاة الذين تجمع بينهم كلمة التوحيد ويرجعون إلى نفس الأصول، يختلفون ويتنافرون، في أمور لا تستدعي كل ذلك، وكذلك من صور التفرق: التفرق القبلي أو المناطقي أو الطبقي، فكيف لنا أن نواجه الأعداء بهذا التفرق، وهم يتكالبون علينا تكالب الأكلة على قصعتها! فلا

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٤١.

بد من التوحد وتذليل الصعاب وتجاوز الخلافات، أو وضعها في إطارها الصحيح الذي لا يوصل إلى التحزب المذموم والتنافر والتفرق والتشرذم.

قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الكهف].

هذا شروع في تفصيل القصة، وذكر مواطن العبرة فيها، وهي كثيرة.

فقوله سبحانه: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾

فيه تقديم الفاعل على الفعل، والمسند إليه وهو ضمير المخاطب، على المسند وهو النبأ، وكل هذا يفيد الاختصاص، والمعنى: نحن لا غيرنا، نقص عليك أنت دون سواك نبأهم بالحق، أي بالصدق، لأن الصدق من جملة الحق. وقوله: نبأهم أي خبرهم العظيم، لأن لفظ النبأ يدل على عظم خبرهم وأنه ليس كسواه من الأخبار، لما جاء فيه من عجيب أمرهم.

وفي هذا بيان لكون من خاض في شأنهم إنما خاض فيه بجهل وقال ما لا علم له به، أو خاض بدون صدق فزاد ونقص متبعاً في ذلك هواه، وفيه بيان أن الحق وفصل الخطاب في الأمر إنما هو ما يقصه الله لا غيره، وأنه لا سبيل لهم إلى علمه إلا بواسطة النبي ﷺ تأكيداً على رسالته ونبوته.

قال الشيخ محمد العثيمين: (كلام الله تبارك وتعالى متضمن للعلم والصدق والفصاحة والإرادة، أربعة أشياء. كلامه عن علم وكلامه أيضاً عن صدق، وكلامه في غاية الفصاحة، وإرادته في هذا الكلام خير إرادة، يريد بما يتكلم به أن يهدي عباده. ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ قصَّ الله أكمل

القصص وأحسن القصص؛ لأنه صادر عن:

١ -علم. ٢ -وصدق.

٣ - بأفصح عبارة وأبينها وأوضحها ولا كلامَ أوضح من كلام الله إلَّا عند من أضل الله قلبه، وقال: هذا أساطير الأولين.

٤ -وبأحسن إرادة، لم يرد الله تعالى بما يقص علينا أن نضل ولا بما حكم علينا أن نجور، بل أراد أن نهتدي ونقوم بالعدل)[1].

وقص القصص من جملة الكلام، وفي هذا إثبات لكون الله تعالى يتكلم، وكلامه سبحانه لرسله صلى الله عليهم وسلم، قد يكون بلا واسطة، وقد يكون بواسطة ملك، وهو جبريل عليه السلام، وقد يكون من وراء حجاب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى].

وما قصه ربنا تبارك وتعالى في القرآن من قصص الأنبياء أو غيرهم كأصحاب الكهف أو الخضر أو ذي القرنين يغني عن كل ما في كتب السابقين عنهم، ويغني عن كل ما نقله عنهم كثير من المفسرين حتى ملؤوا كتبهم بالشطحات والغرائب المنكرة التي جاءت بها الإسرائيليات، وقد بين الله تعالى ذلك بما لا مزيد عليه فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣].

فائدة- قول الله تعالى: ﴿نَحْنُ﴾، لا تعني التعدد كما يزعم بعض النصارى وغيرهم ممن يلقون الشبهات، وإنما المراد بها التعظيم، وهي صيغة مستخدمة في كلام العرب للواحد العظيم الذي له مأمورون، سواء أكانوا أعواناً أم عبيداً أم خدماً يطيعونه، كما يقول الملك: نحن فتحنا هذا

---

(١) تفسير القرآن للعثيمين ٦/ ١٧ بتصرف يسير.

البلد وهزمنا هذا الجيش ونحو ذلك، لأنه إنما يفعل بمأموريه. فالله تعالى جعل للملائكة أعمالاً ووظائف يقومون بها، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، وهو مع هذا ربهم وخالقهم وخالق أفعالهم وقدرتهم وهو غني عنهم، فليس هو كالملك الذي يفعل أعوانه بقدرة وحركة يستغنون بها عنه، فكان قوله "نحن فعلنا" أولى من قول بعض الملوك، وهذا يقال على كل ضمائر الجمع المنسوبة إلى الله تعالى في القرآن أو الحديث القدسي.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾

ونلاحظ هنا الربط بين الإيمان وزيادة الهدى، فلا يزيد الهدى إلا بالإيمان؛ ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤]، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، أي يثبته عند المصائب والفتن والمحن والشدائد، فمن لم يثبت قلبه عند الشدائد والفتن فهذا يدل على ضعف في إيمانه. أما هؤلاء الفتية فقد كان إيمانهم قوياً راسخاً فزادهم الله هدى وثبتهم في المحنة.

قال صاحب الأضواء: (ويفهم من هذه الآية الكريمة أن من آمن بربه وأطاعه زاده ربه هدى، لأن الطاعة سبب المزيد من الهدى والإيمان.

وهذا المفهوم من هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في مواضع أخر، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد] ... وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] الآية ... إلى غير ذلك ... وهذه الآيات المذكورة نصوص صريحة في أن الإيمان يزيد؛ مفهوم منها أنه ينقص أيضاً، كما استدل بها البخاري رحمه الله على ذلك)[1].

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٢٨٨.

قال تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا ﴾

وهذا الربط على القلوب ضروري للنجاة من الفتن، وهو محض تأييد من الله لعباده، كما فعل يوم بدر: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال: ١١]، وكما فعل بأم موسى عليه السلام: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص]، قال ابن القيم رحمه الله: (والربط على قلوبهم يتضمن الشد عليها بالصبر والتثبيت، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان، حتى صبروا على هجران دار قومهم ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش وفروا بدينهم إلى الكهف. والربط على القلب عكس الخذلان، فالخذلان حله من رباط التوفيق، فيغفل عن ذكر ربه ويتبع هواه ويصير أمره فرطاً، والربط على القلب شده برباط التوفيق فيتصل بذكر ربه ويتبع مرضاته ويجتمع عليه شمله)[1].

قال الطبري رحمه الله: (يقول عز ذكره: وألهمناهم الصبر، وشددنا قلوبهم بنور الإيمان حتى عزفت أنفسهم عما كانوا عليه من خفض العيش)[2]، قال ابن عاشور: (وإذ قاموا: ظرف للربط... أي كان ذلك الخاطر الذي قاموا به مقارناً لربط الله على قلوبهم، أي لولا ذلك لما أقدموا على مثل ذلك العمل وذلك القول)[3]، وهذا القيام يحتمل خمسة معان، ذكر ثلاثة منها القرطبي فقال: (أحدها: أن يكون هذا وصف مقامهم بين يدي الملك الكافر... وهو مقام يحتاج إلى الربط على القلب إذ خالفوا دينه، ورفضوا في ذات الله هيبته. والمعنى الثاني فيما قيل: إنهم أولاد عظماء تلك المدينة، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير ميعاد، فقال أسنهم:

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ٦٧-٦٨.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦١٥.

(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٧٢.

إني أجد في نفسي أن ربي رب السموات والأرض، فقالوا ونحن كذلك ... والمعنى الثالث: أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومنابذة الناس، كما تقول: قام فلان إلى أمر كذا إذا عزم عليه بغاية الجِد)[1].

والرابع: قيامهم لدعوة الناس سراً إلى الإيمان[2].

والخامس: قول نسب لعطاء ومقاتل: أنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم، قال الرازي: (وهذا بعيد لأن الله استأنف قصتهم بقوله: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾)[3]، وقال الألوسي: (وليس بشيء)[4].

والأول هو الأظهر، وعليه أكثر المفسرين كما ذكر الشوكاني وصاحب الأضواء، ولا تعارض بينه وبين ما بعده، بل هو مقتضٍ للثلاثة بعده، دون تفاصيل الثاني، والأخير يُبَعِّدُه السياق، إذ لا يحتاج إلى ربط وتثبيت ينوَّه به، بخلاف المعنى الأول.

وعلى المعنى المختار فإن هؤلاء الفتية يكونون قد قاموا مقاماً عظيماً بين يدي الملك، وقد سئل رسول الله ﷺ عن أفضل الجهاد فقال: "كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ"[5].

وقول الله ﷻ: ﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ﴾ فيه إشارة إلى أمرين:

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٦٥-٣٦٥.
(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٢٤.
(٣) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ١٧٩.
(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٧٠.
(٥) سنن النسائي ٧/ ١٦١ (٤٢٠٩)، وصححه الألباني.

الأول: أن الله ثبتهم وربط على قلوبهم ربطاً تاماً، فوُفِّقوا لحسن البيان، والمرء قد يربط على قلبه ويثبت، ثم يذهل عن الكلام ونصر الحق بالقول فيخذله التعبير، أما هؤلاء فقد قاموا صادعين بالحق الصريح.

الثاني: أن الثبات المستحق للإشادة هو المنضبط على الحق الظاهر، فهم قاموا فقالوا حقاً، أما الثبات على الباطل، فهو حري بالذم والتسفيه، بل لم أجد في القرآن تسمية ذلك ثباتاً، ولا ربطاً، بل زيغاً وطمساً.

وفي قولهم هذا إثبات الربوبية لله، والإقرار بها، واستدلالهم بالربوبية على وجوب توحيد الإلهية، وعلى قبح الشرك، وفوق ذلك الدعوة والإعلان بهذا كله، وقد يفهم من هذا أن القوم قد جمعوا بين شرك الألوهية وشرك الربوبية، على أحد القولين.

وهنا وقفتان:

الوقفة الأولى: إثبات ربوبية الله ﷻ ودلالته على توحيد الإلهية:

الله ﷻ كثيراً ما يقرر توحيد الربوبية ويؤيده بأدلة؛ منها ما ذكره الفتية هنا، وهو دليل الإحداث والاختراع، وإنما خصوا ذكر السماوات والأرض لمضي العصور قبلهم عليها، مع عظمها ودقة صنعها، وهذا يبطل أن تكون من خلق آلهتهم التي يزعمونها، لأنها حادثةٌ قريبةُ العهد، وبديع الصنع ودقيق النظام دلَّ على أن هذا الخالق رب عليم قادر مريد حكيم، وهو الله الذي يدعو الفتية إلى عبادته.

وإذا تقررت الربوبية لله دلت على وجوب إفراده بالعبادة دون سواه، وهذا معنى توحيد الله في إلهيته، قال صاحب الأضواء: (هذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن من أشرك مع خالق السموات والأرض معبوداً آخر فقد جاء بأمر شطط بعيد عن الحق والصواب في

غاية الجور والتعدي؛ لأن الذي يستحق العبادة هو الذي يبرز الخلائق من العدم إلى الوجود، لأن الذي لا يقدر على خلق غيره مخلوق يحتاج إلى خالق يخلقه ويرزقه ويدبر شؤونه.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في آيات أخر كثيرة، كقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النحل]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرعد]، أي الواحد القهار الذي هو خالق كل شيء هو المستحق للعبادة وحده جل وعلا. وقوله جل وعلا: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان] الآية، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة: ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أي إذا دعونا من دونه إلهاً فقد قلنا شططاً)[١].

الوقفة الثانية: في منهج الدعوة إلى الله:

منهج الدعوة يظهر في بدئهم بالأهم؛ وهو التوحيد، فمع أنه لا تكاد تخلو دولة كافرة من منكرات، إلا أنهم بدؤوا دعوتهم بالتوحيد ونبذ الشرك، ثم كانت المفارقة لأجله، وأما بقية الجوانب فلم تذكر إلا فيما بينهم عندما قاموا فقالوا: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ [الكهف: ٢٠]، وهو يدل على ظلمهم

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٢٩٠.

وتجبرهم. وسر هذا المنهج أن الإصلاح في أحد جوانب الحياة إذا لم يبدأ بالتوحيد فهو عسير أولاً، وغش للمدعوين ثانياً، أما عسره فلأن غير المؤمن لن يعمل إلا لمصلحته، وحتى إن وجدت قوانين وضعية تمنعه من التعدي فإن التحايل ممكن، أما الموحد فإنه يعلم أن الله يراه، وهذه هي ضمانة الإصلاح الحقيقي. وأما كونه غشاً للمدعوين فلأن ما بهم من الشرك سيرديهم في جهنم خالدين فيها أبداً، فأي فائدة في تهذيب أخلاقهم، إن كان المآل إلى النار؟

فعلى الداعية أن يبدأ بما تمس الحاجة له، لا إلى ما يرتضيه المدعوون ويعجب به المستمعون، ولو كلفه ذلك المشقة أو العزلة والرحيل.

أما قول الفتية: ﴿لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾، فقد قال الطبري رحمه الله: (يعني غالياً من الكذب، مجاوزاً مقداره في البطول والغلوّ)[1].

وفي ذلك تحريم الشطط في القول؛ لأن الشرك قبيح لا يوصف إلا بالقبيح، وهم وصفوا القول به بِعَدِّهِ شططاً، ولو لم يكن الشطط قبيحاً ما صح وصفه به، وقد أكدوا تجاوز المشركين وقبح الشرك بثلاثة مؤكدات: اللام وقد والقسم الذي دلت على حذفه اللام؛ وفيها دليل على أن الشرك الأكبر المخرج من الملة قد يقع بالقول، وفيها بيان ثبات أصحاب الكهف، إذ أعلنوا أنهم لن يقولوا الشرك، فضلاً عن أن يعتقدوه، وفيها ما يشعر أن تسلط أهل الباطل بلغ مبلغاً أرادوا معه إرغام الفتية على دعاء آلهتهم الباطلة؛ وفي هذا ما يدل على أن الدعوة كانت من الجانبين؛ من جانب أهل الحق وهم الفتية، ودعوتهم كانت دعوة التوحيد الخالص، ومن جانب قومهم كانت الدعوة للشرك بأن يدعو مع الله آلهة أخرى.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦١٦.

القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن

يخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه قد ربط على قلوب الفتية وثبتها، ومن علم أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فحري به أن يلهج بدعاء التثبيت؛ فعن أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك. فقلت: يا رسول الله! آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كما يشاء"[1]. فإذا كان أنس ﷺ، صاحب رسول الله ﷺ وخادمه؛ مَن شهد بدراً صغيراً، وكان يُستسقى بدعائه ﷺ شيخاً كبيراً؛ مَن دعا له رسول الله ﷺ بأن يكثر الله ماله وولده وأن يدخله الجنة فكان أنس يقول: قد رأيت اثنتين وأنا أرجو الثالثة! يقول له رسول الله ﷺ: "نعم"، جواباً لسؤاله: أتخاف علينا؟ ليشمل هذا كل من شهدوا الوحي وعاينوا التنزيل، فجدير بنا أن نشفق على أنفسنا! وأي غرور أحمق ذاك الذي يأمن صاحبه على نفسه بعد هؤلاء؟ فمن اعتد بعقله، وأعجب بدينه وفهمه فلم يلجأ إلى ربه، مسكينٌ، قلبه على شفا جرف يوشك أن ينقلب فيه منتكسا! (فنسأل الله ربنا ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب)[2].

ومن تأمل الساحة اليوم يسمع بفلان، كان فيما مضى آية في تمسكه بالدين وصبره عليه، يتحمل أنواع الأذى، ثم تبدلت الحال، فصار ممن

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٤٤٨ (٢١٤٠)، وصححه الألباني.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ١٣.

تنكبوا الصراط، أو انتكسوا، لعِلة خفية كأن يكون معتداً بما هو فيه من الخير، فيأمن على نفسه، فقلَّ أن يسأل الله أن يرحمه ويثبته فلا يزيغ قلبه بعد إذ هداه؛ لا يسأل ربه ومولاه الرشاد، ولا تجد في دروسه وخطبه وكلماته شيئاً عن أهمية الثبات، وإن وجدت فلا تجد فيها التعويل على رحمة الله والاطِّراح بين يديه وسؤاله التثبيت، مع أنه يعلم أن هداية القلوب ليست إليه، وأن علمه قد علمته قبله أمم أضلهم الله على علم!

ولهذا كان سؤال الله الرحمة والثبات على الهداية سبيل الراسخين، ومن أعظمهم رسوخاً وإلحاحاً في الدعاء محمد ﷺ، كما مر.

لقد قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء]، فبين أن حفظه وتثبيته له هو الذي عصمه من الركون شيئاً قليلاً، فإذا كان هذا في حق المعصوم فكيف بحال باقي أمته؟

إن من اللطائف هنا أن بعض من يتنازل عن شيء من الدين، أو يحرف بعض الشرع لينزل إلى رغبات المخالفين، إنما يفعل ذلك عادة للمصالح الدنيوية، والمكتسبات الآنية، التي يحسب أنه ينصر بها الدعوة، وهذا من أكبر مداخل الشيطان، أعني الركون أو المداهنة لأجل أن تقوى دعوتهم، أو لا تستذل وتفقد مكتسباتها، وقد جاءت الآية التالية قاطعة لهذه الأمنيات موجهة المؤمن كي يلغي هذه الاعتبارات، بكلمات تحذيرية شديدة حتى لا تكون له شبهة في ركونه إلى الظالمين ولو شيئاً قليلاً، قال تعالى لأحب الخلق إليه: ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الإسراء]، فقدم ضعف الحياة التي قد يركن إليها، وبدل المصلحة التي يرجوها، لن يحصل إلا على عذاب الدنيا والآخرة.

إن هذا الركون القليل لا يكاد ينجو منه أحد إلَّا من اعتصم بالله والتجأ إليه فعصمه، ولهذا كان من دعاء المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران]، وقد مَنَّ سبحانه برحمته على بعض أوليائه فربط على قلوبهم فتحققت نجاتهم، ومن ذلك قوله: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنفال]، وقال في شأن أم موسى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص]، وقال هنا في شأن الفتية: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾. وما دام الأمر كذلك فحري بالمؤمن أن يلجأ إلى ربه ويسأله أن يربط على قلبه، وأن يناجيه قائلاً: "يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين"(١).

إن أحوج ما يكون المؤمن للتثبيت: زمن الفتن، وعند نزول البلاء، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ ﴾ وذلك بين يدي الملك الجبار على قول أكثر المفسرين، فالقلوب تبين الفتن حقيقتها، وسنة الله في ابتلاء عباده ماضية من أجل التمحيص، فإذا جاء البلاء وامتحنهم الله بالبأساء والضراء، وتنمر الباطل واستطال أهله، فعندها يثبت الله من شاء بفضله فيربط على قلبه، وأما من كان يعبد الله في الرخاء فقط فحاله كما بين الله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [الحج].

أما في أوقات الأمن والرخاء، فإن كانت دولة الكتاب والسنة ظاهرة

---

(١) المستدرك ١/ ٧٣٠ (٢٠٠٠)، وحسنه الألباني في "السلسلة الصحيحة" ١/ ٣٩٧.

فقد يُظهرُ الإيمانَ من لا يحمله قلبه، فإذا جاء البلاء ثبت بعض الصادقين، وحصل التمحيص، وإن لم تكن ظاهرة وكان الباطل منتفشاً فلا تثبت إلا القلة الصادقة والطائفة الموفقة.

وكما يبتلي الله عباده بالضراء والفتن، فإنه يبتليهم بالسراء والنعم، فينساق خلف الشهوات من ينساق منتكساً بعد أن كان مؤمناً، كما قال الله في حق أقوام: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة].

ومن أراد معرفة صفة القلة الموفقة الثابتة التي يختارها الله فيربط على قلوبها، فليتأمل وصف الفتية على ما مر، وليعلم أن الله لن يخذل عبداً كان ديدنه الدعاء والالتجاء إلى مولاه، وقد ذكر ربنا الرحمن في سورة الأنبياء جملة من أنبيائه مستهم النوائب، فقال: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء]، ثم قال بعد أن وصف إسماعيل وإدريس وذا الكفل بالصبر ومكافأتهم عليه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ -أي نضيِّق- ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء]، ثم ذكر خبر زكريا، وعقب على جميع ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء]، ففي الخيرات هم سابقون، وفي الملأ الأعلى صوتهم معروف مسموع، وضجيجهم إلى ربهم لم يكن لأجل مصلحة آنية، بل ذلك شأنهم لكمال تعلقهم بمليكهم، ومن كانت تلك حاله، عامر

الصلة بربه فيرجى له أن يثبت ويجاب وينجى من الغم والحزن ويكشف عنه الضر والكرب.

ولتثبيت الله عبده وربطه على قلبه أسباب كثيرة؛ منها الدعاء وقد أشير إليه، ومنها ما كان من شأن الفتية؛ من الإيمان بالله، وتجريد التوحيد له سبحانه، والتعلق به وصدق الالتجاء إليه عز شأنه: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف]، ومحبته وإيثاره على القوم والأوطان وعلى كل ما عداه، وبغض عدوه كائناً من كان، واعتزاله لما كان هذا الاعتزال غاية ما في وسعهم.

وأما دلائل التثبيت وعلاماته فظاهرة بالثبات على الدين والتوفيق إلى ما يحبه الله بعد نزول البلاء، وأما قبله فمن علاماته أن يكره الزيغ كما يكره العذاب، فعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار"(١)، ومن كره الزيغ كراهيته العذاب لم يقع في المحظور مختارا، ولم يترك المأمور مستطيعاً، ولم يقارف المعصية إلّا معذورا.

وقوله تعالى مخبراً عن الفتية: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ دليل على أنهم جابهوا دعوة قومهم لهم إلى الشرك بالرفض الجازم، وأنهم رموهم بالظلم وافتراء الكذب على الله، (هؤلاء قومنا اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونها من دونه ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ يقول: هلا يأتون على عبادتهم إياها

---

(١) صحيح البخاري ١/ ١٤ (١٦)، صحيح مسلم ١/ ٦٦ (٤٣).

بحجة بينة، وفي الكلام محذوف اجتزئ بما ظهر عما حذف، وذلك في قوله: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ فالهاء والميم في عليهم من ذكر الآلهة، والآلهة لا يؤتى عليها بسلطان، ولا يسأل السلطان عليها، وإنما يسأل عابدوها السلطان على عبادتهموها، فمعلوم إذ كان الأمر كذلك، أن معنى الكلام: لولا يأتون على عبادتهموها، واتخاذهموها آلهة من دون الله بسلطان بيِّن... ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ١٥﴾؛ ومن أشدّ اعتداء وإشراكاً بالله، ممن اختلق، فتخرّص على الله كذباً، وأشرك مع الله في سلطانه شريكاً يعبده دونه، ويتخذه إلهاً)[1].

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: (﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ يعني هلَّا ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾ أي على هذه الآلهة، أي: على كونها آلهة وكونهم يعبدونها. فالمطلوب منهم شيئان:

١ - أن يثبتوا أن هذه آلهة.

٢ - أن يثبتوا أن عبادتَهم لها حق، وكلا الأمرين مستحيل)[2].

وكل من الأمرين مقتضٍ للآخر، فلو أثبتوا أنها آلهة حقاً، لأثبتوا استحقاقها للعبادة، فهذا معنى كونها آلهة، ولو أثبتوا استحقاقها للعبادة لأثبتوا أنها آلهة حقاً، وكأن ابن جرير أراد بقوله: "والآلهة لا يؤتى عليها بسلطان، ولا يسأل السلطان عليها"، أن القوم قد اتخذوها آلهة بعبادتهم إياها، فهي آلهة معبودة واقعاً، ولكنهم لم يأتوا بسلطان يبين أن عبادتهم سائغة، وهذا يدل على أنها لم تتخذ آلهة بحق.

قال الشيخ محمد: (السلطان كلُّ ما للإنسان به سُلطة، قد يكون المراد

---

(١) تفسير الطبري ٧/ ٦١٧.

(٢) تفسير القرآن للعثيمين ٦/ ١٩.

به الدليل مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ [يونس: ٦٨]، وقد يكون المراد به القوة والغلبة مثل قوله تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل]، وقد يكون الحجة والبرهان كما في قوله تعالى: ﴿بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ أي بحجة ظاهرة يكون لهم بها سُلطة)(١)، وقيدوا الحجة بكونها ظاهرة لأن المبطل قد يأتي بحجة على باطله لكنها تكون داحضة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ [الشورى]، ومثالها حجة النمرود على ادعائه الألوهية إذ قال: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، قال ابن كثير: (قال قتادة ومحمد بن إسحاق والسدي وغير واحد: وذلك أني أوتى بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل. فذلك معنى الإحياء والإماتة)(٢)، فهذه مكابرة إذ ما قاله يشركه فيه غيره من الملوك، وليس هو إحياء وإماتة على الحقيقة، فلهذا بهت وأخرس لما قال له إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.

فقولهم: ﴿بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ فيه إشارة إلى أن الشرع قد جعل للحجة الظاهرة سلطاناً يوجب الخضوع لها، وأن الباطل لا سلطان له، وأن العبادة لا بد لها من حجة ظاهرة، وإلَّا فهي مردودة، وأن من أحدث عبادة بغير برهان فقد افترى على الله كذباً، لأنه قد شرع ما لم يأذن به الله.

قال البقاعي: (شرعوا يستدلون على كونه شططاً بأنه لا دليل عليه،

---

(١) تفسير القرآن للعثيمين ٦/ ١٩.

(٢) تفسير ابن كثير ت سلامة ١/ ٦٨٦.

ويجوز أن يكونوا لما قالوا ذلك عرض لهم الشيطان بشبهة التقليد فقالوا مجيبين عنها: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾، وأن يكونوا[1] قالوا ذلك للملك إنقاذاً له من شرك الجهل، وبين المشار إليهم بقولهم: ﴿قَوْمُنَا ﴾ أي وإن كانوا أسَنَّ منا وأقوى وأجَلَّ في الدنيا ﴿ٱتَّخَذُواْ ﴾ أي مخالفين مع منهاج العقل داعي الفطرة الأولى ﴿مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ أشركوهم معه لشبهة واهية استغواهم بها الشيطان؛ ثم استأنفوا على طريق التخصيص ما ينبه على أنهم من حين عبادتهم إلى الآن لم يأتوا على ذلك بدليل... ﴿لَّوْلَا ﴾ أي هلا ﴿يَأْتُونَ ﴾ الآن... ﴿بِسُلْطَٰنٍۭ ﴾ أي دليل قاهر ﴿بَيِّنٍ ﴾ مثل ما نأتي نحن على تفرد معبودنا بالأدلة الظاهرة، والبراهين الباهرة، فإن مثل هذا الأمر لا يُقنَعُ فيه بدون ذلك، وقد جمعنا الأدلة كلها في الاستدلال على تفرد الله باستحقاقه للعبادة بأنه تفرد بخلق الوجود. فتسبب عن عجزهم عن دليل أنهم أظلم الظالمين لافتعالهم الكذب عن ملك الملوك ومالك الملك، فلذلك قالوا: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ أي تعمد ﴿عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي الملك الأعظم ﴿كَذِبًا ﴾)[2].

وقولهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾، بيان أن هذا الافتراء من أعظم الموبقات، وقد جاء هذا النص في ثمانية مواضع من القرآن، أربعة عطفت بالفاء وأربعة بالواو، وجاءت آية تاسعة بالواو وبلفظ (الكذب) بدل (كذباً)، قال الشنقيطي: (أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب بادعاء أن له شريكاً كما افتراه عليه قوم أصحاب الكهف، كما قال عنهم أصحاب الكهف: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ [الكهف: ١٥] الآية... وهذا المعنى ... أن افتراء الكذب على الله بجعل الشركاء له هو

(١) أي ويجوز أن يكونوا قالوا ذلك.
(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٢٧.

أعظم الظلم جاء مبيناً في آيات كثيرة، كقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر: ٣٢] الآية. وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود])[1]".

وفي موقف الفتية هذا إعلان لعقيدة البراءة من الشرك ومن أهله، وإعلان العداء لهم وإن كانوا (قومنا) الذين تربطنا بهم صلة القومية؛ الذين ننسب إليهم والذين خرجنا من بينهم! وهكذا يجب أن يكون المؤمن، وتأمل كلمة إبراهيم والذين معه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة]، تعلم أنه لا بد من البراءة من الشرك، وأهله، وإبداء العداوة والبغضاء لهم.

واعلم أن إبداء العداوة والبغضاء لكل شيء بحسبه، فإبداء العداوة للمعاهد والمستأمن والذمي، يكون بإظهار عدم الرضا عنه وعن معتقده، لا يوسع له في المجلس، ولا يقام له إن دخل، ولا يفسح له في الطريق، لكنه لا يؤذى بأن يضيق عليه لغير مقتض، أو تخفر ذمته دون جرم أحدثه، فإن بدر منه ما يقتضي مكافأته على جميل صنعه كوفئ عليه، بل لا يمتنع مع ذلك بره إن قام مقتض للبر! واعتبره بتاجر منافستك معه معروفة أو عندك معه مشكلة، ومع ذلك تبايعه وتشتري منه، ولا يمتنع أن تسامحه في القليل أو تمهله مثلاً جزاء ما أمهلك أو سامحك.

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٢٩١.

بل قد يكون البر واجباً، فإن كان الكافر والداً فله من واجب البر ما يليق به من تلك الجهة، وهكذا كل ذي حق من جهة الحق الذي فرضه الله له، مع إبداء العداوة لدينه وعدم رضاه به، وإنكاره عليه ما اقتضى كفره.

وإبداء العداوة للحربي بالمقاتلة مع القدرة اللائقة ولا يجوز بره.

والمقصود أن البر لغير الحربي، لا ينافي واجب العداوة متى قام له مقتض صحيح من تألف له، أو مكافأة لحقه.

والفتية أصحاب الكهف بلغ بهم إبداء المخالفة مبلغاً قالوا معه: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ۝٢٠﴾، وسبب هذه العداوة افتراء قومهم على الله الكذب، وجنس هذا الجرم من أعظم أجناس الذنوب، ثم هو درجات.

خطورة القول على الله بلا علم

هنا نكتة مهمة؛ فقد نهى الله ﷻ أن يقول المرء ما لا علم له به، قال: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ٣٦ ﴾ [الإسراء]، قال ابن كثير رحمه الله: (قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: يقول: لا تقل. وقال العوفي عنه: لا تَرْم أحدًا بما ليس لك به علم. وقال ابن الحَنفية: يعني شهادة الزور. وقال قتادة: لا تقل: رأيتُ ولم تر، وسمعتُ ولم تسمع، وعلمتُ ولم تعلم؛ فإن الله سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكروه: أن الله نهى عن القول بالظن أي التوهم والخيال)[1]، إلا أن أعظم القول بلا علم القول على الله ﷻ، وقد خصه الله بالنهي، قال ابن تيمية رحمه الله: (إن الله حرم القول بلا علم عموماً، وحرم القول عليه بلا علم خصوصاً)[2]، ومن ذلك قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٣ ﴾ [الأعراف]، فقد جعله سبحانه شرا من الشرك، قال ابن القيم: (رتب المحرمات أربع مراتب وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنَّى بما هو أشد تحريماً وهو الإثم والظلم، ثم ثلَّث بما هو أعظم وهو الشرك، ثم ربَّع بما هو أشد تحريماً من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، وفي دينه وشرعه)[3]. وبين رحمه الله السبب في موضع آخر فقال: (فإنه يتضمن الكذب على الله، ونسبته

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٧٥ بتصرف واختصار.

(٢) مجموع الفتاوى ٣/ ٣٤٦.

(٣) إعلام الموقعين ١/ ٣٨ بتصرف واختصار.

إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبته وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله. فليس في المحرمات أعظم منه، ولا أشد إثماً، وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع، فكل بدعة مضلة أساسها القول على الله بلا علم) إلى أن قال: (وأصل الشرك والكفر هو القول على الله بلا علم، فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبوداً من دون الله يقربه إلى الله، ويشفع له عنده، ويقضي حاجته بواسطته، كالوسائط عند الملوك؛ فكل مشرك قائل على الله بلا علم دون العكس، إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع، فهو أعم من الشرك، والشرك فرد من أفراده)[1].

أما القول على الله بلا علم في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فقد تولى كِبرَه مِن هذه الأمة مَن خاض في الفلسفة وعلم الكلام المذموم، إذ تلقوا هذه العلوم عن اليونان وغيرهم، وأدخلوها على المسلمين فاتحين باب الفتن، وخاضوا بغير علم، ثم جعلوا خوضهم أصل الدين، مخالفين من سبقهم من لدن النبي ﷺ وهم خير الأمة، واجترؤوا على أهل السنة فناصبوهم العداء، وسفهوهم، وامتحنوهم على بدعهم لما قُدِّر لهم أن تكون الدولة لهم.

قال ابن القيم رحمه الله: (وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه بلا برهان فقال: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ الآية، فكيف بمن نسب إليه سبحانه

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٧٢-٣٧٣ بتصرف واختصار.

وتعالى ما لم يصف به نفسه أو نفى عنه منها ما وصف به نفسه!)[١].

وأما القول في الشرع بلا علم فداء عضال؛ ترى الرجل لا يحسن اسمَه إذا ذكر الشرع تبوأ منصب الإفتاء، وصار له قول ورأي، فهذا حلال وهذا حرام، ومعنى الآية والحديث كذا! بل من طلبة العلم والعلماء من يفعل ذلك وهو يدري؛ لأن فتنة العالم أكبر، فالجاهل قد يقول لا أدري، أما العالم فقد يشق عليه أن يسأل فيقول لا أدري، فبدل أن يحفظه علمه من هذا الذنب العظيم، يكون سبباً في اجترائه على الله، وهذه هي الطامة!

وكم في الحياة من أناس يظن الواحد منهم أنه نال العلم وبلغ مرتبة الاجتهاد وسقط عنه طلب العلم والفقه في الدين، فلا ترد عليه مسألة إلا أعطاك جوابًا حاضرًا عليها من وحي الشيطان، فتسمع منه أقوالاً عجيبة غريبة، أتراه لا يفقه أن الله عتب على أعلم الناس وهم الأنبياء في أقل من ذلك بكثير؟ أم تراه لا يعلم أن موسى ﷺ سعى في طلب العلم من الخضر وهو كليم الله ومصطفاه وقد بلغ من العمر ما بلغ؟

ألم يسمع قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [النحل]، ولو لم يكن في التحذير من الفتيا بغير علم سوى هذه الآية لكفت؟ لكنه التعالم الذي يقطع الخير عمن يصاب به، ويضل الناس عن سبيل الله.

قال ابن القيم رحمه الله: (قال بعض السلف: ليحذر أحدكم أن يقول: أحل الله كذا، وحرم الله كذا، فيقول الله: كذبت، لم أحل هذا، ولم أحرم

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٧٢-٣٧٣ بتصرف يسير.

هذا. يعني بالرأي المجرد، بلا برهان من الله ورسوله)[١]، ورُوي أن رسول الله ﷺ قال: "أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار"[٢]، والحديث وإن كان ضعيفاً لكن معناه صحيح، واستحضار هذا يعصم المرء من هذه البلية.

ثم أي شيء في أن يقول المرء: لا أدري! فقد (صح عن أبي الدرداء أن: "لا أدري"، نصف العلم)[٣]، فمن كان يجد حرجاً من قول لا أدري فليتأمل هذه القصة ففيها عبرة؛ كان لإبراهيم بن طهمان [٤] رحمه الله جراية فاخرة من بيت المال، (فسئل مرة في مجلس الخليفة، فقال: لا أدري. قالوا له: تأخذ في كل شهر كذا وكذا، ولا تحسن مسألة؟ فقال: إنما آخذ على ما أحسن، ولو أخذت على ما لا أحسن، لفني بيت المال علي، ولا يفنى ما لا أحسن)[٥]، فلم يمنعه رحمه الله حضور خليفة المسلمين في المجلس أن يقول لا أدري، ولم يجد غضاضة في ذلك، فليرفق بنفسه من يلقي بها إلى التهلكة خشية أن يقول لا أدري في حضرة من هم دون الخليفة بكثير.

ولما كانت تبعات القول على الله بلا علم وخيمة، والمتجرئ عليه متهم في عقيدته، ومنسوب إلى البدعة، كان تحذير السلف منه متتابعًا، وخوفهم من الوقوع فيه دائماً، فكانت "لا أدري" تجري على ألسنتهم كأنها جزءٌ من أصول العلم الذي عندهم. لأنها علامةٌ على رسوخ القدم في

---

(١) السابق.

(٢) سنن الدارمي ١/ ٦٩ (١٥٧)، وضعفه الألباني لإعضاله في السلسلة الضعيفة ٤/ ٢٩٤ (١٨١٤).

(٣) سير أعلام النبلاء ٨/ ٧٧.

(٤) من كبار أتباع التابعين، قال الذهبي في السير: الإمام، عالم خراسان، ت (١٦٣هـ).

(٥) سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٢.

العلم، وعلى الورع والتواضع والإخلاص، والقدوة في ذلك كله هو نبينا محمد ﷺ، فقد كان يُسأل عن الأمر فيسكت، ولا يجيب بشيء حتى يأتيه الوحي من الله بالجواب، وتدبر هذه السورة دليل على ذلك، فإن القوم لما سألوه عليه السلام أسئلتهم الثلاثة، أرجأ جوابهم انتظاراً للوحي؛ ويوم جاءه جبريل عليه السلام وهو جالس بين أصحابه فسأله وقال: "متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"[١]، قال النووي: (فيه أنه ينبغى للعالم والمفتي وغيرهما إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم، وأن ذلك لا ينقصه، بل يستدل به على ورعه وتقواه ووفور علمه)[٢]، وقال: (وإنما يمتنع مِن "لا أدري" من قلّ علمه وضعفت تقواه، لأنه يخاف لقصوره أن يسقط من أعين الحاضرين، وهو جهالة منه فإنه بإقدامه فيما لا يعلمه يبوء بالإثم العظيم، ولا يرفعه ذلك عما عرف من القصور بل يستدل به على قصوره، لأنا إذا رأينا المحققين يقولون لا أدري وهذا القاصر لا يقولها أبدا، علمنا أنهم يتورعون لعلمهم وتقواهم، وأنه يجازف لجهله وقلة دينه، فوقع فيما فر عنه واتصف بما احترز منه لفساد نيته وسوء طويته)[٣].

وإنّ الأنفسَ الضعيفة والقلوبَ المريضةَ تتوق إلى التشبُّع بالعلم، وتستنكف عن الظهور بمظهر الجهل؛ ومن هنا فإنه لا يقدر على هذه الكلمة إلا المخلصون المُوَفَّقُون. فلهذا سار العلماء الربانيون على طريقه ﷺ، إذ هو الأسوة الحسنة؛ ذكر ابن كثير رحمه الله في مقدمة التفسير طائفة من

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٢٧ (٥٠)، صحيح مسلم ١/ ٣٩ (٩).
(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١/ ١٥٨.
(٣) المجموع شرح المهذب١/ ٣٤ بتصرف واختصار.

الآثار في ورع السلف وتَحَرُّجهم من القول على الله في القرآن بغير علم[١]، فهذا أبو بكر الصديق ﷺ يقول: (أيّ أرض تقلّني، وأي سماء تظلني، إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم!)، وهذا أنس يقول: (كنا عند عمر بن الخطاب ﷺ، وفي ظهر قميصه أربع رقاع، فقرأ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: ما الأبّ؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف، فما عليك ألا تدريه!)، (وعن ابن أبي مُلَيْكَة أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها)، وعنه قال: (سأل رجل ابن عباس عن ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥]، فقال له: فما ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج]؟ فقال الرجل: إنما سألتك لتحدثني. فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله في كتابه، الله أعلم بهما. فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم)، (وعن سعيد بن المسيب أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن).

قال ابن جماعة في ذكر أدب العالم في درسه: (وإذا سئل عن ما لا يعلمه قال: لا أعلمه، أو لا أدري، فمن العلم أن يقول: لا أعلم، واعلم أنّ قول المسؤول: لا أدري لا يضع من قدره كما يظن بعض الجهلة، بل يرفعه؛ لأنه دليل عظيم على عظم محله، وقوة دينه، وتقوى ربه، وطهارة قلبه، وكمال معرفته، وحسن تثبته)[٢]، ثم ذكر قريبا من كلام النووي.

قال سفيان الثوري: (قل ما تعلم، ولا تقل ما لا تعلم)[٣]، وقال ابن وهب، عن مالك، سمع عبد الله بن يزيد بن هُرْمُز يقول: (ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده لا أدري، حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/ ١١ وما بعدها.
(٢) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لابن جماعة الكناني ص:٧٨.
(٣) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٦٣.

يفزعون إليه، إذا سئل أحدهم عما لا يدري قَال: لا أدري)[١]، وكأن الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ قد التزم هذا أشد الالتزام، قال أبو نُعيم: (ما رأيت عالمًا أكثر قولًا "لا أدري" من مالك بن أنس)[٢]، وقال ابن وهب: (لو شئت أن أملأ ألواحي من قول مالك: "لا أدري" لفعلت!)[٣]، وقال أبو مصعب الزهري: (قال لنا المغيرة: تعالوا نجتمع ونستذكر كل ما بقي علينا ما نريد أن نسأل عنه مالكا. فمكثنا نجمع ذلك، وكتبناه في قنداق ووجه به المغيرة إليه، وسأله الجواب؛ فأجابه في بعضه وكتب في الكثير منه: لا أدري، فقال المغيرة: يا قوم! لا والله ما رفع الله هذا الرجل إلا بالتقوى من كان منكم يسأل عن هذا فيرضى أن يقول: لا أدري؟)[٤]، وقصة الأربعين سؤالاً التي سئلها مشهورة، قال الهيثم بن جميل: (سمعت مالكاً سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فأجاب في اثنتين وثلاثين منها بلا أدري)[٥]، وعن خالد بن خداش، قال: (قدمت على مالك بأربعين مسألة، فما أجابني منها إلا في خمس مسائل)[٦]، وسئل يوماً عن مسألة فقال: (لا أدري. فقال له السائل: إنها مسألة خفيفة سهلة، وإنما أردت أن أعلم بها الأمير، وكان السائل ذا قَدر؛ فغضب مالك وقال: مسألة خفيفة سهلة! ليس في العلم شيء خفيف، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل]؛

---

(١) المعرفة والتاريخ ١/ ٦٥٥، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٧٧.

(٢) صفة الفتوى والمفتي والمستفتي، لأحمد بن حمدان النمري الحراني ص٩.

(٣) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٠٨.

(٤) الموافقات ٥/ ٣٢٨.

(٥) سير أعلام النبلاء ٨/ ٧٧.

(٦) السابق.

فالعلم كله ثقيل، وبخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة)[(١)]، وكان رحمه الله يقول: (جُنَّة العالم "لا أدري"، فإذا أغفلها أصيبت مقاتله)[(٢)].

وقد سئل الإمام أحمد عن حرف من غريب الحديث فقال: (سلوا أصحاب الغريب، فإني أكره أن أتكلم في قول رسول الله ﷺ بالظن فأخطئ)[(٣)]، وهذا الفقه الجليل لكلمة "لا أدري" لا يُدركه أهلُ المكرِ والغدرِ والجهل، فهو خصيصةُ أهلِ العلم والذِّكر؛ فكلما زاد المرءُ قربًا من الله ﷻ ومعرفةً بعلمه؛ زاد من قول: لا أدري؛ ورحم الله الشعبي وقد قيل له: (إنا لنستحي من كثرة ما تقول: لا أدري، فقال: لكن ملائكة الله المقربون لم يستحيوا إذ سئلوا عما لا يعلمون أن قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة])[(٤)]، وعن الصلت بن بهرام، قال: (ما بلغ أحد مبلغ الشعبي، أكثر منه يقول لا أدري)[(٥)]، وكان رحمه الله يقول: (لا أدري: نصف العلم)[(٦)]، وعن تميم بن عطية العبسي قال: (كثيراً ما كان مكحول يُسأل، فيقول: "ندانم" يعني: لا أدري)[(٧)]، قال أبو عمر الزاهد: كنت في مجلس أبي العباس ثعلب، فسأله سائل عن شيء فقال: لا أدري، فقال له: أتقول: لا أدري وإليك تضرب أكباد الإبل! وإليك الرحلة من كل بلد! فقال له ثعلب: لو كان لأمك بعدد لا أدري بعر لاستغنت[(٨)].

---

(١) انظر ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض ١/ ٤٧، والموافقات٥/ ٣٢٨.

(٢) السابق.

(٣) مقدمة ابن الصلاح ص:١٥٩.

(٤) تاريخ دمشق ٢٥/ ٣٦٦ بتصرف واختصار.

(٥) سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٠٢.

(٦) سير أعلام النبلاء ٤/٣١٨.

(٧) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٦١.

(٨) تاريخ بغداد ٥/ ٢٠٩.

وكان العلماء يقولون: تعلم لا أدري ولا تعلم أدري فإن قلت: أدري سألوك حتى لا تدري، وإن قلت: لا أدري علموك حتى تدري[١].

وهكذا كلما زاد علم الإنسان أكثر من قول لا أدري، لأنه كلما ازداد علماً أدرك كم كان ينقصه منه، وأن ما زال ينقصه أكثر مما حصله، والأمر كما قد قيل: لا يزال الرجل يتعلم حتى إذا ظن أنه علِم فقد بدأ يجهل.

وهذا الذي كان عليه السلف، وجدنا عليه كبار مشايخنا حفظ الله حيهم ورحم ميتهم، كان الشيخ ابن باز رحمه الله كثيراً ما يُسأل فيقول: لا أدري، هذه المسألة تحتاج إلى بحث، مع أن كثيراً من طلبة العلم لو سمعها لبادر بالجواب، لكنه لسعة علمه ظهر له فيها جانب خفي لم يتفطن له هؤلاء، فحالهم تشبه من وصفهم أبو حصين رحمه الله بقوله: (إن أحدهم ليفتي في المسألة، ولو وردت على عمر لجمع لها أهل بدر!)[٢]، وكان شيخنا شيخنا ابن عثيمين رحمه الله -وهو من هو في فقهه وعلمه- يميل لقول، ثم لا يجد من سبقه إليه فيقول: لولا أنني أخشى أن أكون أول من قال به لقلت به، فإن اطلعتم على هذا القول لأحد قبلي فأنا أقول به. وهذا درس عظيم لطالب العلم، فعليه أن يتحرى ولا يستعجل، ويتهم نفسه وعلمه.

فما يمنعك أن تقول: لا أدري حتى تعلم؟ وقد تبين لك خطر القول على الله بلا علم! وما يمنعك الاقتداء بهؤلاء الراسخين في العلم، وقد كانت "لا أدري" جوابهم في كثير مما كانوا يُسألون عنه!

ومع ما تقدم فقد دخل هذا الذنب العظيم والخطر الجسيم على

---

(١) الزهد لابن أبي عاصم ص:٥١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٤١٦.

طائفتين منتسبتين إلى الدين والصلاح: المشتغلين بالعبادة والمشتغلين بالعلم، وكل من الطائفتين يظن أنه في منأى عن هذه الكبيرة الموبقة وأن من يرتع حول حماها هم الطائفة الأخرى، والحق أن كلاً منهما على خطر ولا يؤمن عليه منها؛ فهذا قد يُحدِث في الدين ما لم يأذن به الله، وذاك قد يقول على الله ما لا يعلم، قال ابن القيم رحمه الله: (قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [النحل]، فتقدم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه، وقولهم لما لم يحرمه هذا حرام، ولما لم يحله هذا حلال، وهذا بيان أنه لا يجوز للعبد أن يقول ذلك إلا بما علم أن الله سبحانه أحله وحرمه، وقال بعض السلف: ليتق أحدكم أن يقول أحل الله كذا، وحرم كذا، فيقول الله له: كذبت، لم أحل كذا، ولم أحرم كذا، فلا ينبغي أن يقول لما لا يعلم ورود الوحي المبين بتحليله وتحريمه أحله الله وحرمه الله لمجرد التقليد أو بالتأويل)(١).

وأمام هذا النقل يجب أن يقف طالب العلم ملياً:

- فقد رأينا من طلاب العلم من يفتي بالتقليد، فيقول الحكم في هذه المسألة كذا وكذا، مقلداً عالماً دون أن يعلم دليله، وقد كان يكفيه أن يقول: قد أفتى الشيخ فلان بكذا وكذا، فيكون ناقلاً للفتوى فيسلم.
- ورأينا من يُسأل فيفتي بالجهل مهابة أن يقول لا أدري.
- ورأينا من يُسأل فيفتي بالهوى مخافة أن ينعت بالتشدد والتعنت، أو مخافة أن ينعت بالتساهل والتحلل.
- ورأينا من يفتي تبعاً لما يظن المصلحة فيه وإن جهل تحرير النزاع.

---

(١) إعلام الموقعين ١/ ٣٨-٣٩ بتصرف يسير.

- ورأينا من يفتي بالأيسر في نظره دون أن يتحقق أهو إثم أم لا؟ وهل هو موضع اختيار أم لا؟

- ورأينا من يفتي في مسائل كبار دون أن يحررها التحرير الكافي.

وهذه من الآفات التي قد تجعل طالب العلم شراً ممن يقارف الآثام.

وإنك لتعجب عندما ترى بعض كبار مشايخنا لا يفتي في بعض المسائل، كمسائل طلاق الثلاث مثلاً، ثم تجد مِن طلاب العلم مَن يتقحم فيها دون تحرير راسخ بمجرد قراءته لقول فلان، ومثل هذا قد يدفعه الهوى الذي صادف قلباً خالياً للاختيار، وإلَّا فلو نظر في الخلاف وبحث وتأمل لوجد المسألة جديرة بالنظر والبحث قبل الصدور عن رأي، ومن تأمل وجد لهذه المسألة نظائر كثيرة والله المستعان.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾

وبهذه الكلمات يختصر كثير من الأحداث والمواقف التي حصلت، إذ وصل الفتية إلى مفترق طرق، فإما الاستجابة لدعوة قومهم، وإما مجابهتهم ومقاساة ما لا طاقة لهم به، وإما الفرار بدينهم؛ وقد اختاروا هذا الأخير، فلجؤوا إلى الكهف ابتغاء رحمة الله.

قال الشنقيطي: ("إذ" في قوله: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ للتعليل على التحقيق كما قاله ابن هشام، وعليه فالمعنى: ولأجل اعتزالكم قومكم الكفار وما يعبدونه من دون الله، فاتخذوا الكهف مأوى ومكان اعتصام، ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقاً، وهذا يدل على أن اعتزال المؤمن قومه الكفار ومعبوديهم من أسباب لطف الله به ورحمته)[1].

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٢٩٢.

قال ابن عاشور: (فمعنى اعتزال القوم ترك مخالطتهم، ومعنى اعتزال ما يعبدون: التباعد عن عبادة الأصنام)(١).

قال ابن الجوزي: (﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فيه قولان؛ أحدهما: واعتزلتم ما يعبدون إلا الله، فإن القوم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه آلهة، فاعتزل الفتية عبادة الآلهة، ولم يعتزلوا عبادة الله ...

والثاني: وما يعبدون غير الله؛ قال قتادة: هي في مصحف عبد الله: ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وهذا تفسيرها)(٢)، قال الشنقيطي: (وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قيل: هو استثناء متصل، بناء على أنهم كانوا يعبدون الله والأصنام. وقيل: هو استثناء منقطع. بناء على القول بأنهم كانوا لا يعبدون إلا الأصنام، ولا يعرفون الله ولا يعبدونه)(٣).

وقال ابن كثير: (﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضًا بأبدانكم ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾)(٤)، قال ابن عاشور: (والتعريف في ﴿ٱلۡكَهۡفِ﴾ يجوز أن يكون تعريف العهد، بأن كان الكهف معهوداً عندهم يتعبدون فيه من قبل. ويجوز أن يكون تعريف الحقيقة مثل ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [يوسف: ١٣]، أي فأووا إلى كهف من الكهوف. وعلى هذا الاحتمال يكون إشارة منهم إلى سُنة النصارى التي ذكرناها في أول هذه الآيات، أو عادة المضطهدين من اليهود كما ارتأيناه هنالك)(٥). وأما الاحتمال الأول

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٤٥.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢١٠.
(٣) أضواء البيان ٣/ ٢٩٢.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٢.
(٥) التحرير والتنوير ٨/ ٣٤٥.

بأن ذلك الكهف كان معهوداً معروفاً عندهم، فإنه يدل على أن الفتية كان بينهم تواصل ونوع اجتماع داخل المدينة وخارجها، ولا يحتج بما خالف ذلك من الإسرائيليات، ولأنها لا تمنع ما ذكر.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ۝١٦﴾

فقد قال الطبري: (يقول: يبسط لكم ربكم من رحمته بتيسيره لكم المخرج من الأمر الذي قد رُمِيتم به من الكافر دقينوس وطلبه إياكم لعرضكم على الفتنة... وقوله: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ۝١٦﴾ يقول: وييسر لكم من أمركم الذي أنتم فيه من الغمّ والكرب خوفاً منكم على أنفسكم ودينكم مرفقاً، ويعني بالمرفق: ما ترتفقون به من شيء)[1].

لفتة- تأمل كيف أن هؤلاء الفتية حين قرروا اللجوء إلى الكهف وهو مظنة الوحشة والظلام وشظف العيش لم يقولوا فأووا إلى الكهف فلا يدرككم عدوكم، أو يكنكم من البرد أو الحر، بل قالوا ينشر لكم ربكم من رحمته، ليس فقط يرحمكم، بل ينشر لكم الرحمة، ثم يهيئ لكم مرفقا، وفي هذا إشارة إلى أن من لجأ إلى الله حق الالتجاء كان له ناصرا ومعينا، وأحال عسر أمره يسرا، وجعل له من بعد الضيق فرجا ومخرجا.

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦١٧-٦١٨.

معية الله لعباده المؤمنين

في قول الفتية: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ ما يشعر بقوة تعلقهم بالله تعالى، وثقتهم به، فهم يخبرون بنشر الرحمة وتهيئة المرفق عن ثقة بربهم أنه لن يضيعهم، وهذا اليقين عبادة قلبية عظيمة، وهذا اليقين لم يمنعهم من عبادة جليلة، هي الدعاء بطلب الرحمة وتهيئة الأمر عندما أووا إلى الكهف: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾، فهم ينتقلون من عبادة لأخرى، وهذا يجعل العبد يثق بالودود الذي آوى هؤلاء الفتية، فيطرد القلق من نفسه ويذهب الخوف على المستقبل من قلبه، فإذا كان هذا صنع الله بمن آمن به وأقبل عليه واعتمد عليه فلا خوف ولا حزن، فما على العبد إلا أن يحقق أسباب ولاية الله ليحصل على معيته: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس].

عن ابن عباس قال: "كنت خلفت رسول الله ﷺ يوما فقال يا غلام إني أعلمك كلمات؛ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف"[1]، وقد علّم النبي ﷺ كل مسلم أن يسأل الله تعالى أن

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٦٦٧ (٢٥١٦)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني.

يحفظه بما يحفظ عباده الصالحين، فعن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: "إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم يقول باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين"(١).

وكما دلت الآية على ثقة الفتية بربهم فقد دلت على عظيم إيمانهم، وهذا الإيمان هو الذي حبَّب إليهم الكهف وبغَّض إليهم قومهم وعيشهم، فالمعادلة عندهم واضحة، ونتيجتها محسومة: فكهف مع توحيد، لا مجال للمقارنة بينه وبين عيش وثير مع كفر؛ فحِمى الله أوسع وأرحب، ولو في كهف خشن ضيق. وقد كان الله عند حسن ظنهم به فآواهم ونشر لهم من رحمته وهيأ لهم من أمرهم رشداً ومرفقاً، وفي هذا درس عظيم لكل مؤمن أن حصول الرحمة وتهيئة الأمور يكون بأداء المشروع والمأمور.

فكذلك ينبغي لمن يمتنع من قول الحق وأداء ما أوجب الله عليه، أو الوقوف في وجه الباطل خشية السجن أو الفقر أو النفي وغير ذلك، ينبغي أن يعلم أن ربه سينشر له من رحمته إن قام بواجبه. وليستبشر، فإن قدر ووقع البلاء، فكم من أناس كان السجن لهم رحمة وسكينة وباباً من أبواب القرب إلى الله، وكم من أناس زادهم الفقر تذللاً إلى الله وقرباً منه، وهذا شيخ الإسلام رحمه الله يقول: (ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة)(٢).

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٢٩ (٥٩٦١)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٨٤ (٢٧١٤).
(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص:٤٨.

وكم من أناس فك الله أسرهم وأبدلهم رفعة ومهابة بين الخلق، هذا مع أنه في كثير من الأحيان تكون هذه الخشية ليست في محلها وإنما هي محض أوهام من صاحبها ومن تخويف الشيطان ليصده عن فعل الخيرات.

قال صاحب الظلال: (وهنا ينكشف العجب في شأن القلوب المؤمنة؛ فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم، ويهجرون ديارهم، ويفارقون أهلهم، ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة، وهؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم، هؤلاء يستروحون رحمة الله، ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾.

ولفظة ﴿يَنشُرۡ﴾ تلقي ظلال السعة والبحبوحة والانفساح، فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها وتمتد ظلالها، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء.

إن الحدود الضيقة لتنزاح، وإن الجدران الصلدة لترق، وإن الوحشة الموغلة لتشف، فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق. إنه الإيمان!

وما قيمة الظواهر؟ وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التي تعارف عليها الناس في حياتهم الأرضية؟ إن هنالك عالماً آخر في جنبات القلب المغمور بالإيمان، المأنوس بالرحمن. عالماً تظلله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان. ويسدل الستار على هذا المشهد، ليرفع على مشهد آخر والفتية في الكهف وقد ضرب الله عليهم النعاس)[1].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٥٦.

العزلة وأنواعها المحمودة

العزلة إما أن تكون حسية؛ بأن يعتزل المرء الناس ولا يخالطهم وإن بقي متمسكاً بما هم عليه من قيم وأعمال، وإما أن تكون معنوية؛ بأن يبقى المرء بين قومه ولكن يعتزل ما هم عليه، كما يحصل في زماننا إذ تنتشر المخالفات في كثير من المجالات فيعتزلها المرء ويدعو إلى تركها لكنه يبقى في وطنه بين قومه وأهله، وإما أن تكون حسية ومعنوية في آن؛ كما كان من الفتية إذ فارقوا قومهم بأبدانهم، وفارقوا عبادتهم غير الله ﷻ، فاعتزلوا المكان وذهبوا إلى الغار، واعتزلوا العبادة إلا عبادة الله.

والاعتزال في الكهوف والغيران ونحوها، إنما يصح بضوابطه في زمان الفتنة، مع تعذر الهجرة؛ فأهل الكهف لم يكونوا في مكان فيه جمعة ولا جماعة، ولا وُجِدوا حيث من يأمر بشرع نبي، بل كانوا مطاردين مطلوبين لسلطات طغاة قومهم وأجهزة أمنهم! فلهذا أووا إلى الكهف، فالظاهر من سياق الآيات أنهم فروا من بطش الطغاة يوم قل الناصر، وعجزوا عن إقامة دينهم، يدل على ذلك:

١- التعبير بلفظ (إذ أوى) والإيواء مشعر بأنهم لم يجدوا مأوى في دورهم وبين قومهم ففروا إلى الكهف، دلالة على أنه ليس لهم مكان غير هذا يأوون إليه، وليس هناك من يمنعهم من هذا الظالم، ونستشف من اللفظ معنى الالتجاء كما جاء في مثل: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [هود: ٤٣]، ومثل: ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ [هود].

٢- ومنها قولهم: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ

أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الكهف]، فما أرسلوه إلّا لحاجة، مع أمره بالتخفي، وتأكيده بالنهي عن إشعار أحد، فالنكرة في سياق النفي تعم، وهذا يدل على خوفهم من الطالب والراصد، وأنهم لا يأمنون على أنفسهم حتى من أقرب الناس.

٣- ومنها تصريحهم: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الكهف]، فهم قد علموا أنهم محكوم عليهم بالقتل شر قتلة إن لم يعودوا لملة الكفر، فاعتزلوا: ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ وحق لهم ذلك، وقد **يجوز للمرء أن يعتزل لمقصد صحيح؛ كأن يعتزل لطلب العلم** ونحوه، شريطة أن يقوم بالخلطة الواجبة، قال شيخ الإسلام: (وإذا أراد الإنسان تحقيق علمٍ أو عمل فتخلى في بعض الأماكن مع محافظته على الجمعة والجماعة فهذا حق، كما في الصحيحين أن النبي سئل: أي الناس أفضل؟ قال: "رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، كلما سمع هيعة طار إليها، يتتبع الموت مظانه، ورجل معتزل في شعب من الشعاب يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويدع الناس إلّا من خير"(١)، وقوله: يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، دليل على أن له مالاً يزكيه، وهو ساكن مع ناس يؤذن بينهم وتقام الصلاة فيهم، فقد قال ﷺ: "ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة جماعة إلّا وقد استحوذ عليهم الشيطان. وقال: عليكم

---

(١) هذا اللفظ في صحيح مسلم ٣/ ١٥٠٣ (١٨٨٩)، وليس في صحيح البخاري، والذي فيه: "مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله. قالوا ثم من؟ قال: مؤمن في شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره" ٣/ ١٠٢٦ (٢٦٣٤).

بالجماعة فإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم"[١])[٢].

وموطن آخر للعزلة ذكره رحمه الله فقال: (**ولا بد للعبد من أوقات ينفرد فيها بنفسه؛ في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه** وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره، فهذه يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه، إما في بيته كما قال طاووس: نِعْمَ صومعة الرجل بيته، يكف فيها بصره ولسانه، وإما في غير بيته)[٣].

وقد نقل ابن القيم عن بعض قرابة الشيخ وهو تقي الدين بن شقير، أن الشيخ في عنفوان شبابه وبداية أمره كان يخرج أحياناً إلى الصحراء، منفرداً بنفسه عن الناس، قال ابن شقير: (فتبعته يوماً، فلما أصحر تنفس الصعداء، ثم جعل يتمثل بقول الشاعر من قصيدته الطويلة:

وَأَخرُجُ مِن بَينِ البُيوتِ لَعَلَّني ... أُحَدِّثُ عَنكِ النَفسَ بالسِرِّ خالِيا[٤]

قال ابن القيم: وصاحب هذه الحال إن لم يَرُدَّه الله سبحانه إلى الخلق بتثبيت وقوة، وإلا فإنه لا صبر له على مخالطتهم!)[٥].

وقال مرعي بن يوسف الكرمي عن ابن تيمية رحمهما الله: (وكان يتمثل كثيراً بقول القائل:

عَوى الذِئبُ فَاستَأنَستُ بِالذِئبِ إِذ عَوى   وَصَوَّتَ إِنسانٌ فَكِدتُ أَطيرُ

---

(١) سنن أبي داود ١/ ٢٠٥ (٥٤٧) بلفظ: "ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية"، وحسنه الألباني.

(٢) الفتاوى ١٠/ ٤٠٥.

(٣) الفتاوى ١٠/ ٤٢٦.

(٤) البيت من بحر الطويل.

(٥) مدارج السالكين ٣/ ٥٩-٦٠، وانظر روضة المحبين ١/ ٢٨١.

[1][2]

فهذان ضربان من العزلة سائغان.

وقسم ثالث من العزلة سائغ: وهو عزلة بعض الناس دون بعض، فيقتصر المرء في علاقته على من ينتفع به، ويزداد إيماناً بصحبته، وهذه تسوغ في حق من لم يستطع التأثير، ووجد نفسه يتأثر تأثراً سيئا بمن حوله، وقد يجب على بعض الناس هذا الضرب من العزلة.

وقسم رابع واجب: وهو العزلة في زمن الفتنة، وهي التي قال فيها ﷺ كما في حديث أبي سعيد الخدري: "يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن"[3]، ومن علامة الفتنة أن ترى بين المسلمين: شُحاً مطاعاً، وهوىً متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، وهذا وإن كان موجوداً اليوم بين المسلمين إلّا أنه ليس عاماً، فأهل الخير والإنصاف العاملون لأجل الدين المترفعون عن حظوظ النفس وشهواتها لا تزال فيهم بقايا والحمد لله.

ومن علامات الفتنة الاقتتال بين المتنازعين، فينقسم الناس لأجله فريقين، فقتالهم فتنة وإن كان الحق أرجح في كفة بعضهم، ومثله يُعتزل، إذ لا يسوّغ الحقُّ الذي فيه تلك الخصومةَ وما ينجم عنها من مفاسد، ومن ذلك ما حدث بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، فاعتزله أكابر الصحابة رضي الله عنهم.

أقول: ومن هذا القبيل ما نشهده اليوم من خصومات بين فئام من أهل السنة، ناشئة عن اختلاف في اختيارات فقهية، أو اجتهادات فردية، أو مناهج دعوية، فيتدابر الإخوان جراءها؛ وإن لم يتخاصموا ويتنابذوا اعتزل

---

(١) البيت للأُحَيمِر السَعدي ت (١٧٠ هـ)، وهو من البحر الطويل.

(٢) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية لابن مرعي الحنبلي ١/ ٣٥.

(٣) صحيح البخاري ١/ ١٥ (١٩).

كل منهم صاحبه، وأخذ منه ومن مشاريعه الدعوية موقفاً سلبياً، فلا يسهم معه، بل يُسْلِمه ويخذله، وقد يظلمه ظلماً صريحاً.

فإذا رأيت مثل هذا الخصام فاعتزله وإن كنت ترى أن إحدى الطائفتين أولى بالحق؛ وذلك لأن عاقبة الخصومة أضر؛ ولا يعني هذا أن تترك بيان الحق، بل بيانه قد يكون واجباً، فبينه بقوة ووضوح، لكن دون تعرض للأشخاص أو طعن في الذوات، أو إبداء ميل لهذا أو ذاك.

وقسم خامس من العزلة أوجب: وهو عزلة أهل الباطل ولاسيما إذا استطال شرهم، وعظمت سطوتهم بالذين آمنوا، فلا يكادون يستطيعون إقامة شعائرهم فضلاً عن الدعوة، فعندئذ إن لم تمكن الهجرة تجب العزلة، وهذا ضرب من البراء اللازم أسوة بإبراهيم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾[مريم]، وهنا ينشر الله للمعتزلين الذين لم يجدوا بداً من عزلة الباطل وأهله من رحمته ما شاء: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم].

فتلك خمسة أقسام للعزلة المحمودة، تكون جزئية وكلية، مؤقتة ومستمرة، بحسب الغرض والحال، وما سوى ذلك فالتعويل على قوله ﷺ: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم"(١).

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢/ ٤٣ (٥٠٢٢)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين.

العزلة وقضية التعايش:

من تأمل ما سبق علم أن التعايش مع الكافر أو الآخر المخالف ليس مشروعاً بإطلاق، لا لأمتنا ولا لمن قبلنا، بل مفهوم التعايش فيه إجمال، ويكتنفه حق وباطل، وضابط التعايش المشروع يختلف باختلاف حال المسلمين قوة وضعفاً، أما في حال القوة، فلا تعايش سلميا مع أهل الكفر إلّا بضرب الجزية، والتزامهم بأحكام أهل الذمة، أو العهود المؤقتة إلى أجل، بحسب أولويات دولة الإسلام، وإلّا فإن لم يكونوا من أهل الجزية أو كانوا من أهلها وامتنعوا من أدائها عن يد وهم صاغرون، فجهاد الكفار وطلبهم في دورهم واجب شرعي مع القدرة، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾ [التوبة]، وقال ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله"(١).

وهذا في حقيقة الأمر يؤول إلى نوع من التعايش السلمي الكريم، الذي يقوم به العدل بين الناس، فلا يُسَوَّى فيه بين المسلم والكافر، ولا يظلم فيه الكافر حبة خردل، إن التزم بما عليه من حقوق، والتزمت الدولة بما له من واجبات. فالحق أنه مع فرض جهاد الطلب، فإن للتعايش مجالاً.

لكن كيف التعايش؟ هذا ما ينكره الشانؤون الذين يريدون أن يجعلوا المسلمين كالمجرمين، وهو ما يراد اليوم من إطلاق الدعوة للتعايش وقبول الآخر، قال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) ﴾ [القلم].

(١) صحيح البخاري ١/ ١٧ (٢٥)، صحيح مسلم ١/ ٥٣ (٢٢).

وأما في حال الضعف، فعلى نطاق الفرد فالأصل أن لا يقيم المسلم في ديار الكافرين ولا يعيش بينهم، لقوله ﷺ: "أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين. قالوا: يارسول الله لم؟ قال: لا تَراءى ناراهما"[1]، ويسوغ ذلك للحاجة، على تفصيل عند أهل العلم، كمن أبقته مصلحة وأمكنه إقامة شعائر دينه، فقد ذهب جمع من المحققين إلى أن مثل هذا لا تلزمه الهجرة، وقد يقيد هذا في واقعنا المعاصر بالأحكام التي يمكنه التزامها في بلاد الإسلام، فإن كان المغترب في بلاد الكفر يمكنه الالتزام بأحكام الإسلام التي يمكنه الالتزام بها في ديار الإسلام، فلا حرج في بقائه بدار الكفر غير المحاربة، أما إن كانت محاربة فلعل الذي يتوجه القول بجواز البقاء المؤقت فيها لمصلحة كتجارة، وقد سافر عدد من الصحابة في حياة النبي ﷺ إلى أرض الشام -وكانت دار حرب- للتجارة، لكن ليس له الإطالة لغير حاجة، فمجرد المصلحة لا تسوغ ذلك، لعموم الأمر بالهجرة من دار الكفر. وتجب الهجرة إلى دار الإسلام مع القدرة على من لم يتمكن من إظهار شعائر دينه، أو اعتزال الشرك وأهله، ولو في المناطق المهجورة، ولا يترك ذلك إلَّا عجزا، فلا يكلف الله نفساً إلَّا وسعها.

وأما بخصوص الدول فإنها تكتفي حال الاستضعاف بالمواثيق والعهود ولو مطلقة، ولا يلزمهم شرط أجبروا عليه يخالف الشريعة، فكل شرط ليس في كتاب الله فباطل ولو مائة شرط، والكلام عن سياسة الدولة المسلمة حال الاستضعاف طويل يحتاج إلى بحث وتفصيل ليس هذا محله.

---

(١) سنن أبي داود ٢/ ٥٢ (٢٦٤٥)، وصححه الألباني.

رفقاً بعلمائنا!

في هذا الزمان الذي تكثر فيه النوازل والفتن، نجد اختلافاً كثيرا في الآراء والأفكار، منها ما يعرف وما ينكر، وصاحب ذلك كثرة في الرسائل والردود والبيانات والمواقف، وفي خضم هذا يعيب بعض الناس من يسكت من العلماء عن إنكار المنكرات التي حولنا، وقد يقع بعضهم في العلماء ويلقي التهم جزافاً، ولا شك أن الظرف الذي تمر به الأمة صعب، إلا أن الواجب أن يلتزم الجميع بشرع الله، في الشدة والرخاء، ومن الواجب في مثل هذه الأحوال أن نحسن الظن بالعلماء المعروفين بالعلم والتقوى، ذلك أنه مأمور بإحسان الظن بعامة المسلمين فكيف بورثة الأنبياء!

إن لإنكار المنكر درجاتٍ وأحكاماً تختلف باختلاف الحال؛ حال المنكَر والمنكَر عليه والمنكِر، وهو وإن تعين أحيانا إلا أن أصله فرض كفاية. ومع ذلك فقد يكون الساكت معذورا، ولنا في قصة الفتية عبرة، فقد اعتزلوا قومهم حفاظاً على أنفسهم وعقيدتهم، فأثنى الله عليهم، ولم يوجب أحد عليهم أن يواجهوا، فإذا اقتنع المرء دون هوى أنه لا يستطيع مقاومة الباطل وخشي على نفسه ودينه فنرجو أن يعذر عند الله.

لقد رخص الله سبحانه في التلفظ بالكفر للاضطرار ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [النحل]، أفلا يرخص له في اعتزال الناس وعدم إنكار المنكر ما دام هناك من يقوم بهذا الواجب؟

لقد ترخص عمار بن ياسر ﷺ ونال من النبي ﷺ بما أراد الكفار ليرفعوا عنه العذاب، فعذره النبي ﷺ، بل قال له: "كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟ قَالَ:

مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ قَالَ: إِنْ عَادُوا فَعُدْ"[1]، وترخص بعض العلماء في فتنة خلق القرآن فأجابوا المعتزلة لما أرادوا، وترخص غيرهم في مواطن أخرى، وكلهم معذور إن شاء الله.

نعم من أراد العزيمة ووجد من نفسه قوة فله ذلك حتى لو قتل وهو مأجور، ولكن لا ننكر على من ترخص، وكلا الأمرين مشروط بألا يؤدي ذلك إلى ضرر أكبر.

إن من فضل الله على أمتنا أنه لا يخلو زمان إلا وفيه قائم بحجة الله على خلقه، ومن تأمل فيما سبق من أزمات ومحن وجد مصداق ذلك، وهذا يجعلنا نحسن الظن بعلمائنا الذين يعتزلون. أما من تنكب هذا الصراط، واتبع هواه، وكال الاتهامات للعلماء يمنة ويسرة، فإنه يخشى عليه سوء المنقلب كما رأينا بأعيننا لبعض الناس، فإن "لحوم العلماء رحمة الله عليهم مسمومة وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة"[2].

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ [الكهف].

يبين الله في الآيتين حال الفتية خلال رقدتهم الطويلة، دلالة على عظيم لطفه وعنايته. إن مجرد حياتهم دليل على ذلك، فكيف وقد هيأ لهم

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٣٨٩) (٣٣٦٢)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري ص:٢٩.

من الأسباب ما يحفظهم من الآفات! فكان في ذلك آية جديدة تدل على عظيم قدرة الله وبالغ حكمته سبحانه، كما أشار ابن عاشور[1].

فقوله: ﴿وَتَرَى﴾ يحتمل أن يكون الخطاب للنبي ﷺ كما قال الطبري رحمه الله: (يقول تعالى ذكره: (﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ يا محمد)[2]، ويحتمل أن يكون الخطاب لكل قارئ للقرآن، كما قال القرطبي رحمه الله: (أي ترى أيها المخاطب الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم. والمعنى: إنك لو رأيتهم لرأيتهم كذا، لا أن المخاطب رآهم على التحقيق)[3].

وقوله: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ﴾ قال الطبري: (تعدل وتميل، من الزور: وهو الْعَوج والميل، يقال منه: في هذه الأرض زَوَر: إذا كان فيها اعوجاج، وفي فلان عن فلان ازورار، إذا كان فيه عنه إعراض... وقد اختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامَّة قرّاء المدينة ومكة والبصرة: "تزَّاور" بتشديد الزاي، بمعنى: تتزاور بتاءين، ثم أدغم إحدى التاءين في الزاي، كما قيل: تظَّاهرون عليهم. وقرأ ذلك عامة قراء الكوفيين:(تَزَاوَرُ) بتخفيف التاء والزاي، كأنه عنى به تفاعل من الزور، ورُوي عن بعضهم: "تَزْوَرّ" ... وبعضهم: تَزْوَارّ: مثل تحمارّ.

والصواب أنهما قراءتان، أعني(تَزَاوَرُ) بتخفيف الزاي، و(تزَّاوَرُ) بتشديدها معروفتان، مستفيضة القراءة بكلّ واحدة منهما في قرّاء الأمصار، متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب. وأما القراءتان الأخريان فإنهما قراءتان لا أرى القراءة بهما، وإن كان لهما في العربية وجه

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٤٦.
(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦١٩-٦٢٠.
(٣) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٦٨.

مفهوم، لشذوذهما عما عليه قرأة الأمصار)[١].

وقوله: ﴿ذَاتَ﴾ هي في الموضعين بمعنى الجهة، قال ابن عاشور في الموضع الأول: بمعنى صاحبة، صفة لمحذوف، أي صاحبة اليمين[٢].

وقوله: ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي تدعهم وتتركهم كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وغيرهم[٣]، قال الطبري: (قرضت موضع كذا: إذا قطعته فجاوزته ... وأصل القرض: القطع يقال منه: قرضت الثوب: إذا قطعته ومنه قيل للمقراض: مقراض لأنه يقطع)[٤]، قال الألوسي: (وقال أبو علي: معنى تقرضهم تعطيهم من ضوئها شيئاً ثم تزول سريعاً وتسترد ضوءها، فهو كالقرض يسترده صاحبه، وحاصل الجملتين عنده أن الشمس تميل بالغدو عن كهفهم وتصيبهم بالعشي إصابة خفيفة، ورد بأنه لم يسمع للقرض بهذا المعنى فعل ثلاثي ليفتح حرف المضارعة، واختار بعضهم كون المراد ما ذكر إلا أنه جعل تقرضهم من القرض بمعنى القطع لا بالمعنى الذي ذكره أبو علي لما سمعت، وزعم أنه من باب الحذف والإيصال والأصل تقرض لهم وأن المعنى وإذا غربت تقطع لهم من ضوئها شيئاً، والسبب لاختياره ذلك توهمه أن الشمس لو لم تصب مكانهم أصلاً لفسد هواؤه وتعفن ما فيه فيصير ذلك سبباً لهلاكهم، وفيه ما فيه، وأكثر المفسرين على أنهم لم تصبهم الشمس أصلاً)[٥].

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦١٩-٦٢٠ بتصرف يسير.

(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٤٦ باختصار.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ٦٢١.

(٤) السابق.

(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٧٦-١٧٧.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الشمس لم تكن تدخل كهفهم البتة بناء على قوله تعالى: ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ... ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، قال ابن عاشور: (والتعريف في (اليمين والشمال) عوض عن المضاف إليه أي يمين الكهف وشماله فيدل على أن فم الكهف كان مفتوحا إلى الشمال الشرقي فالشمس إذا طلعت تطلع على جانب الكهف ولا تخترقه أشعتها، وإذا غربت كانت أشعتها أبعد عن فم الكهف منها حين طلوعها، وهذا وضع عجيب يسره الله لهم بحكمته ليكون داخل الكهف بحالة اعتدال فلا ينتاب البلى أجسادهم وذلك من آيات قدرة الله. والفجوة: المتسع من داخل الكهف بحيث لم يكونوا قريبين من فم الكهف. وفي تلك الفجوة عون على حفظ هذا الكهف كما هو)[1]، والذي يظهر من لفظ الآية خلاف ذلك، ففي الموضع الأول: (تزاور عن كهفهم) وفي الثاني (تقرضهم) ولم يقل: تقرض كهفهم، فدل على أن الشمس تدخل الكهف عند الغروب لكنها لا تمسهم، قال الطبري رحمه الله: (يقول تعالى ذكره: وإذا غربت الشمس تتركهم من ذات شمالهم. وإنما معنى الكلام: وترى الشمس إذا طلعت تعدل عن كهفهم، فتطلع عليه من ذات اليمين، لئلا تصيب الفتية، لأنها لو طلعت عليهم قبالهم لأحرقتهم وثيابهم، أو أشحبتهم، وإذا غربت تتركهم بذات الشمال، فلا تصيبهم)[2].

ومما تكلم فيه المفسرون موقع الغار، قال ابن كثير رحمه الله: (ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي... ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله ورسوله إليه...

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٧٩.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢١.

فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه)[١].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ قال الطبري: (يقول: والفتية الذين أووا إليه في متسع منه)[٢]، وقال ابن كثير: (أي: في متسع منه داخلا بحيث لا تمسهم)[٣]، وقال الزمخشري: (وهم في متسع من الكهف. والمعنى أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها، مع أنهم في مكان واسع منفتح معرّض لإصابة الشمس لولا أنّ الله يحجبها عنهم. وقيل: في متفسح من غارهم ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ولا يحسون كرب الغار)[٤].

واعلم أن من قالوا لم تصبهم الشمس وهم أكثر المفسرين اختلفوا في السبب، فقال بعضهم لاتجاه فتحة باب الكهف، قال الألوسي: (واختار جمع أنه لمحض حجب الله تعالى الشمس على خلاف ما جرت به العادة قالوا: والإشارة تؤيد ذلك أتم تأييد والاستبعاد مما لا يلتفت إليه لا سيما فيما نحن فيه فإن شأن أصحاب الكهف كله على خلاف العادة)[٥].

وقد مر معنا كلام ابن عاشور حول فتحة الكهف وأنها جهة الشمال الشرقي، كما جزم ابن كثير رحمه الله بأن الباب كان مفتوحاً جهة الشمال قال: (وهذا بيّن لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة، وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٣.
(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢٢.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٣.
(٤) الكشاف ٣/ ٥٠٠.
(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٧٧.

شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخل منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تزاور الفيء يمينًا ولا شمالا ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب. فتعين ما ذكرناه ولله الحمد)(١)، وقال الألوسي: (ولعل ميل الباب إلى جانب المغرب كان أكثر ولذلك وقع التزاور على كهفهم والقرض على أنفسهم)(٢)، وهذا مبني على المقصود باليمين والشمال، قال البقاعي: (فتحرر بذلك أن باب الغار مقابل لبنات نعش، وأن الجبل الذي هم فيه شمالي مكة المشرفة، ويجوز أن يكون المراد يمين من يخرج من الكهف وشماله، فلا يلزم ذلك)(٣)، ولم يرضَ آخرون بذلك، قال الألوسي: (وقال الزجاج: ليس ذلك لما ذكر بل لمحض صرف الله الشمس بيد قدرته عن أن تصيبهم على خرق العادة كرامة لهم وجيء بقوله: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ حالاً مبينة لكون ما ذكر أمراً بديعاً كأنه قيل ترى الشمس تميل عنهم يميناً وشمالاً ولا تحوم حولهم مع كونهم في متسع من الكهف معرض لإصابتها لولا أن كفها عنهم)(٤).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾

اختلف المفسرون في مرجع قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾، قال البقاعي: (لما شرح هذا الأمر الغريب، وصل به نتيجته فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي العظيم من هدايتهم، وما دبروا، وما دبر لهم من هذا الغار المستقبل للنسيم الطيب المصون عن كل مؤذ، وما حقق به رجاءهم مما لا يقدر عليه سواه ﴿مِنَ

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٣.
(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٧٦.
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٢/ ٢٥.
(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٧٦ باختصار.

ﵟءَايَٰتِ ٱللَّهِﵞ أي الملك المحيط بكل شيء، وإن كان إذا قيس إلى القرآن وغيره مما خصت به هذه الأمة كان يسيراً)(١)، وقال الألوسي: (وبعض من ذهب إلى أن المنشأ [في عدم إصابة الشمس لهم] كون باب الكهف في مقابلة بنات نعش جعل ﵟذَٰلِكَﵞ إشارة لإيوائهم لكهف هذا شأنه، وبعض جعله إشارة إلى حفظ الله إياهم في الكهف المدة الطويلة، وآخر جعله إشارة إلى إطلاعه سبحانه رسولَه ﷺ على أخبارهم. واعتُرض على الأخيرين بأنه لا يساعدهما إيراد ذلك في تضاعيف القصة، وجعله بعضهم إشارة إلى هدايتهم إلى التوحيد ومخالفتهم قومهم وآباءهم وعدم الاكتراث بهم وبملكهم مع حداثتهم، وإيوائهم إلى كهف شأنه ذلك، ولا يخلو عن حسن، وإليه أميل)(٢).

وقال ابن عاشور: (الإشارة بقوله: ﵟذَٰلِكَﵞ إلى المذكور من قوله: ﵟوَتَرَى ٱلشَّمۡسَﵞ)(٣)، وقال ابن الجوزي: (يشير إلى ما صنعه بهم من اللطف في هدايتهم، وصرف أذى الشمس عنهم، والرعب الذي ألقى عليهم حتى لم يقدر الملك الظالم ولا غيره على أذاهم. ﵟمِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِﵞ أي: من دلائله على قدرته ولطفه)(٤)، وقال الطبري: (يقول عز ذكره: فِعلُنا هذا الذي فعلنا بهؤلاء الفتية من تصييرِناهم -إذ أردنا أن نضرب على آذانهم- بحيث تزاور الشمس عن مضاجعهم ذات اليمين إذا طلعت، وتقرضهم ذات الشمال إذا غَرَبت، مع كونهم في المتسع، بحيث لا تحرْقهم الشمس، ولا

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٣١ باختصار.
(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٧٧ بتصرف يسير.
(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٤٦.
(٤) زاد المسير ٤/ ٢١٠.

تبلى على طول رقدتهم ثيابهم، من حجج الله وأدلته على خلقه، التي يستدل بها أولو الألباب على عظيم قدرته وسلطانه، وأنه لا يعجزه شيء أراده)(١)، قال الشنقيطي: (فالإشارة راجعة إلى ما ذكر من حديثهم. أي ذلك المذكور إلى هدايتهم إلى التوحيد وإخراجهم من بين عبدة الأوثان، وإيوائهم إلى ذلك الكهف، وحمايتهم من عدوهم إلى آخر حديثهم - من آيات الله)(٢).

وأولى الأقوال أن هذا يرجع إلى كل ما في قصتهم بدءاً من هدايتهم إلى الحق من قومهم مع حداثة أسنانهم بالنظر في ملكوت الله، مروراً بصدعهم بالحق وثباتهم عليه، إلى اعتزالهم في الكهف وطول رقدتهم ثم بعثهم.

وأما ما يتعلق بعدم مس الشمس لهم، فهو آية، على التقديرين في سبب ذلك، قال الزمخشري: (﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي ما صنعه الله بهم - من ازورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة- آية من آياته، يعني: أنّ ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم، اختصاصاً لهم بالكرامة. وقيل: باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش، فهم في مقنأة أبداً)(٣)، فهو على الأول ظاهر، وأما على الثاني فإن إيجاد كهف هذه صفته وتوفيقهم إليه آية كذلك على عناية الله ولطفه بهم. قال القرطبي: (وعلى الجملة فالآية في ذلك أن الله تعالى آواهم إلى كهف هذه صفته لا إلى كهف آخر يتأذون فيه، والمقصود بيان حفظهم عن تطرق البلاء وتغير الأبدان والألوان إليهم، والتأذي بحر أو برد)(٤).

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢٣ بتصرف يسير.
(٢) أضواء البيان ٣/ ٢٩٥-٢٩٦ بتصرف يسير.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٠.
(٤) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٦٩ بتصرف يسير.

وقوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾

قال البقاعي: (لما كان انفرادهم بالهدى عن أهل ذلك القرن كلهم عجباً، وصل به ما إذا تؤمل زال عجبه فقال: ﴿مَن يَهْدِ﴾ ولو أيسر هداية - ... ﴿فَهُوَ﴾ خاصة ﴿ٱلْمُهْتَدِ﴾ في أي زمان كان، فلن تجد له مضلاً مغوياً)[1].

وهؤلاء الفتية قد هدوا هدايتين؛ الأولى إلى الإيمان والتوحيد، والثانية إلى الفرار بدينهم واللجوء إلى الكهف.

وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾

قال البغوي: (أي: من يضلله الله ولم يرشده)[2]، وقال السعدي: (أي: لا تجد من يتولاه ويدبره، على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والفلاح، لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راد لحكمه)[3]، وقال البقاعي: (فتجده يرى الآيات بعينه، ويحسها بجميع حواسه، ولا يعلم أنها آيات فضلاً عن أن يتدبرها وينتفع بها، فالآية من الاحتباك: ذكر الاهتداء أولاً دليلاً على حذف الضلال ثانياً، والمرشد ثانياً دليلاً على حذف المضل أولاً)[4]، ويقول الألوسي: (﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ﴾ وإن بالغت في الاستقصاء ﴿وَلِيًّا﴾ ناصراً ﴿مُّرْشِدًا﴾ يهديه للحق ويخلصه من الضلال لاستحالة وجوده في نفسه)[5]. فيكون معنى الآية كما قال الطبري: (يقول ﷻ: من

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٣١ بتصرف يسير.
(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٥٧.
(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٢.
(٤) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٣١.
(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٧٧ بتصرف يسير.

يوفقه الله للاهتداء بآياته التي جعلها أدلة عليه، فهو الذي قد أصاب سبيل الحقّ، ومن أضله الله عن أدلته، فلم يوفقه للاستدلال بها فلن تجد له يا محمد من يرشده لإصابتها، لأن التوفيق والخِذْلان بيد الله، فلا يَحْزُنُك إدبار من أدبر من قومك وتكذيبهم ، فإني لو شئت هديتهم، وبيدي الهداية والضلال)[1].

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢٣ بتصرف.

أنواع الهداية

قال ابن القيم ﷺ: (اعلم أن أنواع الهداية أربعة؛ أحدها: الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه]، أي أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره ... ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال ...

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر، وطريقي النجاة والهلاك، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام، فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا [لا] ينبغي الهدى معها كقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] أي بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا، ومنها قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى].

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام، وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]، وفي قوله: ﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ [النحل: ٣٧]، وفي قول النبي ﷺ: "من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له"، وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦]، فنفى عنه هذه الهداية وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى].

النوع الرابع: غاية هذه الهداية؛ وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما ... وقال أهل الجنة فيها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا ﴾

[الأعراف: ٤٣]، وقال تعالى عن أهل النار: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾)(١).

إن الهداية المذكورة هنا من النوع الثاني، هداية التوفيق والإلهام، وهؤلاء الفتية لم يروا رسولاً ولا أصحاب الرسل إلا أنهم اهتدوا بفطرتهم للحق، مثل من آمن قبل البعثة وكفر بالأصنام، كقس بن ساعدة الإيادي وزيد بن عمرو بن نفيل، وفي المقابل كفر كثير ممن أتتهم الرسل، مما يؤكد أن هذا النوع من الهداية محض فضل من الله، لا بد أن تطلب منه، ولعظم هذا الأمر يؤمر العبد أن يسأل ربه الهداية كل صلاة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة]، وفي الحديث القدسي: "يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم"(٢)، وكان النبي ﷺ يدعو في الوتر فيقول: "اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ"(٣).

ولا بد أن نوقن أن وعد الله حق، فمن سأل الله الهدى بصدق هداه، وكم سمعنا عن أناس لم يسمعوا بالإسلام قط كانوا يعلمون بفطرهم أن ما وجدوا عليه آباءهم باطل، وأن لهذا الكون إلهاً لا شريك له، فكانوا يدعونه أن يدلهم عليه فهداهم وثبتهم على الحق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢٧١-٢٧٣.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٩٩٤ (٢٥٧٧).

(٣) سنن أبي داود ٢/ ٦٣ (١٤٢٥)، وصححه الألباني.

خلق أفعال العباد

قال الشنقيطي رحمه الله: (بيَّن جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الهدى والإضلال بيده وحده جل وعلا ... وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة جداً، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ﴾ [الإسراء: ٩٧] الآية ... ويؤخذ من هذه الآيات وأمثالها في القرآن بطلان مذهب القدرية: أن العبد مستقل بعمله من خير أو شر، وأن ذلك ليس بمشيئة الله بل بمشيئة العبد، سبحانه جل وعلا عن أن يقع في ملكه شيء بدون مشيئته! وتعالى عن ذلك علواً كبيراً!)[1]، وقد تكلم رحمه الله عن مسألة خلق أفعال العباد في مكان آخر فقال: (هذه المسألة هي التي ضل فيها القدرية والجبرية، وأما القدرية فضلوا بالتفريط، إذ زعموا أن العبد يخلق عمل نفسه استقلالاً، عن غير تأثير لقدرة الله فيه. وأما الجبرية فضلوا بالإفراط حيث زعموا أن العبد لا عمل له أصلاً حتى يؤاخذ به. وأما أهل السنة والجماعة فلم يُفْرِطوا ولم يُفَرِّطوا فأثبتوا للعبد أفعالاً اختيارية -ومن الضروري عند جميع العقلاء أن الحركة الارتعاشية ليست كالحركة الاختيارية- وأثبتوا أن الله خالق كل شيء، فهو خالق العبد وخالق قدرته وإرادته، وتأثير قدرة العبد لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى. فالعبد وجميع أفعاله بمشيئة الله تعالى، مع أن العبد يفعل اختياراً بالقدرة والإرادة اللتين خلقهما الله فيه فعلاً اختيارياً يثاب عليه ويعاقب. ولو أن جبرياً ناظر سنياً فقال: حجتي لربي

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٢٩٦-٢٩٧.

أن أقول إني لست مستقلاً بعمل وإني لا بد أن تنفذ في مشيئته وإرادته على وفق العلم الأزلي فأنا مجبور فكيف يعاقبني على أمر لا قدرة لي أن أحيد عنه؟ فالسني يقول: الأسباب التي أعطاها للمهتدين أعطاها لك، جعل لك سمعاً وبصراً وعقلاً وأرسل لك رسولاً وجعل لك اختياراً وقدرة ولم يبق بعد إلا التوفيق وهو ملكه إن أعطاه ففضل وإن منعه فعدل: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام]. ولما تناظر أبو إسحاق الإسفرائيني مع عبد الجبار المعتزلي؛ قال عبد الجبار: سبحان من تنزه عن الفحشاء، وقصده أن المعاصي بمشيئة العبد دون الله، لأن الله أجل من أن يشاء القبائح في زعمهم. فقال أبو إسحاق: كلمة حق أريد بها باطل، ثم قال: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء. فقال عبد الجبار: أتراه يخلقه ويعاقبني عليه؟ فقال أبو إسحاق: أتراك تفعله جبراً عليه؟ أأنت الرب وهو العبد؟ فقال عبد الجبار: أرأيت إن دعاني إلى الهدى وقضى علي بالرَّدى أتراه أحسن إلي أم أساء؟ فقال أبو إسحاق: إن كان الذي منعك لك فقد أساء، وإن كان له فإن أعطاك ففضل وإن منعك فعدل. فبهت عبد الجبار وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب. وجاء أعرابي إلى عمرو بن عبيد وقال له: ادع الله لي أن يرد علي حمارة سرقت مني. فقال: اللهم إن حمارته سرقت ولم ترد سرقتها فارددها عليه. فقال له الأعرابي: يا هذا كف عني من دعائك الخبيث، إن سرقت ولم يرد سرقتها فقد يريد ردها ولا ترد. وقد رفع الله إشكال هذه المسألة بقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فأثبت للعبد مشيئة وصرح بأنه لا مشيئة للعبد إلا بمشيئة الله. فكل شيء صادر من قدرته ومشيئته)(١).

(١) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشنقيطي ١/ ٨٩ بتصرف.

أدلة الإيمان بين آيات الكتاب المنظور والكتاب المسطور

إن لله ﷻ نوعين من الآيات الدالة على وجوده ووحدانيته وقدرته؛ آيات قرآنية وآيات كونية، فالأولى في كتاب الله ﷻ وهو الكتاب المسطور، والثانية في كتاب الأنفس والآفاق وهو الكتاب المنظور، يقول ابن القيم رحمه الله: (فالكون بجملة ما فيه آيات وشواهد وأدلة، لم يخلق الله فيه شيئاً تلبيساً ولا وَسَّطَه عبثاً ولا خلقه سدىً، فالأسباب والوسائط والعلل محل استذكار المتفكرين واعتبار الناظرين ومعارف المستدلين، إن في ذلك لآيات للمتوسمين، وكم في القرآن من الحث على النظر والاعتبار بها والتفكر فيها وذم من أعرض عنها والإخبار بأن النظر فيها والاستدلال يوجب العلم والمعرفة بصدق رسله، فهو آيات كونية مشاهدة تصدق الآيات القرآنية)(١)، وفي هذين النوعين يقول عبد الحميد بن باديس رحمه الله: (التصديق يقوى بالنظر في الآيات الكونية والتدبر في الآيات السمعية)(٢).

إن الربط بين تسخير الآيات الكونية للفتية وبين الهداية في قوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف]، يشعر بأهمية التفكر في آيات الله والنظر والتمعن فيها، كوسيلة للاهتداء للحق، والآيات في هذا كثيرة، منها: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ٣٩٩.

(٢) العقائد الإسلامية ١/ ٤٧ بتصرف يسير.

وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة]، وقوله جل وعلا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ [ق].

وقد استخدم الأنبياء الآيات الكونية في إرشاد العقول لله وتليين القلوب لتخشع لذكر الله، قال نوح عليه السلام ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [نوح]

وقال تعالى مرشدا نبيه ﷺ أن يجعل من الآيات الكونية الباهرة مفاتيح لقلوب العباد: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن

جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النمل]، والدعوة بالآيات الكونية ناجعة مع الكافرين في هداية عقولهم، ومع الفساق في تخويفهم، فترعوي أفئدتهم.

فائدة- لا يجوز القسم إلا بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، ويجوز القسم بآيات الله إن أريد بها أنها كلام الله فهو من صفاته، ولا يجوز القسم بالنوع الثاني من الآيات كالشمس أو القمر، هذا في حق المخلوقين، والله يقسم بما شاء من خلقه: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ ﴾ [الشمس].

قوله: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾

المخاطب هنا على الخلاف السابق في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى﴾، قال ابن عاشور: (وهذا انتقال إلى ما في حالهم من العبرة لمن لو رآهم من الناس، مُدمَج فيه بيان كرامتهم وعظيم قدرة الله في شأنهم، وهو تعجيب من حالهم لمن لو رآه من الناس)(١)، وقال الشنقيطي: (أي تظنهم أيها المخاطب لو رأيتهم أيقاظاً والحال أنهم رقود)(٢)، وقال الطبري: (أي وتحسب يا محمد هؤلاء الفتية لو رأيتهم في حال ضربنا على آذانهم في كهفهم أيقاظا. جمع يَقِظ)(٣)، وقال ابن كثير: (ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم؛ لئلا يسرع إليها البلى، ولهذا قال: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾، وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عينًا

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٤٨.
(٢) أضواء البيان ٣/ ٢٩٨.
(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢٣ بتصرف واختصار.

ويفتح عينًا، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد، كما قال الشاعر

يَنَامُ بإحْدَى مُقْلتَيه وَيَتَّقِي... بأُخْرَى الرزايا فَهْوَ يَقْظَانُ نَائِمُ)[١]

وقال ابن الجوزي: (أي: لو رأيتَهم لحسِبتَهم أيقاظاً. قال الزجاج: الأيقاظ: المتبهون، واحدهم: يَقِظ، ويَقْظان، والرقود: النيام، قال الفراء: واحد الأيقاظ: يَقُظ، ويَقِظ. قال ابن السائب: وإنما يُحسَبون أيقاظاً، لأن أعينهم مفتَّحة. وقيل: لتقلُّبهم يميناً وشمالاً. وذكر بعض أهل العلم: أن وجه الحكمة في فتح أعينهم، أنه لو دام طَبْقها لذابت)[٢].

لطيفة- نوم عامة الناس يكون بعيونهم وقلوبهم، فيغمضون عيونهم ولا تدري قلوبهم بما يدور حولهم، وأما نومة أهل الكهف فكانت بقلوبهم أما عيونهم فكانت مفتوحة على ما قيل، وكان نوم رسول الله ﷺ أشرف من ذلك تنام عينه ولا ينام قلبه، كما قال ﷺ: "تَنَامُ عَيْنِي وَلاَ يَنَامُ قَلْبِي"[٣]، وقال سفيان بن عيينة: "بلغنا أن النبي ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه"[٤].

قوله: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾

قال الطبري: (مرّة للجنب الأيمن، ومرّة للجنب الأيسر)[٥]، قال القرطبي: (﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ قال ابن عباس: لئلا تأكل الارض لحومهم... وظاهر كلام المفسرين أن التقليب كان من فعل الله، ويجوز أن يكون من ملك بأمر الله، فيضاف إلى الله تعالى)[٦]، وقال

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٣ بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢١١ بتصرف يسير.
(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٣٠٨ (٣٣٧٦).
(٤) صحيح مسلم ١/ ٥٢٥ (٧٦٣).
(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢٤.
(٦) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٧٠.

الألوسي: (﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ في رقدتهم كثيراً ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي جهة تلي أيمانهم ﴿وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي جهة تلي شمائلهم كيلا تأكل الأرض أبدانهم ... وقيل يمكن أن يكون تقليبهم حفظاً لعادتهم في نومهم من التقلب يميناً وشمالاً اعتناء بشأنهم. وقيل: يحتمل أن يكون ذلك إظهاراً لعظيم قدرته في شأنهم إذ جمع فيهم الإنامة الثقيلة في قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [الكهف: ١١] والتقليب الكثير، ومما جرت به العادة أن النوم الثقيل لا يكون فيه تقلب كثير، ولا يخفى بعده)(١)، أقول: بل هو حسن، خلافاً لما قال رحمه الله.

ونقل الألوسي عن بعض الأئمة استبعاده أن يكون التقليب لحفظ أجسادهم وتعجبه من هذا القول(٢)، ويجاب عن ذلك بأن الله ﷻ قادر أيضاً على حفظ أجسادهم وثيابهم من البلى وإن أصابتها الشمس طوال تلك السنين، قال السعدي: (... والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض، من غير تقليب، ولكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سنته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها)(٣).

واعترض بما ذكر بعدُ من بسط كلبهم ذراعيه مما يقتضي عدم تقليبه، قال ابن عاشور: (هذا يدل على أن تقليبهم لليمين وللشمال كرامة لهم بمنحهم حالة الأحياء وعناية بهم، ولذلك لم يذكر التقليب لكلبهم بل استمر في مكانه باسطاً ذراعيه شأن جلسة الكلب ... وعدم تقليب الكلب عن يمينه وشماله يدل على أن تقليبهم ليس من أسباب سلامتهم من البلى وإلا لكان كلبهم مثلهم فيه بل هو كرامة لهم. وقد يقال: إنهم لم يفنوا وأما

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٧٨ بتصرف يسير.
(٢) تفسير الألوسي ٨/ ٢١٤.
(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٢.

كلبهم ففني وصار رِمة مبسوطةٌ عظامُ ذراعيه)[1]، والله أعلم.

قوله: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾

قال البغوي: (أكثر أهل التفسير على أنه كان من جنس الكلاب، وروي عن ابن جريج: أنه كان أسداً، وسمي الأسد كلباً فإن النبي ﷺ دعا على عتبة بن أبي لهب فقال: "اللهم سلط عليه كلبا من كلابك" فافترسه أسد، والأول أصح)[2]، وقال ابن كثير: (قيل: إنه كان كلب صيد لأحدهم، وهو الأشبه، وقيل: كان كلب طباخ الملك، وقد كان وافقهم على الدين فصحبه كلبه فالله أعلم)[3]، وقال ابن الجوزي: (وفي الوصيد أربعة أقوال: أحدها: أنه فِناء الكهف، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والفراء... والثاني: أنه الباب، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال السدي. وقال ابن قتيبة: فيكون المعنى: وكلبهم باسط ذراعيه بالباب، قال الشاعر:

بِأَرْضِ فَضَاءٍ لا يُسَدُّ وَصِيدُها... عليَّ ومَعْرُوفي بها غيرُ مُنْكَرِ

والثالث: أنه الصعيد، وهو التراب، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، ومجاهد. والرابع: أنه عتبة الباب، قاله عطاء. قال ابن قتيبة: وهذا أعجب إليَّ، يقولون: أَوصِد بابك، أي: أَغلِقه، ومنه: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾ [الهُمَزة]، أي: مُغْلَقة، وأصله أن تلصق الباب بالعتبة إذا أغلقته، يوضح هذا أنك إذا جعلت الكلب بالفِناء، كان خارجاً من الكهف، وإن جعلته بعتبة الباب، أمكن أن يكون داخل الكهف، والكهفُ وإن لم يكن له باب وعتبة، فإنما أراد أن الكلب موضع العتبة من البيت،

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٤٨.
(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٥٨.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٤.

فاستُعير)[١]، قال ابن كثير: (ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب، قال ابن جريج: يحرس عليهم الباب. وهذا من سجيته وطبيعته، حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب)[٢]، وفيه مزيد رحمة ولطف من الله سبحانه بهم.

فائدة - حكم اقتناء الكلاب:

ورد في الحديث النهي عن اقتناء الكلاب، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَنِ اتَّخَذَ كَلْبًا إِلَّا كَلْبَ مَاشِيَةٍ، أَوْ صَيْدٍ، أَوْ زَرْعٍ، انْتَقَصَ مِنْ أَجْرِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ"[٣]، وفي حديث ابن عمر "قِيرَاطَانِ"[٤]. وكلب الماشية هو الذي يتخذ لحراستها، فيلحق به الكلب الذي يتخذ لحراسة المرء من اللصوص، وكذلك الكلب الذي تتخذه الشرطة، فإن الرخصة إن كانت لأمور تدعو الحاجة إليها فما كان منها لضرورة فكذلك، لكنه لا يجوز بيعه ولا شراؤه على كل الأحوال، قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: (اقتناء الكلاب لا يجوز إلا في ما رخص فيه الشارع ... وعلى هذا فالمنزل الذي يكون في وسط البلد لا حاجة أن يتخذ الكلب لحراسته، فيكون اقتناء الكلب لهذا الغرض في مثل هذه الحال محرما لا يجوز وينتقص من أجور أصحابه كل يوم قيراط أو قيراطان، فعليهم أن يطردوا هذا الكلب وألا يقتنوه، أما لو كان هذا البيت في البر خاليا ليس حوله أحد فإنه يجوز

(١) زاد المسير ٤/ ٢١١ بتصرف يسير.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٤.
(٣) صحيح مسلم ٣/ ١٢٠٣ (١٥٧٥).
(٤) صحيح مسلم ٣/ ١٢٠٢ (١٥٧٤).

أن يقتنى الكلب لحراسة البيت ومن فيه، وحراسة أهل البيت أبلغ في الحفاظ من حراسة المواشي والحرث)(١).

قوله: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾

قال البقاعي: (ولما كان هذا [أي ما بُسِط من حالهم] مشوقاً إلى رؤيتهم، وصل به ما يكف عنه بقوله: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ على تلك الحال ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ حال وقوع بصرك عليهم ﴿وَلَمُلِئْتَ﴾ بأيسر أمر ﴿مِنْهُمْ رُعْبًا﴾)(٢)، وقال الطبري: (لو اطلعت عليهم في رقدتهم، لأدبرت عنهم هاربا، ولملئت نفسُك من اطلاعك فَزَعا، لما كان الله ألبسهم من الهيبة، كي لا يصل إليهم واصل، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتوقظهم قدرته وسلطانه في الوقت الذي أراد أن يجعلهم عبرة لمن شاء، وآية لمن أراد الاحتجاج عليه من عباده، ليعلموا أن وعد الله حق، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها)(٣).

وقد ذكروا لهذا الرعب والفرار أسباباً أخرى: (قال القرطبي رحمه الله: (وقيل: لوحشة مكانهم، وكأنهم آواهم الله إلى المكان الوحش لينفر الناس عنهم. وقيل: كان الناس محجوبين عنهم بالرعب، لا يجسر أحد على الدنو إليهم. وقيل: لطول شعورهم وأظفارهم، وذكره المهدوي والنحاس والزجاج والقشيري. وهذا بعيد، لأنهم لما استيقظوا قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم، ودل هذا على أن شعورهم وأظفارهم كانت بحالها، إلا أن يقال: قالوا ذلك قبل أن ينظروا إليها. قال ابن عطية: والصحيح في أمرهم أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التى ناموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم آية،

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين ١١/ ٢٤٦.
(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٣٢ بتصرف يسير.
(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢٦ بتصرف واختصار.

فلم يبل لهم ثوب ولم تغير صفة، ولم ينكر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهم)[1].

فإن قيل كيف تفزعُ رسولَ الله ﷺ رؤيتهم وقد أراه الله أشد من ذلك، ليلة الإسراء والمعراج، ورأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين؟ فالجواب أن الله قواه على ذلك، وإلا لما استطاع رؤية تلك العظائم، وكذا أهل الكهف لو لم يعنه الله تعالى عليها فسيفزع بطبيعته البشرية، والله تعالى أعلم.

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٧٣-٣٧٤ بتصرف واختصار.

النوم من نعم الله وآياته

سبق القول أن آيات الله ﷻ المبثوثة في الكون والدالة على وجوده وقدرته لا تعد ولا تحصى، كما قيل:

ولله في كـل تحريـكة   وتسكينة أبدا شاهد
وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد

ولئن لم يظهر لبعض الناس كثير من هذه الأدلة والشواهد، فمرجع هذا لغفلتهم وإلفهم لما حولهم لا لخفاء هذه الأدلة وغموضها، وهذا ما يدفع كل منا لإنعام النظر والتأمل وعدم الغفلة عن هذه الآيات:

تأمل سطور الكائنات فإنها   من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها   ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ومن هذه الآيات التي يغفل عنها الناس، كما يغفلون عن شكرها النوم: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الروم]؛ فمن أهم ما أنعم الله به على الكائن الحي النوم، وهو دليل قاطع على وجود الله؛ فالنوم يتم دون تدخل الإنسان، ففي وقت معين تنقص قواه، وتعتريه حالة الاستعداد للنوم، ثم لابد أن ينام. وقد اتضح بالتجارب التي أجريت على الحيوان أن النوم أهم للحياة من الطعام والشراب، إذ لم تستطع الكلاب الحياة أكثر من خمسة أيام بلا نوم، وعاشت مثيلاتها التي تنام، عشرين يوماً بلا أكل.

و لم يمكن للعلماء أن يقرروا ماذا في الجسد أثناء النوم أكثر من أن النائم يتخلص من إجهاده الجسدي وإرهاقه الفكري، وأن استرخاء

عضلات الإنسان بنومه، تساعد على تنشيط وتنظيم الدورة الدموية، التي تطرد من الجسم ما قد يكون سببه الإجهاد من مواد ضارة. ومن دلائل وجود الله أن تشترك الكائنات الحية في النوم. وقد ثبت أن الحيوانات تحلم كذلك في منامها، وأن بعض الكلاب تنهض من نومها فزعة تتلفت لأنها كانت فريسة حلم مخيف، وتنام أيضاً الحيوانات الدنيا والأسماك والحشرات ولو أنه من الصعب تمييز حالتها بين اليقظة والنوم.

و قد أجريت تجارب بأن وضع بقرب الحشرات أو الحيوانات ليلاً ما يثيرها ويفزعها، فلم تتحرك حتى الفجر، وظهر عليها بعض الاختلاف في المظهر بعد الفجر، إذ تصرفت تصرف الخائفة الفزعة.

ومن آيات الله أن الطير ينام على غصنه فلا يقع، بالرغم من أن قبضة الطائر لابد أن تسترخي كباقي عضلاته حين يغلبه النعاس، إذ إن الأوتار التي تحدث البسط والقبض في مخلب الطائر تلتف حول مفصل ساقه، فحين ينام ويثني ثقل جسمه هذا المفصل تشد الأوتار مخلبه فيزيد تشبث قبضة الطائر على غصنه، ويتم ذلك دون أن يعيها أو يحسها الطائر.

وقد قرر علماء النبات، أنهم بدراسة الأزهار والتطورات التي تشملها في كل وقت، اتضح لهم أن النبات ينام كما ينام كل كائن حي.

مشاهد النوم تظهر واضحة في الأزهار، ولا دخل له بالشمس والضوء لأن الأزهار التي تختص بها فراشات الليل، تتفتح في الليل، وتكون في تمام تفتحها عند منتصف الليل سواء أكانت الليلة قمرية أم مظلمة، وهناك أزهار تقفل أوراقها وتستسلم للنوم العميق ظهراً، وأولاد الفلاحين في الجهات التي تنمو فيها هذه الأزهار يعرفون وقت غدائهم

من نومها[١].

ولئن كان النوم نعمة في الأحوال العادية، فإنه يختص بعضاً بهذه النعمة حال الخوف والهلع لتسكن نفوسهم ويذهب ما بهم من قلق واضطراب فينعموا ببرد الأمان، ومثال ذلك ما حصل لأصحاب رسول الله ﷺ في غزوة بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]، وقال تعالى مخبراً عما أصاب المؤمنين يوم أحد من النعاس: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وعن أبي طلحة قال: "رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يميد تحت حَجَفَتِه[٢] من النعاس فذلك قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾"[٣].

وما حصل لهؤلاء الفتية شبيه بذلك إذ خرجوا خائفين متوعدين، فألقى الله عليهم النوم، قال تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ الآية.

---

(١) من مقالة آيات الله في تيسير الحياة للأحياء وحمايتها لعبد الرزاق نوفل، بتصرف يسير، موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

(٢) قال ابن منظور، لسان العرب ٩/ ٣٩ مادة (حجف): هِيَ التُّرْس.

(٣) سنن الترمذي ٥/ ٢٢٩ (٣٠٠٧)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

بركة صحبة الأخيار

من صاحب الأخيار نال من خيرهم ومن صاحب الأشرار نال من شرهم، قال ابن كثير رحمه الله: (وشملت كلبَهم بركتُهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن)(١)، قال الشنقيطي رحمه الله معلقاً: (ويفهم من ذلك أن صحبة الأشرار فيها ضرر عظيم كما بينه الله تعالى في سورة الصافات في قوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الصافات] إلى قوله: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصافات])(٢).

قال القرطبي رحمه الله: (قال بعضهم: من أحب أهل الخير نال من بركتهم؛ كلب أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله. قلتُ(٣): إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله بذلك في كتابه، فما ظنك بالمؤمنين المحبين للنبي ﷺ وآله خير آل! عن أنس بن مالك قال: بينا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد فلقينا رجل عند سدة المسجد فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: ما أعددت لها؟ قال: فكأن الرجل استكان، ثم قال: يا رسول الله ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله. قال: "فأنت مع من أحببت". في رواية قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحا أشد من قول النبي ﷺ: "فأنت مع

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٤.

(٢) أضواء البيان ٣/ ٢٩٩.

(٣) أي القرطبي رحمه الله.

من أحببت". قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم. قلتُ: وهذا الذي تمسك به أنس يشمل من المسلمين كل ذي نفس محبة لنبيها ﷺ، فكذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين. كلب أحب قوما فذكره الله معهم، فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام وحب النبي ﷺ! ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾ [الإسراء])[1].

وقد بين ذلك النبي ﷺ خير بيان، وحض على مصاحبة أهل الخير والصلاح، وحذر من مصاحبة أهل الشر والطلاح: "إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحا خبيثة"[2]، وكما نفعت الكلب مصاحبة الفتية وليس منهم، فكذلك أهل الخير وإن لم تعمل بعملهم، قال النبي ﷺ: "إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم. فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم ما يقول عبادي؟ قال: تقول يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال فيقول هل رأوني؟ قال: فيقولون لا والله ما رأوك قال: فيقول وكيف لو رأوني؟ قال: يقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيدا وأكثر لك تسبيحا. قال: يقول فما يسألونني؟ قال يسألونك الجنة قال: يقول وهل رأوها؟ قال

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٧١ بتصرف واختصار.
(٢) صحيح البخاري ٢/ ٧٤١ (١٩٩٥)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٢٦ (٢٦٢٨).

يقولون لا والله يا رب ما رأوها قال يقول فكيف لو أنهم رأوها؟ قال يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة قال فمم يتعوذون؟ قال يقولون من النار قال يقول وهل رأوها؟ قال يقولون لا والله يا رب ما رأوها قال يقول فكيف لو رأوها؟ قال يقولون لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة قال فيقول فأشهدكم أني قد غفرت لهم. قال يقول ملك من الملائكة فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة. قال هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم"(١)، وفي رواية مسلم: "قال فيقولون: رب فيهم فلانٌ، عبدٌ خطَّاء، إنما مر فجلس معهم! قال فيقول: وله غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم"(٢)، فما أوسع رحمة الله وما أعظمها!

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الكهف]

ينقل القرآن السامع نقلة كبيرة جديدة، إذ يتجاوز كل ما يمكن أن يكون حدث بعد فرار الفتية؛ من بحث قومهم عنهم، وإخفاقهم، ويتجاوز ذكر شيء من خبر الملك وقومه إلى اللحظة التي أذن فيها الله

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٥٣ (٦٠٤٥)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٦٩ (٢٦٨٩).
(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٦٩ (٢٦٨٩).

لهؤلاء الفتية بالقيام من رقدتهم بعد طول السنين، ليظهر لهم ولقومهم عجائب قدرته، وأنه وحده من بيده الإماتة والإحياء والبعث والنشور.

فقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾

قال الألوسي: (أي كما أنمناهم هذه الإنامة الطويلة أيقظناهم، فالمشبه الإيقاظ والمشبه به الإنامة، ووجه الشبه كون كل منهما آية على كمال القدرة)(١). وقال ابن عاشور: (ويجوز أن يكون تشبيه البعث بنفسه للمبالغة في التعجيب كما في قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣])(٢).

قال الطبري رحمه الله: (يقول تعالى ذكره: كما أرقدنا هؤلاء الفتية في الكهف، فحفظناهم من وصول واصل إليهم، وعين ناظر أن ينظر إليهم، وحفظنا أجسامهم من البلاء على طول الزمان، وثيابهم من العفن على مرّ الأيام بقدرتنا، فكذلك بعثناهم، وأيقظناهم، لنعرّفهم عظيم سلطاننا، وعجيب فعلنا، وليزدادوا بصيرة من براءتهم من عبادة الآلهة، وإخلاصهم لعبادة الله، إذا تبيَّنوا طول الزمان عليهم، وهم بهيئتهم حين رقدوا)(٣).

وفي هذا تعريض بكفار قريش المنكرين البعث، قال البقاعي: (فليعلم ذلك من أنكر قدرتنا على البعث وسأل اليهود البغضاء عن نبيه الذي أتاهم بالآيات، وأراهم البينات، فإن كانوا يستنصحون اليهود فليسألوهم عما قصصنا من هذه القصة، فإن اعترفوا به لزمهم جميعاً الإيمان والرجوع عن الغي والعدوان، وإن لم يؤمنوا علم قطعاً أنه لا يؤمن إلا من أردنا هدايته بالآيات البينات كأهل الكهف وغيرهم، لا بإنزال الآيات

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٨٥ بتصرف يسير.
(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٥٠.
(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢٧ بتصرف واختصار.

المقترحات)[١].

وقوله: ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾

قال القرطبي: (واللام في قوله " ليتساءلوا " لام الصيرورة وهي لام العاقبة... فبعثهم لم يكن لأجل تساؤلهم)[٢]، وهي نفس اللام في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، فهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدواً وحزناً، بل كانت غايتهم عكس ذلك، كما قالت امرأة فرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ [القصص: ٩]، وذهب قوم إلى أنها لام العلة، قال الرازي: (فإن قيل: هل يجوز أن يكون الغرض من بعثهم أن يتساءلوا ويتنازعوا؟ قلنا: لا يبعد ذلك، لأنهم إذا تساءلوا انكشف لهم من قدرة الله تعالى أمور عجيبة وأحوال غريبة، وذلك الانكشاف أمر مطلوب لذاته)[٣]، والراجح الأول، وهو ما اختاره شيخنا ابن عثيمين رحمه الله.

وقوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ قال ابن الجوزي: (أي: كم مَرَّ علينا منذ دخلنا هذا الكهف؟ ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذلك أنهم دخلوا غُدوةً، وبعثهم الله في آخر النهار، فلذلك قالوا: ﴿يَوْمًا﴾، فلما رأوا الشمس قالوا: «أو بعض يوم»)[٤]، قال ابن كثير: (﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي: الله أعلم بأمركم، وكأنه

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٣٢ بتصرف يسير.
(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٧٤.
(٣) تفسير الرازي ٢١/ ٤٤٥.
(٤) زاد المسير ٤/ ٢١٢.

حصل لهم نوع تَرَدّد في كثرة نومهم، فالله أعلم)(١)، وفي هذا جواز القول بغلبة الظن، واجتهاداتُ العلماء مبنية على غلبة الظن، والصحيح أنه يجوز القسم على غلبة الظن، وفي قولهم كذلك أدب عظيم مع الله في رد العلم إليه، ويتفرع منه رد كل علم إلى عالمه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] و[الأنبياء: ٧]، ولو أن المسلمين في عصرنا هذا وبخاصة الشباب عملوا بهذا الأمر ورجعوا إلى العلماء المعتبرين، لهداهم الله ولأخذ بنواصيهم إلى الحق المبين، كما ذكر العلامة السعدي رحمه الله(٢)، وإذاً لسلموا وسلمت البلاد والعباد من بلاء عظيم، ولوفروا على أنفسهم وبلادهم مآسي كثيرة؛ دماءً أريقت، وحرماتٍ انتهكت، وأعماراً ضاعت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال ابن عاشور: (وجملة ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ بيان لجملة ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ﴾... فالقائلون ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ يجوز أن يكون جميعهم وهو الظاهر. ويجوز أن يكون قول بعضهم فأسند إليهم ... وتفريع قولهم: {فابعثوا أحدكم} على قولهم: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ لأنه في معنى فدَعُوا الخوض في مدة اللبث فلا يعلمها إلا الله وخذوا في شيء آخر مما يهمكم ...)(٣).

وقوله: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾

قال ابن كثير: (ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك وهو احتياجهم

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٥.

(٢) تفسير السعدي ص: ٤٧٣.

(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٥٠.

إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾[١]، قال ابن الجوزي: (قال ابن الأنباري: قال: «أحدَكم»، ولم يقل: واحدَكم، لئلا يلتبس البعض بالممدوح المعظَّم، فالعرب تقول: رأيت أحد القوم، ولا يقولون رأيت واحد القوم، إلا إذا أرادوا المعظَّم، فأراد بأحدهم: بعضَهم، لا شريفهم)[٢]، قال البغوي: (قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر: بورْقكم ساكنة الراء والباقون بكسرها ومعناهما واحد وهي الفضة، مضروبة كانت أو غير مضروبة)[٣].

قال ابن عاشور: (والمراد بالورق هنا القطعة المسكوكة من الفضة، وهي الدراهم ...)[٤]. وفيه مشروعية حمل المال في الترحال، وهذا موافق للعقل والطبع السليم، كي لا يتعرض المرء للهلكة أو لذل السؤال.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يعني مدينتهم التي خرجوا منها هِراباً[٥].

وقوله: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾

قال الطبري: (ذُكِر أنهم هبوا من رقدتهم جِياعاً، فلذلك طلبوا الطعام)[٦]، قال ابن عاشور: (و﴿أَيُّهَآ﴾ ماصَدَقُه أي مكان من المدينة، لأن المدينة كلٌّ له أجزاء كثيرة منها دكاكين الباعة، أي فلينظر أي مكان منها هو أزكى طعاماً، أي أزكى طعامُه من طعام غيره... والأزكى: الأطْيب

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٥.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢١٢ بتصرف يسير.
(٣) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٦٠.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٥٠.
(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢٧.
(٦) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢٧.

والأحسن، لأن الزَّكْوَ الزيادة في الخير والنفع)(١)، وقال ابن الجوزي: (قال الزجاج: المعنى: أيُّ أهلها أزكى طعاماً. وللمفسرين في معناه ستة أقوال:

أحدها: أَحَلُّ ذبيحة؛ قاله ابن عباس، وعطاء، لأن عامة أهل بلدهم كانوا كفاراً، فكانوا يذبحون للطواغيت، وكان فيهم قوم يُخفون إيمانهم.

والثاني: أَحَلُّ طعاماً، قاله سعيد بن جبير؛ قال الضحاك: وكانت أكثر أموالهم غصوباً. وقال مجاهد: قالوا لصاحبهم لا تبتعْ طعاماً فيه ظلم ولا غصب. والثالث: أكثر، قاله عكرمة. والرابع: خير، أي: أجود، قاله قتادة.

والخامس: أطيب، قاله ابن السائب، ومقاتل.

والسادس: أرخص، قاله يمان بن رياب. قال ابن قتيبة: وأصل الزكاء: النماء والزيادة)(٢)، ولا تعارض بين الأقوال الخمسة الأولى، وكذا بالنسبة للسادس إن حمل على معنى رخص الثمن مع جودة النوع.

فائدتان من قولهم أزكى:

١- هذه الكلمة لا تعني التفضيل المطلق وإنما مطلق التفضيل، فليس المقصود البحث عن أزكى طعام على الإطلاق بل أرادوا طعاماً زكياً.

٢- وهي تفيد تحري المطعم الحلال، فإن الحرام لا يكون زكياً، وكثير من الناس لا يتحرى الحلال، قال ﷺ: "أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون] وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٥٠.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢١٢ بتصرف يسير.

أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟"(١)، وقال ﷺ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ"(٢).

قوله: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾

قال ابن عاشور: (الرزق: القوت... والفاء لتفريع أمرهم مَن يبعثونه بأن يأتي بطعام زكي وبأن يتلطف)(٣). وقال ابن كثير: (وقوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: في خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه، يقولون: وَلْيَتَخَفَّ كل ما يقدر عليه ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ أي: ولا يعلمن بكم أحداً)(٤).

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾

قال الشوكاني: (علل ما سبق من الأمر والنهي فقال: {إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ} أي: يطلعوا عليكم، يعني: أهل المدينة، يرجموكم)(٥)، قال ابن عاشور: (والظهور أصله: البروز دون ساتر. ويطلق على الظفر بالشيء، وعلى الغلبة على الغير)(٦)، وهذا الأخير هو المراد، فمجرد علمهم بمكانهم لا يكفي، بل هو مقدمة للظفر بهم ومن ثم رجمهم أو إعادتهم في ملتهم.

أما الرجم في الآية فقد قال ابن الجوزي: (فيه ثلاثة أقوال: أحدها:

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٧٠٣ (١٠١٥).
(٢) مسند أحمد ٢٢/ ٣٣٢ (١٤٤٤١)، قال الأرناؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم.
(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٥٠.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٥-١٤٦.
(٥) فتح القدير ٤/ ٣٧٧ بتصرف يسير.
(٦) التحرير والتنوير ٨/ ٣٥١.

يقتلوكم، قاله ابن عباس. وقال الزجاج: يقتلوكم بالرجم. والثاني: يرجموكم بأيديهم، استنكاراً لكم، قاله الحسن. والثالث: بألسنتهم شتماً لكم، قاله مجاهد، وابن جريج)(١)، والأولى أن يكون القتل بالرجم، لأن هذا هو ظاهر اللفظ ولا قرينة تصرف عنه، بل إن فرار الفتية من قومهم قرينة أكيدة على هذا المعنى، فلا يعقل أن يكونوا فروا من قومهم خوفاً من الشتم فحسب، ويبعد أن يكون الثاني، لأن من جهر بالحق بين يدي ذاك الملك الجبار يكون قد وطن نفسه على أذى أشد من هذا.

قال الشوكاني: (﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم بالرجم، وهذه القتلة أخبث قتلة. وكان ذلك عادة لهم، ولهذا خصه من بين أنواع ما يقع به القتل)(٢).

قوله: ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾

قال ابن كثير: (يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا، وإن واتَوهم على العود في الدين فلا فلاح لهم في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾)(٣)، قال الشوكاني: (أي: يردّوكم إلى ملتهم التي كنتم عليها قبل أن يهديكم الله، أو المراد: الصيرورة، على تقدير أنهم لم يكونوا على ملتهم، وإيثار "في" على "إلى" للدلالة على الاستقرار. ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ في (إذاً) معنى الشرط. كأنه قال: إن رجعتم إلى دينهم فلن تفلحوا إذاً أبداً، لا في الدنيا ولا في الآخرة)(٤)، وبهذا يعلم أنهم علقوا عدم الفلاح على العود في دينهم، لا على

(١) زاد المسير ٤/ ٢١٢.
(٢) فتح القدير ٤/ ٣٧٧ بتصرف يسير.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٥-١٤٦.
(٤) فتح القدير ٤/ ٣٧٧.

على الرجم لأنهم إن قتلوا في سبيل الله نالوا الشهادة وهذا من أعظم الفلاح في الدنيا والآخرة.

والذي أميل إليه أنهم لم يكونوا على ملة القوم وأن المقصود الصيرورة، كقوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]، فالأنبياء لم يكونوا على ملة الكفر على الراجح.

فإن قيل كيف يكون رجوعهم للكفر هلاكاً مع أنهم مكرهون؟ فالظاهر أن عدم المؤاخذة بالإكراه من خصائص هذه الأمة، لحديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"(١)، قال القاري: "لم يتجاوز ذلك إلا عن هذه الأمة"(٢)، وعليه فإن من قبلنا كانوا غير معذورين بالإكراه، ولعل هذا سبب تحملهم العذاب وعدم النطق بالكفر، قال رسول الله ﷺ: "قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه"(٣)، وعليه فلم يكن لهم أن يتذرعوا بالإكراه فيرجعوا إلى دين قومهم.

أما إن قيل إن هذا الحكم غير مختص بهذه الأمة فيحمل قول الفتية على خشيتهم الفتنة، قال الرازي رحمه الله: (يحتمل أن يكون المراد أنهم لو

---

(١) سنن ابن ماجه ١/ ٦٥٩ (٢٠٤٥)، وصححه الألباني.

(٢) عمدة القاري ١٣/ ٨٧.

(٣) صحيح البخاري ٩/ ٢٠ (٦٩٤٣).

ردوا هؤلاء المسلمين إلى الكفر على سبيل الإكراه بقوا مظهرين لذلك الكفر مدة فإنه يميل قلبهم إلى ذلك الكفر ويصيرون كافرين في الحقيقة، فهذا الاحتمال قائم فكان خوفهم منه، والله أعلم)(١).

وهذا الخوف يدل على أن بشاشة الإيمان خالطت قلوبهم وذاقوا حلاوته، كما يدل على كراهيتهم العود في الكفر كرهاً شديداً، وفي الحديث: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار"(٢)، وهذه حال أتباع الأنبياء على مر العصور ففي حديث هرقل أنه قال لأبي سفيان: "وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرتَ أن لا. وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب"(٣).

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ١٨٥.

(٢) صحيح البخاري ١/ ١٤ (١٦)، صحيح مسلم ١/ ٦٦ (٤٣).

(٣) صحيح البخاري ١/ ٧ (٧).

لا تعارض بين طريق الإيمان وطيب العيش

سبق أن من معاني قوله تعالى: ﴿أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾ أطيب طعاماً، فلم ينكر عليهم طلب الطعام الطيب أو أطيب الطعام مع أنهم دعاة إلى الحق، يحملون هموماً عظاماً وهم في قلب الصراع بين الحق والباطل، فلا مانع من أن يكون طعام أهل الصلاح طيباً، كما قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا﴾ [البقرة: ٥٨]، قال ابن كثير: (رَغَدًا، أي: هنيئًا واسعًا طيبًا)[١]، فلا معنى لما يرمون به بعض أهل الحق من أباطيل إذا رأوا عليهم شيئاً من أثر النعمة، إذ يزعمون أن هذا مما لا ينبغي، بل جاء في الحديث: "إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده"[٢]، وعن أبي الأحوص عن أبيه قال: "أتيت النبي ﷺ في ثوب دُونٍ فقال: ألك مال؟ قال نعم. قال: من أي المال؟ قال: قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق. قال: فإذا آتاك الله مالاً فلْيُرَ أثر نعمة الله عليك وكرامته"[٣]. وقد كان رسول الله ﷺ يأكل من طيب الطعام، وذهب يوماً إلى دار أحد الأنصار مع أبي بكر وعمر وكانوا جياعاً، قال أبو هريرة: "فَانْطَلَقَ، فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ ... فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا..."[٤] ، فانظر كيف ذبح لهم شاة ولم يكونوا سوى ثلاثة،

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢٣٣.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ١٢٣ (٢٨١٩)، قال الألباني: حسن صحيح.

(٣) سنن أبي داود ٢/ ٤٤٩ (٤٠٦٣).

(٤) صحيح مسلم ٣/ ١٦٠٩ (٢٠٣٨).

وانظر كيف أكلوا حتى شبعوا وشربوا حتى رووا، وهذا إبراهيم ﷺ يأتيه أضيافه من الملائكة فيأتيهم بعجل سمين.

فلا حرج على أهل الفضل والصلاح وغيرهم في شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة]، لكن ما ينبغي التحرز منه هو الإسراف والتبذير، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء]، وقال النبي ﷺ: "كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ما لم يخالطه إسراف أو مَخِيلة[١]"[٢].

وأما من يتباعد عن متاع الحياة الدنيا ويتقلل منها رجاء الخفة يوم الحساب، أو رجاء أن يتشبه به الناس إن كان متبوعاً فلا يتكالبوا على الدنيا، أو غير ذلك من المقاصد الحسنة، فلا حرج عليه ما دام لا يفعل ذلك تحريماً لما أحل الله، ولا يلزم غيره بمثل ذلك ولا يشق على من حوله من أهل وذرية، بل هو في فعله هذا مشكور محمود، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"[٣]، قال ابن بطال: (وهذا يدل على إيثار الزهد في الدنيا وأخذ البلغة منها والكفاف، فكما لا يحتاج المسافر إلى أكثر مما يبلغه إلى غاية سفره، فكذلك لا يحتاج المؤمن في الدنيا إلى أكثر مما يبلغه المحل)[٤].

---

(١) المَخِيلة: الكبر، انظر لسان العرب مادة (خيل) ١١/ ٢٢٦.

(٢) سنن ابن ماجه ٢/ ١١٩٢ (٣٦٠٥)، وحسنه الألباني.

(٣) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٥٨ (٦٠٥٣).

(٤) شرح ابن بطال ١٩/ ١٩٧.

فوائد من قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾

الفائدة الأولى- لا تعارض بين الحكمة والشجاعة: في قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ دليل على تجنب العنف ما أمكن في الدعوة، وهؤلاء الفتية كانوا شجعاناً اختاروا قرار الإيمان، وصدعوا به في وجه الملك الطاغية، ولكنهم لم يختاروا المواجهة لأنها اختيار غير حكيم في مثل حالهم، والصحابة كانوا يستخفون بدينهم، كما هاجر النبي ﷺ سرا من مكة إلى المدينة مع أنه أشجع الشجعان، ولكن الشجاعة بلا حكمة تهور مذموم.

فهؤلاء الفتية مع شجاعتهم وصدعهم بالحق، وربط الله على قلوبهم وثبتهم، إلا أنهم اختاروا البعد عن مواجهة السلطان، بالفرار منه أولاً، ثم بتوصيتهم لصاحبهم أن يتلطف ثانياً، هذا مع أن الحاكم كان كافراً لا يقر بالإسلام لا ظاهراً ولا باطناً، وفرق شاسع بين فعلهم هذا وبين من يثورون على حكام لم يخرجوا من الملة، أو على أقل تقدير لم تزل عنهم شبهة الإسلام.

إن المسلم الفطن ينظر إلى المآلات ويقدر العواقب ويحسب لكل خطوة حسابها، وهؤلاء مع أنهم كانوا فتية لم تعطهم السنون من حكمتها، إلا أن عقولهم كانت راجحة وأفهامهم كانت دقيقة، فاختاروا ألا يواجهوا في تلك الظروف التي تجعل عاقبة المواجهة محسومة لصالح عدوهم.

إن الداعية يوم يختار عدم المواجهة في مثل هذه المواقف لا يفعل ذلك ليسلم هو في نفسه، أو ينعم بالعيش الهادئ والحياة الرغدة البعيدة عن المشاكل، فلو كان الأمر كذلك، والهدف مجرد العيش الهادئ على هامش

التدين، لاختار أن يركب في سرج السلطان وأن يكون من علماء البلاط، ولا شك أن الحياة عندئذ أنعم وأرغد، لكن مشروعية المواجهة العنيفة أو عدمها من جهة، ثم الخوف على مستقبل الدعوة التي يحملها إن كانت المواجهة مشروعة من جهة أخرى، هو الذي يجعله يختار عدم المواجهة.

إن هؤلاء الفتية الذين تلطفوا ولم يبرزوا للسلطان مقاتلين لم يختاروا الحياة الرغدة، بل على العكس، إذ أووا إلى كهف لا يقارن بالمساكن التي كانوا يسكنون، ولا العيش فيه بالعيش الذي كانوا يعيشون، وإذا صح ما جاء من كونهم من أبناء علية القوم فلا شك أن الفرق بين العيشتين أكبر بكثير، فهذه تضحية كبيرة كانوا مستعدين لدفعها وتقديمها لأن بها صلاح دينهم، ولم يكونوا متهيئين لتضحية من نوع آخر، وهي حمل السلاح بأياد غضة وأسلحة متخلفة أمام جيش عرمرم وهم في قبضته، فإن ذلك ضرب من التهور المذموم وقطع الطريق أمام المجتمع ليرى الحقيقة كاملة؛ حقيقة ما عليه الملك من الضلال والغي، فإن العنف كان سيستغل من جانب الملك أسوأ استغلال، يستغل في تشويه الدعوة وتصويرها بالوحشية، فتختفي عندئذ عن الأعين ملامحها الحسنة وتبدو للناس وحشا مخيفاً.

إن من يشوه صورة الدعوة ليصد الناس عنها يتحمل وزراً عظيماً، ومن يعطي أعداء الدعوة الفرصة لمثل هذا التشويه بالتصرفات المتهورة، يتحمل جزءاً من المسؤولية وإن أراد الخير، لأنه لم يسلك طريق أهل العلم الراسخين، قال ابن مسعود ﷺ: "وكم من مريد للخير لن يصيبه"(١)، ويزداد الأمر خطورة عندما لا يلقي هذا المتهور بالاً لتحذير العلماء ونهيهم عن مثل هذا الصنيع، فلا شك أن المسؤولية هنا أكبر والإساءة أعظم.

---

(١) سنن الدارمي ١/ ٧٩ (٢٠٤)، قال حسين سليم أسد: إسناده جيد.

إن الصد عن سبيل الله بما يقع من أثر الأفعال المتفلتة من الضوابط الشرعية أمر شديد، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾ [النحل]، قال ابن كثير رحمه الله: (حذر تعالى عباده من اتخاذ الأيمان دخلاً أي خديعة ومكرًا، لئلا تَزل قدم بعد ثبوتها؛ مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى، بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾)(١)، فهل يرعوي هؤلاء الشباب، ويأخذوا حذرهم كي لا يكونوا كمن تكلمت عنهم الآية الكريمة، وهل يراجعون أنفسهم لينظروا مر الحصاد الذي يجنونه وتجنيه أمتهم بسببهم؟

وليس صحيحاً أن النبي ﷺ لم يواجه أهل مكة بسبب ضعف أصحابه فقط، فقد كانت معه منعة يوم العقبة حتى قَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ: "وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: لَمْ أُؤْمَرْ بِذَلِكَ"(٢)، وسجل القرآن طلب بعض أصحابه قتال الكفار قبل الهجرة من مكة، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ...﴾ الآية [النساء: ٧٧]، قال ابن كثير رحمه الله: (كان المؤمنون في ابتداء الإسلام مأمورين بالصلاة والزكاة

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٦٠٠.

(٢) مسند أحمد ٢٥/ ٩٤ (١٥٧٩٨)، قال الأرناؤوط: حديث قوي.

وبالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم... عن ابن عباس: أن عبدالرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة: قال: إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم)[1].

فهؤلاء عندهم استعداد للقتال، لكن الله لم يشرع ذلك يومها لأن الحكمة لم تكن في ذلك، فمكة بلد حرام من دخلها كان آمنا، وكان الرجل يرى قاتل والده في الطواف فلا يقتله لحرمة البيت، ولم يحل الله البيت لأحد، وإنما أحله للنبي ﷺ يوم فتح مكة ساعة من نهار، ولو قتل المسلمون المشركين لأنكرت العرب عليهم، وكان في هذا صد عن دين الله، وكذلك فقد كان المشركون يشنون حرباً إعلامية على الإسلام ونبيه ﷺ وأنه يفرق بين الرجل وأبيه وأهل بيته، ليُبَغِّضوا الدين إلى العرب، فكيف لو صار المسلمون يقتلون مشركي مكة وهم إخوتهم وبنو عمومتهم؟ وفي المقابل فإن كف اليد واحتمال الأذى، يظهر أن الكفار هم من يعذبون ويقتلون بني عمومتهم، وهذا من الحرب الإعلامية المضادة، فمن يقتل من المسلمين فهو شهيد، وهو في أعين الناس مظلوم، ومن طبيعة البشر الميل للمظلوم والتعاطف معه، وهذا باب يُفتح أمام المتعاطف ليعرف حقيقة هذا الدين الذي يعذب أهله ويقتلوا ويطردوا من ديارهم، وهذا نصر عظيم للدعوة.

ومن تأمل قصص الأنبياء علم يقينا أنه لم يقاتل نبي قومه في دارهم بين أظهرهم، وقتال النبي ﷺ أهل مكة كان بعد أن هاجر وصارت للإسلام دولة، وصارت مصلحة القتال غالبة، وبعد أن بدأهم المشركون

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٥٩ بتصرف واختصار.

بالقتال، وقد كان رسول الله ﷺ يستطيع يوم الحديبية أن يأخذ أهل مكة بالقوة لكنه أعرض لمصلحة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح]، قال ابن كثير: (وقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ أي: بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه خيفة على أنفسهم من قومهم، لكنا سلطناكم عليهم فقتلتموهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل؛ ولهذا قال: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي: إثم وغرامة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام. ثم قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ أي: لو تميز الكفار من المؤمنين ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم)(١).

وفي المقابل ننظر للإخوة الذين لجؤوا للعنف في كثير من البلاد، ماذا كانت النتيجة؟ كم أزهق من أرواح وسال من دماء وأخرت الدعوة؟ وكلنا رأينا كيف قام عديد من هؤلاء الإخوة بعمل مراجعات فكرية وتراجعات عن منهجهم الذي كانوا عليه، بل إن بعض رؤوسهم أعلن اعتذارهم الصريح للشعب جراء ما أدت إليه بعض أفعالهم، غفر الله لنا ولهم.

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ٧/ ٣٤٤ بتصرف يسير.

الفائدة الثانية- التلطف منهج رباني: قال سلام أبو محمد الحماني: إن الحَجَّاج جمع القراء والحفاظ والكتاب فقال: أخبروني عن القرآن كله كم حرف هو؟ قال: فحسبنا فأجمعوا أنه ثلاثمائة ألف وأربعون ألف وسبعمائة وأربعون حرفا. قال: فأخبروني عن نصفه. فإذا هو إلى الفاء من قوله وليتلطف(١)، وهذه الموافقة كان ينبغي للحجاج أن يعتبر بها ويتلطف!

وفي مجيء هذه الكلمة في منتصف القرآن لطيفة، فكلمة (وليتلطف) تتوسط القرآن والوسطية الحقة منهج رباني وهي تقتضي كثيراً من التلطف، وقد بين النبي ﷺ فضل الرفق والتلطف فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: "دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم. قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: مهلاً يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله. فقلت: يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: قد قلت وعليكم"(٢)، وقال ﷺ: "من يحرم الرفق يحرم الخير"(٣)، وقال: "إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه"(٤).

إن الرفق واللطف في موضعهما من صفات الوسطية، والخور والميوعة من صفات الجبناء المفرطين، تدفعهم لترك الحق والتنازل عنه دفعاً، كما أن الشدة والعنف في غير موضعهما من صفات الغلاة المتهورين، والنفس بطبعها جامحة إلى الاستعجال والانتقام الذي يؤدي في كثير من الأحيان إلى ما لا تحمد عقباه، ومتى ترك العبدُ اللُّطْفَ كان التطرف

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٩٩.
(٢) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٤٢ (٥٦٧٨)، صحيح مسلم ٤/ ١٧٠٦ (٢١٦٥).
(٣) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٠٣ (٢٥٩٢).
(٤) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٠٣ (٢٥٩٣).

والعطب، كما هو مشاهد من حال جماعات وأفراد تنكبوا طريق الرفق فآل بهم المآل إلى ذلك.

الفائدة الثالثة- البعد عن أسباب الفتن: وهي من أعظم الفوائد التي يحرص عليها المسلم، فهؤلاء الشباب أوصوا موفدهم بأن يتلطف، مخافة أن يُعثر عليه فيدل عليهم فيُفتنوا في دينهم، وهذا أصل عام في النأي عن الفتن عامة، قال رسول الله ﷺ: "إن السعيد لَمَن جُنِّبَ الفتن، ثلاثا، ولَمَن ابتلي فصبر فواهاً"[1]، وقال: "أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا"[2]، لأن القلوب ما لم يثبتها الله تتقلب، فإذا تعرضت للفتن كان الخطر أعظم، فالقلوب كما قيل ضعيفة والفتن خطافة، ولهذا كان النبي ﷺ كما قال أنس: "يكثر أن يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك. فقلت: يا رسول الله آمنا وبك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبهما كما يشاء"[3].

وهنا ملمح مهم، فإن البعد عن الفتن لا يعني أن يتخلى المؤمن عن دينه، فهذه أعظم فتنة يهرب منها! وقد ثبت أن النبي ﷺ أبى أن يجيب المشركين، وتحمل في ذلك هو وأصحابه الكثير حتى حاصرتهم قريش في الشعب، ومنعوا عنهم المدد والبيع والشراء والنكاح وغير ذلك، فما رده ذلك عن دعوته، وعن الحسن مرسلا: "رَحِمَ اللهُ يُوسُفَ لَوْ أَنَا جَاءَنِي

---

(١) سنن أبي داود ٢/ ٥٠٣ (٤٢٦٣)، وصححه الألباني.
(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٠٨٢ (٢٨٠٤)، صحيح مسلم ٣/ ١٣٦٢ (١٧٤٢).
(٣) سنن الترمذي ٤/ ٤٤٨ (٢١٤٠)، وصححه الألباني.

الرَّسُولُ بَعْدَ طُولِ السِّجْنِ لَأَسْرَعْتُ لِلْإِجَابَةِ"(١)، أي لخرج من أول مرة طلبه فيها الملك ولما قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]، والفرق بين الحالين جلي واضح، فما دامت الاستجابة لا تنال من دين المرء، فلا بأس، والسلامة لا يعدلها شيء، وأما إن مست شيئاً من ذلك فلا، وليقل: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

وقد عرض على بعض الدعاة الخروج من السجن مع الامتناع عن بعض الأمور أو القيام بأخرى مما لا يمس الدين والمنهج فأبى وفضل السجن، وبمرور الوقت عاد ليطلب ما كان رفضه فلم يُجب إلى ما أراد، فعلى المرء أن يرفق بنفسه ولا يحملها ما يشق بلا ضرورة شرعية، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران].

الفائدة الرابعة- الاستغلال الأمثل للطاقات: نلاحظ أنهم أرسلوا واحداً منهم فقط، وهذا من التلطف أيضاً، فإن الواحد أقل مدعاة للفت النظر والانتباه، بخلاف ما لو ذهب اثنان أو أكثر، وفي هذا درس مهم للعاملين في مجال الدعوة، وهو تكليف العدد المناسب للمهمة، فإن الزيادة قد تفسد العمل، وفيها إهدار لطاقات يمكن توجيهها لعمل آخر مفيد.

الفائدة الخامسة- من التلطف تعليل التوجيه: الفتية متساوون فيما بينهم، لا فضل لأحد منهم على أحد، وهذا لم يمنعهم أن يقوموا بالتوجيه والندب فيما بينهم، لفعل ما فيه مصلحة الفرد أو الجماعة، وعلى من وجه له التوجيه أن يقبله بصدر رحب ولا تأخذه الأنفة وتمنعه من الاستجابة، وهذا من ثمرات الشورى المطلوبة، وإلا فقدت الثمرة المرجوة منها.

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل ص:٦٨ (٤٢٠)، قال الألباني في الصحيحة ٤/ ٤٨٥ (١٨٦٨): سنده صحيح مرسلاً.

ونلاحظ هنا أدباً مهماً في التوجيه وهو ذكر العلة ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف]، فالتلطف على ألا يشعر به أرجى للنجاة من بطش القوم، وهكذا ينبغي أن يكون الإخوة فيما بينهم، بل هكذا ينبغي أن يكون المربي أيضاً، فيعلل لتلامذته ويبين لهم وجه المصلحة فيما يرشدهم ويدلهم إليه ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

الفائدة السادسة- العمل السري: تلطف صاحب الفتية وتخفيه، وحرص الفتية على ألا يشعر بهم أحد، يدل على أنهم قد انتهجوا نوعاً من العمل السري، ولا شك أن الأصل في العمل لدين الله العلن، ولكن قد تضطر ظروف القهر والملاحقة إلى السرية، وهذا قد حصل على مر الأزمان، وليس ببعيد عنا حال إخواننا المسلمين الذين حكمتهم الدول الشيوعية لعقود، وكذا ما كان في بعض البلاد التي حكمت بحكومات علمانية.

لقد كانت الدعوة في مبدئها في مكة المكرمة سرية، وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة سراً، ولم يكن ذلك عن ضعف ولا عن جبن، فقد كان بأبي هو وأمي أشجع الشجعان كما يظهر ذلك لكل من قرأ سيرته، ويكفي كمثال على ذلك أن علياً - في شجاعته - قال: "كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ الله ﷺ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْهُ"(١)، لكنه ﷺ يراعي حال ضعاف أمته، ويريد أن يرفع عن أمته الحرج، ويختار لها أيسر الأمور ما لم تكن إثماً. فما كان من سرية في مكة ليس قاصراً

(١) مسند أحمد ٢/ ٤٥٣ (١٣٤٧)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

على تلك الأيام، بل هو لمثلها على مر الزمان. وليس قاصراً على حال الضرورة، بل قد تدعو الحاجة لشيء من السرية، وقد كنا نجتمع بالشيخ ابن باز رحمه الله اجتماعاً خاصاً لا يحضره إلا مجموعة محددة ولا يسمح لغيرهم، فسأله أحد المشايخ أليس هذا اجتماعاً سرياً؟ فأجاب: هو اجتماع على البر والتقوى.

وفي كثير من البلاد لا يمكن أن تحافظ الجماعة المسلمة على دينها إلا بالعمل سراً، عن حُذَيْفَةَ قَالَ: "كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: أَحْصُوا لِي كَمْ يَلْفِظُ الْإِسْلَامَ، قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، أَتَخَافُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ مَا بَيْنَ السِّتِّمِائَةِ إِلَى السَّبْعِمِائة؟ قَالَ: إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ لَعَلَّكُمْ أَنْ تُبْتَلَوْا، قَالَ: فَابْتُلِينَا حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ مِنَّا لَا يُصَلِّي إِلَّا سِرًّا"[١]، وهذا كان في المدينة بعد الهجرة، فإن حذيفة رضي الله عنه أسلم فيها. وقد وقع هذا للأنبياء وأتباعهم، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس]، أي: كانوا خائفين، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم، قال ابن كثير: (كذا قال مجاهد، وأبو مالك، والربيع بن أنس، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأبوه زيد بن أسلم)[٢]. وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ٨١]، وفي الحديث: "استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان"[٣]، وإن كان ضعيفا فهو صحيح المعنى، والعقل يشهد لذلك.

---

(١) صحيح مسلم ١/ ١٣١ (١٤٩).
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٨٩.
(٣) المعجم الأوسط للطبراني ٣/ ٥٥ (٢٤٥٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ١/ ٢٢٣ (٩٤٣).

الفائدة السابعة- مراعاة حال الأتباع: إذا كان التلطف مع الأعداء مطلوباً لتحصيل منفعة دينية، فهو مطلوب مع المؤمنين من باب أولى، ومن التلطف أن يراعي المربي حال من معه من طلاب أو أتباع، وقد كان هذا ديدنه ﷺ مع أصحابه، فعن أبي مسعود ﷺ قال: "أتى رجلٌ النبيَّ ﷺ فقال: إني لأتأخر عن صلاة الغداة، من أجل فلان مما يطيل بنا، قال: فما رأيت رسول الله ﷺ قط أشد غضبا في موعظة منه يومئذ، قال: فقال: يا أيها الناس، إن منكم منفرين، فأيكم ما صلى بالناس فليتجوز، فإن فيهم المريض والكبير وذا الحاجة"(١). ومن تلطفه أنه كان ينهاهم عن التشبه به فيما هو من خصوصياته، كالوصال في الصيام، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: "نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم. فقالوا: إنك تواصل، قال: إني لست كهيئتكم إني يطعمني ربي ويسقين"(٢)، ونهى عن التعمق في العبادة كما في حديث أنس ﷺ قال: "جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"(٣)، ونهى عن عبادة تفضي إلى المشقة فعنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ

---

(١) صحيح البخاري ٨/ ٢٧ (٦١١٠)، صحيح مسلم ١/ ٣٤٠ (٤٦٦).
(٢) صحيح البخاري ٣/ ٣٧ (١٩٦٤)، صحيح مسلم ٢/ ٧٧٦ (١١٠٥).
(٣) صحيح البخاري ٥/ ١٩٤٩ (٤٧٧٦)، صحيح مسلم ٢/ ١٠٢٠ (١٤٠١).

خَرَجَ عَامَ الْفَتْحِ إِلَى مَكَّةَ فِي رَمَضَانَ فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ كُرَاعَ الْغَمِيمِ، فَصَامَ النَّاسُ، ثُمَّ دَعَا بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ فَرَفَعَهُ، حَتَّى نَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ، ثُمَّ شَرِبَ، فَقِيلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ صَامَ، فَقَالَ: أُولَئِكَ الْعُصَاةُ، أُولَئِكَ الْعُصَاةُ"(١)، وفي رواية عند مسلم أيضاً: " فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ شَقَّ عَلَيْهِمِ الصِّيَامُ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُونَ فِيمَا فَعَلْتَ، فَدَعَا بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ بَعْدَ الْعَصْرِ"(٢)، وعن جابر ﷺ أيضاً قال: "كَانَ رَسُولُ الله ﷺ فِي سَفَرٍ، فَرَأَى رَجُلًا قَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ، وَقَدْ ظُلِّلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا لَهُ؟ قَالُوا: رَجُلٌ صَائِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تَصُومُوا فِي السَّفَرِ"(٣)، قال النووي رحمه الله: (معناه إذا شق عليكم وخفتم الضرر، وسياق الحديث يقتضي هذا التأويل، وهذه الرواية مبينة للروايات المطلقة ليس من البر الصيام في السفر، ومعنى الجميع فيمن تضرر بالصوم)(٤)، وهذا فهم سديد يدل عليه فعله ﷺ وأصحابه ﷺ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: "لَا تَعِبْ عَلَى مَنْ صَامَ، وَلَا عَلَى مَنْ أَفْطَرَ، قَدْ صَامَ رَسُولُ الله ﷺ فِي السَّفَرِ وَأَفْطَرَ"(٥)، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَجَابِرٍ ﷺ، قَالَا: "سَافَرْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، فَيَصُومُ الصَّائِمُ، وَيُفْطِرُ الْمُفْطِرُ، فَلَا يَعِيبُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ"(٦).

ومن ذلك أنه كان يُسأل عن أفضل الأعمال وأحبها إلى الله فتختلف إجابته، وقد ذهب جمع من أهل العلم إلى أن مرجع ذلك إلى اختلاف

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٧٨٥ (١١١٤).
(٢) صحيح مسلم ٢/ ٧٨٦ (١١١٤).
(٣) صحيح مسلم ٢/ ٧٨٦ (١١١٥).
(٤) شرح النووي على مسلم ٧/ ٢٣٣.
(٥) صحيح مسلم ٢/ ٧٨٥ (١١١٣).
(٦) صحيح مسلم ٢/ ٧٨٧ (١١١٧).

أحوال السائلين. وهكذا ينبغي أن يراعي المربي حال طلابه، فالناس متفاوتون فيما بينهم من جهة القدرة ومن جهة الميل وطباع النفس، فمنهم من يجد نفسه في الصلاة أو في الصوم أو في نفع الناس بماله أو جاهه أو جهده ووقته وهكذا، وفي كل خير، فعن أبي هريرة ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ، قَالَ: "مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهَّ، نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللهَّ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ"(١)، فلا ينبغي أن نحجر واسعاً ولا أن نحمل الناس على المشاق في النوافل فكل ميسر لما خلق له، وقد سئل ابن تيمية رحمه الله عن أفضل الأعمال فقال: (يخْتَلف باخْتلَاف النَّاس فِيمَا يقدرُونَ عَلَيْهِ وَمَا يُنَاسب أوقاتهم فَلَا يُمكن فِيهِ جَوَاب جَامع مفصل لكل أحد)(٢)، وقد كان ابن مسعود ﷺ على جلالته لا يكثر من الصوم، فعَنْ سُفْيَانَ، قَالَ: قِيلَ لِعَبْدِ اللهَّ: إِنَّكَ تُقِلُّ الصَّوْمَ، فَقَالَ: "إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْنَعَنِي مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الصَّوْمِ"(٣)، وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: "كَانَ عَبْدُ الله يُقِلُّ الصِّيَامَ، فَقُلْنَا لَهُ: إِنَّكَ تُقِلُّ الصَّوْمَ، قَالَ: إِنِّي إِذَا صُمْتُ ضَعُفْتُ عَنِ الصَّلَاةِ، وَالصَّلَاةُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الصِّيَامِ"(٤).

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٦٧١ (١٧٩٨)، صحيح مسلم ٢/ ٧١١ (١٠٢٧).

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/ ٦٦٠.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٢٧٤ (٨٩٠٩).

(٤) المعجم الكبير للطبراني ٩/ ١٧٥ (٨٨٧٠).

الفائدة الثامنة- التلطف منهج سليم في التعامل مع المشكلات: الحياة لا تخلو من المشكلات، في أي مجتمع مهما صغر، بدءاً من البيت، مروراً بالجوار فمواقع الدراسة والعمل، إلى مستوى الدولة، انتهاء بالعلاقات بين الدول. والوصول إلى حلول لهذه المشكلات لا بد له من تلطف وهدوء وتأن، وكلما كبرت المشكلة زادت الحاجة للهدوء والتروي.

من المشكلات ما يمكن حله في الحال، ومنها ما يحتاج لأيام أو أسابيع، وهناك مشكلات قد يستغرق علاجها سنوات، فلا بد من الحكمة وتقدير الأمور بقدرها، لأن مايحتاج لسنوات لا يمكن حله في دقائق، ولو أصررنا على ذلك فلن تحل وقد يقع المحذور من طلاق أو شقاق، أما التروي والتعامل بحكمة مع التحلي بالصبر فإنه كفيل بعد توفيق الله ﷻ بتذليل الصعاب. إن كثيراً من المشكلات الأسرية تستفحل وربما تصل إلى حد الطلاق لغياب الحكمة والروية، وإن إعمال هذه المفاهيم من أكثر ما يعيننا للتغلب على الواقع المرير. فالحكمة: فعل ما ينبغي كما ينبغي في الوقت الذي ينبغي، فعلى كل من الرجل والمرأة أن يتعاملا مع مشكلاتهما بتلطف وبعد نظر وعدم تعجل، وكذلك عليهما أن يفعلا مع أولادهما، وهذا كان سيغنينا عن كثير من المشكلات ويعين على حلها.

ومن التلطف ألا يشعر أحد من المحيطين بالمشكلة بلا داع، لا الأهل ولا الجيران ولا الأصدقاء. ومن التلطف أن يختار الإنسان الوقت المناسب للتباحث في المشكلة، فليس من المناسب النقاش حال غضب أحد الطرفين، بل هذا يستدعي المداراة لعدم الصدام الذي يورث العداوة والبغضاء وقد يوصل إلى القطيعة. فعن إبراهيم بن أدهم قال: قال أبو الدرداء لأم الدرداء: (إذا غضبت ترضيني، وإذا غضبت رضيتك، فمتى لم

يكن هكذا ما أسرع ما نفترق)[١]، وقال إبراهيم بن أدهم لبقية بن الوليد معقباً: (يا أخي، هكذا الإخوان، إن لم يكونوا كذا ما أسرع ما يفترقون!)[٢]. فينبغي أن يختار المرء وقت الصفاء للحوار والنقاش، وينبغي أن يكون الهدف الوصول لحل مشروع يرضي الجميع، إذ ما من مشكلة إلا ولها حل، لأن المشكلات كالأمراض التي تحتاج إلى علاج، وقد قال النبي ﷺ: "إِنَّ اللهَ ﷻ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلَّا وَقَدْ أَنْزَلَ مَعَهُ دَوَاءً، جَهِلَهُ مِنْكُمْ مَنْ جَهِلَهُ، وَعَلِمَهُ مِنْكُمْ مَنْ عَلِمَهُ"[٣].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٧٠/ ١٥٢.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ٧٠/ ١٥١

(٣) مسند أحمد ٧/ ٣٠١ (٤٢٦٧)، وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

بين التوكل والتواكل

التوكل على الله من أجل العبادات وأعظم القربات، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود]، وقد أمر الله ﷻ في كثير من آيات القرآن بالتوكل عليه، قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء]، وقال مخاطباً المؤمنين: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران]، كما حض النبي ﷺ على التوكل فقال: "لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرُزِقتم كما تُرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً"(١).

وقال المناوي رحمه الله: (أي تغدو بكرة وهي جياع، وتروح عشاء وهي ممتلئة الأجواف، فالكسب ليس برازق بل الرازق هو الله، فأشار بذلك إلى أن التوكل ليس التبطل والتعطل بل لا بد فيه من التوصل بنوع من السبب، لأن الطير ترزق بالطلب والسعي، ولهذا قال أحمد: ليس في الحديث ما يدل على ترك الكسب بل فيه ما يدل على طلب الرزق، وإنما أراد لو توكلوا على الله في ذهابهم ومجيئهم وتصرفهم وعلموا أن الخير بيده، لم ينصرفوا إلا غانمين سالمين كالطير)(٢)، قال المباركفوري: ("حق توكله" بأن تعلموا يقينا أن لا فاعل إلا الله وأن لا معطي ولا مانع إلا هو ثم تسعون في الطلب بوجه جميل وتوكل... وقال الشيخ أبو حامد: وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة أو كلحم على وضم، وهذا ظن الجهال فإن

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٥٧٣ (٢٣٤٤)، قال الشيخ الألباني: صحيح.
(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي ٢/ ٥٩٤.

ذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين ... إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعمله إلى مقاصده. وقال القشيري: اعلم أن التوكل محله القلب، وأما الحركة بالظاهر فلا تنافي التوكل بالقلب بعد ما يحقق العبد أن الرزق من قبل الله تعالى، فإن تعسر شيء فبتقديره وإن تيسر شيء فبتيسيره)[١].

إذا تقرر ذلك فللتوكل على الله ﷻ ركنان، ظاهر وباطن، أما الظاهر فهو السعي والأخذ بالأسباب لتحصيل المقصود، وأما الباطن فهو تعلق القلب بالله وحده، لا بغيره من هذه الأسباب أو غيرها، فترك الأسباب لا يسمى توكلاً بل تواكلاً، وهو قدح في الشرع وتعطيل له إذ أمر بالأخذ بها، والاعتماد على الأسباب قدح في التوحيد والاعتماد على الله دون سواه.

وقد كان حمل الفتية الورِق مع دعائهم أن يهيئ الله لهم من أمرهم رشداً وثقتهم أنه سيهيئ لهم من أمرهم مرفقاً، تطبيقاً عملياً للتوكل كما ينبغي، قال البقاعي رحمه الله: (وفي قصتهم دليل على أن حمل المسافر ما يصلحه من المنفعة رأي المتوكلين لا المتآكلين المتكلين على الإنفاقات)[٢]، وهذا شبيه بما كان في قصة موسى عليه السلام مع فتاه كما سيأتي، إذ خرجا في سفرهما متزودين بما يحتاجانه من طعام، يدل على ذلك قوله عليه السلام لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، قال القرطبي: (فيه مسألة واحدة، وهو اتخاذ الزاد في الأسفار، وهو رد على الصوفية الجهلة الأغمار، الذين يقتحمون المهامة والقفار، زعماً منهم أن ذلك هو التوكل على الله الواحد القهار، هذا موسى

(١) تحفة الأحوذي ٧/ ٧ بتصرف.

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٣٢.

-نبي الله وكليمه من أهل الأرض- قد اتخذ الزاد مع معرفته بربه، وتوكله على رب العباد)[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: "كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]"[2]. قال المهلب: وفيه أن التوكل لا يكون مع السؤال وإنما التوكل المحمود أن لا يستعين بأحد في شيء وقيل هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب كما قال عليه السلام: اعقلها وتوكل[3].

عثور الناس على الفتية:

ذكر أهل التفسير أنه بمضي القرون هلك الملك الظالم الذي فر الفتية منه وتوالت أجيال، فلما ذهب صاحب الفتية ودخل المدينة وجد معالمها متغيرة وأنكر وجوه أهلها، فلما دفع الورِق للبائع أنكرها وظن الناس أن الفتى قد عثر على كنز وفشا الأمر فحملوه إلى ملكهم وكان رجلاً صالحاً، فلما علم بالقصة سار مع قومه إلى الكهف ليطلعوا على هذه الآية العجيبة[4].

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

فقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ١٣.
(٢) صحيح البخاري ٢/ ٥٥٤ (١٤٥١).
(٣) فتح الباري ٣/ ٣٨٤.
(٤) ينظر تفسير الطبري وغيره.

قال ابن كثير: (أي: أطلعنا عليهم الناس)(١)، وقال ابن الجوزي: (أي: وكما أنمناهم وبعثناهم، أطلعنا وأظهرنا عليهم. قال ابن قتيبة: وأصل هذا أن من عَثَر بشيء وهو غافل، نظر إليه حتى يعرفه، فاستعير العِثار مكان التبيين والظهور، ومنه قول الناس: ما عثرت على فلان بسوءٍ قط، أي: ما ظهرت على ذلك منه)(٢)، والمقصود بـ (أعثرنا) أهل الزمان الذي بعثوا فيه.

وقوله: ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾

قال ابن الجوزي: (في المشار إليهم بهذا العلم قولان: أحدهما: أنهم أهل بلدهم حين اختصموا في البعث، فبعث الله أهل الكهف ليعلموا ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقٌّ﴾ وأن القيامة لا شك فيها، هذا قول الأكثرين. والثاني: أنهم أهل الكهف، بعثناهم ليرَوْا بعد علمهم أن وعد الله حق، ذكره الماوردي)(٣)، وقال ابن كثير: (ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة. وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا: تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد. فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك)(٤)، قال الطبري: (يقول تعالى ذكره: وكما بعثناهم بعد طول رقدتهم كهيئتهم ساعة رقدوا، ليتساءلوا بينهم، فيزدادوا بعظيم سلطان الله بصيرة، وبحسن دفاع الله عن أوليائه معرفة... كذلك أطلعنا عليهم الفريق الآخر الذين كانوا في

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٦.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢١٣.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢١٣.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٦.

شكّ من قُدرة الله على إحياء الموتى، وفي مِرْية من إنشاء أجسام خلقه، كهيئتهم يوم قبضهم بعد البِلَى، فيعلموا أن وَعْد الله حق، ويُوقنوا أن الساعة آتية)[1].

قال الألوسي رحمه الله: (﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي وعده سبحانه بالبعث... ويجوز أن يراد كل وعده أو كل موعوده سبحانه، ويدخل في ذلك ما ذُكِر دخولاً أولياً. ﴿حَقٌّ﴾ صادق لا خلف فيه، أو متحقق سيقع ولابد، قيل لأن نومهم الطويل المخالف للمعتاد وانتباههم، كالموت والبعث. ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي وقت بعث الخلائق جميعاً للحساب والجزاء، ﴿لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ أي ينبغي أن لا يُرتابَ في وقوعها، لأنه لا يبقى بيد المرتابين بعد النظر سوى الاستناد إلى الاستبعاد، وعلمهم بوقوع ذلك الأمر الغريب والحال العجيب الذي لو سمعوه ولم يتحققوا وقوعه لاستبعدوه وارتابوا فيه ارتيابهم في ذلك، يكسر شوكة ذلك الاستبعاد ويهدم ذلك الاستناد، فينبغي حينئذٍ أن لا يرتابوا)[2].

تنبيه- اعلم أن ما أشار إليه الألوسي رحمه الله من شمول الوعد الحق كل وعد الله وموعوده أمر يجب على كل المؤمنين اعتقاده، فكل ما وعد به ربنا واقع لا محالة؛ من نصرة الحق وأوليائه، ومن انتصار الإسلام وانتشاره في الأرض وعموم رسالته المشرق والمغرب، والتمكين لأهله على باقي الأمم، وما أحوجنا اليوم إلى تأكيد هذه المعاني وتذكير الناس بها، لشحذ الهمم وطرد اليأس من قلوب من تؤرقهم الفتن. لقد وعد ربنا على لسان نبيه ﷺ فقال: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦٣٩ بتصرف يسير.

(٢) روح المعاني: ١١/ ١٩٠ بتصرف واختصار يسير.

الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ"(١)، فهذا حاصل لا محالة مهما تآمرت الأمم وأعانت علينا بني يهود، ومهما فعل اليهود من تهويد وسعي لهدم المسجد الأقصى وإقامة الهيكل المزعوم وطرد الفلسطينيين، كل ذلك لن يحول دون موعود الله ونصرنا عليهم، وكذلك وعد ربنا على لسان رسوله ﷺ بقوله: "لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ"(٢)، فهذا حاصل مهما كاد أهل الكفر للإسلام وحاربوه بالسنان أو اللسان أو الخديعة وبث الفتن وإغراق أهل الإسلام بالشبهات والشهوات.

بيد أن هذا الاعتقاد لا ينبغي أن يحول بين المرء والعمل لدين الله، ولا يركن لهذا الموعود ويترك العمل انتظاراً له، فهذا من العجز والتواكل المنهي عنه، بل المطلوب هو أن يمتلئ القلب بالأمل والتفاؤل، وأن يبذل المرء كل ما في وسعه ليكون سبباً من أسباب تحقق موعود الله على أرض الواقع.

وقوله: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾

قال ابن الجوزي: (يعني: أهل ذلك الزمان. قال ابن الأنباري: إذ كانوا يتنازعون، ويجوز أن يكون: إذ تنازعوا. وفي ما تنازعوا فيه خمسة أقوال:

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٣٩ (٢٩٢٢).

(٢) مسند أحمد ٢٨/ ١٥٥ (١٦٩٥٧)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

أحدها: أنهم تنازعوا في البنيان والمسجد. فقال المسلمون: مسجداً، لأنهم على ديننا؛ وقال المشركون: بنياناً، لأنهم من أهل سُنَّتنا، قاله ابن عباس.

والثاني: أنهم تنازعوا في البعث، فقال المسلمون: تُبعث الأجساد والأرواح، وقال بعضهم: تُبعث الأرواح دون الأجساد، فأراهم الله تعالى بعث الأرواح والأجساد ببعثه أهل الكهف، قاله عكرمة.

والثالث: أنهم تنازعوا ما يصنعون بالفتية، قاله مقاتل. والرابع: أنهم تنازعوا في قدْر مكثهم. والخامس: تنازعوا في عددهم، ذكرهما الثعلبي)[١].

وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا ۖ﴾

قال ابن الجوزي: (أي: استروهم من الناس بأن تجعلوهم وراء ذلك البنيان. وفي القائلين لهذا قولان: أحدهما: مشركو ذلك الزمان، عن ابن عباس. والثاني: الذين أسلموا حين رأوا أهل الكهف، قاله ابن السائب)[٢].

وقوله: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ﴾ قال ابن عاشور: (يجوز أن تكون من كلام الذين قالوا: ابنوا عليهم بنياناً والمعنى: ربهم أعلم بشؤونهم التي تنازعنا فيها، فهذا تنهية للتنازع في أمرهم. ويجوز أن تكون معترضة من كلام الله تعالى في أثناء حكاية التنازع، أي رب أهل الكهف أو رب المتنازعين أعلم منهم بواقع ما تنازعوا فيه)[٣].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۝﴾

قال ابن كثير: (الظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ. ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبي ﷺ قال: لعن

(١) زاد المسير ٤/ ٢١٣ بتصرف يسير.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢١٣ بتصرف يسير.
(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٥٢ بتصرف يسير.

الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، يحذر ما فعلوا)[1]. قال ابن الجوزي: (قال ابن قتيبة: يعني المُطاعين والرؤساء... قال سعيد بن جبير: بنى عليهم الملك بيعة)[2].

فائدة- أمر الله عباده المؤمنين بالاجتماع والاتفاق ونهاهم عن التنازع والشقاق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝١٠٢ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]. ومن تأمل حال أمتنا وأسباب ما يلحق بها من ضعف أيقن أن جزءاً كبيراً من ذلك هو بأيدينا فضلاً عما يكيده الأعداء، بسبب تنازعنا، انظروا ما يحصل اليوم في الصومال وما حصل من قبل في أفغانستان، وإلى الخلاف والتنازع بين طلاب العلم، وانظروا إلى نتيجة كل ذلك من التدابر والتقاتل ومن ثم الفشل وذهاب الريح، فهذا كله بأيدينا.

وقد كان الشيخ ابن باز رحمه الله يقول: إذا لم تستطع أن توحد الناس وتجمع بينهم فلا تكن سبباً في تفرقهم واختلافهم، وهي كلمة تكتب بماء الذهب، فما أحوجنا إلى مثل هذا الفهم الثاقب. إن التنازع بين أصحاب المنهج الواحد شر كله، ويزداد إن لم يحسم الخلاف لتعود اللحمة والألفة إلى الجسد الواحد، ويزداد الشر كذلك إن تم حسمه بقهر الطرف الأقوى للأضعف؛ تماماً كما حصل مع قوم أصحاب الكهف، فقد حسم التنازع من كانت له السلطة، ثم بنوا عليهم ما لم يؤمروا به فوقعوا في المحظور.

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٧.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢١٣.

بناء المساجد على القبور

قال الألوسي رحمه الله: (استدل بالآية على جواز البناء على قبور الصلحاء واتخاذ مسجد عليها وجواز الصلاة في ذلك، وممن ذكر ذلك الشهاب الخفاجي في حواشيه على البيضاوي، وهو قول باطل عاطل فاسد كاسد)[١]، وما قاله الألوسي هو الصواب، فإن ما في الآية لا يعدو كونه حكاية حال، ولا يمكن حمله على التشريع، ولا حتى لمن كان قبلنا، قال الألوسي: (كون ما ذكر من شرائع من قبلنا ممنوع، وكيف يمكن ذلك مع ما سمعت من لعن اليهود والنصارى حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[٢].

قال ابن عاشور: (اتخاذ المساجد على القبور، والصلاة فيها منهي عنه، لأن ذلك ذريعة إلى عبادة صاحب القبر أو شبيهٌ بفعل من يعبدون صالحي مِلتهم. وإنما كانت الذريعة مخصوصة بالأموات لأن ما يعرض لأصحابهم من الأسف على فقدانهم يبعثهم على الإفراط فيما يحسبون أنه إكرام لهم بعد موتهم، ثم يتناسى الأمر ويظن الناس أن ذلك لخاصية في ذلك الميّت)[٣].

قال القرطبي رحمه الله: (فاتخاذ المساجد على القبور إلى غير ذلك مما تضمنته السنة من النهي عنه، لا يجوز، لما روى أبو داود والترمذي عن ابن عباس قال: لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج. قال الترمذي: حديث حسن. وعن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٩٦.
(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٩٩ بتصرف واختصار.
(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٥٣.

ﷺ: "إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله تعالى يوم القيامة". قال علماؤنا: وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد. وروى الأئمة عن أبي مرثد الغنوي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها"، أي لا تتخذوها قبلة فتصلوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى، فيؤدي إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام. فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك، وسد الذرائع المؤدية إلى ذلك فقال: "اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد". وعن عائشة وابن عباس قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: "لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" يحذر ما صنعوا. وروى مسلم عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه. وخرجه أبو داود والترمذي أيضا عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ صلى أن تجصص القبور وأن يكتب عليها وأن يبنى عليها وأن توطأ. قال الترمذي: حسن صحيح)[1].

وقد استدل بعضهم ببناء مسجد الرسول ﷺ على مقبرة للمشركين، وهذا غلط؛ لأن القبور نبشت كما في حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ أمر بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت.

وقد احتج البعض بوجود قبر النبي ﷺ في المسجد النبوي،

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٧٩-٣٨١ بتصرف واختصار.

والصواب أنه ليس بحجة لأن النبي ﷺ لم يدفن في مسجده بل في حجرة عائشة رضي الله عنها، وبقي في الحجرة بعد وفاته ﷺ وبعد دفن أبي بكر ومن ثم عمر فيها، ولم تكن الحجرة جزءاً من المسجد، وإنما أدخلت في المسجد في توسعة لاحقة لعهد الراشدين رضي الله عنهم. وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ: "لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، لَوْلاَ ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ -أَوْ خُشِيَ- أَنَّ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا"(١).

ومن المؤسف أن بعض من يشار إليهم بالبنان ويتصدرون للفتيا يجيزون هذا البناء ويشنعون على من ينكره بحجة انتشار المساجد التي فيها قبور في بلاد المسلمين، ويزعم أن المنكرين يفسدون على الناس دينهم!

قال الألوسي: (وبالجملة لا ينبغي لمن له أدنى رشد أن يذهب إلى خلاف ما نطقت به الأخبار الصحيحة معولاً على الاستدلال بهذه الآية فإن ذلك في الغواية غاية، وفي قلة النُّهى نهاية، ولقد رأيتُ من يبيح ما يفعله الجهلة في قبور الصالحين من إشرافها وبنائها بالجص والآجر وتعليق القناديل عليها إلى غير ذلك محتجاً بهذه الآية وبما جاء في بعض روايات القصة من جعل الملك لهم في كل سنة عيدا وجعله إياهم في توابيت من ساج، وكل ذلك محادة لله ورسوله ﷺ، وإبداع دين لم يأذن به الله ﷻ)(٢).

مسألة- حكم المساجد التي فيها قبور: على نوعين؛ فإن كان القبر سابقاً، بأن بني المسجد عليه، فلا تجوز الصلاة فيه وهي باطلة، وإن كان المسجد سابقاً فينظر، إن كان القبر خلف المصلين فلا يصلى فيه وإن صلي

(١) صحيح البخاري ٢/ ١٠٢ (١٣٩٠)، صحيح مسلم ١/ ٣٧٦ (٥٢٩).
(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٩٩ بتصرف واختصار.

فالصلاة صحيحة، أما إن كان القبر قِبَل المصلين بلا حاجز فبعض العلماء أبطل الصلاة، وبعضهم قال لا تبطل لكن لا تجوز، ومن كان جاهلاً فمعذور.

قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾

فقوله: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾

قال ابن الجوزي: (في هؤلاء القائلين قولان:

أحدهما: نصارى نجران، ناظروا رسول الله ﷺ في عِدّتهم، فقالت الملكيَّة: ثلاثة رابعهم كلبهم، وقالت اليعقوبية: خمسة سادسهم كلبهم، وقال النسطورية[1]: سبعة وثامنهم كلبهم، فنزلت، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثاني: أنهم أهل مدينتهم قبل ظهورهم عليهم، ذكره الماوردي)[2]، وذكر القرطبي هذا وغيره فقال: (الضمير في "سيقولون" يراد به أهل التوراة ومعاصرو محمد ﷺ، وذلك أنهم اختلفوا عدد أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص ... وقيل: هو إخبار عن اليهود الذين أمروا

---

(١) الملكية أو الملكانية، واليعقوبية والنسطورية من طوائف النصارى، بينهم كثير من الاختلافات العقدية، لكنهم متفقون في أصل الاعتقاد، قال ابن تيمية رحمه الله في الجواب الصحيح ٢/ ١٢: "هذه الطوائف كلها تقول بالأقانيم الثلاثة؛ الآب والابن وروح القدس فتقول عن الله ثالث ثلاثة وتقول عن المسيح إنه الله وتقول إنه ابن الله وهم متفقون على اتحاد اللاهوت والناسوت وأن المتحد هو الكلمة وهم متفقون على عقيدة إيمانهم التي تتضمن ذلك"، وأما اختلافاتهم فمذكورة في الملل والنحل للشهرستاني، والفصل في الملل والنحل لابن حزم وغيرهما.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢١٤ بتصرف يسير.

المشركين بمسألة النبي ﷺ عن أصحاب الكهف)[١].

وقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ قال الطبري: (قذفاً بالظنّ، غير يقين علم)[٢]، وقال ابن كثير: (أي: قولاً بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبلا قصد)[٣]، وقال البغوي: (أي: ظناً وحدساً من غير يقين)[٤].

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ﴾

قال ابن الجوزي: (فأما دخول الواو في قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ولم تدخل فيما قبل هذا، ففيه أربعة أقوال:

أحدها: أن دخولها وخروجها واحد، قاله الزجاج.

والثاني: أن ظهور الواو في الجملة الثالثة دلالة على أنها مرادة في الجملتين المتقدمتين، وإنما حذفت تخفيفاً، ذكره أبو نصر في شرح «اللمع».

والثالث: أن دخولها لانقطاع القصة، وتمام الكلام، ذكره الزجاج، وهو قول مقاتل بن سليمان، فإن الواو تدل على تمام الكلام؛ قال الثعلبي: فهذه واو الحكم والتحقيق، كأن الله حكى اختلافهم، فتم الكلام عند قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ﴾، ثم حكم أن ثامنهم كلبهم. وجاء أن المسلمين قالوا عند اختلاف النصارى: هم سبعة، فحقّق الله قول المسلمين.

والرابع: أن العرب تعطف بالواو على السبعة، فيقولون: ستة، سبعة، وثمانية، لأن العقد عندهم سبعة، كقوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ...﴾ إلى أن قال في الصفة الثامنة: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢]،

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٨٢ بتصرف يسير.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦٤١.

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٧.

(٤) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٦١

وقوله في صفة الجنة: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] وفي صفة النار: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١]، لأن أبواب النار سبعة، وأبواب الجنة ثمانية، ذكر هذا المعنى أبو إسحاق الثعلبي)[١]، وقد ضُعِّف القول الأخير، قال القرطبي: (قال القشيري أبو نصر: ومثل هذا الكلام تحكم، ومن أين السبعة نهاية عندهم؟ ثم هو منقوض بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، ولم يذكر الاسم الثامن بالواو)[٢].

وقوله: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾

قال الطبري: (قل يا محمد لقائلي هذه الأقوال في عدد الفتية رجما منهم بالغيب: رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ)[٣]، وقال ابن كثير: (إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا أُطلِعنا على أمر قلنا به، وإلا وَقَفْنَا)[٤].

وقوله: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

ذكر الطبري رحمه الله عن قتادة أنه قال: قليل من الناس، وعن ابن عباس قال: يعني أهل الكتاب[٥]، وعن ابن عباس: (أنا من أولئك القليل الذين استثنى الله، كانوا سبعة وثامنهم كلبهم)[٦]، قال ابن كثير: (فهذه

(١) زاد المسير ٤/ ٢١٤ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٨٣.
(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٦٤١ بتصرف يسير.
(٤) تفسير ابن كثير ٩/ ١٢١.
(٥) ينظر في التفسير ١٧/ ٦٤٢.
(٦) تفسير الطبري ١٧/ ٦٤٢.

أسانيد صحيحة إلى ابن عباس: أنهم كانوا سبعة)[١].

وقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾

الخطاب في الآية للنبي ﷺ وأمته تبع له في ذلك، قال الطبري: (يقول عز ذكره لنبيه محمد ﷺ: فلا تمار يا محمد: يقول: لا تجادل أهل الكتاب فيهم، يعني في عدة أهل الكهف، وحُذِفت العِدّة اكتفاء بذكرهم فيها لمعرفة السامعين بالمراد)[٢]، وقال ابن عاشور: (المراء الظاهر: هو الذي لا سبيل إلى إنكاره ولا يطول الخوض فيه)[٣].

قال ابن الجوزي: (قال ابن عباس، وقتادة: لا تُمارِ أحداً، حسبك ما قصصتُ عليكَ. وقال ابن زيد: لا تُمارِ في عِدَّتهم إلا مراءً ظاهراً أن تقول لهم: ليس كما تقولون. وقيل: «إلا مراءً ظاهراً» بحجة واضحة، حكاه الماوردي. والمراء في اللغة: الجدال. قال ابن الأنباري: لا تجادل إلا جدال متيقِّنٍ عالمٍ بحقيقة الخبر، إذ الله تعالى ألقى إليك مالا يشوبه باطل)[٤]، وقال وقال البغوي: (أي: لا تجادل ولا تقل في عددهم وشأنهم {إلا مِرَاءً ظَاهِرًا} إلا بظاهر ما قصصنا عليك يقول: حسبك ما قصصت عليك فلا تزد عليه)[٥].

وقال بعض العلماء: المراء الظاهر هو ما يكون باللسان ولا يصل إلى القلب فيؤدي إلى الخصومة، لذا فلا بد أن تكون المهارة والمجادلة بالحسنى، بل بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٨.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦٤٢.

(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٥٦.

(٤) زاد المسير ٤/ ٢١٥ باختصار.

(٥) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٦٢.

[البقرة: ٨٣]، وقال: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقوله: ﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾

قال الطبري: (ولا تستفت في عدّة الفتية ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ من أهل الكتاب أحداً، لأنهم لا يعلمون عدتهم، إنما يقولون رجماً بالغيب، لا يقينا)(١)، وقال ابن كثير: (أي: فإنهم لا علم لهم إلا رجما بالغيب، أي من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال)(٢)، وقال ابن الجوزي: (قال ابن عباس: يعني: من أهل الكتاب. قال الفراء: أتاه فريقان من النصارى، نسطوري، ويعقوبي، فسألهم عددهم، فنُهي عن ذلك)(٣)، وفي الآية تحريم استفتاء الجاهل، وأن السؤال يكون لمن يعلم، فإن الجاهل فاقد للعلم فكيف يعطيه، ولذا قال: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] و[الأنبياء: ٧]. فمن كان من أهل الفقه يسأل عنه لا عن الحديث والعكس، وهكذا في كل العلوم يسأل أهل كل فن في فنهم.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦٤٣ باختصار.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٨ بتصرف يسير.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢١٥.

فائدتان من الآية

الأولى- تحقيق القول في عدة أصحاب الكهف:

وقع خلاف في زمن أصحاب الكهف، وأسمائهم واسم كلبهم، إلى غير ذلك، وهذا وأشباهه مما لا ينبغي أن يشتغل به إذ لو كان في معرفته فائدة لبينه الله جل وعلا، ولولا ذكر الله ﷻ أقوال المختلفين في عددهم لجزمنا أن معرفتها تابعة لما سبق، ولكن لما ذكر الله هذه الأقوال، وأنه (ما يعلمهم إلا قليل) وكان من عادة القرآن مدح القليل، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ]، لم نجد بأسا أن نتكلم في هذه المسألة، لا سيما مع ثبوت النقل عن ابن عباس رضي الله عنهما في ذلك.

قال ابن كثير رحمه الله عن الأقوال المختلفة في أهل الكتاب: (نَقْلُ الخلاف عنهم في ذلك جائز، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ۝٢٢﴾ [الكهف]، فقد اشتملت هذه الآية على الأدب في هذا المقام .. فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعّف القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته، ... ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فقال في مثل هذا: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في

ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم)[١]، فالفائدة في هذا أنه ليس معهم إلا الرجم بالغيب، مع أنهم من أهل ملتهم، والله يقص الحق. قال رحمه الله: (﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: سهلا هينًا؛ فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: فإنهم لا علم لهم بذلك .. من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه .. فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه)[٢].

وأكثر العلماء تكلم في عددهم؛ قال ابن الجوزي: (اختلف العلماء في عددهم على قولين: أحدهما: أنهم كانوا سبعة، قاله ابن عباس.

والثاني: ثمانية، قاله ابن جريج، وابن إسحاق. وقال ابن الأنباري: وقيل: معنى قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾: صاحب كلبهم، كما يقال: السخاء حاتم، والشِّعر زهير، أي: السخاء سخاء حاتم، والشِّعر شِعر زهير)[٣]، وذكر الرازي أن أكثر المفسرين على أنهم سبعة وثامنهم كلبهم[٤]، وبه جزم ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: أنا من القليل الذي استثنى الله، عز وجل)[٥].

وكذلك رجحه شيخنا العلامة ابن عثيمين رحمه الله وقال: (... فإذا كان الله أعلم بعدتهم فالواجب أن نرجع إلى ما أعلمنا الله به، ونقول جازمين

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٩.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٨.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢١٤.
(٤) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ١٨٧.
(٥) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٨.

بأن عدتهم سبعة وثامنهم كلبهم)(١)، وهذا هو الصواب إن شاء الله.

وهنا فائدة: لو أن الله ﷻ لم يرشدنا إلى عددهم، لكان ينبغي لنا أن نتوقف، وفرق بين التوقف، وبين تكذيب الجميع فقد يكون أحدها حقا.

الثانية- رد العلم إلى عالمه:

سبق في أوائل السورة بيان خطورة القول على الله بغير علم، وفي هذه الآية يقول الله ﷻ: (قل ربي أعلم بعدتهم)، فأرشده إلى رد العلم إلى عالمه، وفي هذا تعريض بأهل الكتاب وأنهم يخوضون بلا بينة، كما قال ابن كثير(٢).

وقد كان النبي ﷺ -وهو أعلم الخلق بدين الله- يُسأل فيسكت عما لم ينزل فيه عليه وحي حتى يأتيه الوحي، ومن ذلك إجابات القرآن عن الأسئلة التي سكت عنها النبي ﷺ، مثل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ الآية [البقرة: ١٨٩]، وقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ الآية [البقرة: ٢١٥]، وقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ﴾ الآية [البقرة: ٢١٧].

ولما قال الله: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة] ردوا العلم إليه: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة].

وفي المستدرك عن جبير بن مطعم: أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله أي البلاد شر؟ فقال: لا أدري. فلما أتاه جبرئيل قال: يا جبرئيل أي البلدان شر؟ قال: لا أدري حتى أسأل ربي. فانطلق جبرئيل فمكث ما شاء الله أن يمكث ثم جاء فقال: يا محمد إنك سألتني أي البلاد شر وإني قلت لا أدري وإني سألت ربي فقلت: أي البلاد شر؟ فقال أسواقها"(٣)،

---

(١) تفسير العثيمين: الكهف ص: ٤٢-٤٣.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٩.

(٣) المستدرك ١/ ١٦٦ (٣٠٣)، قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن صحيح.

قال الحاكم رحمه الله عقبه: (هذا الحديث أصل في قول العالم لا أدري)، وقد كان هذا ديدن علمائنا من لدن أصحاب النبي ﷺ إلى يومنا هذا، كما سبق.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

قال ابن الجوزي: (سبب نزولها أن قريشاً سألوا النبي ﷺ عن ذي القرنين، وعن الرُّوح، وعن أصحاب الكهف، فقال: غدًا أخبركم بذلك، ولم يقل: إن شاء الله، فأبطأ عليه جبريل خمسة عشر يوماً لتركه الاستثناء، فشقَّ ذلك عليه، ثم نزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس)[1].

قال ابن كثير: (هذا إرشاد من الله لرسوله ﷺ، إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء .. أن يرد ذلك إلى مشيئة الله ﷻ علام الغيوب، الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ... تلد كل امرأة منهن غلامًا يقاتل في سبيل الله، فقيل له ... قل: إن شاء الله. فلم يقل فطاف بهن فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان"، فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده، لو قال: "إن شاء الله" لم يحنث، وكان دركا لحاجته)[2].

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢١٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٨.

فوائد تتعلق بالاستثناء في الأفعال

١- فضل (إن شاء الله) عظيم، لأنها تدل على الثقة بالله ومحبته والاعتماد عليه جل وعلا. وقد قال الله هذه الكلمة في وعده للنبي ﷺ وصحابته دخول المسجد الحرام معتمرين: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح]، فكان الاستثناء هنا -في قول- لإرشاد المؤمنين إلى التزام هذا الأدب، قال ابن الجوزي: (استثناء من الله، وقد عَلِمه .. يكون المعنى أنه عَلِم أنهم سيدخُلونه، ولكن استثنى على ما أُمر الخَلْق به من الاستثناء)[١].

وقالها يوسف عليه السلام يوم دخل عليه أهله: ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يوسف]، وقالها موسى للخضر عليهما السلام يوم أراد صحبته: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ [الكهف]، وقالها العبد الصالح لموسى عليه السلام يوم أنكحه إحدى ابنتيه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص]، وقالها إسماعيل لوالده إبراهيم عليهما السلام لما قال له: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات] إلى غير ذلك.

ومع عظم هذه الكلمة إلا أن كثيرًا من المسلمين أساء إليها! فإن هذه الكلمة تقال عندما يعزم الإنسان على فعل شيء فيما استقبل من الزمن، فهو بها يتبرأ من كل حول وقوة إلا مالك الملك، فينزل حاجته به كي يوفقه لأداء ما عزم عليه، لكن المشاهد أن كثيراً من الناس يطلب منهم أداء عمل وفي قرارة أنفسهم لا يعزمون على فعله، فيتخذون من الاستثناء ذريعة

---

(١) زاد المسير ٥/ ٣٩٣.

للتحايل على عدم إنجاز المهام والتواكل وعدم الجد، حتى صار يُرد عليهم: لا تقل إن شاء الله، فكأن معنى هذه الكلمة صار: لن أفعل!

أسوأ من هذا أن يصبح الأمر ظاهرة ويتعامل به المسلمون مع غيرهم مما قد يكون سبباً في صد غير المسلمين عن الإسلام، وهذا شبيه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾ [النحل]، قال ابن كثير: (حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلا أي خديعة .. مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها .. لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام)[1].

٢- قال ابن الجوزي: (فائدة الاستثناء أن يخرج الحالف من الكذب إذا لم يفعل ما حلف عليه، كقوله في قصة موسى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾ [الكهف: ٧٠]، ولم يصبر، فسَلِم من الكذب لوجود الاستثناء في حقه)[2]، وفي المسند عن أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعًا "مَنْ حَلَفَ فَقَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، لَمْ يَحْنَثْ"[3]، وكذلك حديث حَلِف سليمان السابق قريبا[4].

في هذا الإرشاد الرباني توجيه لما ينبغي أن يكون عليه العبد من أدب مع الله ﷻ باطنا وظاهرا، أما باطنا فباعتقاد أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، و ليس للعبد من أمره سوى الأخذ بالأسباب، وفي هذا وقوف عند حد العبودية. وأما ظاهرا فبضبط اللسان ليكون موافقاً لهذا ومعبراً عنه؛

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٦٠٠.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢١٦.

(٣) مسند أحمد ١٣/ ٤٥٠ (٨٠٨٨)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٤) صحيح ابن حبان ١٠/ ١٨٢ (٤٣٣٨)، قال الأرناؤوط: إسناده قوي.

وأدب المنطق باب عظيم ذكر القرآن الكريم طائفة منه في مواضع، منها ما سيأتي ذكره في قصة موسى والخضر عليهما السلام، ومنها ما كان في قصة يوسف ﷺ: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [يوسف]، وكان حق (لي) في الثانية أن تتقدم كذلك إلا أنه أخرها عن لفظ الجلالة تأدباً مع الله؛ ومنها قول مؤمني الجن ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن]، فلم ينسبوا إرادة الشر لله ﷻ ونسبوا الخير له سبحانه، والخير والشر لا يكون إلا بقدر من الله ﷻ.

٣- الفرق بين التحقيق والتعليق في الاستثناء: أما تعليق الاستثناء فهو أن يعزم المرء على فعل في المستقبل، أو يخبر بخبر، أو يقسم بيمين عما هو كائن فيه مما لا علم له به فيستثني؛ وأما التحقيق فيه فهو أن يستثني المتكلم مع علمه بأن ما يقوله واقع لا محالة، فيكون الاستثناء لتحقيق الكلام وتوكيده، كقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح-٢٧]، كما قال ابن كثير(١)، ومن ذلك ما نقله ابن القيم عن شيخ الإسلام رحمه الله أنه أخبر الناس لما تحرك التتار وقصدوا الشام أن الهزيمة عليهم وأن الظفر والنصر للمسلمين وأقسم على ذلك أكثر من سبعين يمينا فيقال له: قل إن شاء الله فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً(٢)، وقد ظفر المسلمون وانتصروا بالفعل، ولم يكن هذا منه رحمه الله رجماً بالغيب بل من فراسة شيخ الإسلام، قال ابن القيم: (وللفراسة سببان أحدهما: جودة ذهن المتفرس وحدة قلبه وحسن فطنته

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٥٦.
(٢) مدارج السالكين ٢/ ٤٨٩.

والثاني: ظهور العلامات والأدلة على المتفرس فيه)(١)، أما الأول فقد بلغ فيه شيخ الإسلام الغاية، وأما الثاني فلا شك أنه قد رأى من أسباب النصر الظاهرة والباطنة ما حمله على ذلك كما قال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد]، ومن أصدق من الله حديثاً؟

ولهذا دليل من السنة، فقد قال رسول الله ﷺ يوم الحديبية: "إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري"(٢)، فلم يقل إن شاء الله ؛ لأن هذا النصر وعد من الله لرسوله ولا يخلف الله الميعاد.

٥- من الأخطاء التي شاعت بين الناس أن يستثنوا فيما مضى، فيقول أحدهم: تزوجت إن شاء الله، سافرت إن شاء الله، وهذا لا وجه له لغة ولا شرعا، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ ﴾، فقيده بما كان في المستقبل.

٦- كذلك لا يستثني في الدعاء، بل يعزم المسألة، قال ﷺ: "لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، ارْزُقْنِي إِنْ شِئْتَ، وَلِيَعْزِمْ مَسْأَلَتَهُ، إِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، لاَ مُكْرِهَ لَهُ"(٣).

وقوله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾

قال ابن الأنباري: معناه: واذكر ربَّكَ بعد تقضِّي النسيان، كما تقول: اذكر لعبد الله إذا صلّى حاجتك، أي: بعد انقضاء الصلاة. وللمفسرين في ذلك ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: إذا نسيتَ الاستثناء ثم ذكرتَ، فقل:

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٨٩.
(٢) صحيح البخاري ٢/ ٩٧٤ (٢٥٨١).
(٣) صحيح البخاري ٦/ ٢٧١٨ (٧٠٣٩)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٦٣ (٢٦٧٩).

إِن شاء الله، ولو كان بعد يوم أو شهر أو سنة، قاله سعيد بن جبير، والجمهور. والثاني: أن المعنى إِذا غضبتَ، قاله عكرمة، قال ابن الأنباري: وليس ببعيد، لأن الغضب يُنتج النسيان. والثالث: إِذا نسيتَ الشيء فاذكر الله ليذكِّرك إِياه، حكاه الماوردي[١].

قال ابن كثير: (لأن النسيان منشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣] وذِكر الله تعالى يطرد الشيطان، ... فذِكر الله سبب للذكر؛ ولهذا قال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾)[٢]، واختار الطبري (قول من قال: معناه: واذكر ربك إذا تركت ذكره، لأن أحد معاني النسيان في كلام العرب الترك)[٣].

وقوله: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾ قال ابن كثير: (أي: إذا سُئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله، وتوجه إليه أن يوفقك للصواب والرشد)[٤]. وقال ابن الجوزي: (في معنى الكلام قولان: أحدهما: عسى يعطيني ربِّي من الآيات والدلالات على النبوَّة ما يكون أقرب في الرّشد وأدلَّ من قصّة أصحاب الكهف هذا قول الزجاج. والثاني: أن قريشاً لما سألت عن خبر أصحاب الكهف، قال الله تعالى له: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي﴾ أي: عسى أن يعرِّفني جواب مسائلكم قبل الوقت الذي حدَّدتُه لكم، هذا قول ابن الأنباري)[٥]، وكأن المراد بهذا أنه تتمة لإرشاد النبي ﷺ، أي كان ينبغي لك أن تقول عسى أن يهديني ربي.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢١٥.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٠.
(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٦٤٦.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٠.
(٥) زاد المسير ٤/ ٢١٦ بتصرف واختصار.

وذهب بعض العلماء إلى أن من نسي شيئاً فامتثل هذا الأمر، فلربما لا يكون في الأول خير فيهديه للخير، أو يكون في الأول خير فيهديه لما هو أفضل، لأن عسى من الله إيجاب. ومن اللطائف أن بعض حفاظ القرآن يقول إنه لا يراجع إلا نادراً، وإذا نُسِّي آية يلجأ إلى الله ﷻ بصدق، ويبادر إلى هذه الآية ويقول: اللهم اهدني لأقرب من هذا رشدا، فأحياناً لا يكمل الآية حتى يذكر ما نسيه، ومن الناس من يجعل هذا ديدنه كلما نسي أمراً.

وقوله: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾

اختلف أهل العلم في المراد بالآية على قولين ذكرهما ابن كثير وبيَّن الصواب منهما، قال رحمه الله: (هذا خبَر من الله لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم وأنه ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وثلاثمائة بالشمسية، فإن تفاوت ما بينهما كل مائة ثلاث سنين؛ فلهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ وعليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف. وقال قتادة في: ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ هذا قول أهل الكتاب وقد رده الله بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ وفي هذا الذي زعمه قتادة نظر، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة، ولو كان الله قد حكى قولهم لما قال: ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾)[1]. وقال ابن عثيمين رحمه الله: (القول بأن "ثلاث مائة سنين" شمسية، "وازدادوا تسعاً" قمرية قول ضعيف)[2]. والذي أراه أن الله سبحانه بين بالثلاثمائة مقدار لبثهم بحساب أهل الكتاب أي ثلاثمائة شمسية، ثم بين أنها بالقمرية

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٠-١٥١ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير العثيمين: الكهف ص: ٥٠.

ثلاثمائة وتسع، لأنه الحساب الذي ارتضاه سبحانه.

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾

قال ابن الجوزي: (ثم أعلمَ أنه أعلمُ بقدْر مدة لبثهم من أهل الكتاب المختلفين فيها، فقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ ﴾. قال ابن السائب: قالت نصارى نجران: أما الثلاثمائة، فقد عرفناها، وأما التسع، فلا عِلْم لنا بها، فنزل قوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ ﴾ وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إن للفتية منذ دخلوا الكهف إلى يومنا هذا ثلاثمائة وتسع سنين، فرد الله عليهم، وقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ ﴾ بعد أن قبض أرواحهم إلى يومكم هذا، لا يعلم ذلك غيرُ الله)[1]، وقال الطبري: (لله علم غيب السماوات والأرض، لا يعزب عنه علم شيء، يقول: فسلموا له علم مبلغ ما لبثت الفتية في الكهف إلى يومكم هذا، فإن ذلك لا يعلمه سوى الذي يعلم غيب السماوات والأرض، وليس ذلك إلا الله الواحد القهار)[2]، قال البغوي: (فالغيب ما يغيب عن إدراك، والله ﷻ لا يغيب عن إدراكه شيء)[3].

وقوله: ﴿ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ ﴾

قال ابن كثير: (أي: إنه لبصير بهم سميع لهم. قال ابن جرير: وذلك في معنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢١٧ بتصرف يسير.
(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦٥٠ بتصرف يسير.
(٣) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٦٥.

أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء. ثم روى عن قتادة في قوله: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع. وقال ابن زيد: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ يرى أعمالهم، ويسمع ذلك منهم سميعًا بصيرًا)(١)، ولا شك أن الله متصف بالسمع والبصر ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى]، ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله، سميع لكل خلقه على اختلاف أصواتهم وتباين لغاتهم، لا يشغله شيء عن شيء، وهو جل وعلا يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ويرى مكانها، ولا يخفى عليه من عباده شيء في الأرض ولا في السماء.

وذكر ابن الجوزي أن لهذه العبارة وجهين، الأول وهو ما سبق، قال: (والثاني: أنه في معنى الأمر، فالمعنى: أَبصِر بِدِين الله وأَسمِع، أي: بصّر بهدى الله وسمِّع، فترجع الهاء إما على الهدى، وإما على الله ﷻ، ذكره ابن الأنباري)(٢)، وهو معنى تدبري لطيف، ولا تعارض بين المعنيين.

وقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ﴾

قال ابن الجوزي: (أي: ليس لأهل السموات والأرض من دون الله من ناصر)(٣)، وتفسير الولي بالناصر يحتمل معنيين: الأول: أنه لا ناصر للعباد على الله، والثاني: أنه لا ناصر للعباد على غيرهم من الخلق إلا الله. وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: (يعني ليس لأحد ولي من دون الله، حتى

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥١.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢١٧.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢١٧.

الكفار؛ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾ [الأنعام]، ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢]. والله ولي كُلِّ أحد، وهي الولاية العامة. أليس الله يرزق الكافرين وينمي أجسامهم وييسر لهم ما في السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر والنجوم والأمطار؟! هذه ولاية، ويتولى المؤمنين أيضاً بذلك؛ لكن هذه ولاية عامة.

أما الولاية الخاصة فللمؤمنين؛ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وهي تستلزم عناية خاصة، بأن يسدد العبد فيفتح له أبواب العلم النافع والعمل الصالح، ولهذا قال: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾. يخرجهم بالعلم أولاً ويخرجهم ثانياً بالتوفيق)[1].

وقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾

قال الطبري: (يقول: ولا يجعل الله في قضائه وحكمه في خلقه أحدا سواه شريكا، بل هو المنفرد بالحكم، وتدبيرهم وتصريفهم فيما شاء وأحبّ)[2]، وقال ابن الجوزي: (ولا يجوز أن يحكم حاكم بغير ما حكم به، وليس لأحد أن يحكم من ذات نفسه فيكون شريكاً لله عَجَّلَ في حكمه. وقرأ ابن عامر: «ولا تُشرِكْ» جزماً بالتاء، والمعنى: لا تشرك أيها الإِنسان)[3].

(١) تفسير القرآن للعثيمين ٦/ ٤١ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦٥٠.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢١٧.

وقفات مع الآية الكريمة

أولاً- خوارق العادات: وهي ما يحصل بخلاف العادة، ولا شك أن قصة الفتية منها، فأن يبقى الإنسان نائماً ثلاثمائة سنة وهو مفتوح العينين، لا يأكل ولا يشرب، ولا يهرم ولا تبلى ثيابه، إلى غير ذلك من عجائب مكثهم في الكهف، هذا كله من خوارق العادة.

والخوارق تقع للأنبياء قبل بعثتهم، كشق صدر النبي ﷺ، وتسليم الحجر عليه باسمه في مكة، وتقع بعد البعثة وتكون معجزات دالة على صدق نبوتهم، كحنين الجذع إليه وتفجر الماء من بين يديه الشريفتين ﷺ، وكانشقاق القمر، وكإحياء عيسى الموتى وشفاء المرضى، وكعصا موسى والآيات التسع التي جاء بها. وهناك خوارق تقع للصالحين فهذه كرامات، وهي كثيرة في الأمة بدءاً من عصر الصحابة ﵃، إلى اليوم.

وهناك خوارق عادات تقع للكفار والزنادقة وهي أحوال شيطانية لا رحمانية، كالتي تجري على أيدي بعض السحرة والدجالين، وأشد هؤلاء وأعظمهم خوارقَ هو الدجال، وقد مر معنا شيء من خوارقه.

ولسائل أن يسأل كيف التفرقة بين الكرامة وبين الأحوال الشيطانية التي قد تكون فتنة لكثير من الناس فيتبعون هؤلاء الدجالين؟

والجواب: نفرق بينهما كما فرقنا بين مسجد أسس على التقوى ومسجد الضرار، فالفرق أن الأول أقامه النبي ﷺ وصحابته على تقوى من الله ورضوان، والثاني أسسه عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق وأصحابه، تفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله. فإن وقع

الخارق على يد رجل صالح مشهود له بالتقوى ولم ينتقد في دينه فهذه كرامة، وإن وقع للسحرة والدجالين ومنحرفي العقيدة فهذه فتنة وبلاء واستدراج.

ثانياً- الهداية والتغيير يحتاجان لطول نفس: فارق الفتية ديارهم وأهليهم وتركوا قومهم على ملة الكفر، ومرت عليهم في الكهف قرون أفاقوا بعدها ليجدوا الأرض غير الأرض والناس غير الناس، فقد زالت دولة الكفر وأشرقت شمس الإيمان، فسبحان مغير الأحوال!

وفي هذا درس بليغ لأصحاب الدعوات، فالأمور بيد الله، وهو قادر على تصريفها كيف يشاء، وقادر على أن يبدل الأحوال ويجعل الناس يستجيبون للدعوة ويؤمنوا بمثل ما خيل لأصحاب الفتية أنه حصل في يوم أو بعض يوم، بل بقوله تعالى: (كن)، كما قال ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:٩٩]، لكن الله سبحانه ذكر أن هداية قوم الفتية حصلت في قرون، وفي هذا لفتة إلى حاجة التغيير لطول نفس، فنوح عليه السلام بقي في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم على أرجح الأقوال، ونبينا ﷺ ظل يدعو قومه وسائر العرب وملوك الأرض ثلاثا وعشرين سنة حتى أتاه اليقين، ولم يستجب له عامة قومه إلا بعد الفتح قبل موته بقليل.

ففي قصة أصحاب الكهف، تسلية لأهل الدعوة الذين يحملون همها، أن يتحلوا بطول النفَس ويجعلوا زادهم يقينهم أن العاقبة للتقوى، وأن الله تعالى ناصر دينه، وأن دعوة الكفر والضلال مهما انتفشت فمصيرها أن تهوي يوما ويعلو الحق الذي له النصر والغلبة، قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات].

ثالثاً- علم الغيب: اختص الله تعالى به ولم يطلع أحداً عليه؛ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا ما استثناه بقوله: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن]، وليس هذا للجن الذين قال فيهم: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ]. فعجباً لمن يسمع كلام الله أنه قد استأثر بعلم الغيب ثم يأتي أقواماً يزعمون ذلك، وأعجب منه أن يسمع حديث "إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم"(١)، فلا يدرك علة مصادفتهم للصواب، متناسياً كثرة ما يكذبون ويخبرون بغير الصواب، وأعجب منه أن يسمع "من أتى كاهناً، أو عرافاً، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد"(٢)، ثم لا ينزجر ولا يرعوي!

رابعاً- حكم الله: هو حكمان؛ قدري كوني، وهو ما يقدره على الخلائق ويقضيه، فلا شريك له فيه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل. وحكم شرعي، شرعه لخلقه على ألسنة رسله وفي كتبه، ولا يشركه فيها أحد أيضا.

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١١٧٥ (٣٠٣٨).
(٢) مسند أحمد ١٥/ ٣٣١ (٩٥٣٦).

وفي هذه الآية دليل على وجوب تحكيم شرع الله ﷻ، وأن الحكم لا يكون إلا له، وأن من يحكم بغيره يكون منازعاً له في الحكم، قال: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ [الأنعام: ٥٧]، [يوسف: ٦٧]، فالحكم من الدين بدليل قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [يوسف]، وسمى الحكم ديناً في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦].

ولا شك أن من حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر، لأنه ينازع الله سبحانه في ملكه وفي خصائصه، وأيضاً لقوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة]، هذا هو الحكم العام، وقد يتخلف لعارض، كالإكراه والجهل والتأول، إلى غير ذلك. فهذا النجاشي رحمه الله، كان ملكاً على الحبشة، ومع إسلامه لم يستطع أن يطبق شرع الله، ومع ذلك صلى عليه النبي ﷺ، وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل-١٠٦]، يقول ابن كثير: (روى العوفي عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً وجاء معتذراً)[1]، وقد قال رسول الله ﷺ: "لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٦٠٥.

رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ"(١)، فلم يكفر بهذه الكلمة التي لو قالها عامداً لكفر.

والأدلة في هذا كثيرة فلا ينبغي التسرع بالتكفير، والتفريق بين كفر النوع وكفر المعين، فنحكم على الفعل بالكفر لكن لا نحكم على من لابسه إلا بتوفر الشروط وانتفاء الموانع، والحكم بالكفر لا يكون إلا للقاضي وللعلماء الراسخين، أما أن يتصدى الآحاد فهذا باب شر عظيم، جر على أمتنا منذ ظهر الخوارج في عهد علي ﷺ إلى اليوم ويلات وويلات. والمرء لا بد أن يحتاط لدينه ويحذر من وعيد رسول الله ﷺ: "أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ"(٢).

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢١٠٤ (٢٧٤٧).

(٢) صحيح البخاري ٨/ ٢٦ (٦١٠٤)، صحيح مسلم ١/ ٧٩ (٦٠)، واللفظ له.

وقفة مع رعاية الله تعالى للفتية ونصرهم

أولاً- أنواع النصر:

نصرُ الله سبحانه للعباد نوعان: حسي ومعنوي، أما الحسي فهو الغلبة بالأبدان والسلاح والجيوش، وهذا نوعان:

أولهما: عام أجراه على السنن الكونية، فيتحقق إن تحققت ويتخلف إن تخلفت، فهذا يكون للمؤمنين وللكافرين، بل قد يكون للكافرين على المؤمنين إن فرطوا، عقوبة على معصيتهم، والتفريط في الشرع أوسع مما يظن بعض الناس، فضعف الإعداد وترك بعض الأسباب المادية تفريط كما قال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ [النساء]، قال ابن كثير: (يأمر الله عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعُدَد وتكثير العَدد بالنفير في سبيله)[1].

وثانيهما: خاص بالمؤمنين إن استقاموا على الشرع، فهنا ينصرهم الله ولا ينصر عليهم وإن تخلفت بعض الأسباب لعذر، شريطة أن يبذلوا ما بوسعهم لتحصيل أسباب النصر، بإعداد ما في الوسع من أسباب القوة المادية، وبحسن التوكل، قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران]، ومن طالع التاريخ عبر

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٥٧.

العصور وجد مصداق ذلك في المعارك التي خاضها المسلمون مع عدوهم.

وأما النصر المعنوي فهو الظهور بالحجة والبرهان، ولا يكون إلا للحق وأهله، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ [الشورى]، وقال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء].

فإذا علم الإنسان ذلك وفرق بين النصرين حق التفريق لم يشكل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر]، مع ما هو معلوم من قتل الكفار لبعض الأنبياء كما فعلت بنو إسرائيل، وقتل بعض المؤمنين، بل فناء أمة كاملة كما في قصة أصحاب الأخدود. ومع أنه لم يبق منهم أحد لا رجل ولا امرأة ولا كبير ولا صغير؛ لأنهم أحرقوا بالنار عن بكرة أبيهم، إلا أنها نار الدنيا التي عوضهم ربنا جل وعلا عنها بجنات تجري من تحتها الأنهار، ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ [البروج]، الفوز بالنعيم والنجاة من العذاب، وهو ثمرة الثبات وحقيقة النصر.

فنصر المؤمنين في الدنيا إن أريد به الحسي فهو لبعضهم، وأما المعنوي فهو للجميع، ولهذا قال أبو العالية: ذلك في الحجة، يفتح الله حجتهم في الدنيا[1]، وقال ابن عباس: بالغلبة والقهر. وقال الضحاك: بالحجة، وفي الآخرة بالعذر. وقيل: بالانتقام من الأعداء في الدنيا والآخرة، وكل ذلك

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٧/ ٢٩٢.

قد كان للأنبياء والمؤمنين، فهم منصورون بالحجة على من خالفهم، وقد نصرهم الله بإهلاك أعدائهم، ونصرهم بعد أن قتلوا بالانتقام من أعدائهم[1].

ومن تأمل قصة أصحاب الكهف وجد أن الله نصرهم على عدوهم بأنْ حال بينه وبينهم فلم يؤذهم، وأهلكه وأنشأ بعده قرناً مؤمنين، وحفظ لهم دينهم وهذا من أعظم النصر كما قيل أعظم كرامة الثبات على الاستقامة، فلم يضرهم أنهم خرجوا فارين، ولم ينتقص من نصرهم أن أحداً من قومهم لم يتبعهم، فليس النصر بكثرة الأتباع لكنه بصدق الإيمان وحُسن الاتباع.

ثانياً - أسباب نصرة الفتية ورعايتهم:

هناك عدد من الأسباب المعنوية والمادية التي نال الفتية بها رعاية الله ونصره وتوفيقه، فينبغي للمؤمنين عامة ولشباب الأمة خاصة أن يتأملوا في هذه الأسباب ويتدارسوها ويسعوا لتحصيلها، وهذه الأسباب هي:

١- **التوحيد**: فمن فضل التوحيد أن الله يدفع به النقم ويجلب به النعم، فإنهم لما وقفوا يعلنون التوحيد نصرهم الله ﷻ فربط على قلوبهم وزادهم هدى وهداهم الصراط المستقيم الموصل إلى رحمته في الآخرة وهداهم إلى الكهف الذي يأويهم ويحفظهم فيه من عدوهم وعدوه.

ومثل هذا حال إبراهيم عليه السلام الذي حقق توحيد الله ﷻ وخاصم قومه فيه فكان جزاؤه الحسن في الدنيا والأخرى، قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت].

(١) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٧/ ١٥٢.

فلا بد من تجريد التوحيد وصدق التوجه له تعالى، والتبري من كل حول وقوة سوى حوله وقوته، مع حسن التوكل عليه جل وعلا.

٢- **الحرص على الرفقة الصالحة:** فإن هؤلاء الفتية لما عرفوا الطريق إلى الله ﷻ اجتمعوا عليه، ولا يخفى ما للرفقة الصالحة من أثر حسن على المرء، فإن الصاحب ساحب كما يقولون، والمرء على دين خليله، فالصاحب الصالح يذكر صاحبه إن نسي، ويعينه إن ذكر، وينصحه إن أخطأ، ولهذا قال العالم لمن قتل مائة نفس وأراد أن يتوب: "انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء"(١).

٣- **الثبات:** فهؤلاء الفتية لم يتراجعوا عن عقيدتهم مع ما أحاط بهم من مخاوف ألجأتهم للهرب والاعتزال، لكنهم ثبتوا في وجه الطاغية، وهو درس كبير للمتلونين والمتحولين ممن يبيعون دينهم بعرض من الدنيا قليل.

٤- **الهجرة أو الاعتزال:** وقد أوضحت كثير من الآيات أن الهجرة في سبيل الله من أسباب الرزق والنصر والرحمة؛ كقوله: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٠٠﴾ [النساء]، وفي إبراهيم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ٤٨ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ٤٩ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ٥٠﴾ [مريم]. فربط الله بين إنعامه على إبراهيم عليه السلام بالذرية الصالحة والرحمة ولسان الصدق وبين اعتزاله للشرك والمشركين.

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٢٨٠ (٣٢٨٣)، صحيح مسلم ٤/ ٢١١٨ (٢٧٦٦)، واللفظ له.

٥- **حسن الظن بالله:** هؤلاء الفتية قالوا: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف]، والظاهر أن الكهف ليس فيه أسباب الرحمة المادية، من طيب العيش وهناءته، لكنهم أحسنوا الظن بالله وجزموا بذلك فلم يقولوا: عسى أو لعل، فكان الله تعالى عند ظنهم، قال الله تعالى في الحديث القدسي: "أنا عند ظن عبدي بي"(١).

٦- **الدعاء:** هؤلاء الفتية دعوا الله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف]، فاستجاب لهم كما وعد عباده الصالحين: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال النبي ﷺ: "إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرا"(٢).

٧- **أن أمرهم كان شورى بينهم:** قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٦]، فلم يكن قرار الذهاب للكهف فرديا، بل نسب إلى الجميع لأنه خرج بعد تشاور، والله يحب الشورى ولذا أمر بها، فلما طبقها الفتية كان ذلك من أسباب توفيق الله تعالى لهم، وكما قيل ما ندم من استخار ولا خاب من استشار، فالعاقل لا يستبد برأيه دون رأي المجموع، بل يستمع للمشورة ويعمل بها ما دامت صالحة.

ومما ينبغي التنبه له أن طلب المشورة يكون قبل الفعل لا بعده، فكثير من الناس لا يستشير ثم إذا وقع في مشكلة جاء يستشير، وصدق بعض المشايخ حيث قال: إن هذا الآن لا يستشير، لكنه يستنجد ويستجير.

٨- **اجتماع الكلمة:** وهذا ظاهر من أول القصة لآخرها، إذ الكلام عن جماعة واحدة لا يفرق بينها اختلاف، كاختلافهم في مدة لبثهم، فمثل

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٩٤ (٦٩٧٠)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٦١ (٢٦٥٧).

(٢) سنن أبي داود ١/ ٤٦٨ (١٤٨٨)، وصححه الألباني.

ذلك من الخلاف السائغ لا يؤثر في وحدة المنهج، فليت شبابنا يعون هذا ويفرقون به بين السائغ وغيره، ثم يدركون أنه حتى غير سائغ ليس على درجة واحدة، فمنه ما يغتفر ومنه لا؛ أما التعصب في مسائل خلافية أو في فروع لها وجه، فهذا نذير شر، نسأل الله العافية.

٩- **الأخذ بالأسباب:** فإنهم لم يخرجوا عياناً ليراهم أعداؤهم فينقضوا عليهم وإنما خرجوا متخفين ليلاً على قول بعض أهل العلم[1]، وحملوا معهم ورِقاً يقضون به حوائجهم في عزلتهم، وكانوا أعدوا لهذا اليوم ولهذا وقع اختيارهم على هذا الكهف بعينه كما رجحنا، ثم أخيراً طلبوا الطعام خفية كي لا يشعر بهم عدوهم، والأخذ بالأسباب المادية من التوفيق الإلهي، قال تعالى في ذي القرنين: (فأتبع سببا)، والسيرة النبوية مليئة بذلك.

١٠- **اتخاذ القرار العاقل:** قد يرى بعض الشباب في قرار الفتية اعتزال قومهم هرباً وجبناً، و هو في الحقيقة قرار صائب أقره الله، لأنهم اتخذوا قرارهم بالعقل لا بالعاطفة التي تحرك بعض شبابنا، وتجعلهم يحكمون على الدعاة بل على كبار المشايخ، بالانهزامية والتفريط، ثم تمر عليهم السنون فيندمون، ويقولون ليت وليت، وتكون البصرة قد ضاعت.

---

(١) راجع تفسير القرطبي ١٠/ ٣١٢.

الفتنة في الدِّين من خلال قصَّة أصحاب الكهف

الفتنة والاختبار من تبعات الإيمان، فمن ادعى الإيمان ابتلاه ليتبين صدقه: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت] قال الطبري: "معناه: أظنَّ الذين خرجوا يا محمد من أصحابك من أذى المشركين، أن نتركهم بغير اختبار ولا ابتلاءٍ، بأن قالوا: آمنا بك فصدَّقناك فيما جئتنا به من عند الله، كلا لنختبرهم، ليتبيَّن الصادق منهم من الكاذب"(١)، وسبق معنا أن سورة الكهف تعرضت لأهم الفتن في حياة الناس؛ فتنة الدين والمال والعلم والسلطان. والقرآن حافلٌ بنماذج البلاء والفتنة في الدّين وبالتحذير من عاقبة الفتنة، كأصحاب العجل في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥﴾ [طه]، والتّرغيب والحثّ على اتّباع سبيل المؤمنين الّذين ثبتوا في الفتنة، كما في قصّة أصحاب الأخدود: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾ [البروج].

ومن تلك النّماذج، أصحاب الكهف الّذي نقف وقفة متأمّلة، فهو نموذجٌ مبهر (للإيمان في النفوس المؤمنة، كيف تطمئنُّ به، وتؤثره على زينة الأرض ومتاعها، وتلجأ إلى الكهف حين يعزُّ عليها أن تعيشَ به مع النَّاس، وكيف يرعى اللهُ هذه النفوس المؤمنة، ويقيها الفتنة، ويشملَها بالرحمة)(٢).

---

(١) تفسير الطبري: ١٩/ ٧ بتصرف واختصار.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٥٤.

هم فتية كما تقدم، والفتى بطبعه يألف اللهو والباطل، مما قد يدفعه لعدم العناية بما يخالف شهوات القلب وحظوظ النفس، وفي الحديث: "إِنَّ اللهَ لَيَعْجَبُ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ"(١)، ولهذا استحق من يحافظ على دينه في الشباب أن يكون فيمن يظلهم الله، قال ﷺ: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ..."(٢)، فلما كانوا فتية ولم يصرفهم ذلك عن المعالي استحقوا التنويه، واستحقوا الثناء عليهم بالجمع بين هذا الوصف وتحقق الإيمان وزيادة الهدى.

وما أحرانا أن نقف ملياً عند هذا الحدث الإيماني الكبير، لنتساءل عن الأسباب التي أعانتهم على الثّبات عند الفتنة، عسى أن نأخذ العبرة:

أولاً: السّبب الأساسيُّ لثبات الفتية في الفتنة: يتمثل في قوله سبحانه: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ آمنوا إيماناً خالصاً، فزادهم الله إيماناً، ولذا عندما حضرتهم الفتنة ربط الله على قلوبهم بنور الإيمان، يقول ابن جرير الطبري في قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: (يقول عز ذكره: وألهمناهم الصبر، وشددنا قلوبهم بنور الإيمان حتى عزفت أنفسُهم عما كانوا عليه من خفض العيش)(٣).

إذن: نورُ الإيمان في القلب، هو السبب الأساسيُّ للثبات عند الفتنة، ويؤيّدُه قول الرسول ﷺ، في الحديث الشريف: "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَض

(١) مسند أحمد ٢٨/ ٦٠٠ (١٧٣٧٠)، قال الأرناؤوط: حسن لغيره.
(٢) صحيح البخاري ١/ ١٣٣ (٦٦٠)، صحيح مسلم ٢/ ٧١٥ (١٠٣١).
(٣) تفسير الطبري: ١٧/ ٦١٥.

مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ"[1].

يقول ابن القيم: (فشبَّه عرضَ الفتن على القلوب شيئاً فشيئاً، كعرض عيدان الحصير شيئاً فشيئاً، وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين:

قلبٍ إذا عُرضت عليه فتنة أشربها كما يشرب السفنج الماء، فتنكت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يشرب كل فتنة تُعرض عليه حتى يسودَّ وينتكسَ وقلبٍ أبيض قد أشرق فيه نورُ الإيمان وأزهرَ فيه مصباحُه، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردَّها فازداد نوره وإشراقه وقوته. والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات والشبهات، فتن الغي والضلال، فتن المعاصي والبدع، فتن الظلم والجهل، فالأولى توجبُ فساد القصد والإرادة، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد)[2].

قَالَ الْقَاضِي عِيَاض رحمه الله: (لَيْسَ تَشْبِيهُه بِالصَّفَا بَيَانًا لِبَيَاضِهِ، لَكِنْ صِفَة أُخْرَى لِشِدَّتِهِ عَلَى عَقْد الْإِيمَان وَسَلَامَته مِنْ الْخَلَل، وَأَنَّ الْفِتَن لَمْ تَلْصَق بِهِ، وَلَمْ تُؤَثِّر فِيهِ كَالصَّفَا، وَهُوَ الْحَجَر الْأَمْلَس الَّذِي لَا يَعْلَق بِهِ شَيْء)[3].

وَقَالَ صَاحِب التَّحْرِير: الْمَعْنَى أَنَّ الرَّجُل إِذَا تَبِعَ هَوَاهُ وَارْتَكَبَ الْمَعَاصِي دَخَلَ قَلْبه بِكُلِّ مَعْصِيَة ظُلْمَة، وَإِذَا صَارَ كَذَلِكَ افْتُتِنَ وَزَالَ عَنْهُ

---

(١) صحيح مسلم ١/ ١٢٨ (١٤٤).
(٢) إغاثة اللهفان: ١/ ١٢ بتصرف يسير.
(٣) شرح النووي على مسلم: ١/ ٢٦٨.

نُور الْإِسْلَام، وَالْقَلْب كالْكُوز فَإِذَا اِنْكَبَّ اِنْصَبَّ مَا فِيهِ وَلَمْ يَدْخُلهُ شَيْء بَعْد[1].

إن الذي يتأمل الآيات يجد أنهم لم يفعلوا شيئاً يوجب لهم وصف الإيمان المؤكد وزيادة الهدى سوى أنهم:

١ - صححوا توحيدهم ونطقوا بالحق والتزموه: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾، فوحدوه بأفعاله وأنه هو ربهم وخالقهم ورب السموات والأرض وخالقها، ثم وحدوه بأفعالهم بإفراده بالعبادة التي لا يستحقها غيره، فانطلقوا من توحيد الربوبية إلى توحيد الألوهية.

٢ - تبرؤوا من باطل قومهم وأنكروه: ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾، وأنى لهم ذلك وآلهتهم بعد السماء والأرض فكيف تخلقها؟ وبذلك لفتوا أنظارهم إلى أن خالقهم وخالق آلهتم هو خالق السموات والأرض وحده.

٣- أعلنوا معتقدهم ودعوا قومهم، وهو أحد المعاني في تفسير قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾، وهذا ما أوجب قولهم: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

٤ - اعتزلوا قومهم وفاصلوهم لمَّا لم تكن لهم عليهم قوة، ولم تكن لهم قدرة على البقاء معهم مظهرين لدينهم، ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾.

---

(١) شرح النووي على مسلم:١/ ٢٦٨ بتصرف واختصار.

فسبحان من يقبل القليل ويعطي عليه الكثير؛ عملوا قليلا ثم رقدوا طويلا، فأثبت لهم الإيمان، وجعلهم مثلاً، وخلد ذكرهم أبداً.

وهكذا ينبغي أن يكون المسلم، فإن هو صحح معتقده، ونطق بالحق، ودعا إليه، فليس عليه بعد ذلك أن يحمِّل نفسه ما لا يطيق، فإن قوتل أو أوذي ولم يمكنه القيام بشعائر دينه ولا يقدر على القتال، اعتزل أو هاجر، فهذا ما يجب عليه، ويكون له من وصف الإيمان والهدى نصيب بحسبه.

أما إن حمَّل نفسه فوق طاقتها وألقى بها في الردى، وكان في ذلك مصلحة ظاهرة فقد أخذ بالعزيمة، وللمرء أن يأخذ بها كما فعل الغلام صاحب الكاهن، وكما فعل أصحاب الأخدود من بعده، ولكن ليس له أن يحمِل الناس على ذلك، ولا أن يجرَّ عليهم ما رضيه من البلاء؛ أما إذا لم يكن في ذلك مصلحة فليس له أن يتكلفها أو يكلفها غيره، وحسبه أن ينأى بنفسه ويعتزل ذلك العمل الذي قد يجر عليه من الفتن ما لا يطيق.

إن الإشكال في واقع الناس اليوم وعند كثير من فضلاء البشر إنما هو في الموازنة بين المصالح والمفاسد المتداخلة كثيرا، ولئن كان بعضها محل اجتهاد ونظر، بحيث لا يُثرَّب على من اجتهد، إلا أن كثيراً من صالحي الأمة اليوم يكلف نفسه ما ليس في وسعها، ويجر بذلك على الأمة عنتاً، فمثل هؤلاء ما أحسنوا صنعاً، بل أساؤوا من حيث أرادوا الإحسان، ذلك أنهم إما أن تتيسر لهم سبل الدعوة والجهاد بالقرآن، فذلك الواجب حينها كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢ ﴾ [الفرقان]، وإما أن لا يتيسر لهم ذلك، فلا مناص حينها من الهجرة أو العزلة، حتى ينشر الله لأهل الحق من رحمته ما شاء ويهيئ لهم من أمرهم مرفقاً.

ومهما كان من أمر، فإن اجتهاد الناس في هذه المواقف مهما اختلف لا ينبغي أن يكون مجالا للتنازل عن الثوابت وترك الدين أو التفريط فيه.

ثانيا: العلم الصّحيح الثّابت أو الاعتصام بالكتاب والسنة: هذا هو السبب الثاني من أسباب الثبات عند الفتن، ويدلُّ عليه قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾. قال الشوكاني: (أي هلا يأتون بحجة ظاهرة تصلح للتمسك بها)[١]، قال صاحب الظلال: (فهذا هو طريقُ الاعتقاد: أن يكونَ للإنسان دليلٌ يستندُ إليه، وبرهانٌ له سلطان، وإلا فهو الكذب الشَّنيع، لأنه الكذبُ على الله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾)[٢]، ويدلّ على ذلك قوله ﷺ: "إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي"[٣]، ومن علمهم الراسخ ترك الخوض في المشتبهات ورد علمها إلى الله، وتأمل قول الله تعالى بعد بعثهم: ﴿قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم﴾ الآية.

قال ابن تيمية رحمه الله: (مسائل النزاع التي تنازع فيها الأمة في الأصول والفروع إذا لم ترد إلى الله والرسول لم يتبين فيها الحق، بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم، فإن رحمهم الله أقر بعضهم بعضا ولم يبغ بعضهم على بعض، كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان بعضهم بعضا ولا يعتدي عليه، وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم، فبغى بعضهم على بعض؛ إما بالقول مثل تكفيره وتفسيقه، وإما بالفعل مثل

---

(١) فتح القدير: ٣/ ٣٩٠.
(٢) الظلال ٤/ ٢٢٦٢ بتصرف يسير.
(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم ١/ ١٧٢.

حبسه وضربه وقتله. وهذه حال أهل البدع والظلم)[1]، فأي فتنة أعظم من هذه الفتنة؟!

ثالثاً: لزوم جماعة الحقِّ ولو كانت قليلة مستضعفة: قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾، والفتية جمع قلة لفتى، ومر معنا الدليل على أنهم كانوا سبعة، والفتى يكون اسماً وصفة، وهو في الأصل يقال للشاب الحدث الطري، وليس إطلاقه على سن معينة بل يمتد من أول طراوة الشباب إلى أن يقوى ويشتد الشباب فيبلغ مداه وذلك في نحو الثلاثة والثلاثين، وقد تزيد بحسب اختلاف الناس، فما بين ذلك سن الفتوة.

ولزوم الجماعة عند أصحاب الكهف تجاوز حد عدم الخروج عليها بالقول إلى الائتلاف والصحبة، والصحبة الصالحة لها أثرها العظيم، لأن السالك وحده قد يستوحش، وقد يكلُّ فينقطع، أما إذا كان معه آخرون، فإنه يأنس، وهم يشدون من أزر بعضهم إذا خار أحدهم، أو أدركه عارض من عوارض الفتور، ولهذا لمّا اعتزلوا اعتزلوا جماعة مع أن تفرقهم أدعى للحفاظ على بعضهم إن عثر على أحدهم، والناس تقول: لا تضع البيض كله في سلة واحدة، لكن كانت لهذا الاجتماع مصالحه فكان لابد منه.

إن القلة لا ينبغي أن تعوق أهل الحق عن نشره، ولا أن تصرفهم عن رسالتهم، فقد كان عدد الفتية قليلاً ولكنهم عزموا على المضي في الحق والدعوة إليه، ولو التفتوا إلى كثرة مخالفيهم وعلو شأنهم وتقدم سنهم؛ إذاً لارتدوا على أدبارهم، لكن التحقيق أن الحق لا يعرف بكثرة أو قلة، بل

---

(١) مجموع الفتاوى ١٧/ ٣١١ بتصرف يسير.

الكثرة أكثر ما تجيء في القرآن مذمومة، كما قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩﴾ [المائدة]، وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾ [يونس]، وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الروم]، وقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف]، وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾ [يوسف]، ومدح القلة في مواطن فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ]، وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ١٤﴾ [الواقعة].

قال ابن القيم رحمه الله: (ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثر الناس ناكبون عنه، مريدا لسلوك طريق مرافقه فيها في غاية القلة والعزة[1]، والنفوس مجبولة على وحشة التفرد، وعلى الأنس بالرفيق، نبه سبحانه على الرفيق في هذه الطريق وأنهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له، الذين أنعم عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه، فإنهم هم الأقلون قدرا وإن كانوا الأكثرين عددا، كما قال بعض السلف: عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين)[2].

---

(١) أي الندرة.
(٢) مدارج السالكين ١/ ٢١ بتصرف يسير.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: "قال رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن عنده: طوبى للغرباء. فقيل: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: أناس صالحون في أناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم"(١).

فإذا ظهر للمرء هذه الحقائق كان بما هو مقدم عليه أبصر ولما ينتظره من وحشة على الطريق أصبر، ثم ما هي إلا أيام قلائل، حتى يلقى من أنعم الله عليهم ويأنس بهم، ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء].

رابعاً: التوجّه إلى الله ﷻ بالدُّعاء وطلب التّثبيت: قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ وللدعاء أهمية عظيمة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر]، ومن أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، قال ابن القيم: (وهو من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن، وللدعاء مع البلاء ثلاث مقامات:

١ - أن يكون الدعاء أقوى من البلاء فيدفعه.

٢ - أن يكون أضعف فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد، ولكن يخففه وإن كان ضعيفاً. ٣ - أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه)(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عبادَ الله بالدعاء"(٣)، وعن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يردُّ القضاءَ إلا الدعاء، ولا يزيدُ في العُمرِ إلا البر"(١).

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢/ ١٧٧ (٦٦٥٠)، قال الأرناؤوط: حسن لغيره.

(٢) الجواب الكافي: ص ١٠ بتصرف يسير.

(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم ١/ ٦٧٠ (١٨١٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٣/ ١٥١ (٣٤٠٢).

خامساً: العمل، ومنه الفرار بالدِّين واعتزال أهل الباطل: يقول ابن كثير: (وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن، أن يفرَّ العبد خوفًا على دينه، كما جاء في الحديث: "يوشك أن يكون خيرُ مال أحدكم غنمًا يتبع بها شعف الجبال ومواقع القَطْر، يفر بدينه من الفتن"[٢] ففي هذه الحال تشرع العزلة، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع)[٣].

ويدلّ على ذلك من قصة أصحاب الكهف قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، قال ابن كثير: (أي: وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضًا بأبدانكم)[٤]. وقد نص في أول خبرهم على أنهم أووا إلى الكهف، فكان لهم مأوى من القوم الكافرين أن ينالوا من دينهم وإيمانهم. والإيواء أصل لغوي يتضمن معنى الجمع أو الإشفاق، وتأمل هذا المعنى في قول الله تعالى عن يوسف: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٦٩﴾، وهكذا هؤلاء أووا إلى الكهف، فنشر لهم ربهم من رحمته الواسعة ما شاء!

سادساً وأخيراً: حسن تقدير الأمور وترتيبها: مخطئ من ظن أن خروج هذه العصبة لم يسبقه أي ترتيب أو اتفاق منهم، وقد قص الله علينا نقاشهم فقال: ﴿إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٤٤٨ (٢١٣٩)، وحسنه الألباني.
(٢) صحيح البخاري ١/ ١٣ (١٩).
(٣) تفسير ابن كثير: ٥/ ١٤٢ بتصرف يسير.
(٤) السابق.

شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾، وهذا القيام ليس من رقدتهم، بل هو قيام إفاقة من الغفلة، وعلى غفلة قومهم، فهذا النقاش كان أولاً وفيه دلالات ظاهرة على حسن ترتيبهم، قال ابن كثير: (ذكر غير واحد من المفسرين أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يومًا في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع يجتمعون فيه في ظاهر البلد، ويعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار يقال له: دقيانوس، وكان يأمر الناس بذلك. فلما خرج الناس، وخرج هؤلاء الفتية مع قومهم، ونظروا بعين بصيرتهم، عرفوا أن السجود لأصنامهم، لا ينبغي إلا للذي خلق السموات والأرض. فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه، وينحاز منهم ويتبرز عنهم)(١)، إلى آخر الخبر وهو مشهور.

ومن جملة ترتيبهم تعيينهم الكهف بأل التعريف وهذا لا يكون غالباً إلا باتفاق طُوي ذكره، وإحضارهم كلب الحراسة، وإتيانهم بالرقيم وهو على أظهر الأقوال لوح كتبت فيه شؤون تخصهم، كما سبق؛ فالمقصود أنهم كانوا على صغرهم وقلتهم عقلاء يحسنون التدبير، ولهذا دلائل في أثناء القصة، كحوارهم بعد يقظتهم، وحرصهم على التلطف في طلب الطعام.

فكان ما ذكر من ترتيبهم من جملة أمور وفقهم الله بها إلى النجاة من الفتنة في الدين وتسلط الظالمين.

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤١ بتصرف واختصار.

قال تعالى: ﴿ وَاتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

لما اكتمل بيان قصة أصحاب الكهف بما حوته من دروس وعبر بقوله مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف]، انتقل لفقرة جديدة تابع فيها خطابه ﷺ موجهاً إياه لسلوك أقوم الطرق في الرد على تعنت الكافرين وتكذيبهم، وطلباتهم المتكررة لتعجيز النبي ﷺ، وصرفه عن الحق، فأمره أن يبلغ ما أوحي إليه من قصة أصحاب الكهف وغيرها، ومن الدعوة للتوحيد والنهي عن الشرك وغير ذلك؛ أمره أن يجهر به كله بين أظهر الكافرين ولا يلتفت إلى دعوتهم التبديل في قولهم: ﴿ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]، لأنه لا يقدر أحد على تبديل ما فيه سوى الله ﷻ، بل أن يقرأه عليهم ويداوم على تلاوته ويتبع ما جاءه فيه ويعمل به غير ملتفت لمن يطلب تبديله، لأنه إن لم يفعل لم يجد له من دون الله ملجأ. وأمره أن يلزم المؤمنين الذين يعبدون ربهم ليلاً ونهاراً

ابتغاء مرضاته، ولا يرغب عن مجالستهم رجاء إيمان أشراف الكفار، ونهاه عن طاعة الذين اتبعوا أهواءهم وغفلوا عن ذكر ربهم، ثم أمره أن يبين لهم أن ما جاءهم به حق وهو من خالقهم الذي لا ينفعه إيمانهم ولا يضره كفرهم، فمن آمن فلنفسه وله عند ربه نعيم مقيم، ومن كفر فعليها وله عند ربه عذاب أليم.

قوله: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾

مناسبة الآية لما قبلها:

ذكر العلماء رحمهم الله عدداً من مناسبات هذه الآية لما قبلها، قال البقاعي: (ولما تقرر أنه لا شك في قوله، ولا يقدر أحد أن يأتي بما يماثله - فكيف بما ينافيه!- مع كونه مختصاً بتمام العلم وشمول القدرة، حسن تعقيبه بقوله -عطفاً على ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ ﴾ -: ﴿ وَٱتْلُ ﴾ أي اقرأ على وجه الملازمة ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ وبنى للمجهول لأن الخطاب مع النبي ﷺ، وهو على القطع بأن الموحي إليه هو الله سبحانه ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ الذي أحسن تربيتك في قصة أهل الكهف وغيرها، على من رغب فيه -غير ملتفت إلى غيره واتبعوا ما فيه واثقين بوعده ووعيده وإثباته ونفيه- وعلى غيرهم)(١).

وقال الألوسي: (لما ذكر قصة أصحاب الكهف، وكانت من المغيبات ودل اشتمال القرآن عليها على أنه معجز من حيثية الاشتمال أمره جل شأنه بالمواظبة على درسه بقوله سبحانه: ﴿ وَٱتْلُ ﴾... وقيل: وجه الربط أنه سبحانه لما نهاه عن المراء المتعمق فيه وعن الاستفتاء، أمره سبحانه بأن يتلو ما أوحي إليه فكأنه قيل: اقرأ ما أوحي إليك من أمرهم واستغن به ولا

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٣٩ بتصرف يسير.

تتعرض لأكثر من ذلك، أو اتبع ذلك ولا تتعمق في جدالهم ولا تستفت أحداً منهم، فالكلام متعلق بما تقدم من النواهي)[١].

أما ابن عاشور فقد بين ذلك بقوله: (والمقصود الرد على المشركين، إذ كانوا أيامئذٍ لا يُبيّن لهم شيء إلا وانتقلوا إلى طلب آخر؛ فسألوا عن أهل الكهف وعن ذي القرنين، وطلبوا أن يجعل بعض القرآن للثناء عليهم، ونحو ذلك فلما وعدهم الجواب عن الروح وعن أهل الكهف وأبرَّ اللهُ وعدَه إياهم قطعاً لمعذرتهم ببيان إحدى المسألتين، ذيل ذلك بأن أمر نبيئه أن يقرأ القرآن كما أنزل عليه وأنه لا مبدِّل لكلمات الله، ولكي لا يُطمعهم الإجابة عن بعض ما سألوه، بالطمع في أن يجيبهم عن كل ما طلبوه)[٢].

وقال العلامة السعدي: (لما أخبر أنه تعالى له غيب السماوات والأرض، فليس لمخلوق إليها طريق، إلا التي يخبر بها عباده، وكان القرآن قد اشتمل على كثير من الغيوب، أمر تعالى بالإقبال عليه فقال: ﴿وَاتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ٢٧﴾)[٣].

فقوله: ﴿وَاتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾

قال ابن فارس رحمه الله: (التاء واللام والواو أصلٌ واحد، وهو الاتِّباع. يقال: تَلَوْتُه إذا تَبِعْتُه. ومنه تلاوةُ القُرآن، لأنّه يُتْبع آيةً بعد آية)[٤]، قال ابن

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٢٦ باختصار.

(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٢ باختصار.

(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥ باختصار.

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١/ ٣٥١.

الجوزي رحمه الله: (في هذه التلاوة قولان. أحدهما: أنها بمعنى القراءة. والثاني: بمعنى الاتِّباع. فالمعنى على الأول: اقرأ القرآن، وعلى الثاني: اتَّبِعْه واعمل به)[١]، وإلى كل من القولين ذهب بعض أهل العلم، قال ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بتلاوة كتابه وإبلاغه إلى الناس)[٢]، وقال السعدي رحمه الله: (أي: اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها، وتصديق أخباره، وامتثال أوامره ونواهيه)[٣]؛ والأمر بالتلاوة يشمل القراءة والبلاغ والامتثال؛ قال الشنقيطي رحمه الله: (والأمر في قوله "واتل" شامل للتلاوة بمعنى القراءة، والتلو: بمعنى الاتباع)[٤]، وقال الطبري رحمه الله: (واتبع يا محمد ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا، ولا تتركنّ تلاوته، واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه، والعمل بحلاله وحرامه)[٥]. وهذا الأمر يشمل كل ما أوحاه الله ﷻ لنبيه ﷺ في هذا الكتاب، قال ابن عاشور رحمه الله: (فالأمر في قوله: ﴿وَٱتۡلُ﴾ كناية عن الاستمرار. و ﴿مَآ أُوحِيَ﴾ مفيد للعموم، أي كل ما أوحي إليك. ومفهوم الموصول أن ما لم يوح إليه لا يتلوه، وهو ما اقترحوا أن يقوله في الثناء عليهم وإعطائهم شطراً من التصويب)[٦].

وأما قوله تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾

(١) زاد المسير ٤/ ٢١٨ باختصار.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥١ باختصار.
(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥.
(٤) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٠.
(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٦٥١.
(٦) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٢.

فقد اشتملت مع قصر العبارة على جليل المعاني؛ فمنها: أن أحداً من الخلق لا يقدر أن يغير شيئاً من هذا الكتاب لا بزيادة ولا بنقصان ولا بتحريف، قال ابن كثير رحمه الله: (أي: لا مغير لها ولا محرف ولا مؤوِّل)(١)، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر]، فكل من رام تغيير شيء منه ذهب سعيه أدراج الرياح وكان صبيان الكتاتيب - فضلاً عن غيرهم- له بالمرصاد؛ وأما من رام تبديل معانيه بالتأويل الباطل وتحريف الكلم عن مواضعه، فقد قيض الله ﷻ لهذا القرآن عبر القرون علماء ربانيين ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

ومنها: أن الله وحده يقدر على ذلك، قال الشنقيطي رحمه الله: (بين أنه لا مبدل لكلماته. أي لأن أخبارها صدق: وأحكامها عدل، فلا يقدر أحد أن يبدل صدقها كذباً، ولا أن يبدل عدلها جوراً. وهذا جاء مبيناً في مواضع أخر، كقوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١١٥ ﴾ [الأنعام]. فقوله: «صدقاً» يعني في الأخبار. وقوله «عدلاً» أي في الأحكام. وكقوله: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٤ ﴾ [الأنعام]. وقد بيَّن تعالى في مواضع أخر، أنه يبدل ما شاء من الآيات مكان ما شاء. كقوله: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ [النحل: ١٠١]. وقوله: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقوله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥١.

﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ﴾ [يونس: ١٥])(١).

وقد تمسك من ينكر وقوع النسخ بهذه الآية، ولا متمسك لهم لما سبق من الآيات الدالة على وقوعه، قال أبو حيان رحمه الله: (﴿لَا مُبَدِّلَ﴾ عام و﴿لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ عام أيضاً فالتخصيص إما في {لا مبدل} أي لا مبدل له سواه، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾، وإما في كلماته؛ أي لكلماته المتضمنة الخبر، لأن ما تضمن غير الخبر وقع النسخ في بعضه)(٢).

ومنها: أنه ببيان أنه لا مبدل لكلمات الله قطع آمالهم أن يستجاب لهم في تبديل وتغيير ما لا يوافق أهواءهم من الوحي، قال الزمخشري: (كانوا يقولون له: ائت بقرآن غير هذا أو بدله، فقيل له: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن ولا تسمع لما يهذون به، فلا مبدل لكلمات ربك، أي: لا يقدر أحد على تبديلها، غيره ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ [النحل: ١٠١])(٣).

أما قوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾

فالملتحد كما قال الطبري رحمه الله: (مفتعل من اللحد، يقال: لحدت إلى كذا إذا ملت إليه، ومنه: اللحد، لأنه في ناحية من القبر، وليس بالشق الذي في وسطه، ومنه الإلحاد في الدين، وهو المعاندة بالعدول والترك)(٤)،

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٠-٣٣١ باختصار.
(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٣٩.
(٣) الكشاف ٤/ ٨ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٦٥٢ بتصرف.

والمراد به في الآية كما قال مجاهد وقتادة: الملجأ[١]، وقال ابن عاشور: (وجاء بصيغة الافتعال لأن أصله تكلف الميل. ويفهم أنه مفر من مكروه يتكلف الخائف أن يأوي إليه، فلذلك كان بمعنى الملجأ. والمعنى: لن تجد شيئاً يُنجيك من عقابه. والمقصود من هذا تأييسهم مما طمعوا فيه)[٢]. يريد أنه عليه السلام لا يمكن أن يستجيب للكفار فيما طلبوه من تبديل هذا القرآن أو الإتيان بغيره.

---

(١) السابق ١٧/ ٦٥١.

(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٢ بتصرف.

ففروا إلى الله

الدنيا دار ابتلاء وامتحان، يبتلى فيها المرء بالسراء والضراء، يبتلى بالغنى والصحة والجاه، كما يبتلى بالفقر والمرض ورقة الحال، ولا تخلو حياة أي إنسان من الشدائد والمحن، سواء في دينه أو في دنياه.

وإذا كان الناس من قديم الزمان يلجؤون إلى الكهوف والغيران الحسية فراراً من عدو متربص أو هرباً من وحش كاسر أو ليقوا أنفسهم من حر الصيف أو برد الشتاء، فإن الله سبحانه قد جعل للمرء كهفاً معنوياً يأوي إليه ليقيه الفتن والمحن و يحميه من أعدائه الذين يقطعون طريقه إلى الجنة، ويسعون في خراب دينه ودنياه. هو كهف واحد، وما سواه مما قد يخيل للبعض أنه منجاة لا يعدو كونه سراباً. هذا الكهف هو التوحيد والإيمان والتقرب إلى الله بما يرضيه، فإن من أوى إلى الله أوى إلى ركن شديد. وقد بين سبحانه هذه الحقيقة أجلى بيان لمن تدبر قوله: {ولن تجد من دونه ملتحدا} ، وتأمل التقارب في المعنى بين الملتحد وهو الملجأ وبين الكهف، تجد رابطاً قوياً يدل أن المطلوب التبرؤ من الحول والقوة، ونبذ كل ما قد يظنه المرء من أسباب النجاة إن كان على غير مراد الله، لأن النجاة الأكيدة لا تكون إلا فيما شرع الله، مهما كان الثمن في سبيلها؛ قد يكون هذا الثمن الهجرة ومفارقة الخلان، قد يكون ترك الوظائف أو التضحية بالمال والجاه، قد يكون التعرض للأذى الحسي أو المعنوي، لكن من سار في هذا الطريق راضياً موقناً ملأ الله قلبه بالسكينة، كما فعل لأصحاب الكهف ونشر له من رحمته كما نشر لهم، وأبدله من بعد العسر يسراً.

إن كثيراً من أهل الابتلاء يعيشون عيشة راضية لا ينالها كثير من أهل العافية، فكم سمعنا عن أغنياء من أصحاب المناصب، أعطاهم الله الزوجات الحسان وطيب المعايش، ومع ذلك لا يشعرون بالسعادة، بل كثيراً ما يقدمون على الانتحار، وفي المقابل نجد أقواماً حالهم رقيقة وعندهم فقر ومرض، لكن السعادة تغمر قلوبهم. والسر في ذلك أنهم أنسوا بالله فأزال عنهم وحشة الطريق، وأولئك ركنوا إلى ما بين أيديهم من النعيم ونسوا الله فأنساهم أنفسهم. فواجب المؤمن أن يصوغ حياته وفق منهج الله، ويتعامل مع قدر الله الكوني بقدره الشرعي، فكل الفتن التي نراها من تبدل الأحوال وتغير المفاهيم، وسعي كثيرين للحصول على تنازلات من أهل العلم، بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى، كل هذا من قدر الله الكوني، ولا نجاة منه إلا بالقدر الشرعي؛ بالاعتصام بحبل الله والعمل بآياته والدعوة إليها مع صدق اللجوء والضراعة إليه سبحانه.

فوائد:

١- في هذه الآية تأكيد أن ما جاء في قصة أصحاب الكهف وحي من الله وأنه هو الحق فيما وقع فيها من خلاف، وهذا يتضمن صحة نبوة النبي ﷺ، وهو الأمر الذي أنكره المشركون وأرادوا بزعمهم التأكد منه بسؤالهم عن هذه القصة.

٢- في الأمر بتلاوة كتاب الله والعمل به في مواجهة المكذبين دليل على ما لهذا من أثر في تثبيت القلوب وتزكيتها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ١٧﴾ [محمد]، ولهذه التلاوة فوائد أخرى، قال الشنقيطي رحمه الله: (وقد بين في مواضع

أخر النتائج التي تحصل بسبب تلاوة القرآن واتباعه؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ [فاطر]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ [البقرة]، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)[1].

٣- وفيها دليل على أن القرآن كلام الله وأنه بحروف لقوله (لكلماته)، وهو مذهب أهل السنة خلافاً لمن زعم غير ذلك.

٤- فيها إرشاد للتأسي بالنبي ﷺ في تبليغ القرآن للناس مع العمل به ليوافق الخبر الخبر فتؤتي دعوتهم أكلها بإذن الله.

٥- في الآية رد على المبدلين لشرع الله إذ تتعالى أصواتهم في هذا الزمان؛ تارة بحجة الضغوط من دول الكفر، وتارة بزعم مصلحة الدعوة، وتارة بزعم الحرص على الوسطية، مع أن دين الإسلام هو الوسطية فأي تغيير فيه يخرج عنها، ففي الآية تحذير لهؤلاء وغيرهم إن فعلوا ذلك بأنهم لن يجدوا من عذاب الله ملجأ.

٦- في الآية تعظيم القرآن وتفخيم قدره، إذ لا يعلم كتاب حفظ من التبديل مع تطاول الزمان سوى كتاب الله، وفي هذا ترغيب في الإقبال عليه بالإيمان والقراءة والعمل.

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٠.

٧- في الآية حماية لجناب التوحيد؛ (فإذا تعين أنه وحده الملجأ في كل الأمور، تعين أن يكون المرغوب إليه، في السراء والضراء، المفتقر إليه في كل الأحوال، المسؤول في جميع المطالب)[1].

ثم قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾

سبب نزول الآية:

سبق الكلام على سبب نزولها وارتباطه بآية: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنعام]، فعن سعد ﷺ: "فيَّ نزلت ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ قال: نزلت في ستة أنا وابن مسعود منهم، وكان المشركون قالوا له: تدني هؤلاء!"[2]، وفي رواية قال: "كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترؤون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾"[3].

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥ بتصرف.
(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٨٧٨ (٢٤١٣).
(٣) السابق.

وقد اتفق المفسرون على أن هذا هو سبب النزول؛ إلا أنهم اختلفوا في تحديد أعيان من طلبوا ذلك؛ فقيل إنهم من كفار قريش، وذكروا منهم: أمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، ومطعم بن عديّ، والحارث بن نوفل، وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل، في أشراف من بني عبد مناف من الكفار؛ وقيل من المؤلفة قلوبهم، وذكروا منهم الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري، وأما الضعفاء من أصحاب النبي ﷺ فقد ذُكر في الروايات منهم: سلمان وبلال، وصهيب، وخباب، وسعد، وعمارُ بن ياسر، وسالم مولى أبي حذيفة، وصبيح مولى أسيد، ومن الحلفاء: ابن مسعود، والمقداد بن عمرو، وواقد بن عبد الله الحنظلي، وغيرهم رضي الله عنهم.

قال الطبري رحمه الله: أتى النبي ﷺ قوم من عظماء أهل الشرك، أو من عظماء قبائل العرب ممن لا بصيرة لهم بالإسلام، فرأوه جالساً مع خباب وصهيب وبلال، فسألوه أن يقيمهم عنه إذا حضروا، فهمّ رسول الله ﷺ، فأنزل عليه: {وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}، ثم كان يقوم ويتركهم قعوداً، فأنزل الله عليه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ الآيَةَ)[1]، وعن ابن زيد قال: (قال القوم للنبيّ ﷺ: إنا نستحيي أن نجالسهم، فجانبهم يا محمد، وجالس أشراف العرب، فنزل القرآن ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ الآية، ولا تحقرهم، قال: قد أمروني بذلك، قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[2].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/٦.

(٢) السابق بتصرف.

فلما كان النبي ﷺ شديد الحرص على هداية قومه، ويكاد لأسفه على كفرهم يهلك نفسه، ولما كان من طلباتهم طرد ضعفاء المسلمين وفقرائهم لأنفتهم من مجالستهم، مما قد يجعله يركن لطلبهم رجاء أن يؤمنوا، أمره جل وعلا ألا يلتفت لهم، وأن يحبس نفسه على أصحابه المؤمنين، ولا يستبدل بهم أحداً. وقد وقع منه عليه السلام مثل ذلك مع ابن أم مكتوم رضي الله عنه، لما أتاه وهو يدعو نفراً من أشراف قريش، فجاءه يسأله عن آية فأعرض عنه وعبس في وجهه وأقبل على القوم، فنزل قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [عبس].

وعلى كل حال، فهذا كله يدل على عظيم حرصه عليه السلام على إيمان القوم، لشدة أسفه على كفرهم وتكذيبهم حتى كاد الأسف يهلكه، ولأن إيمان السادة سبب لإيمان أتباعهم غالبا، وكفرهم يصد أتباعهم عن الإيمان، وهذا مشاهد عند الناس عبر الزمان حتى قالوا: الناس على دين ملوكهم، وقد قال عليه السلام لهرقل يوم دعاه: (فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين)[1].

فقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ قال ابن عاشور رحمه الله: (أي احبسها معهم حبس ملازمة. والصبر: الشد بالمكان بحيث لا يفارقه. ومنه سميت المَصْبورة وهي الدابة تشد لتُجعل غَرضاً للرمي)[2].

وقوله: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٧ (٧)، صحيح مسلم ٣/ ١٣٩٣ (١٧٧٣).
(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٣.

المراد بهم ابتداء أصحاب النبي ﷺ الضعفاء الفقراء كما وصفت الآية من ملازمة الدعاء وإرادة وجه الله، لأنهم هم من طلب المشركون طردهم، ولا يعني هذا أن الملازمين للعبادة من الأغنياء غير داخلين فيها، قال ابن كثير: (سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء)[1]. أما الدعاء المذكور فقد ذكر الطبري رحمه الله أقوال العلماء فيه، فقيل: المراد المكتوبة، وقيل: الصبح والعصر، وقيل: ذكر الله، وقيل: تعلم القرآن وتلاوته، وقيل: عبادة الله عز وجل، ثم قال: (الدعاء لله، يكون بذكره وتمجيده والثناء عليه قولاً وكلامًا، وقد يكون بالعمل له بالجوارح وقد يجوز أن يكون القوم كانوا جامعين هذه المعاني كلها، فوصفهم الله بذلك بأنهم يدعونه بالغداة والعشي، لأن الله سمى العبادةَ دعاءً، فقال: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر]. وقد يجوز أن يكون ذلك على خاصّ من الدعاء. ولا قول أولى بذلك من وصف القوم بما وصفهم الله به: من أنهم كانوا يدعون ربهم بالغداة والعشي، فيعمُّون بالصفة التي وصفهم بها، ولا يخصُّون منها بشيء دون شيء)[2]، وقال ابن عاشور: (والتعبير بالموصول للإيماء إلى تعليل الأمر بملازمتهم، أي لأنهم أحرياء بذلك لإقبالهم على الله فهم الأجدر بالمصاحبة)[3].

وقوله: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٢.

(٢) تفسير الطبري ١١/ ٣٨٧ بتصرف واختصار.

(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٠٥ باختصار.

قال الشنقيطي رحمه الله: (الغداة: أول النهار، والعشي: آخره)[١]، وقال الرازي: (في قوله: ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ وجوه: الأول: المراد كونهم مواظبين على هذا العمل في كل الأوقات، كقول القائل: ليس لفلان عمل بالغداة والعشي إلا شتم الناس. الثاني: أن المراد صلاة الفجر والعصر. الثالث: المراد أن الغداة هي الوقت الذي ينتقل الإنسان فيه من النوم إلى اليقظة، وهذا الانتقال شبيه بالانتقال من الموت إلى الحياة؛ والعشي هو الوقت الذي ينتقل الإنسان فيه من اليقظة إلى النوم، ومن الحياة إلى الموت، والإنسان العاقل يكون في هذين الوقتين كثير الذكر لله عظيم الشكر لآلاء الله ونعمائه)[٢]، وأولى الأقوال بالصواب الأول الدال على المواظبة، فهو المناسب لحالهم ويشمل القولين الآخرين، قال البقاعي: (وكنى عن المداومة بما يدل على البعث الذي كانت القصة دليلاً عليه فقال: ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ﴾ أي التي الانتقال فيها من النوم إلى اليقظة، كالانتقال من الموت إلى الحياة، ﴿وَٱلۡعَشِيِّ﴾ أي التي الانتقال فيها من اليقظة إلى النوم كالانتقال من الحياة إلى الموت)[٣].

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾

قال الطبري: (يلتمسون القربة إلى الله، والدنوّ من رضاه)[٤]، وقال الشنقيطي: (مخلصين له، لا يريدون بدعائهم إلا رضاه)[٥]، فلا يريدون

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٢.
(٢) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ١٩٧.
(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٠ بتصرف يسير.
(٤) تفسير الطبري ١١/ ٣٨٨ بتصرف يسير.
(٥) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٢ بتصرف يسير.

منافع دنيوية من منزلة بين الخلق أو مكانة عالية، ولا جاهاً ولا سلطاناً ولا شيئا من حطام الدنيا الفاني، فمرادهم الوحيد هو تحصيل مرضاة الله ﷻ.

قال ابن عثيمين رحمه الله: (وفي الآية إثبات الوجه لله، قال الله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن]. وقال النبي ﷺ: "أعوذ بوجهك"، وأجمع سلف الأمة وأئمتُها على ثبوت الوجه لله. ولكن هل يكون مماثلاً لأوجه المخلوقين؟ الجواب: لا يمكن أن يكون مماثلاً لأوجه المخلوقين لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى])[1].

وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾

قال الألوسي: (أي لا تصرف عيناك النظر عنهم إلى أبناء الدنيا، والمراد النهي عن احتقارهم لرثاثة حالهم إلى غيرهم)[2]، وقال ابن عاشور: (وظاهر ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ نَهي العينين أن تَعْدُوَا عنهم، أي تبعُدَا. والمقصود: الإعراض، ولذلك ضُمِّن فعل العَدْو معنى الإعراض، فعدي بـ(عن) وكان حقه أن يتعدى بنفسه يقال: عداه، إذا جاوزه. ومعنى نهي العينين نهي صاحبهما، أي: ولا تُعَدِّ عينيك عنهم. وهو إيجاز بديع)[3].

وقوله: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

قال ابن عاشور رحمه الله: (وهذا الكلام تعريض بحماقة سادة المشركين الذين جعلوا عنايتهم بالأمور الظاهرة، وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل، وجعلوا همّهم

---

(١) تفسير سورة الكهف بتصرف واختصار.
(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٣٤ بتصرف يسير.
(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٣ بتصرف واختصار.

الصور الظاهرة)(١). وأما زينة الحياة الدنيا فقال البغوي رحمه الله: (طلب مجالسة الأغنياء والأشراف وصحبة أهل الدنيا)(٢)، ولم يكن النبي ﷺ يطلب مجالستهم لينال مما في أيديهم -حاشاه- لكنه عليه السلام كان يرغب في مجالستهم أكثر من الضعفاء طمعاً في إيمانهم وأتباعهم، فسمى الله عز وجل ذلك من زينة الحياة الدنيا، قال ابن الجوزي رحمه الله: (وكان عليه السلام حريصاً على إيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم، ولم يكن مريداً لزينة الدنيا قطُّ، فأُمر أن يجعل إقباله على فقراء المؤمنين)(٣)، وذهب جمع من أهل العلم إلى غير ذلك، قال الطبري رحمه الله: (لا تعدُ عيناك ... إلى أشراف المشركين، تبغي بمجالستهم الشرف والفخر)(٤)، وقال الرازي رحمه الله: (والمقصود النهى أن يزدري فقراء المؤمنين وأن تنبو عيناه عنهم لأجل رغبته في مجالسة الأغنياء وحسن صورتهم، وقوله: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ نصب في موضع الحال. يعني إن فعلت لم يكن إقدامك عليه إلا لرغبتك في زينة الدنيا)(٥)، وهذا خطأ ظاهر، لأنه لا يليق بحال النبي ﷺ، وقد تواتر تباعده عن زينة الحياة الدنيا ومتاعها، وزهده فيما في أيدي الناس. أما القرطبي رحمه الله فقد نفى إرادة مجالسة القوم فقال: (أي تتزين بمجالسة هؤلاء الرؤساء الذين اقترحوا إبعاد الفقراء من مجلسك، ولم يرد النبي ﷺ أن يفعل، ولكن الله

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٣ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٦٦.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢١٨ بتصرف واختصار.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٦.

(٥) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ١٩٧ بتصرف واختصار.

نهاه، وليس هذا بأكثر من قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر] وإن كان الله أعاذه من الشرك)(١). والصواب ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله لموافقته سبب النزول من ميل النبي ﷺ وهمه من جهة، ولأنه اللائق بحاله من جهة أخرى.

قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ نهي من الله لنبيه عليه السلام أن ينقاد مع الكفار فيما يطلبونه، ويجوز أن يشمل طلبهم تبديل القرآن، وطرد ضعفة المؤمنين، وغير ذلك مما يخالف الوحي، وإن كان الثاني ألصق بالسياق. قال ابن عاشور رحمه الله: (والمراد بإغفال القلب جعله غافلاً عن الوحدانية حتى راج فيه الإشراك، فإن ذلك ناشئ عن عقول ضيقة التبصر مسوقة بالهوى. وأصل الإغفال: إيجاد الغفلة، وهي الذهول عن التذكر الشيء، وهي غفلة خاصة، مستفادة من جعل الإغفال من الله كناية عن كونه في خِلقة تلك القلوب، وما بالطبع لا يتخلف)(٢)، وقد قرئ: (من أغفلَنا قلبُه)، قال الألوسي: (هو على هذه القراءة من أغفلَه إذا وجده غافلاً، والمراد: ظنَّنا غافلين عن صنيعه بالمؤاخذة، بجعل ذكر الله كناية عن مجازاته)(٣).

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾

قال الطبري: (ترك اتباع أمر الله ونهيه، وآثر هوى نفسه)(٤)، وقال ابن الجوزي: (واتبع هواه في الشّرك)(٥)، وقال السعدي: (حيث ما اشتهت

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٣٩ بتصرف واختصار.
(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٤ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٣٧ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٨.
(٥) زاد المسير ٤/ ٢١٨.

نفسه فعله، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه، فهو قد اتخذ إلهه هواه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الآية)[١].

قوله : ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ قال قتادة ومجاهد: ضياعاً، وقيل: معناه ضيع أمره وعطل أيامه، وقيل: ندماً. وقال مقاتل بن حيان: سرفاً. وقال الفراء: متروكاً. وقيل باطلاً. وقيل: مخالفاً للحق. وقال الأخفش: مجاوزاً للحد[٢]، ولا تعارض بين هذه الأقوال، لأن من طلب طرد المؤمنين العابدين الذاكرين تكبراً وترفعاً عن مجالستهم تنطبق عليه كل هذه الأوصاف.

فيكون معنى الآية: اجلس يا نبي الله مع عباده الذين يذكرونه ويعبدونه بأنواع العبادات ويسألونه آناء الليل والنهار، واحبس نفسك عليهم وإن كانوا فقراء أو ضعفاء، ولا تطلب بدلهم أصحاب الشرف ممن ليست هذه حالهم، ولا تطع من شغل عن عبادة ربه بالدنيا، وكان متبعاً لهواه وكانت أعماله سفهاً وضياعاً، فلا تكن مطيعًا له ولا محبًا لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه[٣]. قال ابن عاشور رحمه الله: (هذا نهي جامع عن ملابسة شيء مما يأمره به المشركون. والمقصود تأسيس قاعدة لأعمال الرسول والمسلمين تُجاه رغائب المشركين، وتأييسهم من نوال شيء مما رغبوه من النبي ﷺ)[٤].

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥.

(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٦٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٢-١٥٥ بتصرف واختصار.

(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٣ بتصرف واختصار.

وقفات مع الآية الكريمة

الوقفة الأولى- أهمية الرفقة الصالحة:

أمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يحبس نفسه مع من يدعونه سبحانه من أهل الإيمان، وأمته تبع له ما لم يقم دليل على الخصوصية، وقد روى الطبري رحمه الله عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف -وفي صحبته نظر- (أن هذه الآية نزلت على النبي ﷺ وهو في بعض أبياته ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ فخرج يلتمس، فوجد قوماً يذكرون الله، منهم ثائر الرأس، وجافّ الجلد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم، فقال: "الحَمْدُ لله الَّذِي جَعَلَ لي فِي أُمَّتِي مَنْ أمرني أنْ أصبِرَ نَفْسي مَعَهُ")[١]، وفي هذا إشارةَ لطيفة إلى أهمية صحبة أهل الإيمان، قال الشيخ السعدي رحمه الله: (فيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على ذلك، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد، ما لا يحصى)[٢]، وصدق رحمه الله، وهذا مشاهد، فمن صاحب الأخيار تخلق بأخلاقهم، والعكس، فإن كثيراً من الشباب عرفوا الحق والتزموا به بتوفيق الله أولاً، ثم بالرفقة الصالحة التي تعينهم على الخير وتثبتهم عليه، وكذلك كثير من الشباب الذين سلكوا طريق الانحراف كتعاطي المخدرات أو الخمور أو مقارفة الفاحشة والعياذ بالله فإن مبدأ كل هذا يكون غالباً رفقة السوء، لذا فإن من أراد أن يعرف أخلاق شخص ما سأل عن أصدقائه ورفقائه، وقد قال النبي ﷺ: "الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ"[٣].

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٦ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥ بتصرف يسير.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٥٨٩ (٢٣٧٨)، وحسنه الألباني.

إن الإنسان بحاجة لأعوان على الحق؛ بتعلمه والعمل به والدعوة إليه، والبعد عن الباطل ومحاربته، خاصة زمن الفتن والشبهات والشهوات، يصبح المرء مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً. ويخطئ من يثق في حفظ دينه وسط فتن تموج موج البحر وهو بمعزل عن أهل الصلاح، فالذئب يأكل من الغنم القاصية، قال رسول الله ﷺ: "إن الشيطان ذئب الإنسان، كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد"(١).

لطيفة- تكرر الكلام في هذه السورة عن الرفقة الصالحة، فقصة الكهف التي سميت بها تدور على الرفقة الصالحة للفتية، بل إن كلبهم نال شرف ذكره في القرآن الكريم بسبب رفقته لهم، والآية التي بين أيدينا تؤكد ذلك، وصاحب الجنتين -الذي آمن على الراجح- استفاد من رفقة صاحبه الصالح، وقصة موسى فيها إشارة إلى أهمية صحبة الأخيار.

الوقفة الثانية- الفرق بين الاجتماع على الخير والتحزب:

أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بالاجتماع مع أصحابه على الطاعة وهو أمر للأمة من بعده، ومثل هذا الاجتماع لا بد له من ترتيب كي يستقيم الحال، فلكل فرد دوره المنوط به وبتكامل الأدوار وبحسن إدارة الأفراد وتنسيق جهودهم ترتقي الجماعة؛ أي جماعة بدءاً من العائلة الصغيرة وانتهاء بالدولة ومؤسساتها، فلا بد من وجود قيادة وتنظيم وترتيب، كما قيل:

لا يَصلُحُ الناسُ فَوضى لا سَراةَ لَهُم   وَلا سَراةَ إِذا جُهّالُهُم سادوا(٢)

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٥/ ٢٣٢ (٢٢٠٨٢)، قال الأرناؤوط: حسن لغيره.

(٢) البيت للأفوه الأودي (ت ٥٤ ق.ه)، وهو من البحر البسيط.

وفرق بين الاجتماع على الخير، وما فيه من تنظيم وتوزيع للمهام، وبين التعصب والتحزب المذموم، حيث يكون الولاء للجماعة أخطأت أو أصابت، ويكون الولاء والبراء على اسمها والانتماء إليها، فالأول محمود وليس من التعصب، والثاني مذموم، وبهذا أفتى شيخنا ابن باز .

ومن تأمل سورة العصر وجد عجباً، قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر]، فجاء بلفظ الإنسان مفرداً ثم لم يقل (إلا الذي آمن)، بل أتى بصيغة الجمع (الذين آمنوا وعملوا... وتواصوا)، وجعل من شروط الفوز والفلاح تواصي الجماعة المؤمنة بالحق والصبر.

وقد كانت أعمال النبي ﷺ منظمة مرتبة، لم تكن خبط عشواء، وكان ﷺ يوزع الأدوار على أصحابه، فقد قال: "خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود فبدأ به، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب"[(١)]، وقال: "أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْضَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ"[(٢)]، وقال: "خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ"[(٣)]، إلى غير ذلك.

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٣٦ (٣٨٠٨)، صحيح مسلم ٤/ ١٩١٣ (٢٤٦٤).

(٢) سنن ابن ماجه ١/ ٥٥ (١٥٤)، وصححه الألباني.

(٣) سنن الترمذي ت شاكر ٥/ ٦٨٨ (٣٨٤٦)، وصححه الألباني.

الوقفة الثالثة- لا تترفع على أهل الخير:

في هذه الآية درس بليغ؛ فالمرء مهما بلغ من علو الشأن لا ينبغي أن يترفع عن أهل الخير، أو يعرض عنهم إن كانوا فقراء أو ضعفاء، فإن كانت هذه وصية الله لرسوله ﷺ، فكيف بمن هو دونه؟

إن مما يؤسف له أن نجد عند بعض من يتوسم فيهم الخير شيئاً من ذلك، فلربما رأيت الواحد منهم يعرض عن البسطاء والفقراء حتى يكاد لا يرد عليهم السلام إذا سلموا! فإذا جاءه صاحب منصب أو جاه أو مكانة أقبل عليه بكليته وأكرمه، وهذا بخلاف ما أرشدت إليه الآية، وبخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨]، قال ابن كثير: (يقول: لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتقارا منك لهم واستكبارا عليهم، ولكن ألن جانبك، وابسط وجهك إليهم)[١].

والعجيب أن المعرَض عنهم هم أكثر أتباع الأنبياء، قال تعالى عن قوم نوح: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء]، ولما أراد هرقل أن يستوثق من نبوة محمد ﷺ سأل أبا سفيان فقال: "وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ"[٢]، ولذلك فهم أكثر أهل الجنة، قال ﷺ: "اطَّلَعْتُ فِي الجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الفُقَرَاءَ"[٣]، وقال: "قُمْتُ عَلَى بَابِ الجَنَّةِ، فَكَانَ عَامَّةَ مَنْ دَخَلَهَا المَسَاكِينُ"[٤]، وقال: "تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٣٨.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٧ (٧)، صحيح مسلم ٣/ ١٣٩٣ (١٧٧٣).

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١١٨٤ (٣٠٦٩)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٩٦ (٢٧٣٧).

(٤) صحيح البخاري ٥/ ١٩٩٤ (٤٩٠٠)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٩٦ (٢٧٣٦).

بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ"(١)، ولربما يكون أحدهم بملء الأرض من صاحب الجاه، فعن سَهْل بْن سَعْدٍ قَالَ: "مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللهِّ ﷺ، فَقَالَ لرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: «مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا» فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللهِّ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِّ ﷺ: «مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا» فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ: هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا"(٢)، بل ربما أفضل من طالب العلم فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:"رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ تَنْبُو عَنْهُ أَعْيُنُ النَّاسِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِّ لَأَبَرَّهُ"(٣).

الوقفة الرابعة- الحذر من زينة الدنيا:

نبهت الآية أن من خالط أصحاب الجاه قد يميل إلى الدنيا، ولهذا نهى السلف عنه، لما عندهم من النعيم، وقد يدخل يريد النصح، ثم يجد من الإكرام ما يجعله يميل دون أن يشعر لمن يكرمه، ولربما حدثته نفسه أن يؤجل النصح حتى تتوثق علاقته بمن دخل عليه، ثم لا يلبث شيئاً فشيئاً أن تميل نفسه النعيم فيضعف وازع الخير فيه، وقد يمالئ صاحب الجاه ويسكت عن خطئه ثم قد يصل إلى أن يزين له سوء عمله والعياذ بالله.

وليس ما سبق صداً عن المناصحة، لكن لا بد من تصحيح النية، والتجرد والمراقبة والتضرع إلى الله بحفظ قلبه. بعض المشايخ كان يقضي

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٨٣٦ (٤٥٦٩)، صحيح مسلم ٤/ ٢١٨٦ (٢٨٤٦).
(٢) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٦٩ (٦٠٨٢).
(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٤/ ٣٦٤ (٧٩٣٢)، وصححه الذهبي.

الليل كله في تضرع لله إن أراد مناصحة هؤلاء. فإن وجد الناصح شيئاً من الركون، أو تقديم تنازلات فعليه الفرار بدينه، فالسلامة لا يعدلها شيء.

الوقفة الخامسة- ذكر اللسان وذكر القلب:

لطيفة: قال سبحانه: من أغفلنا قلبه، ولم يقل لسانه، فقد تجد رجلاً دائم الذكر وقراءة القرآن والأوراد، ولا تجد أثر هذا في معاملاته، بل قد تراه يقع في الحرام؛ من كذب ونميمة وغش وأكل أموال الناس، والسبب أن هذا ذكر بلسانه لا بقلبه، ربما بحكم العادة أو غفلة عن أن غاية الذكر تصفية القلب وربطه بالله ﷻ، فلا بد من تفقد حال القلب.

الوقفة السادسة- لا إفراط ولا تفريط:

يلزم أن نقف وقفة في ضوء الآية لنراجع ما مضى من العمر، فنعرف كم منه كان ضائعاً بلا هدف. فالعمر رأس مال المرء، فلا بد أن يحافظ عليه، ولا يقولن سأحافظ على وقتي في المستقبل، فإن من شب على شيء شاب عليه، فلا بد من مراجعة النفس ومحاسبتها على الدقائق منذ الصغر.

والكلام عن التفريط يجر إلى الكلام عن نقيضه وهو الإفراط، قال ابن القيم رحمه الله: (ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو. ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له، فالغالي فيه مضيع له؛ هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد)(١). وطباع الناس تختلف، فمنهم المتساهل والمتشدد، وكثير من الخلق يجمع بين الأمرين، فيكون مقصراً مفَرِّطاً في جانب، غالياً مفْرِطاً في جانب، إلا من هداه الله. إن كثيراً ممن انتكس كان

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٦٤ بتصرف واختصار.

عنده نوع تشدد، وغالبا ما يؤدي للانتكاس، قال ﷺ: "لَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ"(١)، وقال: "إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ"(٢).

فلا بد من الاعتدال والتوسط في الأمور كلها، وعلى المرء أن يكون فقيهاً بنفسه، ويأخذها بالرفق كي لا تنفلت منه، وأما التشدد والتنطع فلا يأتي بخير أبداً، قال ﷺ: "هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ. قَالَهَا ثَلَاثًا"(٣)، وقال: "إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شِرَّةً وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَإِنْ كَانَ صَاحِبُهَا سَدَّدَ وَقَارَبَ فَارْجُوهُ، وَإِنْ أُشِيرَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ فَلَا تَعُدُّوهُ"(٤)، قال المباركفوري: ("شرة" أي حرصا على الشيء ونشاطا ورغبة في الخير أو الشر (ولكل شرة فترة) أي وهنا وضعفا وسكونا (فإن صاحبها سدد وقارب) أي جعل صاحب الشرة عمله متوسطا وتجنب إفراط الشرة وتفريط الفترة (فارجوه) أي ارجوا الفلاح منه، فإنه يمكنه الدوام على الوسط وأحب الأعمال إلى الله أدومها (وإن أشير إليه بالأصابع) أي اجتهد وبالغ في العمل ليصير مشهورا (فلا تعدوه) أي لا تعتدوا به ولا تحسبوه من الصالحين لكونه مرائيا ولم يقل فلا ترجوه إشارة إلى أنه قد سقط ولم يمكنه تدارك ما فرط)(٥).

الوقفة السابعة- موازنة المصالح والمفاسد، بين الحقيقة والوهم:

جاء الإسلام بتحصيل المنافع ودرء المفاسد، الدينية والدنيوية، وعند تزاحم المفاسد يرتكب الأدنى دفعاً للأعلى، قال الألوسي رحمه الله: (واستشكل النهي عن إطاعة أولئك الغافلين في طرد المؤمنين، بأنه ورد

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٢٣ (٣٩).
(٢) مسند أحمد ٢٠/ ٣٤٦ (١٣٠٥٢)، قال الأرناؤوط: حسن بشواهده.
(٣) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٥٥ (٢٦٧٠).
(٤) سنن الترمذي ٤/ ٦٣٥ (٢٤٥٣)، وحسنه الألباني.
(٥) تحفة الأحوذي ٧/ ١٢٦ بتصرف واختصار.

أنهم أرادوا طردهم ليؤمنوا فكان ينبغي تحصيل إيمانهم بذلك وفي عدم طردهم لزم ضرر عظيم وهو بقاء أولئك الكفرة على كفرهم على نفع قليل، ومن قواعد الشرع: تُدفع المفسدة الكبرى بالمفسدة الصغرى. وأجيب بأنه سبحانه علم أن أولئك الكفرة لا يؤمنون إيماناً حقيقياً، ومثله لا يرتكب له إسقاط حرمة أولئك الفقراء الأبرار فلذا جاء النهي عن الإطاعة. ويحتمل أن الله علم أن طرد أولئك الفقراء السابقين إلى الإيمان المنقطعين لعبادة الرحمن، يوجب نفرة القلوب وإساءة الظن برسوله ﷺ، فربما يرتد من هو قريب عهد بإسلام، ويقل الداخلون في دينه، وذلك ضرر عظيم فوق ضرر بقاء شرذمة من الكفار على الكفر، فلذا نهى عن إطاعة من أغفل قلبه واتبع هواه ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾)[1]، والأول بعيد لأنه يكاد يجعل دلالة الآية منحصرة في أولئك القوم، لأن غيرهم قد تكون حالهم مختلفة، وأما الثاني فقريب، لكن أولى منه أن يقال: إن الإسلام يقرر مبادئ عامة، ويصلح ميزان القيم في المجتمع، فالتفاضل لا يكون بناء على الغنى والرياسة، بل بالتقوى، والإسلام دين كامل لا يعتريه نقص، يدل بنفسه على صدقه وكونه الدين الحق، وهؤلاء الذين طلبوا من النبي ﷺ ما طلبوا قد علموا ما يدعوهم إليه عليه السلام من قبل وأعرضوا عن الإيمان، فهم ما طلبوا ذلك إلا استكباراً وعلواً، والإسلام عزيز لا يتملق أحداً، فليس بحاجة لإسلام هؤلاء ولا غيرهم، ولهذا قال بعدُ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، فالناس جميعاً مفتقرون للإسلام، وليس

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٣٧ بتصرف واختصار.

إسلام أي أحد منة منه، قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات].

إن الإسلام أغنى ما يكون عن هؤلاء المستكبرين الذين هم في الحقيقة أهل النار، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين"(١)، فليس في بقائهم على الكفر مفسدة تستحق أن تدفع بطرد أهل الإيمان من الضعفاء، كيف وهم أكثر أهل الإيمان عبر التاريخ؟ وهم أهل الجنة كما في تتمة الحديث: "وقالت الجنة ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم"، بل هم من تقوم الدعوات الصادقة على أكتافهم، قال صاحب الظلال رحمه الله: (ففيهم الخير، وعلى مثلهم تقوم الدعوات. فالدعوات لا تقوم على من يعتنقونها لأنها غالبة؛ ومن يعتنقونها ليقودوا بها الأتباع؛ ومن يعتنقونها ليحققوا بها الأطماع، وليتجروا بها في سوق الدعوات تشترى منهم وتباع! إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التي تتجه إلى الله خالصة له، لا تبغي جاهاً ولا متاعاً ولا انتفاعاً، إنما تبتغي وجهه وترجو رضاه)(٢)، وفي هذا درس بليغ للدعاة الذين تلمس من كتاباتهم ميلاً لأهل الكفر والباطل، وممالأة على أهل الإيمان بالغلظة والإعراض، أو على الأقل لا يذبون عن إخوانهم بهتان أولئك، بدعوى الحرص على مصلحة للدعوة، فهذه الآية ترد على من يقدمون التنازلات لغير المسلمين، بدعوى الحرص على الدين والدعوة، وتقول لهم إن للدين رباً يحميه، وما عليكم إلا الاستقامة على

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٨٣٦ (٤٥٦٩)، صحيح مسلم ٤/ ٢١٨٦ (٢٨٤٦).
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٦١.

منهج الله، والله غالب على أمره. وهذا لا يعني عدم الرفق بالمخالفين، فهذا مطلوب، لكن الأمور تقدر بقدرها، واللين والرفق بضوابط الشرع.

هذا الإرشاد الرباني إشارة مهمة للعلماء والدعاة والمربين، كي يراعوا حال طلابهم وأتباعهم ويحفظوا عليهم قلوبهم ومشاعرهم، فرب رجل ترك الالتزام وهام في الضلالة بسبب طالب علم أهانه، أو جرح مشاعره بتصرفه أو إعراضه عنه. فلا بد من مراعاة أحوال الناس لا سيما من كان فقيراً أو رقيق الحال، فإنه يتأثر أكثر من غيره فلا ينبغي أن يكسر قلبه.

وفي سيرة الشيخ ابن باز رحمه الله ما يقر عيون محبيه، لالتزامه بالفهم الصحيح عن الله ورسوله؛ ففي مجلسه الخاص مع المشايخ والدعاة لم يكن يأذن لأحد بالدخول، ولو أتى غيرهم يشاور من معه في السماح له، وأما الاجتماعات المفتوحة، في العزيزية مثلا أيام الحج، فمع أن الحملة تكون مجهزة لعدد محدد، لم يكن يمنع أحداً من الفقراء من الدخول، فكان بعض من حوله يعترض لضيق المكان أو قلة الطعام، فلا يستجيب لهم، حتى إذا أكثروا عليه قال: هذه طريقتي، فمن شاء فليبق وإلا فهو بالخيار.

الوقفة الثامنة- معالجة الآية لميزان القيم المختل:

تضمنت الآية تصحيحاً لميزان القيم، وهو ميزان مختل قديماً وحديثاً؛ فميزان القوم جاهلي، لا يقيس الإنسان بقيمته الحقيقية، وهي ما في صدره من إيمان، وما يجيده من أعمال، بل يصنف الناس حسب بلدانهم أو أنسابهم، وما أشبه ذلك، وهي أقدار لا حيلة للمرء فيها، فلا يصح عند العقلاء أن تكون ميزاناً. وقد سبقهم إليه أهل الكفر وجعلوه مانعاً من إيمانهم، بل جعلوه حجة يصدون بها عن سبيل الله، فقوم نوح عليه السلام

يقولون له: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ۝١١١﴾ [الشعراء]، وفرعون يعقد موازنة جاهلية بينه وبين موسى عليه السلام: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٥١ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ [الزخرف]، وكفار قريش يقولون عن أتباع النبي ﷺ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وإمامهم في ذلك إبليس القائل: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢].

من تأمل حال المنافقين وجدهم يلمزون المؤمنين بقلة المال والجاه، ويفترون عليهم أن التزامهم تعويض عن فقره، أو هرب من مشكلاتهم، بل يزعم بعضهم أن دعوة النبي ﷺ انقلاب طبقي من الضعفاء على السادة! وكذبوا؛ فقد كان في الصحابة أغنياء، وفي الكفار فقراء، لكن المنافقين يرون لأنفسهم فضلاً وجاها على المؤمنين، فلسان حالهم كما قال كفار قريش: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأحقاف: ١١]، تشابهت قلوبهم!

إن الله يصطفي للهداية من خلقه من يشاء، والضعفة والفقراء عندهم من لين القلوب ما ليس عند جل أهل المال والجاه، ولهذا كانوا جُلَّ أتباع الرسل، وقد مر قريباً قول هرقل لأبي سفيان: "وسألتك عن أتباعه؛ أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلتَ: ضعفاؤهم. وهم أتباع الرسل"(١).

وإذا كان هذا حال الكفار والمنافقين، فإننا نأسف إذ نرى مثل هذه الموازين الجاهلية منصوبة في بعض المجتمعات اليوم، والنبي ﷺ بين الميزان الصحيح، ووضع دعاوى الجاهلية تحت قدميه، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الفتح: "يا أيها الناس، إن الله

---

(١) سبق تخريجه.

قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان؛ بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب، قال الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ١٣﴾"[1].

يقول صاحب الظلال ﷺ: (لقد جاء الإسلام ليسوي بين الرؤوس أمام الله. فلا تفاضل بينها بمال ولا نسب ولا جاه. فهذه قيم زائفة ... إنما التفاضل بمكانها عند الله. ومكانها عند الله يوزن بقدر اتجاهها إليه وتجردها له. وما عدا هذا فهو الهوى والسفه والبطلان)[2].

وعليه، فليس للمرء أن يفاضل من تلقاء نفسه، بل الميزان الحقيقي إنما هو التقوى، كما قال ﷺ في خطبته أيام التشريق: "يا أيها الناس! ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى. أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله ﷺ"[3]. ولا يستثنى من ذلك إلا ما جاء به النص، كقوله ﷺ: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"[4]، مع فهمه فهما صحيحا بما لا يضرب بعض النصوص ببعض، فهذا من الوصف والثناء بما فضل الله به بعض الناس، كما نقول آل فلان آل الجود والكرم، أو أهل الشجاعة، فلا ينبغي أن نتجاوز هذا إلى التفاخر

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ٣٨٩ (٣٢٧٠)، وصححه الألباني.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٦٢.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ٥/ ٤١١ (٢٣٥٣٦)، وقال الأرناؤوط: صحيح.

(٤) صحيح مسلم ٤/ ١٧٨٢ (٢٢٧٦).

الجاهلي والاستطالة على عباد الله، وهذا الثناء ليس مطلقاً، فبلال الحبشي خير من أبي لهب الهاشمي القرشي، بل خير من أبي طالب مع ما جمعه إلى شرف نسبه من نصرة النبي ﷺ والذب عنه، فاصطفاه الله عليهما، وما ذاك إلا لإيمان بلال وكفرهما، واتباعه النبي ﷺ وإعراضهما، فنفعه إيمانه واتباعه مع لونه ورقة حاله، ولم ينفعهما نسبهما وشرفهما مع كفرهما.

إن الناظر إلى واقعنا يلحظ انتشار المفاهيم الجاهلية، فالتمييز على أساس القبيلة أو البلد، والتفريق القبلي والخضيري، والتفاخر بالأحساب والأنساب، كل هذا من دعوى الجاهلية، وقد قال ﷺ منكراً ومحذراً: "أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ..."(١) الحديث، إن الانتماء لقبيلة ولون الإنسان وجنسيته وما أشبه ذلك، لا دخل للمرء فيه، بل هي قدر الله، لم تكن بكسبه حتى يفاخر بها، وكم من أناس وجوههم بيضاء وقلوبهم أسود من الليل والعكس، فليست العبرة بالأمر المقدور، وإنما العبرة بما تكسبه الأيدي وتكنه الصدور.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات]، وهذا يعني أن كل إنسان ينتمي لشعب أو قبيلة، وأن له نسباً وإن جهله لسبب من الأسباب، كهرب من حرب أو كوارث وما أشبه ذلك، ومهما يكن من أمر فإن أصل الناس كلهم واحد! قال ﷺ: "إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ؛ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ،

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٦٤٤ (٩٣٤).

لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ، إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ"(١).

إن هذا المنطق المعوج موجود حتى عند بعض أهل الخير، حتى دب الداء إلى بعض أهل العلم، ووصل الأمر ببعضهم إلى أن العقيدة لا تؤخذ إلا عن أهل هذه البلاد، وهناك فتوى منشورة بذلك، وهذا غير صحيح، فعمن أخذ أهل العلم قديماً علمهم؟ إن من أعظم الكتب التي اعتمد عليها مشايخنا وما زلنا نعتمد عليها كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، وليسا من هذه البلاد. وهل كان إمام أهل السنة أحمد بن حنبل من أهل بلادنا؟ ثم إن هذه الحدود وضعها الاستعمار، والأرض المقدسة لا تقدس أحداً، وبلادنا فيها شيعة وفرق صوفية منحرفة وفيها مبدلون محرفون يبيعون دينهم، وكون أهل بلادنا والحمد لله في الغالب على العقيدة الصحيحة لا يعني أن غيرها من البلاد تخلو من ذلك.

ختاماً، فإن على المرء أن ينظر في قلبه فإنه لربما لا ينطق، لكنه في قرارة نفسه يقوِّم الناس ويفاضل بينهم بناء على مالهم أو جاههم أو قبيلتهم أو جنسيتهم، فليحذر الإنسان من ذلك ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق]، وقال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات]، وقال النبي ﷺ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ"(٢).

تنبيه- يأبى بعض الناس أن يزوجوا من غير قبيلتهم، أو ليس قريباً من حالهم، وهذا وأمثاله ينظر فيه؛ فإن كان كبراً وأنفة فهو مذموم، وإن

(١) سنن أبي داود ٤/ ٣٣١ (٥١١٦)، وحسنه الألباني.
(٢) سنن الترمذي ٤/ ٣٦١ (١٩٩٩)، وصححه الألباني.

كان نظراً في مصلحة كدوام العشرة واستقرار الزواج فلا حرج، لأن الزواج يراعى فيه ذلك، فاختلاف المستوى الاجتماعي قد يكون من أسباب انهيار الزواج؛ وارتفاع مستوى الزوج مثلاً قد يكون سبباً في فتنة الفتاة عن دينها، وانخفاضه كذلك، إذ قد لا تصبر على عادات وطباع لم تعتدها، وقد يخشى على الفتاة إن كانت من أسرة أكثر شرفاً أن تقع في إثم التعالي، فلا شك أن السلامة أولى. وهناك عائلات لا يزوجون فيما بينهم خشية تفرق الأسرة وتقوض ائتلافها. فالنية هي المعول عليه، فإن كان ترفعا فلا يجوز، وإن كان مراعاة لمصلحة معتبرة فلا ضير.

فوائد أخرى:

١- الصبر على طاعة الله أعلى أنواع الصبر، وبه تتم أنواعه: الصبر على المقدور، والصبر عن المعصية، والصبر على الطاعة، ولا ينجح داعية أو طالب علم إلا بالصبر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران].

٢- الحث على إدامة طاعة الله آناء الليل وأطراف النهار، فلكل وقت طاعته وعبادته التي ينبغي اغتنامها.

٣- أهمية الإخلاص الذي لا تقبل أعمال كالجبال إلا به.

٤- النهي عن التطلع إلى زينة الحياة الدنيا، قال السعدي رحمه الله: (فإن هذا ضار غير نافع، وقاطع عن المصالح الدينية، فإنه يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر العقل، فيغفل القلب عن الذكر، ويقبل على الشهوات، فيضيع وقته،

وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية)[1]. فكيف يكون داعية وهو يتوسع في المباحات ثم يواقع الشبهات إلى أن يقع في المحرمات؟

٥- أن الغافل عن ذكر الله لا يطاع أو يقدم بل يقدم ويطاع أهل الإيمان، قال السعدي رحمه الله: (فالغافل قد نهى الله عن طاعته، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به، ودلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع ويكون إماماً للناس من امتلأ قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مراضي ربه، فقدمها على هواه، فحفظ وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما منَّ الله به عليه، فحقيق أن يُتَّبع ويجعل إماماً)[2]. ومن المؤسف أننا نرى بعض الدعاة وطلبة العلم يغفلون عن الذكر، وربما نجد منهم من لا يتم الأذكار بعد المكتوبة، وفي العوام من يحرص على كثرة الذكر بالليل والنهار. وقد وصف الله المنافقين بأنهم لا يذكرون الله إلا قليلاً، فلا يكون الطالب مثلهم، قال تعالى: ﴿... وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب].

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥ بتصرف واختصار.
(٢) السابق بتصرف يسير.

٦- قال الشنقيطي رحمه الله: (قوله: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ يدل على أن ما يعرض للعبد من غفلة ومعصية، إنما هو بمشيئة الله تعالى. إذ لا يقع شيء البتة كائناً ما كان إلا بمشيئة [الله] الكونية القدرية جل وعلا)[١].

ثم قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)﴾

مناسبة الآية لما قبلها:

قال البقاعي: (لما رغبه في أوليائه، وزهده في أعدائه، ترضية بقدره بعد أن قص الحق من قصة أهل الكهف للمتعنتين، علمه ما يقول لهم على وجه يعمهم وغيرهم ويعم القصة وغيرها فقال مهدداً: ﴿وَقُلِ﴾ لهم ولغيرهم: هذا الذي جئتكم به من الوحي العري عن العوج، الظاهر الإعجاز، الباهر الحجج ﴿الْحَقُّ﴾ كائناً ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ المحسن إليكم في أمر أهل الكهف وغيرهم؛ مِن صبر نفسي مع المؤمنين، والإعراض عن سواهم، لا ما قلتموه)[٢]، وقال ابن عاشور: (بعد أن أمر الله نبيه ﷺ بما فيه نقضُ مقترحاتهم وتعريضٌ بتأييسهم أمره أن يصارحهم بأنه لا يعدل عن الحق الذي جاءه، وأنه مبلغه بدون هوادة، وأنه لا يرغب في إيمانهم ببعضه دون بعض، ولا يتنازل إلى مشاطرتهم في رغباتهم بشطر الحق الذي جاء به، وأن إيمانهم وكفرهم موكول إلى أنفسهم، لا يحسبون أنهم بوعد

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٣.

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٢ بتصرف يسير.

الإيمان يستنزلون النبي ﷺ عن بعض ما أوحي إليه. و﴿ٱلۡحَقُّ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا الحق. والتعبير بـ﴿رَّبِّكُمۡۖ﴾ للتذكير بوجوب توحيده)(١).

أما قوله تعالى: ﴿وَقُلِ﴾ فهو أمر للنبي ﷺ أن يخاطب الناس بصفة عامة، وهؤلاء المتكبرين الذين طلبوا طرد ضعفة المؤمنين بصفة خاصة.

وقوله: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾

في إعرابه وجهان؛ الأول خبر مبتدأ محذوف، والمعنى: هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، وهذا يشمل قصة أهل الكهف ويشمل غيرها، والثاني أن يكون مبتدأ والجار والمجرور خبره، أي: الحق هو ما جاء من ربكم، واختار الزمخشري الأول، وعلله صاحب "الكشف"(٢) بقوله: (المعنى عليه أتم التئاماً لأنه لما أمره سبحانه بالمداومة على تلاوة هذا الكتاب العظيم في جملة التالين حق التلاوة، المريدين وجهه، غير ملتفت إلى زخارف الدنيا ذيَّله لإزاحة الأعذار والعلل بقوله: ﴿وَقُلِ﴾ الخ أي هذا الذي أوحي هو الحق فمن شاء فليدخل في الفائزين بهذه السعادة، ومن شاء فليكن في الهالكين في الضلالة، أما لو جعل [أي الحق] مبتدأ فالتعريف إن كان للعهد رجع إلى الأول مع فوات المبالغة، وإن كان للجنس على معنى جميع الحق من ربكم -ويشمل الكتاب شمولاً أولياً- لم يطبِّق المفصلَ إذ ليس ما سيق له الكلام كونه منه تعالى لا غير، بل كونه حقاً لازم الاتباع. قال الألوسي: وهو كلام يلوح عليه مخايل التحقيق(٣).

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٥ بتصرف يسير.

(٢) عمر بن عبد الرحمن الفارسي القزويني (ت ٧٤٥)، والكشف اسم حاشيته على الكشاف.

(٣) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٣٨ بتصرف واختصار.

وقوله : ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

يحتمل أن تكون الفاء للترتيب فيكون من تمام القول، أي: قل الحق من ربكم، وقل: من شاء فليؤمن، ويحتمل أن تكون الفاء لترتيب ما بعدها على نفس الأمر، فيكون الكلام من الله، وهذا أرجح، قال الألوسي: (أي قل لهم [الحق من ربكم]، وبعد ذلك فمن شاء أن يؤمن به أو أن يصدقك فليفعل، ومن شاء أن يكفر به أو أن يكذبك فليفعل)[1].

وقد اتفق المفسرون على أن التخيير غير مراد، ثم ذكروا في المراد أقوالاً ثلاثة، قال ابن الجوزي رحمه الله : (أحدها: فمن شاء الله فليؤمن، روي عن ابن عباس. والثاني: أنه وعيد وإنذار، وليس بأمر، قاله الزجاج. والثالث: أن معناه: لا تنفعون الله بإيمانكم، ولا تضرُونه بكفركم، قاله الماوردي. وقال بعضهم: هذا إظهار للغنى، لا إطلاق في الكفر)[2]، واختار الجمهور أن المراد التهديد والوعيد؛ ولا تعارض بين الثلاثة، لأن المراد تخيير الناس بين الإيمان والكفر تهديدا لمن اختار الكفر، مع بيان غنى الله ﷻ عن العالمين، لا ينفعه إيمانهم جميعاً، ولا يضره كفرهم جميعاً، فمن شاء من العباد أن يؤمن فله ذلك، ومن شاء أن يكفر فله ذلك، ولا يخرج واحد منهما عن مشيئة الله ﷻ. وما روي عن ابن عباس لا يعني نفي المشيئة عن العباد، قال الألوسي: (الرواية عن الحبر أخرجها ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات فإذا صحت يحتمل أن يكون لبيان أن من شاء الإيمان هو من شاء الله له الإيمان، ومن شاء الكفر هو من شاء الله له ذلك، لا لبيان مدلول الآية)[3]، وهذا واضح

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٣٨ بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢١٩.
(٣) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٣٩-٢٤٠ بتصرف يسير.

من رواية الطبري، فقد ذكر قوله: (من شاء الله له الإيمان آمن، ومن شاء الله له الكفر كفر، وهو قوله:(وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)(١).

قال الشنقيطي رحمه الله: (ظاهر الآية بحسب الوضع اللغوي التخيير بين الكفر والإيمان ولكن المراد التهديد والتخويف. والتهديد بمثل هذه الصيغة من أساليب اللغة العربية. والدليل على أن المراد التهديد أنه أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾ [الكهف]، هذا أصرح دليل على أن المراد التخويف. إذ لو كان التخيير على بابه لما توعد المخير بينهما بهذا العذاب)(٢)، وليس مراده رحمه الله أن العبد مجبر، لكن مراده أن الأمرين لا يستويان عند الله بحيث يرضى واحداً منهما، قال السعدي رحمه الله: (أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة بها يقدر على الإيمان والكفر، والخير والشر، فمن آمن وفق للصواب، ومن كفر قامت عليه الحجة، وليس بمُكرَه على الإيمان، كما قال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ وليس في قوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ إذن في كلا الأمرين، وإنما ذلك وعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام، كما ليس فيها ترك قتال الكافرين)(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١٠.
(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٥ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥ بتصرف يسير.

قال البقاعي: (لما هدد السامعين بما حاصله: ليختر كل امرئ لنفسه ما يجده غداً عند الله تعالى، أتبع هذا التهديد تفصيلاً لما أعد للفريقين من الوعد والوعيد لفاً ونشراً مشوشاً[١] بما يليق بهذا الأسلوب)[٢].

ومعنى (أعتدنا) أعددنا وهيأنا، قال الألوسي: (﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ من العتاد وهو ادخار الشيء قبل الحاجة، وقيل: أصله أعددنا والمعنى واحد أي هيأنا)[٣]، قال ابن الجوزي: (الظالمون، قال المفسرون: الكافرون)[٤]، وإطلاق الظلم على الكفر في القرآن كثير، قال الشنقيطي: (والمراد بالظالمين هنا: الكفار؛ لقوله قبله: ﴿وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ وقد قدمنا كثرة إطلاق الظلم على الكفر في القرآن؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان]، وقوله: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة] وقدمنا أن الظلم في اللغة: وضع الشيء في غير محله، ومن أعظم ذلك وضع العبادة في مخلوق)[٥]، أقول: ومن وضع الشيء في غير محله ما سبق الكلام عنه من التحاكم إلى موازين الجاهلية في تقويم الناس، ففي الآية تعريض بمن

---

(١) اللف والنشر أسلوب من أساليب البلاغة، والمراد باللف ذكر بعض الأمور المتعددة، والمراد بالنشر ذكر أمور متعددة لاحقة يرجع كل واحد منها إلى واحد من الأولى، فإذا كان النشر مرتباً على ترتيب اللف سمي اللف والنشر مرتباً، وإن لم يكن على ترتيبه سمي مشوشاً، كما في الآية الكريمة، فقوله (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) لف، ثم ذِكر ما لكل من الفريقين نشر، لكنه جاء على غير ترتيب اللف حيث جاء أولاً بالوعيد للكافرين، ثم جاء بالوعد للمؤمنين، فلهذا سماه لفاً ونشراً مشوشاً.

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٢.

(٣) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٣٩ بتصرف يسير.

(٤) زاد المسير ٤/ ٢١٩ بتصرف واختصار.

(٥) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٥ بتصرف واختصار.

يفعل ذلك. وفي إضافة إعداد النار للجبار ﷻ مزيد تهديد للظالمين، وبيان أنها نار عظيمة مهولة.

قال ابن عاشور: (وجملة ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن ما دل عليه الكلام من إيكال الإيمان والكفر إلى أنفسهم وما يفيده من الوعيد كلاهما يثير في النفوس أن يقول قائل: فماذا يلاقي من شاء فاستمر على الكفر؟ فيجاب بأن الكفر وخيم العاقبة عليهم)[1].

وقوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾

أي أحدق بهم من كل جانب، والسرادق: (الذِي يُمَد فَوْقَ صحْنِ البَيْتِ، وقالَ ابنُ الأثِيرِ: هو كلُّ ما أحاطَ بشَيء: من حائِط أو مَضْرِب أو خباء، قالَ الجَوالِيقِي: هُو مُعَرَّبُ "سَرادار" أَوْ "سراطاق")[2]. قال الشنقيطي: (وأما المراد بالسرادق في الآية ففيه للعلماء أقوال مرجعها إلى شيء واحد: وهو إحداق النار بهم من كل جانب، فمن العلماء من يقول «سرادقها»: سورها، قاله ابن الأعرابي وغيره. ومن يقول: سور من نار، وهو مروي عن ابن عباس. ومن يقول: عنق يخرج من النار فيحيط بالكفار كالحظيرة، قاله الكلبي. ومن يقول: هو دخان يحيط بهم. وهو المذكور في قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾ [المرسلات]، وقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة]. ومنهم من يقول: هو البحر المحيط بالدنيا. وروى يعلى بن أمية عن النَّبي

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٥.

(٢) تاج العروس ١/ ٦٣٧٣.

ﷺ: «البحر هو جهنم» ثم تلا (ناراً أحاط بهم سرادقها)، ثم قال: "والله لا أدخلها أبداً ما دمت حياً ولا تصيبني منها قطرة")(١).

ولهذا التعبير معنى جليل لمن كان له قلب، قال الرازي: (المراد أنه لا مخلص لهم ولا فرجة بالنظر إلى ما وراءها بل محيطة بهم من كل جانب)(٢)، وقال ابن عاشور: (وأثبت لها سُرادق مبالغة في إحاطة العذاب بهم، والسرادق يكون في أهل الترف، فإثباته لدار العذاب استعارة تهكمية)(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى﴾

فيه مزيد تهديد لمن يكفر وبيان ما لأهل النار من العذاب والإذلال، إذ خرج الكلام مخرج الاستهزاء، قال ابن عاشور: (والاستغاثة: طلب الغوث وهو الإنقاذ. وشمل ﴿يَسْتَغِيثُوا۟﴾ الاستغاثة من حر النار، يطلبون شيئاً يُبرد عليهم، كما في ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠]، والاستغاثة من شدة العطش فيسألون الشراب. وأومأ إلى شمول الأمرين ذكر وصفين للماء بقوله: يشوي الوجوه، بئس الشراب. والإغاثة مستعارة للزيادة مما استغيث مِن أجله على سبيل التهكم، وهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضده)(٤). قال البقاعي: (وشاكل استغاثتهم تهكماً بهم فقال: {يغاثوا بماء} ليس كالماء الذي قدمنا الإشارة إلى أنا نحيي به الأرض بعد صيرورتها صعيداً جرزاً، بل ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾)(٥).

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٦-٣٣٧ بتصرف واختصار، والحديث رواه أحمد والحاكم وصححه، وضعفه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٢) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ٢٠٢ بتصرف واختصار.

(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٥ بتصرف واختصار.

(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٥ بتصرف واختصار.

(٥) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٢.

والمهل، قال ابن كثير: (قال ابن عباس: "المهل": ماء غليظ مثل دُرْدي الزيت [ما يركد في أسفله]. وقال مجاهد: كالدم والقيح. وقال عكرمة: الشيء الذي انتهى حَرُّه، وقال آخرون: كل شيء أذيب. وقال قتادة: أذاب ابنُ مسعود شيئًا من الذهب، فلما انماع وأزبد قال: هذا أشبه شيء بالمهل. وقال الضحاك: ماء جهنم أسود، وهي سوداء وأهلها سود. وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار؛ ولهذا قال: ﴿يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ﴾ أي: من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقَرّبه شواه حتى يسقط جلد وجهه)(١).

قال السعدي في قوله: ﴿يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ﴾: (أي: فكيف بالأمعاء والبطون، كما قال تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ٢١﴾ [الحج])(٢)، قال الشنقيطي: (وإذا كانوا لا يغاثون إلا بماء كالمهل، علم من ذلك أنهم لا إغاثة لهم البتة)(٣)، أعاذنا الله والمسلمين.

وقوله: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾

قال ابن كثير: (قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات القبيحة: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ أي: بئس هذا الشراب كما قال: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ١٥﴾ [محمد] وقال: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ٥﴾ [الغاشية] أي: حارَّة ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: وساءت منزلاً ومَقِيلاً وموضعًا للارتفاق كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ٦٦﴾ [الفرقان])(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٤ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير السعدي ١/ ٤٧٦.
(٣) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٦.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٤ بتصرف واختصار.

قال ابن الجوزي: (﴿مُرْتَفَقًا﴾ وفيه خمسة أقوال. أحدها: منزلاً، قاله ابن عباس. والثاني: مجتمعاً، قاله مجاهد. والثالث: متَّكأً، قاله أبو عبيدة، وأنشد لأبي ذؤيب:

إِني أَرِقْت فبِتُّ اللَّيْلَ مُرْتَفِقاً ... كأَنَّ عَيْنِيَ فِيها الصَّابُ مَذْبُوحُ

وذبحه: انفجاره؛ قال الزجاج: «مرتفقاً» منصوب على التمييز؛ ومعنى مرتفقاً: متَّكأً على المِرفق. والرابع: ساءت مجلساً؛ قاله ابن قتيبة. والخامس: ساءت مطلباً للرفق، لأن من طلب رِفقاً من جهتها عَدِمه، ذكره ابن الأنباري. ومعاني هذه الأقوال تتقارب)[1]، قال الشنقيطي: (وحاصل معنى الأقوال أن النار بئس المستقر، وبئس المقام. ويدل لهذا قوله: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الفرقان]، وكون أصل الارتفاق هو الاتكاء على المرفق معروف في كلام العرب)[2]، وقال السعدي: (﴿وَسَآءَتْ﴾ النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾ ذم لحالة النار، أنها ساءت المحل الذي يرتفق به، فليس فيها ارتفاق، وإنما فيها العذاب الشاق، الذي لا يفتر عنهم، وهم فيه مبلسون قد أيسوا من كل خير، ونسيهم الرحيم كما نسوه)[3]. وقال ابن عاشور: (وشأن المرتفَق أن يكون مكان استراحة، فإطلاقه على النار تهكم، كما أطلق على ما يزاد به عذابهم الإغاثة، وعلى مكانهم السرادق)[4]، وهذا الاستهزاء بالكفار عذاب معنوي يزيد في عذابهم؛ جزاء لهم من جنس استهزائهم بالصالحين، فعوقبوا بمثل ذلك جزاء وفاقاً.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢١٩.
(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٨.
(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٦ بتصرف واختصار.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٦ بتصرف واختصار.

وقفات مع الآية الكريمة

الوقفة الأولى- مهمة الداعية وحقيقة الانتصار:

في الآية بيان لمنهج الداعية ومهمته التي ينبغي القيام بها؛ وهي تبليغ وحي الله ﷻ للخلق، كما قال ﷺ: "بلغوا عني ولو آية"(١)، وقال: "نضر الله امرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمع فرب مبلغ أوعى من سامع"(٢)، فمهمة الداعية تبليغ الوحي صافياً خالياً من الشوائب، دون زيادة أو نقصان، إذ الوحي من الله أكمله ﷻ قبل موته ﷺ، كما قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، وكل زيادة فيه بدعة مردودة، قال ﷺ: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد"(٣)، لأنها اتهام للنبي ﷺ بالتقصير في البلاغ، أو رد لشهادة الله بإكمال الدين، وإن لم يقصد صاحبها وأتى بها عن حسن قصد، فكم من مريد للخير لا يبلغه!

وكل نقص في البلاغ بغير عذر متوعد بقوله ﷺ: "من كتم علماً ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار"(٤)، وقد يكون أمره أشد إن نقص من البلاغ ابتغاء مصالح متوهمة، ولا يؤمن عليه أن يدخل في قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٢٧٥ (٣٢٧٤).

(٢) سنن الترمذي ٥/ ٣٤ (٢٦٥٧)، وصححه الألباني.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٩٥٩ (٢٥٥٠)، صحيح مسلم ٣/ ١٣٤٣ (١٧١٨).

(٤) المستدرك ١/ ١٨٢ (٣٤٦)، قال الحاكم: على شرط الشيخين وليس له علة، ووافقه الذهبي.

﴿بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ [الجاثية]، فإن قام الداعية بذلك فقد أدى ما عليه وأبرأ الذمة، وهذا هو النجاح الحقيقي، وما وراء ذلك من النتائج وهداية الخلق، فليست وظيفته، ونجاحه لا يتوقف على الاستجابة، ودليل ذلك أن كل الأنبياء قد أدوا ما عليهم من واجب البلاغ، إلا أن منهم من يأتي يوم القيامة ومعه القليل، ومنهم من يأتي ولم يؤمن له أحد كما قال ﷺ: "عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد"(١)، فقد أدى هذا النبي ما عليه من البلاغ فكذبه قومه جميعاً وما نقص ذلك من واجبه، فإذا قام الداعية فليعلنها واضحة ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، ولا يضره أن يكثر أتباعه أو يقلوا.

نعم، المرء يفرح إن رأى ثمرة دعوته في كثرة الأتباع، ولا شيء في ذلك ما دام فرحا بفضل الله لا اغتراراً بنفسه، ففي الحديث: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ بِالْمُوْسِمِ، فَرَأَيْتُ أُمَّتِي، فَأَعْجَبَتْنِي كَثْرَتُهُمْ وَهَيْئَتُهُمْ قَدْ مَلَؤُوا السَّهْلَ وَالْجَبَلَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرَضِيتَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ"(٢)، ولكن إن لم يكثر أتباعه أو لم يتبعه أحد أصلاً فهذا لا ينقص من انتصاره بثباته على الحق والدعوة إليه.

ونحن اليوم حيث كثرت المناهج واختلطت الدعوات، في أمس الحاجة لمثل هذا الداعية الذي يدعو للحق الصافي، ثم يلقيها بين أظهر المستهزئين -وما أكثرهم- من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فإن فعل لم يضره كيدهم شيئاً، إلا كما قال الله ﷻ في أهل الكتاب: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢١٧٠ (٥٤٢٠)، صحيح مسلم ١/ ١٩٩ (٢٢٠).
(٢) صحيح ابن حبان ١٣/ ٤٤٨ (٦٠٨٤)، وحسنه شعيب الأرناؤوط.

أَذًىۚ﴾ [آل عمران]، أي بالتكذيب والاستهزاء. ولئن كثر أذاهم وعلت أصواتهم بما يملكون من وسائل إعلام يلبسون بها الحق بالباطل ويلبسون على الناس، فليس هذا دليلاً على انتصارهم وغلبتهم، لأن العبرة بالعاقبة، والعاقبة كما قال ربنا للمتقين، وعاقبة هؤلاء كما قال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾، وقال: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾ [التوبة].

إن التقويم الحقيقي لنتائج المعركة بين الحق والباطل، لا يمكن أن يكون على أساس مدة من الزمن لا تلبث أن تمضي، والأمر فيها بين الناس دُوَل، بل التقويم الحقيقي على ما يدوم ويبقى، فالانتصار الحقيقي في الدنيا لقيم الحق ومبادئه وإن هلك أصحابها، فلا تزول بخلاف الباطل وقيمه، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧﴾ [الرعد]، وأما الآخرة فالانتصار لمن نصر الحق ومبادئه، قال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [الحشر]، فهذه حقيقة الانتصار التي قد تغيب عن كثيرين.

ومن لم يفهم حقيقة الانتصار وظن أن النصر فقط في التمكين وإقامة الدولة، قد يستبطئ النصر فيقع في واحدة من ثلاث بلايا؛ الغلو أو الاستسلام أو التنازل، وقد سبق معنا في قصة أصحاب الكهف بيان نوعي الانتصار؛ الحسي والمعنوي، وأن الأول دوَل بين أهل الحق وأهل الباطل وفق السنن الكونية، وأن الثاني لا يكون إلا للمؤمنين، في الدنيا والآخرة، فأعظم انتصار يتمثل في الثبات على الحق دون زيادة أو نقصان،

وعلى هذا، فلا ينبغي أبداً لأصحاب الدعوات أن يقدموا تنازلات في بالثوابت -كما نرى اليوم- لما يتعرضون له من ضغوط داخلية أو خارجية، أو رجاء أن يستجيب الناس لهم أو أن يقبلهم الغرب والشرق، بل واجب الإنسان أن يلقي كلمة الحق ويمضي، والهداية من الله. والمرء لا يتنازل عن متاع الدنيا القليل، فكيف يتنازل عن دين الله بتأولات باطلة وقياسات فاسدة!

إن الذين زين لهم الشيطان هذه المصالح المزعومة بالتنازلات قد يفقدون دينهم، ويفتنون بعض الناس، ويسنون سنة سيئة عليهم وزرها ووزر من عمل بها، وربما لا يعذرون إن عرفوا كلام الأئمة والعلماء وأعرضوا عنه واتبعوا كلام المغمورين حديثي الأسنان. إن الساحة تمر بفتن من هذا النوع؛ مسألة حكمها مستقر، فيخرج من يشكك أو يقدم تنازلات ثم تقوم حملة تسانده، ويصدع العلماء بالحق فيأتي من يقول التبس الأمر علي. سبحان الله! وهل كنت تعرف هؤلاء من قبل بالعلم حتى يلتبس عليك؟ أفتترك قول العلماء الربانيين لقول من لا يعرف إلا بالغرائب ؟ وحتى لو كان المتنازِل عنده شيء من علم، فالموازنة مع الكثرة من كبار المشايخ لا تستقيم. ولا يقال هنا اعرف الحق تعرف أهله، ولا يقال نحن مطالبون باتباع الدليل، لأن هذا للعالم، وأما العامي فيقلد العالم التقي.

الوقفة الثانية- شؤم مجالس الأشرار وبركة مجالس الأخيار:

قال الرازي: (قال قائلون: ساءت النار منزلاً ومجتمعاً للرفقة لأن أهل النار يجتمعون رفقاء، [قال:] وأما رفقاء النار فهم الكفار والشياطين، والمعنى: بئس الرفقاء هؤلاء، وبئس موضع الترافق النار، كما أنه نعم

الرفقاء أهل الجنة، ونعم موضع الرفقاء الجنة)(١)، وهذا كما أنه في الآخرة فمثله في الدنيا، فكل المجالس التي تؤدي إلى النار فساءت مرتفقاً، بل هذه المجالس في الدنيا هي سبب اجتماعهم المشؤوم في النار والعياذ بالله!

وليس هذا خاصاً بأهل الكفر والنفاق، بل كل مجلس يؤدي إلى النار وإن لم يخلدوا فيها فساء مجلساً ومرتفقاً؛ فمجالس الغيبة والنميمة، ومجالس الكذب والبهتان، ومجالس اللهو المحرم، وغيرها فكلها ساءت مرتفقاً، بل يشمل مجالس الغفلة عن الذكر وإن خلت من الباطل، قال ﷺ: "ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم"(٢)، ومعنى ترة: أي حسرة وندامة.

ومما يزيد من شؤمها أن اجتماع أصحابها في النار لا يخفف عذابها، كما يخفف الاجتماع مصيبة الدنيا، قال ابن كثير رحمه الله في قوله: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف]: (أي: لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب. ولما كان الاشتراك في المصيبة في الدنيا يحصل به تسلية لمن شاركه في مصيبته، كما قالت الخنساء تبكي أخاها:

ولَوْلا كثرةُ الباكين حَوْلي عَلَى قَتْلاهم لقتلتُ نَفْسي
وما يَبْكُون مثلَ أخي ولكن أُسَلِّي النفسَ عنه بالتأسِّي

(١) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ٢٠٣.
(٢) سنن الترمذي ٥/ ٤٦١ (٣٣٨٠)، وصححه الألباني.

قطع الله بذلك بين أهل النار، فلا يحصل لهم تسلية ولا تخفيف)[١].

أما صحبة الأخيار فقد سبق أن من بركتها أنها لا تنقضي بانقضاء الدنيا، بل تجمع أهل الإيمان في مستقر رحمة الله وإن تفاوتت منازلهم، كما قال النبي ﷺ: "المرء مع من أحب"[٢]، قال النووي : (فيه فضل حب الله ورسوله ﷺ وأهل الخير الأحياء والأموات)[٣]، ولئن كان المرء يأنس في الدنيا بأهل الفضل، فكيف بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين في أعلى عليين؟ ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء].

الوقفة الثالثة- عزة الحق:

قال في الظلال: (﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾، بهذه العزة، والصراحة، والصرامة، فالحق لا ينثني ولا ينحني، إنما يسير في طريقه قيماً لا عوج فيه، قوياً لا ضعف فيه، صريحاً لا مداورة فيه. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. ومن لم يعجبه الحق فليذهب، ومن لم يجعل هواه تبعاً لما جاء من عند الله فلا مجاملة على حساب العقيدة؛ ومن لم يحن هامته ويطامن من كبريائه أمام جلال الله فلا حاجة بالعقيدة إليه.

العقيدة لا تعتز ولا تنتصر بمن لا يريدونها لذاتها خالصة، ولا يأخذونها كما هي بلا تحوير. والذي يترفع عن المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه لا يرجى منه خير للإسلام ولا المسلمين)[٤].

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٢٨ بتصرف يسير.

(٢) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٨٣ (٥٨١٦)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٣٤ (٢٦٤٠).

(٣) شرح النووي على مسلم ١٦/ ١٨٦. بتصرف يسير

(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٦٢ بتصرف واختصار.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٣١﴾ ﴾

مناسبة الآيتين لما سبق:

قال البقاعي: (فكأنه قيل: فما لمن آمن؟ فقال: {إن الذين ءامنوا} ولما كان الإيمان هو الإذعان للأوامر، عطف عليه ما يحقق ذلك فقال: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ثم عظم جزاءهم بقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ مشيراً بإظهار ضميرهم إلى أنهم استحقوا الوصفَ بالإحسان، فكأنه قيل: فما لهم؟ فقال مفصلاً لما أجمل من وعدهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي العالو الرتبة ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ أي إقامة، فكأنه قيل: ما لهم؟ فقيل: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ﴾ أي تحت منازلهم ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ فكأنه قيل: ثم ماذا؟ فقيل: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا﴾ وبنى الفعل للمجهول لأن القصد وجود التحلية، وهي لعزتها إنما يؤتى بها من الغيب فضلاً من الله. ولما كان الله أعظم من كل شيء، فكانت نعمه لا يحصى نوع منها، قال مبعضاً: ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة جمع سوار، كما يلبس ذلك ملوك الدنيا ولما كان لمقصودها نظر إلى التفضيل والفعل بالاختيار على الإطلاق، وقع الترغيب في طاعته بما هو أعلى من الفضة فقال مبعضاً أيضاً: ﴿مِن ذَهَبٖ﴾ أي هو في غاية العظمة. ولما كان اللباس جزاء العمل وكان موجوداً عندهم، أسند الفعل إليهم فقال: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا﴾ ثم وصفها بقوله: ﴿مِّن سُندُسٖ﴾ ما رقّ من الديباج ﴿وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ ما غلظ منه؛ ثم استأنف الوصف عن حال جلوسهم بأنه جلوس الملوك المتمكنين من النعيم فقال: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي لأنهم في غاية الراحة ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾ أي

الأسرة عليها الحجل، ثم مدح هذا فقال: ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ لو لم يكن لها وصف غير ما سمعتم، فكيف ولها من الأوصاف ما لا يعلمه حق علمه إلا الله! وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿وَحَسُنَتۡ﴾ أي الجنة كلها، وميز ذلك بقوله: ﴿مُرۡتَفَقًا﴾)[١].

فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال السعدي: (أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات)[٢].

وقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾

قال القرطبي: (وفي الكلام إضمار أي لا نضيع أجر من أحسن منهم عملاً، فأما من أحسن عملاً من غير المؤمنين فعمله محبط)[٣]. قال ابن عاشور: (الإضاعة: جعل الشيء ضائعاً. وحقيقة الضيعة: تلف الشيء من مظنة وجوده. وتطلق مجازاً على انعدام الانتفاع بموجود فكأنه قد ضاع وتلف، قال تعالى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾آل عمران (١٩٥)، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾ البقرة (١٤٣). ويطلق على منع التمكين والانتفاع تشبيهاً للممنوع بالضائع في اليأس كما في الآية، أي أنا لا نَحْرم من أحسن عملاً أجرَه. ومنه قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠﴾ [التوبة])[٤]. قال السعدي: (وإحسان العمل: أن يريد العبد العمل لوجه الله، متبعاً في ذلك شرع الله، فهذا العمل لا يضيعه الله، ولا شيئاً منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيهم من الأجر، بحسب عملهم وفضله

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٣ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥.
(٣) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٤٣.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٧ بتصرف واختصار.

وإحسانه)(١)، فأعظم الضيعة من ضيع آخرته ويحسب أنه يحسن صنعا ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قال ابن عاشور: (وافتتاح الجملة باسم الإشارة تنبيه على أن المشار إليهم جديرون لما بعده لأجل الأوصاف المذكورة قبله، بأن آمنوا وعملوا الصالحات)(٢).

وقوله: ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي بساتين إقامة في الآخرة؛ عدن: أي إقامة.

وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾

أي تجري من دونهم وبين أيديهم، أو تجري تحت غرفهم ومنازلهم، وقال ابن عثيمين رحمه الله: (الأنهار جمع نهر، وهي أربعة أنواع ذكرها الله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد])(٣). فأنهار الجنة مما لذ وطاب في الدنيا، غير أن لها سرورا محضا لا شائبة فيه، وليس لها أخاديد كالدنيا وهذا من مزيد جمالها، وخمرها خالية من الآفات ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات]، قال ابن كثير: (كما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة] فنزه الله خمر الآخرة عن آفات خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن وذهابها

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥.

(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٨ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير سورة الكهف بتصرف يسير.

بالعقل جملة)[١]، قال ابن عاشور: (فاجتمع في هذا الخبر عدة مقررات لمضمونه: التأكيد مرتين [إن الذين، إنا]، واسم الإشارة [أولئك]. ولام الملك [لهم]، وجر اسم الجهة بـ(مِن) وإضافته إلى ضميرهم [مِن تحتهم]، والمقصود من ذلك: التعريض بإغاظة المشركين لتتقرر بشارة المؤمنين أتَمّ تقرر)[٢].

وقوله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾

التحلية هي التزيين، والأساور (قال الزجاج: جمع أَسْوِرَة، وأَسْوِرَة جمع سِوَار، يقال: سِوار اليد، بالكسر، وقد حكي: سُوار. قال المفسرون: لما كانت الملوك تلبَس الأساور في اليد والتيجان على الرؤوس، جعل الله ذلك لأهل الجنة)[٣]. قال ابن عاشور: (فصيغة جَمع الجمع للإشارة إلى اختلاف أشكال ما يحلون به منها، فإن الحلية تكون مرصعة بأصناف اليواقيت)[٤]، وقال الألوسي: (ونكرت [أي أساور] لتعظيم حسنها من الإحاطة)[٥].

وقال ابن عاشور: (اللِباس: ستر البدن بقميص أو إزار أو رداء، للوقاية من الحر والبرد وللتجمل. والثياب: جمع ثوب، الشقة من النسيج. واللون الأخضر أعدل الألوان، وكان من شعار الملوك. قال النابغة:

يصونون أجساداً قديماً نعيمُها بخالصة الأردان خُضْرِ المناكب

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ١٣ بتصرف واختصار.
(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٨ بتصرف واختصار.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٢٠ بتصرف واختصار.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٨.
(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٤٤.

والسندس: صنف من الثياب، وهو ديباج رقيق يلبس مباشراً للجلد ليقيه غلظ الإستبرق. والإستبرق: الديباج الغليظ المنسوج بخيوط الذهب، يلبس فوق الثياب المباشرة للجلد، وكلا اللفظين معرب)(١)، قال البغوي رحمه الله: (معنى الغلظ في ثياب الجنة: إحكامه)(٢). قال الألوسي: (والظاهر أن لباسهم غير منحصر فيما ذكر، إذ لهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وقيل: يحتمل الانحصار، ولهم فيها ما تشتهي الأنفس لا يأباه، لجواز أنهم لا يشتهون سوى ذلك، والتنكير لأنها لا يكاد يوصف حسنها)(٣).

لطائف:

١- قال الألوسي رحمه الله: (وفي الجمع بين السندس والإستبرق إشعار بأن لأولئك القوم في الجنة ما يشتهون، ونكرا لتعظيم شأنهما، وكيف لا وهما وراء ما يشاهد من الدنيا، بل وما يتخيل من ذلك)(٤).

٢- وقال: (وقدمت التحلية على اللباس لأن الحلي في النفس أعظم، وفي القيمة أغلى، وفي العين أحلى، وبني فعله للمفعول إشعاراً بأنهم لا يتعاطون ذلك بأنفسهم وإنما يفعله الخدم كما قال الشاعر:

غرائز في كن وصون ونعمة ... يحلين ياقوتاً وشذراً مفقراً

وكذلك سائر الملوك في الدنيا يُلبسهم التيجان ونحوها خدمُهم)(٥).

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٨ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٦٩.

(٣) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٤٥ بتصرف واختصار.

(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٤٧ بتصرف واختصار.

(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٤٧ بتصرف واختصار.

٣- وقال: (وأسند اللبس إليهم لأن الإنسان يتعاطى ذلك بنفسه خصوصاً إذا كان فيه ستر العورة، وقيل: بني الأول للمفعول والثاني للفاعل إشارة إلى أن التحلية تفضل من الله تعالى واللبس استحقاقهم)[١].

٤- قال الرازي عن لباس أهل الدنيا: (إما لباس التحلي، وإما لباس التستر، أما لباس التحلي فقال في صفته: {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ} والمعنى أنه يحليهم ذلك أو تحليهم الملائكة وأما لباس التستر فقوله: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ والمراد: من سندس الآخرة وإستبرق الآخرة)[٢]، وفي هذا تسلية لضعفة المؤمنين الذين أراد مترفو كفار قريش طردهم لما يجدونه من ريحهم ورثاثة ثيابهم، وفيه تعريض بأولئك المتكبرين المغترين بما هم فيه من نعيم زائل بما لا نسبة بينه وبين نعيم الجنة المقيم.

قال السعدي: (ودلت الآية وما أشبهها، على أن الحلية، عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث لأنه أطلقها في قوله: ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ وكذلك الحرير ونحوه)[٣]، قال الألوسي: (والسؤال بأن لبس الرجال الأساور عيب في الدنيا، فكيف يحلونها في الآخرة؟ مندفع بأن كونه عيباً إنما هو بين قوم لم يعتادوه، لا مطلقاً والشيء قد يكون عيباً بين قوم دون آخرين، وليس فيما نحن فيه أمر عقلي يحكم بكونه عيباً كل وقت وكل مكان وبين كل قوم)[٤].

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٤٧.
(٢) تفسير الرازي ٢١/ ٤٦١ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٤٤ بتصرف واختصار.

٥ - من القواعد أن من تعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه، وقد نهى النبي ﷺ عن شرب الخمر، ولبس الحرير للرجال، فمن عصى حرم هذا النعيم في الآخرة، قال ﷺ: "مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِمَهَا فِي الآخِرَةِ"(١)، و"مَنْ لَبِسَ الحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا فَلَنْ يَلْبَسَهُ فِي الآخِرَةِ"(٢).

وقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾

قال ابن الجوزي: (الاتّكاء: التحامل على الشيء. قال أبو عبيدة: الأرائك: الفُرُش في الحِجَال، ولا تكون الأريكة إلا بحَجَلة وسرير، وقال ابن قتيبة: السُّرُر في الحِجال. وقال ثعلب: لا تكون إلا سريراً في قُبَّة عليه متاعه. وقيل: إنها الفُرُش، وقيل: الأسِرَّة، وهي على الحقيقة: الفُرُش كانت في حِجال لهم)(٣)، وقال ابن كثير: (الاتكاء قيل: الاضطجاع وقيل التربع في الجلوس، قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرُ، عن قتادة: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ قال: هي الحجال. قال معمر: وقال غيره: السّرُر في الحجال)(٤)، و الحجال جمع حَجَلَة، (بيت كالقُبَّة يستر بالثياب ويكون له أَزرار كبار)(٥). قال الزمخشري: (وخص الاتكاء، لأنه هيئة المنعمين والملوك)(٦)، وقال

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢١١٩ (٥٢٥٣)، صحيح مسلم ٣/ ١٥٨٨ (٢٠٠٣).
(٢) صحيح البخاري ٥/ ٢١٩٤ (٥٤٩٤)، صحيح مسلم (٣/ ١٦٤٥ (٢٠٧٣).
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٢٠ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٦ بتصرف واختصار.
(٥) لسان العرب ١١/ ١٤٣.
(٦) الكشاف ٤/ ١١.

السعدي: (وفي اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كمال الراحة، وزوال النصب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون)(١).

وقوله: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾

قال الطبري: (نعم الثواب جنات عدن، وما جعل لهؤلاء الذين آمنوا، وحسنت هذه الأرائك في هذه الجنان متكأ)(٢)، وقال ابن كثير: (حسنت منزلاً ومقيلاً ومقامًا، كما قال في النار: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩﴾ [الكهف]، وهكذا قابل بينهما في قوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾ [الفرقان])(٣). قال السعدي: (فهذه الدار الجليلة ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ للعاملين ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من الفرح الدائم، واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة، وأي مرتفق أحسن من دار، أدنى أهلها يسير في ملكه وقصوره وبساتينه ألفي سنة، ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطي جميع أمانيه، وزيد ما قصرت عنه الأماني، ومع ذلك فنعيمهم متزايد في أوصافه وحسنه، فنسأل الله أن لا يحرمنا خير ما عنده من الإحسان، بشرِّ ما عندنا من التقصير والعصيان)(٤).

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١٨ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٦ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥ بتصرف واختصار.

وقفتان

الأولى- شبهة حول عربية القرآن وجوابها:

سرادق وسندس وإستبرق معربة، ويوجد في القرآن كلمات أخرى قيل إنها معربة، فيثير بعض الناس الشكوك؛ إذ كيف يقال ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١٩٥﴾ [الشعراء]، وفيه كلمات غير عربية؟

وللجواب عن هذه الشبهة لا بد أن نبين أن هذه المسألة قد وقع فيها خلاف بين أهل العلم قديماً، قال السيوطي: (فالأكثرون ومنهم الإمام الشافعي وابن جرير وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر وابن فارس على عدم وقوعه فيه لقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ﴾ وقد شدد الشافعي النكير على القائل بذلك)[1]، وهذا يعني أن كل الكلمات التي وردت في القرآن وقيل إنها غير عربية فالصواب عكس ذلك وأن أصلها عربي، وقد أرجعوا ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه وغيره من القول بأعجمية بعض الكلمات إلى اتساع اللغة جداً بحيث يمكن أن يخفى بعضها عن الأجلة، حتى (قال الشافعي في الرسالة: لا يحيط باللغة إلا نبي)[2]، قال السيوطي: (وذهب آخرون إلى وقوعه فيه وأجابوا عن قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرجه عن كونه عربياً، والقصيدة الفارسية لا تخرج عنها بلفظة فيها عربية. وعن قوله تعالى: ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ﴾ بأن المعنى من السياق

(١) الإتقان ١/ ٣٩٣.

(٢) الإتقان ١/ ٣٩٤.

أكلام أعجمي ومخاطَب عربي؟)[١]، قال: (وأقوى ما رأيته للوقوع -وهو اختياري- ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبي ميسرة التابعي الجليل قال: في القرآن من كل لسان، وروي مثله عن سعيد بن جبير ووهب بن منبه)[٢]، قال: (وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، لكنها وقعت للعرب فعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال إنها عربية فهو صادق، ومن قال أعجمية فصادق، ومال إلى هذا القول الجواليقي وابن الجوزي وآخرون)[٣].

وبهذا تندفع هذه الشبهة؛ أما على قول الأكثرين فلا إشكال ابتداء، وأما على قول من قال بالوقوع فهذا إنما كان في كلمات صارت عربية باستعمال العرب لها كما تقدم عن أبي عبيد.

فإذا سأل سائل عن سبب ذلك ولماذا لم يُستغنَ بكلمات أصولها عربية، فقد نقل السيوطي عن الخويي كلاماً نفيساً في الرد عليه عند الكلام على لفظة (إستبرق)، قال ﷺ: (إن قيل إن إستبرق ليس بعربي وغير العربي من الألفاظ دون العربي في الفصاحة والبلاغة، فنقول: لو اجتمع فصحاء العالم ليأتوا بلفظ يقوم مقامها في الفصاحة لعجزوا عن ذلك، لأن الله إذا حث عباده على الطاعة فإن لم يرغبهم بالوعد الجميل ويخوفهم بالعذاب الوبيل لا يكون حثه على وجه الحكمة، فالوعد

(١) الإتقان ١/ ٣٩٤.
(٢) الإتقان ١/ ٣٩٤.
(٣) الإتقان ١/ ٣٩٥-٣٩٦.

والوعيد نظراً إلى الفصاحة واجب، ثم إن الوعد بما يرغب فيه العقلاء، وذلك منحصر في أمور الأماكن الطيبة، ثم المآكل الشهية ، ثم المشارب الهنية، ثم الملابس الرفيعة، ثم المناكح اللذيذة ثم ما بعده مما يختلف فيه الطباع... وكان ينبغي أن يذكر من الملابس ما هو أرفعها، وأرفع الملابس في الدنيا الحرير، وأما الذهب فليس مما ينسج منه ثوب، ثم إن الثوب الذي من غير الحرير لا يعتبر فيه الوزن والثقل، وربما يكون الصفيق الخفيف أرفع من الثقيل الوزن، وأما الحرير فكلما كان ثوبه أثقل كان أرفع، فحينئذ وجب على الفصيح أن يذكر الأثقل والأثخن ولا يتركه في الوعد لئلا يقصر في الحث والدعاء، ثم هذا الواجب الذكر إما أن يذكر بلفظ واحد موضوع له صريح أو لا يذكر بمثل هذا، ولا شك أن الذكر باللفظ الواحد الصريح أولى لأنه أوجز وأظهر في الإفادة وذلك إستبرق، فإن أراد الفصيح أن يترك هذا اللفظ ويأتي بلفظ آخر لم يمكنه لأن ما يقوم مقامه إما لفظ واحد أو ألفاظ متعددة، ولا يجد العربي لفظاً واحداً يدل عليه لأن الثياب من الحرير عرفها العرب من الفرس ولم يكن لهم بها عهد، ولا وضع في اللغة العربية للديباج الثخين اسم، وإنما عربوا ما سمعوا من العجم واستغنوا به عن الوضع لقلة وجوده عندهم وندرة تلفظهم به، وأما إن ذكره بلفظين فأكثر فإنه يكون قد أخل بالبلاغة لأن ذكر لفظين لمعنى يمكن ذكره بلفظ تطويل، فعلم بهذا أن لفظ إستبرق يجب على كل فصيح أن يتكلم به في موضعه، ولا يجد ما يقوم مقامه، وأي فصاحة أبلغ من أن لا يوجد غيره مثله)[1].

---

(١) الإتقان ١/ ٣٩٧.

الثانية- التربية بالثواب والعقاب:

وهو مبدأ يتكرر كثيراً في كتاب الله ﷻ، فيندر أن نجد آية وعيد منفردة عن آية وعد أو العكس، وما ذلك إلا لما جبلت عليه النفوس من تطلع إلى المكافأة، ومن عدم الارتداع إلا بالتلويح بالمعاقبة عليها، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن هذا الاقتران من لوازم الحكمة والفصاحة، كما تقدم في قول الخويي وذلك قوله: (الله تعالى إذا حث عباده على الطاعة فإن لم يرغبهم بالوعد الجميل ويخوفهم بالعذاب الوبيل لا يكون حثه على وجه الحكمة، فالوعد والوعيد نظراً إلى الفصاحة واجب)(١).

وهذا يعطي دافعاً قوياً للمربين؛ إلى ضرورة الاهتمام بهذا الجانب وعدم إغفاله، لأن هذا الأسلوب كما هو ضروري لتربية الكبار وسوقهم للالتزام بالشرع، مع ما فيه من مصالح ظاهرة تحمل بذاتها دافعاً كبيراً لالتزامه، فمن باب أولى أن يكون ضرورياً في تربية الصغار الذين قد لا تدرك عقولهم مصالح ذلك، فيأتي مبدأ الثواب والعقاب معيناً لهم ومحفزاً على التزام تلك الأوامر والنواهي. ولا بد في هذا الباب من التوازن - ويحتاج إلى ميزان دقيق وحكمة- كي لا يطغى جانب على آخر.

ومن الدروس في أسلوب الوعد والوعيد البدء بإبهام ما يترتب على الطاعة والمعصية، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، هذا الإبهام الذي يجعل النفوس تشرئب وتتطلع لمعرفة ما لكل من الفريقين، فإذا حصل هذا الاهتمام والتطلع جاء البيان.

ومن الدروس البدء بإجمال الثواب والعقاب ثم تفصيل ذلك، فهو يزيد من تهيئة القلوب لوعي ما يقال على وجهه، وقد جاءت الآيات بهذا

---

(١) الإتقان١/ ٣٩٥.

الأسلوب في باب الثواب، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ فهذا إجمال، ثم قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ...﴾ الآية، فهذا تفصيل.

*****

تفسير الآيات من قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

مناسبة الآيات لما قبلها:

انتقل القرآن الكريم في هذه الآيات إلى ذكر قصة هذين الرجلين رغم أن الكفار لم يسألوا عنها لحكم عظيمة اشتملت عليها، فمن ذلك:

١ - أن الكفار كانوا قد ألقوا أسماعهم لمعرفة جواب ما سألوا عنه من شأن أصحاب الكهف، فكانت فرصة جيدة ليقرعها ما في هذه القصة من الحكم والمواعظ لعلهم يرجعون. قال الرازي: (المقصود أن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين فبين الله أن ذلك لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنياً والغني فقيراً، أما حصول المفاخرة فبطاعة الله وعبادته وهي حاصلة لفقراء المؤمنين وبين ذلك بضرب المثل)[1]. وقال القرطبي: (هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين، وهو متصل بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾)[2]، وبين ابن عاشور أن في القصة مثلاً للفريقين فقال: (ليظهر للفريقين ما يجره الغرور والإعجاب والجبروت إلى صاحبه من الأرزاء، وما يلقاه المؤمن المتواضع

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ٢٠٥ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٤٦.

العارف بسُنن الله من التذكير والتدبر في العواقب فيكون معرضاً للصلاح والنجاح)[(١)]، وفي هذا وعيد للمتكبرين، وتسلية لضعفاء المؤمنين.

٢- أن اليهود عرفوا بحب المال وجمعه، بل يكادون يعبدون المال، فلا يبالون من أين يجمعونه، فشنع عليهم بقوله: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المائدة]، وقال: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ﴾ [النساء: ١٦١]. ووصل اعتدادهم بالمال أن قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران]، تعالى الله عما يقولون، ورغم حبهم للمال لم يسألوا عنه مع أنه من الفتن العظيمة وهم متلبسون بها، فكان في ذكر هذه القصة نوع تعريض بهم من جهتين؛ الأولى عاقبة من يسقط في هذه الفتنة، والثانية عدم اهتمامهم وسؤالهم عنها.

وملخص القصة أن الله أنعم على رجل ببستانين من أعناب وزروع يحيط بهما النخيل وجعل له خلالهما نهراً، وأكرمه بنتاج وفير، فكفر هذه النعمة عوضاً عن الشكر واستكبر بما آتاه الله من مال وولد على صاحبه المؤمن، ثم ازداد علواً وظن أن ذلك لا يزول أبداً، وأنه إن كان يوم القيامة حقاً فإن الله سينعم عليه في الآخرة كما أنعم عليه في الدنيا، فوعظه صاحبه موعظة بليغة ونهاه عن الكفر والشرك، وتبرأ منهما، وبين له أنه كان خيراً له أن يشكر الله على نعمه لأنه قادر على أن يسلبه إياها، وألا يتكبر لأن الله قادر على أن يعطيه خيراً مما أعطاه، فوقع ما حذره منه؛ فخربت ثمار البستانين ولم يكن له من يدفع عنه أمر الله، فكان من النادمين.

ففي القصة تشبيه لحال المتكبرين الذين أرادوا طرد ضعفة المؤمنين بهذا الكافر المتكبر صاحب الجنتين، وتشبيه لحال ضعفة المؤمنين بحال

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٠.

صاحبه المؤمن ليعتبروا بها آلت إليه حال الكافر، وفي قصة الرجلين شبه بحال أصحاب الكهف مع قومهم، وكل هذا تأكيد أن العاقبة للمتقين.

ويمكن تقسيم القصة إلى ثلاث مقاطع: وصف حال الكافر وجنتيه وما أنعم الله عليه فيهما، والحوار الذي دار بين الرجلين، والمآل والعاقبة.

الفقرة الأولى- وصف حال الكافر وجنتيه:

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾

فقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾

هذا أمر للنبي ﷺ أن يقص عليهم من أمر الرجلين ليعتبروا، والمعنى إما: قص عليهم قصة الرجلين، أو قص عليهم حال الرجلين التي تشبه حالهم، قال ابن عاشور: (واللام في قوله: ﴿لَهُم﴾ يجوز أن يتعلق بفعل ﴿وَاضْرِبْ﴾ كقوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم]. ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿مَّثَلًا﴾ تعلق الحال بصاحبها، أي شبهاً للفريقين كما في قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، والوجهُ أن يكون متنازعاً فيه بين ضَرب، ومثَلاً. والضمير في: ﴿لَهُم﴾ يعود إلى المشركين من أهل مكة على الوجه الأول ولم يتقدم لهم ذكر، ويعود إلى جماعة الكافرين والمؤمنين على الوجه الثاني)[1]. فالمراد على الأول كما قال السعدي رحمه الله: (اضرب للناس مثل هذين الرجلين، الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما، من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٠ بتصرف واختصار.

والآجل، والثواب، ليعتبروا بحالهما)[1]، والمراد على الثاني: ضربهما مثلاً للفريقين المؤمنين والكافرين من حيث عصيان الكفرة مع تقلبهم في نعم الله وطاعة المؤمنين مع مشاق الفقر، وعاقبة كليهما ليعتبر أولو الأبصار.

وقوله: ﴿رَّجُلَيْنِ﴾

اختلف المفسرون هل هما محققان أم مقدران، واختلف أصحاب القول الأول في تعيينهما، فقيل: هما رجلان من أهل مكة من بني مخزوم، أحدهما كافر وهو الأسود بن عبد الأشد بن عبد ياليل، والآخر مسلم وهو أخوه أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشد بن عبد ياليل، وكان زوجَ أم سلمة قبل أن يتزوجها رسول الله ﷺ. وقيل: إنهما أخوان من بني إسرائيل مات أبوهما وترك لهما مالاً فاشترى أحدهما أرضاً وجعل فيها جنتين، وتصدق الآخر بماله، وكان مصيرهما في الآخرة كما في سورة الصافات: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الصافات] الآيات[2]، قال السعدي رحمه الله: (وليس معرفة أعيان الرجلين، وفي أي زمان أو مكان هما، فائدة، فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط)[3]. والقول أنهما مقدران ممنوع لما في القصة من قول كل منهما ورده على صاحبه، فحكاية القرآن ذلك دليل على وقوعه، والله أعلم.

وقوله: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾

المراد بأحدهما الكافر كما يظهر من السياق، أي آتيناه بستانين من الكروم وجعلنا النخيل يحيط بهما، قال البغوي رحمه الله: (والحفاف: الجانب وجمعه أحفة، يقال: حف به القوم أي: طافوا بجوانبه... أي: جعلنا حول

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٦.
(٢) ينظر التحرير والتنوير لابن عاشور ٨/ ٣٧٠.
(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٦ بتصرف واختصار.

الأعناب النخيل)[1]، قال البقاعي: (أي بستانين يستر ما فيهما من الأشجار من يدخلهما على أي وضع من الأوضاع كانتا ﴿مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ لأنها من أشجار البلاد الباردة وتصبر على الحر، وهي فاكهة وقوت بالعنب والزبيب والخل وغيرها ﴿بِنَخْلٍ﴾ لأنها من أشجار البلاد الحارة، وتصبر على البرد، وربما منعت عن الأعناب بعض أسباب العاهات، وثمرها فاكهة بالبسر والرطب وقوت بالتمر والخل فكأن النخل كالإكليل من وراء العنب، وهو مما يؤثره الدهاقين[2] لأنه في غاية البهجة والمنفعة)[3].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾

قال البقاعي: (﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ الجنتين ﴿زَرْعًا﴾ لبعد الآفة، لأن زمان الزرع ومكانه غير زمان الإثمار ومكانه، وذلك العمدة في القوت، فكانت الجنتان أرضاً جامعة لخير الفواكه والأقوات، وعمارتهما متواصلة لم يتوسطها ما يقطعها، مع سعة الأطراف، وتباعد الأكناف، وحسن الأوصاف)[4].

وقوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾

قال الطبري: (كلا البستانين أطعم ثمره وما فيه من الغروس من النخل والكرم وصنوف الزرع ولم تنقص من الأُكُل شيئاً، بل آتت ذلك تاماً، ومنه قولهم: ظلم فلان فلاناً حقَّه: إذا نقصه، وسيَّلنا خلال البستانين

---

(١) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٧٠-١٧١.

(٢) قال ابن منظور في لسان العرب ١٣/ ١٦٣: "الدِّهقان: التاجر، فارسي معرَّب".

(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٤ بتصرف واختصار.

(٤) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٤ بتصرف واختصار.

نهراً، يعني بينهما وبين أشجارهما نهراً. وقيل: (وَفَجَّرْنَا) فثقل الجيم منه، لأن التفجير في النهر كله، وذلك أنه يميد ماء فيُسَيِّل بعضُه بعضاً)[١].

يقول السعدي رحمه الله واصفاً الجنتين: (أي: في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصا أشرف الأشجار، العنب والنخل، فالعنب في وسطها، والنخل حف بذلك ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح، التي تكمل بها الثمار وتنضج، ومع ذلك جعل بين الأشجار زرعاً، فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفيهما؟ فأخبر أن كلاً من الجنتين آتت أكلها، أي: ثمرها وزرعها {و} أنها {لم تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا} أي: لم تنقص من أكلها أدنى شيء، ومع ذلك، فالأنهار في جوانبهما سارحة، كثيرة غزيرة)[٢].

لطيفة- دلت الآية على أن النقص ظلم؛ فنقص الرجل زوجه والعكس، ونقص الأب أولاده، والمسؤول والمربي من ولاهما الله عليهم، كل هذا ظلم، ولو أن أي نقص وقع عددناه ظلما لتغيرت حالنا.

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١٩-٢٠ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير السعدي ١/ ٤٧٦ بتصرف واختصار.

وقفتان مع الآية الكريمة

الأولى- التربية بضرب المثل:

في الآيات يضرب الله ﷻ مثلاً لحال الكافرين المترفين المتكبرين وحال ضعفة المؤمنين، بحال الكافر والمؤمن، وضرب الأمثال أسلوب متبع في القرآن، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر]. قال ابن تيمية رحمه الله على ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: (لا خلاف بين المسلمين أن في القرآن أمثالاً بل يقال فيه أكثر من أربعين مثلاً)[1]، ولأهمية الأمثال عُني المفسرون بما ضربه الله ﷻ منها، كما أفرده بعض العلماء بمؤلفات؛ كالجنيد (ت ٢٩٨)، وأبي عبد الرحمن السلمي (ت ٤٠٦)، والماوردي (ت ٤٥٠)، وابن القيم (ت ٧٥١) رحمهم الله.

والأمثال التي ضربها الله ﷻ في القرآن إنما ضربها لحكم جليلة وفوائد عظيمة، يقول القنوجي: (والمثل يصور المعاني بصورة الأشخاص، وفائدته جمة؛ منها تقرير المراد، وتقريبه للعقل، وتصويره بصورة المحسوس، إلى غير ذلك. قال الماوردي: من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه)[2]، ويقول السعدي رحمه الله: (يستفاد من المثل أمور: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس. وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت

---

(١) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية ١/ ٣١٤ بتصرف واختصار.

(٢) أبجد العلوم ٢/ ٤٩٢-٤٩٣.

الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر)(١). وبضرب المثل: (يتبين المعنى الذي أراده الله غاية البيان، ويتضح غاية الوضوح، من رحمته وحسن تعليمه)(٢).

وهذا يجعلنا نولي ضرب الأمثال في التربية اهتماماً متزايداً، لأنه لا يأخذ حقه، فلا بد من الإكثار من ضرب الأمثال للكبار والصغار تأسياً بأسلوب القرآن الكريم، وإذا كان الكبار بحاجة إلى تقريب المعاني والمعقولات بصورة المحسوسات فلا شك أن الصغار أشد حاجة لذلك.

الثانية- في ذكر النخيل والأعناب: من اللافت في القرآن كثرة ذكر النخيل والأعناب معا، فمن ذلك: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ [الرعد: ٤]، وقوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ٣٤﴾ [يس]، وغيرها كثير. ومن أسباب ذلك:

١ = قال الطبري: (لأن هذين النوعين من الثمار كانا هما أعظم ثمار الحجاز وما قرب منها، فكانت النخيل لأهل المدينة، والأعناب لأهل الطائف، فذكَّر القوم بما يعرفون من نعمة الله عليهم)(٣).

٢ = وقال ابن الجوزي: (لأنهما من أنفس ما يكون في البساتين)(٤).

٣= وقال الرازي: (قدم النخل على سائر الفواكه لأن التمر يجري مجرى الغذاء عند العرب وذكر العنب عقيبه لأنه أشرف أنواع الفواكه،

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٣٤ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير السعدي ١/ ٤٢٥ بتصرف يسير.
(٣) تفسير الطبري ١٩/ ٢١.
(٤) زاد المسير في علم التفسير ١/ ٢٤٠.

لأنه من أول ما يظهر يصير منتفعا به إلى آخر الحال، فأول ما يظهر يظهر خيوط خضر لذيذة المطعم ثم بعده الحصرم، وهو طعام شريف للأصحاء والمرضى، وقد يتخذ الحصرم أشربة لطيفة المذاق نافعة لأصحاب الصفراء، وقد يتخذ الطبيخ منه، فكأنه ألذ الطبائخ الحامضة. ثم إذا تم العنب فهو ألذ الفواكه، ويمكن ادخاره سنة، وهو ألذ الفواكه المدخرة)(١).

٤= وقال ابن عادل الحنبلي: (وإنما ذكر النخيل والأعناب لكثرة منافعهما فإنهما يقومان مقام الطعام والإدام والفاكهة رطباً ويابساً)(٢).

٥= أن ثمارهما طيبة الطعم وأنها تجنى وتؤكل بدون عناية زائدة.

٦= أن حفظهما سهل فالرطب يصبح تمراً والعنب يصبح زبيبا.

٧= أنهما من أقل الأشجار تعرضا للمرض، والله أعلم.

*****

الفقرة الثانية- الحوار:

أولاً- مقالة الكافر للمؤمن:

قال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾

والكلام موصول عن صاحب الجنتين، فبعد أن بين ما آتاه من النعيم مما قل أن يوجد عند كثير من أهلها ابتلاء واختباراً، ذكر مقالته لصاحبه المؤمن وهو يحاوره، تلك المقالة المملوءة غروراً وتعالياً وتكبراً وجحوداً.

---

(١) تفسير الرازي ١٣/ ٨٦ بتصرف واختصار.

(٢) اللباب في علوم الكتاب ١٤/ ١٨٨.

فقوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾

قال السعدي: (﴿ثَمَرٌ﴾ أي: عظيم كما يفيده التنكير، أي: قد استكملت جنتاه ثمارهما، وارجحنت(١) أشجارهما، ولم تعرض لهما آفة، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا اغتر بهما، وتبجح وافتخر، ونسي آخرته)(٢)، وقال ابن كثير: ({وَكَانَ لَهُ ثُمُرٌ} [بضم الثاء والميم] قيل: المراد به: المال؛ رُوي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: الثمار وهو أظهر هاهنا، ويؤيده القراءة الأخرى: {وكان له ثُمْر} بضم الثاء وتسكين الميم، فيكون جمع ثَمَرَة، كَخَشَبَة وخُشْب، وقرأ آخرون: {ثَمَرٌ} بفتح الثاء والميم)(٣)، وقال الطبري: (وكان له منهما " ثُمُرٌ " بمعنى من جنتيه أنواع من الثمار وقد بين ذلك قولُه: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ٣٢﴾ ثم قال: وكان له من هذه الكروم والنخل والزرع ثمر)(٤).

وقوله: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾

الفاء تدل أن ما هجر به الكافر من قول وهو يخاطب المؤمن تفريع على ما سبق بيانه من النعم، فبدل أن تكون النعم سبباً كي يشكر المنعم ولا يتكبر على عباده المؤمنين، كانت سبباً للجحود ولاستمراء الكفر والطغيان، قال ابن عاشور: (لأن ما تضمنته الجمل السابقة من شأنه أن ينشأ عنه غرور بالنفس يَنطق ربه عن مثل ذلك القول [قال:] وجملة ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ حال من ضمير ﴿فَقَالَ﴾)(٥)، أي الكافر لصاحبه المؤمن حال كونه

---

(١) أي مالت بها ثمارها لتمامها وكثرتها، ينظر لسان العرب ١٣/ ١٧٦، مادة (رجحن).
(٢) تفسير السعدي ١/ ٤٧٦-٤٧٧ بتصرف يسير.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٧.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٢٢-٢٣، بتصرف يسير.
(٥) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٢ بتصرف واختصار.

يحاوره. قال ابن الجوزي رحمه الله: (﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥ﴾ أي: يراجعه الكلام ويجاوبه. وفيما تحاورا فيه قولان؛ أحدهما: أنه الإيمان والكفر. والثاني: طلب الدنيا، وطلب الآخرة)(١)، أقول: الصواب من ذلك أن حوارهما قد جمع ذلك كله كما بينت الآيات التالية، وأن كلاً منهما ربط أمر طلب الدنيا والآخرة، بأمر الكفر والإيمان، وإن كان البون بينهما شاسعا.

فائدة- مع إيمان أحدهما وكفر الآخر وصف بالصاحب، فليست صحبة الإيمان، وإنما تعني المقارنة أو الاجتماع على أمر، ولا يلزم أن يرضى عن دين صاحبه، بل إن القرآن قد استعمل لفظ الأخوة ولم يرد منها الإيمان، فلفظ الصحبة أولى، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الشعراء]، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الشعراء]، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الشعراء]، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [الشعراء]، ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف: ٨٥].

والمقصود بالأخوة هنا الانتماء إلى عائلة أو قبيلة أو قوم، يدل على ذلك أن شعيباً عليه السلام لما دعا أصحاب الأيكة قال تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الشعراء]، ذلك أنهم لم يكونوا من قومه أهل مدين، قال ابن عاشور: (والذي يشهد لذلك أن القرآن لما ذكر القصة لأهل مدين وصف شعيباً بأنه أخوهم، ولما ذكرها لأصحاب ليكة لم يصفه بأنه أخوهم إذ لم يكن نسيبا ولا صهرا لهم، وهذا إيماء دقيق إلى هذه النكتة)(٢). فلا ينبغي التسرع بتبديع من يصف المنحرفين بالأخوة،

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٢٢.

(٢) التحرير والتنوير ١٩/ ١٨٤ بتصرف واختصار.

فربما أراد تأليف قلوبهم وأضمر ذلك، وكذلك من وصف غير المسلمين بالأخوة في الإنسانية مثلاً، مع أن الأولى خلاف ذلك إلا أن هذا القيد يمنع إرادة معان باطلة يذوب معها الولاء والبراء، فإذا أمنت مفسدة تمييع الفروق بين الكفر والإيمان، ورجي تحقيق مصالح معتبرة شرعاً ففي الأمر سعة، والله أعلم. ولكن لا شك أن الممتنع هو وصفهم بأخوة الإيمان، أو أنه لا فرق بيننا وبينهم، وغير ذلك مما يندى له الجبين من معان منتشرة اليوم، يروج لها العلمانيون والليبراليون ويسايرهم فيها والعياذ بالله بعض المتنازلين والمفرطين بلا مسوغ من شرع صحيح أو عقل صريح.

وقوله: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾

قال البغوي: (أي: عشيرة ورهطاً. وقال قتادة: خدماً وحشماً. وقال مقاتل: ولداً تصديقه: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾)[1]، أقول: الاستدلال بالآية على اعتزاز الكافر بولده صحيح، لكنه لا ينفي استطالة الكافر على المؤمن بكثرة الرهط والخدم فهذه لوازم لكثرة المال، فأراد أن يستطيل بكل ما يراه سبباً لذلك، قال البقاعي: (أي ناساً يقومون معي في المهمات، وينفرون عند الضرورات، لأن ذلك لازم لكثرة المال)[2]، وجمع ابن كثير رحمه الله فقال: (أكثر خدمًا وولدًا. قال قتادة: تلك أمنية الفاجر: كثرة المال وعزة النفر)[3]. قال السعدي رحمه الله: (فخر بكثرة ماله، وعزة أنصاره، وهذا جهل، وإلا فأي افتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة

---

(١) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٧١ بتصرف واختصار.

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٧ بتصرف واختصار.

نفسية، ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأماني، التي لا حقائق تحتها!)[1].

وهذا الكلام خرج منه على عادة أهل الترف من الكفار، من التعالي على المؤمنين الفقراء والضعفاء، خاصة إن كان بينهم سابق معرفة واختار كل منهم طريقاً؛ فلقي الكافر نعيماً مع كفره، ولقي المؤمن شدة ومشقة مع إيمانه، فهو يريد أن يوصل لصاحبه رسالة مفادها: ما نفعك إيمانك؟ ألم أقل لك إنها أوهام وأساطير؟ انظر إلى حالي وحالك! إن كان ما تقوله حقاً، فلماذا يحرمك ربك ويعطيني؟... إلخ. فهذه الأسئلة وأمثالها تأتي الإجابة عنها في خاتمة القصة ببيان عاقبة كل من الرجلين.

فائدة: يفخر كثيرون بأموالهم وأولادهم وسلطانهم وجاههم، مع أن هذه الأمور ليست ذاتية بل خاجية، ويمكن أن تزول في طرفة عين، فكم من غني بات فقيراً معدما بل مديناً، وكم من صاحب أولاد فقدهم فجأة، وكذلك الجاه والسلطان ما أسرع تحولهما وزوالهما، فهذه عند التحقيق أمور لا ينبغي أن يفتخر بها المرء، وليست هي أسباب الرفعة والشرف على الحقيقة فضلاً عن كونها سببا للتطاول على الخلق. أما الصفات الذاتية فهذه هي التي يمكن للمرء أن يشرف بها، كالعلم والأدب والشجاعة والحلم والحكمة، إلى غير ذلك من الفضائل والمكارم.

وقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾

قال الشوكاني: (أخذ بيد أخيه المسلم، فأدخله جنته يطوف به فيها، ويريه عجائبها، وإفراد الجنة هنا يحتمل كونه لم يدخل أخاه إلا واحدة

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٦ بتصرف واختصار.

منهما، أو لكونهما لما اتصلا كانا كواحدة، أو لأنه أدخله في واحدة، ثم واحدة أو لعدم تعلق الغرض بذكرهما)(١)، وقال البقاعي: (﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ ﴾ وحّد لإرادة الجنس ودلالة على أنهما لاتصالهما كالجنة الواحدة، وإشارة إلى أنه لا جنة له غيرها لأنه لا حظ له في الآخرة)(٢)، أقول: هذا على القول بأن الكافر بقي على كفره، وفي المسألة قول ثان يأتي في محله إن شاء الله.

قال الطبري: (وظُلمُه نفسه: كفره بالبعث، وشكه في الساعة، ونسيانه المعاد، فأوجب له بذلك سخط الله وأليم عقابه)(٣)، وقال ابن كثير نحوه(٤)، قال القرطبي: (ومن أدخل نفسه النار بكفره فهو ظالم لنفسه)(٥)، وقال الرازي: (المراد التنبيه على أنه لما اعتز بالنعم وتوسل بها إلى الكفر، وجحود البعث، كان واضعاً تلك النعم في غير موضعها)(٦)، لأن الظلم وضع الشيء في غير محله كما تقدم. قال الشوكاني: (وجملة: ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ في محل نصب حال أي: وذلك الكافر ظالم لنفسه بكفره)(٧).

وقوله : ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾

قال ابن عاشور: (والظن بمعنى: الاعتقاد، وإذا انتفى الظن بذلك ثبت الظن بضده)(٨)، قال الطبري: (قال -لما عاين جنته: ما أظنّ أن تبيد

---

(١) فتح القدير ٤/ ٣٩١ بتصرف واختصار.
(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٤ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٢٢.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٧.
(٥) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٥٠.
(٦) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ٢٠٦ بتصرف واختصار.
(٧) فتح القدير ٤/ ٣٩١ بتصرف يسير.
(٨) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٣.

هذه الجنة أبداً، ولا تفنى ولا تَخْرب، وما أظنّ الساعة التي وعد الله خلقه الحشر فيها تقوم)[١]، قال ابن كثير: (وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة)[٢]، وقال الألوسي: (﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ أي الجنة ﴿أَبَدًا﴾ أي طول الحياة فالمراد بالتأبيد طول المكث لا المتبادر، وقيل: ما قصد إلا أن هذه الجنة المشاهدة بشخصها لا تفنى على ما يقوله الفلاسفة في الأفلاك أنفسها، وكأن حب الدنيا والعجب بها غشي على عقله فقال ذلك، وإلا فهو مما لا يقوله عاقل ولا يرتضيه فاضل، وقيل: ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ إشارة إلى الأجرام العلوية والأجسام السفلية من السموات والأرض وأنواع المخلوقات، أو إلى الدنيا، والمآل واحد، والظاهر ما تقدم)[٣].

وقوله: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾

قال ابن كثير: (أي: كائنة)[٤]، وقال الشوكاني: (أنكر البعث بعد إنكاره لفناء جنته. قال الزجاج: أخبر أخاه بكفره بفناء الدنيا وقيام الساعة)[٥]، أما ابن الجوزي رحمه الله فقال: (وهذا شك منه في البعث)[٦]، وحتى على هذا التقدير فهو كفر، قال رحمه الله: (فلما شَكَّ في البعث كان

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٢٢ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٧ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٥١ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٧.
(٥) فتح القدير ٤/ ٣٩١.
(٦) زاد المسير ٤/ ٢٢٣.

كافراً)[١]، واستدل الشنقيطي رحمه الله بقوله: (وصرح بذلك في أول الرعد: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾)[٢].

وهنا يعرض سؤال: هل كان هذا الرجل كافراً ابتداء أم أن الكفر عرض له بمقالته لاغتراره بزهرة الحياة الدنيا؟ خلاف، والأمر محتمل، قال الشوكاني رحمه الله عندما ذكر إنكار المؤمن عليه بقوله: (أكفرت)؟ قال: (بقولك: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾... وقيل: يحتمل أنه كان كافراً بالله فأنكر عليه ما هو عليه، ولم يقصد أن الكفر حدث له بسبب هذه المقالة)[٣].

وقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾

قال ابن عطية: (قاس الآخرة على الدنيا، وظن أنه لم يُمْلَ له في دنياه إلا لكرامة يستوجبها، قال: فإن كان ثم رجوع كما يزعم صاحبه فستكون حالي كذا وكذا)[٤]، وقال الطبري: (ثم تمنى أمنية أخرى على شكّ منه، فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ فرجعت إليه وهو غير موقن لأجدنّ خيراً من جنتي هذه يقول: لم يعطني الجنة في الدنيا إلا ولي عنده أفضل في المعاد إن رددت إليه)[٥]، وقال الزمخشري: (إقسام منه على أنه إن ردَّ إلى ربه على سبيل الفرض كما يزعم صاحبه ليجدنّ في الآخرة خيراً من جنته في الدنيا، تمنياً على الله، وادّعاء لكرامته عليه، وأنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه،

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٢٤.
(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٤٣.
(٣) فتح القدير ٤/ ٣٩١.
(٤) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٣١١ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٢٢ بتصرف واختصار.

وأنّ معه هذا الاستحقاق أينما توجه، كقوله: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ [مريم] ... ﴿مُنقَلَبًا﴾ مرجعاً وعاقبة. وانتصابه على التمييز، أي: منقلب تلك، خير من منقلب هذه، لأنها فانية وتلك باقية)[1].

قال السعدي: (﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ على ضرب المثل ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي ليعطيني خيراً من الجنتين، وهذا لا يخلو: إما أن يكون عالماً بحقيقة الحال، فيكون على وجه التهكم فيكون زيادة كفر، وإما أن يكون ظنه، فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم عقلا، فأي تلازم بين عطاء الدنيا والآخرة، حتى يظن أن من أعطي في الدنيا أعطي في الآخرة! بل الغالب أن الله يزوي الدنيا عن أصفيائه، ويوسعها على أعدائه الذين ليس لهم في الآخرة نصيب، والظاهر أنه يعلم، ولكنه قال هذا على وجه التهكم والاستهزاء، لقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ فإثبات الظلم في حال دخوله، الذي جرى منه، من القول ما جرى، يدل على تمرده وعناده)[2]، أقول: بل الثاني أولى، وهو المناسب لحاله وأمثاله ممن يظن عطاء الدنيا دليل إكرام، وأما ظلمه فلا يلزم منه أن يكون متهكماً وإن كان محتملا.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٣ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير السعدي ١/ ٤٧٧ بتصرف واختصار.

إن الإنسان ليطغى

في الآيات صورة واضحة للطغيان نراها تتكرر مرارا، ولئن كانت للطغيان أسباب عديدة، فمن أشيعها كثرة المال وسعة الأرزاق، وما يتبع ذلك من كثرة الجاه والخدم والحشم، ولئن كان طغيان الكافر مفهوماً معقولاً -لأنه لا يؤمن أن نعيمه ابتلاء وإن شاء سلبه إياه، ولا يؤمن بيوم الحساب- فإن ما لا يمكن فهمه أن يطغى المسلم الذي علم ذلك يقينا.

إننا عندما نصف من طغى من الكفار لماله وجاهه بالجهل والغباء فلأنه عطل عقله عن الحقيقة الكبرى؛ أن الكون لا يمكن أن يكون وجد من غير موجد، ومن ثم لم يرجع نعمته إلى موجد الكون بل أرجعها إلى نفسه وجهده، وهو ما يظهر بطلانه بأدنى تأمل لما هو مشاهد من تخلف المسبَّبات في كثير من الأحيان، ولما نجده في أنفسنا من عجز وافتقار.

وأما المسلم، فبأي شيء نصف طغيان من طغى من المسلمين اغتراراً بماله أو جاهه وغير ذلك، مع وضوح الحقائق أمام ناظريه!

إن المسلم العاقل المقبل على كتاب ربه وسنة نبيه تدبراً وفهماً، يدرك أن كل ما هو فيه من نعيم؛ من صحة وعافية، ومن سعة رزق وكثرة مال، ومن كثرة العشيرة والولد، بل حتى العلم والصلاح وغيره، إنما هو محض فضل من الله ﷻ، وأن شيئاً من ذلك كله ليس للعبد، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات]، وأنه كما أراد فأعطى قد يريد فيسلب، فالعطاء اختبار وابتلاء كما قال: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء]، وليس دليل إكرام وتفضيل كما قد يظن كثير من الجهال، وإلا فهل يتصور مسلم عاقل أن عطاء الله لعاد وثمود، أو عطاءه لفرعون وقارون وهامان،

أو عطاءه لكثير من الكفار في الماضي والحاضر دليل إكرام وتفضيل؟ اللهم لا!

ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾[الفجر]، قال ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى منكرًا على الإنسان في اعتقاده إذا وسع الله عليه في الرزق ليختبره، فيعتقد أنه إكرام وليس كذلك، بل ابتلاء كما قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون] وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضَيَّق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له. قال الله: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين، إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيرًا بأن يصبر)[1].

إن مما يؤسف عليه أن نرى كثيراً ممن وسع الله عليهم يتطاولون على إخوانهم الفقراء، وقد يكون لبعضهم مكانة عند الله يتمنى أولئك عشر معشارها ولو أنفقوا كل أموالهم، كما في الحديث: "رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره"[2]، فكم سمعنا عن جنازات فقراء، قد يكون واحدهم وافداً ليس من هذه البلاد فيترفع البعض عن اتباع جنازته أو الصلاة عليه، ثم يحدِّث من دفنوه أنهم وجدوا له ريحاً كريح المسك.

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ٣٩٨ بتصرف واختصار.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٢٤ (٢٦٢٢).

قال النبي ﷺ معلماً وموجهاً: "وبينا صبي يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثله هذا. فترك الثدي وأقبل إليه فقال: اللهم لا تجعلني مثله. ثم أقبل على ثديه، ومروا بجارية يضربونها ويقولون: زنيتِ سرقتِ. وتقول: حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها. فترك الرضاع ونظر إليها فقال: اللهم اجعلني مثلها. فهناك تراجعا الحديث فقالت: حلقَى! مر رجل حسن الهيئة فقلتُ: اللهم اجعل ابني مثله، فقلتَ: اللهم لا تجعلني مثله؛ ومروا بهذه الأمَة وهم يضربونها ويقولون: زنيتِ سرقتِ، فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلتَ: اللهم اجعلني مثلها! قال: إن ذاك الرجل كان جباراً فقلتُ: اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها زنيتِ ولم تزن، وسرقتِ ولم تسرق، فقلتُ: اللهم اجعلني مثلها"(١).

إن تطاول الأغنياء وتكبرهم على الفقراء داء قديم، قال الزمخشري في: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾: (وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بنحو هذا ألسنتهم، فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به)(٢)، أقول: وهذه مبالغة، صحيح أن هذه حال كثير من أغنياء المسلمين، لكن القول أنها حال أكثرهم يحتاج إلى استقراء تام، وهو بدون ذلك مخالف لطلب السلامة.

ولو تأمل المرء في كل صور الطغيان لوجد أن مرجعها جميعاً إلى خلل التصور وفساد العقل، فمن لم يعرف قدر ربه، ولم يعرف قدر نفسه وافتقارها إلى خالقها، غره ما يجده من استغناء في الظاهر فيوقعه سوء

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٩٧٦ (٢٥٥٠) بتصرف يسير.
(٢) الكشاف ٤/ ١٣.

فكره في الطغيان كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق]، فلو ترك المرء نفسه لهواها ولم يرجع عن غيه وطغيانه فإن عاقبة الطغيان وخيمة، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النازعات]، فلهذا لم يتأخر العلاج الرباني في سورة العلق بل جاء مذكراً ومنبهاً ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾ [العلق]، لأنه كما قال الحسن رحمه الله: من علم أنه إلى الله راجع علم أنه موقوف مسؤول فليعد لكل سؤال جواباً. وفي قصة الرجلين وغيرها من قصص الطغيان في القرآن الكريم موعظة بليغة لكل من طغى وتكبر ليعتبر بحال من سبقه من الطغاة وكيف كانت عاقبتهم في الدنيا وخيمة، فضلاً عما أعده الله في الآخرة لمن لم يرجع منهم عن غيه.

*****

ثانياً- مقالة المؤمن للكافر:

قال تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾}

في هذه الآيات ينتقل الخطاب القرآني إلى الشق الثاني من الحوار ليبين رد المؤمن على الكافر، ليبصره بحقائق الأمور، ويزيل عن عينيه غشاوة اغتراره بنعيم الدنيا الزائل الذي أعماه عن رؤية المنعم سبحانه.

قوله: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ قال البقاعي: (فكأنه قيل: إن هذا لفي عداد البهائم حيث قصر النظر على الجزئيات، ولم يُجَوِّز أن يكون التمويل استدراجا)(١)، قال ابن كثير: (يقول تعالى مخبرًا عما أجابه صاحبه المؤمن، واعظًا له وزاجرًا عما هو فيه من الكفر والاغترار: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾؟ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه، الذي خلقه من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨٠] أي: كيف تجحَدُون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة، كل أحد يعلمها، فما من أحد إلا ويعلم أنه كان معدومًا ثم وجد، وليس وجوده من نفسه ولا من المخلوقات لأنه بمثابته، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله، خالق كل شيء)(٢)، وقال الطبري: (يقول: أكفرت بمن فعل بك هذا أن يعيدك خلقاً جديداً بعدما تصير رفاتاً)(٣)، ولكفره بهذا القول وجه آخر؛ قال البقاعي: (ونَسبته إلى العبث الذي لا يرضاه عاقل، إذ جعلت غاية الخلق البديع في هذا التطوير العظيم: الموت، الذي لو كان غاية كما زعمت لفوّت على المطيع الثواب، وعلى العاصي العقاب)(٤). وفي هذا تعريض بجهل الكافر، قال ابن عاشور: (ثم إن العلم بالخلق الأول يصرف الإنسان عن إنكار الخلق الثاني، كما قال تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [ق]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٨ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٢٣.

(٤) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٥ بتصرف واختصار.

أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، فكان مضمون الصلة تعريضاً بجهل المخاطب)[١]. قال أبو بكر بن الأنباري: الخَلْقُ في كلام العرب على ضربين، أحدهما: الإنشاء على مثال أبدعه، والآخر: التقدير[٢]، ويجوز حمله في الآية على المعنيين، بخلاف قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون]، وقول عيسى عليه السلام: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وما أشبهه، فلا يحمل إلا على التقدير وما في معناه.

أما قوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾، فقد قال الشنقيطي: (أي خلقك مستوي الأجزاء، معتدل القامة والخلق، صحيح الأعضاء في أكمل صورة، وأحسن تقويم)[٣]، وقال أبو حيان في البحر: (ويقال للغلام إذا تمّ شبابه قد استوى. وقيل: ذكره بنعمة الله عليه في كونه رجلاً ولم يخلقه أنثى)[٤].

وقوله: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾

قال الشنقيطي: (﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ أصله «لكن أنا» فحذفت همزة «أنا» وأدغمت نون «لكن» في نون «أنا» بعد حذف الهمزة)[٥]، قال الطبري: (يقول: أما أنا فلا أكفر بربي، ولكن أنا: معناه أنا أقول: هو الله ربي)[٦]، ويقول ابن كثير: (أي: أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالربوبية والوحدانية ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٤ بتصرف واختصار.
(٢) تهذيب اللغة ٢/ ٤٠٩.
(٣) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٤٣.
(٤) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٥٠.
(٥) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٤٤.
(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٢٣ بتصرف واختصار.

له)[(١)]، قال الزمخشري: (فإن قلتَ: هو استدراك لماذا؟ قلتُ: لقوله: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ قال لأخيه: أنت كافر بالله، لكني مؤمن موحد، كما تقول: زيد غائب، لكن عمراً حاضر)[(٢)]، وقال البقاعي: (﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ﴾ المحسن إليَّ، في عبادتي ﴿أَحَدًا﴾ كما لم يشاركه في إحسانه إليَّ أحد، فإن الكل خلقه وعبيده، وأنَّى يكون العبد شريكاً للرب! فإني لا أرى الغنى والفقر إلا منه، وأنت -لما اعتمدت على مالك- كنت مشركاً به)[(٣)].

وقوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾

قد اختلف المفسرون في مخرج مقال المؤمن هنا؛ فحمله بعضهم على التوبيخ، وآخرون على التوجيه، قال ابن الجوزي رحمه الله: (أي: وهلاّ؛ ومعنى الكلام التوبيخ)[(٤)]، أما البقاعي فقال: (ولما كان المؤمنون على طريق الأنبياء في إرادة الخير والإرشاد إلى سبيل النجاة وعدم الحقد على أحد بِشَرٍّ أسلَفَه وجهلٍ قدَّمَه، قال له مصرحاً بالتعليم بعد أن لوح له به فيما ذكره عن نفسه مما يجب عليه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ﴾ أي وهلا)، ولكل من القولين وجه، الأول على تقدير أن المؤمن أراد كسر غرور صاحبه لتماديه في غيه، من باب: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، و[التحريم: ٩]، والثاني على الطمع في رجوع الكافر إلى الحق بلين الكلام. والأصل في الدعوة أن يبدأ الداعية باللين والنصح ولا ينتقل إلى غيره ما وجد إليه سبيلاً، وقد أرسل الله سبحانه موسى وهارون إلى فرعون وقد ادعى الألوهية وقال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه]، وما أيس منه موسى إلا

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٨.
(٢) الكشاف ٤/ ١٥.
(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٦.
(٤) زاد المسير ٤/ ٢٢٤.

بعد أن أراه كل الآيات وأيقن بصدقه لكنه استكبر وقال: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ١٠١﴾ [الإسراء]، فهنا قال له: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾ [الإسراء]، فهذا إنما قاله في آخر المطاف.

قال البقاعي: (أي وهلا حين ﴿دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ﴾ ما يدل على تفويضك الأمر فيها وفي غيرها إلى الله تعالى كما تقدم الإرشاد إليه في آية ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ﴾ [الكهف: ٢٣] تاركاً للافتخار بها، ومستحضراً لأن الذي وهبكها قادر على سلبك إياها، ليقودك ذلك إلى التوحيد وعدم الشرك، فلا تفرح بها ولا بغيرها مما يفنى لأنه لا ينبغي الفرح إلا بما يؤمن عليه الزوال. ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي الذي له الأمر كله (كان)، سواء كان حاضراً أو ماضياً أو مستقبلاً، ولذلك أعراها عن الجواب، لا ما يشاؤه غيره ولا يشاؤه هو سبحانه؛ ثم علل ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا قُوَّةَ﴾ أي لأحد على بستان وغيره ﴿إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ أي المتوحد بالكمال، فلا شريك له، وأفادت هذه الكلمة إثبات القوة لله وبراءة العبد منها، والتنبيه على أنه لا قدرة لأحد من الخلق إلا بتقديره، فلا يخاف من غيره، والتنبيه على فساد قول الفلاسفة في الطبائع من أنها مؤثرة بنفسها)[1]، وقال ابن كثير: (هذا تحضيض وحث على ذلك، أي: هلا إذا أعجبتك حين دخلتها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾؛ ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٦.

حاله أو ماله أو ولده، فليقل: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة)[1].

وقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ قال البغوي: (معناه: إن ترني أقل منك مالا وولدا فتكبرت وتعظمت علي ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ﴾ فلعل ربي ﴿أَن يُؤْتِيَنِ﴾ يعطيني في الآخرة خيراً من جنتك)[2]، وقال الشوكاني رحمه الله: (لما علمه الإيمان وتفويض الأمور إلى الله سبحانه أجابه على افتخاره بالمال والنفر فقال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ جواب الشرط، أي: إن ترني أفقر منك، فأنا أرجو أن يرزقني الله جنة خيراً من جنتك في الدنيا أو الآخرة أو فيهما)[3]، قال الزمخشري: (والمعنى إن ترني أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى، فيرزقني لإيماني جنة ﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ ويسلبك لكفرك نعمته ويخرّب بستانك)[4]، وقال ابن عاشور: (جملة ابتدائية رَجع بها إلى مجاوبة صاحبه عن قوله: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف]، وعظه فيها بأنه لا يدري أن تصير كثرة ماله إلى قلة، وأن يصير القليلُ مالُه ذا مال كثير و(عسى) للرجاء، وهو طلب الأمر القريب الحصول. ولعله أراد به الدعاء لنفسه وعلى صاحبه)[5]. وعليه يحتمل أن يكون كلام المؤمن خرج مخرج التوقع أو الدعاء، ويتعلق قوله: (خيراً من جنتك) بالدنيا أو الآخرة أو بهما. وليس

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٨.

(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٧٢.

(٣) فتح القدير ٤/ ٣٩٢ بتصرف واختصار.

(٤) الكشاف ٤/ ١٦.

(٥) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٥-٣٧٦ بتصرف واختصار.

دعاؤه بخراب جنته حسداً من نفسه، بدليل نصحه أن يقول عند دخولها (ما شاء الله...) الآية.

وقوله: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ قال ابن كثير: (على جنتك التي ظننت أنها لا تبيد)(١).

وقوله: ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

قال ابن الجوزي: (فيه أربعة أقوال؛ أحدها: العذاب، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة والضحاك. وقال أبو صالح عن ابن عباس: ناراً من السماء. والثاني: قضاءً من الله يقضيه، قاله ابن زيد. والثالث: مراميَ من السماء، واحدها: حسبانة، قاله أبو عبيدة وابن قتيبة. قال النَّضْر ابن شُمَيل: الحُسبان: سهام يرمي بها الرجل في جوف قصبة تُنزع في القوس، ثم يرمي بعشرين منها دفعة، فعلى هذا القول يكون المعنى: ويرسل عليها مراميَ من عذابه، إما حجارة أو بَرَداً أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب. والرابع: أن الحسبان: الحساب، كقوله: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الرحمن] أي: بحساب، فيكون المعنى: ويرسل عليها عذابَ حسابِ ما كسبت يداه، هذا قول الزجاج)(٢)، ولا تعارض بينها فكلها تدور حول نزول عذاب الله ﷻ على هذا الكافر بتخريب جنته، أما تحديد نوع هذا العذاب، فالله أعلم به.

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٩ بتصرف واختصار.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٢٤-٢٢٥ بتصرف واختصار.

قال ابن عثيمين رحمه الله: (خصَّ السماء لأن ما جاء من الأرض قد يدافع، فلو جاءت أمطار وسيول جارفة أو نيران محرقة تسعى وتحرق ما أمامها، يمكن أن تُدافع، لكن ما نزل من السماء يصعب دفعه أو يتعذر)(١).

وهنا سؤال: هل يجوز أن تدعو على من ظلمك بخسارة المال؟

الجواب أنه يجوز أن يدعو المظلوم على الظالم، والأدلة كثيرة، قال تعالى حاكياً عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]، قال: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، وأجاب الله دعوة الرجل هنا. لكن العفو والصفح أفضل لا سيما إن كان الظلم يقع على من يعفو ولا يتعداه، إلا إن كان يخشى أن يعم ظلمه أو يفتن الناس أو ينشر الكفر، أو كان يرجو من الدعاء عليه صلاح حاله وارتداعه، فإن من الناس من تصلح حاله إذا نزلت به العقوبة في الدنيا، فيرعوي ويرجع عن غيه وظلمه، يقول العلامة ابن عثيمين عن دعاء المؤمن على صاحب الجنتين: (دعا أن يؤتيه الله خيراً من جنته وأن ينْزل عليها حسباناً من السماء؛ لأنه احتقره واستذله فدعا عليه بمثل ما فعل به من الظلم، ولا حرج على الإنسان أن يَدعوَ على ظالمه بمثل ما ظلمه، ويحتمل أنه دعا عليه من أجل أن يعرف هذا المفتخر ربه ويدعَ الإعجاب بالمال، وهذا من مصلحته. فكأنه دعا أن يؤتيه الله ما يستأثر به عليه، وأن يتلف هذه الجنة حتى يعرف هذا الذي افتخر بجنته وعزة نفره أن الأمر

---

(١) تفسير سورة الكهف بتصرف واختصار.

أمر الله، فكأنه دعا عليه بما يضره لمصلحة هي أعظم. فكون الإنسان يعرف نفسه ويرجع إلى ربه خير له من أن يفخر بماله ويعتز به)[١].

وأفضل من الدعاء عليه أن يدعو له بالهداية والمغفرة وترك الظلم، فإن لم يستطع فليقل اللهم اكفنيه بما شئت.

وقوله: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾

قال ابن عاشور: (الصعيد: وجه الأرض)[٢]. قال البقاعي: (لما كانت المصابحة بالمصيبة أنكى ما يكون، قال تعالى: ﴿فَتُصْبِحَ﴾ بعد كونها قرة للعين بما تهتز به من الأشجار والزروع ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي أرضاً يزلق عليها لملاستها باستئصال نباتها، فلا ينبت فيها نبات، ولا يثبت فيها قدم)[٣]، قال الطبري: (يقول: فتصبح جنتك أرضاً ملساء لا شيء فيها، قد ذهب كل ما فيها من غَرْس ونبت، وعادت خراباً بلاقع، زَلَقاً، لا يثبت في أرضها قدم لإملِساسِها، ودروس ما كان نابتاً فيها... قال ابن عباس: مثل الجُرُز قال ابن زيد: صعيداً زلقاً وصعيداً جُرُزاً واحد: ليس فيها شيء من النبات)[٤].

وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾

قال البغوي: (أي: غائراً منقطعاً ذاهباً لا تناله الأيدي ولا الدلاء، و"الغور": مصدر وضع موضع الاسم كـ: زور وعدل)[٥]، وقال الشوكاني: (وصف الماء بالمصدر مبالغة، والمعنى: أنها تصير عادمة للماء

(١) تفسير سورة الكهف.
(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٦.
(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٧.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٢٥-٢٦ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٧٣ بتصرف واختصار.

بعد أن كانت واجدة له، وكان خلالها ذلك النهر يسقيها دائماً)[١]، وقال ابن كثير: (وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾ [الملك] أي: جار وسائح)[٢].

وقوله: ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾

قال البغوي: (يعني: إن طلبته لم تجده)[٣]، وقال الشوكاني: (أي: لن تستطيع طلب الماء الغائر فضلاً عن وجوده وردّه ولا تقدر عليه بحيلة من الحيل، وقيل: المعنى: فلن تستطيع طلب غيره عوضاً عنه)[٤]. وبهذه العبارات التي قالها المؤمن لصاحبه الكافر ينتهي نقل القرآن الكريم للحوار بينهما، ولا يبعد أن يكون الحوار قد انقطع هاهنا ورجع كل من الرجلين على الحال التي بدأ بها الحوار، فبقي الكافر على كفره واغتراره بماله ورهطه، وبقي المؤمن على توحيده واعتزازه بإيمانه ويقينه، وقيل إن الكافر ندم وراجع إسلامه لقوله: (ياليتني لم أشرك)، وله وجه يأتي.

---

(١) فتح القدير ٤/ ٣٩٣.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٩.
(٣) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٧٣.
(٤) فتح القدير ٤/ ٣٩٣.

الحوار بين إظهار الحق والتفريط فيه

في الآيات الكريمة نموذج للحوار بين أهل الإيمان وأهل الكفر والطغيان، والمتأمل لكتاب الله ﷻ يجده مليئاً بذكر حوارات أهل الحق من النبيين والمؤمنين لأهل الباطل، مما يدل على أن الحوار منهج رباني.

لقد وقع هذا النوع من الحوار منذ أرسل الله ﷻ أول رسله إلى بني آدم بعد أن غيروا الملة الأولى ووقعوا في الشرك، حيث بعث إليهم نوحاً عليه السلام فحاورهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، ولكثرة ما حاورهم قالوا له: ﴿يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود]، وعلى دربه سار هود وصالح ولوط وشعيب وغيرهم من الأنبياء، أما إبراهيم فقد حاور أباه وقومه والنمرود وحاور ابنه إسماعيل عليه السلام، وموسى ﷺ حاور فرعون وحاور قومه، وحاور عيسى عليه السلام بني إسرائيل وحاور الحواريين، أما نبينا محمد ﷺ فسيرته مليئة بحوار المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، بل مع الصحابة وأهل بيته الكرام، وكله في القرآن مسطور.

وإذا كان الحوار منهجاً ربانياً، فإنه كذلك ضرورة بشرية لا يستغني عنها مجتمع مهما صغر، فالرجل وزوجه يتحاوران، والأب مع ابنه يتحاوران، بل إن الإنسان لا غنى له عن الحوار مع نفسه التي بين جنبيه!

لقد أرسى القرآن أسس الحوار ومبادئه مع كل أصناف البشر، سواء كانوا مسلمين أو مشركين أو أهل كتاب، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل].

وإذا كان الحوار مع أصناف المخالفين لدعوة الأنبياء منهجاً ربانياً، فإنه منضبط بضوابط ربانية لا يحق لأتباع الأنبياء الخروج عنها إن كانوا صادقين في دعوى الاتباع، ومن هذه الضوابط:

١ - تحديد الهدف الرئيس من الحوار: وهو أول هذه الضوابط وأهمها على الإطلاق، ولا أجل عند أهل الحق من الاجتماع على توحيد الحق كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران]. ثم يأتي بعد ذلك مبدأ

٢- عدم تمييع الحق أو المزج بينه وبين الباطل: كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران]، ولهذا أمر الله نبيه أن يعلنها في حواره مع الكافرين: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون]، وذلك في مواجهة رغبة الكافرين في التمييع ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ [القلم].

٣- ضبط مدة الحوار: فهذا الحوار لا يكون أبد الدهر مع المخالف المعين، لأنه عند أهل الحق ليس مطلوباً لذاته لكنه وسيلة لغاية، وهذا واضح في قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، فإن تولوا فهاهنا تكون المفاصلة، فنحن مسلمون، لسنا خليطاً من مسلمين ونصارى ويهود وبوذيين ومجوس، فلهؤلاء دينهم ولنا دين، ولئن جمعتنا البشرية والبلدان

فقد فرقتنا العقائد والأديان، فنعطي لما جمعنا حقه، ونعطي لما فرقنا حقه كذلك، ومن أعظم ما يرسم معالم ذلك سورة الفرقان.

٤- إعلان نتيجة الحوار: فعندما لا يصل الحوار إلى الغاية المرجوة منه فلا بد من الوضوح والخروج بموقف قوي وبيان ظاهر لا يحتمل التأويل كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [آل عمران]، وأيضاً: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [آل عمران]، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران]، وهذا عين ما فعله المؤمن في حواره مع صاحب الجنتين، قال السعدي: (لما رأى صاحبُه المؤمن حالَه واستمراره على كفره، قال مخبراً عن نفسه، على وجه الشكر لربه، والإعلان بدينه، عند ورود المجادَلات والشبه: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾ فأقر بربوبيته لربه، وانفراده فيها، والتزم طاعته وعبادته، وأنه لا يشرك به أحداً من المخلوقين، ثم أخبره أن نعمة الله عليه بالإيمان، ولو مع قلة ماله وولده، هي النعمة الحقيقية، وما عداها معرض للزوال والعقوبة والنكال، فقال: ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ أي: قال للكافر صاحبُه المؤمن: أنت - وإن فخرت بكثرة مالك وولدك، ورأيتني أقل منك مالاً وولداً- فإن ما

عند الله خير وأبقى، وما يرجى من خيره وإحسانه أفضل من جميع الدنيا التي يتنافس فيها المتنافسون)[١].

٥- اللين مع الصدع بالحق: لقد أرشد القرآن الكريم في غير آية إلى المجادلة بالتي هي أحسن، وإلى إلانة القول حتى مع أشد الناس كفراً وعتواً؛ كفرعون الذي نازع الله ﷻ الربوبية، فقال لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه]، مع أنه سبق في علمه أنه لن يتذكر ولن يخشى لكنه سبحانه يرشد المؤمنين إلى المنهج الرباني، ومع هذا الإرشاد فإلانة القول لم تمنع من الصدع بالحق وإن كان مُرّاً قاسياً على فرعون: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه]، ثم لمّا ظهر لهما عناده وتكذيبه لم يعد هناك وجه لإلانة القول: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء] فهو يقول لفرعون: أنت تكذب في دعواك وأنا على يقين من هلاكك لعتوك وطغيانك. وهي سنة كونية لكل طاغ متكبر، ومن كان كذلك فلا حوار معه بالحسنى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ومع تقرير ما سبق من كون الحوار منهجاً ربانياً، إلا أن من أخطر ما تواجهه الأمة في موضوع الحوار أن يُفرض عليها ثم يتصدى له من أبنائها من يشعر بالضعف والهلع، فيدخل الحوار على خلفية ضعف الأمة وقلة حيلتها متلبساً بهزيمة نفسية، وقد وطن نفسه على قبول ما يجود به المحاور، أو على التنازل؛ بدعوى المصلحة، أو الوسطية؛ ويغيب عن هؤلاء البون الشاسع بين استعلاء فرعون وطغيانه، وضعف قوم موسى

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٧ بتصرف واختصار.

وقلة حيلتهم، ومع ذلك قال الله ﷻ لموسى وهارون: ﴿بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ۝٣٥﴾ [القصص]، قال الطبري رحمه الله: "أي بحُجَّتِنا"، وهذه هي حقيقة الانتصار، انتصار المبادئ، لا بقاء الأبدان مع الذل والهوان.

فعلى أهل الحق أن يعتزوا به ويعلموا أنهم يأوون إلى ركن شديد، وأن ما يظهر من ضعف في الأمة مما يغري أعداءها بالحصول على تنازلات في جوانب شتى، لا يعني أن الأمة لا تملك من عناصر القوة ما تقوم به في وجه عدوها ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩﴾ [آل عمران]، وهذا ما أدركه أعداؤها في ميادين الجهاد، مما جعلهم يسعون للحوار بزخم غير مسبوق، ليحصلوا في ميدان الحوار على ما عجزوا عنه في ميدان القتال. فعلى من يتصدى للحوار أن يحذر الوقوع في حبال التنازلات، وليتذكر ما روي عن الإمام أحمد رحمه الله يوم نصحه ناصح أن يقول بخلق القرآن مداراة، بحجة أن الله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، فأشار الإمام إلى الجموع الغفيرة التي تحمل الصحف والأقلام لتكتب عنه ما يقول ثم قال: أأضل هؤلاء كلهم؟!

وما دام الأمر كذلك: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النور]، وليجعلوا نصب أعينهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ۝١٥٩﴾ [البقرة]، نعم، فقد حمَّل الله ﷻ العلماء أمانة عظيمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا﴾ [آل عمران: ١٨٧].

إن من أعظم ما بين الله في كتابه أصول الحوار، وأسلوبه، ومنهجه، فالدعوى التي يرددها البعض أن الإسلام لا يقبل الحوار دعوى فارغة لا

تثبت، ولكن عندما تخلط الأوراق، ويلبس على الناس بجعل الحوار غاية ومرادفاً لقبول الآخر مهما كان فالأمر مختلف، فالإسلام مع الحوار البناء، وليس مع تمييع المفاهيم وخلط الأوراق وتضييع معالم الولاء البراء، فليس شيء من ذلك من الإسلام في شيء، رضي من رضي وأبى من أبى.

الفقرة الثالثة- العاقبة والمآل:

قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾

قال ابن عاشور: (الإحاطة: الأخذ من كل جانب، مأخوذة من إحاطة العدو بالقوم إذا غزاهم)(١)، قال ابن كثير: ([أي] بأمواله، أو بثماره على القول الآخر. والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خَوَّفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته، التي اغتر بها وألهته عن الله عَجَّلَ)(٢)، قال البقاعي: (ولما كان من المعلوم أن هذا المؤمن المخلص بعين الرضى، كان من المعلوم أن التقدير: فاستجيب لهذا المؤمن، أو: فحقق له ما توقعه فخيب ظن المشرك، فعطف عليه: ﴿وَأُحِيطَ﴾ أي أوقعت الإحاطة بالهلاك، بني للمفعول لأن الفكر في إحاطة الهلاك من غير نظر إلى فاعل، وللدلالة على سهولته ﴿بِثَمَرِهِۦ﴾ أي المشرك، كله فاستؤصل ما في السهل منه وما في الجبل، وما يصبر منه على البرد والحر وما لا يصبر)(٣)، وقال السعدي: (الإحاطة بالثمر يستلزم تلف جميع أشجاره، وثماره، وزرعه)(٤).

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٠.

(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٨ بتصرف واختصار.

(٤) تفسير السعدي ١/ ٤٧٧.

قال ابن عاشور: (وإنما لم تعطف جملة ﴿وَأُحِيطَ﴾ بفاء التفريع على رجاء صاحبه المؤمن إذ لم يتعلق المقام بالإشارة إلى المؤمن، وإنما المهم التنبيه على أن ذلك حادث حل بالكافر عقاباً له على كفره، ليعلم السامعون أن ذلك جزاء أمثاله، وأن ليس بخصوصية لدعوة المؤمن)(١).

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ قال ابن الجوزي: (أي: يضرب بيد على يد، وهذا فعل النادم)(٢)، قال الشوكاني: (أي: يضرب إحدى يديه على الأخرى وهو كناية عن الندم، كأنه قيل: فأصبح يندم)(٣).

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ قال ابن الجوزي: (أي: في جنته، و«في» هاهنا بمعنى «على»)(٤)، وقال الشوكاني: (أي: في عمارتها وإصلاحها من الأموال)(٥)، وقال السعدي: (أي على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض)(٦).

قوله: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾

قال ابن الجوزي: (﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي: خالية ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ والعُروش: السقوف، والمعنى: أن حيطانها قائمة والسقوف قد تهدَّمت فصارت في قرارها، فصارت الحيطان كأنها على السقوف)(٧)، قال البقاعي: (أي ساقطة مع الخلو ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي دعائمها التي كانت

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٧ بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٢٦.
(٣) فتح القدير ٤/ ٣٩٣.
(٤) زاد المسير ٤/ ٢٢٦.
(٥) فتح القدير ٤/ ٣٩٣.
(٦) تفسير السعدي ١/ ٤٧٧.
(٧) زاد المسير ٤/ ٢٢٦.

تحملها فسقطت على الأرض وسقطت هي فوقها)[1]، قال الشوكاني: (قيل: وتخصيص ماله عروش بالذكر دون النخل والزرع لأنه الأصل، وأيضاً إهلاكها مغن عن ذكر إهلاك الباقي)[2]، قال ابن عاشور: (وهذا التركيب أرسله القرآن مثلاً للخراب التام الذي هو سقوط سقوف البناء وجدرانه. وتقدم في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [سورة البقرة:٢٥٩]... ثم جعل ذلك مثلاً لكل هلاك تام لا تبقى معه بقية من الشيء الهالك)[3].

قوله: ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ اتفق العلماء على أن ذلك خرج من الكافر تحسرا وندما، لكن اختلفوا، هل كان في الدنيا أم الآخرة، وإن كان في الدنيا فهل كان توبة تنفع صاحبها، أم ندم على ضياع المال فحسب.

قال الطبري: (يتمنى هذا الكافر بعد ما أصيب بجنته أن لم يشرك بربه أحداً، يعني: هذا الكافر إذا هلك وزالت عنه دنياه، ودّ أنه لم يكن كفر بالله ولا أشرك به شيئاً)[4]، فهو يذهب إلى أن الندم كان بعد موته أي مات على كفره، أما البقاعي فذهب إلى أنه كان في الدنيا لكنه لم يكن توبة؛ قال: (﴿وَيَقُولُ﴾ تمنياً لرد ما فات لحيرته وذهول عقله ودهشته: ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾ تمنياً لاعتماده على الله من غير إشراك بالاعتماد على الفاني ﴿لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ كما قال له صاحبه، فندم حيث لم ينفعه الندم على ما فرط في الماضي لأجل ما فاته من الدنيا، لا حرصاً على الإيمان لحصول الفوز في العقبى، لقصور

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٨.
(٢) فتح القدير ٤/ ٣٩٣.
(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٧.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٢٧ بتصرف واختصار.

عقله ووقوفه مع المحسوسات)(١). أما ابن عاشور فيرى أن الندم كان توبة في الدنيا جاءت متأخرة فلم تمنعه من العذاب الدنيوي إلا أنها أنجته من الشرك، قال: (وجملة ﴿وَيَقُولُ﴾ حكاية لتندمه على ما فرط منه حين لا ينفعه الندم بعد حلول العذاب. والمضارع للدلالة على تكرر ذلك منه. وحرف النداء للتلهف. و(ليتني) تمنٍ مراد به التندم وهذا ندم على الإشراك فيما مضى، وهو يؤذن بأنه آمن حينئذٍ)(٢)، قال السعدي رحمه الله: (ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة وراجع رشده، وذهب طغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا. وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول)(٣). وقد توقف بعض المفسرين في الأمر، قال الزمخشري: (تذكر موعظة أخيه فعلم أنه أُتي من جهة شركه وطغيانه، فتمنى لو لم يكن مشركاً حتى لا يهلك الله بستانه. ويجوز أن يكون توبة من الشرك، وندماً، ودخولاً في الإيمان)(٤)، وقال الشوكاني: (تمنى عند مشاهدته لهلاك جنته بأنه لم يشرك بالله لتسلم جنته، أو كان هذا منه على حقيقته لا لما فاته من الغرض الدنيوي، بل لقصد التوبة من الشرك والندم على ما فرط منه)(٥)، والذي أميل إليه قول الشيخ ابن سعدي رحمه الله.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٨ بتصرف واختصار.
(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٧ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٧ بتصرف واختصار.
(٤) الكشاف ٤/ ١٧ بتصرف واختصار.
(٥) فتح القدير ٤/ ٣٩٣ بتصرف واختصار.

بالشكر تدوم النعم

في الآيات درس عظيم وموعظة بليغة لمن آتاه الله شيئاً من النعم، ألا تذهله عن موليها فينسى شكره، وألا يركن إلى الأسباب المادية فيحسب أنها تؤديه إلى ما يريد لا محالة، فالأمر كله بيد الله، إن شاء أثمرت الأسباب وآتت أكلها، وإن شاء عطلها فلم تغن عن صاحبها شيئاً.

إن النفوس السوية قد جبلت على حب من يحسن إليها وعلى التعلق به، ولا أحد أكثر إحساناً وأشمل من الله ﷻ، فنعمه سبحانه وتعالى واصلة للخلق جميعاً، فكان لزاماً على المؤمنين أن يشكروا ربهم على ما أعطاهم، لأن النفوس الكريمة تقابل من يحسن إليها بالشكر.

وإذا كان شكر الله سبحانه وتعالى على ما أنعم فرض لازم، فإن نفع هذا الشكر يعود على الشاكرين، إذ الله ﷻ غني عن الخلق وعن شكرهم وعبادتهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ١٢﴾ [لقمان]، ثم إنه سبحانه وتعالى يجازي على الشكر بالمزيد، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ٧﴾ [إبراهيم]، وهذا أيضاً من النعم! فلهذا قيل: كيف نشكره وشكره يستوجب منا الشكر؟ أي أننا مهما قمنا بالشكر فلن نشكره سبحانه حق شكره. وكونه سبحانه يزيد الشاكرين، يعني أن الشكر يحفظ النعم ويبقيها، لذا قيل: الشكر قيد النعم الموجودة، وصيد النعم المفقودة.

قال ابن القيم عن الشكر: (يكون بالقلب خضوعاً واستكانة، وباللسان ثناء واعترافاً، وبالجوارح طاعة وانقياداً)[1]، فمن أتى بهذه

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٢٤٦.

الثلاثة كان شاكراً ظاهراً وباطناً، فله بإذن الله دوام النعم وزيادتها، ومن أخل بواحد منها كان أمره بين النفاق وبين ترك واجب الشكر، فلا يؤمن عليه استلاب النعم. إن كفران النعم قد يكون بعدم مشاهدتها ابتداء، فلا يرى العبد ما أنعم الله عليه من نعمة الإيجاد، ومن نعمة الإمداد؛ بالصحة والعافية، والمال والولد، والمنزل والمركب، وغير ذلك، بل يسخط ما هو فيه ويتطلع دوماً وأبداً لمن هو فوقه في الدنيا. وقد يكون بعدم مشاهدة المنعِم كما كانت حال صاحب الجنتين، وكما هي حال غيره من الكفار، وكل هذا مؤذن بزوال النعم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ].

إننا في هذه البلاد أحوج ما نكون إلى شكر الله على نعمه، ليرضى عنا أولاً، وليحفظ لنا نعمه ثانياً، وأعظم هذه النعم وأجلها هي نعمة التوحيد، فبعد أن كان الناس في هذه الجزيرة يعبدون الحجارة والأشجار والجن وغيرها، بعث الله محمداً ﷺ فاتبعوه، فأخرجهم الله من الظلمات إلى النور، ومن رجس الشرك إلى طهارة التوحيد، ثم تطاول الزمان على فئام منهم فرجعوا إلى جاهلية ظلماء، فتعلق بعضهم بالقبور، وآخرون بالأشجار، وغيرهم بالجن، وعم الجهل وطم، حتى أذن الله بظهور دعوة الإمام المجدد رحمه الله لينقذ سبحانه الناس ثانية من الشرك والجهل بنور التوحيد والعلم، فهذا من أعظم النعم ويستوجب أعلى درجات الشكر، لأن الشكر كما قال ابن القيم شكران: (شكر العامة؛ على المطعم والمشرب

والملبس وقوت الأبدان، وشكر الخاصة؛ على التوحيد والإيمان وقوت القلوب)[1].

ومن نعم الله علينا وجود الحرمين في بلادنا، وما أفاء علينا من الأرزاق والأموال، فكل هذا مما يحتاج إلى شكر الله ﷻ، لأنه فرض عين كما أسلفنا، ولكي يحفظ علينا نعمه من الزوال، وإلا فليس لأحد عند الله كرامة ألا يسلبه ما وهبه إن هو أعرض عن ذكره وشكره.

ومن النعم العظيمة ما أكرمنا به من الأمان، ولهذا ينبغي أن نتعاون جميعاً في وقف كل ما يعرض هذه النعمة للزوال، ليس فقط باستخدام القوة في وجه من يفجر ويعتدي، فهذا الحل ينبغي أن يكون كالكي؛ آخر الطب، وإنما بالاستمرار في برامج المناصحة وبتوعية الشباب ومناقشتهم وتوضيح الحقائق الشرعية بالأدلة والبراهين الساطعة.

هذا، والأمن لا يقتصر على الأجساد، بل ربما كان أعظم منه أمن العقول والقلوب، فإذا كان ضياع الأول يتلف الأجساد ويزهق الأرواح أو يدمر الأبنية فإن أثره ينحصر في الدنيا، وأما ضياع الثاني فإنه مؤذن بخراب البلاد في الدنيا بفساد الأخلاق وضياع الدين الذي يحفظ المجتمعات، ثم هو مؤذن بخراب الآخرة كذلك، وهذا هو الخسران المبين.

إن من أعظم المنكرات اليوم أن الذين يسبون الله ويتطاولون عليه أو يستهزؤون بشعائره، والذين يسبون الصحابة ويكفرونهم، صاروا في مأمن، ويقدمون على أفعالهم دون وجل أو خجل لأنه لا رقيب عليهم،

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٢٤٥.

وهؤلاء يخربون على الناس دينهم فهم أخطر من أصحاب التفجيرات الذين يخربون على الناس دنياهم، فالتصدي لهؤلاء أكثر أهمية بلا ريب.

فهذه النعم تحتاج إلى شكر حقيقي، أما أن نركن إلى كلمات نرددها بألسنتنا؛ نحن أهل التوحيد، نحن أهل الحرمين، نحن ونحن، دون استكمال أنواع الشكر، فهذا استدراج مؤذن بتغير الحال والعياذ بالله.

إن من تأمل الأحوال ليوازن بين ما كانت عليه قبل عشرين سنة وما هي عليه اليوم يهوله ما يجد من وتغيرات، فما كان بالأمس من أشد المحظورات، وما كان خطوطاً حمراء لا يمكن الاقتراب منها فضلاً عن تجاوزها، صار اليوم كلأ مباحاً للعلمانيين والليبراليين وأشباههم ليطعنوا فيه ويشككوا، وما كنا نشتكي منه في تلك الأيام ونحاربه من صور المنكرات، أصبح شيئاً يسيراً وهيناً بالنظر لما يتفشى يوماً بعد يوم.

فينبغي لنا جميعاً أن نراجع أنفسنا لنعرف لم سلبنا بعض تلك النعم، ولا نحمل غيرنا مسؤولية ذلك، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عمران]، فلا بد من المراجعة والمصارحة والإصلاح والتصحيح، وإلا فنخشى أن يحل بنا ما حل بصاحب القريتين، وما كان منتصرا.

قوله: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ٤٣﴾

قال ابن كثير في معنى (فئة): (أي: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز)[١]، وقال الشوكاني: (﴿مُنتَصِرًا﴾ أي: ممتنعاً بقوته عن إهلاك الله

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٠.

لجنته، وانتقامه منه)[1]، وقال البغوي في (منتصراً): (قيل: لا يقدر على رد ما ذهب عنه)[2]. قال السعدي: (أي: لما نزل العذاب بجنته، ذهب عنه ما كان يفتخر به من قوله لصاحبه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فلم يدفعوا عنه من العذاب شيئاً، أشد ما كان إليهم حاجة، وما كان بنفسه منتصراً، وكيف ينتصر، أي: يكون له أنصار على قضاء الله وقدره الذي إذا أمضاه لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيء منه، لم يقدروا؟!)[3].

وقوله: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾

قال الشنقيطي رحمه الله: (﴿هُنَالِكَ﴾ قال بعض العلماء: هو متعلق بما بعده وقال بعضهم: هو متعلق بما قبله، فعلى القول الأول أي الولاية كائنة هنالك، وعلى الثاني أي لم يكن انتصاره واقعاً هنالك)[4]. وقد اختلفوا في المراد ب (هنالك) على قولين؛ الأول: في الآخرة، والثاني: في الحال التي وقع فيها الإهلاك، وقرئ (الوَلاية) بفتح الواو، وكسرها، كما قرئ (الحق) بكسر القاف ورفعها. فعلى قراءة (الوَلاية) بالفتح، وعلى كون المراد بـ (هنالك) هو الثاني قال الألوسي: (أي النصرة له تعالى وحده لا يقدر عليها أحد، فالجملة تقرير لقوله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ﴾ [الكهف: ٤٣] إلخ، أو ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة، كما نصر سبحانه بما فعل بالكافر أخاه المؤمن، فالولاية بمعنى النصرة على الوجهين، إلا أنها على الأول مطلقة أو مقيدة بالمضطر ومن وقع به الهلاك، وعلى هذا مقيدة

(١) فتح القدير ٤/ ٣٩٤.

(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٧٣.

(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٧ بتصرف يسير.

(٤) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٤٦ بتصرف واختصار.

بغير المضطر وهم المؤمنون، ويعضد ذلك قوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي عاقبه لأوليائه، ووجهه أن الآية ختمت بحال الأولياء فيناسب أن يكون ابتداؤها كذلك)[١]، واختار الشنقيطي أن الولاية بالفتح: الموالاة والصلة ويكون في معنى الآية وجهان، قال: (الأول: أن ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ﴾ أي في ذلك المقام، وتلك الحال تكون الولاية من كل أحد لله، لأن الكافر إذا رأى العذاب رجع إلى الله. وعلى هذا المعنى فالآية كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [غافر]، وقوله في فرعون: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس] ونحوها. الوجه الثاني: أن الولاية في مثل ذلك المقام وتلك الحال لله وحده، فيوالي فيه المسلمين ولاية رحمة، كما في قوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧] الآية، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد]. وله على الكافرين ولاية الملك والقهر)[٢]. وهذا الأخير قريب مما ذكره الألوسي من نصر المؤمنين على الكافرين، وأما الوجه الأول فمنتقض بحال كثير من الكفرة ممن يحل بهم العذاب ولا يرجعون بل يتمادون في غيهم، وهذا مشاهد، كقوله تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[الأعراف].

أما أبو حيان فقال: (والحقيقة في هنالك أن يكون ظرف مكان للبعد، فالظاهر أنه أشير به لدار الآخرة، أي في تلك الدار الولاية لله كقوله:

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٦٥ بتصرف واختصار.
(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٤٦ بتصرف واختصار.

﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ قيل: لما نفى عنه الفئة الناصرة في الدنيا نفى عنه أن ينتصر في الآخرة، فقال: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۝٤٣ هُنَالِكَ﴾ أي في الدار الآخرة، فيكون ﴿هُنَالِكَ﴾ معمولاً لقوله: ﴿مُنتَصِرًا﴾)[1].

وأما على قراءة الكسر وعلى كون هنالك تعني في ذلك المقام فقد قال الألوسي: (الولاية بكسر الواو، وهي الولاية بالفتح بمعنى واحد عند بعض أهل اللغة، كالوكِالة والوَكالة والوِصاية والوَصاية، وقال الزمخشري: هي بالفتح النصرة والتولي، وبالكسر السلطان والملك؛ أي هنالك السلطان له ﷻ، لا يُغلَب ولا يُمتَنع منه ولا يُعبَد غيره كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فتكون الجملة تنبيهاً على أن قوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ﴾ [الكهف: ٤٢] إلخ كان عن اضطرار وجزع عما دهاه، ولم يكن عن ندم وتوبة)[2]، أما قوله ولا يعبد غيره فشبيه بالوجه الأول في كلام الشنقيطي وسبقت مناقشته.

أما الطبري رحمه الله فقال: (﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ﴾: ثَمَّ وذلك حين حلّ عذاب الله بصاحب الجنتين في القيامة. واختلفت القرّاء في (الولاية) وأولى القراءتين بكسر الواو، وذلك أن الله عقب ذلك خبره عن مُلكه وسلطانه، وأن من أحلّ به نقمته يوم القيامة فلا ناصر له يومئذ، فإتباع ذلك الخبر عن انفراده بالسلطان أولى من الخبر عن الموالاة التي لم يجر لها ذكر)[3].

قال الطبري: (واختلفوا أيضا في قراءة قوله (الحقِّ) فقرأ ذلك عامَّة القرّاء خفضاً، على أنه من نعت الله، والمعنى: هنالك الولاية لله الحقِّ

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٥٤.

(٢) تفسير الألوسي ١١/ ٢٦٥.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٢٩ بتصرف واختصار.

ألوهته، لا الباطل بطول ألوهة آلهة المشركين، وقرأ بعض أهل البصرة ومتأخري الكوفيين (لله الحقُّ) برفع الحقّ على أنه من نعت الولاية، ومعناه: هنالك الولاية الحقُّ -لا الباطل- لله وحده لا شريك له. وأولى القراءتين قراءة من قرأه خفضاً على أنه من نعت الله، وأن معناه ما وصفت)[١]. قال ابن الجوزي: (فإن قيل: لم نُعتت الولاية وهي مؤنثة بالحقِّ وهو مصدر؟ فعنه جوابان ذكرهما ابن الأنباري. أحدهما: أن تأنيثها ليس حقيقياً، فحُملت على معنى النصر؛ والتقدير: هنالك النصر لله الحقُّ ... والثاني: أن الحقَّ مصدر يستوي في لفظه المذكَّر والمؤنث والاثنان والجمع، فيقال: قولك حق، وكلمتك حق، وأقوالكم حق. ويجوز ارتفاع الحق على المدح للولاية، وعلى المدح لله تعالى بإضمار «هو»)[٢].

وقوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾

قال ابن عاشور: (﴿خَيْرٌ﴾ يجوز أن يكون بمعنى أخْيَر، فيكون التفضيل في الخيرية على ثواب غيره وعُقب غيره، فإن ما يأتي من ثواب غيره إما زائف مفضٍ إلى ضر وإما زائل، وثواب الله خالصٌ دائم وكذلك عقباه. ويجوز أن يكون ﴿خَيْرٌ﴾ اسماً ضد الشر، أي هو الذي ثوابه وعُقبه خير وما سواه فهو شر فكان ما ناله ذلك المشرك الجبار من عطاء إنما ناله بمساع وأسباب ظاهرية ولم ينله بعناية من الله تعالى وكرامة فلم يكن خيراً وكانت عاقبته شراً عليه)[٣]، وقال ابن الجوزي: (﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: هو أفضل ثواباً ممن يُرجى ثوابه، وهذا على تقدير أنه لو كان غيره يثيب لكان

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٢٧١ بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٢٦.
(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٩ بتصرف واختصار.

ثوابه أفضل)[١]، وقال الطبري: (خير للمنيبين في العاجل والآجل ثواباً)[٢].

قال السعدي رحمه الله: (﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ في تلك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على من طغى وآثر الدنيا، والكرامة لمن آمن وعمل صالحاً وشكر ودعا غيره، تبين وتوضح أن الولاية لله الحق، فمن كان مؤمناً به تقياً، كان له ولياً، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والمثلات، ومن لم يؤمن بربه ويتولاه، خسر دينه ودنياه)[٣].

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٢٦.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٢٩.

(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٨ بتصرف واختصار.

الفتنة في المال والولد من خلال قصة صاحب الجنتين

تعرضت الآيات السابقة لثاني الفتن التي تناولتها السورة، فتنة المال والولد، والإنسان بفطرته يُحبُّ المالَ، لأنه عصب الحياة، لا ينال رغائبها إلا عبره، ويحب عياله فلذات الأكباد، وذلك ما قرّره سبحانه في نحو قوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾، وكذا في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران]، ونلحظ أنّ الآيتين بعد بيان الحقيقة وأن هذا من طبع البشر، ختمتا بتنبيه أنّ ذلك متاع الحياة الدنيا وزينتها، وأن على الإنسان أن يطمح ببصره إلى الآخرة!

ولكن ما الحدُّ الفاصل بين الأمرين؟

تعرض قصة الرجلين والجنّتين، إجابةً من خلال عرض (**نموذجين واضحين للنفس المعتزّة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله**، وكلاهما نموذجٌ إنساني لطائفة من الناس: صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري، الذي تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى[1] التي تسيطر على أقدار الناس والحياة، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه، وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلاً على المنعم، موجبة لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره)[2].

---

(١) هذا التعبير ونحوه كثيراً ما يذكره كناية عن الله، وهو تعبير غير شرعي، ولو استخدم الألفاظ الشرعية لوجد فيها غنية، والرجل أديب يتوسع في بعض الألفاظ فليتنبه لهذا.

(٢) في ظلال القرآن: ٥/ ٦٤.

والفارق بين النموذجين، هو الفاصل بين ذينك الحدّين!

(وكأن الله سبحانه يخبرنا أن أموالنا وأولادنا زينة الحياة الدنيا، ولكن إذا شغلتنا عن حب الله سبحانه وتعالى انقلبت إلى فتنة)[1].

والفتنة طريق ذو اتّجاهين، إما قادك إلى الفوز والفلاح والعتق من النيران، إذا كان موقفك من النعمة المسداة إليك هو الشكر والعرفان، وإما قادك إلى الخيبة والخسران إذا كان موقفك هو الجحود والنكران!

صاحب الجنّتين المثمرتين من الكروم، المحفوفتين بسياجٍ من النخيل، تتوسطهما الزروع ويتفجر بينهما نهرٌ، ثم كان له من الولد ما يفخر بكثرته: أنا أكثر منك مالاً وولداً، وقد أُعطي هذا العطاء، ما كان موقفه؟ تملكه الغرور، وظنّ مثل ما ظنَّ قارون أنّه إنّما أوتيها بسبب ما عنده من مكانةٍ وجاهٍ، فحذّره المؤمن وأنذره عقاب الآخرة، فلم يرعوِ، وظنَّ أنّه إذا كان ثمّة آخرة، فإنّ مكانته ستظلّ محفوظةً!

فصاحب الجنّتين لا يعرف البلاء والاختبار، كطالبٍ في الامتحان، عنده معلومات لم يكتبها في الإجابة، لأنّه لم يعلم بوجود اختبار أصلاً، فلا شكّ أنّه من الخاسرين! وبالمقابل فإن صاحبه يرسم نموذجاً إيجابيّاً للنّفس المؤمنة التي لا تبالي بالمال والنّفر، بل تقتبس من إيمانها صبراً على المشقة والحاجة، وتستمدّ منه قوّة على الاعتزاز بالنّفس في وجه الكافر بالنعمة، والاستعلاء عليه بنعمة الإيمان، فيحذره وينذره مكر الله وسوء العاقبة.

---

(١) حب الفتنة لنبيل عطوة: ١ بتصرف يسير.

ولا يكاد ينجو أحد من فتنة المال، أعطاه الله أو قدر عليه رزقه، لأنه في محلّ اختبار، ولذا قال ابن مسعود: "لا يقولنَّ أحدُكم: اللهم اعصمني من الفتنة، فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى مال وأهل وولد، إلا وهو مشتملٌ على فتنة، ولكن ليقل: اللهم إنِّي أعوذ بك من مُضلات الفتن"(١).

وحتى لا يستهين أحد مهما كان إيمانه بفتنة الولد، ذكر الله جل وعلا في قصة الخضر فتنة الغلام الذي قُتِل لأنه قد يتسبب في فتنة أبويه المؤمنين، فكان من رحمة الله أن خلصهما منه وأبدلهما خيراً منه ليكون عونًا لهما على البر، ولذا كان دعاء زكريا عليه السلام أن يرزق ولدا وليا من أولياء الله.

إن أصل النجاح في إدارة فتنة زينة الحياة الدنيا في المال والولد أن تستخرج منها الباقيات الصالحات، ولعلها تدخل في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"(٢).

ولهذا تنتهي قصة الرجلين والجنتين، ويُختم ما فيها من دروس وعبر، بقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف]، قال سيد قطب رحمه الله: (المال والبنون زينة الحياة، والإسلام لا ينهى عن الزينة في حدود الطيبات، ولكنه يعطيهما القيمة التي تستحقُّها الزينة في ميزان الخلود ولا يزيد، إنهما زينة وليسا قيمة. فما يجوز أن يوزن بهما الناس ولا أن يُقدَّروا على أساسهما في الحياة، إنما القيمة الحقَّة للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات)(٣).

---

(١) حب الفتنة لنبيل عطوة:٢.

(٢) صحيح مسلم ٣/ ١٢٥٥ (١٦٣١).

(٣) في ظلال القرآن: ٥/ ٦٦ بتصرف يسير.

أسباب السقوط في فتنة المال والولد: لعل من أهم هذه الأسباب:

(أولاً- الانشغال به عن عبادة الله تبارك وتعالى:

١- بأن يشغله جمع المال والصفقات التجارية عن الصلاة.

٢- بأن يدفعه حبه للمال إلى الامتناع عن إخراج الزكاة.

٣- بأن يجعل كل ماله لأهله، دون المساكين والسائلين.

وهذه الأسباب، تجيء مصداقاً لقول الحق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المنافقون])[1]. قال الشربيني رحمه الله: (ربما رام الإنسان صلاح ماله وولده فبالغ فأفسد نفسه، ولا يُصلح ذلك ماله ولا ولده، روى أبو نعيم في الحلية عن سفيان الثوري رضي الله عنه أنه قال: يؤتى برجل يوم القيامة فيُقال: أكل عيالُه حسناته، وعن بعض السلف: العيالُ سوس الطاعات)[2].

وصاحب الجنتين هذا لم يشتغل عن العبادة والشكر فحسب بل شك في المعاد فكان ما آتاه الله من مال وأولاد فتنة ضل بها.

ثانياً- التعلق الشديد بالمال:

فلا يراعي في سبيل تحصيله أمر الله، ولا يتحرى الحلال، قال رسول الله ﷺ: "لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لاَ يُبَالِي المَرْءُ بِمَا أَخَذَ المَالَ، أَمِنْ حَلاَلٍ

(١) عن حب الفتنة لنبيل عطوة: بتصرّف.

(٢) تفسير السراج المنير ٤/ ٢٢٠ بتصرف يسير.

أَمْ مِنْ حَرَامٍ"[١]، فيستكثر من المال ولو حراما، وينفقه في مخالفة أمره، وكثيراً ما كان المال الوفير وبالاً على أصحابه لهذا الداء العضال، وقد وردت الإشارة إلى أهمية تحري الحلال في قول النبي ﷺ: (لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، **وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ**، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ)[٢]. وصاحب الجنتين وقع في هذا كما تشعر الآيات، وانظر حاله عند هلاك جنتيه يظهر لك الأمر: (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها)، لشدة تعلقه بها فأعمى بصيرته عن حق الله في شكر النعمة.

ومن دوافع الدُّخول في هذه الفتنة، ما تتميّز به الحياة الاقتصادية والتجاريّة -لا سيما في زماننا- من بعض الأمور الدقيقة المشتبهة، التي قلّما ينجو من الوقوع فيها أحد، ولذلك ورد قوله ﷺ: "التاجرُ الأمينُ الصدوقُ المسلمُ مع النبيّين والصّديقين والشُّهداء يومَ القيامة"[٣].

ثالثاً: التفاخر بالمال:

وذلك مثلُ ما وقع لصاحب الجنّتين، المزهوِّ بما في ملكه، المختالِ كالطاووس، مفتخراً متعالياً على صاحبه الفقير، قائلاً له: {أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً} . يقول الله: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ٧ ﴾ [العلق]، يقول ابن جرير: (إنَّ الإنسان ليتجاوز حدّه، ويستكبرُ على ربه، فيكفر به، لأنْ رأى نفسه استغنت)[٤]، وعليه وعلى أمثاله يصدق قول ربنا: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ١٦ ﴾ [الإسراء]،

(١) صحيح البخاري ٢/ ٧٣٣ (١٩٧٧).
(٢) سنن الترمذي ٤/ ٦١٢ (٢٤١٧)، وصححه الألباني.
(٣) سنن ابن ماجه ٢/ ٧٢٤ (٢١٣٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٤٥٣).
(٤) تفسير الطبري: ٢٤/ ٥٢٢.

وصاحب الجنة أداه الغنى إلى الظلم ثم كُفرِ الشك، ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥﴾ [الكهف]؛ رأى الخضرة مد بصره فافتتن بها، فأنى لهاتين الجنتين الواسعتين الممتدتين على ضفاف النهر أن تبيدا! فكانت عاقبته الذل والصغار في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى.

إن مجرد الاستعلاء بالمال داء عضال عاقبته وخيمة وصاحبه هذا المتعالي ما هو إلاّ جاهل مغرور وبعد غد ستتكشف له الأمور!

فمن آتاه الله مالاً يقضي به حوائجه، قد يصيبه الغرور فيظن أنه يقدر على كل شيء ويقتني أيَّ شيء، فيتكبّر، ويتفاخر، فحذرنا الله جل وعلا من ذلك: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد].

يقول سيد قطب رحمه الله: (إنه الغرور يُخيِّل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء، أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى! فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ!)(١).

أما ميزان الشريعة فمختلف تماماً، قال الله تعالى: ﴿وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ﴾ [البقرة: ٢٢١]، والعبد المؤمن لا يملك مالا، وما يملكه لسيده، والمشرك قد يكون أغنى أغنياء العالم!

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٦٤.

رابعاً: الإشراك في محبة الله:

وذلك ما اعترف به صاحب الجنّتين لما هلكتا: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف]. قال سيد قطب رحمه الله: (يقلب كفيه حزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب، نادما على شركه، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته، ومع أنَّه لم يصرح بكلمة الشرك، إلا أن اعتزازه بقيمة أرضيَّة غير قيمة الإيمان، كان شركاً يُنكره الآن، ويندم عليه ويستعيذ منه بعد فوات الأوان)(١).

(واعلم أنَّ حبَّ الأموال والأولاد -وهم نعمةٌ من الله- إن كانوا أَحَبَّ إلى العبد من الله، فقد أشرك في محبته سبحانه،كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾)(٢).

وقد ورد في ذلك قوله ﷺ: "تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ"(٣)، قال ابن بطال: ((تعس عبد الدينار والدرهم) يعنى: إن طلب ذلك، وقد استعبده، وصار كلُّه فى طلب الدينار والدرهم، كالعبادة لهما فصح أنَّه عبدٌ فى طلبهما، فوجب الدعاءُ عليه بالتعس؛ لأنه أوقف عمله على متاع الدُّنيا الفاني، وترك العملَ لنعيمِ الآخرة الباقي)(٤).

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٦٥ بتصرف واختصار.
(٢) حب الفتنة لنبيل عطوة:٧.
(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٠٥٧ (٢٧٣٠).
(٤) شرح صحيح البخارى لابن بطال: ٥/ ٨٣ بتصرف واختصار.

من أسباب الوقاية من فتنة المال والولد:

١- إخلاص التوحيد لله فيقدم حبه على كل محبوب، ويوقن بأن ما به من نعمة فمن الله، بمشيئته وفضله كانت، وبقوته وقدرته بلغت ما بلغت، لا بمجرد كده وجهده.

٢- التبصر في آيات الله ومننه على المرء منذ ولادته، إلى حين اشتداده رجلاً سوياً قادراً على الكد والكسب وأنواع الأعمال، فإن الذي يستحضر فضل الله ونعمه عليه، يستحيي من كفرانه، ويدأب في الشكر، وغاية اللؤم أن تنكر جميل من أحسن إليك وتتمرد عليه، وإذا كان كفران الخلق سبباً لدخول النار كما في الحديث: "رأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ"، والعلة: "تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ"[1]، فكيف بكفران أعظم منعم متفضل؟!

٣- أن يستحضر قدرة الله عليه، فالذي أعطاه قادر أن يمنعه، والذي منحه قادر على أن يحرمه، ولهذا وعظه المؤمن بقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾.

٤- أن يعلم أن التوبة والندم بعد العقوبة قد لا ترفع أثر العقوبة في الدنيا وإن نجا في الآخرة بتوبته إن قبلها الله، وهذه كانت حال صاحب الجنتين كما سبق، وكذلك أصحاب الجنة

---

(١) صحيح البخاري ١/ ١١٦ (٢٩٨).

المذكورين في قوله: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة القلم].

٥- أن يتخذ المرء قريناً صالحاً، يستمع إليه، ويصدر عن توجيهه الشرعي، ويستأنس برأيه، ولا يجعله مجرد مستشار يسوغ به أفعاله أو يأنس به ويوسع صدره! وتأمل لو انتفع صاحب الجنة بموعظة صاحبه الذي حاوره أتكون تلك حاله؟ لذا على أرباب الأموال أن يتقوا فتنته مستعينين برفقة صالحة عالمة ناصحة ترشدهم إلى حق الله، والواجب عليهم إزاء تلك النعم؛ يذكرونهم إن رأوا منهم تقصيراً، ويرشدونهم إن أبصروا تأولاً أو خطأ، أما تكوين لجان شرعية مع محاولة الالتفاف عليها كما فعل صاحب الجنة، بجعلها مجرد صور لأغراض مختلفة، فلا تبشر بعاقبة حميدة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

٦- أن يحقق الإيمان باليوم الآخر، ويعلم أن الدنيا أيام معدودة، ثم المرد إلى الله، والعاقبة للتقوى. كما في خاتمة القصة: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ ثم التذكير بالآخرة وأهوالها، لئلا يغتر بزينة الحياة الدنيا الزائلة عما قليل.

فوائد من قصة الرجلين

ذكرنا شيئاً من الفوائد والعبر في قصة الرجلين، وفيما يلي نمر مروراً سريعاً على المزيد منها، قال السعدي ﷺ: (في هذه القصة العظيمة:

١. اعتبار بحال الذي أنعم الله عليه نعماً دنيوية، فألهته عن آخرته وأطغته، وعصى الله فيها، أن مآلها الانقطاع والاضمحلال.

٢. وأنه وإن تمتع بها قليلاً فإنه يحرمها طويلاً.

٣. وأن العبد ينبغي له -إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده- أن يضيف النعمة إلى موليها ومسديها.

٤. وأن يقول: (ما شاء الله، لا قوة إلا بالله) ليكون شاكراً لله فيحفظ نعمته، لقوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾

٥. وفيها: الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها، بما عند الله من الخير لقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾.

٦. وفيها أن المال والولد لا ينفعان إن لم يعينا على طاعة الله، لقوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

٧. وفيها الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصاً إن فضل نفسه على المؤمنين، وفخر عليهم.

٨. وفيها أن ولاية الله وعدمها إنما تتضح نتيجتها إذا انجلى الغبار وحق الجزاء، ووجد العاملون أجرهم)[١]، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

مناسبة الآيتين لما سبق:

بعد أن ذكر الله ﷻ مثل صاحب الجنتين عظة للكفار، ضرب للناس مثلاً عاماً يبين حقيقة الدنيا كي لا يغتر بها مغتر، قال البقاعي رحمه الله: (ولما أتم المثل لدنياهم الخاصة بهم التي أبطرتهم، فكانت سبب إشقائهم وهم يحسبون أنها عين إسعادهم ضرب [مثلاً][٢] لدار الدنيا العامة لجميع الناس في قلة بقائها وسرعة فنائها، وأن من تكبر بها كان أخس منها)[٣].

فقوله: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم ﴾ قال ابن كثير: (وَاضْرِبْ يا محمد للناس)[٤]، ويحتمل أن يكون خاصا بالمخاطبين، قال الطبري: (أي: واضرب لحياة هؤلاء المستكبرين الدنيا منهم مثلا يقول: شبهاً)[٥]، قال ابن عاشور: (وضمير ﴿ لَهُم ﴾ عائد إلى المشركين كما دل عليه تناسق الضمائر في قوله: ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٧، بتصرف يسير.
(٢) أضفتها ليستقيم الكلام.
(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٩.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦١.
(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٣٠ بتصرف واختصار.

﴿بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ٤٨﴾ [الكهف]، والأول أولى لتشمل الفائدة عامة الناس، وهؤلاء يدخلون في الخطاب دخولاً أولياً)[1].

وقوله: ﴿مَثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾

قال ابن كثير: (في زوالها وفنائها وانقضائها)[2]، وقال ابن الجوزي: (في تصرُّف أحوالها، إذ مع كلِّ فرحة تَرْحة)[3]. قال ابن عاشور: (والحياة الدنيا: تطلق على مدة بقاء الأنواع الحية على الأرض وبقاء الأرض على حالتها وهذا المثل منطبق على الحياة الدنيا بإطلاقيها، فهما مرادان منه)[4].

قال ابن القيم رحمه الله: (ذكر ابن أبي الدنيا أن الحسن كتب إلى عمر بن عبد العزيز أما بعد: فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة إنما أنزل إليها آدم عليه السلام عقوبة فاحذرها؛ فإن الزاد منها تركها والغنى فيها فقرها، فكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه، وصل الرخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها إلى فناء، سرورها مشوب بالحزن، أمانيها كاذبة وآمالها باطلة، وصفوها كدر وعيشها نكد، فلو كان ربنا لم يخبر عنها خبرا ولم يضرب لها مثلا لكانت قد أيقظت النائم ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله فيها واعظ وعنها زاجر فما لها عند الله قدر ولا وزن)[5].

وقوله: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٣١ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦١.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٢٧.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٠ بتصرف واختصار.
(٥) إغاثة اللهفان ١/ ٣٧-٣٨ بتصرف واختصار.

يعني الغيث وهو ظاهر، والسماء هنا السحاب، قال الرازي: (وسمى الله تعالى السحاب سماء، لأن العرب تسمي كل ما فوقك سماء كسماء البيت)(١)، قال القرطبي: (قالت الحكماء: إنما شبه الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد، والماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، والماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى، والماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، والماء إذا كان بقدر كان نافعا منبتا، وإذا جاوز المقدار كان ضارا مهلكا، وكذلك الدنيا: الكفاف منها ينفع وفضولها يضر)(٢). وهناك أوجه شبه أخرى؛ قيل: الماء إن أمسكته تغير ونتن وكذلك الدنيا لمن أمسكها بلية، والماء يأتي قطرة قطرة ويذهب دفعة واحدة وكذلك الدنيا، والماء طبعه النقصان وكذلك الدنيا، والماء يكون في موضع كثيرا وفى موضع قليلا وكذلك الدنيا، ولأن لا أحد يقدر أن يرد المطر كذلك لا يقدر أحد أن يرد الرزق، وقيل: الماء قليله ري للعطشان وكثيره داء، كذلك الدنيا، وقيل: الزرع يفسد بالماء الكثير كذلك القلب يفسد بالمال الكثير، وقيل: الماء لا يكون كله صافيا كذلك المال فيه الحلال والحرام والشبهة، وقيل: الماء يطهر النجاسات كذلك المال الطيب الحلال يطهر دنس الآثام، قال تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. وعلى الجملة فإن هذا التشبيه يفيد أن المشبه والمشبه به، الدنيا والماء، إذا نزل وأثمر ثمرته، يمكث ما شاء الله، ثم يضمحل ويزول والعلم عند الله تعالى.

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ٦/ ٣٩٩.
(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ٤١٢ بتصرف يسير.

وقوله: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال ابن كثير: (أي: ما فيها من الحَبّ، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور والنضرة)[1].

وقوله: ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾

قال ابن الجوزي: (قال الفراء: الهشيم: كل شيء كان رطباً فيبس. وقال الزجاج: الهشيم: النبات الجافّ. وقال ابن قتيبة: الهشيم من النبت: المتفتِّت، وأصله من هشمتُ الشيء: إذا كسرته، ومنه سمِّي الرجل هاشماً. و ﴿تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ تنسفه)[2]، وقال ابن كثير: ﴿تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ أي: تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال)[3].

وفي استعمال الفاء للدلالة على الترتيب والتعقيب، في عطف اختلاطَ نبات الأرض على إنزال الماء، ثم في عطف صيرورة ذلك الماء المختلط بنبات الأرض هشيما على ما سبقه بالفاء أيضاً؛ نكتة لطيفة إذ يدل على سرعة انقضاء الدنيا ومراحلها، ونعيمها المسرع للزوال والاضمحلال.

وعلى هذا فلا متاع في الدنيا يحقق سعادة البشر؛ لأن السعادة الحقيقية هي الدائمة التي لا زوال فيها ولا وشقاء، فالسعادة الحقيقية إنما تتحقق برضا الإنسان عن نفسه، وبطمأنينة النفس؛ وهذا لا يكون إلا حين تجد ما يوافق فطرتَها من الدين، وهذا لا يكون إلا في ظل الإيمان والإسلام، فتكون العاقبة سعادة أبدية لا تكدرها الأكدار.

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦١.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٢٧.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦١.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾

قال ابن الجوزي: (قال المفسرون: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الإنشاء والإفناء ﴿مُّقْتَدِرًا﴾)(١)، وقال الطبري (يقول: وكان الله على تخريب جنة هذا القائل حين دخل جنته: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، وإهلاك أموال ذي الأَمْوَالِ الباخلين بها عن حقوقها، وإزالة دنيا الكافرين به عنهم، وغير ذلك مما يشاء قادر، لا يعجزه شيء أراده، ولا يُعْييه أمر أراده)(٢)، قال الزجاج: (المقتدر مبالغة في الوصف بالقدرة والأصل في العربية أن زيادة اللفظ زيادة المعنى)(٣)، وقال ابن عاشور: (جملة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ جملة معترضة في آخر الكلام، موقعها التذكير بقدرة الله على خلق الأشياء وأضدادها، وجعل أوائلها مفضية إلى أواخرها، وترتيبه أسباب الفناء على أسباب البقاء، وذلك اقتدار عجيب. وقد أفيد ذلك على أكمل وجه بالعموم الذي في قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾)(٤).

وختمت الآية بذلك لبيان أثر الإيمان في عدم الانخداع بمظاهر الدنيا، وللإبقاء على صلة تلك النعم بالخالق دائمةً، وفاعلة؛ ليحصل الانتفاع بها، على وجوه الشرع، فيتحقق شكرُ الله المقتدر، فعلا مع القول؛ فتزداد تلك النعم، وتغدو مَعْبَرا لتحصيل الثواب، والرضوان.

وقوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

قال ابن عاشور: (اعتراض أريد به الموعظة والعبرة للمؤمنين بأن ما فيه المشركون من النعمة من مال وبنين ما هو إلا زينة الحياة الدنيا التي

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٢٧.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٣٠

(٣) تفسير أسماء الله الحسنى ١/ ٥٩.

(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٠ بتصرف يسير.

علمتم أنها إلى زوال، كقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران]، وأن ما أعد الله للمؤمنين خير عند الله وخير أملاً. والاغتباط بالمال والبنين شنشنة معروفة في العرب، قال طرفة:

فلو شاء ربي كنت قيس بن عاصم ... ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد

فأصبحت ذا مال كثير وطاف بي ... بنون كرام سادة لمسوّد)[1]

قال ابن الجوزي: (هذا ردٌّ على المشركين المفتخرين بالأموال والأولاد، فأخبر أن ذلك مما يُتزيَّن به في الدنيا، لا مما ينفع في الآخرة)[2]، وقال البغوي: (قال علي ﷺ: المال والبنون حرث الدنيا والأعمال الصالحة حرث الآخرة وقد يجمعها الله لأقوام)[3]، وقال البقاعي: (﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ﴾ الفانيان الفاسدان وهما أجلّ ما في هذه الدار من متاعها ﴿زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ التي لو عاش الإنسان جميع أيامها لكان حقيقاً -لصيرورتها إلى زوال- بالإعراض عنها والبغض لها، مع ما في تحصيلهما من التعب، وما لهما بعد الحصول من سرعة العطب، ومع ذلك قد يكونان خيراً إن عمل فيهما بما يرضي الله، وقد يكونان شراً ويخيب الأمل فيهما، وقد يكون كل منهما سبب هلاك صاحبه وكدره، وسوء حياته وضرره)[4].

نكتة- قال ابن عاشور: (تقديم المال على البنين لأنه أسبق في الذهن، لأنه يرغَب فيه الجميع، ولذلك أيضاً قدم في بيت طرفة المذكور آنفاً)[5]،

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨١.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٢٨ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٧٤ بتصرف يسير.

(٤) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٩ بتصرف واختصار.

(٥) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨١ بتصرف واختصار.

ومن الأسباب أن أحداً لا ينازع ماله، لكنه قد ينازع ابنه، وقد يقع التنازع بسبب المال، ومن الناس من يهمل أولاده لانشغاله بالمال، وكثير منهم يخاطر بحياته من أجل المال، وفي الحديث: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَحْسِرَ الْفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، يَقْتَتِلُ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ، تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَيَقُولُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ: لَعَلِّي أَكُونُ أَنَا الَّذِي أَنْجُو"[1]، وفي القرآن تقديم ذكر المال على النفس في كل المواضع إلا قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، لأن النفس أغلى من المال، فناسب تقديمها في الشراء، ولأن المشتري هو العظيم جل جلاله، وأما بقية الآيات كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وقوله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٤١]، وغيرها، فقدم ذكر المال لأن بذله أهون من بذل النفس، ومن يجاهد بنفسه لا بد له من مال فناسب تقديم الحث على بذل المال، كما أن كثيراً من الناس يجاهد بماله، والأقل من يجاهد بنفسه، والله أعلم.

قوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن] أي: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته، خير لكم من

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢١٩ (٢٨٩٤).

اشتغالكم بهم والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾)(١).

قال ابن الجوزي: (فيها خمسة أقوال:

أحدها: أنها "سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر"؛ روى أبو هريرة مرفوعا: "إن عجزتم عن الليل أن تكابدوه، وعن العدوّ أن تجاهدوه، فلا تعجِزوا عن قول: "سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فقولوها، فإنّهن الباقيات الصالحات"، وهذا قول ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والضحاك. وسئل عثمان ﷺ عنها فقال هذه الكلمات، وزاد: "ولا حول ولا قوَّة إلا بالله". وقال سعيد بن المسيب، ومحمد بن كعب القرظي مثله سواء. والثاني: "أنها لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، ولا قوة إلا بالله"، رواه علي ﷺ عن رسول الله ﷺ. والثالث: أنها الصلوات الخمس، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال ابن مسعود، ومسروق، وإبراهيم. والرابع: الكلام الطيِّب، رواه العوفي عن ابن عباس. والخامس: هي جميع أعمال الحسنات، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال قتادة، وابن زيد)(٢).

ولا تعارض بين هذه الأقوال، فكن في مثل هذه المواضع على ذُكر مما قاله ابن تيمية رحمه الله في مقدمة التفسير فإنه نفيس، قال: (الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام أكثر، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد وذلك

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦١.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٢٨ بتصرف واختصار.

صنفان... الثاني أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه للتمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق، كسائل أعجمي عن مسمى الخبز فأُري رغيفاً وقيل له: هذا، فالإشارة إلى النوع لا إلى الرغيف وحده، مثاله في قوله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ ﴾ [فاطر: ٣٢]، فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للمحرمات، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات، فالمقتصدون هم أصحاب اليمين، والسابقون السابقون أولئك المقربون، ثم إن كلاً منهم يذكر نوعا من أنواع الطاعات كقوله: السابق الذي يصلي في أول الوقت والمقتصد الذي يصلي في أثنائه والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار، ويقول الآخر: السابق والمقتصد والظالم قد ذكرهم في آخر سورة البقرة، فإنه ذكر المحسن بالصدقة، والظالم بأكل الربا، والعادل بالبيع، والناس في الأموال إما محسن وإما عادل وإما ظالم، فالسابق المحسن بأداء المستحبات مع الواجبات، والظالم آكل الربا أو مانع الزكاة، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة ولا يأكل الربا، وأمثال هذه الأقاويل. فكل قول فيه ذِكْرُ نوعٍ داخل في الآية، ذُكِر لتعريف المستمع بتناول الآية له وتنبيهه على نظيره، فإن التعريف بالمثال قد يسهل أكثر من الحد المطلق، والعقل السليم يتفطن للنوع كما يتفطن إذا أشير إلى رغيف فقيل هو الخبز)[1].

والخامس هو أشملها فهو أولاها، قال الشنقيطي رحمه الله: (التحقيق أن "الباقيات الصالحات" لفظ عام، يشمل الصلوات الخمس، والكلمات

(١) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٣٣-٣٣٨ بتصرف واختصار.

الخمس المذكورة، وغير ذلك من الأعمال التي ترضي الله: لأنها باقية لصاحبها غير زائلة. ولا فانية كزينة الحياة الدنيا، ولأنها أيضاً صالحة لوقوعها على الوجه الذي يرضي الله)[1]، وقال الطبري: (فإن ظنّ ظانّ أن ذلك مخصوص بالخبر عن النبي ﷺ، فإن ذلك بخلاف ما ظن، وذلك أن الخبر عن رسول الله ﷺ إنما ورد بأن قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هنّ من الباقيات الصالحات، ولم يقل: هنّ جميع الباقيات الصالحات، ولا كلّ الباقيات الصالحات، وجائز أن تكون هذه باقيات صالحات، وغيرها من أعمال البرّ أيضاً باقيات صالحات)[2].

وقوله: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾

قال السعدي رحمه الله: (فثوابها يبقى، ويتضاعف على الآباد، ويؤمل أجرها ونفعها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويجد في تحصيلها المجتهدون، وتأمل كيف لما ضرب الله مثل الدنيا واضمحلالها ذكر أن الذي فيها نوعان: نوع من زينتها، يتمتع به قليلا بلا فائدة لصاحبه، بل ربما لحقته مضرته وهو المال والبنون، ونوع يبقى وينفع على الدوام، وهي الباقيات الصالحات)[3]، قال الشنقيطي رحمه الله: (﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي الذي يؤمل من عواقب الباقيات الصالحات، خير مما يؤمله أهل الدنيا من زينة حياتهم الدنيا وأصل الأمل: طمع الإنسان بحصول ما يرجوه في المستقبل)[4]، وبين ابن عاشور السبب فقال: (الآمل في المال

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٤٨.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٣٦.
(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٩ بتصرف واختصار.
(٤) أضواء البيان ٣/ ٣٤٨.

والبنين يأمل حصول أمر مشكوك فيه ومقصور على مدته. والآمل لثواب الأعمال الصالحة يأمل حصول أمر موعود به من صادق الوعد، وتحصل منه منفعة الدنيا والآخرة كما قال: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل] فلا جرم كان قوله: ﴿وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾ بالتحقق والعموم تذييلاً لما قبله)[1].

لطيفة- لبيان فضل الأعمال الصالحة على زينة الحياة الدنيا، تعلق بديع بقوله تعالى فيما سبق: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴿٧﴾ ﴾، فما على الأرض من زينة لا ينبغي أن يكون مراداً للعبد لذاته لأنه ليس سوى ابتلاء واختبار للعباد وعون لهم في سيرهم إلى الله، فمن أدرك هذه الحقيقة أحسن التعامل مع هذه الزينة واستعان بها في إحسان العمل فكان هذا خيراً له من تلك الزينة وأعظم نفعاً.

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨١.

وقفة مع مثل الحياة الدنيا

يُكثر القرآن الحديث عن الدنيا محذراً من الاغترار بنعيمها الزائل، ولا غرابة في ذلك، فالدنيا ليست دار قرار، والإنسان فيها كراكب استظل في ظل شجرة يوشك أن يرحل عنها. ومع أن هذه حقيقتها إلا أن ما فيها من نعيم قد يفتن المرء فيصرفه عن الغاية التي خلق لأجلها، فهو خلق للعبادة ووجهته ينبغي أن تكون للجنة لا غير:

فحي على جنات عدن فإنها　　منازلك الأولى وفيها المخيم[1]

وقد ضرب لها القرآن المثل هنا بالماء الذي ينزل من السماء؛ فيختلط به نبات الأرض؛ فيصبح هشيما تذروه الرياح، قال ابن كثير: (وكثيرًا ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما في: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ الآية [يونس: ٢٤]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر]، وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد]. وفي الحديث الصحيح: "الدنيا حلوة خضرة")[2]، والغرض واضح من ضرب هذا المثل وتكراره،

---

(١) مدارج السالكين ١/ ١٢٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦١ بتصرف يسير.

قال البقاعي: (ولما تبين بهذين المثلين[١] وغيرهما أن الدنيا سريعة الزوال، وشيكة الارتحال، مع كثرة الأنكاد، ودوام الأكدار، من الكد والتعب، والخوف والنصب؛ كالزرع سواء، تُقبِل أولاً في غاية النضرة، تتزايد شيئاً فشيئاً، ثم تأخذ في الانتقاص إلى الفناء، فهي جديرة بالزهد فيها والرغبة عنها، وأن لا يفتخر بها عاقل فضلاً عن أن يكاثر بها غيره)[٢]، وقال الطبري: (فلا يفخر ذو الأموال بكثرة أمواله، ولا يستكبر على غيره بها، ولا يغترنّ أهل الدنيا بدنياهم، فإنما مَثَلُها مثل هذا النبات الذي حَسُن استواؤه بالمطر، فلم يكن إلا رَيْثَ[٣] أن انقطع عنه الماء، فتناهى نهايته، عاد يابساً تذروه الرياح، فاسداً تنبو عنه أعين الناظرين، ولكن ليعمل للباقي الذي لا يفنى، والدائم الذي لا يبيد ولا يتغير)[٤].

فالآية تكشف عن حقيقة الدنيا ومآلها؛ لأثر ذلك في تحقيق العبودية لله وتصحيح السير إليه؛ لأن حبها والافتتان بها، مركوز في الطباع، وقد يحول دون الإيمان إذا صار غطاء يحجب الأدلةَ والآيات عن العقل، ويطمس على الأفئدة، أو قد يحول دون رجاء ما عند الله إخلاداً إلى الدنيا واطمئناناً بها، وهو ما حذر منه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨﴾ [يونس]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥﴾ [فاطر]، وبين عاقبة من لا يستجيب فقال: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ

(١) الأول ما جاء في قصة صاحب الجنتين.
(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٩ بتصرف واختصار.
(٣) أي إلاّ قَدْرَ ذلك، ينظر لسان العرب ٢/ ١٥٧ مادة (ريث).
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٣٠

قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأعراف]. وقد كان أعظم حائل بين المشركين وبين النظر في أدلة الإسلام انهماكهم في الحياة الزائلة ونعيمها، واستهزاؤهم بالمؤمنين: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [البقرة].

فحري بكل مسلم إذاً أن يحذر ما حذر الله منه، فلا يجعل الدنيا أكبر همه ولا مبلغ علمه، كي لا يفوته العلم الحقيقي الذي ينفعه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم].

إن مصيبة الأمة أنها وقعت فيما حذر الله منه وفتنت بالدنيا، فسلط عليها الذل بأيدي أعدائها، بسبب ذنوبها ومعاصيها وبعدها عن منهج الله، وما هذا بتخلي الله ﷻ عن أوليائه وأمة حبيبه ﷺ، حاشا وكلا، فهي أمة مرحومة كما قال ﷺ، لكنه استعتاب لهم عسى أن يرجعوا ويؤوبوا.

وقد شخص رسول الله ﷺ الداء فقال: "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت"(١).

فيمكننا بلا ريب أن نرد الضعف الذي حل بالأمة اليوم إلى هذه العلة، حب الدنيا، وإيثارها على الآخرة، والواقع في هذا الأمر من أبناء

(١) سنن أبي داود ٢/ ٥١٤ (٤٢٩٧)، وصححه الألباني.

الأمة على ضربين، إما مقصر مع إقراره بالدين وأحكامه، وإما متنكب للدين، متشبع بمفاهيم وأفكار تناقضه صراحة، كالعَلْمانية، والليبرالية، وغيرها، وهو في الحقيقة إنما يتبع هواه كما تقدم، ويؤثر دنياه، على آخرته!

إن الخروج من هذا الذل والبرء من هذا الداء لا يكون إلا بما بينه النبي ﷺ بقوله: "إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم"[١]، فالداء هنا هو هو في الحديث الأول، والدواء هو بالرجوع إلى الدين.

---

(١) سنن أبي داود ٢/ ٢٩٦ (٣٤٦٢).

تهذيب الغرائز

خلق الله الإنسان وركز فيه الغرائز والشهوات، كحب الدنيا وحب الشهوات من النساء والبنين والأموال والجاه والسلطان: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾ [آل عمران]، والإنسان أمام الغرائز إما أن يستسلم لها وإما أن يكبتها وإما أن يهذبها. فالاستسلام لا يليق بالنفوس السوية، وهو انحدار إلى الحيوانية، فالبهائم تستسلم للغرائز، فإذا اشتهت الطعام أكلت، أو الجماع جامعت، وهكذا. وهناك من يكبت غرائزه كالرهبان وبعض الصوفية، وقد يكون هدفهم نبيلاً للوصول لدرجة من الطهر، وهو ما أراده بعض الصحابة فنهاهم النبي ﷺ، والصواب أن الإنسان ليس له أن يلغي غرائزه ولا أن يكبتها، وليس له أن يطلقها بلا ضابط، بل الواجب تهذيبها، وأول خطوة أن يتعرف غرائزه لأن الناس تتفاوت فيما بينهم، نعم هناك غرائز مشتركة، ولكنها تتفاوت من شخص لآخر، وهناك غرائز قد توجد في شخص دون غيره. فإذا تعرف غرائزه حاول تنمية الإيجابية، والسيطرة على السلبية، وهذا يكون بالمرانة والصبر، قال ﷺ: "إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَهُ"(١).

---

(١) تاريخ بغداد ١٠/ ١٨٤ (٤٦٩٧)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٤٢).

ولا ينبغي الاستسلام، إذ لا صحة لمن يقول الطباع لا تتغير، لكن لا بد من الصبر والمجاهدة فإذا الشدة تنقلب رحمة، والبخل كرما، والغضب حلماً، وهذا ملاحظ، فبعض الناس إذا تزوج تغيرت طباعه للخير أو الشر، وكذلك من التزم بعد أن أسرف على نفسه تتحسن طباعه وتتهذب أخلاقه، فالمرء قابل للتغيير وعليه أن يغير أخلاقه للأحسن.

*****

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾
وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾
وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ
صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن ذكر الله ﷻ حال صاحب الجنتين المكذب بالبعث وما حل به من عقاب في الدنيا، وبعد أن لفت بحجة عقلية بينة أنظار الناس عامة، والكفار المكذبين لنبينا ﷺ خاصة إلى حقيقة الحياة الدنيا وفرق ما بينها وبين الآخرة، كان من المناسب أن ينتقل بالأسماع والأذهان إلى مشهد جليل من مشاهد يوم القيامة يجسد صفة الاقتدار التي سبق ذكرها، تذكيراً للمؤمنين بما في هذا اليوم العصيب من أهوال ليستحضر كل منهم مآله ويتفكر في مصيره، مما يدفعه إلى مزيد من الأعمال الصالحات وإحسان العمل، وترهيباً لمن لا ينفعه خطاب العقل ويصر على الكبر والعناد، قال ابن عاشور: (فبعد أن وعظهم بأن ما هم فيه إلى زوال، أعقبه بالتذكير بما

بعد ذلك الزوال بتصوير حال البعث وما يترقبهم فيه من العقاب على كفرهم به، وذلك مقابلة لضده في قوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ﴾)[١].

فقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾.

قال ابن عاشور: (عطف على ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٥]. فـ(يومَ) منصوب بتقدير: اذكر، كما في أمثاله)[٢]، وقال ابن كثير: (يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ١٠﴾ [الطور] أي: تذهب من أماكنها وتزول، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾)[٣]

وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾

الخطاب لغير معين قال ابن عاشور: (أي: يَرى الرائي، كقول طرفة:

ترى جُثْوَتَيْن من تراب عليهما ... صفائحُ صمٌّ من صَفيح مُنَضد)[٤]

قال ابن الجوزي: (وفي معنى "بارزة" قولان. أحدهما: ظاهرة فليس عليها جبل أو شجر أو بناء، قاله الأكثرون. والثاني: بارزاً أهلها من بطنها، قاله الفراء)[٥]، قال الشنقيطي: (البروز: الظهور. أي ترى الأرض منكشفة لذهاب الآكام والشجر والعمارات التي عليها. وهذا المعنى بينه في غيره كقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ١٠٧﴾ [طه]. وأقوال العلماء في معنى ذلك راجعة إلى أنها

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٢ بتصرف واختصار.
(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٢ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٤-١٦٥ بتصرف يسير.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٢ بتصرف يسير.
(٥) زاد المسير ٤/ ٢٢٩ بتصرف واختصار.

أرض مستوية لا نبات فيها، ولا بناء ولا ارتفاع ولا انحدار. وقول من قال: ﴿بَارِزَةً﴾ أي بارزاً ما كان في بطنها من الأموات والكنوز - بعيد جداً كما ترى. وبروز ما في بطنها دلت عليه آيات أخر؛ كقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾ [الانشقاق]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات]، وقوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ [الزلزلة]، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾ [الانفطار])[1].

وقوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾

قال الشنقيطي: (﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي جمعناهم للحساب والجزاء، وجاء ذلك في آيات أخر، كقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: ٨٧] الآية، وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود]. وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [الأنعام: ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات. وبين في مواضع آخر أن الحشر المذكور شامل للعقلاء وغيرهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام])[2]، وقال القرطبي: (﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي إلى الموقف، ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي لم نترك، غادرت كذا أي تركته، قال عنترة:

غادرته متعفراً أوصاله　　والقوم بين مجرح ومجدل

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٤٩ بتصرف واختصار.

(٢) أضواء البيان ٣/ ٣٥٠ بتصرف واختصار.

ومنه الغدر لأنه ترك الوفاء، وسمي الغدير لأن الماء تركه، ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها. أي: حشرنا برهم وفاجرهم وجنهم وإنسهم)[١]، وقال ابن كثير: (وجمعناهم، الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحدًا، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾ [الواقعة]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣﴾ [هود])[٢].

وقوله: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ هذا هو عرض الخلائق على الله يوم القيامة لفصل القضاء، وفيه من الرهبة ما لا يخفى.

قال ابن الجوزي: (وفي معنى قوله: ﴿صَفًّا﴾ أربعة أقوال.

أحدها: أنه بمعنى: جميعاً، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾ [طه: ٦٤]، قاله مقاتل.

والثاني: أن المعنى: وعُرضوا على ربِّك مصفوفين، هذا مذهب البَصريين.

والثالث: أن المعنى: وعُرضوا على ربِّك صفوفاً، فناب الواحد عن الجميع، كقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥].

والرابع: أنه لم يَغِبْ عن الله منهم أحد، فكانوا كالصف الذي تسهل الإحاطة بجملته، ذكر الأقوال ابن الأنباري. وقيل: كلّ أمة صفٌّ)[٣].

وقوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾

قال القرطبي: (أي يقال لهم: لقد جئتمونا حفاة عراة، لا مال معكم ولا ولد. وقيل فرادى، لقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقال الزجاج: أي بعثناكم كما خلقناكم)[٤]، ويشهد للأول قوله ﷺ: "يا أيها

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٤١٧ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٥.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٢٩ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير القرطبي ١٠/ ٤١٧ بتصرف واختصار.

الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا، ثم قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾"[1] فالأولان لبيان حال مجيئهم، والأخير لبيان أنه لا فرق في قدرة الله ﷻ بين الخلق أول مرة وبين البعث، قال: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ﴾ [الإسراء: ٥١] قال ابن الجوزي: (وفي المخاطبين بهذا قولان؛ أحدهما: أنهم الكُلّ، والثاني: الكُفار، فيكون اللفظ عامّاً، والمعنى خاصّاً)[2]، فعلى الأول يكون فيه إظهار لقدرة الله وصدق وعده بجمع الناس لهذا اليوم، كما قال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [النساء]، وفيه تبكيت وإذلال لمن كان مكذباً، وعلى الثاني فما فيه من التقريع والتبكيت ظاهر.

وقوله: ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾

قال ابن الجوزي: (﴿ زَعَمْتُمْ ﴾ خطاب الكفار خاصة، والمعنى: زعمتم في الدنيا ﴿ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ للبعث والجزاء)[3]، ونحوه عند القرطبي[4].

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٦٩١ (٤٣٤٩)، صحيح مسلم ٤/ ٢١٩٤ (٢٨٦٠).
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٢٩.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٢٩.
(٤) تفسير القرطبي ١٠/ ٤١٧.

فائدتان من تباين الأسلوب القرآني

• المتأمل في الخطاب القرآني فيما سبق يلاحظ تحولاً في الأسلوب من صيغة الغائب في قوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾، ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾، ﴿وَعُرِضُواْ﴾ إلى صيغة المخاطب في قوله: ﴿جِئْتُمُونَا﴾، ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾، ﴿زَعَمْتُمْ﴾، وهذا يرجح أن الخطاب في الأخيرة كلها للكفار، بخلاف الأولى حيث كان عاماً، لأن توجيه التوبيخ بضمير الخطاب أنسب للغرض، وأوقع في النفوس، وبه يزداد شعور المنكرين للبعث بالخزي، ويكون التوبيخ أكثر إيلاما.

قال ابن كثير ﷺ: (﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ تقريع للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد، ولهذا قال: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن)[1].

• كما نلحظ التباين في الأسلوب، بين المضارع في: ﴿نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾، ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ والماضي مع المنكرين: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾، ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾، ﴿وَعُرِضُواْ﴾، ﴿جِئْتُمُونَا﴾، ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾، ﴿زَعَمْتُمْ﴾؛ فناسب المضارعُ استحضار تلك الأحداث المستقبلية في الذهن كأنها تحدث الآن، أما المنكرون للبعث فقد تأكدتْ الأحداثُ المتعلقةُ بهم بالماضي ليفيد اليقين، وكأنها لِيَقينيَّتِها وقعت؛ إمعانا في إبطال إنكارهم، وترهيبهم من موقف لا محالةَ طائلهم.

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٥ بتصرف يسير.

قال ابن الجوزي رحمه الله: (قوله: ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾، إن قيل: هذا مستقبل، فكيف عُبِّر عنه بالماضي؟ فالجواب: أن ما قد علم الله وقوعه، يجري مجرى المعايَن)(١)، فما سبق في علم الله أن يقع لا بد أن يقع، لأن علمه سبحانه تام محيط بالأمور، فمحال أن يقع شيء بخلاف علمه، ومحال ألا يقع ما يعلم وقوعه، فاستوى في علمه الإخبار عن الوقوع بصيغة الماضي والمستقبل، ومن تأمل القرآن وجد من هذا شيئاً كثير، كقوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾، وقوله: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾، ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ ﴾، ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴾، ﴿ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ ﴾، ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾.

وقوله: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ ﴾

هذا انتقال إلى مشهد جديد في يوم القيامة وهو بدء الحساب، وبدأت الآية بالماضي المبني للمفعول (وُضِع)، فالمُضِيّ أفاد التقرير، والبناء للمفعول أفاد تربية المهابة لله، إذ هو فاعل الوضع سبحانه، قال الطبري: (يقول: ووضع الله يومئذ كتاب أعمال عباده في أيديهم، فأخذ واحد بيمينه وأخذ واحد بشماله)(٢)، قال ابن الجوزي: (فيه ثلاثة أقوال؛ أحدها: أنه الكتاب الذي سُطِر فيه ما تعمل الخلائق قبل وجودهم، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الحساب، قاله ابن السائب. والثالث: كتاب الأعمال، قاله مقاتل وابن جرير، الكتاب اسم جنس)(٣)، والثالث أظهر بدليل الآيات الأخر، قال الشنقيطي: (وهذا المعنى جاء موضحاً في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٢٩ بتصرف يسير.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٣٨ بتصرف يسير.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٢٩ بتصرف واختصار.

كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء] وبين أن بعضهم يؤتى كتابه بيمينه، وبعضهم يؤتاه بشماله، وبعضهم يؤتاه وراء ظهره؛ قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحاقة] الآية، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الانشقاق])[1].

أما قوله: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾

فلعل هذا من أشد المواقف على الكافرين والمجرمين قبل دخول النار، لما يترتب عليه من عذاب وخزي عظيم، فهم خائفون مما ينتظرهم، وقد كشفت أعمالهم، وأحصيت عليهم، وعدت، صغيرها وكبيرها.

قال الشنقيطي: (المجرمون: جمع المجرم، اسم فاعل الإجرام وهو: ارتكاب الجريمة، وهي الذنب العظيم يستحق صاحبة عليه النكال)[2]، وقال ابن عاشور: (الإشفاق: الخوف من أمر يحصل في المستقبل)[3]. قال الطبري: (يقول: فترى المجرمين المشركين بالله مشفقين، يقول: خائفين مما فيه من أعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا أن يؤاخذوا بها)[4].

أما قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٥٤.
(٢) أضواء البيان ٣/ ٣٥٤ بتصرف واختصار.
(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٤ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٣٨ بتصرف واختصار.

فنلاحظ عودة الخطاب للمضارع مرة أخرى، قال ابن عاشور: (والتعبير بالمضارع لاستحضار الحالة الفظيعة، أو لإفادة تكرر قولهم شأن الفزعين الخائفين)(١)، فعلى التقديرين يصور عظم الخطب وهول الموقف.

قال ابن كثير: (أي: يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا)(٢)، وقال ابن جرير: (نادوا بالويل حين أيقنوا بعذاب الله، وضجوا مما قد عرفوا من أفعالهم الخبيثة التي قد أحصاها كتابهم، ولم يقدروا أن ينكروا صحتها)(٣)، قال ابن عاشور: (تأنيث الويل للمبالغة، وهو سوء الحال والهلاكُ. كما أُنثت الدارُ على دَارة، للدلالة على سعة المكان)(٤)، وقال الألوسي: (﴿يَٰوَيۡلَتَنَا﴾ نداء لهلكتهم من بين الهلكات، فإن الويلة كالويل الهلاك، ونداؤها كأنه قيل يا هلاك أقبل فهذا أوانك، ففيه استعارة مكنية تخييلية، وفيه تقريع وإشارة إلى أنه لا صاحب لهم غير الهلاك وقد طلبوه ليهلكوا ولا يروا العذاب الأليم. وقيل: المراد نداء من بحضرتهم كأنه قيل: يا من بحضرتنا انظروا هلكتنا، وفيه تقدير يفوت به تلك النكتة)(٥).

وقوله: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قال ابن عاشور: (استفهام للتعجب)(٦)، والمعنى (ما شأن هذا الكتاب)(٧).

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٤ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٥.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٣٨.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٤.
(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٧٤ بتصرف واختصار.
(٦) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٤ بتصرف واختصار.
(٧) تفسير الطبري ١٨/ ٣٩.

لطيفة- قال القاسمي رحمه الله: (قال البقاعي إن لام الجر رسمت مفصولة إشارة إلى أنهم لشدة الكرب يقفون على بعض الكلمة)(١)، وهذا على فرض صحته معنى بديع، كحال أهل الدنيا إذا بلغ الخوف بشخص مبلغه وعقدت الدهشة لسانه تقطع كلامه حتى لا يكاد يبين.

وقوله: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾

أي لا يترك؛ كما سبق في: (فلم نغادر)، قال ابن عاشور: (وجملة ﴿لَا يُغَادِرُ﴾ في موضع الحال، هي مثار التعجب، وقد جرى الاستعمال بملازمة الحال لنحو "ما لك" فيقال: ما لك لا تفعل)(٢)، والتعجب لأن الكتاب بخلاف ما ألفوه، فهو لا يترك شيئاً مما كان منهم إلا ذكره بدقة تامة.

وقال ابن الجوزي في بيان الصغيرة والكبيرة: (هذا على ظاهره في صغير الأمور وكبيرها؛ وقد روى عكرمة عن ابن عباس، قال: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: القهقهة. وقد يُتوهَّم أن المراد صغائر الذنوب وكبائرها، وإنما المراد أن التبسم من صغار الأفعال، والضحك فعل كبير، وقد روى الضحاك عن ابن عباس، قال: الصغيرة: التبسم والاستهزاء بالمؤمنين، والكبيرة: القهقهة بذلك؛ فعلى هذا يكون ذنباً من الذنوب لمقصود فاعله، لا لنفسه)(٣)، وهذا هو الصواب والذنوب داخلة فيه، بخلاف من قصره على الذنوب، لعموم قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ١٨﴾ [ق].

---

(١) تفسير القاسمي ٧/ ٤١ بتصرف واختصار.

(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٤ بتصرف واختصار.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٣٠ بتصرف واختصار.

قال ابن عاشور: (وتقديم الصغيرة للتعجب من إحصائها. وعطفت عليها الكبيرة لتعميم الإحصاء، لأن التعميم أيضاً يثير التعجب، فقد عجبوا من إحاطة الكتاب بجميع الأعمال)[1].

وقوله: ﴿إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾

قال البغوي: (عدها، قال السدي: كتبها وأثبتها، قال مقاتل بن حيان: حفظها)[2]، وهي معان متقاربة لإحصاء الأعمال، وفي الحديث القدسي: "يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه"[3].

وهذا الإحصاء هو الذي لم يصبر عليه المجرمون واشتكَوْا منه، قال قتادة رحمه الله: (اشتكى القوم كما تسمعون الإحصاء، ولم يشتك أحد ظلماً، فإياكم والمحقَّرات من الذنوب، فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه)[4].

قوله: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾ قال ابن كثير: (أي: من خير أو شر كما قال: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ [آل عمران: ٣٠])[5]، وقال ابن الجوزي: (أي: مكتوباً مُثْبَتاً في الكتاب، وقيل: رأوا جزاءه حاضراً)[6].

وقوله: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٤.
(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٧٧.
(٣) صحيح مسلم ٤/ ١٩٩٤ (٢٥٧٧).
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٣٨
(٥) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٦.
(٦) زاد المسير ٤/ ٢٣٠.

تذييل بديع للآية، فهذا الإحصاء وإن كان لا يغادر مما فعلوه صغيراً أو كبيراً إلا أنه لا يثبت عليهم شيئاً لم يفعلوه ولو كان مقدار ذرة، والحساب على ما اقترفته أيديهم لا ظلم فيه، فلا يجزي الله بالإحسان إلا إحساناً وإن جازى السيئة بمثلها، فلا يجزي من لم تبلغه الرسالة كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]، وكل رسول قد بين لقومه أوضح بيان ما يجب فعله وما يجب تركه، فانقطعت الأعذار وثبتت الحجة وانتفى الظلم إن عوقبوا، ومقادير الثواب والعقاب على ميزان العدل فلا ظلم البتة، بل لا ظلم في أفعال الله أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة، لا عن عجز بل لأن الله أوجب العدل على نفسه وحرم عليها الظلم كما في الحديث الذي كان أبو إدريس الخولاني رحمه الله إذا حدث به جثا على ركبتيه: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تَظالموا... يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه"(١). قال الشنقيطي: (ذكر جل وعلا في الآية أنه لا يظلم أحداً، فلا ينقص من حسنات محسن، ولا يزيد من سيئات مسيء، ولا يعاقب على غير ذنب. وأوضح هذا في مواضع أخر، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء]، وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت] وقوله: ﴿وَمَا

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٩٩٤ (٢٥٧٧).

ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النحل]، وقوله: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [النحل] والآيات بمثل ذلك كثيرة)[1].

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٥٥ بتصرف يسير.

وقفة مع صغائر الأعمال

ثبت في الآية أن الله يحصي على العباد أعمالهم، دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها، كما ثبت أنه يحاسب على الأعمال وإن صغرت: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة]، قال القرطبي: (قال مقاتل: نزلت في رجلين، وذلك أنه لما نزل ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [الإنسان: ٨] كان أحدهم يأتيه السائل، فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة، والآخر يتهاون بالذنب اليسير، كالكذبة والغيبة والنظرة، ويقول: إنما أوعد الله النار على الكبائر، فنزلت ترغبهم في القليل أن يعطوه، فيوشك أن يكثر، ويحذرهم اليسير، فيوشك أن يكثر)(١).

يتهاون كثير من الناس في هذا تهاوناً عظيماً، كحال الرجلين في كلام مقاتل وسعيد بن جبير، ولئن كان هذا سائغاً قبل نزول الزلزلة فليس بسائغ بعدها، والسورة من أوائل ما يحفظه المسلم، والنبي ﷺ قد لفت أنظار أمته إلى أهمية صغائر الأعمال سواء منها الصالحات أو السيئات.

أما السيئات فقد قال ﷺ: "إياكم ومحقرات الذنوب فإنما مثل محقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه"(٢)، وقال لأم المؤمنين رضي الله عنها: "يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب،

---

(١) تفسير القرطبي ٢٠/ ١٥١ بتصرف يسير.

(٢) مسند أحمد ٣٧/ ٤٦٧ (٢٢٨٠٩)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين.

فإن لها من الله عَجَلَّ طالباً"(١) وقال: "عُذِّبَتِ امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض"(٢)، وقال أنس ﷺ: "إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات. قال أبو عبد الله(٣) يعني بذلك المهلكات"(٤)، قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال ابن بطال: المحقرات إذا كثرت صارت كباراً مع الإصرار، وقد أخرج أسد بن موسى في الزهد عن أبي أيوب الأنصاري قال: إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها وينسى المحقرات فيلقى الله وقد أحاطت به، وإن الرجل ليعمل السيئة فلا يزال منها مشفقاً حتى يلقى الله آمناً)(٥).

إن المعاصي صغرت أم كبرت بريد الكفر كما قال بعض السلف، وقد قيل لحذيفة ﷺ: "في يوم واحد تركت بنو إسرائيل دينهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا إذا أُمِروا بشيء تركوه، وإذا نُهوا عن شيء ركبوه، حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه"(٦)، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (يا صاحب الذنب لا تأمنن من سوء عاقبته، ولَمَا يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته؛ فإن قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب الذي عملته، وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من

(١) مسند أحمد ٤٢/ ٩٦ (٢٥١٧٦)، وقال: إسناده حسن.
(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٢٨٤ (٣٢٩٥)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٢١ (٢٢٤٢).
(٣) هو الإمام البخاري نفسه رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٤) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٨١ (٦١٢٧).
(٥) فتح الباري ١١/ ٣٣٠.
(٦) حلية الأولياء ١/ ٢٧٩.

الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب إذا ظفرت به، وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب إذا عملته)[١].

وفي آية الكهف وما أشبهها، تنبيه وتحذير لكل مكلف أن لا يستصغر ذنباً فيتجرأ على محارم الله، قال القرطبي: (كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول: يا ويلتاه! ضجوا إلى الله تعالى من الصغائر قبل الكبائر)[٢].

فما أحوج الأمة اليوم إلى هذا المعنى الإيماني، ومراقبة الله في السر والعلن، وفي كل شأن، في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات.

وأما الحسنات فقد قال نبي الله ﷺ: "لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق"[٣]، وقال: "لا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تعطي صلة الحبل، ولو أن تعطي شسع النعل، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تنحي الشيء من طريق الناس يؤذيهم، ولو أن تلقى أخاك، ووجهك إليه منطلق، ولو أن تلقى أخاك فتسلم عليه، ولو أن تؤنس الوحشان في الأرض، وإن سبك رجل بشيء يعلمه فيك، وأنت تعلم فيه نحوه، فلا تسبه فيكون أجره لك ووزره عليه، وما سر أذنك أن تسمعه فاعمل به، وما ساء أذنك أن تسمعه فاجتنبه"[٤]، وقال: "اتقوا النار

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٣٢٤.

(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ٤١٩.

(٣) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٢٦ (٢٦٢٦).

(٤) مسند أحمد ٢٥/ ٣١٠ (١٥٩٥٥)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح.

النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة"(١)، وقال ﷺ: "بينما كلب يُطيف برَكِيَّة كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فنزعت مُوقها فسقته فغفر لها به"(٢)، قال الحافظ: (قوله "يُطيف" بضم أوله من أطاف، يقال أطفت بالشيء إذا أدمت المرور حوله، قوله (بركية) بفتح الراء وكسر الكاف وتشديد التحتانية البئر... قوله (موقها) بضم الميم وسكون الواو بعدها قاف هو الخف وقيل ما يلبس فوق الخف)(٣).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾

مناسبة الآيات لما قبلها:

تنتقل الآيات من مشاهد القيامة، حيث يرى الناس أعمالهم وينالون جزاءها إما في الجنة وإما في النار، إلى مشهد موغل في القدم يوم خلق الله أبا هؤلاء البشر وأسجد له ملائكته، فيبين الله ﷻ مبدأ العداوة بين إبليس وذريته وآدم وذريته. والمتأمل لهذه النقلة تظهر له نكتة بديعة، فما كان من صاحب الجنتين، وما كان من كفار قريش المتكبرين من طلب طرد ضعفة وفقراء المؤمنين، وما كان من كل المجرمين المكذبين، مما نتج عنه تلك الوقفة الذليلة يوم عرض الكتب، كل هذا يبدو استجابة لعدو آدم وذريته إبليس، فجاءت الآيتان لتوقظا الغافلين عن هذه الحقيقة ولتذكرهم بأصل العداوة، ولتبصرهم بالولي الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يتولوه وهو الله جل

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٤٠٠ (٦١٩٥)، صحيح مسلم ٢/ ٧٠٣ (١٠١٦).
(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٢٧٩ (٣٢٨٠)، صحيح مسلم ٤/ ١٧٦١ (٢٢٤٥).
(٣) فتح الباري ٦/ ٥١٦.

وعلا، وتنعى عليهم استبدال هذه الولاية الحقة بولاية أشد الخلق عداوة لهم، وتلك لعمر الله خفة عقل وغباوة منقطعة النظير.

ونكتة أخرى، وهي المشابهة بين تكبر المشركين وصاحب الجنتين وتكبر إبليس، إذ أبى أن يسجد لآدم لما يراه لنفسه من فضل وشرف الأصل وهو النار ومن ضعة لآدم لأنه من طين، وكذلك أولئك رأوا لأنفسهم فضلاً لشرف الأصل ولكثرة المال والولد وغير ذلك من المتاع، فشابهوه في الفعل فناسب أن يذكرهم بما حصل في مبدأ الخلق.

قال البقاعي: (لما ذكر البعث وختمه بإحسانه بالعدل المثمر لإعطاء كل أحد ما يستحقه، أتبعه -بما له من الفضل- بابتداء الخلق الذي هو دليله، في سياق مذكر بولايته الموجبة للإقبال عليه، وعداوة الشيطان الموجبة للإدبار عنه، مبين لما قابلوا به عدله فيهم وفي عدوهم من الظلم كما تكبر على آدم عليه السلام بأصله، فتكبروا على فقراء المؤمنين بأصلهم وأموالهم وعشائرهم، فكان فعلهم فعله سواء، فكان قدوتهم وهو عدوهم)[1].

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾

أي (واذكر يا محمد)[2]، قال ابن الجوزي: (أمر نبيَّه ﷺ أن يذكِّر هؤلاء المتكبِّرين عن مجالسة الفقراء قصةَ إبليس وما أورثه الكِبْر، فقال: {وإِذ قلنا} أي: اذكر ذلك)[3]، وقال ابن كثير: (يقول تعالى منبهًا بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم، ومقرعًا لمن اتبعه وخالف خالقه الذي أنشأه، وبألطاف رزقه غذاه، ثم بعد هذا والى إبليس وعادى الله، فقال: ﴿

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٥٢ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٧٨.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٣٠ بتصرف واختصار.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: لجميع الملائكة ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ سجود تشريف وتعظيم)[1].

والملائكة في عقيدة أهل السنة (خلقوا من نور وخِلْقتهم عظيمة، منهم مَن له جناحان، ومَن له ثلاثة، ومن له أَربعة، ومَن لهُ أَكثر، وهم ذوات محسوسة، وليسوا أُمورا معنوية، ولا قوى خفية، يسكنون السَّماء، وهم جند من جنود الله، قادرون على التشكُل بأَشكال جسمانية ؛ حسبما يأذن الله، وهم مقربون من الله ومكرَّمون، لا يوصفون بالذكورة والأنوثة، ولا يتناسلون، ولا يأكلون ولا يشربون، طعامهم التسبيح والتهليل، ولا يملون، ولا يتعبون، ويتصفون بالحسن، والجمال، والحياء، والنظام.

ويختلفون عن البشر بأَنَّهم جُبلُوا على الطاعة، خلقهم الله لعبادته وتنفيذ أَوامره، يسبحون الله ليلا ونهارا، ويطوفون بالبيت المعمور في السماء، ويخشون الله تعالى، وهم أَصناف كثيرة موكلة بأعمال مختلفة، ولا يعلم عددهم إِلَّا الله ﷻ، قد حجبهم عنّا؛ فلا نراهم في صورهم، ولكن كشفهم لبعض عباده، كما رأى النبي ﷺ جبريل على صورته مرتين)[2].

وآدم ﵇ أبو البشر، خلقه الله ﷻ من طين بيده تشريفاً، ونفخ فيه من روحه، وأسكنه جنته، وأسجد له ملائكته، وخلق منه زوجه، وهو نبي، سأل رجل النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله أنبي كان آدم؟ قال: نعم معلَّم مكلَّم"[3].

وقوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٧ بتصرف واختصار.

(٢) الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة ١/ ٥٣-٥٧، بتصرف.

(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٢٨٨)، قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

أما الملائكة فاستجابوا كلهم لأمر الله ﷻ وسجدوا في الحال بلا تردد، لأن طاعة ربهم جل وعلا من صفاتهم التي فطرهم عليها، قال تعالى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: ٣٠] و[ص: ٧٣]، وأما إبليس فأبى السجود ظلماً وعدواناً، فكان بهذا من الكافرين.

قال ابن كثير رحمه الله عند قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾: (خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار؛ وأصل خلق الملائكة من نور، فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع، وذلك أنه كان قد تَوَسَّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم، وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة)(١).

قال القرطبي: (وإبليس وزنه إفعيل، من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله، ولم ينصرف لأنه معرفة ولا نظير له فشبه بالأعجمية، قاله أبو عبيدة، وقيل: أعجمي فلم ينصرف للعجمة والتعريف، قاله الزجاج)(٢).

وقوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾

قال ابن منظور: (جَنَّ الشيءَ يَجُنُّه جَنّاً سَتَره وبه سمي الجِنُّ لاسْتِتارِهم)(٣)، فهم يروننا ولا نراهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، قال الحسن البصري: (ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجنّ، كما أن آدم عليه السلام أصل الإنس)(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٧ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير القرطبي ١/ ٢٩٥ بتصرف واختصار.

(٣) لسان العرب ١٣/ ٩٢.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٤١.

قال الشنقيطي: (وقوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ ظاهر في أن فسقه لكونه من الجن، وقد تقرر في الأصول أن الفاء تدل على التعليل، كقولهم: سرق فقطعت يده، أي لسرقته، وسها فسجد، أي لسهوه، ومن هذا: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] أي لعلة سرقتهما، وكذلك قوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ﴾ أي لعلة كينونته من الجن، لأن هذا الوصف فرق بينه وبين الملائكة، لأنهم امتثلوا الأمر وعصى هو)(١).

قال الطبري: (وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ يقول: فخرج عن أمر ربه، وعدل عنه ومال، كما قال رؤبة:

يَهْوِينَ في نَجْدٍ وغَوْرًا غائرًا فَوَاسقا عَنْ قَصْدِها جَوَائرًا

يعني بالفواسق: الإبل المنعدلة عن قصد نجد، وكذلك الفسق في الدين هو الانعدال عن القصد، والميل عن الاستقامة، ويُحكى عن العرب سماعا: فسقت الرطبة من قشرها: إذا خرجت، وفسقت الفأرة: خرجت من جحرها، وكان بعض أهل العربية من البصرة يقول: إنما قيل: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ لأنه مراد به: ففسق عن ردّه أمر الله، كما تقول العرب: أتخمت عن الطعام، بمعنى: أتخمت لما أكلته. معناه: عدل وجار عن أمر الله، وخرج عنه. وقال بعض أهل العلم: معنى الفسق: الاتساع. وزعم أن العرب تقول: فسق في النفقة: بمعنى اتسع فيها. قال: وإنما سمي الفاسق فاسقا، لاتساعه في محارم الله)(٢). **تنبيه**- الفسوق أكبر وأصغر، فالأكبر كفر، والأصغر من جنس المعاصي، والمراد هنا هو الأكبر أي الكفر.

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٥٦ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٤٢-٤٣ بتصرف واختصار.

وقوله : ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾

تقريع وتوبيخ لمن اتبعه وأطاعه، قال الطبري: (يقول: أفتوالون يا بني آدم من استكبر على أبيكم وحسده، وكفر نعمتي، وغره حتى أخرجه من الجنة إلى الأرض، وتطيعونه وذريّته من دون الله مع عدواته لكم قديما وحديثا، وتتركون طاعة ربكم الذي أسجد لوالدكم ملائكته، وأسكنه جناته، وآتاكم من فواضل نعمه ما لا يحصى؟ وذرّية إبليس: الشياطين يغرّون بني آدم)(١)، (قتادة: يتوالدون كبني آدم، وهم لكم عدوّ)(٢).

وقوله : ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ قال ابن الجوزي: (فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: بئس الاتخاذ للظالمين بدلاً. والثاني: بئس الشيطان.

والثالث: بئس الشيطان والذرِّيَّة، ذكرهنَّ ابن الأنباري)(٣).قال الطبري: (بئس البدل للكافرين اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دون الله وهم لكم عدوّ، من تركهم اتخاذ الله وليا باتباع أمره ونهيه، وهو المنعم عليهم وعلى أبيهم، المتفضّل عليهم من الفواضل ما لا يحصى؛ بدلا)(٤).

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٣ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٤٤ بتصرف واختصار.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٣١.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٤٤ بتصرف واختصار.

فوائد من قصة إبليس

ما ذكرته الآية من قصة السجود تكرر في القرآن بدءاً من البقرة، وقد حوت القصة فوائد وعبراً ودروساً لا ينبغي أن يغفل عنها المؤمن السالك إلى الله ﷻ، لأن نجاة الإنسان بسلام إلى جنة عرضها السماوات والأرض يتوقف في كثير منه على فهم القصة واستحضار دروسها.

الفائدة الأولى- هل إبليس من الملائكة؟

قد يبدو السؤال غريباً لما هو مستقر في الأذهان أنه من الجن، إلا أن هذه المسألة فيها خلاف مشهور بين أهل العلم، قال الشنقيطي رحمه الله: (والخلاف في إبليس هل هو ملك في الأصل ومسخه الله شيطاناً، أو ليس بملك، وشمله لفظ الملائكة لتعبده معهم مشهور عند أهل العلم)[1].

قال الشنقيطي: (وحجة من قال: ليس من الملائكة أمران: أحدهما عصمة الملائكة من الكفر الذي ارتكبه. كما قال: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم]، وقال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾ [الأنبياء]. والثاني: التصريح في الآية بأنه من الجن، والجن غير الملائكة. قالوا: وهو نص في محل النزاع. واحتج من قال: إنه ملك في الأصل بما تكرر في الآيات من قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾ [الحجر] قالوا: فأخرجه بالاستثناء من الملائكة، فدل على أنه منهم. وقال بعضهم: والظواهر إذا كثرت صارت كالنص. ومن المعلوم أن الأصل في الاستثناء الاتصال لا الانقطاع. قالوا: ولا حجة لمن خالفنا في قوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ لأن الجن قبيلة من الملائكة،

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٥٧ بتصرف واختصار.

خلقوا من بينهم من نار السموم كما روي عن ابن عباس. والعرب تعرف في لغتها إطلاق الجن على الملائكة. ومنه قول الأعشى في سليمان:

وسخر من جن الملائك تسعة   قياماً لديه يعملون بلا أجر

قالوا: ومن إطلاق الجن على الملائكة قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨] عند من يقول: بأن المراد بذلك قولهم: الملائكة بنات الله. سبحانه وتعالى عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله علواً كبيراً)[١].

وعلى أن الاستثناء متصل لا يلزم كونه من الملائكة، قال الزمخشري: (﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ استثناء متصل، لأنه كان جنّيّاً واحداً بين ألوف الملائكة، فغلبوا عليه في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓا﴾ ثم استثني منهم استثناء واحد منهم)[٢]، وقال الأزهري: (قال أبو إسحاق: في سياق الآية دليل على أن إبليس أُمر بالسجود مع الملائكة، وأكثر التفسير أن إبليس من غيرهم كما قال الله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ فإن قيل: كيف استثني وليس منهم؟ فالجواب أنه أُمِرَ معهم بالسجود، فاستُثني من أنه لم يسجد، كما تقول: أمرت عبدي وإخوتي فأطاعوني إلا عبدي، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فربّ العالمين ليس من الأول، لا معنى للكلام غير هذا)[٣].

فالصحيح أنه ليس من الملائكة، لصريح دلالة ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾، قال الشوكاني: (مستأنفة لبيان سبب عصيانه وأنه كان من الجنّ ولم يكن من الملائكة فلهذا عصى)[٤]، وفيما سبق رد كاف على من قال إنه من الملائكة.

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٥٧ بتصرف واختصار.
(٢) الكشاف ١/ ٨١، تفسير سورة البقرة، باختصار وتصرف.
(٣) تهذيب اللغة ٣/ ٤٤١ بتصرف واختصار.
(٤) فتح القدير ٤/ ٣٩٩.

أما ما روي عن ابن عباس من قوله: إن الجن قبيلة من الملائكة خلقوا من نار، فغريب، وإن ثبت فقد يكون أخذه من أهل الكتاب، وإلا فإنه مخالف لما ثبت عن النبي ﷺ: "خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم"(١)، فلو كان كما قالوا لقال بعض الملائكة، لا سيما وأن لابن عباس في المسألة قولاً آخر كما سبق.

قال القرطبي: (قال ابن زيد والحسن وقتادة أيضاً: إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو البشر ولم يكن ملكاً، وروي نحوه عن ابن عباس وقال: اسمه الحارث)(٢)، وأما قول القرطبي: (كان من الملائكة على قول الجمهور: ابن عباس وابن مسعود وابن جريج وابن المسيب وقتادة وغيرهم، وهو اختيار الشيخ أبي الحسن، ورجحه الطبري)(٣)، فقد قال ابن كثير في هذا المقام كلاماً رائقاً: (وقد رُوي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق بأيدينا، وفي القرآن غُنْيَةٌ عما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين يَنْفُون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء، والنجباء من الجهابذة النقاد، والحفاظ الذين دونوا الحديث وحرروه، وبينوا صحيحه من ضعيفه، من منكره وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٩٤ (٢٩٩٦).
(٢) تفسير القرطبي ١/ ٢٩٤.
(٣) تفسير القرطبي ١/ ٢٩٤.

الوضاعين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوي، خاتم الرسل، أن ينسب إليه كذب، أو يحدث عنه بما ليس منه، فرضي الله عنهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل)[(١)].

الفائدة الثانية- الفرق بين معصية آدم عليه السلام ومعصية إبليس لعنه الله:

عصى إبليس أمر الله عز وجل وعصاه آدم عليه السلام، ولكن شتان بينهما، إن بينهم بعد ما بين السماوات والأرض، والفرق بين المعصيتين من وجوه:

الأول- معصية آدم لم تكن عن عزم بل ضعف وذهول عن نهي الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ١١٥﴾ [طه]، وأما إبليس فعن عزم وتصميم، وذلك لإصراره على المعصية بعد وقوعها، وتعليله لها، وعدم توبته، وطلب النظرة إلى يوم القيامة.

الثاني- معصية آدم كانت لشهوة إذ تطلعت نفسه للأكل من الشجرة التي منع، وكل ممنوع مرغوب، ومعصية إبليس لشبهة؛ قال (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين)، فسهل على آدم عليه السلام أن ينزع ويستغفر، ولم يمكن إبليس هذا، فخطر الشبهات أعظم من الشهوات.

الثالث- وهو مبني على ما سبق، أن آدم لم يكفر بذنبه، وكفر إبليس لأن في شبهته اعتراضاً على حكمة الله، وهذا قدح في أصل العبودية، قال ابن القيم رحمه الله: (لما سلم لآدم أصل العبودية لم يقدح فيه الذنب)[(٢)].

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٨ بتصرف واختصار.

(٢) الفوائد ١/ ٦٦.

الرابع- ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: (إذا كانت خطيئة الرجل في كِبْر فلا تَرْجُه، وإذا كانت خطيئته في معصية فارجه، وكانت خطيئة آدم في معصية، وخطيئة إبليس في كبر)(١).

الخامس- أن معصية آدم عليه السلام كانت بوسوسة من إبليس، وكانت معصية إبليس ذاتية سولتها له نفسه الخبيثة.

السادس- معصية آدم عليه السلام لم تكن عن خبث بل عن طيب نفس، لهذا انخدع بقسم إبليس، ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف]، قال قتادة: (فحلف لهما حتى خدعهما، وقد يُخْدع المؤمن بالله، فقال: إني خلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعاني أرشدكما. كما قيل: "من خادَعنا بالله خُدِعْنا)(٢)، وأما معصية إبليس فعن خبث وفساد طبع.

السابع- معصية آدم عفوية لا ينفك عنها بنوه، قال عليه السلام: "كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون"(٣)، ومعصية إبليس قياس فاسد مقابل النص.

فهذه الفروق وغيرها، جعلت توبة آدم عليه السلام قريبة هينة على نفسه، على عكس عدو الله الذي كان منتهى أمله أن يؤخِّر عذابه ليوم القيامة ليوقع في شباكه من بني آدم ليشتركوا معه في الخلود في نار جهنم.

الفائدة الثالثة- شؤم المعصية وخطرها وفضل التوبة وبركتها: فبعد أن كان آدم عليه السلام في أعز جوار في جنة لا يجوع فيها ولا يعرى، ولا يظمأ فيها ولا يشقى، أهبط إلى الدنيا ليكد وينصب ويتعب، تتناوشه فيها سهام الأعداء بعد أن كان في عز ومنعة، وكل هذا بأكلة أكلها من شجرة واحدة حرمها الله عليه في الجنة بعد أن متعه فيها بكل ما سواها: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤١.

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ٣٥١ بتصرف يسير.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٦٥٩ (٢٤٩٩)، وحسنه الألباني.

أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة]، إلا أن الله ﷻ لا يقنط عباده من رحمته، فلما تاب تاب الله عليه: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف]، ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة].

وهذا الذي كان من آدم عليه السلام ما كان لينجو منه بنوه لو كانوا مكانه، فوجودهم على الأرض يشبه أن يكون بكسب أيديهم لو أنهم مروا بما مر به عليه السلام، وكثرة وقوعهم في المعاصي دليل واضح على ذلك، ثم إن الله سبحانه فتح لخلقه أبواب الرحمة فوعدهم أن يعيدهم إلى الجنة إن هم وعوا درس المعصية الأولى واتخذوا ربهم ولياً وعدوه إبليس عدوا وشمروا عن ساعد الجد، ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة]، فإن فعلوا رجعوا إلى منازلهم الأولى:

فحي على جنات عدن فإنها   منازلك الأولى وفيها المخَيَّمُ
ولكننا سبي العدو فهل ترى   نعـود إلى أوطاننا ونُسَّلَمُ

ولئن كان هذا شؤم معصية آدم عليه السلام، فشؤم معصية إبليس أشد وأنكى، لأن معصيته كفر، لأنها ردٌّ على الله، وهذا ناقض للإيمان القائم على ألوهية الله وحاكميته وحده، ومن هنا كانت معصية إبليس مكفِّرة، ثم إنه أتبعها بالإصرار والاستكبار فحرم نفسه التوبة. فليحذر الذين يتجرؤون على التخيِّر من أحكام الله، والانتقاء، فإنهم في الحقيقة يسيرون على خطى إبليس في الاستكبار، وجعل عقولهم القاصرة، وأهوائهم المتباينة مرجعا للمدح والذم، فليقلعوا ويرجعوا ويتوبوا قبل أن يأتي يوم

لا مرد له من الله، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الروم].

الفائدة الرابعة- إغلاق باب التأويل الباطل والأقيسة الفاسدة: قال جعفر بن محمد بن الحنفية لرجل: (اتق الله ولا تَقِس الدين برأيك، فإن أول من قاس إبليس؛ إذ أمره الله بالسجود لآدم، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾)[1]، وقال ابن القيم رحمه الله: (قد قيل إن طرد إبليس ولعنه إنما كان بسبب التأويل، فإنه عارض النص بالقياس وقدمه عليه وتأول لنفسه أن هذا القياس العقلي مقدم على نص الأمر بالسجود فإنه قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، وهذا دليل قد حذفت إحدى مقدمتيه وهي أن الفاضل لا يخضع للمفضول وطوى ذكر هذه المقدمة كأنها مقررة وقرر المقدمة الأولى بقوله: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف]، فكان نتيجة المقدمتين امتناعه من السجود وظن أن هذه الشبهة العقلية تنفعه في تأويله فجرى ما جرى وصار إماماً لكل من عارض نصوص الوحي بتأويله الباطل إلى يوم القيامة، فكم لهذا الإمام اللعين من أتباع من العالمين، وأنت إذا تأملت عامة شبه المتأولين التي تأولوا لأجلها النصوص وعطلوها رأيتها من جنس شبهته. والقائل: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل، من هاهنا اشتق هذه القاعدة وجعلها أصلا لرد نصوص الوحي التي يزعم أن العقل يخالفها، كما زعم إمامه أن دليل العقل يخالف نص الأمر بالسجود حين قدمه عليه، وعرضت لعدو الله هذه الشبهة من ناحية كبره الذي منعه من الانقياد المحض لنص الوحي، وهكذا تجد كل مجادل في نصوص الوحي بالباطل إنما يحمله على ذلك كبر في صدره ﴿ إِنَّ

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٣٤٩.

ﭐلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر])[1].

فلو صح أن النار خير من الطين وأن الفاضل لا يخضع للمفضول، لما جاز أن يرد أمر الله ﷻ بهذه الحجة، فالله سبحانه لا يسأل عما يفعل، ولئن صح فليس بالضرورة أن يكون هذا هو عامل التفاضل الوحيد، وقد غاب عنه أنه تعالى خلق آدم بيده وكفى بهذا تشريفاً وتكريماً.

على أن النكتة في أن مقدمة (النار خير من الطين) ليست صحيحة!

قال ابن كثير رحمه الله: (أخطأ قَبَّحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين، فإن الطين من شأنه الرزانة والأناة والتثبت، والطين محل النبات والزيادة والإصلاح. والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة؛ فخان إبليسَ عنصرُه، ونفع آدمَ عنصرُه في الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة)[2].

وإن مما يحز في النفس أن تجد اليوم من نشأ في السنة وتربى عليها ثم تستفزه شياطين الإنس والجن فيسير في ركب المحرفين للنصوص، أو المضعفين لما ثبت منها مجاراة للعلمانيين وأضرابهم، أو رضوخاً لضغوط الداخل والخارج، ويكون عوناً لهؤلاء على أهل الخير والصلاح بزعم التجديد أو المصلحة، فيلجأ إلى الأقيسة الفاسدة، ويعرض النصوص على عقله القاصر فيردها أو يحرفها، نسأل الله السلامة والعافية.

---

(١) الصواعق المرسلة ١/ ٣٧٠-٣٧٢ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٩٢ بتصرف واختصار.

الفائدة الخامسة- التفاضل يكون بالتقوى والعمل الصالح:

وهذه حقيقة مقررة في الشرع، دلت عليها الآيات والأحاديث، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات: ١٣]، وقال عليه السلام: "من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه"(١)، وعن عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر فقال: "من استعملت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى. قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا. قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله ﷻ عالم بالفرائض. قال عمر: إن نبيكم ﷺ قال: إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين"(٢).

فمن غفل عن هذه الحقيقة أو تغافل واتكأ على شرف أصله فلا يأمن أن يكله الله إليه فتخونه أحوج ما يكون، كما خان إبليسَ أصلُه في أحلك المواقف، فأورده المهالك، على فرض شرف أصله وعلوه على الطين.

الفائدة السادسة- أهمية الإخلاص: سواء كان إبليس من الملائكة أو من الجن، فقد كان في درجة عالية ومنزلة سامية إذ كان مع الملائكة يوم أمروا بالسجود لآدم، وقد كثرت الروايات أنه كان ذا علم وعمل وعبادة؛ لكن الأحداث التالية منذ جاء الأمر الإلهي بالسجود تشي أن علمه وعمله وعبادته لم تكن خالصة لله بل كانت ليصل بها إلى هذه المنزلة من الرفعة والمكانة بين الملائكة، فرضا نفسه هو مطلوبه لا رضا ربه وخالقه جل وعلا، ولو كان الأمر غير ذلك لانتفع بعلمه فلم يخالف الأمر الإلهي.

إن أمر الإخلاص عظيم، فبدونه يصبح العلم حجة على صاحبه وتصبح الأعمال الصالحة كأن لم تكن، بل تصبح نقمة على المرء، فعن شُفَيٍّ

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٧٤ (٢٦٩٩).
(٢) صحيح مسلم ١/ ٥٥٩ (٨١٧).

الأصبحي عن أبي هريرة، قال: حدثني رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ورجل يقتتل في سبيل الله ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار. فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال إن فلاناً قارئ، فقد قيل ذاك. ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق. فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان جواد، فقد قيل ذاك. ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول الله له: في ماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت. فيقول الله تعالى له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جريء، فقد قيل ذاك. ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة! وقال الوليد أبو عثمان فأخبرني عقبة بن مسلم أن شُفيّاً هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا، قال أبو عثمان وحدثني العلاء بن أبي حكيم أنه كان سيافاً لمعاوية فدخل عليه رجل فأخبره بهذا عن أبي هريرة فقال معاوية: قد فُعِل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديداً حتى ظننا أنه هالك، وقلنا: قد جاءنا هذا الرجل بِشرّ. ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال صدق الله ورسوله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا

نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾"[(١)].

الفائدة السابعة- رؤية فضل الله على بني آدم بالتكريم والتشريف:

فبهذه القصة وبما كان من عناد إبليس، أظهر الله فضل آدم عليه السلام، إذ خلقه بيده، وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته، ولو شاء الله لما ذكر ذلك ولقصر الكلام على معصيته، لكنه نشر فضله وأذاع شرفه، فحري بالعبد أن يقابل هذا الفضل بالشكر، وهذا الشرف بالحمد، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم].

الفائدة الثامنة- إدراك أصل عداوة إبليس ومداها: وهذه أعظم فائدة يجنيها المؤمن من القصة، ولذا تعددت في القرآن، ليعرف عدوه فيحذره، ولا يستبدل ولاية عدوه الممتلئ بغضاً وحسداً وعداوة، بولاية خالقه ومن أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ومن هو أرحم به من أمه وأبيه.

وهذه العداوة التي أظهرها إبليس باقية ملازمة، ولم تقف عند آدم بل عداها إلى بنيه فقال: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص]، ونقلها لذريته؛ قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ﴾ [الكهف: ٥٠].

وينبغي أن تعرف أن كيد إبليس لا يهدأ ولا يفتر: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأعراف]، فمن كانت

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٥٩١ (٢٣٨٢)، وصححه الألباني.

هذه حاله وحال ذريته فحري بالعاقل أن يتخذه عدواً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر].

ومن فقه المرء معرفة مداخل الشيطان، فإن من عرف عدوه وخططه سهل عليه إبطالها والتصدي لها، بخلاف من عرف عدوه ولم يعرف ما ينصبه من شراك، ناهيك عمن لا يعرف عدوه، فضلاً عمن اتخذه ولياً!

قال ابن القيم رحمه الله في بيان شرور الشيطان: (ولا يمكن حصر أجناس شره فضلا عن آحادها، إذ كل شر في العالم فهو السبب فيه، ولكن ينحصر في ستة أجناس لا يزال بابن آدم حتى ينال واحداً منها؛ الأول: شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله وهو أول ما يريد من العبد، فلا يزال به حتى يناله منه، فإذا ناله صيره من جنده، واستنابه على أمثاله، فصار من دعاة إبليس ونوابه، فإذا يئس من ذلك وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه نقله إلى: المرتبة الثانية من الشر: البدعة، وهي أحب إليه من المعاصي لأن ضررها في نفس الدين، وهو ضرر متعد، ولا يتاب منها، وهي مخالفة لدعوة الرسل ودعاء إلى خلاف ما جاؤوا به، وهي باب الكفر، فإذا نال منه البدعة بقي أيضا داعيا من دعاته، فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة نقله إلى: المرتبة الثالثة من الشر: وهي الكبائر، فهو أشد حرصا على أن يوقعه فيها، ولا سيما إن كان عالما متبوعا، لينفر الناس عنه، ثم يشيع من ذنوبه في الناس، ويستنيب من يشيعها، تدينا وتقربا بزعمه وهو نائب إبليس ولا يشعر، فإن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم، فكيف إذا تولوا هم

إشاعتها؟ لا نصيحة منهم ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه، كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به، وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء أهون من ذنوب هؤلاء، فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفر الله وتاب إليه قبل الله توبته وبدل سيئاته حسنات، وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين وتتبع لعورتهم وقصد لفضيحتهم، فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى: المرتبة الرابعة: وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها، كما قال النبي: إياكم ومحقرات الذنوب، فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض، وذكر حديثا معناه أن كل واحد جاء بعود حتى أوقدوا نارا عظيمة فطبخوا واشتووا، ولا يزال يسهل عليه الصغائر حتى يستهين بها فيكون صاحب الكبيرة الخائف أحسن حالا منه، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى: المرتبة الخامسة: وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها، فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان حافظا لوقته، نقله إلى: المرتبة السادسة: وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه، ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل المفضول ويحضه عليه إذا تضمن ترك ما هو أفضل، وقل من يتنبه لهذا، فإنه إذا رأى داعيا إلى نوع من الطاعة لا يكاد يقول إن هذا الداعي من الشيطان، فإنه لا يأمر بخير، ويرى أن هذا خير فيقول هذا الداعي من الله، وهو معذور ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين بابا من الخير ليتوصل بها إلى باب من الشر أو ليفوت بها خيرا أعظم، وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد يكون سببه تجريد متابعة الرسول وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه وأرضاها له وأنفعها للعبد وأعمها نصيحة لله

تعالى ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم، ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول، وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك فلا يخطر بقلوبهم والله تعالى يمن بفضله على من يشاء من عباده)(١).

وما دامت العلاقة بين بني آدم وإبليس وذريته عدائية لهذا الحد؛ فَحُقَّ للعاقل العجب من اتخاذه وذريتِه أولياء، وأن يتوَجَّهَ إليهم التوبيخ: (كيف تصنعون هذا الصنع وتستبدلون بمن خلقكم وأنعم عليكم بجميع ما أنتم فيه من النعم؟ من لم يكن لكم منه منفعة قط، بل هو عدوّ لكم يترقب حصول ما يضركم في كل وقت)(٢). لكن الشيطان، وقد فَسَق وأَبْلَسَ من رحمة الله، وطُرِد منها؛ لا ينفك يستعين على الإنسان بهواه، ويستحوذ عليه بمقدار ضعف إيمانه، وغفلته عن ذكر الله، وإلا فإن كيده كان ضعيفاً.

وقوله: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾

قال البغوي: (﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ﴾ ما أحضرتهم وقرأ أبو جعفر "ما أشهدناهم" بالنون والألف على التعظيم)(٣)، وقال ابن الجوزي: (في المشار إليهم أربعة أقوال؛ أحدها: إبليس وذريته، والثاني: الملائكة، والثالث: جميع الكفار، والرابع: جميع الخلق؛ والمعنى: إني لم أشاورهم في خلقهن؛ وفي هذا بيان للغَناء عن الأعوان، وإظهار كمال القدرة)(٤)، والأنسب لسياق الآيات وسباقها أن يكون المقصود إبليس وذريته الذين اتخذهم الظالمون أولياء، قال الطبري: (يقول عزّ ذكره: ما أحضرتهم ذلك فأستعين

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٤٨٣-٤٨٥ بتصرف واختصار.
(٢) فتح القدير ٤/ ٣٩٩.
(٣) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٨٠.
(٤) زاد المسير ٤/ ٢٣١.

بهم على خلقها، ولا أشهدت بعضهم أيضا خلق بعض، فأستعين به على خلقه، بل تفرّدت بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير، يقول: فكيف اتخذوا عدوّهم أولياء من دوني، وهم خلق أمثالهم، وتركوا عبادتي وأنا المنعم عليهم، وخالقهم وخالق من يوالونه من غير معين ولا ظهير)(١)، وقال ابن كثير: (يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم، لا يملكون شيئًا، ولا أشهدتهم خلقي للسموات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، فأنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها ومقدرها وَحْدي، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير، كما قال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ الآية [سبأ]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ قال مالك: أعوانًا)(٢).

وقوله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾

قال الطبري: (يقول: وما كنت متخذ من لا يهدي إلى الحقِّ أعواناً وأنصاراً، من قولهم: فلان يعضد فلاناً أي يقوّيه ويعينه يعني أن إبليس وذرّيته يضلون بني آدم عن الحقّ، ولا يهدونهم للرشد)(٣)، قال ابن عطية: (الضمير في ﴿أَشْهَدتُّهُمْ﴾ للكفار، والناس بالجملة، فتتضمن الآية الرد على المنجمين، وأهل الطبائع، والمتحكمين من الأطباء وسواهم من كل من يتخوض في هذه الأشياء، والمقصود أولاً بالآية إبليس وذريته، وبهذا يتجه الرد على الطوائف المذكورة وعلى الكهان والمصدقين لهم والمعظمين للجن حين يقولون: أعوذ بعزيز هذا الوادي، إذ الجميع متعلقون بإبليس وذريته،

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٤ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٩ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٤٥ بتصرف واختصار.

وهم أضلوا الجميع، فهم المراد الأول بـ {المضلين}، وتندرج الطوائف في معناهم)[١]، وفي الانتقال من الضمير في (أشهدتهم) (أنفسهم) إلى الظاهر في (المضلين) نكتة لطيفة، قال الألوسي: (وإنما وضع ذلك موضع ضميرهم ذماً وتسجيلاً بالإضلال وتأكيداً لإنكار اتخاذهم أولياء)[٢].

قال ابن عاشور: (والعضد: العظم بين المرفق والكتف)[٣]، قال ابن الجوزي: (والعَضُد يستعمل بمعنى العون، لأنه قِوام اليد، قال الزجاج: والاعتضاد؛ التقوِّي وطلب المعونة؛ اعتضدت بفلان: استعنت به. وفي نفى اتخاذهم عضداً قولان؛ أحدهما: الولايات، أي: ما كنت لأولي المضلِّين، قاله مجاهد، والثاني: خَلْق السموات والأرض، قاله مقاتل)[٤]، قال الألوسي: (ولكونه نكرة في سياق النفي عم وفسر بالجمع؛ والإفراد لرؤوس الآي، وقيل: لم يجمع لأن الجمع في حكم الواحد في عدم الاعتضاد)[٥].

فالمراد من نفي إشهادهم ذلك الإشعارُ بضآلة هؤلاء المضلين، الذين يُتَّخَذون من دون الله أولياء؛ فهم لم يشهدوا الخلق، فضلا أن يستشاروا أو يشاركوا فيها. وما داموا كذلك، فلا يستحقون الطاعة والخضوع؛ لأن الإنسان مفطور على طلب معبود كامل لا يعجزه شيء ولا يحتاج لمعين؛ ليعبده ويلجأ إليه لتحقيق الأمن، والاستغناء به عمن سواه؛ وهؤلاء

---

(١) الوجيز لابن عطية ٤/ ٣١٨ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٨١ بتصرف واختصار.
(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٤٤.
(٤) زاد المسير ٤/ ٢٣١ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٨١ بتصرف واختصار.

الأولياء ليس أحد منهم كذلك، فليس ذلك إلا لواجب الوجود سبحانه وتعالى، وهذا دليل على وجوب اتخاذه ولياً من دون أولئك المضلين.

فائدة- الله سبحانه منزه عن اتخاذ الناصر والعضد والمعين، لأن هذا نقص ينافي كماله جل وعلا، قال تعالى: (﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف]، أما الإنسان فإنه يحتاج لمن يعينه ويشد من أزره، قال موسى ﵇: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص]، ولابد لمن أراد الإصلاح أن يتخذ من هو أهل، وابنة شعيب تقول بعد أن رأت حال موسى ﵇: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص]، ولما أراد ملك مصر أن يستعين بيوسف ﵇ دله على المهمة التي ينفعه فيها وعلل ذلك بصفاته ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف]، فلا يصح أن نتخذ المفرطين عضدا فنمكنهم من المناصب الإعلامية أو الدينية، بل نتخذ أهل الصلاح المتسلحين بالإيمان والمعارف المطلوبة.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

مناسبة الآيتين لما قبلهما:

في هذا الخطاب عود إلى مشهد يوم القيامة، وفيه بيانُ أن ما ثبت عقلاً من فساد اتخاذ إبليس وذريته أولياء، من واقعهم المنبئ عن العجز والافتقار، ثابت كذلك من جهة المآل لمن أشرك مع الله أحداً في عبادته، إذ إنهم لن ينفعوهم يوم القيامة ولن يردوا عنهم من عذاب الله شيئاً.

قوله: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾

قال ابن عاشور: (عطف على ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ ﴾[الكهف: ٥٠] أي: واذكر يوم ذلك، أو على ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الكهف: ٥١]، فالتقدير: ولا أشهدت شركاءهم جميعاً، ولا تنفعهم شركاؤهم يوم الحشر، فهو انتقال من إبطال معبودية الشيطان والجن إلى إبطال إلهية جميع الآلهة التي عبدها دهماء المشركين مع بيان ما يعتريهم من الخيبة واليأس يومئذٍ)[1]، وقال ابن كثير: (يقول تعالى مخبرًا عما يُخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعًا وتوبيخًا: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أي: في دار الدنيا. ادعوهم اليوم، ينقذونكم مما أنتم فيه)[2].

وعن قوله: ﴿شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ قال ابن عاشور: (زعمتموهم شركائي. وقدم وصفهم بالشركاء قبل الزعم تهكماً بالمخاطبين وتوبيخاً لهم، ثم أردف بما يدل على كذبهم بفعل الزعم الدال على اعتقاد باطل)[3].

فائدة- الزعم لغة يكون حقا وباطلا بخلاف ما يظن بعضهم، فمن الأخطاء الشائعة قصر الزعم على الكاذب، وهذا قد يؤدي إلى فهم خاطئ لمراد المتكلم فتبنى عليه أحكام. قال ابن منظور: (قيل هو القول يكون حقاً ويكون باطلاً وأَنشد ابن الأَعرابي لأُمَيَّةَ في الزَّعْم الذي هو حق:

وإِني أَذينٌ لكم أَنه ... سَيُنجِزُكم ربُّكم ما زَعَمْ)[4].

وقوله: ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٩ بتصرف يسير.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٩ بتصرف يسير.

(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٩ بتصرف واختصار.

(٤) لسان العرب ١٢/ ٢٦٤.

قال الطبري: (يقول: فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم)(١)، وقال الشوكاني: (﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي: فعلوا ما أمرهم الله به من دعاء الشركاء ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ إذ ذاك، أي: لم يقع منهم مجرد استجابة، فضلاً عن أن ينفعوهم أو يدفعوا عنهم)(٢)، وقال القاسمي رحمه الله: (وفي إيراده، مع ظهوره، تهكم بهم وإيذان بأنهم في الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به)(٣). وهذا كقوله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد]، فبئس للظالمين بدلاً!

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال ابن الجوزي: (في المشار إليهم قولان؛ أحدهما: المشركون والشركاء، والثاني: أهل الهدى وأهل الضلالة.

وفي معنى ﴿مَّوْبِقًا﴾ ستة أقوال؛أحدها: مَهْلِكاً، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك. وقال ابن قتيبة: مَهْلِكاً بينهم وبين آلهتهم في جهنم، ومنه يقال: أَوبَقَتْه ذنوبُه، أي: أهلكتْه. قال الزجاج: جعلنا بينهم من العذاب ما يوبقهم، وقال الفراء: جعلنا تواصُلهم في الدنيا مَوْبِقاً، أي: مَهْلِكاً لهم في الآخرة، فالبَيْن، على هذا بمعنى التواصل، كقوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] على قراءة من ضمَّ النون. والثاني: أن المَوْبِق: وادٍ عميق يُفرَّق به بين أهل الضلالة وأهل الهدى، قاله عبد الله بن عمرو.

والثالث: أنه وادٍ في جهنم، قاله أنس بن مالك، ومجاهد.

والرابع: أن المَوْبِق: العدواة، قاله الحسن. والخامس: أنه المَحْبِس، قاله الربيع بن أنس. والسادس: أنه المَوْعِد، قاله أبو عبيدة)(٤).

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٥.
(٢) فتح القدير ٤/ ٤٠٠ بتصرف يسير.
(٣) تفسير القاسمي، ٧/ ٤٣.
(٤) زاد المسير ٤/ ٢٣٢ بتصرف واختصار.

قال ابن كثير: (والظاهر أنه المهلك، ويجوز أن يكون واديًا في جهنم أو غيره، إلا أن الله أخبر أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحد منهم إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير. وإن جعل الضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُم﴾ عائدًا إلى المؤمنين والكافرين، كما قال عبد الله ابن عمرو: إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به؛ فهو كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾)[1].

قوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾

قال الشنقيطي: (مِن رأى البصَرية، فهي تتعدى لمفعول واحد، والتعبير بالماضي لتحققه، كالواقع بالفعل)[2]، قال ابن الجوزي: (﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ أي: عاينوها وهي تتغيَّظ حنقاً عليهم. والمراد بالمجرمين: الكفار. ﴿فَظَنُّوٓا۟﴾ أي: أيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي: داخلوها. ومعنى المواقعة: ملابسة الشيء بشدَّة)[3]، قال الألوسي: (وضع المظهر في مقام المضمر تصريحاً بإجرامهم وذماً لهم بذلك، والرؤية بصرية)[4]، وقال ابن كثير: (أي لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب قبل وقوعه، عذاب ناجز)[5].

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧٠ بتصرف واختصار.
(٢) أضواء البيان ٣/ ٣٦٤ بتصرف واختصار.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٣٢ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٨٦.
(٥) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧١ بتصرف واختصار.

قال القرطبي: (فظنوا بمعنى اليقين والعلم، قال ابن عباس: أيقنوا أنهم مواقعوها، وقيل: رأوها من بعيد فتوهموا أنهم مواقعوها، وظنوا أنها تأخذهم في الحال)(١)، وأغلب المفسرين على أن الظنَّ هنا اليقين والعلم. وممن رجحه الطبريُّ، والقرطبيُّ، وابنُ كثيرٍ، والزمخشريُّ، والنَّسفيُّ، والمحليُّ، والشوكانيُّ، والألوسيُّ(٢)، وهو صحيح في اللغة؛ قال دريد(٣):

وَقُلتُ لِعارِضٍ وَأَصحابِ عارِضٍ وَرَهطِ بَني السَوداءِ وَالقَومُ شُهَّدي
عَلانِيَةً ظُنّوا بِأَلفَي مُدَجَّجٍ سَراتُهُمُ في الفارِسِيِّ المُسَرَّدِ

والظن في القرآن بمعنى اليقين كثير كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة] و﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة]، و﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ [القيامة]، و﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ [يونس: ٢٤].

والحال والسياق يرجحان أن المشركين قد أيقنوا أنهم مواقعو النار، والعياذ بالله! قال الألوسي: (وهو الظاهر من حالهم بعد قول الله تعالى ذلك واستغاثتهم بشركائهم وعدم استجابتهم لهم وجعل الموبق بينهم)(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾

قال ابن عاشور: (في الكلام إيجاز، تقديره: وحاولوا الانقلاب أو الانصراف فلم يجدوا عنها مصرفاً، أي مخلصاً)(١)، وقال ابن الجوزي: (أي:

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٣ بتصرف واختصار.
(٢) انظر: تفسير الطبري ١٥/ ١٧٣، وتفسير القرطبي ١١/ ٣، وتفسير الجلالين ٢٨٣، وروح المعاني ٨/ ٧٧٤، وتفسير القرآن العظيم ٣/ ٩٠، وفتح القدير ٣/ ٢٩٤، والكشاف ٣/ ٧٢.
(٣) دُرَيد بن الصِمّة الجشمي البكري، من هوازن (ت ٨ هـ)، والبيتان من الطويل.
(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٨٦.

(أي: مَعْدِلاً؛ والمَصْرِف: الموضع الذي يُصْرَف إليه، وذلك أنها أحاطت بهم من كل جانب، فلم يقدروا على الهَرَب)[٢]، وقال الطبري: (يقول: ولم يجدوا عن النار التي رأوا معدلا يعدلون عنها إليه. يقول: لم يجدوا من مواقعتها بدّا، لأن الله قد حتم عليهم ذلك، ومنه قول أبي كبير الهذليّ:

أزُهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَصْرِف أمْ لا خُلُودَ لباذِلٍ مُتكَلِّفِ)[٣].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾

تقرر الآيتان حقيقةً في طبيعة الإنسان، وانطباقها على الكافر أوضح؛ وهي كثرة الجدل، وهي مذمومة إن كان الجدال بالباطل وتكون أجدر بالذم عندما تقف عائقاً أمام الإيمان وبراهينه القاطعة.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾

قال ابن منظور: (صَرَّفْنا الآياتِ أي بيَّنّاها وتَصْريفُ الآيات تَبْيينُها... الليث: تَصْريفُ الرِّياحِ صَرْفُها من جهة إلى جهة)[٤]، وذلك من أسباب استمرار الحياة، لأن الرياح لو كانت من جهة واحدة أضرت، ولهذا كان في تصريف الآيات والأمثال والعبر في القرآن حياة للقلوب

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٩٠.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٣٢.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٤٨ بتصرف يسير.
(٤) لسان العرب ٩/ ١٨٩.

وهداية للبصائر كما كان في تصريف الرياح حياة للأرض، ولهذا لا بد من تصريف الدروس والمواعظ لما في ذلك من حياة للقلوب بالإيمان.

والمراد بالمثل قال القرطبي: (يحتمل وجهين: أحدهما ما ذكره لهم من العبر والقرون الخالية. الثاني ما أوضحه لهم من دلائل الربوبية وقد تقدم في "سبحان"(١)، فهو على الوجه الأول زجر، وعلى الثاني بيان)(٢)، وقال ابن عاشور: (عطف على الجمل التي ضربت فيها أمثال كقوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢] وقوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[الكهف: ٤٥]، ولما كان في ذلك مقنع وما لهم منه مدفع عاد إلى التنويه بهدي القرآن ناظرا إلى قوله: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧] وقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، فأشار أن هذه الأمثال التي قرعت أسماعهم من جملة هدي القرآن الذي تبرموا منه)(٣).

قال الطبري: (يقول: ولقد مثلنا في هذا القرآن للناس من كلّ مثل، ووعظناهم فيه من كلّ عظة، واحتججنا عليهم فيه بكل حجة ليتذكَّروا فينيبوا، ويعتبروا فيتعظوا، وينزجروا عن الشرك وعبادة الأوثان)(٤)، وقال ابن كثير: (يقول تعالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور، وفصلناها، كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى. ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة)(٥).

---

(١) أي سورة الإسراء.

(٢) تفسير القرطبي ١١/ ٥.

(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٤٦ بتصرف واختصار.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٤٨ بتصرف واختصار.

(٥) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧١

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾

قال الطبري: (يقول: وكان الإنسان أكثر شيء مراء وخصومة، لا ينيب لحقّ، ولا ينزجر لموعظة)(١)، قال البغوي: (قال ابن عباس: أراد النضر بن الحارث وجداله في القرآن، قال الكلبي: أراد به أبي بن خلف الجمحي، وقيل: المراد الكفار، لقوله: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [الكهف:٥٦]، وقيل: هي على العموم، وهذا أصح)(٢)، قال الشوكاني: (الظاهر العموم وأن هذا النوع أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدال، ويؤيد هذا ما ثبت عن عليّ: أن النبيّ ﷺ طرقه وفاطمة ليلاً، فقال: "ألا تصليان؟ فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله إن شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إليّ شيئاً، ثم سمعته يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾"(٣)، وانتصاب جدلاً على التمييز)(٤)، وقد بين الزجاج هذا المعنى بقوله: (كل ما يعقل من الملائكة والجن يجادل، والإِنسان أكثر هذه الأشياء جدلاً)(٥)، واعترض ابن عاشور فقال: (ولا يحسن أن يحمل التفضيل على بابه بأن الإنسان أكثر جدلاً من الشياطين والجن؛ لأنه محمل لا يراد مثله في مثل هذا)(٦)، وذهب إلى أن المراد: (وكان

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٨.
(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٨١.
(٣) صحيح مسلم ١/ ٥٣٧، (٧٧٥).
(٤) فتح القدير ٤/ ٤٠٣.
(٥) زاد المسير ٤/ ٢٣٣.
(٦) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٤٨ بتصرف واختصار.

الإنسان كثيرا من جهة الجدل، أي كثيرا جدله)[1]، ولا تعارض بين القولين، فيكون الإنسان أكثر نوع جدلاً، وأكثر ما يميزه كثرة الجدل، والله أعلم.

ولا شك أن هذه الصفة أكثر ما تنطبق على الكافر المجادل بالباطل، ومِثْلُ هذا الإنسان الذي تتضح له الحججُ الحسيةُ والعقلية والسمعية؛ فيجحدها، ويطمسها، لا ينفع معه نقاشٌ، ولا يفيده جدل، فهذا وأمثاله في الحقيقة كما كشف الله -سبحانه- إنما يتبعون أهواءهم.

لطيفة:

قال تعالى في الإسراء: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [الإسراء]، وقال هنا: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الكهف]، فقدم في الإسراء ذكر الناس، وقدم هنا ذكر القرآن، مع التشابه الكبير بين الآيتين.

ولا شك أن القرآن الكريم أهم من الناس لأنه كلام الله الذي هو صفة من صفاته، فناسب البدء بذكره والتنويه به، فجاءت سورة الكهف على هذا الأصل، إذ لا سبب للعدول عنه، لا سيما وأن السورة الكريمة افتتحت بالتنويه به وبذكر فضله وأن الله لم يجعل له عوجاً، وأما في سورة الإسراء فقد عدل عن هذا الأصل لسبب، قال ابن عاشور: (وجه تقديم أحد المتعلقين بفعل صرفنا على الآخر: أن ذكر الناس أهم في هذا المقام لكون الكلام مسوقا لتحديهم؛ وإن كان ذكر القرآن أهم بالأصالة، إلا أن

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٤٨.

الاعتبارات الطارئة تقدم في الكلام البليغ على الاعتبارات الأصلية، لأن الأصلية لتقررها في النفوس متعارفة فتكون الطارئة أعز منالا)[1].

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٠٤ بتصرف واختصار.

الجدل بين الذم والمدح

وصف الإنسان في الآية بأنه أكثر شيء جدلاً خرج مخرج الذم، إلا أن هذا لا يعني ذم الجدل بإطلاق، فمن أجال طرفه في القرآن وجد كثيراً من الآيات ترد على المشركين حججهم وتخاطب عقولهم بالحجج البينات والآيات الباهرات، وهذا نوع من الجدال؛ وقد ثبت الأمر بمجادلة المدعوين إن لزم الأمر، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وأمته تبع له في توجه الأمر لها، وقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]؛ كما ثبتت مجادلة الأنبياء لأقوامهم، ونقل الله قول قوم نوح ﷺ: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: ٣٢]، كما سمع الله ﷻ لمن جاءت تشتكي إلى الله وتجادل في زوجها: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١].

إن الهدف من جدال المخالف ينبغي أن يكون تجلية الحق منزهاً عن الشوائب، ليهتدي للحق، وهو من الجهاد، كما قال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان]، أي بالقرآن. وليس الهدف ما نسمعه في هذا العصر من حوارات في وسائل الإعلام يعلم الناظر بأدنى تأمل أن استخراج غضب الخصم من أهم دوافع المتحاورين فيها وغاياتهم، ولا شك أن هذا مذموم، فأي خير في هذا الأسلوب؟

إن الطرف الثاني في مثل هذا الجدال إن كان كافراً فلن يحبب إليه الإيمان بل ربما يزيده نفوراً، وإن كان مسلماً فلن يهتدي إلى خطئه وصواب ما عند مجادله، بل يوغر صدور المسلمين فيما بينهم ويملؤها بالغل والحقد، وماذا يريد الشيطان أفضل من ذلك؟ قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ

أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء]، وعن جابر ﷺ قال: "سمعت النبي ﷺ يقول: إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم"(١).

فليس الجدل مذموماً ولا ممدوحاً بإطلاق، بل منه مذموم وممدوح، ولكن لما كان الإنسان أكثر الكائنات جدلاً، والجدل من أكثر صفاته كما في الآية، وأكثر الناس بعيدين عن منهج الله إما بكفر أو معصية وفسوق، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ]، كان أكثر مجادلة الناس بالباطل، ولهذا كان أكثر ذكر الجدل في القرآن في معرض الذم، كما في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [غافر: ٤]، وقوله: ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ ﴾ [غافر: ٥]، ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [غافر]، وغير ذلك من الآيات.

أما إن كان الجدال لإحقاق حق وإبطال باطل، أو لجلب مصلحة أو دفع مفسدة، فإنه ممدوح بإطلاق، أو في مسائل فيها خلاف في وجهات النظر ليظهر كل حجته، فإنه يكون ممدوحاً إن كانت المسائل تنفع الناس في دينهم ودنياهم، ما دام بعيداً عن النزعات والأهواء، وما لم يخرج عن الجدل بالحسنى أو يصير هدفاً بحد ذاته. فإن حول الخصم الجدال عن هذا

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢١٦٦ (٢٨١٢).

الهدف ولم يعد بلوغه ممكناً، فالاستمرار فيه مذموم، ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢]، فعلى المسلم أن يكون حكيماً حصيفاً، فإن وجد أن الجدل سيُعرِّض ثوابتَ الدين، وواضح الأحكام للتنازع، أو سيكون لبعض الناس فتنة وربما تقع الشبهات في قلوبهم ولا تنفع الأدلة في استلالها، أو خشي ألا يفهم الحاضرون، فالأولى عندها ترك الجدل، قال علي ﷺ: "حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله"(١)، وعن ابن مسعود قال: "ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة"(٢)، ففي مثل هذه الحالات تكون المصلحة ترك الجدل وإن كان حقاً وفي ذلك أجر عظيم، قال النبي ﷺ: "أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه"(٣). ومن القصص المشهورة عن شيخنا ابن باز رحمه الله أن رجلاً من أهل البدع مقدماً في قومه أراد أن يناظره في مسألة الرؤية، فأبى الشيخ رحمه الله، قال: لعله يكون ألحن بحجته فيغتر به من يسمعه ولا يكون في ردي ما يشفي غليله فيضل، ولكن إن شاء فليأت إلي ونتباحث.

قال الغزالي: (حد المراء الاعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه؛ لفظاً أو معنىً، أو في قصد المتكلم؛ وترك المراء بترك الاعتراض والإنكار، فكل كلام سمعتَه؛ فإن كان حقاً فصدِّق به، وإن كان باطلاً ولم يتعلق بأمور الدين فاسكت عنه)(٤)، أي وإن كان باطلاً ومتعلقاً بالدين فبيِّن

---

(١) صحيح البخارى ١/ ٥٩ (١٢٧).
(٢) مقدمة صحيح مسلم ١/ ١٠ (٥).
(٣) سنن أبي داود ٢/ ٦٦٨ (٤٨٠٠)، حسنه الألباني.
(٤) تحفة الأحوذي ٦/ ١١٠ بتصرف واختصار.

بطلانه، هذا الأصل. وكذا تُذَمُّ مجادلةُ كلِّ من أصرَّ على ضلاله وإضلاله، مع وضوح الأدلة وقيام الحجج، كان من الكفار أو من أهل البدع.

إن الجدال إن خرج عن الاعتدال يزيد صاحبه جفاءً، وإن كان في مسائل شرعية، وقد يعرضه لصفات قبيحة، كطلب المغالبة، والتعصب المذموم، والبذاءة في القول، وهو ما نراه كثيراً هذه الأيام بين بعض طلبة العلم، فينبغي الحذر منه لقول رسول الله ﷺ: "ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلا هذه الآية ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ﴾"[١].

فالإسلام يوجه المسلمَ، بعد أن يُحقق معاني الإيمان، للتسليم والعمل، لا للخلاف والجدل، ولا يخفى ما يتركه الجدل إذا زاد عن حده، من تغيير لطبيعة المؤمن، بل الإنسان وفطرته؛ فينصرف عن الإنتاج إلى النزاع، ويَصْرف طاقته، أو يُحوِّلُها من البناء والعطاء النافع، إلى الدوران في دوامة من الفرضيات التي لا تفضي إلا إلى مزيد من الشكوك والضلالات.

ومن المجادلة بالباطل تولي بعض المحامين قضايا يعلمون أنها باطلة، ويستغلون ثغرات القوانين، بقدراتهم اللغوية وجلدهم على الجدال، ولعل أحدهم يكون لحناً بحجته، فيقلب الباطل حقاً والحق باطلا، ونسي قول النبي ﷺ: "إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ"[٢].

---

(١) سنن ابن ماجه ١/ ١٩ (٤٨)، وحسنه الألباني.

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٢٢ (٦٧٤٨)، صحيح مسلم ٣/ ١٣٣٧ (١٧١٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ ﴾ (قال المفسرون: أهل مكة. ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ ﴾ وهو: محمد ﷺ، والقرآن، والإسلام)[١].

وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ قال الألوسي: (بالتوبة عما فرط منهم من أنواع الذنوب التي من جملتها مجادلتهم الحق بالباطل، وفائدة ذكر هذا بعد الإيمان التعميم على ما قيل، وقال بعضهم: لا شك أن الإيمان مع الاستغفار أكمل منه وحده فذكر معه ليفيد ما منعهم من الاتصاف بأكمل ما يراد منهم، وقيل ذكر الاستغفار بعد الإيمان لتأكيد أن المراد إيمان لا يشوبه نفاق فكأنه قيل ما منعهم أن يؤمنوا إيماناً حقيقياً)[٢].

وقد يقال: في هذا التعبير دعوة للإقبال على الله، فمن لوازم الاستغفار رقة القلب ومشاهدة عظمة الرب وشنيع فعل العبد بالبعد عنه، وقد يكون هذا هو السر في قوله: (ربهم) بالإضافة من جهة، وباستخدام كلمة (الرب) من جهة، لأن الرب يرب العباد بالنعم، ويلزم منه أن يمتلئ القلب بمحبته والإقبال عليه، وهم مؤمنون بربوبية الله وأنه خالقهم ورازقهم ومدبر أمرهم، وإنما أتوا من إشراك غيره في العبادة، فكان في دعوتهم لاستغفاره صرف العبادة له وحده، وأن إيمانهم بالربوبية لا يكفي وليس وحده المراد من قوله: (أن يؤمنوا)، فلا بد أن يجمعوا إليه إيماناً بألوهيته ﷻ، وهذا من لوازم الإيمان بالربوبية لو كانوا يعقلون!

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٣٣.

(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٨٨ بتصرف واختصار.

قال الألوسي: (إضافة السنة إليهم قيل لكونها جارية عليهم وهي في الحقيقة سنة الله فيهم)[١]، وقال ابن الجوزي: (وهو: أنهم إذا لم يؤمنوا عذِّبوا. وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال؛ أحدها: ما منعهم من الإيمان إلا طلب أن تأتيهم سُنَّة الأولين، قاله الزجاج، والثاني: وما منع الشيطانُ الناس أن يؤمنوا إلا لأَن تأتيهم سُنَّة الأولين، أي: منعهم رُشْدَهُم ... ذكره ابن الأنباري، والثالث: ما منعهم إلا أنِّي قد قدَّرت عليهم العذاب. وهذه الآية فيمن قُتل ببدر وأُحُد من المشركين، قاله الواحدي)[٢].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ قال ابن الجوزي: (ذكر ابن الأنباري في "أو" هاهنا ثلاثة أقوال؛ أحدها: بمعنى الواو، والثاني: أنها لوقوع أحد الشيئين، والثالث أنها للتبعيض، أي: أن بعضهم يقع به هذا)[٣].

وقوله: ﴿قُبُلًا﴾

قال القرطبي: (نصب على الحال، ومعناه عِياناً، قاله ابن عباس. وقال الكلبي: هو السيف يوم بدر. وقال مقاتل: فجأة)[٤]، وقال الشوكاني: (قال الفراء: إن قبلاً جمع قبيل، أي: متفرقاً يتلو بعضه بعضاً، وقيل: عياناً، وقيل: فجأة. ويناسب ما قاله الفراء قراءة أبي جعفر وعاصم والأعمش وحمزة والكسائي ويحيى بن وثاب وخلف ﴿قُبُلًا﴾ بضمتين فإنه جمع قبيل، نحو سبيل وسبل، والمراد: أصناف العذاب، ويناسب التفسير الثاني، أي: عياناً، قراءة الباقين بكسر القاف وفتح الباء أي: مقابلة ومعاينة، وقرئ

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٨٨.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٣٣.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٣٣ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير القرطبي ١١/ ٦.

بفتحتين على معنى: مستقبلاً، وانتصابه على الحال. فحاصل معنى الآية أنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون إلا عند نزول عذاب الدنيا المستأصل لهم، أو عند إتيان أصناف عذاب الآخرة أو معاينته)(١).

قال ابن الجوزي: (فإن قيل: إذا كان المراد بسُنَّة الأولين العذاب، فما فائدة التكرار بقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾؟ فالجواب: أن سُنَّة الأولين أفادت عذاباً مبهماً يمكن أن يتراخى وقته، وتختلف أنواعه، وإتيان العذاب قُبُلاً أفاد القتل يوم بدر. قال مقاتل: "سُنَّة الأولين": عذاب الأمم السالفة؛ "أو يأتيَهم العذاب قِبَلاً"، أي: عِياناً قتلاً بالسيف يوم بدر)(٢).

اختيار ابن كثير: قال رحمه الله: (يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في القديم والحديث، وتكذيبهم بالحق البين مع مشاهدتهم الآيات، وأنه ما منعهم من الإيمان إلا طلبهم العذاب عِيانًا، كما قالوا لنبيهم: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الشعراء]، وآخرون قالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [العنكبوت]، وقالت قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال]، ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الحجر] إلى غير ذلك من الآيات)(٣).

وهذا من الخذلان لأنهم ما أرادوا الحق ولا طلبوه في مظانه، وإلا فإن كل التوفيق أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، لكنه العناد والاستكبار، أشبهوا حال من قال فيهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ [النمل: ١٤]. والآية تدل على أنه لا توجد لديهم حجة

---

(١) فتح القدير ٤/ ٤٠٣ بتصرف واختصار.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٣٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧٢ بتصرف واختصار.

تمنعهم من الإيمان، وإلا لجاؤوا بها، وهذه حال كثير من المبطلين المكذبين اليوم، فليست معهم حجج بينة واضحة وإنما هي شبهات وتلبيسات.

قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾

قوله: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾

قال الطبري: (وما نرسل رسلنا إلا ليبشروا أهل الإيمان والتصديق بالله بجزيل ثوابه في الآخرة، ولينذروا أهل الكفر به والتكذيب، عظيم عقابه، فينتهوا عن الشرك، وينزجروا عن معاصيه)(١). فالنفي والاستثناء للحصر والقصر، أي لا غاية من إرسال الرسل سوى إنقاذ الناس من الضلال، كلما ضلوا عن الفطرة وهي الإسلام؛ لكي يَحْيَوا حياة طيبة في الدنيا، وينجوا من عذاب الله في الآخرة؛ فينعم عليهم برضوانه وجناته.

وقوله: ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾

قال الطبري: (يقول: ويخاصم الذين كذّبوا بالله ورسوله بالباطل، ذلك كقولهم للنبيّ ﷺ: أخبرنا عن حديث فتية ذهبوا في أوّل الدهر لم يدر ما شأنهم، وعن الرجل الذي بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وعن الروح، وما أشبه ذلك مما كانوا يخاصمونه به، يبتغون إسقاطه، تعنيتاً له ﷺ، فقال الله لهم: إنا لسنا نبعث إليكم رسلنا للجدال والخصومات، وإنما نبعثهم مبشرين أهل الإيمان بالجنة، ومنذرين أهل الكفر بالنار، وأنتم تجادلونهم

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥٠ بتصرف واختصار.

بالباطل طلبا منكم بذلك أن تبطلوا الحقّ الذي جاءكم به رسولي، وعنى بقوله: ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ ليبطلوا به الحقّ ويزيلوه ويذهبوا به. يقال منه: دحض الشيء: إذا زال وذهب، ويقال: هذا مكان دَحْض: أي مُزِلٌّ مُزْلِق لا يثبت فيه خفّ ولا حافر ولا قدم، ومنه قوله الشاعر:

رَدِيتُ ونجَّى اليَشْكُرِيَّ حِذَارُهُ وحادَ كما حادَ البَعيرُ عَن الدَّحْضِ

ويروى: ونحَّى، وأدحضته أنا: إذا أذهبته وأبطلته)[1].

قال القرطبي: (قيل: نزلت في المقتسمين؛ كانوا يجادلون في الرسول ﷺ فيقولون: ساحر ومجنون وشاعر وكاهن)[2]، وتنطبق على الكافرين إذ يجادلون في آيات الله بعد ما جاءتهم، قال ابن كثير: (﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ﴾ أي: ليضعفوا به ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم)[3].

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥٠.
(٢) تفسير القرطبي ١١/ ٦ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧٢.

معركة الحق والباطل

أهل الباطل يرومون إضعاف الحق وإزالته، وأنى لهم هذا وليس معهم سوى الباطل، وقد قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨﴾ [الأنبياء]، فليس للباطل طاقة على مقارعة الحجة بالحجة، إذ الحق واضح مستقر كالشمس والنجوم والقمر، وإذا جاءت الغيوم أو الرمال فإنها تحجبها عن الرؤية لكنها باقية في مكانها.

فالحق لا يمكن إزالته ولا إضعافه، وقصارى ما في وسع المبطلين التشويش عليه وصد أهله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت]، قال ابن الجوزي: (أي: عارِضوه باللَّغو، وهو الكلام الخالي عن فائدة. وكان الكفَّار يوصي بعضُهم بعضاً: إذا سمعتم القرآن فارفعوا أصواتكم حتى تُلبِّسوا عليهم)(١)، وقال: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ٩٠ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ٩١﴾ [الحجر]، أي جعلوه مقطعاً، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، أو قطعوا أقوالهم فيهم وعددوها، فقالوا سحر وقالوا كهانة وقالوا أساطير الأولين، وهو منهج أهل الباطل اليوم في التشكيك بهذا الدين. فالحرب بين الحق والباطل ماضيةإلى يوم القيامة، وحرب اليوم إعلامية شرسة، فكثير مما يجري في الإعلام من تشكيك وطعن من الليبراليين والعلمانيين وغيرهم، لم يأت صدفة، لكنه حصيلة دراسات ومؤتمرات، في مراكز البحوث الأمريكية كراند وغيره، فالتخطيط هناك والتنفيذ هنا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ٤/ ٥٠ بتصرف واختصار.

لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر].

وفي الغرب منذ مدة حملة على الهيئة والقضاء والعلماء في بلادنا، وعلى الارتباط بين الأمراء والعلماء، مع أن البلاد إنما قامت على هذا الارتباط، منذ الإمام محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود رحمهما الله إلى اليوم، ونحن نرى منذ سنوات أن الحملة قد انتقلت إلى إعلامنا، فبعد أن كانت وسائل الإعلام لا تجرؤ على التعرض بسوء للمشايخ والعلماء، صرنا نرى ونسمع حملات التشهير ضد العلماء والدعاة والهيئة، وبعد أن كان من يتجرأ على ذلك يوقف عند حده ويرد عليه بكل قوة، صرنا نرى كل الأبواب والمجالات تفتح لهؤلاء ويمنع أهل الدين من الرد، وذلك يبين زيف ما يدعونه من حرصهم على حرية الفكر والتعبير.

التشكيك في الثوابت، والبحث عن غرائب الفتاوى، منهج متبع، وللأسف أننا نجد بعض من يحسب على طلبة العلم يسايرهم في مسعاهم هذا؛ فهناك مثلاً من يشكك في النقاب ويدعي أنه ليس من الإسلام في شيء، وأنه من مخلفات عصور الجهل والظلام، وأنه من باب العادات، وأن الغرب لا تثريب عليه إن منعه، فيجد من طلاب العلم ومن يشار إليهم بالبنان من ينصر قوله ويدافع عنه وعن الغرب ومنهج الغرب وحضارة الغرب ويزينها للناس!

الطعن في أهل العلم وطلابه وتشويه صورتهم، وهمزهم ولمزهم، هذا منهج متبع كذلك، لتنفير الناس وصرفهم عن أهل الحق ليسهل التأثير عليهم وإضلالهم، وللأسف فهناك من ينساق خلف هؤلاء المبطلين، ويعمد إلى الاستهزاء بالصالحين والعلماء والملتزمين، وهذا

الاستهزاء إن كان لدينهم فإنه يكون استهزاء بآيات الله، قال تعالى في قوم وصفوا أصحاب النبي ﷺ بقولهم: (أرغبنا بطونا، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء)، قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة]، مع أنهم ما تعرضوا لله وآياته ورسوله، ولكن دل هذا على أن استهزاءهم بالصحابة ﷺ استهزاء بما هم عليه من الدين والإيمان، فكذلك كل من استهزأ بأحد من أمته لاتباعه شعيرة من شعائر الدين مهما صغرت في أعين الناس فإنه مخاطب بهذه الآية.

ما يحصل اليوم في وسائل الإعلام سعي حثيث لصد الناس عن الحق، فتراهم يكذبون ويفترون ويزينون الباطل وينفقون أموالهم وجهدهم وأوقاتهم ليصرفوا الناس عن الحق، مع علمهم في قرارة أنفسهم ببطلان ما يفترون، ومهما فعلوا فإن الله ناصر دينه وممكن له في الأرض ولو بعد حين، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد]، وسيصبح الذين ظلموا على ما فعلوا نادمين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال].

فعلى أهل الإيمان الثبات على الحق والعض عليه بالنواجذ، عليهم بالصبر والمصابرة، والاجتهاد في الدعوة لهذا الدين والذب عنه، وأن

يقارعوا أهل الباطل بالحجة والبرهان، باللسان والقلم دون اليد التي هي من اختصاص ولي الأمر. عليهم أن يبصروا الناس بحقائق المضلين وعوار ما يدعون إليه وأنهم ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة]، وعليهم أيضا أن يرحموهم ويسعوا في هدايتهم ولا ييأسوا من روح الله، فالقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن. عليهم أن يبشروا الناس بما أعده الله لهم إن آمنوا وعملوا الصالحات، وينذروهم مخالفة سواء السبيل، فهم أتباع من قال الله فيهم: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ وما داموا كذلك فلا بد أن يلقوا ما في تتمة الآية ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾ [الكهف]، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾

قال ابن كثير: (أي: اتخذوا الحجج والبراهين والخوارق التي بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿هُزُوًا﴾ أي: سخروا منهم في ذلك، وهو أشد التكذيب)(١)، قال الزمخشري: (﴿وَمَا أُنذِرُوا﴾ يجوز أن تكون (مَا) موصولة، ويكون الراجع من الصلة محذوفاً، أي: وما أنذروه من العذاب. أو مصدرية بمعنى: وإنذارهم)(٢)، قال ابن الجوزي: (﴿هُزُوًا﴾ أي: مهزوءاً به)(٣)، وقال الشنقيطي: (أي سخرية واستخفافاً، والمصدر بمعنى المفعول، أي اتخذوها مهزوءاً بها)(٤)، قال القرطبي: (قيل: هو قول أبي جهل في الزبد والتمر: هو الزقوم، وقيل: هو قولهم في القرآن: سحر

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧٢.
(٢) الكشاف ٤/ ٢٧.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٣٤.
(٤) أضواء البيان ٣/ ٣٧٣ بتصرف واختصار.

وأضغاث أحلام وأساطير الأولين، وقالوا للرسول: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف] ﴿وَمَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: ٣١])[١]. وهكذا شأن الكفرة المكابرين في كل عصر، حين يَعْجِزون عن مواجهة الحجج بمثلها، تراهم يلوذون بأساليب أبعد ما تكون عن الاهتداء إلى الحقائق، من السخرية والاستهزاء؛ ليَخرجوا من جوِّ المحاجة والمحاكمة العقلية إلى استثارة النفوس نحو الهزْل والهزُء، وأنّى لهم ذلك؟! فما في الدين إلا ما يطابق الواقع، وما ذلك إلا لإفلاسهم، ومدعاة إلى الإشفاق على حالهم.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾

قال ابن عاشور: ("من" استفهام مستعمل في الإنكار، أي لا أحد أظلم من هؤلاء المتحدث عنهم)[٢]، قال ابن كثير: (يقول تعالى: وأي عباد الله أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها، أي: تناساها وأعرض عنها، ولم يصغ لها، ولا ألقى إليها بالا ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة)[٣]، وقال الشنقيطي: (مع أن الله لم ينسه بل هو محصيه عليه ومجازيه... وقيل في قوله: ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾: أي تركه عمداً ولم يتب منه)[٤]، وإلا فإن النسيان غير العمد لا يؤاخذ عليه الإنسان لحديث: "إِنَّ اللهَّ قَدْ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ"[٥].

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٧.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٥٥.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧٢.
(٤) أضواء البيان ٣/ ٣٧٤ بتصرف يسير.
(٥) سنن ابن ماجه ١/ ٦٥٩ (٢٠٤٣)، وصححه الألباني.

لأن الظلم هو وضع الشيء في غير محله تعدياً، وهؤلاء قد وظَّفوا ما آتاهم الله من نِعَم الحواس والعقل في عكس ما خُلقتْ له؛ فلم يهتدوا بها للتسليم بما يذكرون به فيؤمنوا، بل تعمدوا الإعراض عن الأدلة، وتناسوا حاجتهم الماسة إليها، وزادوا على ذلك الاستهزاء والسخرية. وفي استعمال صيغة المبني للمجهول (ذُكِّرَ) ترتيب للحكم على التذكير من أية جهة كان؛ لأن هذا ما ينبغي أن يَهُمَّ المعنيَّ بالاهتداء وينفعه، بغض النظر عن فاعله، رسولا كان أو نبيا أو عالما أو داعية أو عاميا.

وآيات الله: قال الشوكاني: (التنزيلية أو التكوينية أو مجموعهما)[1].

قال الشنقيطي في قوله: ﴿مَاقَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾: (ونسبة التقديم إلى خصوص اليد لأن اليد أكثر مزاولة للأعمال من غيرها من الأعضاء، فنسبت الأعمال إليها على عادة العرب، وإن كانت الأعمال منها ما باللسان والقلب، وغير ذلك من الأعمال التي لا تزاول باليد كالزنى)[2].

فائدة- في الجمع بين قوله تعالى هنا: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الأنعام: ٢١]، وما شابههما.

بين الشنقيطي ﷺ أوجه الجمع فقال: (وأشهر أوجه الجمع في ذلك وجهان: أحدهما أن كل من قال الله فيه: ومن أظلم ممن فعل كذا، لا أحد أظلم من واحد منهم. وإذاً فهم متساوون في الظلم لا يفوق بعضهم فيه بعضاً، فلا إشكال في كون كل واحد منهم لا أحد أظلم منه. والثاني أن صلة الموصول تعين كل واحد في محله. وعليه فالمعنى في قوله: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا ﴾. لا أحد[3] ممن ذكر فأعرض، أظلم ممن ذكر

(١) فتح القدير ٤/ ٤٠٤.
(٢) أضواء البيان ٣/ ٣٧٥ بتصرف واختصار.
(٣) في المطبوع: لا أحد أظلم ممن.

بآيات ربه فأعرض عنها. وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١]، لا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذباً، وهكذا. والأول أولى. لأنه جار على ظاهر القرآن ولا إشكال فيه)(١)، أقول: ولا إشكال في الجمع بين القولين كما يظهر، فيكون أولى، والله أعلم.

قال ابن عاشور: (لما بين حالهم من مجادلة الرسل لسوء نية، ومن استهزائهم بالإنذار، وعرَّض بحماقتهم، أتبع ذلك بأنه أشد الظلم. ذلك لأنه ظلم المرء نفسه وهو أعجب الظلم... وعطف إعراضهم عن الذكر على التذكير بفاء التعقيب إشارة إلى أنهم سارعوا بالإعراض ولم يتركوا لأنفسهم مهلة النظر والتأمل. ومعنى نسيان ما قدمت يداه أنه لم يعرض حاله وأعماله على النظر والفكر ليعلم: أهي صالحة لا تخشى عواقبها أم هي سيئة من شأنها أن لا يسلم مقترفها من مؤاخذة)(٢).

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾

قال الشنقيطي: (ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه جعل على قلوب الظالمين المعرضين عن آيات الله إذا ذكروا بها أكنة، أي أغطية تغطي قلوبهم فتمنعها من إدراك ما ينفعهم مما ذكروا به. وواحد الأكنة كنان، وهو الغطاء. وأنه جعل في آذانهم وقراً، أي ثقلاً يمنعها من سماع ما ينفعهم من الآيات التي ذكروا بها)(٣). قال ابن الجوزي: (وليس المعنى أنهم

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٧٥، وينظر دفع الإيهام ١/ ٧.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٥٤.
(٣) أضواء البيان ٣/ ٣٧٥.

لم يفهموه، ولم يسمعوه؛ ولكنهم لما عدلوا عنه، وصرفوا فكرهم عما عليهم في سوء العاقبة، كانوا بمنزلة من لم يعلم ولم يسمع)(١).

قال الشنقيطي: (وقوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ فيه وفيما يشابهه وجهان معروفان لعلماء التفسير: أحدهما: جعلنا على قلوبهم أكنة لئلا يفقهوه. وعليه فلا النافية محذوفة دل المقام عليها. وعلى هذا القول اقتصر ابن جرير. والثاني: جعلنا على قلوبهم أكنة كراهة أن يفقهوه، على تقدير مضاف، وأمثال هذه الآية كثيرة، وللعلماء في كلها الوجهان المذكوران كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] أي لئلا تضلوا، أو كراهة أن تضلوا. وقوله: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الحجرات: ٦] أي لئلا تصيبوا، أو كراهة أن تصيبوا، وأمثال ذلك)(٢).

قوله: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾

قال الطبري: (وَإِنْ تَدْعُ يا مُحَمَّد هؤلاء المعرضين إلى الاستقامة على محجة الحق والإيمان بالله، وما جئتهم به من عند ربك ﴿فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ يقول: فلن يستقيموا إذا أبدا على الحقّ، ولن يؤمنوا بما دعوتهم إليه، لأن الله قد طبع على قلوبهم، وسمعهم وأبصارهم)(٣)، قال الشنقيطي رحمه الله: (هذه الآية وأمثالها في القرآن فيها وجهان معروفان عند العلماء: أحدهما: أنها في الذين سبق لهم في علم الله أنهم أشقياء، عياذاً بالله تعالى. والثاني: أن المراد أنهم كذلك ما داموا متلبسين بالكفر. فإن هداهم الله إلى الإيمان وأنابوا زال ذلك المانع، والأول أظهر والعلم عند الله تعالى)(٤).

---

(١) زاد المسير ٢/ ٣١٥، تفسير سورة الأنعام.
(٢) أضواء البيان ٣/ ٣٧٧ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٥٢ بتصرف واختصار.
(٤) أضواء البيان ٣/ ٣٧٨.

تنبيه- قال الشنقيطي رحمه الله: (وقوله في هذه الآية الكريمة "إذاً" جزاء وجواب. فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول ﷺ، بمعنى أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبباً للاهتداء سبباً لانتفائه. لأن المعنى: فلن يهتدوا إذا دعوتهم. ذكر هذا المعنى الزمخشري، وتبعه أبو حيان في البحر. وهذا المعنى قد غلطا فيه، وغلط فيه خلق لا يحصى كثرة من البلاغيين وغيرهم)(١). ثم بين رحمه الله الصواب في ذلك، فقال: (لأن هذه القضية الشرطية في هذه الآية الكريمة ليست شرطية لزومية، حتى يكون بين شرطها وجزائها ارتباط، بل هي شرطية اتفاقية، والشرطية الاتفاقية لا ارتباط أصلاً بين طرفيها، فليس أحدهما سبباً في الآخر، ولا ملزوماً ولا لازماً له، كما لو قلت: إن كان الإنسان ناطقاً فالفرس صاهل - فلا ربط بين الطرفين، لأن الجزاء في الاتفاقية له سبب آخر غير مذكور... وكذلك قوله هنا: ﴿فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ سببه الحقيقي غير مذكور معه فليس هو قوله: "وإن تدعهم" كما ظنه الزمخشري وأبو حيان وغيرهما. بل سببه هو إرادة الله جل وعلا انتفاء اهتدائهم على وفق ما سبق في علمه أزلاً)(٢).

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٧٨.

(٢) أضواء البيان ٣/ ٣٧٩.

لطيفتان في النظم القرآني

• نلاحظ استعمال الإفراد في (ذُكِّر)، (ربه)، (فأعرض)، (ونسي)، (يداه)، ثم الجمع في: (قلوبهم)، (يفقهوه)، (آذانهم)، (تدعهم)، (يهتدوا)، مع أن المرجع إلى الموصول في قوله: (ممن ذكر بآيات ربه)، وهذا جار على مراعاة اللفظ تارة، ومراعاة المعنى تارة أخرى، وهو أسلوب معروف في الكلام الفصيح، فالإفراد باعتبار لفظة (مَن)، والجمع باعتبار معناها لأنه يرجع إلى جنس هؤلاء المكذبين المعاندين.

• كما تباين النَّظم ما بين الحديث عن الكفار، وخطاب الرسول؛ ففي شأن الكفار جاء أسلوبُ الغَيْبة: (ذُكِّرَ) و(أَعْرَضَ) و(نَسِيَ) و(قَدَّمَتْ يداه)؛ ليشي ذلك بغيابهم عن المشهد، وإهمالهم، كما دلَّ الفعلُ الماضي على الوقوع المحقَّق والانقضاء. ولما توجه إلى الرسول محمد ﷺ خاطبَه بالفعل المضارع وبِتاء الخطاب؛ تكريما واحتفاءً: (وَإِن تَدْعُهُمْ).

فائدة- في الرد على الجبرية:

قال الشنقيطي رحمه الله: (فإن قيل: إذا كانوا لا يستطيعون السمع ولا يبصرون ولا يفقهون، لأن الله جعل الأكنة على قلوبهم، والوقر في آذانهم؛ فهم مجبورون. فما وجه تعذيبهم على شيء لا يستطيعون العدول عنه؟! فالجواب أن الله بين في آيات كثيرة أن تلك الموانع إنما جعلها عليهم جزاء وفاقاً لما بادروا إليه من الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم، فأزاغ الله قلوبهم جزاء على كفرهم، فمن الآيات قوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] أي بسبب كفرهم، وهو نص صريح في أن كفرهم السابق

هو سبب الطبع على قلوبهم، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وهو دليل أيضاً واضح على أن إزاغة الله قلوبهم لزيغهم السابق. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣] وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام] وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الطبع على القلوب، ومنعها من فهم ما ينفع، عقاب من الله على الكفر السابق. وهذا الذي ذكرنا هو وجه رد شبه الجبرية التي يتمسكون بها في هذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن العظيم)[1].

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾

قال ابن عاشور: (جرى القرآن على عادته في تعقيب الترهيب بالترغيب والعكس، فلما رماهم بقوارع التهديد والوعيد، عطف على ذلك التعريض بالتذكير بالمغفرة لعلهم يتفكرون في مرضاته، ثم التذكير بأنه يشمل الخلق برحمته عند الوعيد فيؤخره إلى حد معلوم، إمهالا للناس لعلهم يرجعون، ويتدبرون ما هم فيه من النعم لعلهم يشكرون)[2].

فقوله: ﴿وَرَبُّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وفي إضافة لفظ الربوبية "رَبُّ" إلى كاف الخطاب العائدة إليه -بأبي هو وأمي- تشريفٌ وتكريم له

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٧٧ بتصرف واختصار.

(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٥٦ بتصرف واختصار.

من وجهين؛ الأول: الإضافة، والثاني: التوُّجه له بالخطاب.

وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾

قال القرطبي: ﴿ٱلْغَفُورُ ﴾ (أي للذنوب، وهذا يختص به أهل الإيمان لقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٨]. ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ فيه أربع تأويلات: أحدها- ذو العفو. الثاني- ذو الثواب، وهو على هذين مختص بأهل الإيمان. الثالث- ذو النعمة. الرابع- ذو الهدى، وهو على هذين يعم أهل الإيمان والكفر، لأنه ينعم في الدنيا على الكافر، كالمؤمن. وقد أوضح هداه للكافر كما أوضحه للمؤمن، وإن اهتدى به المؤمن دون الكافر)[1].

وقال: الغفور ذو الرحمة، ولم يقل: الغفور الرحيم، لأن أثر اسم الرحيم مختص بالمؤمنين كما قال تعالى: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾، فهو سبحانه يرحمهم في الدنيا بأنواع اللطف والإنعام، وفي الآخرة بالجنة، وأما الكافرون فليس لهم في رحمة الآخرة نصيب، وإنما نصيبهم من رحمة الدنيا، وأما الغفور فيتعلق بمغفرة الذنوب وهو نوع من الرحمة كذلك، وقد نالهم شيء منها بتأخيرها إلى الآخرة، فإن تابوا وأنابوا دخلوا في الرحمة كاملة وإن أصروا نالهم العذاب يوم القيامة ولم تنلهم رحمة الله، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾

قال الألوسي: (﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم ﴾ أي لو يريد مؤاخذتهم ﴿بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾ أي فعلوا، وما إما مصدرية أي بكسبهم، وإما موصولة أي بالذي كسبوه من المعاصي ومنها ما حكى عنهم من مجادلتهم بالباطل وإعراضهم عن آيات ربهم وعدم المبالاة بالموبقات ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ لاستيجاب أعمالهم

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٧ بتصرف واختصار.

لذلك)[١]، قال القرطبي: (﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ أي من الكفر والمعاصي. ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ ولكنه يمهل)[٢]، وقال الشنقيطي: (بين في هذه الآية: أنه لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من الذنوب كالكفر والمعاصي لعجل لهم العذاب لشناعة ما يرتكبونه، ولكنه حليم لا يعجل بالعقوبة. فهو يمهل ولا يهمل)[٣]، وقال ابن عاشور: (المعنى: أنهم فيما كسبوه من الشرك والعناد أحرياء بتعجيل العقوبة، لكن الله يمهلهم إلى أمد مقدر. وفي ذلك رحمة بالناس بتمكين بعضهم من التدارك وإعادة النظر)[٤].

فائدة- أخبر الله عن نفسه أنه (الغَفُورُ) و(ذُو الرَّحْمَةِ) بالجملة الاسمية المفيدة للثبوت، وقد جاء الخبر الأول بصيغة المبالغة، أي كثير المغفرة، والثاني بالإضافة، أي المتصف بالرحمة، فما دلالة هذا التباين؟

قال الألوسي: (نكتة التفرقة بينهما ههنا -على ما قاله الخفاجي- أن المذكور بعدُ، عدم مؤاخذتهم على الجرم العظيم، وهو مغفرة عظيمة، وترك التعجيل، رحمة منه سابقة على غضبه، لكنه لم يرد إتمام رحمته عليهم وبلوغها الغاية، إذ لو أراد ذلك لهداهم وسلمهم من العذاب رأساً)[٥].

فالله سبحانه حين يمهلهم، ولا يعجل لهم العذاب؛ بكفرهم، وذنوبهم المهلكة، إنما ينعم عليهم بفسحة عزيزة، عسى أن يتوبوا؛ فإن تابوا فالله عظيم المغفرة؛ حين يغفر لهم كل ما سلف. وإن لم يتوبوا؛ فقد رحمهم

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٩٥ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير القرطبي ١١/ ٧ بتصرف واختصار.
(٣) أضواء البيان ٣/ ٣٨٠ بتصرف واختصار.
(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٥٧ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٩٤ بتصرف واختصار.

بالإمهال، ولكنهم حُرِموا الرحمةَ الواسعة التامة، وهي الإسلام.

قال ابن الجوزي: (فإن قيل: ظاهر الآية يقتضي أن تأخير العذاب عن الكفار برحمة الله، ومعلوم أنه لا نصيب لهم في رحمته. فعنه جوابان: أحدهما: أن الرحمة هاهنا بمعنى النعمة، ونعمة الله لا يخلو منها مؤمن ولا كافر. فأما الرحمة التي هي الغفران والرضى، فليس للكافر فيها نصيب. والثاني: أن رحمة الله محظورة على الكفار يوم القيامة، فأما في الدنيا، فإنهم ينالون منها العافية والرزق)(١)، والثاني أنسب لتتمة الآية، والله أعلم.

قوله: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾

قال ابن الجوزي: (للبعث والجزاء)(٢)، وقال ابن كثير: (ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر، وربما هدى بعضهم إلى الرشاد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها)(٣)، وذهب الطبري رحمه الله أن المراد يوم بدر، قال: (﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾، وذلك ميقات محلّ عذابهم، وهو يوم بدر)(٤)، وجمع القرطبي رحمه الله بين الاثنين فقال: (أي أجل مقدر يؤخرون إليه، نظيره: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، أي إذا حل لم يتأخر عنهم إما في الدنيا وإما في الآخرة)(٥)، وقال القاسمي: (والموعد المذكور هو يوم بدر، أو الفتح المشار إليه في كثير من الآيات، أو يوم القيامة، والكل لاحق بهم)(٦)، وقال أبو حيان:

(١) زاد المسير ٤/ ٢٣٤ بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٣٤.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧٣ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٥٢ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير القرطبي ١١/ ٧.
(٦) تفسير القاسمي ٧/ ٤٦.

(والموعد أجل الموت، أو عذاب الآخرة، أو يوم بدر، أو يوم أحد، وأيام النصر أو العذاب إما في الدنيا وإما في الآخرة، أقوال)[1]، ولا تعارض بين هذه الأقوال، فكل عذاب يصيبهم في الدنيا والآخرة بأجل لا يتقدم ولا يتأخر، والإمهال تأخير إلى الموعد المضروب، والله أعلم.

وقوله : ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾

(قال الفراء: الموئل: المنجى، وهو الملجأ في المعنى، لأن المنجى ملجأٌ)[2].

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾

لما بين الله ﷻ للسامعين وبخاصة المعاندين أنهم يعيشون مهلة امتن بها عليهم ليتوبوا، وإن لم يفعلوا لقوا من عذاب الدنيا والآخرة، نقلهم إلى الواقع ليعلموا أن الأمر جد، وأن وعد الله حق ولا يخلف الله الميعاد.

فقوله : ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾

قال البقاعي: (عطفا على قوله "لهم موعد" مروعاً بالإشارة إلى ديارهم ودمارهم: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الماضية من عاد وثمود وأشكالهم ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أي حكمنا بإهلاكهم بما لنا من العظمة ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أي أول ما ظلموا، أو أهلكناهم بالفعل حين ظلمهم لكن لا في أوله، بل أمهلناهم إلى حين تناهيه وبلوغه الغاية، فليحذر هؤلاء مثل ذلك)[3]. قال الشنقيطي: (والإشارة في: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ لأنهم يمرون عليها في أسفارهم، كقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ١٣٧﴾ [الصافات]، وقوله: ﴿

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٦٦.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٣٤.
(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٦٣ بتصرف واختصار.

وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الحجر]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الحجر] ونحو ذلك)[1].

والمقصود بالقرى أهلها لأن الظلم يقع منهم، كما قال: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الحج]، وقال: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل: ٥٢]، وأيما قرية أهلكت بمن فيها فهم المقصودون بالإهلاك ابتداء.

فالإهلاك ناتج عن الظلم، ومُسبَّبٌ عنه، وفي آيات أخرى علاقة السببية بين ظلم العباد والعقوبة من الله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾ [النساء]، قال ابن تيمية رحمه الله: (الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة وعاقبة العدل كريمة ولهذا يروى: الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة)[2]، وهذا يدل على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لئلا ينتشر الظلم فيعم العذاب، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأعراف]، فابدأ بنفسك ومن حولك قدر الاستطاعة حتى إذا نزل العذاب نجوت.

ولا يخفى أن الشرك أعظم الظلم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]، فلا أمْنَ معه، ولا هداية، ويؤكد هذا قول ابن مسعود رضي الله عنه: "لما

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٨٢ بتصرف واختصار.

(٢) الحسبة لابن تيمية ص: ١٧٨.

نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: إنه ليس بذلك ألا تسمعون إلى قول لقمان ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾"(١).

ومن تأمل مصارع الكفار والقرى التي أهلكها الله وجد أن ظلمها لم يكن قاصراً على الكفر، فعاد عرفوا بالبطش والتجبر، وثمود كانوا يتخذون البيوت في الجبال أشرا وبطرا وعبثا، وقوم شعيب عرفوا بتطفيف الميزان، وقوم لوط بإتيان الذكران، وهكذا نجد لمن قص الله علينا مصارعهم ذنباً آخر مع الشرك يدل على ظلمهم الذي استحقوا به الهلاك، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾ [القصص].

ومن أنواع الظلم بطر النعم؛ قال تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨﴾ [القصص]، ونحن في بلدنا أنعم الله علينا بنعم كثيرة، فإليه تجبى النعم من كل مكان طوال العام، وهذا يستلزم مزيداً من الشكر، لكننا نخشى أن نكون من أهل البطر ولا نكون من الشاكرين فنسلب هذه النعم أو يحل بنا عذاب أليم فليس بيننا وبين الله نسب، وقد دعا إبراهيم عليه السلام لمكة وأهلها فقال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة].

وهاهنا شبهة وهي أن الغرب فيه كفر ولم يصب أهله بالمآسي! وهذا خطأ؛ فإن الله ابتلاهم وما زال بصنوف العذاب، فخلال ثلاثين سنة تقريباً وقعت حربان عالميتان راح ضحيتها الملايين، وبين الفينة والأخرى

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٥٣٥ (٦٥٢٠)، صحيح مسلم ١/ ١١٤ (١٢٤).

يبتليهم بالزلازل والبراكين والأعاصير، وغيرها من البلايا، وقد يكون أعظم من ذلك ما نراه من تفكك أسري، وارتفاع معدلات الاكتئاب والأمراض النفسية، والانتحار، وارتفاع معدلات الجريمة وعدم الأمن، وغير ذلك مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ قال الطبري: (ميقاتا وأجلا حين بلغوه جاءهم عذاب فأهلكناهم به، يقول: فكذلك جعلنا لهؤلاء المشركين من قومك يا محمد الذين لا يؤمنون بك أبدا موعدا، إذا جاءهم أهلكناهم؛ سنتنا في الذين خلوا من قبل)[1]، وقال الشنقيطي: (أي وجعلنا لوقت هلاكهم موعداً والموعد: الوقت المحدد لوقوع ذلك فيه)[2].

تفسير الآيات من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾

مناسبة الآيات لما قبلها وما بعدها:

حوت الآيات تفاصيل قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، مع أن كفار قريش لم يسألوا عنها، ولذكر القصة في هذا الموضع بين قصة أهل الكهف وقصة ذي القرنين دلالات عديدة ومناسبات، فمنها:

١ = قال البقاعي رحمه الله: (لما قدم الكلام على البعث، واستدل عليه بابتداء الخلق، ثم ذكر بعض أحواله، ثم عقبه بما ضرب من الأمثال، ووجوه الاستدلال، وختم ذلك بأنه يمهل عند المساءة، عقب ذلك بأنه

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥٣ بتصرف واختصار.

(٢) أضواء البيان ٣/ ٣٨٢ بتصرف واختصار.

كذلك يفعل عند المسرة، فلكل شيء عنده كتاب، وكل قضاء بقدر وحساب، فذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام وما اتفق له في طلبه، وجعله سبحانه له الحوت آية وموعداً للقائه، ولو أراد سبحانه لقرّب المدى ولم يحوج إلى عناء، مع ما فيها من الخارق الدال على البعث، ومن الدليل على أن من ثبت فضله وعلمه لا يعترض عليه إلا من كان على ثقة من ربه ولا يمتحن، ومن ذم الجدل بغير علم، ووجوب الانقياد للحق عند بيانه، ومن إرشاد من استنكف أن يجالس فقراء المؤمنين بما اتفق لموسى عليه السلام من أنه -وهو كليم الله- اتبع الخضر عليه السلام ليقتبس من علمه، ومن تبكيت اليهود بقولهم الموهم للعرب أن من شرط النبي أن لا يخفى عليه شيء، مع ما يعلمون من أن موسى عليه السلام خفي عليه جميع ما فعله الخضر عليه السلام، وإلى نحو هذا أشار بقوله إذ وقع العصفور على حرف السفينة ونقر من البحر نقرة أو نقرتين "ما نقص علمي وعلمك يا موسى من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من البحر"، وبإعلامهم بما يعلمونه من أن موسى عليه السلام جعل نفسه تابعاً للخضر عليه السلام، تكذيباً لهم في ادعائهم أنه ليس أحد أعلى من موسى عليه السلام، وأنه لا ينبغي لأحد اتباع غيره، ومن جوابهم عما لعلهم يقولون للعرب بهتاً وحسداً "لو كان نبياً ما قال: أخبركم غداً، وتأخر" بما اتفق لموسى في وعده الخضر عليهما السلام بالصبر، وبما خفي عليه مما اطلع عليه الخضر عليهما السلام)[1].

٢= لما كان إمهال الله عز وجل للكفار وقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾،

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٦٣ بتصرف واختصار.

قد يوهم أنه رحمة بهم كما يرحم أولياءه، لفت ﷻ إلى أن العواقب ليست كما يظهر، ومثَّل بقصص موسى مع الخضر عليهما السلام في رحلتهما. قال الطبري: (وهذه القصص التي أخبر الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ بها عن موسى وصاحبه، تأديبٌ منه له، وتقدّمٌ إليه بترك الاستعجال بعقوبة المشركين الذين كذّبوه واستهزؤوا به وبكتابه، وإعلام منه له أن أفعاله بهم وإن جرت في الأعين بما يجري أحيانا لأوليائه، فإن تأويله صائر إلى أحوال أعدائه، كما كانت أفعال صاحب موسى واقعة بخلاف الصحة عند موسى، إذ لم يكن عالما بعواقبها، وهي على الصحة في الحقيقة، ينبئ عن صحة ذلك قوله: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الكهف]. ثم عقب ذلك بقصة موسى وصاحبه، يُعلم نبيَّه أن تركه تعجيل العذاب للمشركين، بغير نظر منه لهم -وإن كان ذلك فيما يحسب من لا علم له بما الله مدبر فيهم نظرًا منه لهم- لأن تأويل ذلك صائر إلى هلاكهم وبوارهم بالسيف في الدنيا، واستحقاقهم من الله في الآخرة الخزي الدائم)(١).

٣= هذه القصة مناسبة لما سبق من قصة آدم وسجود الملائكة وامتناع إبليس، ووجه المناسبة المقابلة والتضاد، إذ بالضد تتبين الأشياء، فبخلاف فعل إبليس فعل موسى عليه السلام عندما وجد أعلم منه، تبعه وتواضع له كالتلميذ لأستاذه، وعرف له قدره، مع أنه كليم الله ومن أولي العزم.

قال ابن عاشور: (لما جرى ذكر آدم وأمر الملائكة بالسجود، وما عرض للشيطان من الكبر جهلاً بأسباب الفضائل وحسداً في الشرف والفضل، فضرب بذلك مثلاً لأهل الكبر والحسد، أعقبَ تلك القصة

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٩١ بتصرف واختصار.

بقصة هي مَثل في ضدها لأن في تطلب ذي الفضل للازدياد منهما، وسعيه للظفر بمن يبلغه الكمال، اعترافاً للفاضل بفضله. وفي ذلك المقابلة بين الخُلُقين وإقامة الحجة على المماثلة والمخالفة بين الفريقين؛ المؤمنين والكافرين، وفي ذلك تعليم وتنويه بشأن العلم والهدى، وتربية للمتقين)[1].

٤= وهذه القصة مناسبة لقصة ذي القرنين بعدها لأنها تشبهها بما حوته من تطواف في الأرض لغرض صالح، فكانت كالمقدمة لها.

قال ابن عاشور: (لأن السورة نزلت لما سأل المشركون وأهل الكتاب عن قصتين؛ أصحاب الكهف وذي القرنين، وقد تقضّى جواب الأولى، وآن أن ينتقل للثانية فتختم بذلك السورة التي أنزلت لبيان القصتين، قدمت لهذه القصة الثانية قصة لها شبه بها في أنها تَطواف في الأرض لطلب نفع صالح، وهي قصة سفر موسى عليه السلام لطلب لقاء من هو على علم لا يعلمه موسى)[2].

٥= قال د. عبد الكريم الخطيب: (مناسبة الآيات لما قبلها، أن الآيات نعت على المشركين عنادهم وضلالهم، وقد جاءهم عفوا دون جهد، وكان جديرا أن يطلبوا الهدى لأنفسهم، ويبذلوا الجهد والمال، فلم يفعلوا، سفهًا وغفلة، فإذا جاءهم ثم زهدوا فيه وردوه كان ذلك سفها وغفلة فوق غفلة. وهذا نبي كريم هو موسى عليه السلام كلمه ربه، وأنزل عليه آياته، ومع هذا يطلب العلم، ويجدّ في تحصيله، وفي هذا مدى ما ركب سفهاء قريش

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٥٩ بتصرف واختصار.

(٢) السابق بتصرف واختصار.

وحمقاها من جهل فاضح، وكبر صبياني، إذ يرون أنهم لا يحتاجون إلى علم، حتى وإن كان يطرق أبوابهم، ويدخل بيوتهم)(١).

٦= أن اليهود عرفوا بالعلم، وكانوا يرون لأنفسهم فضلاً بعلمهم الكتاب، وكانت قريش تقر لهم فحداها ذلك لسؤالهم عن النبي ﷺ وصدقه، لكن علمهم لم ينفعهم، وكان حجة عليهم لأنهم عملوا بخلافه، وكان حرياً أن يسألوا عن نبيهم موسى عليه السلام وعن علمه، وما كان من قصته مع الخضر عليه السلام، فلم يفعلوا، فكان في قصته قبل جوابهم عن ذي القرنين تعريض بهم، لا لتركهم الأهم فحسب، بل للانشغال عن الأهم بما هو أقل، قال ابن عاشور رحمه الله: (وفي سوق هذه القصة تعريض بأهل الكتاب بأن الأولى أن يدُلوا الناس على أخبار أنبياء إسرائيل وعلى سفر لأجل تحصيل العلم والحكمة لا سفر لأجل بسط الملك والسلطان)(٢).

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، للدكتور عبد الكريم الخطيب٨/ ٦٤٥ بتصرف واختصار.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٥٩.

مهمات تتعلق بالخضر عليه السلام

علمنا أن العبد المذكور هو الخضر، عند الجمهور الذي لا يعتد بمن خالفه، حتى عدَّه الشنقيطي إجماعاً، فيحسن التعرض لبعض المسائل المتعلقة به:

الأولى- سبب تسميته: قال النووي رحمه الله: (هو بفتح الخاء وكسر الضاد، ويجوز إسكان الضاد مع كسر الخاء وفتحها كما في نظائره)[1]، وهو لقب هذا العبد الصالح لا اسمه، وذكر أهل العلم في اسمه أقوالاً لا يثبت منها شيء ولا فائدة لذكرها. واختلفوا كذلك في سبب تسميته، قال ابن الجوزي: (فيه قولان؛ أحدهما: أنه جلس في فروة بيضاء فاخضرَّت، رواه أبو هريرة مرفوعا. والفروة: الأرض اليابسة، والثاني: أنه كان إذا جلس اخضرَّ ما حوله، قاله عكرمة. وقال مجاهد: كان إذا صلى اخضرَّ ما حوله)[2]، والصواب الأول فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إنما سمي الخضر أنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء"[3]، قال النووي: (فهذا نص صحيح صريح)[4]، قال الحافظ: (قال الحربي: الفروة من الأرض قطعة يابسة من حشيش... وعن ابن الأعرابي: الفروة أرض بيضاء ليس فيها نبات، وبهذا جزم الخطابي ومن تبعه)[5].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١٧٦.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٣٨ بتصرف واختصار.
(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٢٤٨ (٣٢٢١).
(٤) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١/ ٢٣٨.
(٥) فتح الباري ٦/ ٤٣٣.

الثانية- حقيقة الخضر عليه السلام:

وقع خلاف في الخضر، هل هو نبي أم رسول أم ولي أم مَلَك، قال النووي في المجموع: (واختلفوا في حاله؛ فقال كثيرون: كان نبياً لا رسولاً، وقال آخرون: كان نبياً رسولاً، وقال آخرون: كان ولياً، وقيل: كان ملكاً من الملائكة وهذا غلط)(١)، ولا يشك ببطلان الأخير لمخالفته الكتاب والأحاديث الصحيحة، فإن كونه من البشر هو الظاهر من سياق قصته مع موسى عليه السلام، فإنه لما سئل عمن هو أعلم منه ونفى ذلك فالسؤال عن الإنس كما هو المعهود في مثله، وفي الحديث: "رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب"(٢)، ومن العلماء من توقف، قال الحافظ رحمه الله: (قال أبو الخطاب بن دحية: لا ندري هو ملك أو نبي أو عبد صالح)(٣). لكن الخلاف المشهور إنما هو بين نبوته وولايته، قال ابن الجوزي: (وهل كان الخضر نبياً أم لا؟ قولان، ذكرهما ابن الأنباري، وقال: كثير من الناس يذهب إلى أنه كان نبيّاً، وبعضهم يقول: كان عبداً صالحاً)(٤). ومن العجيب أن ينسب كل من هذين القولين للأكثر وللجمهور، قال البغوي رحمه الله: (لم يكن الخضر نبياً عند أكثر أهل العلم)(٥)، وقال ابن تيمية: (أكثر العلماء على أنه لم يكن نبياً)(٦)، وقال البعلي البعلي في التسهيل نقلاً عنه: (والجمهور على أنه ليس بنبي)(٧)، بينما قال

(١) المجموع ٥/ ٣٠٥.
(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٢٤٦ (٣٢٢٠).
(٣) الزهر النضر في أخبار الخضر ص٦٩.
(٤) زاد المسير ٤/ ٢٣٨ بتصرف يسير.
(٥) تفسير البغوي ٥/ ١٨٨.
(٦) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٣٨.
(٧) التسهيل أو مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية ٢/ ٢٣.

القرطبي: (الخضر نبي عند الجمهور)[١]، وقال الرازي: (قال الأكثرون إن ذلك العبد كان نبياً)[٢]، وبمثله قال أبو حيان: (الجمهور على أن الخضر نبي)[٣]، وقال الألوسي: (الجمهور على أنه ﷺ نبي وليس برسول)[٤].

- **القائلون بولاية الخضر** ﷺ: قال الحافظ: (ذهب إلى أنه كان ولياً جماعة من الصوفية، وقال به ابن أبي موسى من الحنابلة، وابن الأنباري في الزاهر بعد أن حكى القولين، وقال القشيري في رسالته: لم يكن نبياً وإنما كان ولياً)[٥]، وقال ابن كثير: (ذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبيًا، بل وليًا)[٦]، وليًا)[٦]، ومنهم شيخ الإسلام، فقد سئل رحمه الله: (هل كان الخضر ﷺ نبياً أو ولياً؟ فأجاب: اختلف في نبوته، وأكثر العلماء على أنه لم يكن نبياً، مع أن نبوة من قبلنا يقرب كثير منها من الكرامة)[٧]، وقال: (وغاية الخضر أن يكون عنده من الكشف ما هو جزء من أجزاء النبوة فكيف يكون أفضل من نبي؟ فكيف بالرسول؟ فكيف بأولى العزم؟)[٨]، ويظهر من صنيع الطبري أنه يعده عالماً لا نبياً، قال رحمه الله: (فلقيا رجلا عالما يقال له الخَضِر)[٩]، وقال في موضع آخر: (قال العالم: إنك لن تطيق الصبر

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٦.
(٢) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ٢٣٠.
(٣) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٧٤.
(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣١٦.
(٥) الزهر النضر في أخبار الخضر ص٦٩ بتصرف واختصار.
(٦) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٧ بتصرف واختصار.
(٧) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٣٨ بتصرف واختصار.
(٨) مختصر الفتاوي المصرية لابن تيمية ٢/ ٢٤.
(٩) تفسير الطبري ١٨/ ٧٠.

معي)[١]، وممن نفى كونه نبياً السعدي رحمه الله قال: (ذلك العبد الذي لقياه، ليس نبيا، بل عبدا صالحا)[٢]، ومنهم ابن عثيمين رحمه الله، قال: (النصوص تدل على أنه ليس برسول ولا نبي، إنما هو عبد صالح أعطاه الله تعالى كرامات)[٣].

- **القائلون أنه كان نبياً:** منهم الثعلبي[٤] قال: (الخضر نبي معمر على جميع الأقوال)[٥]، ومنهم الحيري المفسر، قال النووي: (قال الحبري[٦] المفسر المفسر وأبو عمرو: هو نبي)[٧]، وأبو عمرو هو ابن الصلاح رحمه الله، وقد نقل نقل النووي من فتاواه قوله: (وهو نبي، واختلفوا في كونه مرسلاً. وكذا قاله بهذه الحروف غير الشيخ من المتقدمين)[٨]، ومنهم القرطبي المفسر، قال: (والخضر نبي عند الجمهور. وقيل: هو عبد صالح، والآية تشهد بنبوته لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحي، والأول الصحيح)[٩]، ومنهم ابن كثير قال: (وقوله (رحمة من ربك) دليل على أنه كان نبيا وأنه ما فعل شيئا من تلقاء نفسه بل بأمر ربه فهو نبي، وقصارى الخضر عليه السلام أن يكون

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٧١.

(٢) تفسير السعدي ١/ ٤٨٢.

(٣) تفسير القرآن للعثيمين ٦/ ٩٠.

(٤) أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت ٤٢٧).

(٥) شرح النووي على مسلم ٨/ ١١٤.

(٦) كذا في المطبوعة، ولم أجد له ترجمة، ولعلها مصحفة من "الحيري"، قال الذهبي في السير ١٧/ ٥٣٩: "العلامة المفسر، أبو عبد الرحمن، إسماعيل بن أحمد، النيسابوري، الحيري، الضرير الزاهد، أحد الأعلام... مات سنة ثلاثين وأربع مئة"ا.هـ

(٧) شرح النووي على مسلم ٨/ ١١٤.

(٨) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١/ ٢٣٩.

(٩) تفسير القرطبي ١١/ ١٦ بتصرف واختصار.

نبيا، وهو الحق)[1]، ومنهم الحافظ ابن حجر، قال: (والذي لا يتوقف فيه الجزم بنبوته)[2]، ومن المتأخرين الألوسي وابن عاشور وغيرهما.

- **المتوقفون في المسألة:** ممن صرح بالتوقف ابن دحية كما مر، ومن العلماء من لم يصرح لكن يفهم توقفه من ترك الترجيح، كالنووي قال: (قال الماوردي: قيل: ولي، وقيل: نبي، وقيل: من الملائكة)، قال النووي: (والثالث غريب ضعيف أو باطل)[3]، فغلَّط الأخير ولم يرجح بين الأولين، الأولين، ورجح في مسألة حياته وموته كما سيأتي، وهو كصنيعه في التهذيب.

أدلة القائلين بنبوته:

قال الشنقيطي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف]: (وهذه الرحمة والعلم اللدني اللذان ذكر الله امتنانه عليه بهما لم يبين هنا هل هما رحمة النبوة وعلمها، أو رحمة الولاية وعلمها. والعلماء مختلفون في الخضر: هل هو نبي، أو رسول أو ولي، ولكنه يفهم من بعض الآيات أن الرحمة المذكورة رحمة نبوة. وأن هذا العلم اللدني علم وحي، وفي الاستدلال بها على ذلك مناقشات معروفة عند العلماء. اعلم أولاً أن الرحمة تكرر إطلاقها على النبوة في القرآن. وكذلك العلم من الله تكرر إطلاقه على الوحي. فمن إطلاق الرحمة على النبوة قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف]، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٣٤٩.

(٢) الزهر النضر في أخبار الخضر ص١٦٢.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١/ ٢٣٩ بتصرف واختصار.

ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص]. ومن إطلاق العلم على النبوة قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨] ، إلى غير ذلك. ومعلوم أن الرحمة وإيتاء العلم اللدني أعم من النبوة وغيرها. ووجود الأعم لا يستلزم وجود الأخص كما هو معروف. ومن أظهر الأدلة في أن الرحمة والعلم على الخضر عن طريق النبوة والوحي قوله عنه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف] أي وإنما فعلته عن أمر الله جل وعلا. وأمر الله إنما يتحقق عن طريق الوحي، إذ لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه إلا الوحي. ولا سيما قتل الأنفس البريئة في ظاهر الأمر، وتعييب سفن الناس بخرقها. لأن العدوان على أنفس الناس وأموالهم لا يصح إلا عن طريق الوحي. فإن قيل: قد يكون عن طريق الإلهام. فالجواب أن المقرر في الأصول أن إلهام الأولياء لا يجوز الاستدلال به، وما يزعمه بعض المتصوفة من جواز العمل بالإلهام في حق الملهَم دون غيره، وما يزعمه بعض الجبرية أيضاً من الاحتجاج بالإلهام في حق الملهَم وغيره جاعلين الإلهام كالوحي المسموع مستدلين بظاهر قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وبخبر «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» كله باطل لا يعول عليه، لعدم اعتضاده بدليل. وغير معصوم لا ثقة بخواطره، لأنه لا يأمن دسيسة الشيطان. وقد ضمنت الهداية في اتباع الشرع، ولم تضمن في اتباع الخواطر والإلهامات. والإلهام في الاصطلاح: إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر من غير وحي ولا حجة عقلية، يختص الله به من يشاء من خلقه. أما ما يلهمه الأنبياء فليس كإلهام غيرهم، لأنهم معصومون. وبالجملة، فلا يخفى على من له إلمام بمعرفة دين

الإسلام أنه لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه، إلا عن طريق الوحي. فمن ادعى أنه غني في الوصول إلى ما يرضي ربه عن الرسل ولو في مسألة واحدة فلا شك في زندقته، والأدلة على هذا لا تحصى، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء] ولم يقل حتى نلقي في القلوب إلهاماً. وقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. قال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [طه: ١٣٤]. والآيات والأحاديث بمثل هذا كثيرة جداً، وبذلك تعلم أن ما يدعيه كثير من جهلة التصوف من أن لهم ولأشياخهم طريقاً باطنة توافق الحق ولو كانت مخالفة لظاهر الشرع، كما فعله الخضر لظاهر العلم عند موسى: زندقة، وذريعة إلى الانحلال من دين الإسلام، بدعوى أن الحق في باطن يخالف الظاهر. وما يستدل به بعض جهلة التصوف على الإلهام من ظواهر النصوص كـ « استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك » لا دليل فيه البتة على اعتبار الإلهام؛ لأنه لم يقل أحد ممن يعتد به أن الذي تتلقى الأحكام الشرعية من قبله القلب، بل الحديث للتحذير من الشبه، لأن الحرام والحلال بين، وبينهما أمور مشتبهة لا يعملها كل الناس. فقد يفتيك المفتي بحِلِّية شيء وأنت تعلم أنه يحتمل أن يكون حراماً، باستناد إلى الشرع، فإن قلب المؤمن لا يطمئن لما فيه الشبهة، ومما يدل على ذلك من كلام الصوفية المشهود لهم بالخير قول أبي القاسم الجنيد رحمه الله: (مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة)، نقله عنه غير واحد ممن ترجمه رحمه الله، كابن كثير وابن خلكان وغيرهما. ولا شك أن كلامه المذكور هو الحق، فلا أمر ولا نهي إلا على ألسنة الرسل. وبهذا كله

تعلم أن قتل الخضر للغلام وخرقه للسفينة وقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف٨٢] دليل ظاهر على نبوته. وعزا الفخر الرازي القول بنبوته للأكثرين، وما يستأنس به للقول بنبوته تواضع موسى عليه السلام له في قوله: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف]، وقوله: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ الكهف] مع قول الخضر له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف])[1].

قال الحافظ: (ومن أوضح ما يستدل به على نبوة الخضر قوله: وما فعلته عن أمري، وينبغي اعتقاد كونه نبياً لئلا يتذرع بذلك أهل الباطل في دعواهم أن الولي أفضل من النبي حاشا وكلا)[2]، ومع ذلك فقد قال الرازي: (دليل ضعيف، وضعفه ظاهر)[3]، ولم يبين وجه هذا الضعف!

ويدل على نبوته أيضا قوله عن الغلام: (فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) وهذا إخبار بالغيب، وقد قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن]، فالراجح أنه نبي، والله أعلم.

الثالثة- هل الولي أفضل أم النبي؟

لقد زلت في هذه المسألة أقدام كثير من منحرفي الصوفية، إذ فضلوا الولي على النبي، وكان لهم في قصة الخضر عليه السلام مرتع خصب لتقرير هذا ومن ثم التحلل من أحكام الشرع، بحجة أن للدين ظاهراً وباطناً، وأن الأنبياء والعلماء يقفون عند حدود الظاهر محجوبين عن الحقائق، أما الأولياء فقد خرقوا تلك الحجب ووقفوا على الحقائق، لذا فالأحكام والتكاليف مختصة بالأولين الواقفين مع الظواهر، وقد استغنى عنها

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٨٧-٣٩٠ بتصرف واختصار.

(٢) فتح الباري ١/ ٢٢٠.

(٣) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ٢٣٠.

أولئك الزنادقة الباطنية، وهذا ما جرأهم على تمثل قول ابن عربي:

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

قال القرطبي رحمه الله: (ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق يلزم منه هَدُّ الأحكام الشرعية، فقالوا: هذه الأحكام يحكم بها على الأنبياء[1] والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى ذلك، بل: إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويحكم عليهم بخواطرهم؛ لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوّها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع، كما اتَّفق للخضر؛ فإنَّه استغنى بذلك عما كان عند موسى. وقد جاء فيما ينقلون: استفت قلبك وإن أفتاك المفتون. قلت: وهذا القول زندقة وكفر يُقتل قائله، ولا يستتاب[2]؛ لأنَّه إنكار ما علم من الشرائع، فإنَّ الله قد أجرى سُنَّته، بأنَّ أحكامه لا تعلم إلا برسله، وهم المبلغون عنه، المبينون شرائعه، اختارهم لذلك وخصَّهم به، كما قال: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾ وقال: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾، وقال: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ ﴾، وأمر بطاعتهم في كل ما جاؤوا به، وأخبر: أن الهدى في طاعتهم والاقتداء بهم، في قوله: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾، وقوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا

---

(١) في المطبوع (الأغنياء) ولعله تصحيف، وفي بعض نسخ تفسير القرطبي مثله، وفي بعضها (الأنبياء) وفي أخرى (الأغبياء)، وكلاهما محتمل، وفي الفتح الثاني، والأول أقرب لسياق الكلام.

(٢) وهذا أحد الأقوال؛ أعني عدم الاستتابة.

لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾، وقال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ﴾، وقال ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله، وسُنَّة نبيه». ومثل هذا لا يُحصى كثرة. فقد حصل العلم القطعي، واليقين وإجماع السَّلف والخلف: على ألا طريق لمعرفة أحكام الله إلا من جهة الرسل. فمن قال: إن هناك طريقًا آخر غير الرسل فهو كافر، يقتل ولا يستتاب، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ الذي قد جعله الله خاتما، لأن من قال: يأخذ عن قلبه، ويعمل بمقتضاه، ولا يحتاج إلى كتاب ولا سنة، قد أثبت لنفسه النبوة، فإنَّ هذا نحو مما قاله رسول الله ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي»، ولقد سمعنا عن بعض الممخرقين المتظاهرين بالدِّين أنه قال: أنا لا آخذ عن الموتى؛ وإنَّما آخذ عن الحي الذي لا يموت، وإنما أروي عن قلبي عن ربي! ومثل هذا كثير، فنسأل الله الهداية والعصمة، وسلوك طريق سلف هذه الأمَّة)[1].

وضرر هؤلاء الزنادقة على الإسلام أشد من ضرر الكفار، قال ابن تيمية: (وصرح الغزالي بأن قتل من ادعى أن رتبة الولاية أعلى من رتبة النبوة أحب إليه من قتل مائة كافر لأن ضرر هذا في الدين أعظم)[2].

قال أبو حيان: (وفي كتاب التحرير والتحبير[3] ما نصه: "تعلق بعض الجهال بما جرى لموسى مع الخضر عليهما السلام على أن الخضر أفضل وطردوا الحكم، وقالوا: بعض الأولياء أفضل من آحاد الأنبياء، واستدلوا بقول أبي يزيد: خضت بحراً وقف الأنبياء بساحله، وهذا كله من ثمرات

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٦/ ٢١٨ بتصرف واختصار.
(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ١٧٣.
(٣) التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير، لابن النقيب المقدسي الحنفي (ت ٦٩٨).

الرعونة والظنة بالنفس" انتهى. وسمعنا من يحكي هذه المقالة عن بعض الضالين وهو ابن العربي صاحب الفتوح المكية، فكان ينبغي أن يسمى بالقبوح الهلكية، وأنه زعم أن الولي خير من النبيّ لأن الولي يأخذ عن الله بغير واسطة، والنبيّ يأخذ بواسطة، ولأن الولي قاعد في الحضرة الإلهية والنبيّ مرسل إلى قوم، ومن كان في الحضرة أفضل ممن يرسله صاحب الحضرة. إلى أشياء من هذه الكفريات، وقد كثر معظّمو هذا الرجل في هذا الزمان من غلاة الزنادقة القائلة بالوحدة، نسأل الله السلام)(١).

وهؤلاء الزنادقة بنوا مقالتهم على مقدمتين: الأولى أن الخضر ولي، والثانية أنه أفضل من موسى، فينتج أن الولي أفضل من النبي، فإذا ثبت بالدليل أن موسى عليه السلام أفضل من الخضر بطلت النتيجة.

وقد استدل القائلون بأفضلية الخضر بأدلة، منها:

١ -أن الله عز وجل أعلم موسى عليه السلام أن الخضر أعلم منه:

قال القرطبي: (قوله: (هو أعلم منك) أي بأحكام وقائع مفصلة، ونوازل معينة لا مطلقاً، بدليل قوله: إنك على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، وأنا على علم علمنيه لا تعلمه أنت، وعلى هذا فيصدق على كل واحد منهما أنه أعلم من الآخر من وجه)(٢). وقال ابن عاشور في تفسير: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣ ﴾ [البقرة]: (والآية تقتضي مزية عظمى لهذا النوع في هذا الباب وفي فضل العلم، ولكنها لا تدل على أفضلية النوع

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٨٥ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير القرطبي ١١/ ١٠ بتصرف واختصار.

البشري على الملائكة، إذ المزية لا تقتضي الأفضلية كما بينه القرافي في الفرق الحادي والتسعين، فهذه فضيلة من ناحية واحدة، وإنما يعتمد التفضيل المطلق مجموعَ الفضائل، كما دل عليه حديث موسى والخضر)[1]، يريد أنه أثبت للخضر علماً ليس لموسى لكن هذا لم يجعله أفضل، كما قال: (ومعنى كون هذا العبد أعلم من موسى عليه السلام أنه يعلم علوما من معاملة الناس لم يعلمها الله لموسى. فالتفاوت في العلم في هذا المقام تفاوت بفنون العلوم، وهو تفاوت نسبي)[2]، فهذه ميزة لكن مجموع حالهما يدل على أفضلية موسى كما سيأتي. وقد نقل البعلي عن ابن تيمية قوله: (الجمهور على أنه ليس بنبي بل أنبياء بني إسرائيل كداود وسليمان أفضل من الخضر، بل على قول الجمهور أنه ليس بنبي فأبو بكر وعمر رضي الله عنهما أفضل منه، وكونه يعلم مسائل لا يعلمها موسى لا يوجب أن يكون أفضل مطلقاً، كما أن الهدهد قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ لم يكن أفضل من سليمان، وكما أن الذين كانوا يلقحون النخل كانوا أعلم بتلقيحه ولم يجب أن يكونوا أفضل منه ﷺ، وقد قال: "أنتم أعلم بأمر دنياكم"، وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم كانوا يتعلمون ممن دونهم، وقد قال ﷺ: لم يبق بعدي من النبوة إلا الرؤيا الصالحة، ومعلوم أن ذريتهم في العلم أفضل ممن حصلت له الرؤيا، وغاية الخضر أن يكون عنده من الكشف جزء من أجزاء النبوة، فكيف يكون أفضل من نبي ﷺ؟ فكيف بالرسول؟ فكيف بأولي العزم)[3].

٢-أن موسى عليه السلام لما علم بذلك سعى للقائه واتباعه ليتعلم منه:

والمعلم أفضل من المتعلم، والتابع أفضل من المتبوع، قال الألوسي:

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤١٩ بتصرف يسير.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٦٣.
(٣) مختصر الفتاوي المصرية لابن تيمية ٢/ ٢٤ بتصرف واختصار.

(لا يبعد عقلاً تعلم الأفضل الأعلم ممن هو دونه في الفضل والعلم. ومن الأمثال قد يوجد في الأسقاط[1] ما لا يوجد في الأسفاط[2]، وقالوا: قد يوجد في المفضول ما لا يوجد في الفاضل)[3]، وقال ابن عاشور: (والعلم الذي سأله موسى من العلم النافع الذي لا يتعلق بالتشريع للأمة الإسرائيلية، فإن موسى مستغن في التشريع إلا من وحي الله، لأنه لذلك أرسله وما عدا ذلك لا تقتضي الرسالة علمه وإنما رام موسى أن يعلم من العلم الذي خص الله به الخضر؛ لأن الازدياد من العلوم النافعة من الخير. وقد قال الله تعالى تعليما لنبيه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه])[4]، وقال القرطبي: (فلما سمع موسى هذا تشوقت نفسه الفاضلة، وهمته العالية، لتحصيل علم ما لم يعلم، وللقاء من قيل فيه: إنه أعلم منك)[5]، فيكون في اتباع موسى الخضر -مع أنه أفضل- تواضع منه وحرص على العلم وفيه زيادة فضل له ﷺ. قال الشوكاني: (وليس في ذلك أن الخضر أفضل، فقد يأخذ الفاضل عن المفضول إذا اختص بعلم، فعلم موسى الأحكام الشرعية وعلم الخضر بعض الغيب ومعرفة البواطن)[6].

٣-أن الله قد أعطاه علماً لدنياً، وسبق الكلام عنه فلا تعلق لهم به.

والصواب الذي لا ريب فيه البتة أن موسى أفضل من الخضر عليهما

(١) جمع سقط المتاع وهو رديئه، انظر لسان العرب ٧/ ٣١٦، مادة (سقط).
(٢) جمع سفط، وهو ما يعبأ فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء، انظر لسان العرب ٧/ ٣١٥، مادة (سفط).
(٣) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣٠٢ بتصرف واختصار.
(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٠ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير القرطبي ١١/ ١٠.
(٦) فتح القدير ٤/ ٤٠٨ بتصرف واختصار.

السلام، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والآثار والإجماع.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، قال القرطبي: (الاصطفاء: الاجتباء، أي فضلتك)[١]، وقال الطبري: ("وبكلامي": كلمتك وناجيتك دون غيرك من خلقي)[٢]، وقال ابن كثير: (يذكر تعالى أنه خاطب موسى عليه السلام بأنه اصطفاه على عالمي زمانه برسالاته وبكلامه)[٣]. والخضر من أهل زمانه فيدخل في العموم، ولا يخرج منه إلا بدليل صريح ولا دليل. وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء]، قال الرازي: (أفضل الخلق هم الأنبياء، وبعدهم الصديقون، وبعدهم من ليس له إلا محض درجة الشهادة، وبعدهم من ليس له إلا محض درجة الصلاح)[٤]، وقال القرطبي: (الفضل لمن فضله الله، فالخضر إن كان وليا فموسى أفضل لأنه نبي ﷺ، والنبي أفضل من الولي، وإن كان نبياً فموسى فضله بالرسالة)[٥]. فعلى القول بولاية الخضر الذي يتعلق به الزنادقة يكون موسى عليه السلام أفضل، وعلى القول بأنه نبي، فموسى رسول ومن أولي العزم، والرسول النبي أفضل من النبي فقط، بل موسى عليه السلام أفضل الرسل بعد نبينا وبعد إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

وأما السنة فقد سئل النبي ﷺ: (أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء

(١) تفسير القرطبي ٧/ ٢٨٠.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ١٠٥.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٣.
(٤) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ٥/ ٢٧٧ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير القرطبي ١١/ ١٧ بتصرف واختصار.

ثم الأمثل فالأمثل)[1]، وترجم البخاري: (باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأول)، قال الحافظ: (المراد الأولية في الفضل، والأمثل أفعل من المثالة والجمع أماثل وهم الفضلاء)[2]، فدل هذا على أفضلية الأنبياء على من سواهم، والكلام هنا على القول بنبوة الخضر أو ولايته على ما سبق.

وأما الآثار فقد ذكر الطبري عن ابن عباس أن موسى عليه السلام خطب قومه، قال: (فذكر ما آتاهم الله من الخير والنعمة وذكرهم إذ أنجاهم الله من آل فرعون وذكرهم هلاك عدوهم وما استخلفهم في الأرض فقال: وكلم الله موسى نبيكم تكليما واصطفاني لنفسه وأنزل علي محبة منه وآتاكم من كل ما سألتموه فنبيكم أفضل أهل الأرض وأنتم تقرؤون التوراة. فلم يترك نعمة أنعمها الله عليهم إلا ذكرها وعرفها إياهم فقال له رجل من بني إسرائيل: هو كذلك يا نبي الله، فهل على الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا. فبعث الله عز وجل جبرائيل عليه السلام إلى موسى عليه السلام فقال: إن الله يقول: وما يدريك أين أضع علمي؟)[3]، فعتب عليه في قوله: لا أحد أعلم منه، ولم يعتب عليه في إنه أفضل أهل الأرض، وهذا إقرار له بذلك.

وأما الإجماع فقد نقل البعلي عن ابن تيمية رحمه الله قوله: (أجمع المسلمون على أن موسى أفضل من الخضر، فمن قال إن الخضر أفضل فقد كفر، وسواء قيل إن الخضر نبي أو ولي)[4].

شبهة أخرى- أقررنا أن موسى أفضل من الخضر عليهما السلام، لكن

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٦٠١ (٦٠١)، قال الألباني: حسن صحيح.

(٢) فتح الباري ١٠/ ١١١ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٦٧ بتصرف واختصار.

(٤) مختصر الفتاوي المصرية لابن تيمية ٢/ ٢٤.

القصة تدل على أن للولي أن يخالف الشرع بما يقع له من إلهام؟

فالجواب: أولاً إن الخضر كان نبياً لا مجرد ولي، فتسقط الشبهة؛ وعلى التسليم بأنه ولي فقد قال ابن تيمية رحمه الله: (من ظن أن لأحد من أولياء الله طريقاً إلى الله غير متابعة محمد ﷺ باطناً وظاهراً، فلم يتابعه باطناً وظاهراً فهو كافر، ومن احتج بقصة موسى مع الخضر كان غالطاً من وجهين:

أحدهما- أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولا كان على الخضر اتباعه، فإن موسى كان مبعوثا إلى بني إسرائيل، وأما محمد فرسالته عامة لجميع الثقلين الجن والإنس، ولو أدركه من هو أفضل من الخضر كإبراهيم وموسى وعيسى وجب عليهم اتباعه، فكيف بالخضر سواء كان نبياً أو ولياً؟ ولهذا قال الخضر لموسى: أنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، وليس لأحد من الثقلين الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ أن يقول مثل هذا.

الثاني- أن ما فعله الخضر لم يكن مخالفاً لشريعة موسى عليه السلام، وموسى لم يكن علم الأسباب التي تبيح ذلك فلما بينها له وافقه)[1].

قال ابن القيم رحمه الله: (وأما قصة موسى مع الخضر عليهما السلام: فالتعلق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد وكفر مخرج عن الإسلام موجب لإراقة الدم ... فمن ادعى أنه مع محمد كالخضر مع موسى أو جوز ذلك لأحد من الأمة: فليجدد إسلامه وليتشهد شهادة الحق فإنه بذلك مفارق لدين الإسلام فضلا عن أن يكون من خاصة أولياء الله وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه. وهذا الموضع

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٢٦٣ بتصرف يسير.

مقطع ومفرق بين زنادقة القوم وبين أهل الاستقامة منهم، فحرِّك ترَه)[1]!

قال القرطبي: (وقع لبعض الجهَّال: أن الخضر أفضل من موسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؛ متمسِّكًا بهذه القصة، وهذا إنما يصدر ممن قصر نظره على هذه القصة، ولم ينظر في شيء من أحوال موسى ﷺ، ولا فيما خصَّه الله تعالى به من الرسالة، وسماع كلام الله، وإعطائه التوراة التي فيها علم كل شيء، وأن أنبياء بني إسرائيل تحت شريعته، حتى عيسى ﷺ، ألا ترى أن الله قال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ ﴾، والإنجيل وإن كان هدى فليس فيه من الأحكام إلا قليل، ولم يجئ عيسى ﷺ ناسخًا للتوراة، بل معلمًا ومبيِّنًا أحكامها، كما قال تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾. وعليه فهو أَمَامَهم وإمامهم وأعلمهم وأفضلهم. ويكفي من ذلك قوله: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾، وأن موسى من أولي العزم، وأن أول من ينشق عنه القبر نبينا ﷺ، فيجد موسى ﷺ متعلقًا بساق العرش، وأنه ليس في محشر يوم القيامة أكثر من أمَّته بعد أمَّة نبينا ﷺ، إلى غير ذلك من فضائله. فأما الخضر ﷺ فلم يُتَّفق على أنَّه نبي، فإنَّ كان نبيًا فليس برسول بالاتفاق؛ إذ لم يقل أحدٌ إن الخضر ﷺ أرسل إلى أمَّة، والرَّسول أفضل. وإن تنزلنا على أنه رسول؛ فرسالة موسى أعظم، وأمَّته أكثر، فهو أفضل. وإن قلنا: إن الخضر كان وليًا؛ فلا إشكال أن النبي أفضل من الولي. وهذا أمرٌ مقطوع به عقلاً ونقلاً، ومخالفه كافر، فإنَّه أمرٌ معلوم من الشرائع بالضرورة؛ ولأنه واحد من أمَّة موسى، أو غيره من الأنبياء، ونبي كل أمَّة أفضل منها قطعًا،

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٧٦ بتصرف يسير.

آحادًا وجمعًا؛ وإنَّما كانت قصة موسى مع الخضر امتحانًا لموسى ليتأدَّب ويعتبر، كما قد ابتلي غيره من الأنبياء بأنواع من المحن والبلاء)(١).

الرابعة- هل هو حي أم ميت؟

اختُلِف في حياة الخضر وموته، كما اختلف في نبوته وولايته، قال ابن الجوزي: (على قولين حكاهما الماوردي، وكان الحسن يذهب إلى أنه مات، وكذلك كان ابن المنادي من أصحابنا يقول، ويقبِّح قول من يرى بقاءه، ويقول: لا يثبت حديث في بقائه. وروى النقاش أن البخاري سئل عن الخضر وإلياس: هل هما في الأحياء؟ فقال: كيف ذلك وقد قال النبي ﷺ: "لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد؟!")(٢).

وكما اختلفوا في قول الجمهور في النبوة والولاية اختلفوا في هذه المسألة، قال القرطبي -وهو يقول بحياته-: (ذهب الجمهور إلى أن الخضر مات)(٣)، وقال النووي: (قال الأكثرون: هو حي موجود بين أظهرنا، وذلك متفق عليه عند الصوفية، وحكاياتهم في رؤيته والاجتماع به والأخذ عنه، وسؤاله وجوابه، ووجوده في المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر. قال ابن الصلاح في فتاويه: هو حي عند جماهير العلماء والصالحين، والعامة معهم في ذلك)(٤).

لكن ما يميز الخلاف هنا إنكار كل فريق على الآخر، إنكاراً لا يخلو أحيانا من شدة، فقد نقل النووي عن ابن الصلاح قوله: (وإنما شذ بإنكاره

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٦/ ٣٠٨ بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٣٨ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٤١ بتصرف واختصار.
(٤) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١/ ٢٣٩ بتصرف واختصار.

بعض المحدثين)[1]، ودعوى الشذوذ لا تصح، وقد نقل الحافظ عن السهيلي قوله: (وقال البخاري وطائفة من أهل الحديث: مات الخضر قبل انقضاء مائة سنة من الهجرة)[2]، وما زال هذا قول كثير من أهل العلم، حتى قال ابن الجوزي إنه إجماع المحققين، وقال: (والدليل على أن الخضر ليس بباق أربعة أشياء؛ القرآن، والسنة، وإجماع المحققين من العلماء، والمعقول)[3].

قال ابن القيم: (وأما إجماع المحققين فقد ذكره [ابن الجوزي] عن البخاري وعلي الرضا أن الخضر مات، قال: وممن قال إن الخضر مات الحربي وابن المنادي وهما إمامان، وكان ابن المنادي يقبح قول من يقول إنه حي، وحكى القاضي أبو يعلى موته عن بعض أصحاب أحمد، وذكر عن بعض أهل العلم أنه احتج بأنه لو كان حياً لوجب عليه أن يأتي إلى النبي)[4]، قال ابن القيم: (سئل إبراهيم الحربي عن تعمير الخضر وأنه باق فقال: من أحال على غائب لم يُنتَصَف منه وما ألقى هذا بين الناس إلا شيطان، وسئل البخاري عن الخضر وإلياس هل هما أحياء؟ فقال: كيف يكون هذا وقد قال النبي ﷺ: "لا يبقى على رأس مئة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد"؟ وسئل عن ذلك غيرهما من الأئمة فقالوا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾)[5]. وقال ابن تيمية رحمه الله:

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١/ ٢٣٩.
(٢) الزهر النضر في أخبار الخضر لابن حجر ١/ ٤١.
(٣) المنار المنيف ١/ ٦٨ بتصرف واختصار.
(٤) المنار المنيف ١/ ٧٢ بتصرف واختصار.
(٥) المنار المنيف ١/ ٦٧ بتصرف واختصار.

(سأل الحربي أحمد عن تعمير الخضر وإلياس وأنهما باقيان يريان ويروى عنهما فقال: من أحال على غائب لم ينصف منه وما ألقى هذا إلا شيطان)[١]، قال القرطبي: (واختاره ابن العربي، والصحيح القول الثاني وهو أنه حي على ما نذكره)[٢]، وممن قال بموته أيضاً: ابن الغباري، وابن الجوزي، وأبو الفضل بن ناصر، وابن العربي، والنقاش[٣]، وابن عطية[٤]، وأبو الفضل المرسي[٥]، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير[٦]، وابن حجر وغيرهم.

أما القائلون بحياته فمنهم: الثعلبي، وأبو القاسم القشيري، وابن الصلاح، والقرطبي، والنووي، وابن دقيق العيد[٧]، وغيرهم.

تنبيه- قال ابن تيمية رحمه الله: (والصواب الذي عليه المحققون أنه ميت وأنه لم يدرك الإسلام ولو كان موجودا في زمن النبي ﷺ لوجب عليه أن يؤمن به ويجاهد معه)[٨]، ونقل عنه ذلك ابن القيم وزاد: (وقد قال قال النبي يوم بدر: اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض وكانوا ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلا معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم فأين كان الخضر حينئذ؟)[٩]، فهذا قوله في المسألة، وأما قوله في مجموع

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٣٧ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير القرطبي ١١/ ٤١.

(٣) ينظر فيمن سبق الزهر النضر في أخبار الخضر لابن حجر.

(٤) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٣٣٤.

(٥) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٧٤.

(٦) ينظر البداية والنهاية ١/ ٣٤٩.

(٧) ذكره أبو حيان في التفسير والحافظ في الزهر.

(٨) زيارة القبور ١/ ٧٠.

(٩) المنار المنيف ١/ ٦٨.

الفتاوى: (وأما حياته: فهو حي)[1]واحتجاجه بها في مسند الشافعي ورده حجج القائلين بموته، فيحمل على تبدل قوله، وأن آخر قوليه القول بوفاته كما أثبت ذلك ابن القيم رحمه الله، وابن عبد الهادي رحمه الله إذ قال: (و[له] جواب في الخضر هل مات أو هو حي، واختار أنه مات)[2].

وأما ما نقله الشيخ عزير شمس الحق أنه (استشهد به أحد علماء اليمن، فردَّ عليه قطب الدين الخيضري (ت ٨٩٤) في كتابه "افتراض دفع الاعتراض"، وقال: "هذا الذي نقله عن ابن تيمية ليس هو اعتقاده في مسألة الخضر، وإنما نقله عن الطائفة القائلين بحياته")[3]، فغير صحيح كما يظهر بجلاء لمن طالع الفتوى، والصحيح أن قوله تغير، والله أعلم.

واستدل القائلون بموته بقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ وأجيب بأنه يموت قبل يوم القيامة، كحال عيسى عليه السلام، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران]، (قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بُعِث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به وينصرنه، ذكره البخاري عنه)[4]، قال الحافظ: (واستدل ابن الجوزي بما أخرجه أحمد عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله قال: "والذي

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٣٨ وما بعدها.

(٢) العقود الدرية ١/ ٧٠.

(٣) جامع المسائل لابن تيمية ٥/ ٩.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٣٩٠.

نفسي بيده لو أن موسى كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني". قال: فإذا كان هذا في حق موسى فكيف لم يتبعه الخضر لو كان حيًا، فيصلي معه الجمعة والجماعة، ويجاهد تحت رايته، كما ثبت أن عيسى يصلي خلف إمام هذه الأمة)(١)؟ وأجيب عن الآية والحديث بأنه لا مانع أن يكون حضر ونصر النبي ﷺ وصلى خلفه دون أن يُرى، ومر معنا قول الثعلبي: إنه نبي معمر محجوب عن الأبصار، قال ابن كثير: (الجواب أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص العمومات بمجرد التوهمات)(٢).

وأقوى الأدلة النقلية على موته ما احتج به البخاري رحمه الله من حديث ابن عمر: "أرأيتكم ليلتكم هذه؟ فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على الأرض أحد!"(٣)، وفسر ذلك فقال: (يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن)(٤)، وعن جابر عن النبي ﷺ أنه قال قبل موته بشهر أو نحوه: "ما من نفس منفوسة اليوم تأتي عليها مائة سنة وهي حية يومئذ"(٥).

وقد نقل القرطبي عن بعض العلماء رده على هذا الاستدلال فقال(٦): (ولا حجة لمن استدل به على بطلان قول من يقول إن الخضر حي لعموم قوله: (ما من نفس منفوسة)؛ لأن العموم وإن كان مؤكَّد الاستغراق فليس نصاً فيه، بل هو قابل للتخصيص. فكما لم يتناول عيسى عليه السلام، فإنه لم يمت ولم يقتل فهو حي بنص القرآن ومعناه، ولا يتناول الدجال مع أنه

---

(١) انظر الزهر النضر في أخبار الخضر ص٨٦، وما بعدها بتصرف يسير.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٣٩١.
(٣) صحيح البخاري ١/ ٥٥ (١١٦)، صحيح مسلم ٤/ ١٩٦٥ (٢٥٣٧).
(٤) السابق، صحيح مسلم.
(٥) صحيح مسلم ٤/ ١٩٦٦ (٢٥٣٨).
(٦) أصل الكلام لشيخه أبي العباس القرطبي في المفهم ٦/ ٤٩٠.

حي بدليل حديث الجساسة، فكذلك لم يتناول الخضر عليه السلام وليس مشاهداً للناس، ولا ممن يخالطهم حتى يخطر ببالهم حالة مخاطبة بعضهم بعضاً، فمثل هذا العموم لا يتناوله، والألف واللام في قوله: (على الأرض) للعهد لا للجنس وهي أرض العرب، بدليل تصرفهم فيها وإليها غالباً دون أرض يأجوج ومأجوج، وأقاصي جزر الهند والسند مما لا يقرع السمع اسمه، ولا يعلم علمه، ولا جواب عن الدجال)[1]، وبنحو هذا أجاب ابن تيمية رحمه الله في فتواه بحياته، وكذلك النووي قال: (وقد احتج بهذه الأحاديث من شذ من المحدثين فقال الخضر عليه السلام ميت، والجمهور على حياته كما سبق في فضائله، ويتأولون الأحاديث على أنه كان على البحر لا الأرض أو أنها عام مخصوص)[2]. وهذا بعيد جداً، فالتعبير بـ(وجه الأرض) ظاهر في أن المراد جنس الأرض أي كل الأرض لا جزيرة العرب فحسب، وأما الدجال فقد أخرج بمخصص صحيح هو حديث تميم الداري رضي الله عنه، فبقي الخضر داخلاً في عموم الحديث، وقد أجاب الشنقيطي رحمه الله عن كلام القرطبي جواباً قوياً فليراجعه من شاء مبسوطاً في تفسيره ٣/ ٣٩٧ وما بعدها. كما استدل القائلون بموته بأدلة من المعقول يمكن النظر فيها في كتب شيخ الإسلام، والمنار المنيف لابن القيم، والبداية والنهاية لابن كثير، والزهر النضر لابن حجر وغيرها.

وأما القائلون بحياته فقد استدلوا بأحاديث وآثار، كما استدلوا بقصص وحكايات يذكرها المشايخ والعوام وفيها اجتماعهم بالخضر.

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٤٢-٤٤.

(٢) شرح النووي على مسلم ١٦/ ٩٠ بتصرف واختصار.

أما الأحاديث والآثار فلا يصح منها شيء، قال الحافظ: (قال [ابن دحية]: وجميع ما ورد في حياته لا يصح منها شيء باتفاق أهل النقل، وإنما يذكر ذلك من يروي الخبر ولا يذكر علته إما لكونه لا يعرفها، وإما لوضوحها عند أهل الحديث. قال: وأما ما جاء عن المشايخ فهو مما يتعجب منه، كيف يجوز لعاقل أن يلقى شخصاً لا يعرفه فيقول له أنا فلان فيصدقه!)(١)، وقال ابن كثير: (تصدى ابن الجوزي رحمه الله في كتابه: "عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر" للأحاديث في ذلك فبين أنها موضوعة، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدها، وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد)(٢)، وقال ابن القيم: (الأحاديث التي يذكر فيها الخضر وحياته كلها كذب ولا يصح في حياته حديث واحد)(٣). قال الحافظ: (وقال ابن المنادي: بحثت عن تعمير الخضر وهل هو باق أم لا فإذا أكثر المغفلين مغترون بأنه باق من أجل ما روي في ذلك، والأحاديث المرفوعة في ذلك واهية والسند إلى أهل الكتاب ساقط لعدم ثقتهم، وخبر مسلمة بن مصلقة كالخرافة، وخبر رياح كالريح، وما عدا ذلك من الأخبار واهية الصدور والأعجاز لا يخلو حالها: إما أنها أدخلت على الثقات استغفالاً أو يكون بعضهم تعمد ذلك)(٤).

قال الحافظ: (والذي تميل إليه النفس من حيث الأدلة القوية خلاف ما يعتقده العوام من استمرار حياته، ولكن ربما عرضت شبهة من جهة كثرة الناقلين للأخبار الدالة على استمراره فيقال: هب أن أسانيدها واهية

---

(١) الزهر النضر ٨١.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٣٩٠ بتصرف واختصار.
(٣) المنار المنيف ١/ ٦٧.
(٤) الزهر النضر ٨٢ بتصرف واختصار.

إذ كل طريق منها لا يسلم من سبب يقتضي تضعيفها فماذا يصنع في المجموع؟ فإنه على هذه الصورة قد يلتحق بالتواتر المعنوي) ثم قال ﷺ في رد هذه الشبهة: (وأقوى الأدلة على عدم بقائه عدم مجيئه إلى رسول الله ﷺ وانفراده بالتعمير من بين أهل الأعصار المتقدمة بغير دليل شرعي)(١).

قال ابن كثير: (وحكى [النووي] في كونه باقيًا إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابن الصلاح إلى بقائه، وذكروا في ذلك حكايات وآثارًا عن السلف وغيرهم وجاء ذكره في بعض الأحاديث ولا يصح شيء من ذلك، وأشهرها أحاديث التعزية وإسناده ضعيف. ورجح آخرون خلافه، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] وبقول النبي ﷺ: "اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض"، وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ، ولا قاتل معه. ولو كان حيا لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه؛ لأنه ﷺ كان مبعوثًا إلى جميع الثقلين: الجنّ والإنس، وقد قال: "لو كان موسى وعيسى حَيَّيْن ما وسعهما إلا اتباعي" وأخبر قبل موته بقليل: أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تَطْرِفُ، إلى غير ذلك من الدلائل)(٢).

والحق في هذه المسألة أنه قد مات، ومجرد إمكان الوقوع لا يكفي دليلاً على بقاء الخضر أو غيره، فلا بد من قيام دليل صريح صحيح، لأن بقاءه طوال هذه الآماد بخلاف المعتاد، لا سيما وأن في الأدلة ما يقوي قول من قال بموته، وبعضها لا يمكن رده إلا بشيء من التكلف كما مر.

---

(١) الزهر ١٦٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٧ بتصرف واختصار.

الخامسة- كونوا على حذر ممن يقول: حدثني الخضر!

قال ابن عاشور: (واعلم أن قصة موسى والخضر قد اتخذتها طوائف من أهل النحل الإسلامية أصلاً بنوا عليه قواعد موهومة. فأول ما أسسوه منها أنّ الخضر لم يكن نبياً وإنما كان عبداً صالحاً، وأن العِلم الذي أوتيه ليس وحياً ولكنه إلهام، وأن تصرفه الذي تصرفه في الموجودات أصل لإثبات العلوم الباطنية، وأن الخضر منحهُ الله البقاء إلى انتهاء مدة الدنيا ليكون مرجعاً لتلقي العلوم الباطنية، وأنه يظهر لأهل المراتب العليا من الأولياء فيفيدهم من علمه ما هم أهل لتلقّيه. وبَنوا على ذلك أن الإلهام من ضروب الوحي، وسموه الوحي الإلهامي، وأنه يجيء على لسان ملك الإلهام، وقد انتصب علماء الكلام والأصول لإبطال أن يكون ما يسمى بالإلهام حجّة، لعدم الثقة بخواطر من ليس معصوماً، ولتفاوت مراتب الكشف، ولا يقام التشريع على أصول موهومة لا تنضبط. والأظهر أن الخضر نبي عليه السلام وأنه كان موحًى إليه بما أوحي، لقوله: "وما فعلته عن أمري"، وأنه قد انقضى خبره بعد تلك الأحوال التي قصّت في هذه السورة، وأنه قد لحقه الموت الذي يلحق البشر في أقصى غاية من الأجل يمكن أن تفرض، وأن يحمل ما يعْزى إليه من بعض الصوفية الموسومين بالصدق أنه محوك على نسج الرمز المعتاد لديهم، أو على غشاوة الخيال التي قد تخيم عليهم، فكونوا على حذر ممن يقول: أخبرني الخَضر)[1].

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ تنتقل الآيات الكريمة بالأسماع نقلة بديعة مفاجئة، وتبدأ بلا

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ١٥، بتصرف واختصار.

مقدمات في ذكر تلك القصة العجيبة التي حوت كثيراً من الفوائد والعبر والدروس، والتي دارت أحداثها بين موسى والخضر عليهما السلام.

قال ابن عاشور: (فجملة ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ ﴾ معطوفة على ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ [الكهف: ٥٠] عطف القصة على القصة. والتقدير: واذكر إذ قال، أي اذكر ذلك الزمن وما فيه. وناسبها تقدير "اذكر" لأن في القصة موعظة وذكرى كقصة آدم)[١]. قال: (وحُذف الغرض الذي سار له موسى عليه السلام لذكره بعدُ، إيجاز وتشويق، فله موقع عظيم في القصة، لإخراجها عن مطروق القصص إلى بديع الحِكم والأمثال قضاء لِحق بلاغة الإعجاز)[٢].

فقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾

قال الطبري رحمه الله: (أي واذكر يا محمد إذ قال موسى بن عمران لفتاه يوشع)[٣]، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت. قال ما كلفت كثيراً. فذلك قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ ﴾"[٤]. قال ابن عطية: (﴿مُوسَىٰ ﴾ هو موسى بن عمران بمقتضى الأحاديث والتواريخ وبظاهر القرآن، إذ ليس في القرآن موسى غير واحد، وهو ابن عمران، ولو كان غيره لبينه)[٥]، وقال القرطبي رحمه الله: (الجمهور من العلماء وأهل التاريخ أنه موسى بن عمران، وقالت فرقة منها نوف البكالي: إنه

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٥٩ بتصرف واختصار.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ١٥/ ٣٦٠ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٥٥ بتصرف واختصار.

(٤) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٤ (٤٤٤٩).

(٥) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٣٢١ بتصرف واختصار.

موسى بن منشا بن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى بن عمران)[1].

والحق الذي لا ريب فيه أنه موسى بن عمران كليم الله، وأن فتاه هو يوشع بن نون النبي عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام، قد ثبت هذا عن النبي ﷺ في الصحيحين وغيرهما، فعن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: "إن نوفا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل. فقال ابن عباس: كذب عدو الله[2]، حدثني أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله في مِكْتَل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ. فأخذ حوتا فجعله في مكتل ثم انطلق وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون)[3]، فهذا نص لا يحتمل التأويل، ولو لم يكن سوى رد ابن عباس على نَوْف لكفى، فكيف وفيها تصريح النبي ﷺ!

وأما وصف يوشع بأنه فتاه، فقد قال القرطبي: (للعلماء فيه ثلاثة أقوال: أحدها- أنه كان يخدمه والفتى في كلام العرب الشاب ولما كان الخَدَمة غالبا فتيانا قيل للخادم: فتى على جهة الأدب وندبت الشريعة إلى ذلك في قول النبي ﷺ: (لا يقل أحدكم عبدي ولا أمتي وليقل فتاي وفتاتي) تواضعا، والفتى في الآية الخادم وهو يوشع بن نون بن إفرائيم بن

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٩ بتصرف واختصار.

(٢) قال الحافظ في الفتح ١/ ٢١٩: قال ابن التين لم يرد ابن عباس إخراج نوف عن ولاية الله ولكن قلوب العلماء تنفر إذا سمعت غير الحق فيطلقون أمثال هذا الكلام لقصد الزجر والتحذير منه وحقيقته غير مرادة.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٢ (٤٤٤٨)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

يوسف عليه السلام. ويقال: ابن أخت موسى عليه السلام. وقيل: سمي فتى موسى لأنه لزمه ليتعلم وإن كان حرا، وهذا معنى الأول. وقيل: سماه فتى لأنه قام مقام الفتى وهو العبد؛ قال: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾، وقال: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ قال ابن العربي: فظاهر القرآن يقتضي أنه عبد وفي الحديث: أنه كان يوشع. وفي (التفسير) أنه ابن أخته وهذا كله مما لا يقطع به والتوقف أسلم)[1]، وأنكره ابن حجر فقال: (وزعم ابن العربي أن ظاهر القرآن أن الفتى ليس يوشع وكأنه أخذه من لفظ الفتى أو أنه خاص بالرقيق وليس بجيد لأن الفتى من الفتي وهو الشباب وأطلق على من يخدم سواء كان شابا أو شيخا لأن الأغلب أن الخدم تكون شبانا)[2].

وقال النووي رحمه الله: (هو يوشع بن نون، [و]معنى فتاه صاحبه، ونون مصروف كنوح، وهذا الحديث يرد قول من قال من المفسرين إن فتاه عبد له وغير ذلك من الأقوال الباطلة)[3]، يشير إلى كون الحرية شرطاً من شروط النبوة فلا يصح أن يكون عبداً، وأما أن يكون يخدم موسى عليه السلام فلا يمتنع وليس قولاً باطلاً، بل الباء في قوله عليه السلام: "وانطلق معه بفتاه يوشع" مما يشعر به، وأوضح منه قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾.

ويوشع عليه السلام هو الذي قاد بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام وفتح بيت المقدس على يديه بعد التيه، قال ﷺ: "إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ عَلَى بَشَرٍ إِلَّا لِيُوشَعَ لَيَالِيَ سَارَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ"[4]، ولما غزا قال لقومه: "لاَ يَتْبَعْنِي رَجُلٌ

(١) تفسير القرطبي ١١/ ١١ بتصرف واختصار.
(٢) فتح الباري ٨/ ٤١٥ بتصرف واختصار.
(٣) شرح النووي على مسلم ١٥/ ١٣٨.
(٤) مسند أحمد ١٤/ ٦٥، (٨٣١٤)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري.

مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا، وَلاَ أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلاَ أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ وِلاَدَهَا، فَغَزَا فَدَنَا مِنَ الْقَرْيَةِ صَلاَةَ الْعَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ"[1].

وقوله: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ﴾ قال الفراء: (يريد: لا أزال، لم يرد: لا أبرح مكاني)[2]، قال الطبري: (لا أزال أسير ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾)[3]، وهذا يدل على عزم موسى عليه السلام على بلوغ مقصوده والاجتماع بالعبد الصالح، إذ إنه قد أُوحِي إليه أنه يلقاه عند ملتقى البحرين كما في حديث أُبي. قال الزمخشري: (فإن قلت: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ إن كان بمعنى لا أزول -من برح المكان- فقد دلّ على الإقامة لا على السفر. وإن كان بمعنى: لا أزال، فلا بدّ من الخبر، قلت: هو بمعنى لا أزال، وقد حذف الخبر؛ لأنّ الحال والكلام معاً يدلان عليه. أمّا الحال فلأنها كانت حال سفر. وأمّا الكلام فقوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ غاية مضروبة وتستدعي غاية، فالمعنى: لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين)[4]. فالمراد أنه لن يكف عن سيره مع بعد الشقة والمشقة، حتى يصل إلى مجمع البحرين. وبما سبق نعلم مبدأ القصة، قال ابن كثير: (سبب قول موسى عليه السلام لفتاه: أنه ذُكِر له أن عبدًا من عباد الله بمجمع البحرين، عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الذهاب إليه، وقال لفتاه ذلك: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ أي لا أزال سائرًا حتى أبلغ هذا المكان الذي فيه

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١١٣٦ (٢٩٥٦)، صحيح مسلم ٣/ ١٣٦٦ (١٧٤٧).

(٢) معاني القرآن لأبي زكريا الفراء ٢/ ١٣٥ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٥٥.

(٤) الكشاف ٤/ ٣١ بتصرف واختصار.

مجمع البحرين)[١].

وقوله: ﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (ملتقى البحرين)[٢]، وقال الشنقيطي: (والمجمع: اسم مكان، أي مكان اجتماعهما)[٣]، قال ابن كثير: (قال قتادة وغير واحد: وهما بحر فارس مما يلي المشرق، وبحر الروم مما يلي المغرب، وقال محمد بن كعب القُرظي: مجمع البحرين عند طنجة، يعني في أقصى بلاد المغرب)[٤]، وتحديد البحرين لا ينبغي الاشتغال به لعدم الفائدة وإلا لأشير إليه، لكن ما ينبغي الجزم به أن الارتحال من موسى وفتاه عليهما السلام قد كان يقيناً، قال الشنقيطي: (وزعْمُ بعض الملاحدة المعاصرين أن موسى لم يسافر إلى مجمع البحرين، بدعوى أنه لم يعرف ذلك في تاريخه، زعم في غاية والبطلان. ويكفي في القطع أنه مناقض لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ مع التصريح بأنه سفر فيه مشقة وتعب، وذلك لا يكون إلا في بعيد السفر، ولذا قال عن موسى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ٦٢﴾ [الكهف]. ومعلوم أن ما ناقض القرآن باطل، لأن نقيض الحق باطل بإجماع العقلاء لاستحالة صدق النقيضين معاً)[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧٣ بتصرف واختصار.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٧٨.
(٣) أضواء البيان ٣/ ٣٨٥ بتصرف يسير.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧٤.
(٥) أضواء البيان ٣/ ٣٨٥ بتصرف واختصار.

لطيفة- قال الحافظ: (نقل القرطبي عن ابن عباس: المراد بمجمع البحرين اجتماع موسى والخضر لأنهما بحرا علم. وهذا غير ثابت ولا يقتضيه اللفظ وإنما يحسن أن يذكر في مناسبة اجتماعهما كما قال السهيلي اجتمع البحران بمجمع البحرين)(١)، وقال البقاعي: (ما أنسب التوقيت بمجمع بحري الماء، بمجمع بحري العلم. وتزودهما بالنون الذي قرنه الله بالقلم وما يسطرون، وعين الحياة لأن العلم حياة القلوب)(٢).

قوله: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾

قال النحاس: (الحقب والحقبة زمان من الدهر مبهم، كما أن قوما ورهطا مبهم، والحُقُب جمعه أحقاب، وحُقُب جمع حُقْبة)(٣)، وقال الطبري: (يقول: أو أسير زمانا ودهرا، وهو واحد)(٤)، فمراده إظهار عزمه على بلوغ مراده والاجتماع بالعبد الصالح فلا يشغله شاغل وإن أنفق في ذلك الوقت الطويل. قال ابن عاشور: (المعنى: لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين بسير قريب أو أزمانا طويلة فإني بالغه لا محالة، وكأنه أراد بهذا تأييس فتاه من محاولة رجوعهما، كما دل عليه قوله بعد ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢﴾ [الكهف]، أو أراد شحذ عزيمة فتاه حتى يكونا على عزم متحد)(٥).

- **فائدة**: سعى موسى عليه السلام للقي الخضر لأن الله زكى له علم الخضر، فينبغي لنا أن نطلب العلم المزكى النافع في الدنيا والآخرة، فكم من أناس تركوا ديارهم وسافروا إلى ما وراء البحار طلبا لعلم لا ينفع، أو نفعه قليل

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٠٨ بتصرف يسير.
(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٦٤.
(٣) معاني القرآن ٤/ ٢٦٤-٢٦٥ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٥٦.
(٥) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٦٥ بتصرف واختصار.

إذا ووزن بغيره، وعلم الشريعة هو الذي زكاه رب العزة وأمر نبيه أن يستزيد منه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝١١٤﴾ [طه]. وهذا لا يعني إهمال بقية العلوم أو عدم طلبها في الغرب للحاجة، ولكن ليس مع إهمال الكتاب والسنة فضلا عن معارضتهما، فيجب ضبط هذه العلوم بالشرع وعدم تجاوزه.

قال ابن تيمية رحمه الله: (في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في خطبته: {خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة}، وإذا كان كذلك، فكل من كان إليه أقرب وهو به أشبه كان إلى الكمال أقرب وهو به أحق، ومن كان عنه أبعد وشبهه به أضعف كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق. والكامل هو من كان لله أطوع وعلى ما يصيبه أصبر، فكلما كان أتبع لما يأمر الله به ورسوله وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه وصبرا على ما قدره وقضاه كان أكمل وأفضل، وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك)[1].

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾

قال الطبري: (يعني: فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ يعني تركا، عن مجاهد، قال: أضلاه)[2]، والحُوت السمكة، وقيل ما عظم من السَّمَك[3]، وقد كانت زادهما، وجعل فقدانها علامة على مكان الخضر كما سبق. وقد نُسِب النسيان في الآية لموسى وفتاه عليهما السلام مع أن يوشع هو من كان يحمل الحوت، بدليل قول موسى عليه السلام لاحقاً: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، وللعلماء في ذلك قولان، قال الطبري: (قال بعض أهل العربية:

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ٦٧٥ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٥٧ بتصرف يسير.
(٣) ينظر لسان العرب ٢/ ٢٦ مادة (حوت).

إن الحوت كان مع يوشع، وهو الذي نسيه، فأضيف النسيان إليهما، كما قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾، وإنما يخرج من الملح دون العذب. وجاز أن يقال: ﴿نَسِيَا﴾ لأنهما جميعا تزوّداه، فكان حمل أحدهما مضافاً إليهما، كما يقال: خرج القوم وحملوا كذا من الزاد، وإنما حمله أحدهم ولكنه لما كان ذلك عن رأيهم وأمرهم أضيف إلى جميعهم، فكذلك إذا نسيه حامله قيل: نسي القوم زادهم، فأضيف إلى الجميع بنسيان حامله، فيجرى الكلام على الجميع، والفعل من واحد، فكذلك في قوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ لأن الله عزّ ذكره خاطب العرب بلغتها، وما يتعارفونه بينهم من الكلام)[1].

وذهب بعض العلماء إلى أن النسيان كان منهما حقيقة؛ أما نسيان موسى فلم يتعاهد أمر الحوت، مع أهمية هذا لما يطلب، وأما نسيان يوشع عليه السلام فلا خلاف فيه، وقد صح أن موسى عليه السلام قال: "أي رب اجعل لي علما أعلم ذلك به، قال: خذ نونا ميتا حيث ينفخ فيه الروح فأخذ حوتا فجعله في مكتل فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت. قال: ما كلفت كثيرا، فذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ يوشع، فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثَرْيان إذ تَضَرَّب الحوت وموسى نائم فقال فتاه لا أوقظه، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره. وتضرب الحوت حتى دخل البحر"[2]. قال الحافظ رحمه الله: (قوله "في مكان ثَرْيان" أي مبلول، قوله "إذ تضَرَّب الحوت" تفعل من الضرب في الأرض وهو السير، وفي رواية سفيان: واضطرب الحوت في المكتل، وفي رواية أبي إسحاق عند مسلم فاضطرب الحوت في الماء، ولا مغايرة بينهما لأنه اضطرب أولاً في المكتل، فلما سقط في الماء اضطرب

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥٨ بتصرف واختصار.
(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٤ (٤٤٤٩).

أيضاً، فاضطرابه الأول في مبدأ ما حيي، والثاني في سيره في البحر)[١].

قوله: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾

قال الطبري: (اتخذ طريقه الذي سلكه في البحر سربا، والسرب: المسلك والمذهب، يسرب: يذهب فيه. ثم اختلف في صفته، فقال بعضهم: صار طريقه الذي يسلك فيه كالجُحْر، وقال آخرون: بل صار ماء جامداً، وقال آخرون: بل صار حجَراً، وقال آخرون: بل اتخذ سبيله في البرِّ إلى الماء، حتى وصل إليه لا في البحر، والصواب أن يقال كما قال الله ﷻ: واتخذ طريقه في البحر سربا. وجائز أن يكون بانجياب عن الأرض، أو غير ذلك. وأصح الأقوال فيه ما رُوي الخبر به)[٢]، يشير إلى قوله ﵇: "فاتخذ سبيله في البحر سربا وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق"[٣]، وفي رواية: "فجعل لا يلتئم عليه صار مثل الكوة"[٤].

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤١٥ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٥٨ بتصرف واختصار.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٢ (٤٤٤٨)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

(٤) صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

قصة الحوت دليل جديد على البعث والنشور

لقد كان من شأن الحوت ما يعجب له الناظر وتقر به عين المؤمن، ففي الحديث: "فأوحى الله إليه إن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك"(١)، وكأن المجمع كان ممتداً فجعلت له علامة تحدد مكان اللقاء، والعلامة أن يفقد الحوت الذي أُمِر أن يحمله معه وكان يتزود منه وفتاه في سفرهما، فإنه عليه السلام "سأل السبيل إلى لقيه فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه"(٢)، والعادة أن مثل هذا الفقد يكون بنسيان الحوت وتركه، لكن الله جعل كيفية الفقد آية جديدة وعلامة باهرة على الإحياء بعد الموت ومن ثم البعث والنشور، ففي الحديث أن موسى وفتاه نزلا عند صخرة "وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شيء إلا حيي فأصاب الحوت من ماء تلك العين قال فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر"(٣)، وفي هذا نكتة لطيفة، فمرة أخرى تصدم السورة كفار قريش بما كانوا يكرهون سماعه من إثبات البعث، قال البقاعي رحمه الله: (وفي هذا قاصمة للسائلين، إذ المراد أن هذا الأمر وقع لنبي هؤلاء المضلِّين، فمُر قريشاً أن يسألوهم عن هذه القصة، فإن أخبروهم عنها بمثل ما أخبرتهم فصدقوهم، لزمهم أن يؤمنوا بالبعث لأمر هذا الحوت الذي أحياه الله بعد أن كان مشوياً وصار كثير منه في البطون، وإن لم يصدقوهم في هذا وصدقوهم في غيره فهو تحكم، وإن

(١) صحيح البخاري ١/ ٥٦ (١٢٢).
(٢) صحيح البخاري ١/ ٤١ (٧٨).
(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٧ (٤٤٥٠).

كانوا يتهمونهم في كل أمر كان سؤالهم عبثاً، ليس من أفعال من يعقل)[١].

قوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾

قال البغوي: (﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ ذلك الموضع وهو مجمع البحرين ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾)[٢]، وقال ابن الجوزي: (﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ ذلك المكان الذي ذهب فيه الحوت، أصابهما النَّصَب، فدعا موسى بالطعام، فقال: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ وهو طعام الغداة)[٣]، وقال البقاعي: (فلما جاع وتعب ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا﴾ أي أحضر لنا ﴿غَدَآءَنَا﴾ لنتقوى به على الإعياء)[٤].

وقد يقال: ما الذي حمل موسى عليه السلام على مجاوزة مجمع البحرين وهو غايته التي يقصدها من هذا السفر؟ قال البقاعي: (كأن المجمع كان ممتداً، فظن موسى عليه السلام أن المطلوب أمامه، أو ظن أن المراد مجمع آخر فسار)[٥].

قال القرطبي: (قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ فيه مسألة، وهو اتخاذ الزاد في الأسفار، ردا على الصوفية الجهلة، الذين يقتحمون المهامة والقفار، زعما أن ذلك هو التوكل على الله الواحد القهار، هذا موسى نبي الله وكليمه من أهل الأرض قد اتخذ الزاد مع معرفته بربه، وتوكله على رب العباد)[٦].

وقوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٦٨.
(٢) تفسير البغوي ٥/ ١٨٦.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٣٧ بتصرف واختصار.
(٤) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٦٤ بتصرف واختصار.
(٥) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٦٤.
(٦) تفسير القرطبي ١١/ ١٣ بتصرف يسير.

قال الطبري: (يقول: لقد لقينا عناء وتعبا، وقال ذلك بعد ما جاوز الصخرة، حين ألقي عليه الجوع ليتذكر الحوت، ويرجع إلى موضعه)(١)، وقال القرطبي: (النصب: التعب والمشقة. وقيل: الجوع، وفيه دليل على جواز الإخبار بالألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدح في الرضا، ولا في التسليم للقضاء لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط)(٢). قال النبي ﷺ: "ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به"(٣).

لطيفة- قال ابن عطية: (قال أبي ﷺ سمعت أبا الفضل الجوهري يقول في وعظه: مشى موسى إلى المناجاة فبقي أربعين يوماً لم يحتج إلى طعام، ولما مشى إلى بشر لحقه الجوع في بعض يوم)(٤).

قوله : ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾

قال الطبري: (قال فتى موسى له حين قال: آتنا غداءنا: أرأيت إذا أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت هنالك)(٥)، وقال ابن الجوزي: (﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ فيه قولان؛ أحدهما: نسيتُ أن أخبرك. والثاني: نسيت حمل الحوت)(٦)، والصواب الأول لما في الحديث أنه رأى ذهاب الحوت في البحر، قال البغوي: (﴿ قَالَ ﴾ له فتاه وتذكر)، أي ما حصل من الحوت، قال: (قيل في الآية إضمار معناه: نسيت أن أذكر لك أمر الحوت)(٧).

قوله : ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٦٠ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير القرطبي ١١/ ١٤ بتصرف واختصار.
(٣) صحيح البخاري ٣/ ١١٩٤ (٣١٠٤)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).
(٤) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٣٢٣.
(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٦٠.
(٦) زاد المسير ٤/ ٢٣٧ بتصرف واختصار.
(٧) تفسير البغوي ٥/ ١٨٧.

قال البقاعي: (﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ﴾ مع كونه عجيباً ﴿إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بوساوسه، ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ لك فإنه عاش فانساب من المكتل في البحر)(١)، قال البغوي: (﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ أي: وما أنسانيه أن أذكر لك أمر الحوت إلا الشيطان، وقيل معناه أنسانيه لئلا أذكره)(٢). قال ابن عاشور: (وحصره إسناد الإنساء للشيطان، أنه ليس من شأنه أن يقع في زمن قريب مع شدة الاهتمام، والعناية بإخبار نبيه به، ومع كون المنسي أعجوبة لا تنسى، يتعين أن الشيطان ألهاه أن يتذكر، وعلم يوشع أن الشيطان يَسوؤه التقاء العبدين الصالحين، وما له من الأثر في بث العلوم الصالحة، فهو يصرف عنها ولو بتأخير وقوعها طمعاً في حدوث العوائق)(٣).

قال البقاعي: (وذكره له الآن مانع من أن يكون للشيطان عليه سلطان، على أن هذا الإنساء ليس مفوتاً لطاعة، بل فيه ترقية لهما في معارج المقامات لوجدان التعب بعد المكان الذي فيه البغية، وحفظ الماء منجاباً على طول الزمان وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل: ١٠٠] مبين أن السلطان الحمل على المعاصي)(٤).

وقد يقال: كيف ينسى يوشع أن يخبر بما رآه مع ما فيه من آية عجيبة، مع علمه بحرص موسى عليه السلام عليه؟ فيجاب عن الأول بأنه على غرابته ليس نادراً فقد رأى بنو إسرائيل مع موسى عليه السلام عجائب؛ كضرب الحجر بعصاه وانفجار الماء، وفرق البحر وعبور البحر، ونتق الجبل وصعقهم

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٦٥.

(٢) تفسير البغوي ٥/ ١٨٧.

(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٦٧ بتصرف يسير.

(٤) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٦٥ بتصرف يسير.

وبعثهم بعد الموت وغيرها من الآيات، ويجاب عنه وعن الثاني بما أجاب به يوشع الطَّيْلاِ إذ قال: (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره)، والله أعلم.

وقوله : ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾

قال ابن الجوزي: (الهاء في السبيل ترجع إلى الحوت. وفي المُتَّخِذ قولان؛ أحدهما: أنه الحوت، ثم في المخبِر عنه قولان؛

=أحدهما: أنه الله ﷻ، ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال:

أحدها: فاتخذ سبيله في البحر يُري عجباً، ويُحدث عجباً، والثاني: أنه لما قال: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ﴾، قال: اعجبوا لذلك عجباً، وتنَّبهوا لهذه الآية، والثالث: أن إخبار الله تعالى انقطع عند قوله: "في البحر" فقال موسى: عجباً، لِما شوهد من الحوت. ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري.

= والثاني: أن المُخْبِر يوشع، ووصف لموسى ما فعل الحوت.

-والقول الثاني: أن المتخِذ موسى، اتخذ سبيل الحوت في البحر عجباً، فدخل في المكان الذي مَرَّ فيه الحوت، فرأى الخَضِر. وروى عطية عن ابن عباس قال: رجع موسى إلى الصخرة فوجد الحوت، فجعل الحوت يضرب في البحر، ويتبعه موسى، حتى انتهى به إلى جزيرة من جزائر البحر، فلقي الخضر)[1]، والقول الأول أولى أن المتخِّذ هو الحوت، لقول موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي العلامة، والظاهر من السياق أن الكلام كله ليوشع الطَّيْلاِ، ولا موجب للعدول عنه.

وأما العجب فمن موسى وفتاه لحال الحوت التي بينها يوشع ثم رآى موسى أثرها في الماء بعدُ، يدل عليه قول النبي ﷺ: "فاتخذ سبيله في البحر

(١) زاد المسير ٤/ ٢٣٧.

سرباً، وكان لموسى وفتاه عجبا"[١]، قال الحافظ: (ولابن أبي حاتم من طريق قتادة قال: عجب موسى أن تسرب حوت مملح في مكتل)[٢]، وقال: (وروى ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال: فرجع موسى حتى أتى الصخرة فوجد الحوت فجعل موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء ويتبع الحوت وجعل الحوت لا يمس شيئا من البحر إلا يبس حتى يصير صخرة فجعل موسى يعجب من ذلك)[٣]. ونقل الطبري عن ابن زيد قوله: (أيّ شيء أعجب من حوت كان دهراً من الدهور يؤكل منه، ثم صار حياً حتى حشر في البحر، عن ابن عباس ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: يعني كان سرب الحوت في البحر لموسى عجبا)[٤].

لطيفة- فقد الحوت كان أمراً مكروهاً ليوشع عليه السلام لأن مهمته كانت الحفاظ عليه، لكنه علامة لقي العبد الصالح، قال سيد قطب رحمه الله: (كل إنسان في تجاربه يستطيع أن يجد في حياته مكروهات كان من ورائها الخير، ولذات كثيرة كان من ورائها الشر، وكم من مطلوب كاد يذهب حسرات على فوته؛ ثم تبين له أنه كان إنقاذاً من الله أن فوته عليه، وكم من محنة تجرعها الإنسان لاهثاً يكاد يتقطع لفظاعتها، ثم ينظر فإذا هي تنشئ له في حياته من الخير ما لم ينشئه الرخاء الطويل. إن الإنسان لا يعلم. والله يعلم. فماذا على الإنسان لو يستسلم؟ هذا هو المنهج التربوي الذي يأخذ القرآن به النفس لتؤمن وتسلم في أمر الغيب، بعد أن تعمل ما تستطيع في محيط السعي

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٥٦ (١٢٢).
(٢) فتح الباري ٨/ ٤١٦.
(٣) فتح الباري ٨/ ٤١٧ بتصرف يسير.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٦١.

المكشوف. إنه منهج في التربية عجيب. عميق بسيط. يعرف طريقه إلى مسارب النفس الإنسانية بالحق وبالصدق لا بالإيحاء الكاذب. فهو حق أن تكره النفس أمراً ويكون فيه كل الخير. وهو حق أن تحب النفس أمراً وفيه كل الشر. وهو الحق أن الله يعلم والناس لا يعلمون! وماذا يعلم الناس من أمر العواقب؟ ومما وراء الستر المسدل؟ ومن الحقائق التي لا تخضع للهوى والجهل والقصور؟! إنه الدخول في السلم من بابه الواسع، فما تستشعر النفس حقيقة السلم إلا حين تستيقن أن الخيرة فيما اختاره الله وأن الخير في طاعة الله دون أن تجرب ربها وأن تطلب منه البرهان! إن الإذعان الواثق والرجاء الهادئ والسعي المطمئن هي أبواب السلم الذي يدعو الله عباده ليدخلوا فيه كافة وهو يقودهم إليه بهذا المنهج العميق. في يسر. يقودهم بهذا المنهج إلى السلم حتى وهو يكلفهم فريضة القتال. فالسلم الحقيقي هو سلم الروح والضمير حتى في ساحة القتال)[1].

وقوله: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ قال الطبري: (فـ(قال) موسى لفتاه (ذلك) يعني: نسيانك الحوت (مَا كُنَّا نَبْغِ) يقول: الذي كنا نلتمس ونطلب)[2]، وقال القرطبي: (أي قال موسى لفتاه: أمر الحوت وفقده هو الذي كنا نطلب، فإن الرجل الذي جئنا له ثَمَّ)[3]، وقال ابن عاشور: (والإشارة بذلك إلى ما تضمنه خبر الفتى من فقد الحوت. ومعنى كونه المبتغى أنه وسيلة. والمبتغى لقاء العبد الصالح، والنون نون المتكلم المشارك، أي ما أبغيه أنا وأنت، وكلاهما يبغي ملاقاة العبد الصالح)[4].

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٢٣ بتصرف يسير.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٦١.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ١٥.
(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٦٨ بتصرف يسير.

قوله : ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾

قال ابن كثير: (﴿فَارْتَدَّا﴾ أي: رجعا ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمَا﴾ أي: طريقهما ﴿قَصَصًا﴾ أي: يقصان أثر مشيهما، ويقفوان أثرهما)(١)، قال ابن عاشور: (والقصص: مصدر قص الأثر، إذا توخى متابعته كيلا يخطئا الطريق)(٢).

قوله : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾

قال القرطبي: (العبد هو الخضر عليه السلام في قول الجمهور، وبمقتضى الأحاديث الثابتة. وخالف من لا يعتد بقوله، فقال: ليس صاحب موسى بالخضر بل هو عالم آخر. وحكى أيضاً هذا القول القشيري، قال: وقال قوم هو عبد صالح، والصحيح أنه كان الخضر، بذلك ورد الخبر عن النبي ﷺ)(٣)، وقد ثبت هذا في غير حديث، فعن ابن عباس "أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري(٤) في صاحب موسى، قال ابن عباس: هو خضر. فمر بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل موسى السبيل إلى لقيه هل سمعت النبي ﷺ يذكر شأنه؟ قال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال موسى لا فأوحى الله إلى موسى بلى عبدنا خضر"(٥)، وهذا

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧٥.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٦٩.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ١٦.
(٤) قال الحافظ في الفتح ١/ ١٦٩: هو بضم الحاء وتشديد الراء المهملتين وهو صحابي مشهور ذكره ابن السكن وغيره.
(٥) صحيح البخاري ١/ ٤٠ (٧٤)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

الذي كان من الحر ﷺ كان قبل أن يسمع حديث النبي ﷺ، لأنه لم يتابع مراء ابن عباس، فكان فيما قاله أُبيٌّ فصل الخطاب، ﷺ وعن الصحابة جميعاً.

قال ابن عاشور: (والمراد بالعبد: الخضر، ووصف بأنه من عباد الله تشريفا، كما تقدم عند: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، وعدل عن الإضافة إلى التنكير والصفة لأنه لم يسبق ما يقتضي تعريفه، وإشارة إلى أن هذا الحال الغريب كحال عباد كثيرين لله، وما منهم إلا له مقام معلوم)(١).

وقد اختُلف هل وجد موسى الخضر في ذلك الموضع على البحر كما هو الظاهر، أو دخل الكوة متبعًا أثر الحوت حتى وجد الخضر، قال القرطبي: (وجمهور المفسرين أن الحوت بقي موضع سلوكه فارغاً، وأن موسى مشى عليه متبعاً للحوت، حتى أفضى إلى جزيرة، وفيها وجد الخضر. وظاهر الكتاب أنه وجده في ضفة البحر)(٢)، ومسلك ابن حجر رحمه الله الجمع بين الأمرين؛ قال: (وفي رواية سفيان "حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل"، وزعم الداودي أنها وهم وأنهما وجداه في جزيرة البحر. قلتُ: ولا مغايرة بينهما، فإنهما لما انتهيا إلى الصخرة تتبعاه فوجداه في الجزيرة. ووقع عند مسلم: "فأراه مكان الحوت فقال: هاهنا وصف لي، فذهب يلتمس فإذا هو بالخضر"، وروى ابن أبي حاتم من طريق الربيع بن أنس قال: انجاب الماء عن مسلك الحوت فصار كوة فدخلها موسى على أثر الحوت فإذا هو بالخضر، وروى ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال فرجع موسى حتى أتى الصخرة فوجد الحوت فجعل موسى

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٦٩.

(٢) تفسير القرطبي ١١/ ١٢ بتصرف واختصار.

يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء ويتبع الحوت وجعل الحوت لا يمس شيئا من البحر إلا يبس حتى يصير صخرة فجعل موسى يعجب من ذلك حتى انتهى إلى جزيرة في البحر فلقي الخضر)(١)، والله أعلم.

وقوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾

قال الطبري: (يقول: وهبنا له رحمة من عندنا ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ يقول: وعلمناه من عندنا أيضاً علماً)(٢)، وقال ابن عاشور: (و ﴿مِن﴾ ابتدائية، أي آتيناه رحمة صدرت من مكان القرب، أي الشرف وهو قرب تشريف بالانتساب إلى الله، وعلماً صدر منه أيضاً)(٣).

قال ابن الجوزي: (في هذه الرحمة ثلاثة أقوال؛ أحدها: النبوَّة، قاله مقاتل، والثاني: الرِّقة والحُنُوُّ على من يستحقه، ذكره ابن الأنباري، والثالث: النِّعمة، قاله أبو سليمان الدمشقي. قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿عِلْمًا﴾ قال ابن عباس: أعطاه عِلْماً من عِلْم الغيب)(٤)، قال ابن عطية: (كان علم الخضر معرفة بواطن قد أوحيت إليه)(٥).

قال الألوسي: (﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ قيل المراد بها الرزق الحلال والعيش الرغد، وقيل العزلة عن الناس وعدم الاحتياج إليهم، وقيل طول الحياة مع سلامة البنية، والجمهور على أنها الوحي والنبوة وقد أطلقت على ذلك في مواضع من القرآن، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم عن ابن عباس،

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤١٧ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٦٢.
(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٦٩.
(٤) زاد المسير ٤/ ٢٣٨ بتصرف يسير.
(٥) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٣٢٥.

وهذا قول من يقول بنبوته ﷺ)[١].

قال ابن عاشور: (و(عند) و(لدن) اسم مكان قريب، ويستعملان مجازاً في اختصاص المضاف إليه بموصوفها، والمخالفة بين ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ و﴿مِن لَّدُنَّا﴾ للتفنن تفادياً من إعادة الكلمة)[٢]، والأصوب ما قاله الراغب: (لدن أخص من (عند) ؛ لأنه يدل على ابتداء نهاية. نحو أقمت عنده من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، فيوضع موضع نهاية الفعل. وقد يوضع موضع (عند). يقال: أصبت عنده مالا، ولدنه مالا. قال بعضهم: لدن أبلغ من عند وأخص)[٣]، قال الألوسي: (وذكر ﴿لَّدُنَّا﴾ قيل لأن العلم من أخص صفاته الذاتية وقد قالوا: القدرة لا تتعلق بشيء ما لم تتعلق الإرادة وهي لا تتعلق ما لم يتعلق العلم فالشيء يعلم أولا فيراد فتتعلق به القدرة فيوجد. ويفهم من فحوى ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ أو من تقديمه على ﴿عِلْمًا﴾ اختصاص ذلك بالله كأنه قيل علماً يختص بنا ولا يعلم إلا بتوقيفنا)[٤].

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣١٦.

(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٦٩ بتصرف واختصار.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن ٢/ ٣٣٦ بتصرف واختصار.

(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣٣٠ بتصرف واختصار.

حقيقة العلم اللدني

قال الفيروزابادي: (العِلْم اللدنِّي: ما يحصل للعبد بغير واسطة، بل إلهام من الله؛ كما حصل للخضر ﷺ بغير واسطة؛ قال تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا﴾ إِذْ لم يكن نيلهما على يد بشر. وكان من لدنْه أخصّ وأقرب ممّا عنده، ولهذا قال: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ فالسلطان النصير الذي من لدنه أَخصّ من الذي عنده وأَقرب. وهو نَصْره الذي أيَّده به، والذي عنده نصره بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. والعلم اللدنِّي ثمرة العبوديَّة والمتابعة والصدق والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقِّى العلم من المشكاة المحمدية والكتاب المجيد، وكمال الانقياد له. فيُفتح له من فهم الكتاب والسنَّة أمر يُخَصّ به، كما قال عليٌّ وقد سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا والذي فَلَقَ الحبَّة، وبَرَأَ النَسَمة إلاَّ فَهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه. فهذا هو العِلم اللدُنِّيّ الحق، وأَمّا علم مَن أَعرض عن الكتاب والسنَّة فهو من لدن النفس والشيطان. فهو لدنيّ ولكن من لدن من؟ وإنما يعرف كون العلم لدنيّا روحانياً[1] بموافقته ما جاءَ به الرسول ﷺ عن ربّه ﷻ. فالعلم اللَّدُنيّ نوعان: لدنِّيٌّ رحمانيّ، ولدنيّ شيطانيّ)[2].

ومن ذلك حديث النبي ﷺ: "لقد كان فيما كان قبلكم من الأمم ناس مُحَدَّثُون، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر"[3]، ولهذا وافق حكم الله ﷻ

---

(١) يريد رحمانياً.

(٢) بصائر ذوى التمييز ١/ ١٣٦٣ بتصرف واختصار.

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٣٤٩ (٣٤٨٦).

مرات، قال ﷺ: (وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ، فِي مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ، وَفِي الْحِجَابِ، وَفِي أُسَارَى بَدْرٍ)[1]، وقال: (وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الغَيْرَةِ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُنَّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ)[2].

وهذا الباب فيه خطورة إذ دخل منه المحرفون من الصوفية وغيرهم، والدجالون المشعوذون، فيأتون بالمنكرات والأوابد ثم يقولون هذا العلم اللدني في كتاب الله، وكذبوا بل من الشيطان، إذ يشترط في الأول ألا يخالف الكتاب و السنة، وأن يعرف صاحبه بالصلاح وحسن السيرة.

فائدة- في مناسبة طلب موسى لقاء الخضر، قال الطبري: (وكان سبب سفر موسى ﷺ أن موسى سئل: هل في الأرض، أعلم منك؟ فقال: لا، أو حدّثته نفسه بذلك، فكره ذلك له، فأراد الله تعريفه أن من عباده في الأرض من هو أعلم منه، وأنه لم يكن له أن يحتم على ما لا علم له به، وكان ينبغي أن يكل ذلك إلى عالمه)[3]. فكأن المعنى: مع أن موسى رسولنا الذي اصطفيناه برسالاتنا وكلامنا إلا أننا برحمتنا أعطينا الخضر من العلم ما لم نعط موسى عليه السلام، ففي الآية أن الله ﷻ يختص برحمته من يشاء، وأن أحداً لا ينبغي أن يجزم من تلقاء نفسه أن أحداً لا يبلغ مقامه عند الله، فقد فضل الله بعض النبيين على بعض، وفضل نبينا ﷺ على سائر ولد آدم؛ لقوله عليه السلام: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة"[4]، ومع ذلك يقول: "إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٨٦٥ (٢٣٩٩).
(٢) صحيح البخاري ١/ ٨٩ (٤٠٢).
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٦٢ بتصرف واختصار.
(٤) صحيح مسلم ٤/ ١٧٨٢ (٢٢٧٨).

إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة"[1]، قال المباركفوري: (أبهمه تواضعاً)[2]، وقال المناوي: ("وأرجو" أي أؤمل "أن أكون أنا هو" أي ذلك العبد، على طريق الترجي تأدباً وتشريعاً، لأنه إذا كان أفضل الأنام فلمن يكون ذلك المقام)[3].

قوله : ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾

قال أبو جعفر النحاس: (هذا سؤال الملاطف والمخاطب المبالغ في حسن الأدب، والمعنى: هل يتفق لك ويخف عليك أن تأذن لي في مرافقتك)[4]، وقال ابن عاشور: (والاستفهام في: "هل أتبعك" للعَرْض بقرينة أنه استفهام عن عمل نَفس المستفهِم)[5]. قال ابن كثير: (سؤال بتلطف، لا على وجه الإلزام. وهكذا ينبغي سؤال المتعلم. وقوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ أي: أصحبك وأرافقك، ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ أي: مما علمك الله، شيئًا أسترشد به في أمري، من علم نافع وعمل صالح)[6]، وقال البقاعي: (﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ ﴾ طالباً على سبيل التأدب والتلطف في قالب الاستئذان: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ أي: حيث توجهت. والاتباع: الإتيان بمثل فعل الغير لمجرد كونه آتياً به؛ وبيّن أنه لا يطلب منه غير العلم بقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ ﴾ وزاد في التلطف بأنه لا يطلب جميع ما عنده ليطول عليه الزمان،

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٢٨٨ (٣٨٤).
(٢) تحفة الأحوذي ١٠/ ٥٨.
(٣) فيض القدير ١/ ٣٨٤ بتصرف واختصار.
(٤) معاني القرآن ٤/ ٢٦٧.
(٥) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٦٩ بتصرف واختصار.
(٦) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨١ بتصرف واختصار.

بل جوامع منه يسترشد بها إلى باقيه فقال: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ وبناه للمفعول لعلم المخاطبين أن الفاعل هو الله، وللإشارة إلى سهولة كل أمر على الله ﷻ ﴿رُشْدًا﴾ أي يرشدني إلى الصواب فيما أقصد وأتى ﷺ بهذه الأنواع من الآداب والإبلاغ في التواضع لرسوخه في العلم، لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر، كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر، فكان طلبه لها أشد، فكان تعظيمه لأرباب العلوم أكمل)[1].

فائدة- قال الفيروزابادي: الاتباع: (ورد في التَّنزيل على سبعة أَوجه:

الأَوّل: بمعنى الصّحبة: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ أي أَصحَبُك، ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ أي صَحِبك.

الثاني: بمعنى الاقتداءِ: ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾: اقتدوا به.

الثَّالث: بمعنى الثبات: ﴿اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي دُم واثْبتْ عليها.

الرّابع: بمعنى الاختيار والموافقة: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الخامس: بمعنى العمل: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾.

السّادس: بمعنى التَّوجُّه إلى الكعبة، أَو إِلى بيت المقدس في الصّلاة ﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾.

السّابع: بمعنى الطاعة ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لأَطعتم)[2].

قوله: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾

قال ابن كثير: (﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي: لا تقدر أن تصاحبني لما ترى من الأفعال التي تخالف شريعتك؛ فكل منا

---

(١) نظم الدرر ٥/ ١٦٩ بتصرف واختصار.

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١/ ٤٣٩ بتصرف واختصار.

مكلف بأمور من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتي)[١]، قال البغوي: (وإنما قال ذلك لأنه علم أنه يرى أمورا منكرة ولا يجوز للأنبياء أن يصبروا على المنكرات)[٢]، وقال ابن الجوزي: (وفي هذا الصبر وجهان؛ أحدهما: على الإنكار، والثاني: عن السؤال)[٣]. ولعلم الخضر بما في صحبة موسى له من مشقة لما سيراه مما ينكره أكد له عدم قدرته على الصبر بمؤكدات، قال ابن عاشور: (وأكد الجملة بحرف (إن) وبحرف (لن) تحقيقاً لمضمونها من توقع ضيق ذرع موسى عن قبول ما يبديه إليه، لأنه علم أنه تصدر منه أفعال ظاهرها المنكر وباطنها المعروف، وزادها تأكيدا عموم الصبر المنفي، لوقوعه نكرة في سياق النفي، وأن المنفي استطاعته الصبر، المفيد أنه لو تجشم أن يصبر لم يستطع ذلك، فأفاد هذا التركيب نفي حصول الصبر منه في المستقبل على آكد وجه. وزيادة "معي" إيماء إلى أنه يجد من أعماله ما لا يجد مثله مع غيره فانتفاء الصبر على أعماله أجدر)[٤].

قال ابن عاشور: (وهذا تحذير منه لموسى وتنبيه على ما يستقبله منه حتى يقدم على متابعته على بصيرة وعلى غير اغترار، وليس المقصود الإخبار. فمناط التأكيدات في إنك لن تستطيع معي صبرا، هو تحقيق خطورة أعماله وغرابتها بحيث لا تتحمل، ولو كان خبرا على أصله لم يقبل

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨١ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير البغوي ٥/ ١٨٩.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٣٩.
(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧١ بتصرف واختصار.

فيه المراجعة، ولم يجبه موسى بقوله: ستجدني إن شاء الله صابراً)[١].

قوله: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾

قال الطبري: (وكيف تصبر يا موسى على ما ترى مني من الأفعال التي لا علم لك بوجوه صوابها، وتقيم معي عليها، وأنت إنما تحكم على صواب المصيب وخطأ المخطئ بالظاهر الذي عندك، وبمبلغ علمك، وأفعالي تقع بغير دليل ظاهر لرأي عينك على صوابها، لأنها تبتدئ لأسباب تحدث آجلة غير عاجلة، لا علم لك بالحادث عنها، لأنها غيب، ولا تحيط بعلم الغيب ﴿خُبْرًا﴾ يقول علماً)[٢]، وقد بين له مرجع ذلك فقال: "إنك لن تستطيع معي صبراً يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه"[٣]، قال القرطبي: (والأنبياء لا يقِرُّون على منكر، لا يجوز لهم التقرير. أي لا يسعك السكوت جرياً على عادتك وحكمك)[٤]. قال ابن عاشور: (و{كيف} للاستفهام الإنكاري في معنى النفي، أي لا تصبر على ما لم تحط به خبراً، والإحاطة: مجاز في التمكن، تشبيها لقوة تمكن الاتصاف، بتمكن الجسم المحيط)[٥]. قال البقاعي: (والمعنى أنك لا تستطيع الصبر الذي أريده لأنك لا تعرف فعلي على ما هو عليه فتراه فاسداً)[٦].

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧١ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٧١.
(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٢ (٤٤٤٨).
(٤) تفسير القرطبي ١١/ ١٧.
(٥) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٢ بتصرف واختصار.
(٦) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٧٠.

قال الطبري: (﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ على ما أرى منك، وإن كان خلافاً لما هو عندي صواب، ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا﴾ يقول: وأنتهي إلى ما تأمرني، وإن لم يكن موافقاً هواي)[1]، وقال القرطبي: (أي سأصبر بمشيئة الله... وقد اختلف في الاستثناء، هل هو يشمل قوله: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا﴾ أم لا؟ فقيل: يشمله... وقيل: استثنى في الصبر فصبر، وما استثنى في قوله: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا﴾ فاعترض وسأل، قال علماؤنا: إنما كان ذلك منه، لأن الصبر أمر مستقبل ولا يدرى كيف يكون حاله فيه، ونفي المعصية معزوم عليه حاصل في الحال، فالاستثناء فيه ينافي العزم عليه)[2].

قال البقاعي: (﴿قَالَ﴾ أي موسى عليه السلام، آتياً بنهاية التواضع لمن هو أعلم منه، إرشاداً لما ينبغي في طلب العلم رجاء تسهيل الله له والنفع به: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ فأكد الوعد بالسين؛ ثم قوّى تأكيده بالتبرك بذكر الله تعالى لعلمه بصعوبة الأمر، على ما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ﴾ الآية، ليُعلَم أنه منهاج الأنبياء وسبيل الرسل، فقال تعالى: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿صَابِرًا﴾ على ما يجوز الصبر عليه)[3].

قال ابن عاشور: (وقوله: ستجدني أبلغ من نحو: سأصبر، لأنه يدل على حصول صبر ظاهر لمتبوعه. وظاهر أن متعلق الصبر ما من شأنه أن يثير الجزع أو الضجر؛ من تعب المتابعة، ومشاهدة ما لا يتحمله إدراكه، ومن ترقب بيان الأسباب والعلل والمقاصد. ولما كان هذا الصبر الكامل يقتضي طاعة الآمر عطف عليه ما يفيد الطاعة إبلاغا في الاتسام بأكمل

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٧١.
(٢) تفسير القرطبي ١١/ ١٧.
(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٧٠ بتصرف واختصار.

أحوال طالب العلم، فجملة ولا أعصي معطوفة على جملة ستجدني، لأن أهم ما يتسم به طالب العلم الصبر والطاعة للمعلم)[1].

لطيفة- ذكر ابن عاشور ﵀ فرقاً لطيفاً بين طالب العلم المبتدئ، والمتقدم فقال: (وفي تأكيده ذلك [أي الصبر وعدم معصية أمر الخضر] بالتعليق على مشيئة الله -استعانة به وحرصا على تقدم التيسير تأدبا مع الله- إيذان بأن الصبر والطاعة من المتعلم الذي له شيء من العلم أعسر من صبر وطاعة المتعلم الساذج، لأن خلو ذهنه من العلم لا يحرجه من مشاهدة الغرائب، إذ ليس في ذهنه من المعارف ما يعارض قبولها، فالمتعلم الذي له نصيب من العلم وجاء طالبا كمال علومه إذا بدا من أستاذه ما يخالف علمه يبادر إلى الاعتراض. وذلك قد يثير النفرة بينه وبين أستاذه، فلتجنب ذلك خشي الخضر أن يلقى من موسى هذه المعاملة فقال: إنك لن تستطيع معي صبرا إلخ، فأكد له موسى أنه يصبر ويطيع أمره إذا أمره، والتزام موسى ذلك مبني على ثقته به لأن الله أخبره بأنه آتاه علما)[2].

قوله: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

قال القرطبي: (وهذا تأديب وإرشاد لما يقتضي دوام الصحبة، فلو صبر لرأى العجب، لكنه أكثر من الاعتراض فتعين الفراق والإعراض)[3].

قال ابن عطية: (قرَّب له موسى الأمر بوعده أنه سيجده، ثم استثنى حين حكم على نفسه بأمر، فقوَّى الخضر وصاته وأمره بالإمساك عن

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٢ بتصرف واختصار.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٢ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ١٨ بتصرف واختصار.

السؤال والإكنان لما يراه حتى يبتدئه الخضر لشرح ما يجب شرحه)[1]، قال ابن كثير: (فعند ذلك [أي وعد موسى بالصبر وعدم المعصية] شارطه الخضر ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ ﴾ أي: ابتداءً ﴿ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴾ أي: حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني)[2]، قال البغوي: (﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي ﴾ فإن صحبتني، ولم يقل: اتبعني، ولكن جعل الاختيار إليه، إلا أنه شرط عليه شرطا فقال: ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ ﴾ أعمله مما تنكر، ولا تعترض ﴿ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴾ حتى أبين لك شأنه)[3]، قال ابن عاشور: (والذكر هنا: ذكر اللسان. وإحداث الذكر: إنشاؤه وإبرازه)[4]، قال النحاس: (أي إن إنكرته فلا تعجل بالمسألة، إلى أن أبين لك الوجه فيه، وحتى أفسره لك. شرط عليه قبل بدء الرحلة ألا يسأله ولا يستفسر عن شيء حتى يكشف له عن سرها، فقبل موسى شرطه رعاية لأدب المتعلم مع العالم)[5].

وفي الآية جواز أن يشترط العالم على تلميذه ما يشاء إن أراد مصاحبته بما ليس بمحرم، وكذلك كل رفقة في سفر أو غيره يجوز فيها الشرط على ما سبق.

قوله: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴾ يبين الله ﷻ أنهما بادرا للمسير حال انتهائهما من الاتفاق، ولهذا جاء بالفاء، قال ابن عاشور: (أي فعقب تلك المحاورة أنهما انطلقا. والانطلاق: الذهاب والمشي، مشتق من الإطلاق ضد التقييد، لأن الدابة

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٣٢٦.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨١.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨١ بتصرف واختصار.
(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٣.
(٥) معاني القرآن ٤/ ٢٦٩ بتصرف واختصار.

إذا حل عقالها مشت. فأصله مطاوع أطلقه. و(حتى) غاية للانطلاق، أي إلى أن ركبا السفينة، وتعريف السفينة للعهد الذهني، كقوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣]. وإذا ظرف مان ماض هنا، ولا تتضمن معنى الشرط. وهذا التوقيت يؤذن بخرقه السفينة حين ركوبها، وبني نظم الكلام على تقديم الظرف على عامله لأن الخرق وقع بمجرد الركوب في السفينة، والخرق: الثقب والشق، ضد الالتئام، والاستفهام في أخرقتها للإنكار، وعلله بقوله: لتغرق أهلها، لأن العلة ملازمة للفعل المستفهم عنه. ولذلك توجه أن يغير موسى عليه السلام هذا المنكر في ظاهر الأمر، وتأكيد إنكاره بقوله: لقد جئت شيئا إمرا)[١]، قال القرطبي: (ولم يقل لتغرقني، لأن الذي غلب عليه في الحال فرط الشفقة عليهم، ومراعاة حقهم)[٢].

قال النبي ﷺ: "فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكلماهم أن يحملوهما فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول"[٣]، وفي رواية: "عرفوه فقالوا: عبد الله الصالح لا نحمله بأجر"[٤]، فكان في إكرام القوم لهما ما زاد من فظاعة فعل الخضر، ولذا قال موسى عليه السلام: "قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئا إمراً!"[٥].

قال الطبري: (الإمر في كلام العرب: الداهية، ومنه قول الراجز:

قَدْ لَقِيَ الأَقْرَانُ مِنِّي نُكْرَا   دَاهِيَةً دَهْياءَ إِدًّا إِمْرَا

وكان بعض أهل العلم يقول: أصله: كل شيء شديد كثير، ويقول:

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٤ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير القرطبي ١١/ ١٩
(٣) صحيح البخاري ١/ ٥٦ (١٢٢)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).
(٤) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٤ (٤٤٤٩).
(٥) صحيح البخاري ٦/ ٩٢ (٤٧٢٧)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٩ (٢٣٨٠).

منه قيل للقوم: قد أَمِروا إذا كثروا واشتدّ أمرهم، قال: والمصدر منه: الأمَرَ، والاسم: الإمْر)[1]، وقال ابن الجوزي: (﴿لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا﴾ وفيه ثلاثة أقوال؛ أحدها: منكراً، قاله مجاهد، وقال الزجاج: عظيماً من المنكر، والثاني: عجباً، قاله قتادة، وابن قتيبة، والثالث: داهية، قاله أبو عبيدة)[2].

قال ابن عاشور: (الإمر بالكسر: العظيم المفظع، أَمِر كفَرِح إِمراً، إذا كثر في نوعه. ولذلك فسره الراغب بالمنكر، لأن المقام دال على شيء ضارّ. ومقام الأنبياء في تغيير المنكر مقام شدة وصراحة. ولم يجعله نُكراً كما في الآية بعدها لأن الذي عمله الخضر ذريعة للغرق، ولم يقع بالفعل)[3].

قوله : ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾

قال ابن كثير: (فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط: ﴿أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾، يعني وهذا الصنيع فعلتُه قصدًا، وهو من الأمور التي اشترطت ألا تنكر عليّ فيها، إذ لم تحط بها خبرًا، ولها مصلحة ولم تعلمها أنت)[4]، وقال ابن عاشور: (استفهام تقرير وتعريض باللوم على عدم الوفاء بما التزم، أي أتقر أني قلت ذلك؟ و"معي" ظرف متعلق بـ"تستطيع"، فاستطاعة الصبر المنفية هي التي تكون في صحبته لأنه يرى أمورا عجيبة لا يدرك تأويلها، وحذف متعلق القول تنزيلاً له منزلة

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٧٢ بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٤٠.
(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٥ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٢ بتصرف واختصار.

اللازم، أي ألم يقع مني قول فيه خطابك بعدم الاستطاعة؟)(١).

وقوله: ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾

قال ابن كثير: (﴿ قَالَ ﴾ أي موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ أي: لا تضيق عليَّ وتُشدد عليَّ)(٢)، قال ابن سيده: (أخذه بذنبه: عاقبهُ، وفي التنزيل: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ﴾... وآخذه: كأخذه، وفي التنزيل: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا ﴾)(٣). قال ابن عاشور: (المؤاخذة: مفاعلة من الأخذ، وهي هنا للمبالغة لأنها من جانب واحد كقوله: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم ﴾ [النحل: ٦١]، و(ما) مصدرية، أي بنسياني. والإرهاق: تعدية رهق، إذا غشي ولحق، أي لا تُغشني عسرا والعسر: الشدة وضد اليسر. والمراد: عسر المعاملة، أي عدم التسامح فيما فعله فهو يسأله الصفح. والأمر: الشأن. و (مِن) إما ابتدائية، فيكون المراد بأمره نسيانه، أي لا تجعل نسياني منشئا لإرهاقي عسرا. وإما بيانية فيكون المراد بأمره شأنه معه، أي لا تجعل شأني إرهاقك إياي عسرا)(٤).

قال ابن الجوزي: (في هذا النسيان ثلاثة أقوال؛ أحدها: أنه على حقيقته، روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ "أن الأولى كانت نسياناً من موسى". والثاني: أنه من معاريض الكلام، قاله أُبيّ وابن عباس. والثالث: بمعنى التَّرك، فالمعنى: لا تؤاخذني بما تركته مما عاهدتك عليه، ذكره ابن الأنباري)(٥). قال الزمخشري: (﴿بِمَا نَسِيتُ ﴾ : بالذي نسيته، أو بشيء

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٦ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٣.

(٣) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ٢/ ٣٤٨.

(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٦ بتصرف واختصار.

(٥) زاد المسير ٤/ ٢٤٠ بتصرف واختصار.

نسيته، أو بنسياني: أراد أنه نسي وصيته ولا مؤاخذة على الناسي. أو أخرج الكلام في معرض النهي عن المؤاخذة بالنسيان؛ ليبسط عذره في الإنكار، وهو من المعاريض التي يُتَقى بها الكذب مع التوصل إلى الغرض، كقول إبراهيم: هذه أختي، وإني سقيم. أو أراد الترك، أي: لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرّة)[1]، وقال القرطبي: (في معناه قولان: الآخر أنه نسي فاعتذر، ففيه أن النسيان لا يقتضي المؤاخذة، ولا يدخل تحت التكليف، ولا يتعلق به حكم طلاق ولا غيره، ولو نسي في الثانية لاعتذر)[2].

قال أبو حيان: (الظاهر حمل النسيان على وضعه. وقد قال ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسياناً» وهذا قول الجمهور، ولا يعتمد إلاّ قول الرسول)[3]، يعني قوله ﷺ: "كانت الأولى نسياناً والوسطى شرطاً والثالثة عمداً"[4]، وهو الصواب، قال الحافظ: (وروى الفراء عن أبي قال: لم ينس موسى ولكنه من المعاريض، وإسناده ضعيف والأول المعتمد، ولو كان هذا ثابتا لاعتذر موسى عن الثانية والثالثة بنحو ذلك)[5]، وهذا واضح فلمّا لم يعتذر بالنسيان من الثانية والثالثة دل على أنه في الأولى حقيقي. قال الحافظ: (فإن قيل: ترك مؤاخذته بالنسيان متجه وكيف واخذه؟ قلنا: بعموم شرطه الذي التزمه، فلما اعتذر بالنسيان علم أنه خارج بحكم الشرع من

(١) الكشاف ٤/ ٣٩ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير القرطبي ١١/ ٢٠ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٧٧ بتصرف واختصار.
(٤) صحيح البخاري ٢/ ٩٧٢ (٢٥٧٨).
(٥) فتح الباري ٨/ ٤١٩ بتصرف واختصار.

عمومه)[١].

قال ابن عاشور: (النهي مستعمل في التعطف والتماس عدم المؤاخذة، لأنه قد يؤاخذه مؤاخذة من لا يصلح للمصاحبة لما ينشأ عن النسيان من خطر، فالحَزامة الاحتراز من صحبته، ولذلك بني كلام موسى على طلب عدم المؤاخذة بالنسيان ولم يبن على الاعتذار بالنسيان، كأنه رأى نفسه محقوقاً بالمؤاخذة، فكان كلاما بديع النسيج في الاعتذار)[٢].

وقوله: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ قال ابن عاشور: (يدل تفريع قوله: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا﴾ عن اعتذار موسى، على أن الخضر قبل عذره وانطلقا، وقوله: فقتله تعقيب لفعل لقيا تأكيدا للمبادرة المفهومة من تقديم الظرف، فكان ذلك أسرع من المبادرة بخرق السفينة. وكلام موسى في الإنكار جرى على نسق كلامه في خرق السفينة سوى أنه وصف هذا بأنه نكر، وهو الذي تنكره العقول وتستقبحه، فهو أشد من الإمر، لأنه فساد حاصل والآخر ذريعة فساد)[٣].

قال ابن كثير: (يقول تعالى: ﴿فَانطَلَقَا﴾ أي: بعد ذلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾، فروي أنه احتز رأسه، وقيل: رضخه بحجر. وفي رواية: اقتطفه بيده)[٤]، قال القرطبي: (ولا اختلاف بين هذه الثلاثة، فإنه يحتمل أن يكون دمغه أولاً بالحجر، ثم أضجعه فذبحه، ثم اقتلع رأسه)[٥].

قال ابن كثير: (فلما شاهد موسى، عليه السلام، هذا أنكره أشد من الأول،

---

(١) فتح الباري ١١/ ٥٥٤.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٦ بتصرف واختصار.
(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٧ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٣ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير القرطبي ١١/ ٢١ بتصرف واختصار.

وبادر فقال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أي صغيرة لم تعمل الحنث، فقتلته ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير مستند لقتله؟! ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ أي: ظاهر النكارة)[1].

قال ابن الجوزي: (قرأ الكوفيون وابن عامر: «زكيَّة» بغير ألف، وقرأ الباقون بالألف من غير تشديد. قال الكسائي: هما لغتان بمعنى، وهما بمنزلة القاسية والقَسيّة. وللمفسرين فيها ستة أقوال:

أحدها: التائبة، روي عن ابن عباس وبه قال الضحاك.

والثاني: المُسلِمة، روي عن ابن عباس أيضاً.

والثالث: التي لم تبلغ الخطايا، قاله سعيد بن جبير.

والرابع: النامية، قاله قتادة. وقال ابن الأنباري: القويمة في تركيبها.

والخامس: المطهرة، قاله أبو عبيدة.

والسادس: البريئة التي لم يظهر ما يوجب قتلها، قاله الزجاج.

وقد فَرَّق بعضهم بين الزاكية والزكيَّة، فروي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: الزاكية: التي لم تذنب قطُّ، والزكية: التي أذنبت ثم تابت. وروي عن أبي عبيدة أنه قال: الزاكية في البدن، والزكية في الدِّين)[2].

قال الطبري: (وقوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يقول: بغير قصاص بنفس قتلت، فلزمها القتل قودا بها، وقوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ يقول: لقد جئت بشيء منكر، وفعلت فعلا غير معروف)[3]. قال البغوي: (قال قتادة: النكر أعظم من الإمر لأنه حقيقة الهلاك وفي خرق السفينة كان خوف الهلاك، وقيل:

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٣ بتصرف واختصار.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٤٠ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٧٥.

الإمر أعظم لأنه كان فيه تغريق جمع كثير)[1].

قال ابن عطية: (واختلف أيهما أبلغ قوله: ﴿إِمۡرٗا﴾ أو ﴿نُّكۡرٗا﴾ فقالت فرقة هذا قتل بين وهناك مترقب فـ ﴿نُّكۡرٗا﴾ أبلغ وقالت فرقة هذا قتل واحد وذلك قتل جماعة فـ﴿إِمۡرٗا﴾ أبلغ وعندي أنهما لمعنيَيْن فـ﴿إِمۡرٗا﴾ أفظع وأهول من حيث هو متوقع عظيم، و﴿نُّكۡرٗا﴾ أبين في الفساد لأن مكروهه قد وقع)[2]، وقال الزمخشري: (وقيل: معناه جئت شيئاً أنكر من الأوّل، لأن ذلك كان خرقاً يمكن تداركه بالسدّ، وهذا لا سبيل إلى تداركه)[3].

مسألة- هل كان الغلام بالغاً؟

قال القرطبي: (اختلف في الغلام أكان بالغاً أم لا؟ قال الكلبي: كان بالغاً يقطع الطريق بين قريتين، وأبوه من عظماء إحداهما، وأمه من عظماء الأخرى، فأخذه الخضر فصرعه، ونزع رأسه، وقال الجمهور: لم يكن بالغاً، ولذلك قال موسى زاكية لم تذنب، وهو الذي يقتضيه لفظ الغلام، فإنه يقال لمن لم يبلغ. وقتله الخضر لما علم من سَيرِه، وأنه طُبع كافراً كما في الحديث، وأنه لو أدرك لأرهق أبويه كفراً. وقتل الصغير غير مستحيل إذا أذن الله، فإنه الفعال لما يريد، القادر على ما يشاء، واحتج أهل القول الأول بأن العرب تبقي على الشاب اسم الغلام، ومنه قول ليلى الأخيلية:

شفاها من الداء العضال الذي بها ... غلام إذا هز القناة سقاها

وقال صفوان لحسان:

تلق ذباب السيف عني فإنني ... غلام إذا هُوجِيتُ لست بشاعر

وفي الخبر: إن هذا الغلام كان يفسد في الأرض، ويقسم لأبويه أنه ما

(١) تفسير البغوي ٥/ ١٩١.
(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٣٢٨ بتصرف واختصار.
(٣) الكشاف ٤/ ٤٠.

فعل، فيقسمان على قسمه ويحميانه، قالوا وقوله: ﴿بِغَيۡرِ نَفۡسٖ﴾ يقتضي أنه لو كان بنفس لم يكن به بأس، وهذا يدل على كبره، وإلا فلو لم يحتلم لم يجب قتله، وإنما جاز لأنه كان بالغا. قال ابن عباس: كان شابا يقطع الطريق. وذهب ابن جبير إلى أنه بلغ التكليف لقراءة أبي وابن عباس "وأما الغلام فكان كافرا" والكفر والإيمان لا يطلق على غير مكلف إلا بالتبعية لأبويه، وأبواه كانا مؤمنين بالنص فلا يصدق عليه الكافر إلا بالبلوغ، فتعين أن يصار إليه، والغلام من الاغتلام وهو شدة الشبق)[1].

والصواب أنه لم يكن بالغاً لقوله ﷺ: "فَلَوْ أَنَّهُ أَدْرَكَ أَرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا"[2]، وهو الأكثر في استخدام لفظ الغلام، وهو الموافق لظاهر القرآن وقول موسى عليه السلام "نفسا زكية"، والموافق لظاهر الحديث: "فلما خرجا من البحر مروا بغلام يلعب مع الصبيان فأخذ الخضر برأسه فقلعه بيده"[3]، فلو كان بالغاً ومفسداً في الأرض لبعد أن يلعب مع الصبيان، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾

قال ابن الجوزي: (إن قيل: لم ذكر «لك» هاهنا، واختزله من الموضع الذي قبله؟ فالجواب: أن إثباته للتوكيد، واختزاله لوضوح المعنى، وكلاهما معروف عند الفصحاء. تقول العرب: قد قلت لك: اتق الله. وقد قلت لك: يا فلان اتق الله، وأنشد ثعلب:

قد كنتُ حَذَّرْتُكَ آلَ المصْطَلِقْ   وقلتُ: يا هَذا أَطِعْنِي وَانْطَلِقْ

فقوله: يا هذا، توكيد لا يختل الكلام بسقوطه. وسمعت الشيخ أبا

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٢١ بتصرف واختصار.
(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٨٥١ (٢٣٨٠).
(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٢٤٦ (٣٢٢٠)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

محمد الخشاب يقول: وقَّره في الأول، فلم يواجهه بكاف الخطاب، فلما خالف في الثاني، واجهه بها)[١]، وقال الزمخشري: (فإن قلت: ما معنى زيادة ﴿لَّكَ﴾؟ قلت: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية)[٢]، وقال ابن عيينة: (وهذا أوكد)[٣].

قال الطبري[٤]: (يقول تعالى ذكره: قال العالم لموسى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ على ما ترى من أفعالي التي لم تحط بها خبراً، قال موسى له: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ يقول: بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ يقول: ففارقني، فلا تكن لي مصاحبا ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ يقول: قد بلغت العذر في شأني) ثم ذكر بسنده عن داود بن أبي هند (في قول الله ﷻ: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: "اسْتَحْيا فِي الله مُوسَى عِنْدَها")، وبسنده عن أبيّ بن كعب قال: (كان النبي ﷺ إذا ذكر أحَداً فدعا له بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: "رَحْمَةُ الله عَلَيْنا وَعلى مُوسَى، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لأبْصَرَ العَجَبَ وَلكنَّه قالَ: إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا"[٥]).

قوله: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾

عندها لم يجد موسى عليه السلام بداً من قول ما قال، قال النحاس: (أي إن أنكرت عليك بعدُ واعترضتُ فلا تصحبني، فقد أعذرتَ إلي ونبهتني على

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٤١.
(٢) الكشاف ٤/ ٤٠.
(٣) صحيح البخاري ١/ ٥٦ (١٢٢).
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٧٦ وما بعدها.
(٥) صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

مخالفتي الشرط فأنت معذور)[١]، وقال الزمخشري: (﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ فلا تقاربني، وإن طلبت صحبتك فلا تتابعني على ذلك. وقرئ: «فلا تَصْحَبني» فلا تكن صاحبي. وقرئ: «فلا تُصحِبني» أي فلا تجعلني صاحبك)[٢]، وقال الطبري: (ففارقني، فلا تكن لي مصاحبا ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ قد بلغت العذر في شأني)[٣]، قال البغوي: (قال ابن عباس: أي قد أعذرت فيما بيني وبينك، وقيل: حذرتني أني لا أستطيع معك صبرا. وقيل: اتضح لك العذر في مفارقتي)[٤]، وقال النووي: (معناه: قد بلغت إلى الغاية التي تعذر بسببها في فراقي)[٥]. قال ابن عاشور: (وهنا لم يعتذر موسى بالنسيان: إما لأنه لم ينس لكن رجح تغيير المنكر قتل النفس بدون موجب، على واجب الالتزام، وإما لأنه نسي وأعرض عن الاعتذار لسماجة تكرره، وعلى الاحتمالين فقد اشترط ما يطمئن إليه صاحبه بأنه إن عاد فقد جعل له أن لا يصاحبه بعده، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسيانا، والثانية شرطا»، فاحتمل الاحتمالين. وأنصف موسى إذ جعل له العذر في ترك مصاحبته في الثالثة تجنبا لإحراجه)[٦].

قولــــه: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾

---

(١) معاني القرآن ٤/ ٢٧٢ بتصرف واختصار.
(٢) الكشاف ٤/ ٤١ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٧٦ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير البغوي ٥/ ١٩٢.
(٥) شرح النووي على مسلم ١٥/ ١٤١.
(٦) التحرير والتنوير ١٦/ ٦ بتصرف واختصار.

قال ابن كثير: (انطلقا بعد المرتين الأوليين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾... وفي الحديث: "حتى إذا أتيا أهل قرية لئاما"[١] أي: بخلاء ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، إسناد الإرادة للجدار استعارة، فالإرادة في المحدثات هي الميل. والانقضاض: السقوط)[٢]، قال ابن عاشور: (وإظهار لفظ أهلها دون ضميرهم بأن يقال: استطعماهم، لزيادة التصريح، تشنيعا بهم في لؤمهم، إذ أبوا أن يضيفوهما؛ لأن الضيافة كانت شائعة من عهد إبراهيم عليه السلام وهي من المواساة المتبعة عند الناس، ويقوم بها من ينتدب إليها ممن يمر عليهم عابر السبيل ويسألهم الضيافة، أو من أعد نفسه لذلك من كرام القبيلة، فإباية أهل قرية كلهم منها لؤم لتلك القرية)[٣].

وقال الطبري: (﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ من الطعام فلم يطعموهما، واستضافاهم ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ حائطا يريد أن يسقط، يقال: انقضت الدار: إذا انهدمت وسقطت، ومنه انقضاض الكوكب، سقوطه وزواله عن مكانه، ومنه قول ذي الرُّمة:

فانْقَضَّ كالكَوْكَبِ الدُّرّي مُنْصَلِتا

وقوله: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ عن ابن عباس: هدمه ثم قعد يبنيه، وعن سعيد بن جبير: رفع الجدار بيده فاستقام. والصواب أن الله عزّ ذكره أخبر أنهما وجدا جدارًا يريد أن ينقضّ فأقامه صاحب موسى، بمعنى: عَدَل ميله حتى عاد مستويا. وجائز أن يكون ذلك بإصلاح بعد هدم، أو برفع منه له بيده، فاستوى بقدرة الله، وزال عنه مَيْلُه بلطفه، ولا دلالة من كتاب الله

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٣ بتصرف واختصار.
(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ٧ بتصرف واختصار.

ولا خبر للعذر قاطع بأي ذلك كان من أيّ)(١).

قال القرطبي: (الاستطعام: سؤال الطعام، والمراد الضيافة، بدليل: "فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما" فاستحقوا لذلك أن يذموا وينسبوا إلى البخل، كما وصفهم نبينا ﷺ. قال قتادة: شر القرى التي لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه. ويظهر من ذلك أن الضيافة كانت عليهم واجبة، وأن الخضر وموسى إنما سألا ما وجب لهما من الضيافة، وهذا هو الأليق بحال الأنبياء، ومنصب الفضلاء والأولياء)(٢).

قال ابن الجوزي: (﴿لَتَخَذْتَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «لَتَخِذْتَ» بكسر الخاء، غير أن أبا عمرو كان يدغم الذال، وابن كثير يظهرها. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «لاتَّخَذْتَ» وكلُّهم أدغموا، إلا حفصاً عن عاصم، فإنه لم يدغم كابن كثير. قال الزجاج: تَخِذ يَتْخَذُ في معنى: اتَّخَذَ يتَّخِذُ. وإنما قال هذا، لأنهم لم يضيِّفوهما)(٣)، قال الطبري: (قال موسى لصاحبه: لو شئت لم تقم لهم جدارهم حتى يعطوك أجرا، فقال بعضهم: إنما عَنَى بالأجر القِرى، وقال آخرون: بل عنى العِوَض والجزاء على إقامته الحائط المائل)(٤). قال القرطبي: (وهذه صدرت من موسى سؤالاً على جهة العرض لا الاعتراض)(٥)، وفيما قاله رحمه الله نظر، إذ لو كان كذلك لما فارقه الخضر، ولما أقر له موسى، والصواب ما قاله ابن عطية:

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٧٧ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير القرطبي ١١/ ٢٤ بتصرف واختصار.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٤٣ بتصرف واختصار.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٨١ بتصرف واختصار.

(٥) تفسير القرطبي ١١/ ٣٣.

(اشترط الخضر، وأعطاه موسى أن لا يقع سؤال عن شيء، والسؤال أقل وجوه الاعتراض، فالإنكار والتخطئة أعظم، وقوله: ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾ وإن لم يكن سؤالاً ففي ضمنه الإنكار وتصويب أخذ الأجر، وفي ذلك تخطئة ترك الأجر)[1]، وقال ابن عاشور: (قول موسى: لو شئت لاتخذت عليه أجراً لومٌ، أي كان في مكنتك أن تجعل لنفسك أجراً تأخذه ممن يملكه لأنهم لم يقوموا بحق الضيافة ونحن بحاجة إلى ما ننفق، وفيه إشارة إلى أن نفقة الأتباع على المتبوع. وهذا اللوم يتضمن سؤالا عن سبب ترك المشارطة على إقامة الجدار عند الحاجة إلى الأجر، وليس هو لوما على مجرد إقامته مجانا، لأن ذلك من فعل الخير وهو غير ملوم)[2]، وبهذا يجاب عما قاله ابن التين ووافقه الحافظ رحمهما الله، قال: (فإن قيل فهل كانت الثالثة عمداً أو نسياناً قلنا يظهر أنها كانت نسياناً وإنما واخذه بشرطه الذي شرطه من المفارقة في الثالثة وبذا جزم ابن التين ولم يقل إنها عمد استبعاداً لأن يقع من موسى عليه السلام إنكار مشروع وهو الإحسان لمن أساء)[3]، فليس هذا مجرداً هو وجه إنكار موسى عليه السلام، وإنما مع كونهما بحاجة للأجر أو الطعام، وكيف تكون الثالثة نسياناً، والنبي ﷺ يقول: "كانت الأولى نسياناً والوسطى شرطاً والثالثة عمداً"[4]؟ فالظاهر أن موسى عليه السلام يصبر على ما يراه من صاحبه، لقول النبي ﷺ: "يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما"[5]، فلهذا أنكر الثالثة عامداً.

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٣٣٠ بتصرف واختصار.
(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٩ بتصرف واختصار.
(٣) فتح الباري ١١/ ٥٥٤ بتصرف واختصار.
(٤) صحيح البخاري ٢/ ٩٧٢ (٢٥٧٨).
(٥) صحيح البخاري ١/ ٥٦ (١٢٢)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

لطيفة- قال القرطبي: (كان موسى عليه السلام حين سقى لبنتي شعيب أحوج منه حين أتى القرية مع الخضر، ولم يسأل قوتا بل سقى ابتداء، وفي القرية سألا القوت، وفي ذلك للعلماء انفصالات كثيرة، منها أن موسى كان في مدين منفرداً وفي قصة الخضر تبعا لغيره. قلت: وعلى هذا يتمشى قوله لفتاه "آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً" فأصابه الجوع مراعاة ليوشع، والله أعلم. وقيل: لما كان هذا سفر تأديب وكل إلى تكلف المشقة، وكان ذلك سفر هجرة فوكل إلى العون والنصرة والقوة)(١).

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٢٤ بتصرف واختصار.

وقفة مع المجاز في القرآن الكريم

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي قرب أن يسقط، وهذا مجاز وتوسع وقد فسره في الحديث بقوله: (مائل) فكان فيه دليل على وجود المجاز في القرآن، وهو مذهب الجمهور. وجميع الأفعال التي حقها أن تكون للحي الناطق متى أسندت إلى جماد أو بهيمة فإنما هي استعارة، أي لو كان مكانهما إنسان لكان ممتثلا لذلك الفعل، وهذا في كلام العرب وأشعارها كثير... قال حسان بن ثابت:

لو ان اللؤم ينسب كان عبدا قبيح الوجه أعور من ثقيف

وقال عنترة:

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلي بعبرة وتحمحم

وقد فسر هذا المعنى بقوله:

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى

وهذا في هذا المعنى كثير جدا. ومنه قول الناس: إن داري تنظر إلى دار فلان. وفي الحديث: (اشتكت النار إلى ربها).

وذهب قوم إلى منع المجاز في القرآن، منهم أبو إسحاق الإسفراييني وأبو بكر محمد بن داود الأصبهاني وغيرهما، فإن كلام الله ﷻ ورسوله حمله على الحقيقة أولى، لأنه يقص الحق. ومما احتجوا به أن الله لو خاطبنا بالمجاز للزم وصفه بأنه متجوز، فإن العدول إلى المجاز يقتضي العجز عن الحقيقة، وهو على الله محال، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٤﴾ [النور] وقال: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ٣٠﴾ [ق] وقال: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ١٢﴾ [الفرقان] وقال: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ

١٧﴾ [المعارج] و(اشتكت النار إلى ربها) (واحتجت النار والجنة) وما كان مثلها حقيقة، وأن خالقها الذي أنطق كل شي أنطقها. وفي صحيح مسلم من حديث أنس عن النبي ﷺ: (فيختم على فيه ويقال لفخذه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه). هذا في الآخرة. وأما في الدنيا، ففي الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس وحتى تكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله وتخبره فخذه بما أحدث أهله من بعده) قال أبو عيسى: وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حديث حسن غريب)[1]ا.هـ

قال الشنقيطي رحمه الله: (هذه الآية من أكبر الأدلة التي يستدل بها القائلون بالمجاز في القرآن. زاعمين أن إرادة الجدار لا يمكن أن تكون حقيقة. وقد دلت آيات أنه لا مانع من كون إرادة الجدار حقيقة، لأن الله يعلم للجمادات إرادات لا يدركها الخلق كما صرح بأنه يعلم من ذلك ما لا يعلمه خلقه في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] فصرح بأننا لا نفقه تسبيحهم وتسبيحهم واقع عن إرادة لهم يعلمها هو ونحن لا نعلمها. وأمثال ذلك كثيرة في القرآن والسنة. فمن الآيات الدالة على ذلك: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] الآية. فتصريحه تعالى بأن بعض الحجارة يهبط من خشية الله دليل واضح في ذلك. لأن تلك الخشية بإدراك

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٢٥ بتصرف واختصار.

يعلمه الله ولا نعلمه. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ [الأحزاب: ٧٢] الآية. فتصريحه بأن السماء والأرض والجبال أبت وأشفقت أي خافت دليل عن أن ذلك واقع بإرادة وإدراك يعلمه ونحن لا نعلمه. ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما ثبت في صحيح مسلم: أن النَّبي ﷺ قال: «إني لأعرف حجراً كان يسلم علي بمكة» وما ثبت في صحيح البخاري من حنين الجذع الذي كان يخطب عليه ﷺ جزعاً لفراقه فتسليم ذلك الحجر، وحنين ذلك الجذع كلاهما بإرادة وإدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه، كما صرح بمثله في قوله: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وزعم من لا علم عنده أنه هذه الأمور هي ضرب أمثال، زعم باطل، لأن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن معناها المتبادر إلا بدليل. وأمثال هذا كثيرة جداً. وبذلك تعلم أنه لا مانع من إبقاء إرادة الجدار على حقيقتها لإمكان أن يكون الله علم منه إرادة الانقضاض، وإن لم يعلم خلقه تلك الإرادة. وهذا واضح كما ترى. مع أنه من الأساليب العربية إطلاق الإرادة على المقاربة والميل إلى الشيء، وقد بينا في رسالتنا المسماه (منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز) أن جميع الآيات التي يزعمون أنها مجاز أن ذلك لا يتعين في شيء منها. وبينا أدلة ذلك)(١). وفي الحقيقة فإن إنكار أن يكون للجمادات إرادات لا دليل عليه من العقل سوى الاستبعاد وعدم العلم، ومعلوم أن عدم العلم بالشيء لا يعني العلم بعدمه، ومخالفة هذه القاعدة تدخل تحت قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [يونس: ٣٩].

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤٠٣ بتصرف واختصار.

وقوله: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

قال ابن عاشور: (المشار إليه بلفظ "هذا" مقدر في الذهن من اشتراط موسى أنه إن سأله عن شيء بعد سؤاله الثاني فقد انقطعت الصحبة بينهما، أي هذا الذي حصل هو فراق بيننا، كما يقال: الشرط أملك عليك أم لك)[١]، وقال البغوي: (﴿ قَالَ ﴾ الخضر: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ يعني هذا وقت فراق بيني وبينك وقيل: هذا الإنكار على ترك الأجر هو المفرق بيننا. وقال الزجاج: معناه هذا فراق بيننا أي فراق اتصالنا)[٢]، والجمع بين القولين ممكن فإنما تعين هذا الوقت للفراق بسبب هذا الإنكار، قال ابن كثير: (أي: لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فهو فراق بيني وبينك، ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ﴾ أي: بتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾)[٣]، قال الطبري: (يقول: بما يؤول إليه عاقبة أفعالي، فلم تستطع على تَرك المسألة عنها، وعن النكير علي فيها صبرا، والله أعلم)[٤].

قال ابن عاشور: (جملة سأنبئك استئناف بياني، جوابا لسؤال يهجس في خاطر موسى عليه السلام عن سبب ما فعل الخضر عليه السلام وسأله عنه فإنه وعده أن يحدث له ذكرا. والتأويل: تفسير لشيء غير واضح، مشتق من الأَوْل وهو الرجوع. شُبِّه تحصيل المعنى على تكلّفٍ بالرجوع إلى المكان بعد السير إليه، وفي صلة الموصول من قوله: ما لم تستطع عليه صبرا تعريض باللوم

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ١٠ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير البغوي ٥/ ١٩٣.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٤.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٨٢.

على الاستعجال وعدم الصبر إلى أن يأتيه إحداث الذكر حسبما وعده)[١].

قولــه: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾

هذا من الخضر عليه السلام شروع في (تفسير ما أشكل أمره على موسى، عليه السلام، وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر الله الخضر، عليه السلام، على باطنه)[٢]، قال الماوردي: (في تسميتهم مساكين أربعة أوجه؛ أحدها: لفقرهم وحاجتهم، الثاني: لشدة ما يعانونه في البحر، كما يقال لمن عانى شدة: قد لقي المسكين جهداً، الثالث: لزمانة كانت بهم وعلل، الرابع: لقلة حيلتهم وعجزهم عن الدفع عن أنفسهم، كما قال النبي ﷺ "مِسْكِينٌ رَجُلٌ لاَ امرأة له"[٣] فسماه مسكيناً لقلة حيلته وعجزه عن القيام بنفسه لا لفقره ومسكنته)[٤].

قال ابن الجوزي: (﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أي: أجعلها ذات عيب، يعني بخرقها، ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم ﴾ فيه قولان: أحدهما: أمامهم، قاله ابن عباس، وقتادة، وأبو عبيدة، وابن قتيبة. وقرأ أُبيٌّ وابن مسعود: «وكان أمامَهم».

والثاني: خلفهم؛ قال الزجاج: وهو أجود الوجهين. فيجوز أن يكون رجوعهم كان عليه، ولم يعلموا بخبره، فأعلم الله الخضرَ خَبَرَه)[٥].

قال الماوردي: (اختُلِف في استعمال وراء موضع أمام على أقوال:

أحدها: يجوز استعماله بكل حال وفي كل مكان وهو من الأضداد،

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ١١ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٤.

(٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٤٦٤: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات إلا إن أبا نجيح لا صحبة له.

(٤) النكت والعيون للماوردي ٢/ ٤٩٤ بتصرف واختصار.

(٥) زاد المسير ٤/ ٢٤٤ بتصرف واختصار.

قال تعالى: ﴿مِن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] أي من أمامهم؛ قال الشاعر:

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة ورائيا

الثاني: أن وراء يجوز أن يستعمل في موضع أمام في المواقيت والأزمان لأن الإنسان قد يجوزها فتصير وراءه ولا يجوز في غيرها.

الثالث: أنه يجوز في الأجسام التي لا وجه لها كحجرين متقابلين كل واحد منهما وراء الآخر، ولا يجوز في غيره قاله ابن عيسى)(١).

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي: كل سفينة صالحة. وفي قراءة أُبيٍّ: «كلَّ سفينة صحيحة». قال الخضر: إنما خرقتها، لأن الملك إذا رآها منخرقة تركها ورقعها أهلُها فانتفعوا بها)(٢)، قال الأزهري: (قال الليث: الغصب أخذ الشيء ظلماً وقهراً)(٣)، قال الشنقيطي: (ظاهر الآية أن ذلك الملك يأخذ كل سفينة، صحيحة كانت أو معيبة. ولكنه يفهم من آية أخرى(٤) أنه لا يأخذ المعيبة، وهي قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] أي لئلا يأخذها، وذلك هو الحكمة في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ [الكهف: ٧١] ثم بين أن قصده بخرقها سلامتها لأهلها من أخذ ذلك الملك الغاصب. لأن عيبها يزهده فيها)(٥).

قال ابن عاشور: (جملة "فأردت أن أعيبها" متفرعة على جملتي: فكانت لمساكين، وكان وراءهم ملك، فكان حقها التأخير بحسب الظاهر،

---

(١) النكت والعيون للماوردي ٢/ ٤٩٤ بتصرف واختصار.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٤٤ بتصرف يسير.

(٣) تهذيب اللغة ٣/ ٥١.

(٤) هكذا في المطبوع، وهي نفس الآية.

(٥) أضواء البيان ٣/ ٤٠٤ بتصرف واختصار.

ولكنها قدمت لقصد الاهتمام بإعابة السفينة، حيث كان عملا ظاهره الإنكار وحقيقته الصلاح زيادة في تشويق موسى إلى تأويله، لأن كون السفينة لمساكين مما يزيد السامع تعجبا في خرقها. والمعنى: فأردت أن أعيبها وقد فعلت. ولم يقل: فعبتها، لأن فعله وقع عن قصد وتأمل)(١).

قوله : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾

قال ابن الجوزي: (روي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافراً». وروى أُبيّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إن الغلام الذي قتله الخضر طُبع كافراً، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً "، وقوله: ﴿فَخَشِينَآ﴾ فيه قولان: أحدهما: الله ﷻ. ثم في معنى الخشية قولان. أحدهما: العلم. قاله الفراء. وقال ابن عقيل: المعنى: فعلنا فعل الخاشي. والثاني: الكراهة، قاله الأخفش، والزجاج. والثاني: أنه الخضر، فتكون الخشية بمعنى الخوف للأمر المتوهم، قاله ابن الأنباري)(٢).

والراجح أنه من كلام الخضر، لأن السياق في تعليله أفعاله لموسى عليه السلام، قال القرطبي رحمه الله: (قيل: هو من كلام الخضر عليه السلام، وهو الذي يشهد له السياق، وهو قول كثير من المفسرين، أي خفنا ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾، وكان الله أباح له الاجتهاد في القتل على هذه الجهة. وقيل: من كلام الله وعنه عبر الخضر. قال الطبري: معناه فعلمنا، وكذا قال ابن عباس، كما كنى عن العلم بالخوف في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وحكى أن أبيا قرأ: "فعلم ربك" وقيل: الخشية بمعنى الكراهة، فرقت بينهما خشية أن يقتتلا، أي كراهة ذلك، و﴿يُرْهِقَهُمَا﴾

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ١٢ بتصرف واختصار.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٤٤.

يجشمهما ويكلفهما، والمعنى أن يلقيهما حبه في اتباعه فيضلا ويتدينا بدينه)(١)، قال ابن كثير: (يحملهما حبه على متابعته على الكفر، قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد،وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب. وصح في الحديث: "لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له". وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة:٢١٦])(٢).

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٣٧ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٥ بتصرف واختصار.

تخريج قتل الغلام على الاختلاف في بلوغه

لم يذكر القرآن سبب قتل الغلام سوى خشية أن يرهق والديه طغياناً وكفراً، وقد يشكل هذا قيل ببلوغه أو لا، قال الشوكاني: (وقد استشكل بعض أهل العلم قتل الخضر لهذا الغلام بهذه العلة، فقيل: إنه كان بالغاً وقد استحق ذلك بكفره؛ وقيل: كان يقطع الطريق فاستحق القتل لذلك، ويكون معنى ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾: أن الخضر خاف على الأبوين أن يذبا عنه ويتعصبا له فيقعا في المعصية، وقد يؤدّي ذلك إلى الكفر، والحاصل أنه لا إشكال في قتل الخضر له إذا كان بالغاً كافراً[١] أو قاطعاً للطريق فيما تقتضيه الشريعة الإسلامية، ويمكن أن يكون للخضر شريعة تسوّغ له ذلك، وأما إذا كان الغلام غير بالغ، فقيل: إن الخضر علم بإعلام الله له أنه لو صار بالغاً لكان كافراً يتسبب عن كفره إضلال أبويه وكفرهما، وهذا وإن كان ظاهر الشريعة يأباه، فإن قتل من لا ذنب له ولا جرى عليه التكليف لخشية أن يقع منه بعد بلوغه ما يجوز به قتله لا يحلّ في الشريعة المحمدية، ولكنه حلّ في شريعة أخرى، فلا إشكال)[٢].

أقول: يحل الإشكال على كل تقدير باستحضار قول الخضر: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾، سواء كان ذلك بإذن الله له بالاجتهاد كما في كلام القرطبي، أو كان بأمر من الله خاص بهذا الغلام كما قال ابن عاشور: (تصرف بوحي من الله جار على قطع فساد خاص علمه الله وأعلم به الخضر بالوحي)[٣].

فلا شك أن قتل الغلام لم يكن بمحض رأي الخضر، بل كان بأمر الله،

(١) لأن كفره ردة.

(٢) فتح القدير ٤/ ٤١٤ بتصرف واختصار.

(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ١٣ بتصرف يسير.

فالله ﷻ أراد موت الغلام، ولا فرق بين أن يميته بـ(كن) أو بدابة، أو بغرق أو غير ذلك؛ فقتل الخضر له، سبب أوجده الله لنفوذ مشيئته، وإنما يتوجه الإشكال لو كان القتل عقوبة على ما سيفعله في المستقبل، وليس في قصته ما يشير إلى أن قتله كان عقوبة؛ وقد أشار القرطبي إلى هذا المعنى[1].

أما قوله : ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾

فسياق الكلام يشعر أن القائل هو الخضر كما سبق، قال البغوي: (﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وأبو عمرو: بالتشديد هاهنا وفي سورة "التحريم" و"القلم" وقرأ الآخرون بالتخفيف وهما لغتان، وفرَّق بعضهم فقال: "التبديل": تغيير الشيء أو تغيير حاله وعين الشيء قائم و"الإبدال": رفع الشيء ووضع شيء آخر مكانه)[2]. قال ابن عاشور: (والزكاة: الطهارة، مراعاة لقول موسى أقتلت نفسا زكية)[3]، وقال ابن الجوزي: (قوله: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ فيه ثلاثة أقوال؛ أحدها: ديناً، قاله ابن عباس، والثاني: عملاً، قاله مقاتل، والثالث: صلاحاً، قاله الفراء. وقوله: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ فيه قولان؛ أحدهما: أوصل للرحم وأبرّ للوالدين، قاله ابن عباس، وقتادة. وقال الزجاج: أقرب عطفاً، وأمسّ بالقرابة. ومعنى الرُّحْم والرُّحُم في اللغة: العطف والرحمة، قال الشاعر:

وكيف بظلم جَاريةٍ ومنها اللِّينُ والرُّحُم

والثاني: أقرب أن يُرحَما به، قاله الفراء. وفيما بُدِّلا به قولان. أحدهما:

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٢١.
(٢) تفسير البغوي ٥/ ١٩٥.
(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ١٣.

جارية، قاله الأكثرون، والثاني: غلام مسلم، قاله ابن جريج)[١].

قال القرطبي: (ويستفاد من الآية تهوين المصائب بفقد الأولاد وإن كانوا قِطَعاً من الأكباد، ومن سلم للقضاء أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء)[٢].

لطيفة- قال ابن عاشور: (وضميرا الجماعة في قوله: ﴿فَخَشِينَآ﴾ وقوله: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ عائدان إلى واحد بإظهار أنه مشارك لغيره في الفعل. وهذا الاستعمال من التواضع لا من التعاظم لأن المقام مقام الإعلام بأن الله أطلعه على ذلك وأمره فناسبه التواضع فقال: فخشينا فأردنا)[٣].

قولـــــه: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾

قال الشوكاني: (﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ يعني: الذي أصلحه ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ فيه جواز إطلاق اسم المدينة على القرية لغة)[٤]، قال الألوسي: (ولعل التعبير عنها بالمدينة هنا لإظهار نوع اعتداد بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وما هو من أهلها وهو أبوهما الصالح. ولما كان سوق الكلام السابق على غير هذا المساق عبر بالقرية فيه)[٥]، أي أن الكلام الأول كان في معرض الذم للؤم أهلها وبخلهم فاكتفي بتسميتها قرية، فلما ذكر الأب الصالح وروعي وجود ولديه فيها فخمت وعبر عنها بالمدينة.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٤٥ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير القرطبي ١١/ ٣٨.
(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ١٣ بتصرف واختصار.
(٤) فتح القدير ٤/ ٤١٥ بتصرف يسير.
(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣٦٦.

قال ابن عطية: (هذان الغلامان صغيران، بقرينة وصفهما باليتم، وقد قال ﷺ: «لا يتم بعد بلوغ» هذا الظاهر، وقد يحتمل أن يبقى عليهما اسم اليتم بعد البلوغ أي كانا يتيمين على معنى التشفق عليهما)[1]، قال الألوسي: (ولا يخفى أنه بعيد جداً)[2]، قال ابن كثير: (معنى الآية: أن هذا الجدار إنما أصلحه لأنه كان لغلامين يتيمين وكان تحته كنز. قال عكرمة، وقتادة، وغير واحد: كان تحته مال مدفون لهما. وهذا ظاهر السياق، واختيار ابن جرير، رحمه الله. وقال العوفي عن ابن عباس: كان تحته كنز علم. وكذا قال سعيد بن جبير)[3]. قال الطبري: (وأولى التأولين القول الذي قاله عكرمة، لأن المعروف من كلام العرب أن الكنز لما يكنز من مال، وأن كلّ ما كنز وقع عليه اسم كنز، والتأويل[4] مصروف إلى الأغلب من استعمال المخاطبين بالتنزيل، ما لم يأت دليل يصرفه إلى غيره، لعلل بيَّناها في غير موضع)[5].

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ دليل على حفظ الرجل الصالح في ذريته، وبركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم في الجنة لتقر عينه بهم، كما في القرآن والسنة. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاح)[6].

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٣٣٣.

(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣٦٦.

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٥ بتصرف واختصار.

(٤) أي التفسير، وليس المقصود ما اصطلح عليه المتأخرون من صرف اللفظ عن ظاهره بقرينة، وهذا واضح جلي من بقية كلامه. وفي الكلام فائدة عزيزة من هذا الإمام.

(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٩٠ بتصرف واختصار.

(٦) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٦-١٨٧ بتصرف واختصار.

فإقامة هذا الجدار للغلامين من شكر الله تعالى لأبيهما الصالح، إذ ساق عبده الخضر في مهمة خاصة ليتعهد ذريته بعد موته ويصلح شأنهما، ويطبق المفسرون على الاستشهاد بـ ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ على حفظ الذرية بصلاح الآباء، وأن بركة صلاح الآباء تظهر على الأبناء، وتجلى هذا في قوله تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ٩﴾ [النساء]، قال الهيتمي: (فإن كان لك خوفٌ على صغارك وأولادك المساكين، فاتق الله في أعمالك كُلها لا سيما في أولاد غيرك، فإن الله يحفظك في ذريتك وييسر لهم من الحفظ والخير ببركة تقواك، ما تقر به عينك، وأما إذا لم تتق الله في أولاد الناس ولا في حُرَمهم، فاعلم أنك مُؤاخذ في نفسك وذريتك، وأن ما فعلته كله يفعل بهم)[1].

تنبيه- ذكر بعض العلماء أن صاحب الكنز هو الجد السابع لليتيمين وفيه نظر، إذ لا يصح صرف الأمر عن ظاهره إلا بقرينة، ولا قرينة.

وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾

فالأشد يأتي على ثلاثة معان؛ أولها الإدراك والبلوغ كما في: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، الثاني وقت اجتماع الأمر والقوة حيث تنتهي مرحلة الشباب وتبدأ مرحلة الكهولة وهذا بين ٢٨-٣٣ سنة وبعضهم أوصلها إلى الأربعين، ومنه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤]، والثالث أقصى بلوغ الأشد ومنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥]، وهو ما بلغه النبي ﷺ لما بعث. والمراد في الآية البلوغ والإدراك؛ قال الطبري: (فأراد ربك أن يدركا ويبلغا قوتهما وشدّتهما، ويستخرجا حينئذ المكنوز تحت الجدار الذي أقمته،

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر ص٢٣ بتصرف واختصار.

يقول: فعلت هذا بالجدار، رحمة من ربك لليتيمين، وقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ يقول: وما فعلت يا موسى جميع الذي رأيتني فعلته عن رأيي، ومن تلقاء نفسي، وإنما فعلته عن أمر الله إياي به)(١)، فجعل رحمه الله الرحمة متعلقة برفع الجدار، والأمر من الله متعلقاً بجميع الأفعال، وخالفه في ذلك ابن كثير رحمه الله فجعل الرحمة والأمر متعلقة بالأفعال كلها، قال ابن كثير: (وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي: الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، من رحمة الله بأصحاب السفينة، ووالدي الغلام، وولدي الرجل الصالح، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ لكني أمرت به ووقفت عليه)(٢).

فائدة- قال ابن تيمية: (ما فعله الخضر لم يكن مخالفاً لشريعة موسى عليه السلام، وموسى لم يعلم الأسباب التي تبيح ذلك فلما بينها له وافقه عليها؛ فإن خرقَ السفينة ثم ترقيعَها لمصلحة أهلها خوفاً من الظالم إحسانٌ إليهم وذلك جائز، وقتل الصائل جائز وإن كان صغيراً، ومن كان تكفيره لأبويه لا يندفع إلا بقتله جاز قتله؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما لنجدة الحروري لما سأله عن قتل الغلمان: إن كنت علمت منهم ما علمه الخضر من الغلام فاقتلهم وإلا فلا. رواه البخاري، وأما الإحسان إلى اليتيم بلا عوض والصبر على الجوع فهذا من صالح الأعمال فلم يكن في ذلك شيء مخالفاً شرع الله)(٣).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾

قال الطبري: (يقول: هذا الذي ذكرت من الأسباب التي لأجلها فعلت ما استنكرته مني، ﴿تَأْوِيلُ﴾ ما تؤول إليه وترجع الأفعال التي لم

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٩٠ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٧.

(٣) مجموع الفتاوى ١١/ ٢٦٣ بتصرف واختصار.

تسطع على ترك مسألتك عنها، وإنكارك لها صبراً)[١]. وقد ظهرت صحة فراسة الخضر عليه السلام أن موسى لن يطيق صبراً على صحبته، كما ظهر بتعليلات الخضر لأفعاله ما آتاه الله سبحانه من علم لم يؤته موسى عليه السلام.

لطيفة نبوية- لما قص النبي ﷺ على أصحابه خبر موسى والخضر ووصل إلى قول الخضر ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ قال: "يرحم الله موسى، لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما"[٢].

لطيفة: مع أن قصة موسى عليه السلام الحافلة بالعجائب -منذ ألقته أمه في اليم- ثنيت وبسطت في القرآن، إلا أن قصته العجيبة مع الخضر لم تذكر في غير هذه السورة، ومن تأمل القصة وما حوته من دروس وعبر، ظهر له اتصال بينها وبين قصته في بقية السور، يقول بعض أهل البلاغة: (إذا تأملت الأحداث الثلاثة من العبد الصالح، وما كان من موسى عليه السلام في الاستفهام، وتأملت حال موسى عليه السلام من قبل لرأيته وهو رضيع كمثل حال خرق السفينة: ألا ترى أنّ أمه ألقته في اليم لينجو؟ أيكون ذلك بمنطق العقل البشري نجاة؟ أتلحظ معنى ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾. وكان منه قتل القبطيّ كما كان من العبد الصالح قتل الغلام. وكان منه سقي الغنم للفتاتين دون أجر، مع افتقاره، وهذا كمثل ما كان من بناء الجدار في قرية استطعما أهلها، فأبوا أن يضيفوهما. وهي قد نسقت في السورة كمثل ما نسقت نظائرها وقوعًا في حياة موسى عليه السلام: الأول فالأول. تأمل هذا التقارب، وما فيه من لطائف الإشارات)[٣].

قال ابن عجيبة: (قيل: كل ما أنكر موسى عليه السلام على الخضر جرى له

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٩٠ بتصرف يسير.
(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٢٤٦ (٣٢٢٠)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).
(٣) العزف على أنوار الذكر لمحمود توفيق محمد سعد ص٦٧ بتصرف واختصار.

مثله، ففي هذه الأمثلة حجة عليه، وذلك أنه لما أنكر خرق السفينة، نودي: يا موسى أين كان هذا وأنت في اليم؟ فلما أنكر قتل الغلام قيل له: أين إنكارك من وكْزك القبطي وقضائك عليه؟ فلما أنكر إقامة الجدار، نودي: أين هذا من رفعك الحجر لبنات شعيب دون أجر؟)[1].

فأين يوشع عليه السلام؟

تقدم أن فتى موسى يوشع بن نون، إلا أن الآيات لم تذكر عنه شيئاً منذ التقى بالخضر، مما يثير التساؤل، قال ابن كثير رحمه الله: (الجواب: أن المقصود بالسياق هو قصة موسى والخضر وما بينهما، وفتى موسى تبع)[2]. ونقل القرطبي عن شيخه: (يحتمل أنه اكتفي بذكر المتبوع عن التابع)[3]، وعليه فإغفاله لأن الفائدة معرفة ما بين موسى والخضر، ولو بقي ليوشع ذكر لاحتيج كل مرة أن يقال: قال موسى، قال الفتى، قال الخضر.

---

(١) البحر المديد لابن عجيبة ٣/ ٤٢٦ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٨ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٣٩.

لطائف قرآنية في استخدام لفظ الإرادة

حكى القرآن أن الخضر ﷺ قال في السفينة: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، وعن والدي الغلام: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف]، وعن اليتيمين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، فنلاحظ تبايناً في إسناد الإرادة، مع أنه أرجع كل ما فعله لأمر الله ﷻ فقال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾، فحاول أهل العلم تلمس ما في هذه المغايرة من دقائق ولطائف، فمن ذلك:

١- قال ابن عاشور: (أسند الإرادة في قصة الجدار إلى الله تعالى دون القصتين السابقتين لأن العمل فيهما كان من شأنه أن يسعى إليه كل من يقف على سره لأن فيهما دفع فساد عن الناس بخلاف قصة الجدار فتلك كرامة من الله لأبي الغلامين)[١].

٢- قال ابن كثير: (وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ أسند الإرادة إلى الله؛ لأن بلوغهما لا يقدر عليه إلا الله)[٢]، ويرده أن إبدال الأبوين غلاما مثله، لكنه قال: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾، والجواب قول القرطبي: (فكأنه أضاف القتل لنفسه، والتبديل لله)[٣]، لأن الخضر مشارك في إرادته وفعله بما يتعلق بقتل الغلام، أما إرادة الإبدال وإيقاعه فلله ﷻ وحده، قال البقاعي: (ولما كان التعويض عن هذا الولد لله وحده، أسند الفعل إليه في: ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾)[٤].

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ١٤.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٦-١٨٧ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٣٩ بتصرف واختصار.
(٤) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٧٥ بتصرف واختصار.

٣- قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ قال القرطبي: (أضافه إلى نفسه رعاية للأدب، كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء] فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله، وأسند إلى نفسه المرض، إذ هو معنى نقص، فلا يضاف إليه سبحانه من الألفاظ إلا ما يستحسن، كما قال: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] واقتصر عليه فلم ينسب الشر إليه، وإن كان بيده الجميع، إذ هو على كل شي قدير، وهو بكل شي خبير)(١)، وهذا الأدب مع الله ﷻ تكرر في مواضع من القرآن، وسبق شيء منه عند قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٤- ورأى بعض العلماء أن نكتة هذا موافقة عادة العرب في سبك الكلام واستعذابه، قال ابن الجوزي: (قال ابن الأنباري: لما كان كل من: «فأردتُ» و«وأردنا» يصلح أن يكون خبراً عن الله ﷻ وعن الخضر، أتبعهما بما يحصر الإرادة عليه، ويزيلها عن غيره، ويكشف البُغية منهما. وإنما قال: «فأردتُ» «فأردنا» «فأراد ربُّك»، لأن العرب تؤثر اختلاف الكلام على اتِّفاقه مع تساوي المعاني، لأنه أعذب على الألسن، وأحسن في الأسماع، فيقول الرجل: قال لي فلان كذا، وأنبأني بما كان، وخبَّرني بما نال)(٢).

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٣٩ بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٤٥.

فتنة العلم في قصة موسى والخضر عليهما السلام

هذه الفتنة الرئيسة الثالثة في السورة، والعلم يكون فتنة بواحد من أمرين أو بهما؛ أولها أن يطغيه فيرى لنفسه فضلاً، وثانيهما أن يعمل بخلاف ما يعلم أو يحتال بعلمه ليصل لما يريد فيكون العلم حجة عليه. وقد مر حديث أبي هريرة ﷺ أن من أول من تسعر بهم النار عالم؛ فبدل أن يكون في أعلى عليين، إذا به يكون وقوداً للنار، وما نال هذا المصير إلا لفساد نيته، فأعظم وقاية من فتنة العلم هي الإخلاص، بأن يريد المرء بعلمه وجه الله ﷻ ورضاه. لقد حوت الآيات كثيراً من الكهوف التي تقي الإنسان، عالماً أو متعلماً من هذه الفتنة، وتميزت قصة موسى مع الخضر بجملة من الفوائد واللطائف والعبر، وأكثر أهل العلم وخاصة المفسرين والشراح من استخراجها، وتفننّوا في استنباطها والاستدلال بها على المسائل، وكل ما ذكروه له قيمة علمية في أبواب مختلفة، ولو أُفرِدت هذه الفوائد في مصنف، لكان عجبًا للناظرين في كتاب الله والباحثين عن أسراره. وقد جمع السعدي رحمه الله في تفسيره عدداً كبيراً منها[1]، فذكرت كثيراً منها، وأضفت إليها عدداً آخر، فمن شاء التوسع فليرجع إلى مصنفات أهل العلم، كتب التفسير وشروح الحديث، فمنها:

١- في عصر يقال له عصر العلم، قد يلعب الغرور بعقول بعض الناس ويظنون أن ما بلغته علومهم لم يبلغه أحد ممن سبق، وأنهم قد ملكوا نواصي العلم وحازوا أقطاره، فيطغيهم ويحملهم على ظلم أنفسهم بإنزالها وإنزال علومهم منزلة ليست لها. لقد بين الله للناس في غير آية حقيقة ما

---

(١) ينظر تفسيره ١/ ٤٨٢ وما بعدها.

عندهم من علم كي لا يغتروا به، فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ٨٥﴾ [الإسراء]، ومع ذلك فمنهم من يفرح بهذا العلم القليل ويرد علم الرسل من علام الغيوب ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٨٣﴾ [غافر]، وهؤلاء قصروا هممهم وأنظارهم على الدنيا ولم يتأملوا فيها وراءها فخسروا أنفسهم ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم]. وقد بين سبحانه فرق ما بين علم الخلائق وعلمه ﷻ فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فعلم الخلائق ضعيف وقاصر وناقص، وعلمه تام كامل، وقد بين الخضر هذه الحقيقة لموسى عليه السلام يوم ركبا في السفينة فـ"وقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمك وعلمي وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره"(١)، قال ابن القيم رحمه الله: (كتب الله وكلام الرسول ﷺ مملوءة بإثبات عموم علمه الذي لا يشاركه فيه خلقه ولا يحيطون بشيء منه إلا بما شاء. وما أخفاه عنهم لا نسبة لما عرفوه إليه إلا دون قطرة إلى البحار، كما قال الخضر لموسى وهما أعلم أهل الأرض حينئذ، ويكفي أن ما كلامه من علمه لو قدر أن البحر يمده سبعة أبحر، وأشجار الأرض من أول الدهر أقلام لنفدت البحار وفنيت الأقلام ولم تنفد كلماته، فنسبة علوم الخلائق إلى علمه كنسبة قدرتهم لقدرته، وغناهم لغناه، وحكمتهم لحكمته)(٢). وهذا مصداق لقول الخضر لموسى: "إنك

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٧ (٤٤٥٠).
(٢) شفاء العليل ١/ ١٨٧ بتصرف واختصار.

لن تستطيع معي صبراً يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه"(١)، وفي هذا درس بليغ لمن يغتر بعلمه أو يظن أنه أوتي علما لم يؤته غيره.

قال ابن تيمية رحمه الله على قول الخضر: (من المعلوم أن علم الله القائم بنفسه لا يزول منه شيء بتعلم العباد وإنما المقصود أن نسبة علمي وعلمك إلى علم الله كنسبة ما علق بمنقار العصفور إلى البحر)(٢)، قال القرطبي: (وهذا من الخضر تمثيل، أي معلوماتي ومعلوماتك لا أثر لها في علم الله، كما أن ما أخذ هذا العصفور من هذا البحر لا أثر له بالنسبة إلى ماء البحر، وإطلاق لفظ النقص هنا تجوز قصد به التمثيل، إذ لا نقص في علم الله، ولا نهاية لمعلوماته. وقد أوضح هذا البخاري فقال: والله ما علمي وما علمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطير بمنقاره من البحر)(٣).

٢- يستحب للعالم أن يتخول الناس بالموعظة ويذكرهم بأيام الله ونعمه، كما في الحديث: "بينما موسى عليه السلام في قومه يذكرهم بأيام الله وأيام الله نعماؤه وبلاؤه"(٤)، فكانت هذه الموعظة مبدأ القصة والرحلة العظيمة.

وللوعظ أهمية كبيرة في تذكير الغافلين ورد العصاة تائبين عابدين، فكم أحيا الله به من قلوب تخالها ماتت، وكم أنار به من بصائر تحسبها طمست. ومن العجيب أن نرى بعض طلاب العلم يترفعون عن الوعظ، بل يتأففون من وصفهم بالوعاظ، مع أن أجل واعظ هو رب العزة ، قال: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ [النور: ١٧]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٢ (٤٤٤٨).
(٢) الفتاوى الكبرى ١/ ١١٧ بتصرف يسير.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ١٩ بتصرف واختصار.
(٤) صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [يونس: ٥٧]، وأمر نبيه ﷺ بهذه المهمة فقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ ﴾ [النساء: ٦٣]، وهو باب عظيم من أبواب الدعوة، قال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وكان هذا من هديه ﷺ فعن ابن مسعود ﷺ قال: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا"(١). فحياة الإيمان لا تستقيم إلا بالوعظ وتحريك القلوب، وإنما ذم السلف القصاص الذين زادوا وانتحلوا قصصا مكذوبة ليعظوا بها، وأما الكتاب والسنة والقصص الواقعي الذي فيه عبر فهو محمود مطلوب وقد فعله الأنبياء والصالحون والعلماء.

٣- ينبغي للعالم أن يخفض جناحه لطلابه، فلا يُرى إلا متواضعًا ليبلغ إليه كل أحد، وإذا سئل عن علمه يرد الفضل إلى الله ولا يرى من نفسه أنه أعلم الناس، وفي رواية البخاري: "فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه"(٢)، قال البخاري: (باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله)، وقال ابن بطال: (كان ينبغي أن يقول: الله أَعْلَمُ أي الناس أعلم، لأنه لم يُحِط علمًا بكل عالم في الدنيا، وقالت الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ [البقرة:٣٢]، وسئل رسول الله ﷺ عن الروح وغيره، فقال: لا أدرى حتى أسأل الله)(٣).

٤- في القصة فضل موسى ﷺ وتعريض ببني إسرائيل المتباهين على العرب بما عندهم من علم الكتاب، فلما عرفوا أن ما جاء به النبي ﷺ حق، وأن معه علما ليس معهم أبوا أن يذعنوا، بخلاف نبيهم موسى ﷺ، فقد

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٣٨ (٦٨)، صحيح مسلم ٤/ ٢١٧٢ (٢٨٢١).
(٢) صحيح البخاري ١/ ٥٦ (١٢٢).
(٣) شرح ابن بطال ١/ ٢٠٩ بتصرف واختصار.

كان يرى نفسه أعلم الناس، فلما علم أن هناك من هو أعلم تواضع لله وراح لطلب ما عنده من العلم، وهذا درس بليغ لطلاب العلم.

٥- في القصة بيان لفضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور، فإن موسى عليه السلام -وهو كليم الله ومن أولي العزم- عندما علم أن من عباد الله من هو أعلم، بادر بطلب لُقِيِّه للاستفادة، ففي الحديث: "فأوحى الله إليه إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يا رب فكيف لي به؟"(١). فترك بني إسرائيل، واختار السفر لزيادة العلم، فرحل في طلبه مسافة طويلة، وتجشم المشاق والمتاعب، ثم أثنى ربنا على ذلك، وخلد ذكره في القرآن، ليكون منهجًا ربانيًا. وقد بوّب البخاري: (باب ما ذكر في ذهاب موسى في البحر إلى الخضر)، قال ابن حجر: (هذا الباب معقود للترغيب في احتمال المشقة في طلب العلم، لأن ما يغتبط به تحتمل المشقة فيه، ولأن موسى لم يمنعه بلوغه من السيادة المحل الأعلى من طلب العلم وركوب البر والبحر لأجله)(٢)، قال النووي: (واستدل العلماء بفعل موسى ﷺ على استحباب الاستكثار منه وأنه يستحب للعالم وإن كان من العلم بمحل عظيم أن يأخذه ممن هو أعلم منه، ويسعى إليه في تحصيله)(٣).

٦- البداءة بالأهم فالأهم، فإن التعلم وزيادة العلم، أهم من ترك ذلك والاشتغال، والأكمل هو الجمع بين الأمرين.

٧- يستحب للمسافر في طلب العلم أو سفر طاعة أن يشد عزم رفيقه ويظهر له جلده في السفر وعزمه على بلوغ مقصوده، واحتمال المشقة مهما كانت، ولن يرجع إلا ظافرا بمراده ليقوي عزيمته، كما سبق قول ابن

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٢ (٤٤٤٨)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).
(٢) فتح الباري ١/ ١٦٨ بتصرف يسير.
(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٥/ ١٣٧ بتصرف واختصار.

عاشور على: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾: (وكأنه أراد تأييس فتاه من محاولة رجوعهما أو أراد شحذ عزيمة فتاه ليساويه في العزم حتى يكونا على عزم متحد)[١].

٨- سعى موسى عليه السلام للقي الخضر لأن الله زكى له علم الخضر، فينبغي أن نطلب العلم المزكى النافع دنيا وأخرى، وهو علم الشريعة الذي زكاه رب العزة وأمر نبيه أن يستزيد منه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي﴾.

٩- إذا عزم الإنسان على أمر وأخذ أهبته له فعليه أن يمضي إلى منتهاه ليحقق المرجو مهما طال الزمن وعظمت المصاعب، قال موسى عليه السلام: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾، إلا إذا طرأ طارئ أو بدا له ما هو خير. فإخفاق المشاريع يرجع إلى هذه الآفة؛ قصر النفس وضعف الهمة وعدم المثابرة، وفي التنزيل أن الملائكة لما أرشدوا لوطا عليه السلام للخروج من القرية قالوا: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥﴾ [الحجر].

١٠- المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه، وأين يريده، فإنه أكمل من كتمه، ففي إظهاره فوائد من الاستعداد، وإتيان الأمر على بصيرة، وإظهارًا لشرف هذه العبادة، كما قال موسى: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾، وكما أخبر النبي ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهه، مع أن عادته التورية، تبعا للمصلحة.

١١- العلم الذي يعلمه الله لعباده نوعان: مكتسب يدركه العبد باجتهاده، ولدني، يهبه الله لمن يمن عليه لقوله: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾.

١٢- قال البقاعي: (لا يلزم من العلم اللدني كان صاحبه نبياً أو ولياً معرفة

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٦٥ بتصرف واختصار.

كل شيء كما يدعي بعض الصوفية، لأن الخضر سأل موسى: من أنت؟)[١].

١٣- قال ابن عاشور: (وفي هذا [لن تستطيع معي صبرا] أصل من أصول التعليم؛ أن ينبه المعلم المتعلم بعوارض موضوعات العلوم الملقنة، لا سيما إذا كانت في معالجتها مشقة)[٢]، وقال البقاعي: (ويؤخذ منه أن العالم إن رأى في التغليظ ما يفيد نفعاً وإرشاداً إلى الخير كان عليه ذكره، فإن السكوت عنه يوقع المتعلم في الغرور، وذلك يمنعه من التعلم)[٣].

١٤- التأدب مع المعلم، وخطابه ألطف خطاب، لقول موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ مع أنه قطع مسافة طويلة ولقي مشقة كبيرة لصحبة الخضر، لكنه لم يقل مثلاً: أريد أن أتبعك، بل أخرجه بصورة الملاطفة والمشاورة، هل تأذن لي أم لا؟ وإقراره أنه يتعلم منه، بخلاف أهل الجفاء والكبر، الذين لا يظهر أحدهم للمعلم افتقاره، بل يدعي أنه يتعاون وإياه، بل ربما ظن أنه يعلم معلمه، وهو جاهل، فالذل للمعلم، وإظهار الحاجة لتعليمه، من أنفع شيء للمتعلم.

١٥- تواضع الفاضل لمن دونه في التعلم، فموسى أفضل من الخضر.

١٦- تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهر فيه، ممن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم، فإن موسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، الذين أعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا حرص على التعلم منه. فعلى هذا، لا ينبغي للفقيه المحدث، إذا كان قاصرا في علم النحو، أو الصرف، أو نحوه من العلوم، أن لا يتعلمه ممن مهر فيه، وإن لم يكن محدثا ولا فقيها.

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٧٧ بتصرف واختصار.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٢.
(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٦٩ بتصرف يسير.

١٧- إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها لقوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ أي: مما علمك الله تعالى.

١٨- العلم النافع هو المرشد إلى الخير، فكل علم يهدي لطرق الخير، ويحذر من الشر، أو كان وسيلة لذلك، فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك، فإما ضار، أو ليس فيه فائدة لقوله: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

١٩- من ليس له صبر على صحبة العالم والعلم، والثبات على ذلك، يفوته كثير من العلم فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن صبر أدرك، لقول الخضر يعتذر لموسى بذكر المانع في الأخذ عنه: إنه لا يصبر معه.

٢٠- أكبر سبب لحصول الصبر، إحاطة الإنسان علما وخبرة بالأمر الذي أمر بالصبر عليه، وإلا فما لا يدريه، أو لا يدري غايته، ولا فائدته وثمرته لا سبب عنده للصبر لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾، فجعل الموجب لعدم صبره، عدم إحاطته خبرا بالأمر.

٢١- التأني والتثبت، وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء، حتى يعرف المقصود كي لا يقع في الخطأ، قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات]، وقال ﷺ: "رَحْمَةُ الله عَلَيْنا وَعلى مُوسَى، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لأَبْصَرَ العَجَبَ"(١).

٢٢- المعَلم إذا رأى المصلحة في نصح المتعلم أن يترك السؤال عن بعض الأشياء، حتى يكون هو يوقفه عليها، فإن المصلحة تتبع، كما إذا كان فهمه قاصرا، أو نهاه عن الدقيق من الأشياء التي غيرها أهم منها، أو لا يدركها ذهنه، أو يسأل سؤالا لا يتعلق بموضع البحث.

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

٢٣- الرفق بالعلماء، فالخضر طلب من موسى أن يصبر ولا يبادر باستشكاله، وكان الصحابة لا يلحون على النبي ﷺ بالأسئلة إجلالاً ومهابة، وكي لا يشقوا عليه ولهذا كانوا يفرحون إذا جاء أعرابي يسأل.

٢٤- رفق العالم بتلاميذه ببذل العلم ولو لم يسألوه لأنهم إنما صحبوه لينهلوا من علمه، ولهذا بين الخضر لموسى علة ما فعل دون أن يسأله.

٢٥- لما عرف أصحاب السفينة الخضر لم يأخذوا أجرة، ففيه إكرام أهل العلم والفضل والصلاح، وهكذا ينبغي أن يكون الناس، وفي قبول ذلك دليل على جوازه ما لم يكن عن سؤال أو تشوف، أو على حساب الدين، وما لم يكن فيه منة، فقد نص أهل العلم أنه إن كان في صحراء وأراد الوضوء فلم يجد الماء وجاءه من يعرض عليه ماء ليتوضأ وغلب على ظنه أنه سيمن عليه بذلك فيجوز له أن يرفض الماء ويتيمم.

٢٦- اعتذار المعلم عن تلميذه إذا بدر منه أمر لا يرضى عنه تطييباً لخاطره، وذلك قول الخضر: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف]، كأنه يقول إن مخالفته كانت لأمر قاهر لم يكن له رده.

إن ما سبق من فوائد مع الإخلاص يعين العالم والمتعلم على النجاة من فتنة العلم، إذ يتم بها ضبط الخطوات في طريق العلم، كي لا تزل قدم بعد ثبوتها، وكي لا تتفرق بالطالب السبل فيضل عن سبيل الله.

فوائد متفرقة من القصة

١ - جواز أخذ الخادم حضرا وسفرا للمؤن والراحة، كما فعل موسى.

٢ - استحباب كون خادم الإنسان، ذكيا فطناً كيساً، ليتم له أمره الذي يريده، ولهذا انتقى موسى يوشع ليكون رفيقه، كما انتقى نبينا ﷺ الصديق في هجرته الخالدة، فكان كل منهما نعم الصاحب والرفيق لنبيه.

٣- استحباب التواضع والرفق ورحمة الخدم، فموسى عليه السلام أكل مع فتاه، وعده شريكا له في كل شيء، فأخبره عن جهة المسير وقال: (آتنا غداءنا) (لقد لقينا) (ذلك ما كنا نبغ)، ولم يكلفه ما لا يطيق، بل حمله المكتل فقط. فمن المؤسف ما نراه من سوء معاملة الخدم، معاملة لا تليق بالبشر أحيانا، فيعرضونهم للإهانة والقسوة والغلظة وربما الضرب، وهم بذلك عاصون لرسول الله ﷺ إذ يقول: "إِنَّ إِخْوَانَكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَأَعِينُوهُمْ"[1].

٤ - إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، على وجه التسويل والتزيين، وإن كان بقضاء الله وقدره، لقول يوشع: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ﴾.

٥ - جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس، من نصب أو جوع، أو عطش، إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقا، لقول موسى: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾.

٦ - المعونة تنزل على العبد بحسب قيامه بالمأمور، والموافق لأمر الله،

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٤٩ (٢٥٤٥)، صحيح مسلم ٣/ ١٢٨٢ (١٦٦١).

يعان ما لا يعان غيره لقوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ إشارة إلى السفر المجاوز لمجمع البحرين؛ وأما الأول، فلم يشتك منه التعب مع طوله، لأنه هو المأمور به، وفي الحديث: "ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به"(١)، وبهذا يعلم أن من جاوز الشرع ناله من النصب بقدر ذلك، ولا يعترض بأن ما وقع كان بغير عمد، لأن الكلام ليس عن المؤاخذة وإنما عن التعب، إذ الفلاح وطيب العيش باتباع الشرع، وكل مجاوزة له ولو عن غير عمد فيها عنت ومشقة على صاحبها، والله أعلم.

٧- تعليق الأمور المستقبلية من أفعال العباد بالمشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل، إلا أن يقول {إِنْ شَاءَ اللهُ}.

٨- أن العزم على فعل الشيء، ليس بمنزلة فعله، فإن موسى قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾، فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل.

٩- جواز ركوب البحر، في غير الحالة التي يخاف منها.

١٠- أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه لا في حق الله، ولا في حقوق العباد لقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾.

١١- أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم، العفو منها، وما سمحت به أنفسهم، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون، أو يشق عليهم ويرهقهم، فإن هذا مدعاة إلى النفور منه والسآمة، بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر، وهذا كقول موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾.

١٢- أن الأمور تجري على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام، فموسى عليه السلام أنكر على الخضر خرق السفينة والقتل، لأن ظاهرها منكر، ولا يسعه السكوت عنها في غير هذه الحال، فاستعجل وبادر إلى الحكم في حالتها

(١) صحيح البخاري ٣/ ١١٩٤ (٣١٠٤).

العامة، ولم يلتفت إلى العارض الذي يوجب عليه الصبر، وعدم الإنكار.

١٣- القاعدة الجليلة "يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير"، ويراعى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما، فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما، أعظم شرا، وإن كان يظن أنه خير، فالخير ببقاء دين أبويه وإيمانهما أهم، فلذا قتله الخضر، وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ما لا يدخل تحت الحصر، فتزاحم المصالح والمفاسد كله داخل فيه. قال ابن حجر: (وأما من استدل به [أي فعل الخضر] على جواز دفع أغلظ الضررين بأخفهما، والإغضاء على بعض المنكرات مخافة أن يتولد منه ما هو أشد، فصحيح، لكن فيما لا يعارض منصوص الشرع، فلا يسوغ الإقدام على قتل النفس ممن يتوقع منه أن يقتل أنفساً كثيرة قبل أن يتعاطى شيئا من ذلك، وإنما فعل الخضر ذلك لإطلاع الله تعالى عليه)(١).

١٤- القاعدة الكبيرة أيضاً أن عمل الإنسان في مال غيره، على وجه المصلحة وإزالة المفسدة، يجوز ولو بلا إذن ولو ترتب عليه إتلاف بعضه، كما خرق الخضر السفينة لتعاب فتسلم من الغصب. وعليه لو وقع حرق أو غرق أو نحوهما، في مال إنسان، وكان إتلاف بعضه فيه سلامة للباقي، جاز ذلك، حفظا لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال افتداء للباقي جاز، ولو من غير إذن.

١٥- أن العمل يجوز في البحر، كما يجوز في البر لقوله: {يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ} ولم ينكر عليهم عملهم.

١٦- أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته، ولا يخرج بذلك

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٢٢.

عن اسم المسكنة، لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين، لهم سفينة.

١٧ - أن القتل من أكبر الذنوب لقوله: {لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا}.

١٨ - أن القتل قصاصا غير منكر لقوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾.

١٩ - أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه، وفي ذريته.

٢٠ - أن خدمة الصالحين، أو من يتعلق بهم، أفضل من غيرها، لأنه علل استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما، أن أباهما صالح.

٢١ - استعمال الأدب مع الله في الألفاظ، فإن الخضر أضاف عيب السفينة لنفسه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وأضاف الخير لله: {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا}، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وقالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، والكل بقضاء الله.

٢٢ - أنه ينبغي للصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال، ويترك صحبته، حتى يعتبه، ويعذر منه، كما فعل الخضر مع موسى.

٢٣ - أن موافقة الصاحب لصاحبه، في غير الأمور المحذورة، مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة.

٢٤ - أن هذه القضايا التي أجراها الخضر، هي قدر محض جعله الله على يده، ليستدل العباد بها على ألطافه، وأنه يقدر على العبد أمورا يكرهها وهي صلاح دينه، كما في قضية الغلام، أو صلاح دنياه كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجا من لطفه وكرمه، ليرضوا غاية الرضا بأقداره.

٢٥ - مشروعية التزود في السفر، فقد أرشد الله موسى عليه السلام أن يتخذ زاداً له حوتاً مملحاً، كما في الحديث. قال ابن الجوزي: (لا خلاف بين الفقهاء أنه لا يجوز دخول البادية بغير زاد، وأن من فعل ذلك فمات بالجوع فإنه عاص مستحق لدخول النار، وكذلك إذا تعرض بما غالبه العطب،

فإن الله جعل النفوس وديعة عندنا، فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩])[١]، وقال القرطبي: (في آية ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ دليل على سؤال القوت، وأن من جاع وجب عليه طلب ما يرد جوعه خلافًا لجهال المتصوفة)[٢].

٢٦- إثبات حق الضيافة لعابر السبيل إذا نزل بأحد من الحي أو القرية، فعن أبي شريح العدوي قال: "سمعت أذناي وأبصرت عيناي حين تكلم النبي ﷺ فقال: ... ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته. قال: وما جائزته؟ قال: يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه"[٣]، وعن عقبة بن عامر: "قلنا للنبي ﷺ: إنك تبعثنا فننزل بقوم لا يقْرونا فما ترى فيه؟ فقال: إن نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف"[٤].

قال الحافظ: (وظاهر هذا الحديث أن قرى الضيف واجب، وأن المنزول عليه لو امتنع من الضيافة أخذت منه قهرًا، وقال به الليث مطلقًا، وخصه أحمد بأهل البوادي دون القرى، وقال الجمهور: الضيافة سنة مؤكدة وأجابوا عن حديث الباب بأجوبة أحدها حمله على المضطرين)[٥].

٢٧- وفي الآيات أن المكلف بعمل لا يؤخره عن وقته، لأن في تأخيره تفويت مصلحة من توقيته غالبًا، فتأمل لو تأخر الخضر عن ركوب السفينة أو دخول القرية، لربما أخذ الملك السفينة، أو انقض الجدار وأخذ

---

(١) تلبيس إبليس ص٢٦٦ بتصرف يسير.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٤ بتصرف يسير.
(٣) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٤٠ (٥٦٧٣)، صحيح مسلم ٣/ ١٣٥٢ (٤٨).
(٤) صحيح البخاري ٢/ ٨٦٨ (٢٣٢٩)، صحيح مسلم ٣/ ١٣٥٣ (١٧٢٧).
(٥) فتح الباري ٥/ ١٠٨.

الكنز، فهذه الصلاة وهي أعظم عبادة بعد الشهادتين وصفها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ١٠٣﴾ [النساء]، فتأخير الصلاة عن وقتها تفويت لمصلحة أرادها الشارع، وباقي العبادات كذلك.

٢٨- قال ابن بطال: (في قصة الخضر أصل عظيم من أصول الدين، أن ما تعبَّدَ الله به خلقه من شريعته، يجب أن يكون حجة على العقول، ولا تكون العقول حجةً عليه، ألا ترى أن إنكار موسى على الخضر خرق السفينة وقتل الغلام، كان صوابًا في الظاهر، وكان موسى غير ملوم في ذلك، فلما بَيَّن الخضر وجه ذلك ومعناه، صار قول موسى خطأ، وفعل الخضر صوابًا، وهذا حجةٌ قاطعة في أنه يجب التسليم لله في دينه، ولرسوله في سنته وبيانه لكتاب ربه، واتهام العقول إذا قصرت عن إدراك الحكمة في ذلك، فإنه محنة من الله لعباده، واختبار ليتم البلوى عليهم. ولمخالفة هذا ضل أهل البدع حين حكموا عقولهم وَرَدُّوا إليها ما جهلوه من معاني القدر وشبهه، وهذا خطأ، لأن عقول العباد لها نهاية، وعلم الله لا نهاية له، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فما أخفاه عنهم فهو سِرُّ الله الذي استأثر به، فلا يحل تعاطيه، ولا يُكلَّف طلبه، فإن المصلحة للعباد في إخفائه، والحكمة في طَيِّه، والله هو الحكيم العليم)(١).

وهذا كلام متين في الجملة، إلا أن الحافظ اعترض عليه بقوله: (واستدلاله به على أنه لا يجوز الاعتراض بالعقل على الشرع، خطأ؛ لأن موسى إنما اعترض بظاهر الشرع لا بالعقل المجرد، ففيه حجة على صحة الاعتراض بالشرع على ما لا يسوغ فيه، ولو كان مستقيما في باطن

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال ١/ ٢٠٠ بتصرف واختصار.

الأمر)[1]، ولا شك أن ابن بطال لو أراد ذلك لتوجه الاعتراض، ولكن يمكن حمل كلامه على التمثيل لمن يعترض على الشرع بعقله المجرد، لأن الصورة في الظاهر واحدة، لا أنه أراد أنه عليه السلام اعترض بالعقل المجرد، والله أعلم.

٢٩- وفيها أن موسى عليه السلام لم يعتمد على منزلته وأنه كليم الله ليلزم الخضر بمصاحبته، بل سأله الصحبة بتلطف، وفي هذا مزيد أدب ورفع للحرج عن الخضر، بخلاف فعل كثير من الثقلاء إذ يغشون المجالس والمنتديات وغيرها ويفرضون أنفسهم على أصحابها لمكانتهم أو صفتهم، فعلى المرء أن يتلطف ولا يكون ثقيلا على أحد ولا حتى أهل بيته، بل ولا على نفسه؛ بأن يكرهها على بعض المباحات أو المستحبات، ويستثنى من ذلك ما دعت إليه الضرورة أو الحاجة، والأمور تقدر بقدرها.

٣٠- وعد موسى بالصبر ولم يصبر، لأنه كان بين: الوفاء بالشرط والسكوت عما يراه مخالفا للشرع أو الإنكار، مع أنه اعتل بالنسيان، إلا أن الآية دليل أن الأصل أن ينكر المنكر، لأنه لا معصوم بعد الأنبياء، فلا قيمة لمثل هذا الشرط إلا مع معصوم. بل إن هذا النسيان لم يعتره إلا لأنه رأى منكرا أذهله عن الشرط الذي هو أصل تحقق الرفقة التي سعى لها.

٣١- الحذر من الاستغراق في اللحظة الحاضرة، فإن موسى عليه السلام قد علم ابتداء أنه سيرى من الخضر ما لا يمكن قبوله بادي الرأي وقبل الصحبة بشرط عدم السؤال، لكنه حين رأى ما أنكر استغرقه الحدث عما سواه فنسي الشرط فخسر صحبة العبد الصالح، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم:

(١) فتح الباري ١/ ٢٢٠.

"يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما"(١).

٣٢- المنكرات تتفاوت في درجاتها، وبحسب تفاوتها تتفاوت شدة الإنكار، فموسى عليه السلام وصف قتل النفس بـ (نكرا)، ووصف خرق السفينة بـ (إمرا)، والأول أشد لأن القتل أشنع، فأمر القتل والدماء أعظم من إتلاف المال، بل أول ما يسأل عنه يوم القيامة من حقوق العباد الدماء، فليتق الله أقوام يستهينون بالدماء، لا سيما وهم يسفكونها باسم الجهاد.

٣٣- الرفق بالصاحب واحتمال ما يصدر منه من أخطاء، فالخضر لم يفارق موسى عليه السلام من أول مرة، بل صبر مرتين وفارقه في الثالثة، وقد ذكره موسى عليه السلام بالرفق: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ٧٣﴾ [الكهف]، ولما اشتد في الثانية استعطفه ووعده أن الثالثة هي الفاصلة، فعلى المرء أن يترفق بمن حوله ولا يتشدد من أول الأمر، وليتخلق بأخلاق النبي ﷺ الذي: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ١٢٨﴾ [التوبة]، بخلاف كثير من الناس تجدهم عذابا على من حولهم من زوج أو طلاب أو موظفين.

٣٤- يحسن بمن يقومون بعمل مشترك وضع نظام للدخول والخروج، فالخضر عليه السلام اشترط على موسى ألا يسأله، فكان معذورا في قطع الصحبة، ولم يكن لموسى عليه السلام إلا أن يعذره مع دوام الود والاحترام، بخلاف ما نجده بين كثير من الشركاء إذ يتفق على البدء، ولا يتفق على الخروج وطريقته، مما قد يفتح بابا للحرج وربما المشكلات. إن الاتفاق على نظام للخروج من أنواع الرحمة، وانظر إلى حال كثير من النصارى الذين لا يقع الاتفاق بينهم وبين أزواجهم، وانظر إلى معاناة كثير منهم في الطلاق وما قد يتبع ذلك من وقوع في الرذيلة واتخاذ الأخدان.

(١) صحيح البخاري ١/ ٥٦ (١٢٢)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

٣٥- تعليل الأحكام مبدأ عظيم له أثر كبير في النفوس، فإن موسى عليه السلام لم يصبر لأنه لم يعرف العلة، فلما علم اطمأنت نفسه وسلم، وكذلك ينبغي للقائد أو الزوج أو المربي أن يبين علة قراراته ما وجد سبيلا، فإنه أدعى للقبول. بل حتى الخدم، لا ينبغي أن يعاملهم كأنهم همل، بل يتواضع ولا بأس أن يبين لهم. وفي الحديث: "أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كِخْ كِخْ، ارْمِ بِهَا، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟"(١)، فلم يكتف بنهيه بل بين له العلة.

٣٦- سبق أن أصحاب السفينة لما رأوا الخضر عرفوه ووصفوه بالعبد الصالح ولم يأخذوا منه أجرة، ولم ينقل أنهم اعترضوا على خرق السفينة كما اعترض موسى، وفي هذا إشارة إلى أن العامة إذا وثقوا في شخص قبلوا أعماله وإن كانت في الظاهر خاطئة، وهو سلاح ذو حدين، فإن كان صالحاً وجههم لفعل الخيرات، وإلا كانوا أداة بيده للإفساد.

٣٧- بركة الصلاح تنال صاحبها وتنال ذريته، فقد حفظ الله الوالدين بصلاحهما من شر ابنهما، وحفظ اليتيمين بصلاح والدهما، قال النبي ﷺ: "احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ"(٢)، في نفسك وفي أولادك؛ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

٣٨- ما يقضيه الله على عبده المؤمن كونا وشرعا كله خير، فقتل الغلام آلم والديه وأحزنهما لكنه خير لهما، وما داما مؤمنين فسوف يتعاملان مع القدر الكوني بالقدر الشرعي وهو الصبر وهو خير، قال ﷺ: "عَجَبًا

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ٧٤ (٣٠٧٢)، صحيح مسلم ٢/ ٧٥١ (١٠٦٩).
(٢) سنن الترمذي ٤/ ٦٦٧ (٢٥١٦)، وصححه الألباني.

لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"[1].

٣٩- يجوز دفن المال إذا دعت الحاجة ولم يخش التلف مع وضع علامة.

٤٠- قال ابن عثيمين: (يؤخذ من ذلك قتل الكافر خوفاً من نشر كفره في الناس)[2]، فكيف بمن ينشره بالفعل؟ فلولي الأمر قتله تعزيراً.

٤١- حكم الخضر على موسى أنه لن يستطيع معه صبراً مع أنه لم يبل صبره من قبل ولا اجتمع به، وإنما حكم بما جرت عليه عادة الناس وأنهم لا يطيقون صبراً على مثل هذه الأمور، فهذا أصل في الحكم بالعادة.

٤٢- لم يجابه الخضر الملك الظالم ولم يحاول الإنكار عليه، وبدل ذلك خرق السفينة، وهذا يدل على أنه توجد حالات لا يمكن أن يزيل المؤمن فيها كل المنكر أو يغيره بيده، فيكتفي حينها بالأنسب والممكن، وقد وقع هذا للأنبياء، بل لنبينا ﷺ، فقد طاف بالكعبة والأنصاب حولها ولا يكسرها ولا يأمر أحداً بكسرها، ويقول لآل ياسر: صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة، ولم يكلف أحداً أن يقتل من يعذبهم خفية مثلاً.

٤٣- استحباب العناية بأولاد الصالحين كما أقام الخضر الجدار لليتيمين إكراما لصلاح والدهما، فيستحب تفقدهم وحل مشاكلهم وإعانتهم لا سيما إن كانوا يتامى.

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٩٥ (٢٩٩٩).

(٢) تفسير العثيمين لسورة الكهف ص: ١٢٣ بتصرف واختصار.

تفسير الآيات من: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ إلى: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

مناسبة الآيات لما قبلها:

جاءت قصة ذي القرنين جواباً عن السؤال الثالث من أسئلة كفار قريش بإيعاز من اليهود، وأجيب عن سؤال الروح في الإسراء، وعن أهل الكهف وذي القرنين هنا، وتظهر مناسبة قصته بعد موسى والخضر بما قاله البقاعي رحمه الله: (لما فرغ من قصة هي طواف الأرض لطلب العلم، عقبها بقصة من طاف الأرض للجهاد، وقدم الأولى لعلو درجة العلم، فقال عاطفاً على ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [الكهف: ٥٦]: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن﴾ الصالح المجاهد ﴿ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ﴾، وصدّرها بسؤالهم لأنهم لم يسألوا عما قبلها على ما فيها من لطائف وأسرار ومعارف، تبكيتاً لليهود في إغفال السؤال عنها إن كان مقصودهم الحق، وإن لم يكن مقصوداً كانوا بالتبكيت أجدر، أو تكون معطوفة على مسألتهم الأولى وهي الروح، وصدرها بالإخبار بالسؤال لطول الفصل، لأن ذلك كله مرتبط بجوابهم)[1].

قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾

قال ابن كثير: (﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ عن خبره)[2]، فهذا الرجل الطوّاف هو ذو القرنين. قال ابن عاشور: (فالسائلون: قريش لا محالة، والمسؤول عنه: من عظماء العالم عرف بذي القرنين، كانت أخبار سيرته خفية مجملة، فسألوا النبيء عن تحقيقها وتفصيلها، وأذن له الله أن يبين منها موضع

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٧٨ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٩ بتصرف يسير.

العبرة للناس في الصلاح والعدل، وفي عجيب صنع الله في اختلاف الخلق، فكان اليهود منفردين بمعرفة إجمالية عن المسائل الثلاث، فلذلك جربوا بها نبوءة محمد ﷺ)(١)، قال الألوسي: (أكثر الآثار على أن الآية نزلت بعد سؤالهم فالتعبير بالاستقبال لاستحضار الماضي لما في سؤالهم مع ما شاهدوا نوع غرابة، وقيل: لاستمرارهم على السؤال إلى ورود الجواب)(٢).

قال ابن عاشور: (والمراد بالسؤال عن ذي القرنين السؤال عن خبره، فحذف المضاف إيجازاً، وكذلك في قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ أي من خبره و(من) تبعيضية، والذكر: التذكر والتفكر، أي سأتلو عليكم ما به التذكر، فجعل المتلو نفسه ذكراً مبالغة بالوصف بالمصدر)(٣).

قال ابن عاشور: (والأمر في: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم﴾ إذن من الله لرسوله بأن يَعِد بالجواب عن سؤالهم عملا بقوله: {ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله} على أحد تأويلين. والسين في: ﴿سَأَتْلُوا۟﴾ لتحقيق الوعد كما في قوله: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ في يوسف [٩٨]. وجعل خبر ذي القرنين تلاوة وذكرا لأن المهم من أخباره ما فيه تذكير وما يصلح للتلاوة حسب شأن القرآن فإنه يتلى لأجل الذكر ولا يساق مساق القصص. وقوله: ﴿مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ تنبيه على أن أخباره كثيرة وإنما يهمهم بعضها لتفيد ذكرا وعظة. ولذا لم يقل عن أهل الكهف: نحن نقص عليك من نبئهم، لأن قصتهم منحصرة فيما ذكر، وأحوال ذي القرنين غير منحصرة فيما هنا)(٤).

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ١٧ بتصرف يسير.
(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣٨٢.
(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ١٨ بتصرف واختصار.
(٤) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٣ بتصرف واختصار.

مسائل تتعلق بذي القرنين

أولاً- سبب التسمية: قال ابن الجوزي: (وفي علَّة تسميته عشرة أقوال:

أحدها: أنه دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فهلك، فغبر زماناً، ثم بعثه الله، فدعاهم فضربوه على قرنه الآخر فهلك، فذانك قرناه، قاله علي.

والثاني: أنه سار إلى مغرب الشمس وإلى مطلعها، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس.

والرابع: لأنه رأى في المنام كأنه امتد من السماء إلى الأرض وأخذ بقرني الشمس، فقصَّ ذلك على قومه، فسمِّي بذي القرنين.

والخامس: لأنه مَلَك الروم وفارس. والسادس: لأنه كان في رأسه شبه القرنين، رويت هذه الأقوال الأربعة عن وهب بن منبِّه.

والسابع: لأنه كانت له غديرتان من شعر، قاله الحسن. قال ابن الأنباري: والعرب تسمي الضفيرتين من الشعر غديرتين، وجميرتين، وقرنين؛ قال: ومن قال: سمي بذلك لأنه ملك فارس والروم، قال: لأنهما عاليان على جانبين من الأرض يقال لهما: قرنان.

والثامن: لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت ذوي شرف.

والتاسع: لأنه انقرض في زمانه قرنان من الناس، وهو حيّ.

والعاشر: لأنه سلك الظلمة والنور، ذكر الأقوال الثلاثة الثعلبي)(١).

والذي يظهر لي والله أعلم أن تسميته بذي القرنين ينبغي أن يكون وصفاً مختصاً به لا يشركه فيه غيره، إما في كل الأزمنة أو في زمنه خاصة،

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ٣/ ١٠٥ بتصرف واختصار.

وأشبه الأقوال بذلك وألصقها بسياق القصة هو الثاني، أي لأنه سار إلى مغرب الشمس وإلى مطلعها، وهذا يتضمن ملك فارس والروم، ولا يتعارض مع كونه ذا ذؤابتين إن صح، فعن مجاهد قال: (ملك الأرض مشرقها ومغربها أربعة نفر: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان وذو القرنين، والكافران: بختنصر ونمرود بن كنعان، لم يملكها غيرهما)(١).

ثانياً- حقيقة ذي القرنين:

جاء في بعض الآثار عن عمر وعلي رضي الله عنهما ما يشعر أن ذا القرنين كان ملَكاً، وهذا بعيد ولعله لم يصح، وعن علي ﷺ نفي كونه ملكاً كما يأتي. وكما وقع خلاف في نبوة الخضر وقع في نبوة ذي القرنين، إلا أن خلافهم في ذي القرنين لم يكن بقوته؛ لأن أفعاله لم يكن في ظاهرها ما يخالف الشرع بخلاف أفعال الخضر، فهان الأمر، وقد قال بكل قول بعض أصحاب النبي ﷺ، قال البغوي رحمه الله: (قال أبو الطفيل: سئل علي ﷺ عن ذي القرنين؟ قال: لم يكن نبياً ولا ملَكاً، ولكن كان عبداً أحب الله وأحبه الله، ناصح الله فناصحه الله. والأكثرون على أنه كان ملِكاً عادلاً صالحاً)(٢)، وقال الشوكاني: (وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عمرو قال: ذو القرنين نبيّ)(٣)، وبكل من القولين قال بعض أهل العلم، قال الألوسي: (وإلى أنه ليس بنبي ذهب الجمهور وتوقف بعضهم)(٤).

أما القائلون بنبوته فاستدلوا بأدلة، قال الرازي: (الأول: قوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والأولى حمله على التمكين في الدين والتمكين الكامل في

(١) تفسير الطبري ٥/ ٤٣٣ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير البغوي ٥/ ١٩٧ بتصرف واختصار.
(٣) فتح القدير ٤/ ٤٢٣.
(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣٩١.

الدين هو النبوة. والثاني: قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾، ومن جملة الأشياء النبوة فمقتضى العموم أنه تعالى آتاه في النبوة سبباً. الثالث: قوله: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ والذي يتكلم الله معه لا بد وأن يكون نبياً)[1]، ولا يخفى ضعف الأول والثاني؛ أما الأول فقد (قال الله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور:٥٥]، فالتمكين في الدين يكون للأنبياء وأتباعهم الصالحين، فلا يصلح هذا دليلا على نبوة ذي القرنين)[2]. وأما الثاني فلأن العموم هنا معناه أنه أوتي من كل شيء أوتيه مثله من الملوك كأسباب القوة والتمكين، كما قال تعالى عن بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، وليست نبية باتفاق.

وأما قوله: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ فلعله أقوى الأدلة، قال ابن الجوزي: (فمن قال: إنه نبيّ، قال: هذا وحي؛ ومن قال: ليس بنبي، قال: إلهام)[3]، قال الألوسي: (واستدل بالآية من قال بنبوته، والقول عند بعضهم بواسطة ملَك وعند آخرين كفاحاً، ومن لم يقل بنبوته قال: كان بواسطة نبي، أو إلهاماً لا وحياً بعد أن كان التخيير موافقاً لشريعة ذلك النبي)[4].

ولا يلزم من الآية أن يكون الكلام مخاطبة من الله لذي القرنين، فقد قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [النساء:١٥٤]. ولم يقل أحد: إن هذا كان مواجهة لهم، وإنما قاله الله لبني

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ٢٤٦ بتصرف واختصار.
(٢) قصة ذي القرنين ويأجوج ومأجوج للدكتور عبدالعظيم بدوي بتصرف.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٤٧ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣٩٦.

إسرائيل عن طريق موسى كليمه ورسوله عليه الصلاة والسلام.

وأعلى ما يقال في قوله: ﴿قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ إن لم يكن بواسطة نبي ذلك الزمان، فيكون بواسطة إلهام ألهمه الله. والإلهام لا ينتهض دليلاً؛ فإن الله سمى الإلهام الذي ألهمه أم موسى وحياً ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ﴾ [القصص:٧]. فهذا الوحي لم يكن وحي نبوة وإنما كان وحي إلهام، ولم يقل أحد إن أم موسى نبية.

وقد رجح بعض المعاصرين التوقف إذ لا يوجد نقل عن معصوم يرجح أحد القولين، وكلاهما محتمل، ويؤيد ذلك قول النبي ﷺ: "ما أدري تبع ألعيناً(١) كان أم لا، وما أدري ذا القرنين أنبياً كان أم لا، وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا؟"(٢)، وفي هذا نظر، لأن الحديث ضعفه بعض أهل العلم، وفيه اضطراب في موضع الشاهد على فرض حسنه في الجملة؛ فقد روي بلفظ: "وما أدري ذا الكفل كان نبيا أم لا". وإثبات النبوة يحتاج إلى دليل والأصل عدمه فالراجح من أقوال المفسرين: أن ذا القرنين لم يكن نبياً ولكن كان ملكاً صالحاً من أولياء الله، وهو اختيار شيخ الإسلام، قال رحمه الله: (وقد اختلف في نبوَّته والصحيح أنه لم يكن نبياً)(٣).

---

(١) قال الألباني في السلسلة الصحيحة ٥/ ٢١٦: تنبيه: وقع في " المستدرك " في الموضع الأول منه " تبع أنبيا "، وأظنه خطأ من بعض نساخ " المستدرك " أو الطابع، والصواب ما أثبتناه، وهو رواية البيهقي عن الحاكم، وكذلك هو في رواية الآخرين عن عبد الرزاق، وفي رواية آدم بن أبي إياس أيضاً. ا.هـ

(٢) المستدرك ١/ ٩٢ (١٠٤)، قال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين ولا أعلم له علة ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في الصحيحة ٥/ ٢١٦: هو كما قالا.

(٣) الرد على البكري ١/ ١٥٧.

ثالثاً- من هو ذو القرنين؟

اختلف أهل العلم في ذي القرنين، من هو؟ ونحن على عادتنا لا نعول على الأقوال التي لم يرد فيها خبر عن معصوم، إذ لا فائدة في ما طوى الله عنا علمه ولم يكلفنا به. ولم يرد في القرآن ولا السنة تحديده، ومع ذلك اجتهد بعضهم في تحديد هويته، فيرى الزحيلي وأبو الكلام آزاد أنه الملك قورش الفارسي في القرن السادس ق.م، ويرى شبلي النعماني أنه دارا الكبير ملك الفرس في القرن الخامس ق.م، ويذهب صلاح الدين عرفة إلى أنه سليمان عليه السلام، ويذهب أحدهم إلى أنه (أمنحوتب الرابع) الذي ملك مصر بعد غرق أبيه فرعون الذي طارد بني إسرائيل، وكل هذه الأقوال بلا برهان بل القرائن تحكم ببطلانها جميعاً، فالله أعلم به.

يقول د. علي الصلَّابي: (عندما طالعت الكتب عن ذي القرنين خرجت بنتيجة هي: لا يمكننا الجزم بشخصيته ولا رحلاته الثلاث التي أشار إليها القرآن، ولا تحديد السد الذي بناه على الأرض. فالقرآن والسنة لم يتعرضا لتلك التفصيلات، وبما أنهما سكتا عن التفصيل، فلا دلالة يقينية عليها؛ ولذلك يكون كلام المفسرين وأهل التاريخ والعلماء عنها من باب الظن[(١)]. لقد قالوا: إن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني؛ لأن البلاد التي استولى عليها امتدت لمشارق الأرض ومغاربها. وقيل: قورش الإخميني؛ لإجماع المؤرخين على عدالته وحسن سيرته. وقيل: أبو كرب شمر بن عمرو الحميري. لقد ناقش الأستاذ محمد خير يوسف الأقوال السابقة، وخرج بنتيجة أنه لم يكن واحدًا من هؤلاء، ونقد الآراء السابقة نقدًا علميًا

---

(١) انظر: صلاح الخالدي- مع قصص السابقين في القرآن ٦/ ٢٥٤، ٢٥٥ بتصرف.

متينًا، وقال: "ذو القرنين القرآني الذي ذكره الله في كتابه، وأثنى عليه بالإيمان والعدل، في سورة قرآنية عظيمة، وآيات إعجازية جليلة، وقصة تاريخية نادرة، مليئة بالدروس والعبر، والعظات والمبادئ والحكم. إنه علم قرآني بارز، خلّد الله ذكره، فاستحق أن ينال لقب "القرآني" وكفى! ولم أشأ أن أقول غير هذا؛ لأنني لم أرَ من أعطى شخصيته حظًّها في التاريخ مثلما أعطى الله في كتابه العظيم، إنه الرجل الطوّاف في الأرض، الصالح العادل، الخاشع لربه، والمنفذ لأمره، والقائم بين الناس بالإصلاح، والذي ملك أقاصي الدنيا وأطرافها، فلم يغره مال ولا منصب ولا جاه ولا قوة ولا سلطان، بل بقي ذاكرًا لفضل ربه ورحمته، متأهبًا لليوم الآخر، ليلقى جزاءه العادل عند ربه."[1]) ا.هـ من بحث الصلابي.

وهنا **فائدة في المنهج القرآني الذي يطوي في أحيان كثيرة ذكر الأشخاص**، ويظهر الخصال والأوصاف التي يدعو إليها ويرغب فيها، أو العكس.

فالله تعالى ما سمى لنا كثيراً من أنبيائه، ولا قص أخبارهم علينا، كما قال: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤]، فالتسمية وتركها والقص وتركه بحسب الثمرة والعبرة، وإلا فلا نشك أن الرسل الذين لم يقص علينا خير من ذي القرنين، وأنباؤهم خير من أنباء كثير من الصالحين، وإنما قص لعبرة، وطوى اكتفاء بأخبار من ذكر من الأنبياء، ومع ذلك فقد يشيد الله بتسمية بعض الصالحين والملائكة والمرسلين، ولا يحفل بذكر الطغاة؛ ولا أعلم اسم كافر مصرح به غير أربعة؛ آزر وجالوت وقارون وهامان أما فرعون فلقب، والسامري نسبة،

(١) محمد خير رمضان: ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح ٢٤٧-٢٤٩ بتصرف.

وأبو لهب كنية، ذكر بكنيته سخرية منه واستهزاء. والعبرة مما سبق:

١ - أن الأفعال هي التي تبقى بعد أن طي ذكرك وذهاب اسمك.

إن ملوك الدنيا إلى زوال، وقد يجيء يوم تمحى فيه أسماؤهم من التاريخ، ويبقى الذخر والذكر في الآخرة لهم بحسب أعمالهم.

٢ - لا تعلق بالأشخاص في الدين، لكن العبرة بالأفعال، فما وافق شرع الله ودينه أشيد به ودعي للأخذ به وما خالفه رد.

قال ابن عاشور: (ولم يتجاوز القرآن ذكر هذا الرجل بأكثر من لقبه المشتهر به إلى تعيين اسمه وبلاده وقومه، لأن ذلك من شؤون أهل التاريخ والقصص وليس من أغراض القرآن، فكان منه الاقتصار على ما يفيد الأمة من هذه القصة عبرة حكمية أو خلقية)[1].

رابعاً- هل هو الإسكندر المقدوني؟

ذهب الرازي وغيره إلى أن ذا القرنين المذكور هو الإسكندر المقدوني نفسه، وربما هذا أشهر ما يتداوله العامة، فلزم التنبيه، إذ على فرض أن اسمه الإسكندر، وأن المقدوني يلقب بذي القرنين، فقد قام بعض أهل العلم بتفنيد كون ذي القرنين في الآيات هو المقدوني، وفي هذا ما يستحق الوقوف؛ قال شيخ الإسلام: (والجهال يظنون أن هذا الإسكندر [المقدوني] هو ذو القرنين المذكور في القرآن، ويعظمون أرسطو ويظنون أنه كان وزيره، وهذا من جهلهم، فإن الذي كان وزيره أرسطو، هو ابن فيلبس المقدوني، الذي يؤرخ له اليهود والنصارى، وكان قبل المسيح بنحو ثلاث مئة عام، وهو الذي قهر الفرس [وذهب إلى أرض القدس]، ولم

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ١٨.

يصل إلى سد يأجوج ومأجوج. [وكان مشركا يعبد الأصنام وكذلك أرسطو وقومه]. وأما ذو القرنين المذكور في القرآن فهو من أهل الإيمان والتوحيد، [وكان متقدماً على هذا (بمدة عظيمة) ومن يسميه الإسكندر يقول هو الإسكندر بن دارا]، وقد اختلف في نبوّته والصحيح أنه لم يكن نبياً، وقد كان قبل هذا بمئين من السنين، وهو الذي بنى سد يأجوج ومأجوج، وكان الله قد مَكّن له في الأرض، و آتاه من كل شيء سبباً، فقهر الجبابرة و أذلّهم، وسار بالعدل فيما آتاه الله)(١).

وذهب ابن كثير رحمه الله إلى أن ذا القرنين لقب الاثنين؛ قال رحمه الله: (فأما ذو القرنين الثاني فهو إسكندر بن فيلبس المقدوني باني إسكندرية الذي يؤرخ بأيامه الروم، وكان متأخراً عن الأول بدهر كان هذا قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة وكان أرسطاطاليس وزيره وإنما نبهنا عليه لأن كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد، فيقع بسببه خطأ كبير وفساد عريض، فإن الأول كان مؤمنا وملكا عادلا وكان وزيره الخضر، وقد كان نبياً(٢) على ما قررناه، وأما الثاني فكان مشركا ووزيره فيلسوفا وبين زمانيهما أزيد من ألفي سنة. فأين هذا من هذا؟ لا يستويان)(٣)، قال الشوكاني: (والذي يستفاد من كتب التاريخ أنهما اثنان، كما ذكره السهيلي والأزرقي وغيرهم لا كما ذكر الرازي وادّعى أنه الذي تشهد به كتب التواريخ)(٤). قال ابن عاشور رحمه الله: (ولما ظن كثير من الناس أن ذا القرنين المذكور هو إسكندر بن فيليبوس

---

(١) الرد على البكري ١/ ١٥٧، وما بين الأقواس في الرد على المنطقيين ص١٨٦،١٨٢، ٢٨٣ بتصرف واختصار.

(٢) يعني بذلك الخضر.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ١٢٥ بتصرف واختصار.

(٤) فتح القدير ٤/ ٤١٩ بتصرف يسير.

نحلوه بناء السد وزعموه من صنعه كما نحلوه لقب ذي القرنين. وكل ذلك أوهام على أوهام ولا علاقة لإسكندر المقدوني بقصة ذي القرنين)[1].

خامساً- هل السد هو سور الصين العظيم: استظهر ابن عاشور رحمه الله قولاً غريباً ذاع وانتشر بين المعاصرين، وهو أن الردم الذي بناه ذو القرنين هو سور الصين العظيم، قال رحمه الله: (فالذي يظهر لي أن ذا القرنين كان من ملوك الصين لوجوه: أحدها: أن الصين اشتهر أهلها منذ القدم بأنهم أهل تدبير وصنائع. الثاني: أن معظم ملوكهم كانوا أهل عدل وتدبير. الثالث: أن من سماتهم تطويل الشعر وجعله ضفيرتين فيظهر وجه تعريفه بذي القرنين. الرابع: أن سدا وردما عظيما لا نظير في العالم موجود بين الصين والمغول، مشهور في الجغرافيا والتاريخ بالسور الأعظم، وسيرد وصفه. الخامس: ما روت أم حبيبة عن زينب بنت جحش رضي الله عنهما، أن النبيء ﷺ خرج ليلة فقال: «ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج هكذا»، وأشار بعقد تسعين (أعني بوضع طرف السبابة على طرف الإبهام). وقد كان زوال عظمة سلطان العرب على يد المغول في بغداد، فتعين أن ياجوج وماجوج هم المغول، وأن الردم هو الفاصل بين المغول والصين، وبانيه من ملوكهم، وأن وصفه بذي القرنين توصيف لا تلقيب، مثل التعبير عن شاول ملك إسرائيل باسم طالوت. وهذا الملك هو الذي بنى السد بين الصين ومنغوليا. واسم هذا الملك (تسينشي هوانفتي) أو (تسين شي هوانق تي). وكان موجودا سنة سبع وأربعين ومائتين قبل ميلاد المسيح فهو متأخر عن المقدوني بنحو قرن.

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٣ بتصرف واختصار.

وبلاد الصين في ذلك العصر كانت متدينة بدين (كنفيشيوس) المشرع المصلح، فلا جرم أن يكون أهل شريعته صالحين)[١].

وهذا الذي ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ باطل من وجوه؛ أولها: أن اشتهار أهل الصين بالصنائع لا يمنع أن غيرهم اشتهر بها، وثانيها: أن اشتهار ملوكها بالعدل لا يلزم أن يكون هذا فيهم جميعاً، وقد كان في غيرهم ملوك عادلون كذلك، وثالثها: أن تطويل شعورهم لا يمنع أن يطيلها غيرهم، رابعها: أن الثالث مبني على الجزم بسبب تسميته بذي القرنين بلا دليل قاطع، خامسها: أنه إن صح فلا وجه لتخصيصه من قومه بهذا اللقب إن كان من سماتهم! سادسها: أن عدم وجود بنية تشبه سور الصين لا يلزم منه أن يكون هو ردم ذي القرنين، سابعها: وهو ظاهر جداً، أن السور مبني من الحجارة والطين كأمثاله، لا من الحديد والنحاس، وليس على الصفة العجيبة التي جاء بها القرآن من القوة والملاسة، ثامنها: -وهو أظهرها في إبطال مقالته- أن الشرع يُبطِل استدلاله بحديث أم سلمة على كون المغول هم يأجوج ومأجوج، فمعلوم أن خروجهم في آخر الزمان بعد نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأن الله يهلكهم بدود يبعثه عليهم وأن عيسى والمسلمين معه لا يقاتلونهم، وهذا مخالف لأمر المغول، وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: "ويل للعرب من شر قد اقترب" بسبب ما فتح من ردم يأجوج ومأجوج لا يعني قرب ظهور المغول، بل هو أشبه بأحاديث قرب الساعة لا سيما وأن خروج يأجوج ومأجوج يكون قريباً منها، وكون ظهور المغول على المسلمين شراً لا يلزم منه أن يكون الشر المعني في كلام النبي ﷺ، والله أعلم.

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٢ بتصرف واختصار.

أما قوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾

فقد قال ابن كثير: (أي: أعطيناه ملكًا عظيمًا متمكنًا، فيه له من جميع ما يؤتى الملوك، من التمكين والجنود، وآلات الحرب؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب، ودانت له البلاد، وخضعت له الملوك، وخدمته الأمم؛ ولهذا ذكر أنه سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها)(١).

قال ابن عاشور: (التمكين: جعل الشيء متمكناً، أي راسخاً، وهو تمثيل لقوة التصرف بحيث لا يزعزع قوته أحد. وحق فعل (مكنا) التعدية بنفسه، فيقال: مكناه في الأرض كقوله: ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾ [الأنعام: ٦]، فاللام في: مكنا له للتوكيد كاللام في قولهم: شكرت له، ونصحت له، فمعناه إعطاء المقدرة على التصرف، والسبب: حقيقته الحبل، وأطلق هنا على ما يتوسل به من علم أو مقدرة أو آلات استعارة)(٢).

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسدي، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: يعني علمًا. وقال قتادة: منازل الأرض وأعلامها. وقال عبد الرحمن بن زيد: تعليم الألسنة، كان لا يغزو قومًا إلا كلمهم بلسانهم. وقد قال الله في حق بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النمل: ٢٣] أي: مما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين يسر الله له الأسباب، أي: الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والبلاد وكسر الأعداء، وكبت الملوك، وإذلال أهل الشرك. قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سببًا، والله أعلم)(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٩ بتصرف واختصار.
(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٣ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٩ بتصرف واختصار.

وقوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾

قال ابن كثير: (قال ابن عباس: يعني: بالسبب المنزل، وقال مجاهد: منزلا وطريقًا ما بين المشرق والمغرب، وفي رواية عن مجاهد: طريقا في الأرض، وقال قتادة: أي أتبع منازل الأرض ومعالمها، وقال الضحاك: أي: المنازل، وقال سعيد بن جبير: علمًا. وهكذا قال عكرمة وعبيد بن يعلى، والسدي، وقال مطر: معالم وآثار كانت قبل ذلك)(١).

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾

قال ابن كثير: (أي: فسلك طريقًا حتى وصل لأقصى الأرض ناحية المغرب. وأما مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره أصحاب الأخبار أنه سار في الأرض مدّة والشمس من ورائه فلا حقيقة له، وأكثره من خرافات أهل الكتاب. وقوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، وهي لا تفارق الفلَك الذي هي مثبتة فيه. والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين من "الحمأة" وهو الطين، كما قال: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ٢٨﴾ [الحجر] أي: طين أملس، وعن ابن عباس: "في عين حامية" يعني: حارة. وكذا قال الحسن. وقال ابن جرير: هما قراءتان مشهورتان وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب. قلت: ولا منافاة بين معنييهما، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وَهْج الشمس وملاقاتها الشعاع بلا حائل و﴿حَمِئَةٍ﴾ في ماء وطين أسود، كما قال كعب الأحبار وغيره)(٢). وقال

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩١ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٢ بتصرف واختصار.

القرطبي: (قال القتبي[1]: ويجوز أن تكون العين من البحر، ويجوز أن تكون الشمس تغيب وراءها أو معها أو عندها، فيقام حرف الصفة مقام صاحبه)[2]، وقال الألوسي: (المراد بالعين الحمئة إما عين في البحر أو البحر نفسه، وتسميته عيناً لا بأس به وهو بالنسبة لعظمة الله كقطرة وإن عظم عندنا)[3].

قال ابن كثير: (﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أمة عظيمة من بني آدم، ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ مكنه الله منهم وحكمه فيهم، وأظفره بهم وخيره: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء منّ أو فدى. فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه)[4]، قال الطبري: (يقول: إما أن تقتلهم إن لم يدخلوا في الإقرار بتوحيد الله، ويذعنوا بما تدعوهم إليه من طاعة ربهم ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ وإما أن تأسرهم فتعلمهم الهدى وتبصرهم الرشاد)[5].

وقال السعدي: (أي: إما أن تعذبهم بقتل، أو ضرب، أو أسر ونحوه، وإما أن تحسن إليهم، فخير بين الأمرين، لأن الظاهر أنهم كفار أو فساق، أو فيهم شيء من ذلك، لأنهم لو كانوا مؤمنين، لم يرخص في تعذيبهم)[6].

---

(١) هو خطيب أهل السنة، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦) رحمه الله.
(٢) تفسير القرطبي ١١/ ٥٠ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣٩٤ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٣ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٩٧ بتصرف واختصار.
(٦) تفسير السعدي ١/ ٤٨٥ بتصرف يسير.

شبهة وجوابها

يزعم بعض الملاحدة أن قوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ خرافة، لأن الشمس لا تغرب في الأرض حقيقة، وإنما ساد هذا في الماضي لمعارفهم القاصرة، مما يدل على أن القرآن ليس من عند الله ﷻ، وأنه اختلاق النبي ﷺ! وهذا يذكرنا بقول سلفهم: إن هذا إلا أساطير الأولين، ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة]، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف].

الجواب: مع أن أهل العلم قديماً لم تعرض لهم هذه الشبهة، ولم يخطر ببالهم أن تتفتق الأذهان عن عبقرية هؤلاء الملاحدة، إلا أن كلامهم حوى جواباً لها، قال ابن كثير رحمه الله: (﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، وهي لا تفارق الفلَك(١) الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه)(٢)، قال ابن الجوزي: (وربما توهَّم متوهِّم أن الشمس على عِظَمها تغوص في عين ماءٍ، وليس كذلك. فإنها أكبر من الدنيا مراراً، فكيف تَسَعُها عين ماء؟!. وإنما وجدها تغرب في العين كما يرى راكب البحر أن الشمس تغيب في الماء، وذلك لأن ذا القرنين انتهى إلى آخر البنيان فوجد عيناً حَمِئة ليس بعدها أحد)(٣)، وقال ابن عاشور: (والمراد بمغرب الشمس مكان مغربها من حيث يلوح الغروب من جهات المعمور من طريق

(١) الفلك هو بتعبير المعاصرين المدار أو المسار الذي تسير فيه الكواكب والنجوم.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩١ بتصرف واختصار.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٤٧ بتصرف واختصار.

غزوته. حيث يلوح أنه لا أرض وراءه بحيث يبدو الأفق من جهة مستبحرة، إذ ليس للشمس مغرب حقيقي إلا فيما يلوح للتخيل)[١].

وقولـه : ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ٨٧ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾

قال الطبري: (يقول: أما من كفر فسنقتله ثم يرجع إلى الله، فيعذبه عذاب النكر، جهنم، وأما من صدق الله ووحّده، وعمل بطاعته، فله الحسنى، الجنة، ﴿جَزَآءً﴾ يعني ثوابا على إيمانه وطاعته، وسنعلمه في الدنيا ما تيسر تعليمه ما يقرّبه إلى الله ونلين له القول)[٢]، قال ابن عاشور: (الظلم: الشرك، بقرينة قسيمه في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، واجتلاب سوف في: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ لأنه سيدعوه للإيمان فإن أصر على الكفر عذبه، وصرح بهذا في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي بعد كفره، وليس المراد المؤمن الآن، لأن التخيير بين تعذيبهم والإمهال يمنع أن يكون فيهم مؤمنون حين التخيير. والمعنى: فسوف نعذبه عذاب الدنيا ولذلك أسنده إلى ضميره ثم قال: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ وذلك عذاب الآخرة)[٣].

وعذاب الآخرة حق وهو حسي ومعنوي؛ أما الحسي فما يلاقونه من نارها وحرها، طعامهم الزقوم وشرابهم يغلي في البطون، سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار، لا يخفف عنهم العذاب لحظة، ويتمنون الموت فلا يجدونه، فهم في شر مقيم. والمعنوي تتعدد صوره من وقت البعث إذ يعاينون ما جحدوا، ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٥ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٩٩ بتصرف واختصار.
(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٧ بتصرف واختصار.

﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾ [يس]، ثم يبدأ العذاب من الذلة والمهانة، ثم تتقطع أكبادهم إذ يرون الموت يذبح، ثم تنقطع آمالهم في تخفيف يوم من العذاب، ثم يتلاومون ويتلاعنون ويتبرأ بعضهم من بعض، وغير ذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾، فقد قال الطبري: (اختلفت القراء في ذلك، فقرأته عامَّة قرّاء أهل المدينة وبعض أهل البصرة والكوفة (فَلَهُ جَزَاءُ الحُسْنَى) برفع الجزاء وإضافته إلى الحسنى. وله وجهان من التأويل:

أحدهما: الحسنى إيمانه وأعماله الصالحة، فيكون المعنى: وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاؤها، يعني جزاء هذه الأفعال الحسنة.

والوجه الثاني: الحسنى: الجنة، وأضيف الجزاء إليها، كما قيل ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ والدار: هي الآخرة، وكما قال: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾.

وقرأ آخرون: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بمعنى: فله الجنة جزاء فيكون منصوبا على المصدر، بمعنى: يجازيهم جزاء الجنة)[١].

قال السعدي: (فكان عند ذي القرنين من السياسة الشرعية ما استحق به المدح والثناء، لتوفيق الله له لذلك، فقال: سأجعلهم قسمين... وهذا يدل على كونه من الملوك الصالحين الأولياء، العادلين العالمين، حيث وافق مرضاة الله في معاملة كل أحد بما يليق بحاله)[٢].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ قال ابن كثير: (ثم سلك طريقًا فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها)[٣]، وقال الطبري: (وجد الشمس تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا، لأن أرضهم لا جبل فيها ولا شجر، ولا تحتمل بناء، فيسكنوا

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٩٩ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير السعدي ١/ ٤٨٥.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٣.

البيوت، وإنما يغورون في المياه، أو يسربون في الأسراب[١])[٢].

قال القرطبي: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي حجابا يستترون منها عند طلوعها)[٣].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾

قال ابن الجوزي: (﴿كَذَٰلِكَ﴾ فيه أربعة أقوال؛ أحدها: كما بلغ مَغْرِب الشمس بلغ مطلعها، والثاني: أتبع سبباً كما أتبع سبباً، والثالث: كما وجد أولئك عند مَغْرِب الشمس وحكم فيهم، كذلك وجد هؤلاء عند مطلعها وحكم فيهم، والرابع: أن المعنى: كذلك أمْرُهم كما قصصنا عليك)[٤].

قال الطبري: (﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ وقد أحطنا بما عند مطلع الشمس علما لا يخفى علينا ما هنالك من الخلق وأحوالهم، ولا من غيرهم شيء)[٥]، وقال ابن كثير: (قال مجاهد والسدي: علمًا، أي: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى علينا منها شيء، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض)[٦]، وقال ابن عاشور: (الخُبْر: العلم والإحاطة بالخَبَر، كناية عن كون المعلوم عظيماً لا يحيط به علماً إلا علام الغيوب)[٧].

---

(١) جمع سرب، قال ابن منظور في لسان العرب ١/ ٤٦٢: حَفِير تحتَ الأَرض وقيل بَيْتٌ تحتَ الأَرضِ.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٩٩ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٥٣.

(٤) زاد المسير ٤/ ٢٤٩.

(٥) تفسير الطبري ١٨/ ١٠١ بتصرف يسير.

(٦) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٤.

(٧) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٠ بتصرف واختصار.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قال ابن كثير: (أي: ثم سلك طريقًا من مشارق الأرض. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلان متناوحان بينهما ثُغْرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيهم فسادًا، ويهلكون الحرث والنسل)(١)، أما قوله هنا (بين السدين) وقوله في الآية التالية (سداً) فقد قال ابن عاشور: (السد- بضم السين وفتحها-: الجبل. ويطلق على الجدار الفاصل، لأنه يسد به الفضاء، وقيل: الضم في الجبل والفتح في الحاجز، والمراد بالسدين الجبلان، وبالسد الجدار الفاصل، والقرينة هي التي عينت المراد من هذا اللفظ المشترك. وتعريف السدين للجنس، أي اتبع طريقا آخر في غزوه حتى بلغ بين جبلين معلومين)(٢).

قال ابن كثير: (﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لاستعجام كلامهم وبعدهم عن الناس)(٣)، وقال ابن الجوزي: (﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ يعني: أمام السدين ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «يَفْقَهُون» بفتح الياء، أي: لا يكادون يفهمونه. قال ابن الأنباري: معناه يفهمون بعد إبطاءٍ، كقوله: ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة]. قال المفسرون: كانوا كذلك لأنهم لا يعرفون غير لغتهم. وقرأ حمزة، والكسائي: «يُفْقِهُون» بالضم، أي: يُفْهِمُون غيرهم)(٤).
غيرهم)(٤).

قال ابن عاشور: (والمعنى لا يعرفون شيئا من قول غيرهم فلغتهم

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٥.
(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٠ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٥.
(٤) زاد المسير ٤/ ٢٥٠ بتصرف واختصار.

مخالفة للغات الأمم المعروفة لا يعرفها تراجمة ذي القرنين لأن شأن الملوك أن يتخذوا تراجمة للأمم الذين يحتاجون إلى مخاطبتهم، فهؤلاء القوم كانوا يتكلمون بلغة غريبة لانقطاع أصقاعهم عن الأصقاع المعروفة فلا يوجد من يستطيع إفهامهم ولا هم يستطيعون الإفهام، ويجوز أن يكون المعنى أنهم متوغلون في البداوة والبلاهة فلا يفهمون ما يقصده من يخاطبهم)(١).

فائدة- الفقه يشمل العلم والفهم، وكثير من الناس عندهم علم ولكن لا فقه لهم، فقد يحفظ أحدهم الكتاب وكثيراً من الأحاديث، ولا يكون معه شيء من الفقه، وفي الحديث: "رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ"(٢)، وقد أثنى النبي ﷺ على من رزق العلم والفهم فقال: "مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ"(٣).

إن علماً قليلاً بفقه وعمل، أفضل من كثير بلا فقه ولا عمل، وقد ذكِر معروف الكرخي رحمه الله وهو من كبار الزهاد والصالحين في مجلس الإمام أحمد (فقال بعض من حضر: هو قصير العلم، فقال أَحْمَد: أمسك، عافاك الله، وهل يُراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف)(٤)، يريد بذلك الخشية، قال عبد الله بن أَحْمَد: (قلت لأبي: هل كان مع معروف الكرخي شيء من العلم؟ فقال لي: يا بني، كان معه رأس العلم، خشية الله)(٥).

وقد ضرب الله ﷻ أسوأ مثلين لمن يحمل العلم ولا يعمل به: ﴿ وَٱتْلُ

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٣١ بتصرف واختصار.
(٢) سنن أبي داود ٣/ ٣٢٢ (٣٦٦٠)، وصححه الألباني.
(٣) صحيح البخاري ١/ ٣٩ (٧١)، صحيح مسلم ٢/ ٧١٩ (١٠٣٧).
(٤) تاريخ بغداد ١٥/ ٢٦٣.
(٥) السابق.

عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥].

وقوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾

قال البغوي: (فإن قيل: كيف قالوا ذلك وهم لا يفقهون؟ قيل: كلم عنهم مترجم، دليله: قراءة ابن مسعود: (لا يكادون يفقهون قولا، قال الذين من دونهم يا ذا القرنين)[١]، والأولى أن يحمل على أنهم فعلوا ذلك بعد لأي وإبطاء، كان ذلك لإيغالهم في البلاهة أو لغرابة منطقهم ولسانهم.

أما يأجوج ومأجوج فقال الطبري: (هم أمتان من وراء السدّ)[٢]، قال البغوي: (﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قرأهما عاصم بهمزتين وكذلك في الأنبياء، والآخرون بغير همز في السورتين وهما لغتان أصلهما من أجيج النار وهو ضوؤها وشررها شبهوا به لكثرتهم وشدتهم، وقيل: بالهمزة من أجيج النار وبتركه أعجميان كهاروت وماروت)[٣]، وقال ابن عاشور: (اختلف المفسرون في أنه عربي أو معرب، وغالب ظني أنه اسم وضعه القرآن حاكى به معناه في لغة تلك الأمة المناسب لحالهم فاشتق لهما من مادة الأج، وهو الخلط، إذ قد علمت أن تلك الأمة كانت أخلاطا من أصناف)[٤].

---

(١) تفسير البغوي ٥/ ٢٠١ بتصرف يسير.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١٠٣.
(٣) تفسير البغوي ٥/ ٢٠١ بتصرف واختصار.
(٤) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٤.

قال ابن الجوزي: (﴿مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في هذا الفساد أربعة أقوال: أحدها: أنهم كانوا يفعلون فِعْل قوم لوط، قاله وهب بن منبِّه.

والثاني: أنهم كانوا يأكلون الناس، قاله سعيد بن عبد العزيز.

والثالث: يُخرِجون إلى الأرض الذين شَكَوْا منهم أيام الربيع، فلا يَدَعون شيئاً أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه إلى أرضهم، قاله ابن السائب. والرابع: كانوا يقتلون الناس، قاله مقاتل)[1]، وفي الجملة يظهر من شكاية القوم أنهم تأذوا منهم أذىً شديداً لم يجدوا دفعاً له سوى بناء السد بينهم وبين يأجوج ومأجوج، فطلبوا ذلك من ذي القرنين.

قال ابن عاشور: (والاستفهام في قوله: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ للعرض، والخَرْج: المال يدفع للملك. ويقال فيه الخراج بألف بعد الراء، وكذلك قرأه حمزة، والكسائي، وخلف)[2]. قال ابن الجوزي: (وهل بينهما فرق؟ فيه قولان؛ أحدهما: أنهما لغتان بمعنى، قاله أبو عبيدة، والليث. والثاني: أن الخَرْجَ: ما تبرعت به، والخراج: ما لزمك أداؤه، قاله أبو عمرو بن العلاء. قال المفسرون: المعنى: هل نُخرج إليك من أموالنا شيئاً كالجُعل لك؟)[3].

قال ابن كثير: (﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ عن ابن عباس: أجرًا عظيمًا، أرادوا أن يجمعوا له مالاً يعطونه إياه، حتى يجعل بينهم وبينهم سدًا. فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾)[4].

أما قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٥١.

(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٤ بتصرف واختصار.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٥١ بتصرف يسير.

(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٦ بتصرف يسير.

فقال ابن كثير: (ما أعطاني الله من الملك والتمكين خير مما تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦﴾ [النمل] قال ذو القرنين: ما أنا فيه خير مما تبذلون، لكن ساعدوني ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعملكم وآلات البناء)[1]، قال الطبري: (وقوله: ﴿أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾ أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج. والردم: حاجز الحائط والسدّ، إلا أنه أمنع وأشدّ، يقال منه: قد ردم فلان موضع كذا يَردِمه رَدْما ورُدَاما ويقال: رَدَّم ثوبه يردمه، وهو ثوب مُرَدّم: كثير الرقاع)[2]، وقال القرطبي: (قيل: الردم أبلغ من السد، إذ السد كل ما يسد به، والردم وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه، ليقوم منه حجاب منيع)[3].

وقوله: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ قال الطبري: (قال ذو القرنين: (آتُونِي) جيئوني بِزُبَرِ الحديد، جمع زُبْرة، القطعة من الحديد)[4]، وقال القرطبي: (وأصلها الاجتماع، ومنه زبرة الأسد لما اجتمع من الشعر على كاهله. وزبرت الكتاب أي كتبته وجمعت حروفه)[5]. قال ابن عاشور: (﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ أشعرت "حتى" بشيء مُغَيًّا قبلها، وهو محذوف تقديره: فآتوه زبر الحديد فنضدها وبناها حتى إذا جعل ما بين الصدفين مساويا لعلوهما. وهذا من إيجاز الحذف. والمساواة: جعل الأشياء متساوية، أي متماثلة في

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٦ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١١٣ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٥٩ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ١١٤ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير القرطبي ١١/ ٦١.

مقدار أو وصف)[١]، قال ابن كثير: (وضع بعضه على بعض من الأساس حتى حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضًا)[٢]، قال القرطبي: (﴿بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ قال أبو عبيدة: جانبا الجبل، وسميا بذلك لتصادفهما أي لتلاقيهما)[٣].

قال الطبري: (﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾) قال للفَعَلة: انفخوا النار على الزبر من الحديد، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ والتقدير: فنفخوا، حتى إذا جعل ما بين الصدفين من الحديد ناراً ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾)[٤]، قال ابن عاشور: (حذف متعلق انفخوا لظهوره من كون العمل في صنع الحديد. والتقدير: انفخوا في الكيران أي المصفوفة، على ما بين الصدفين من زبر الحديد)[٥].

قال القرطبي: ("حَتَّى إذا جَعَلَهُ ناراً" أي كالنار. ومعنى: ﴿ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أعطوني قطرا أفرغ عليه، بالتقديم والتأخير. ومن قرأ: "ائتوني" فالمعنى تعالوا أفرغ عليه)[٦]. قال ابن الجوزي: (وفي القِطْر أربعة أقوال: أحدها: النحاس، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والفراء والزجاج. والثاني: الحديد الذائب، قاله أبو عبيدة. والثالث: الصُّفْر المُذاب، قاله مقاتل. والرابع: الرصاص، حكاه ابن الأنباري. قال المفسرون: أذاب القِطْر ثم صبَّه عليه، فاختلط والتصق حتى صار جبلاً صلداً من حديد

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٧ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٦.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٦١.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ١١٦ بتصرف واختصار.
(٥) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٧ بتصرف واختصار.
(٦) تفسير القرطبي ١١/ ٦٢.

وقِطْر. قال قتادة: فهو كالبُرد المحبر، طريقة سوداء وطريقة حمراء)[١].

لطيفة- في بناء الردم على هذا الوصف رحمة الله بعباده وقدرته، قال أبو السعود: (لأن تلك الزُبَرَ الكثيرةَ إذا أثرت فيها حرارةُ النار لا يقدر الحيوانُ على أن يحوم حولها فضلاً عن النفخ فيها إلى أن تكون كالنار، أو عن إفراغ القِطر عليها، فكأنه سبحانه صرف تأثيرَ الحرارةِ العظيمة عن أبدان أولئك المباشرين للأعمال فكان ما كان، والله على كل شيء قدير)[٢].

وقوله: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾

قال ابن منظور: (الاستطاعة القدرة على الشيء)[٣]، قال الطبري: (فما اسطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا الردم، فيصيروا فوقه وينزلوا إلى الناس. يقال: ظهر فوق البيت: إذا علاه، ومنه قولهم: ظهر فلان على فلان: قهره وعلاه ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ ولم يستطيعوا نقبه من أسفل)[٤]، وقال القرطبي: (ما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدوا فيه، لأنه أملس مستو مع الجبل والجبل عال، ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ لبعد عرضه وقوته)[٥]، وقال الشوكاني: (نقبت الحائط: خرقت فيه خرقا فخلص لما وراءه)[٦].

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٥٢ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٩.
(٣) لسان العرب ٨/ ٢٤٢
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ١١٧ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير القرطبي ١١/ ٦٢ بتصرف واختصار.
(٦) فتح القدير ٣/ ٣٧٠ بتصرف واختصار.

لطائف قرآنية في استخدام لفظ الاستطاعة

قال تعالى عن الخضر: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَلَيْهِ صَبْرًا ٧٨﴾ [الكهف]، وقال عنه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَلَيْهِ صَبْرًا ٨٢﴾ [الكهف]، وفي قصة ذي القرنين: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ٩٧﴾ [الكهف]، فنجد في قصة الخضر مرة (تستطع) وفي الثانية (تسطع)، وفي قصة ذي القرنين مرة (اسطاعوا) وفي الثانية (استطاعوا)، وقد استخرج العلماء من هذا التغاير عدداً من اللطائف الجديرة بالتأمل، ولكن قبل ذكر ذلك نذكر الفروق بينها من جهة اللغة.

قال ابن الجوزي: («استطاع» و«اسطاع» بمعنى واحد)[1]، وقال ابن الجوزي: (﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾ أصله: فما «استطاعوا» فلما كانت التاء والطاء من مخرج واحد أحبُّوا التخفيف فحذفوا. قال ابن الأنباري: تقول العرب: اسطاع، تخفيفاً، كما قالوا: سوف يقوم وسيقوم، فأسقطوا الفاء)[2]، ووافقه ابن عاشور فقال: ("تَسْطِعْ" مضارع اسطاع بمعنى استطاع. حذف تاء الاستفعال تخفيفاً لقربها من مخرج الطاء)[3]، وقال القرطبي: (﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾ بتخفيف الطاء على قراءة الجمهور. وقيل: هي لغة بمعنى استطاعوا. وقيل: بل استطاعوا بعينه كثر في كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاء فقالوا: اسطاعوا. وحذف بعضهم منه الطاء فقال: استاع يستيع بمعنى استطاع يستطيع، وهي لغة مشهورة)[4].

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٤٥.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٥٢ بتصرف يسير.
(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ٧.
(٤) تفسير القرطبي ١١/ ٦٣ بتصرف يسير.

فإذا كان لا يوجد فرق في المعنى فلم حصل التغاير؟

قال ابن كثير رحمه الله: (قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي: هذا تفسير ما ضقت به ذرعًا، ولم تصبر حتى أخبرك به، ولما فسره له وأزال المشكل قال: ﴿مَا لَمْ تَسْطِع﴾ وقبل ذلك كان الإشكال ثقيلا فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ۝٩٧﴾ [الكهف]، وهو أشق، فقابل كلا بما يناسبه لفظًا ومعنى)[1]، وقال: (لما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلا بما يناسبه، وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه، ولا على شيء منه)[2]. وقال ابن عاشور رحمه الله: (استطاعة نقب السد أقوى من استطاعة تسلقه، فهذا من مواضع دلالة زيادة المبنى على زيادة في المعنى)[3]، وعلى هذا جرى نظم القرآن في قصة الخضر، فإن موسى كان محتاجا لمزيد صبر على الإنصات للخضر ليعلم علة فعله فأثبت التاء بقوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٧٨﴾ [الكهف]، ولما علم العلة حذفها: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢﴾ [الكهف]؛ وكذلك فإن الخضر بعد أن أنهى تعليل أفعاله كان يريد متابعة الانطلاق في رحلته بلا تأخر فناسب حذف التاء، وهذا كله متسق مع قاعدة زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، والله أعلم.

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٨ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٧ بتصرف واختصار.

(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٨.

تنبيه- يرد في كلام المفسرين واللغويين وصف شيء في القرآن بأنه زائد، وهذا يوهم أن المعنى لا يتغير بحذفه، وأنه لا فائدة منه، فهذا باطل ولا يصح مطلقاً، فمن هذه الجهة لا يوجد شيء زائد في القرآن البتة ولا حرف واحد، وقد رأينا آنفاً أن زيادة التاء أو حذفها في اسطاعوا واستطاعوا تفيد من جهة المعنى، وأما إن أريد بباب الزيادة في النحو فلا بأس، ولا مشاحة في الاصطلاح فإن العرب لم تكن تعرف النحو ولا أبوابه. وكذلك ما كان من تكرار لبعض الجمل مثل: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، ليست زائدة من جهة المعنى بحيث لا يؤثر حذفها، بل يمكن أن يستنبط منها فوائد كثيرة، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وأقل ما يقال هنا هو الفائدة المعنوية والأثر النفسي الذي يتركه تكرار الجملة، وقد كان النبي ﷺ يكرر الكلام ثلاثاً ليقرع سمع السامع فيفهمه ويقر في قلبه. وقد صنف في تكرار القرآن جماعة كالكرماني وابن عطاء وابن جماعة.

وقوله : ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾

قال الطبري: (فلما رأى ذو القرنين أن يأجوج ومأجوج لا يستطيعون أن يظهروا الردم، ولا يقدرون على نقبه، قال: هذا الذي بنيته رحمة من ربي رحم بها من دون الردم من الناس، فأعانني حتى بنيته وسوّيته ليكفّ غائلة هذه الأمة عنهم. وقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ يقول: فإذا جاء وعد ربي الذي جعله ميقاتا لظهور هذه الأمة وخروجها من وراء الردم. جعله دكاء، يقول: سواه بالأرض، فألزقه بها، من قولهم: ناقة دكاء:

مستوية الظهر لا سنام لها. والمعنى: جعله مدكوكا، فقيل: دكاء)[١].

وقال ابن الجوزي: (لَمّا فرغ ذو القرنين من بنيانه قال هذا. وفيما أشار إليه قولان. أحدهما: أنه الرَّدم، قاله مقاتل؛ والمعنى: هذا نِعْمة من ربِّي على المسلمين لئلا يخرجوا إليهم، والثاني: أنه التمكين الذي أدرك به عمل السد، قاله الزجاج. وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ فيه قولان؛ أحدهما: القيامة. والثاني: وعده لخروج يأجوج ومأجوج)[٢].

ولا مانع من الجمع بينهما، فالله وعد بيوم القيامة وبخروج يأجوج ومأجوج عند اقترابها، وخروجهم من علامات الساعة، فعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: "اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال ما تذاكرون؟ قالوا نذكر الساعة. قال إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم"[٣]، فالمعنى: إذا اقتربت الساعة التي وعد الله الخلق وفتح ردم يأجوج ومأجوج وسواه الله بالأرض خرجوا على الناس كما وعد الله سبحانه، ويبينه قوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء].

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١١٨ بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٥٢ بتصرف يسير.
(٣) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٢٥ (٢٩٠١).

قال الطبري: (﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ وكان وعد ربي الذي وعد خلقه في دكّ هذا الردم، وخروج هؤلاء القوم على الناس، وعيثهم فيه، وغير ذلك من وعده حقاً، لأنه لا يخلف الميعاد فلا يقع غير ما وعد أنه كائن)[1].

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١٢٠ بتصرف يسير.

فوائد ودروس وعبر من قصة ذي القرنين[(١)]

اشتملت القصة على فوائد كثيرة جديرة بالتأمل والإذاعة فمن ذلك:

١- أن القرآن ليس كتاب تاريخ ولا سير، وما يقصه يؤتى به للاعتبار، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾، ولذا لما ذكر سؤالهم عن ذي القرنين لم يقل سأتلو قصته، وإنما بعض ما في قصته من الذكر والموعظة النافعة.

٢- أن الأولى الاقتصار على ما جاء في القرآن والسنة لمعرفة حقيقة القصص المذكورة، لأن التأخير عن وقت البيان لا يجوز، فلو كان لذكرها حاجة لذكرها، فلا داعي لحشو الكتب بالإسرائيليات. ومن بركة هذا أن الاقتصار عليه يعين على التدبر والتفكر، وهما مقصدان مهمان، وإلا فإن كثرة الحشو والتفريع والإسرائيليات تذهب روح التدبر.

٣- أسلوب السؤال والجواب ورد في مواضع عدة من القرآن، وورد لأغراض متعددة؛ فمنه ما يكون للتعلم، كما وقع من الصحابة بقولهم: ﴿يَسْئَلُونَكَ﴾ أو ﴿وَيَسْئَلُونَكَ﴾، فيأتيهم الجواب من الله ﷻ بواسطة رسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ أو ﴿فَقُلْ﴾. فهذا من أفضل وأنفع وسائل التعليم، لأنه يقوم على التفاعل بين المعلم والتلميذ، فيجعل المعلومات أكثر رسوخاً في ذهنه.

ومنها ما يكون للإنكار كما كان من المشركين حيث أنكروا قتل بعض

---

(١) كثير من هذه الفوائد المذكورة هنا تجده في مقالات وأبحاث عدد من الفضلاء وهم: د.عثمان قدري مكانسي "تأملات تربوية في قصة ذي القرنين"، الأستاذ عمر جمال النشيواتي "ذو القرنين وعمارة الأرض وقفات"، الشيخ ناصر الأحمد "خطبة منشورة على الإنترنت"، مدونة الدكتور أبو مروان "إضاءات نهضوية في قصة ذي القرنين"، الدكتور محمد بسام يوسف "التمكين في الرؤية الإسلامية من خلال قصة ذي القرنين"، د. علي الصلابي "فقه التمكين عند ذي القرنين".

أصحاب النبي ﷺ واحداً من المشركين خطأ في الأشهر الحرم، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فأجابهم بقوله: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ...﴾ الآية [البقرة: ٢١٧]. ومنه ما يكون للتحدي، كقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣]، فقبل النبي ﷺ التحدي، وهو أسلوب مهم لبيان صدق الداعية وإفحام المشككين والمجادلين بالباطل، ومن كان على حق، وكان على ثغرة يدعو إلى الإسلام وينافح عنه قد لا يسعه غير ذلك، ولكن لا ينبغي أن يتصدى إلا صاحب الحجة وقوة العارضة لأن إخفاقه يؤثر على من خلفه، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣].

٤- في قوله: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ دليل على ضرورة العلم بالشيء قبل الدعوة إليه.

٥- قوله تعالى: سأتلو "عليكم" بدل "لكم" دليل التمكن والاستعلاء، والمؤمن هكذا ينبغي أن يكون دائماً، معتزاً بما معه من الحق.

٦- أنها بينت شيئاً من ملامح منهج الحوار الصحيح مع المخالفين، فالحوار مع المسلمين أو غير المسلمين لا بد أن ينضبط بمنهج عملي واضح يوصل إلى المقصود، وهو بيان الحق والدلالة عليه، وتمييزه من الباطل والتنفير منه، وقد سبق بسط هذا، ومما بينته الآيات من هذه الملامح:

١) الاقتصار على ما يفيد دون ذكر تفاصيل لا فائدة فيها وإن كان المخالف ينشغل به ويتطلع له، وذلك في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾، فهذه البعضية في "منه" توضح

أن على الإنسان أن يقتصر في حديثه على ما يفي بالغرض، أي لن أذكر إلا ما فيه عبرة وعظة، وهو ما جاء في سياق القصة، بخلاف ما طوي ذكره كاسمه وسبب تسميته وزمنه وبلده، إلى غير ذلك.

٢) استعمال أسلوب الإجمال قبل التفصيل، وهو ما كان في بداية عرض قصة ذي القرنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾، ثم شرع في تفاصيل التمكين بوصوله إلى مشارق الأرض ومغاربها، وبناء الردم على تلك الصفة العجيبة، فهذا الأسلوب يؤكد الفكرة ويثبتها في أذهان المستمعين.

٣) الإيجاز والإطناب: وهذه البلاغة بعينها، فقد جاء الإيجاز في مكانه، والإطناب في مكانه. فلا داعي لذكر التفاصيل في التمكين بأنه يكون في كثرة العدد والعُدّة، والمال الوفير والعدل وبذل الجهد، واستفراغ الهمة والتحضير لكل أمر، ويكفي أن يقول: "مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً"، ليدل على عظمة أمره، وسعة استعداده. كذلك جاء الإيجاز في "مطلع الشمس" بعد الإطناب في مغربها لأن التكرار ممل فيما ليس له لزوم.

وجاء الإطناب في وصف أهل مغرب الشمس الذين كانوا قسمين حين دعاهم ذو القرنين إلى الإسلام، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، فأكرم المؤمنين وعنّف الكافرين، وهددهم بعذاب الآخرة. وجاء كذلك في وصف الضعفاء من أهل السد أبناء يأجوج ومأجوج يسلبونهم أموالهم ويقتلون أبناءهم ويسومونهم الخسف كلما جاؤوهم، فسألوه أن يبني سدّاً يقيهم أذاهم ويدفع عنهم غائلتهم، ولو اختصر القرآن حديثهم ما فهمنا المراد. فالبلاغة إذاً مراعاة مقتضى الحال؛ فالاختصار حين يكون

الاختصار مفيداً، والإسهاب حين يكون التفصيل لازماً، وهذا ما ينبغي للمعلم أن ينتبه إليه. وهذه كانت حال النبي ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، فيأتي بكلمات قليلة تحوي معاني كثيرة كما في أحاديثه، فيقول له قائل: "يَا رَسُولَ الله، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ. قَالَ: قُلْ: آمَنْتُ بِالله، فَاسْتَقِمْ"(١)، ويقول له آخر: أَوْصِنِي، قَالَ: "لاَ تَغْضَبْ. فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: لاَ تَغْضَبْ"(٢). ومع ذلك كان يطيل أحياناً إذا دعت الحاجة، فعن عَمْرو بْنَ أَخْطَبَ، قَالَ: "صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله ﷺ الْفَجْرَ، وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ. فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا"(٣).

٧- أن الثناء على الحاكم لا يكون بمجرد شجاعة أو فتوح أو عمارة أو تمكين، فقد مكن الله ﷻ لكثير من الأمم ثم أخذهم بذنوبهم، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام]. فلا بد أن ينضم إلى ما سبق الإيمان بالله واليوم الآخر؛ لأن هناك حكامًا كثيرين كانت لهم من الإصلاحات الدنيوية ما يعدهم الناس من أجلها عظماء، ومع ذلك لم يورد القرآن لهم ذكرًا، بل جاء في القرآن ذم حكام عمروا في الدنيا كثيرًا، ولكنهم خربوا أديان الناس وأفسدوا عليهم آخرتهم، مثل فرعون وهامان والنمرود ونحوهم.

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٦٥ (٣٨).
(٢) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٦٧ (٥٧٦٥).
(٣) صحيح مسلم ٤/ ٢٢١٧ (٢٨٩٢).

٨- قصة ذي القرنين تشحذ همة المؤمن وتعلي منها، إذ سعى وجدّ واجتهد حتى بلغ حيث انتهت طاقته و قدرته، ولم يفرط في شيء مما أوتيه من أسباب، ولم يرض بمنزلةٍ دون منزلة أحد من أهل زمانه، ولم يقف عند حد، بل سعى في الأرض حتى بلغ مغرب الشمس ثم سار بجيوشه حتى بلغ مشرقها ثم أتبع سببا حتى بلغ بين السدين، وتملّك تلك المناطق كلها حتى حكم فيها، وأثّر بفكره ومبادئه على أهلها وسيطر عليها وغدا شرطياً أعلى للعالم وحارساً لأهل الأرض، وملجأ للمظلومين، ومأمنا للخائفين.

٩- قرر العلماء جواز إعانة المسلمين غيرهم في صد عدو مشترك، بدلالة تعاون ذي القرنين مع القوم -ولم يكونوا مسلمين على الأغلب- ضد يأجوج ومأجوج في بناء الردم، وهذا الأمر فيه تفصيل، فإذا كانوا غير محاربين ويرجى أن يعملوا بالعدل فيجوز إعانتهم في رد الظلم عنهم.

وقال بعض العلماء: فيه دليل على الاستعانة بالكفار إذا لم يترتب عليه مفسدة، وفي هذا نظر، لأن القوم هم استعانوا بذي القرنين فاستخدمهم في تحقيق مرادهم. فدولة مسلمة وجارتها كافرة ليست محاربة وبينهما سلم، ووقع عليها ظلم أو بغي أو عدوان يجوز إعانتها، ولكن هل يجوز للدولة المسلمة الاستعانة بالكافرة؟ خلاف، ومن أجازه أجازه بضوابط، والراجح المنع لقوله في الحديث: "إِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ"(١).

١٠- قال القاسمي: (فمن فوائدها: الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات على بعض، ورزقه من يشاء بغير حساب ملكا ومالا، لما له من خفيّ الحكم وباهر القدرة، فلا إله سواه)(٢).

---

(١) سنن أبي داود ٣/ ٧٥ (٢٧٣٢)، وصححه الألباني.
(٢) محاسن التأويل ٧/ ٦٧.

١١- جواز حصار الأعداء وسجن المفسدين، بدليل بناء الردم، قال القرطبي: (في الآية دليل على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد، ومنعهم من التصرف، ولا يتركون وما هم عليه، بل يوجعون ضربا ويحبسون أو يُكفلون ويطلقون كما فعل عمر ﷺ)(١). والإفساد نوعان: حسي ومعنوي؛ فالحسي يشبه ما في القصة، والمعنوي يمارسه من يدعون للشهوات ويروجون للشبهات فهؤلاء أخطر، وأشدهم خطراً فضائيات ومواقع وصحف وغيرها من وسائل الإعلام التي تبث السموم وتنشر الفساد. لقد حجز ذو القرنين يأجوج ومأجوج خلف السد لإفسادهم في الأرض، وكذلك ينبغي لولاة الأمر أن يحجزوا المفسدين في الأرض، الذين يخربون على الناس دينهم بالشهوات الشبهات ويضيقوا عليهم، ويجعلوا بينهم وبين الناس سداً وردماً حسياً إن استحقوا الحبس، ومعنوياً بمنعهم من التصدر، كي لا ينشروا سمومهم ويعيثوا في الأرض الفساد، ويتركوا المجال رحباً أمام أهل الخير من الدعاة والمصلحين لينشروا الحق في أرجاء الدنيا. لكن المؤسف أننا إذا تلفتنا يمنة ويسرة وأجلنا طرفنا في بلاد المسلمين وجدنا العكس، فكثير من البلاد مكن حكامها لأهل الفساد وقربوهم وأطلقوا لهم العنان ليفسدوا البلاد والعباد، بل إن هؤلاء الحكام أنفسهم كانوا رؤوساً في الفساد، الفساد المالي والديني والأخلاقي، وكثير منهم كان حرباً على الدين، ولهذا قامت الثورات لرفع الظلم والفساد.

١٢- أن بناء الردم نعمة عظيمة على القوم الذين طلبوا بناءه ابتداء، ثم على كل من جاء بعدهم إلى يومنا هذا، إلى وقت خروج يأجوج

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٥٩ بتصرف يسير.

ومأجوج الذين يقتلون أهل الأرض، وهذه النعمة كغيرها تستحق شكر المنعم سبحانه، كما يستحق ذا القرنين الدعاء له من أجلها.

١٣- وجوب المساعدة: لما بلغ ذو القرنين بين السدين وجد قوما اجتمع عليهم الظلم والجهل وهاتان الصفتان إن اجتمعتا في أمة -وهما غالباً ما تجتمعان- أصابتهم نوائب الدهر وعصفت بهم حدَثانه، فنالهم الذل وطوّح بهم الفساد فلما طلبوا مساعدته لبى في الحال.

١٤- عدم الركون إلى الحياة الدنيا وزينتها: إذ لما اكتمل بناء السد، ونظر ذو القرنين إلى دقته ومتانته، لم يصرفه ذلك عن الآخرة بل علم أن لهذا البنيان العظيم نهاية ككل شيء على الأرض، فذكر نفسه ومن حوله بذلك، قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ٩٨﴾ [الكهف].

١٥- بعث التفاؤل: إذا اخترنا عدم المواجهة مع العدو في معارك غير متكافئة، فلنا في هذا الملك أسوة، إذ لم يواجه يأجوج ومأجوج، وإنما عمل ما يكف شرهم، والمدار على القدرة. لكن علينا في المقابل تقليل ضرر العدو، ببناء العقيدة والتوحيد وإعداد العدة المادية والمعنوية، والعاقبة للمتقين.

١٦- الملك الصالح يعصم من الفتن: إن من أعظم أسباب النجاة من الفتن الملك الصالح الذي يحكم بالحق والعدل ويكف أيدي المفسدين والمضلين، قال ﷺ في غير حديث: "الإِمَامُ جُنَّةٌ"(١)، قال الحافظ رحمه الله: (أي سترة؛ لأنه يمنع العدو من أذى المسلمين ويكف أذى بعضهم عن بعض)(٢)، وقال السيوطي رحمه الله: (كالجنة وهِي الترس الَّذِي يستر من وَرَاءه وَيمْنَع من وُصُول الْمَكْرُوه إِلَيْهِ)(٣). إن الأفراد قد ينجون من الفتن

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٠٨٠ (٢٧٩٧)، صحيح مسلم ٣/ ١٤٧١ (١٨٤١).
(٢) فتح الباري لابن حجر ٦/ ١١٦.
(٣) شرح السيوطي على مسلم ٢/ ١٤٢.

كما نجا أصحاب الكهف من الفتنة في الدين، وكما نجا صاحب الجنتين من الفتنة بما لدى صاحبه من مال وولد، وكما نجا موسى عليه السلام من فتنة العلم بتواضعه للخضر، ولكن من أعظم أسباب نجاة المجتمع كله أو أغلبه من الفتن وجود الحاكم القوي الصالح الذي يحكم بشرع الله، فيحمي التوحيد ويحمي الناس من فتن الدنيا كالمال وغيره من الشهوات، ويضبط شؤون الفتيا وطلب العلم وبذله، ويضبط شؤون الحكم والملك فلا يطغى ولاته وعماله، فلهذا كان إقامة الحاكم الصالح من أوجب الواجبات.

١٧- الحكم والسلطان والتمكين ينبغي أن يسخر لتنفيذ الشرع، وإقامة العدل، وتيسير الأمر على المؤمنين المحسنين، وتضييق الخناق على الظالمين المعتدين، ومنع الفساد والظلم، وحماية الضعفاء من المفسدين.

١٨- الاستجابة للتحديات: وهذا يتضح بجلاء في بناء السد الذي جاء استجابة لإغارة يأجوج ومأجوج، وإن من أهم نظريات قيام الحضارات ونهضة الأمم نظرية التحدي والاستجابة الإيجابية له. فالبشر على مستوى الأفراد والجماعات والأمم يتعرضون في الحياة لصنوف من التحديات، فمن وقف أمامها عاجزا جرفته وقضت عليه، ومن تصدى لها وتعامل بإيجابية تغلب عليها بفضل الله، كما كان من ذي القرنين.

١٩- قال القاسمي: (ومن فوائد القصة:الاعتبار بتخليد جميل الثناء، وجليل الآثار، فإن من أمعن النظر فيما قُص عنه في هذه الآيات الكريمة، يتضح له جليا حُسن سجاياه، وسموّ مزاياه، من الشجاعة وعلو الهمة والعفة والعدل، ودأَبه على توطيد الأمن وإثابة المحسنين، وتأديبه للظالمين،

والإحسان إلى النوع البشري)[1]، ومن دعاء نبي الله إبراهيم الطَّيْلا: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥﴾ [الشعراء]، فتأمل كيف قرن بين الدعوتين. ومن جيد شعر الحكمة قول ابن دريد:

وَإِنَّما المَرءُ حَديثٌ بَعدَهُ فَكُن حَديثاً حَسَناً لِمَن وَعى

٢٠- من أعظم دروس القصة وأهمها وأغزرها ما يتعلق بالتمكين، ومنه:

١) التمكين في الأرض بإرادة الله، يمتن به على عباده، لقوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ، ويشبه قوله: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ١٠﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [يوسف].

٢) أن منة التمكين تستوجب من المؤمنين شكرها والسعي للحفاظ عليها، وألا يتواكلوا بالاعتماد على فضل الله فحسب، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا﴾، وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [الحج].

٣) في القصة دليل على أهمية الأخذ بالأسباب، فقد أعطى الله ذا القرنين أسباب القوة والتمكين، فأتبعها بتسخيرها والاستفادة منها في تحقيق مراده، ونرى من الناس من يؤتيه الله علماً أو مالاً أو جاهاً أو ذكاءً أو غير ذلك من أسباب القوة والتمكين، فلا يرفع بها رأساً بل يهملها ولا ينتفع بها، سواء فعل ذلك فيما يخصه، أو فيما يخص مجتمعه وأمته.

٤) أسباب التمكين مادية ومعنوية، وأغلب الناس يهتمون بالمادية، فيجب أن لا نغفل المعنوية التي يحتاجها القائد لتكون الأسباب المادية

(١) محاسن التأويل ٧/ ٦٩.

فعالة. فالقيادة إذا سلمت لظالم أو سفيه صارت وبالا على من يطيعونه، قال الله عن فرعون: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزخرف]، وكم من قادة عبر التاريخ أوردوا قومهم المهالك! فلا بد من قيادة حكيمة عادلة قوية.

فمن الأسباب المادية لتمكين ذي القرنين ما يلي:

أ= استخدامه العلوم والمعارف الدنيوية المتاحة في عصره، فمثلاً:

-كان عالما بتقسيم الأرض وفجاجها، ووديانها وجبالها وسهولها؛ لذا استطاع أن يوظِّف هذا في حركته مع جيوشه شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا، ولا يبعد أن يكون في جيشه من هو متخصص في هذا.

- كان على علم بطبيعة المواد وعلى معرفة بخواصها، فقد استعمل المعادن على أحسن ما خلقت له، ووظف ما أتيح له: ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [الكهف]، أمرهم أن يأتوه بقطع الحديد الضخمة، فأخذ يبني حتى جعل ما بين الجبلين من البنيان مساويًا لهما في العلو، ثم قال: (انفخوا بالكير في قطع الحديد بين الصدفين). فلما تم ذلك وصارت النار عظيمة، قال للذين يتولون أمر النحاس: آتوني نحاسًا مذابًا أفرغه عليه فيصير مُضاعَف القوة والصلابة، وهي طريقة استخدمت حديثًا في تقوية الحديد، فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته.

ب= قيامه ببناء جيش قوي، قوامه رجال أشداء ومحاربون محترفون، ومدهم بأقوى الأسلحة، وهو ما يفسر خضوع المشرق والمغرب لحكمه.

ج= بذله أقصى الجهد لتحقيق المراد مستفيداً بما سبق من أسباب، كما

يدل سياق الآيات، إذ توحي أنه لم يقر له قرار، فكلما فتح أرضاً في جهة وعبد أهلها لله ﷻ وأقام حكمه انطلق إلى غيرها، منتقلا بين الأقطار.

د= تقوية الدفاعات: فإن من واجبات الحاكم الذي مكن الله له أن يحمي البيضة وأن يسعى لاستمرار التمكين، على أسس علميَّة وفق دراسة ميدانية صحيحة؛ لتنتفع به الأجيال على مر العصور، وهذا ما فعله ذو القرنين، وما زالت البشرية تجني ثمرته بكف شر يأجوج ومأجوج.

ومن الأسباب المعنوية لتمكينه:

أ- الإيمان بالله والتعلق به والدعوة إليه وإقامة شرعه: وهذا من أعظم أسباب التمكين، وسيرة ذي القرنين كما قصها القرآن تبين عظم إيمانه إذ يرجع كل نعمه إلى رب العزة، ويكفي أن نلحظ تعلقه بالله من كلامه؛ فانظر كم كرر لفظة (رب) في هذه الآيات: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ٨٧]، ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف]، ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ٩٨﴾ [الكهف].

وسبق معنا أنه خير بين تعذيب أهل المغرب وأن يتخذ فيهم حسنا، فاختار أن يدعوهم ويقيم عليهم الحجة، قال ابن تيمية: (فالمقصود الواجب بالولايات: إصلاح دين الخلق الذي متى فاتهم خسروا خسرانا مبينا ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا؛ وإصلاح ما لا يقوم الدين إلا به من أمر دنياهم)[1]، ثم حكم فيهم الشرع، فأحسن للمحسن وعذب المسيء.

ب- العدل: ويتجلى هذا في حكمه في أهل المغرب، إذ عامل كلا بما يستحق، فلم يظلم ولم يتعد، ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ٨٧ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ٨٨﴾

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٦٢.

[الكهف]، فالعدل أساس الملك، قال ابن تيمية رحمه الله: (أمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم؛ ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة؛ ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام)(١).

ج- استقامة ميزان التقويم: فالجزاء من جنس العمل، فالمحسن يثاب، والمسيء يعاقب، بغض النظر عن النسب والحسب والقيم الجاهلية، واختلال هذا من أسباب الهلاك وضياع التمكين، قال ﷺ: "إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِم الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِم الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ الله لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا"(٢).

د- الصبر لتحقيق المراد: فذو القرنين رجل طواف في الأرض ليقيم العدل والشرع ويفتح الممالك ويعبّد الخلق لربهم، فنجده صابرًا على المشاق وعلى بذل الوسع في التنظيم والتحرك والتأمين، وشاركه في هذا الصبر من معه من قادة وجنود مخلصين. والصبر عمل إيجابي خلاف ما يظن كثير من الناس، إذ السلبي هو العجز المصحوب بالاستسلام، أما الصبر فمقترن بالسعي والعمل، كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]، ثم قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف]. ومن هنا نعرف خطأ بعض الشباب المتحمس الذي يسمع الحث على

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ١٤٦.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٢٨٢ (٣٢٨٨)، صحيح مسلم ٣/ ١٣١٥ (١٦٨٨)، واللفظ له.

الصبر فيظنه دعوة للاستسلام والعجز، وليس كذلك، فكم جر عدم الصبر إلى الاستعجال ثم الندم ولات حين مندم. ولأهمية "الصبر" ذكر في القرآن أكثر من تسعين مرة، ومن تأمل صبر النمل والنحل على العمل بجد ونظام مبهر، ثم رأى نتائج هذا أخذ درساً وعبرة.

وهذا نيلسون مانديلا يصبر في السجن بجنوب إفريقيا سبعاً وعشرين سنة، ثم ينال حريته ويصبح أول رئيس أسود للبلد، ويقول: قد تكون قدرات الإنسان محدودة فلا يكون عنده كثير من المواهب، من ذكاء أو قوة وغيرها، لكنه يعوض ذلك بالصبر والمثابرة لتحقيق الأهداف.

هـ- الشجاعة: كان ذو القرنين قويَّ القلب شجاعاً لم ترهبه التبعات الضخمة والمسؤوليات العظيمة، يدل على ذلك فتحه المشرق والمغرب، وبناء الردم، الذي كان عملاً عظيمًا، إذ كان يمكن أن يوجِّه يأجوج ومأجوج إفسادهم إليه وإلى جنوده، لكنه أقدم غير متأخر ولا مُدبِر. وفرق بين الشجاعة والتهور، فهو أوتي من كل شيء سببا، فاستجمع الشجاعة والصبر وانطلق، ولو لم تكن عنده أسباب السياحة فسياحته حينئذ تهور قد يهلكه ويهلك من معه أو يسلط عليهم عدوهم فيستبيح بيضتهم. والشجاعة الحقيقية لا تتمكن من القلب إلا إذا امتلأ بخوف الله ومراقبته ورجاء ما عنده.

و- الرحمة: لأنه لم يبادر إلى عقاب أهل المغرب ولكن دعاهم رغبة في نجاتهم، وأعان القوم ببناء سد يحميهم من يأجوج ومأجوج.

ز- التوازن في الشخصية والاعتدال: فلم تعكر شجاعته على حكمته، ولم ينقص حزمه من رحمته، ولا حسمه من رفقه وعدالته.

ح- مشاركة الحاكم رعيته في العمل: وليس المقصود أعمال القتال فهذا معهود في الحروب، لكن المقصود إشرافه على بناء السد، وهذا يعين

القائد على التحقق من حسن العمل، وتجعله في تواصل مع رعيته لا أن يكون في برج عاجي يحال فيه بينه وبينهم، كما أنها تنشط هممهم وتدفعهم لمزيد من البذل بلا كلل أو ملل. وقد فعل هذا سيد ولد آدم ﷺ، فعَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: "رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الخَنْدَقِ يَنْقُلُ مَعَنَا التُّرَابَ"(١).

ط- التواضع: وظهر هذا بجلاء في رد ذي القرنين ما هو فيه من تمكين إلى الله ﷻ، وذلك قوله: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥]؛ فالرجال الأشداء ذوو الخبرات العسكرية والعمرانية والاقتصادية، الذين كانوا طوع بنانه، وكذلك خضوع الأقاليم له، وفتح الخزائن أمامه، وتقديم خراج الشعوب له، كل ذلك لم يُدخِل في نفسه الغرورَ، بل بقي مثال الرجل المؤمن العفيف المترفِّع عن زينة الدنيا، فلم تكن الدنيا كلها كافية لثنيه عن تواضعه، وهذا تنبيه للرؤساء؛ حكاماً أو مديرين أو معلمين أو أزواجاً كي يتواضعوا لمن ولاهم الله شؤونهم ولا يتكبروا عليهم.

ي- كثرة الشكر: لأنه كان صاحب قلب حيّ موصول بالله تعالى، فلم تُسكره نشوة النصر، وحلاوة الغلبة بعدما أذل كبرياء المفسدين، بل نسب الفضل إلى ربه، وقال: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٨].

ك- نصرة المظلوم: وهذا ما قام به لما استجار به القوم بين السدين.

ل- العفة والترفع عن مالٍ لا يحتاجه: فإن القوم المستضعفين لما شكوا إليه فساد المفسدين، عرضوا عليه الخرج؛ فلم يأخذه لعدم احتياجه، لكنه طلب مساعدتهم في العمل والبناء. بخلاف ما نراه اليوم من دول غنية تأخذ ضرائب من مواطنيها. وهي المكوس وهي من الكبائر، فلا ينبغي

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٤٤١ (٦٢٤٦)، صحيح مسلم ٣/ ١٤٣٠ (١٨٠٣).

إثقال الرعية بالمكوس والضرائب فهو نوع من الظلم.

م- الواقعية: كان واقعيًّا في تدبير الأمور؛ فقد قدّر حجم الخطر، وما يحتاجه من علاج، فلم يجعل السور من الحجارة، أو الطين واللبن، حتى ينهار لأدنى عارض، أو هجوم؛ بل جعله من الحديد المقوى بالقطر، ولذا باءت محاولات المفسدين بالإخفاق عندما حاولوا التغلب عليه.

ن- مهارة القيادة: ومن ملامحها الفتوح العظيمة التي تحتاج كثيرا من المقاتلين، وما يتبع ذلك من خطط وتوزيع مهام وأدوار، واختيار القادة المحنكين، ومن ملامحها قيادته مهمة بناء السد بنجاح، فقام بتشكيل فرق عمل ووزع الأدوار وفق مراحل العمل ونسق بينهم حتى اكتمل البناء.

ومن ملامحها كذلك فن التعامل مع صنوف مختلفة من البشر، فقد ورد في قصة ذي القرنين أنه ذهب إلى عدة بقاع من الأرض مما يعني أنه تعامل مع جنسيات مختلفة بأعراف ومفاهيم وقيم وعقائد مختلفة.

س- عدم الاحتجاج بالقدر على ترك العمل: كان ذو القرنين فيما يبدو على علمٍ بأخبار الغيب في الشرائع، فمع علمه بأن للردم أجلاً ينهدم فيه إلا أنه لم يتذرع بذلك للقعود والهوان؛ فبَنَى السد، وبذل فيه الجهد.

التمكين في الرؤية الإسلامية من خلال قصة ذي القرنين(١)

إن أعظم غاية ينبغي أن يسعى لها المسلم في الدنيا إخلاص العبودية لله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، ومن لوازمها أن يقوم بالدعوة: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]. والقيام بها على الوجه الأكمل لا يتم إلا بالتمكين، ولهذا شرع جهاد الطلب لإزالة كل عائق يحول دون معرفة الحق، وهذا ما فهمه سلفنا الصالح منذ الصحابة، فهذا ربعي بن عامر ﷺ يحاور رستم قائد الفرس يوم القادسية فيقول: (مَا جَاءَ بِكُمْ؟ قَالَ: اللهُ ابْتَعَثَنَا، وَاللهُ جَاءَ بِنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلامِ، فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَبِلَ مِنَّا ذَلِكَ قَبِلْنَا ذَلِكَ مِنْهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ، وَتَرَكْنَاهُ وَأَرْضَهُ يَلِيهَا دُونَنَا، وَمَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ أَبَدًا، حَتَّى نُفْضِيَ إِلَى مَوْعُودِ اللهِ. قَالَ: وَمَا مَوْعُودُ اللهِ؟ قَالَ: الْجَنَّةُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى قِتَالِ مَنْ أَبَى، وَالظَّفَرِ لِمَنْ بَقِيَ)(٢).

إن تحقق هذا التمكين مشروط بتحقق شرطه، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

---

(١) أصل الموضوع مقالات وبحوث فضلاء هم: د.عثمان قدري مكانسي "تأملات تربوية في قصة ذي القرنين"، الأستاذ عمر جمال النشيواتي "ذو القرنين وعمارة الأرض.. وقفات"، الشيخ ناصر الأحمد "خطبة منشورة على الإنترنت"، مدونة د. أبو مروان "إضاءات نهضوية في قصة ذي القرنين"، د.محمد بسام يوسف "التمكين في الرؤية الإسلامية من خلال قصة ذي القرنين"، د. علي الصلابي "فقه التمكين عند ذي القرنين".

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥٢٠.

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النور]، وهذا مثل قوله ﷻ: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، فوعد الله حق وصدق، والله لا يخلف الميعاد، فمتى تأخر النصر أو التمكين فليعلم المرء أنه أتي من قبل نفسه وتفريطه، وفي أسباب التمكين التي تقدم ذكر طائفة منها. نعم إن ذلك قد يأتي مع التقصير في بعض أسبابه، لكن هذا يكون محض فضل من الله، ويكون أمراً زائداً عن وعد الله سبحانه.

إن وعد الله بالتمكين منصرف لمن آمن به ولم يصرف العبادة لغيره وعمل صالحا؛ وليس ذلك مقصوراً على العبادات أو الإحسان والمعروف؛ بل يتعدى إلى الأخذ بكل أسباب التمكين دون أن يتعلق قلبه بها، بل يبقى متعلقاً بالله وحده، وهذا عين التوكل. أما ترك الأسباب فيقدح في التشريع ولا يكون قد عمل من الصالحات ما يحقق شرط التمكين.

إن التمكين لهذه الأمة وعلوها على باقي الأمم آت لا محالة، لوعد رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا "(١)، وقال: "لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ"(٢)؛ فليست المسألة هل سيمكن للأمة أم لا، لكن هل نحن أهل للتمكين؟!

إن مشكلة الأمة اليوم أنها أوتيت أسباب النصر والتمكين المادية

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢١٥ (٢٨٨٩).

(٢) مسند أحمد ٢٨/ ١٥٥ (١٦٩٥٧)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

والمعنوية لكنها لم تتبعها؛ أما الإيمان بالله والعمل بشرعه، فمن قلب ناظريه في بلاد المسلمين وجد كثيراً منهم يدعون مع الله ﷻ غيره، من الأولياء وأصحاب القبور، ويذبحون وينذرون لهم، ووجد حياة كثيرين أبعد ما تكون عن الإسلام؛ فتضييع الصلوات وانتشار العري والسفور، وشيوع المظالم، وانتشار الفاحشة والغش والكذب، إلى غير ذلك، كل هذا يسري في الأمة، ولولا رحمة الله وبقية من أهل الخير لا يخلو منهم مصر من الأمصار لاستحقت الأمة ما حاق بالأمم السابقة، نسأل الله العافية.

وأما الأسباب المادية فبلادنا غنية بالثروات، لكنها غير مسخرة، أو منهوبة؛ في مصر غاز طبيعي يصدر لإسرائيل بأقل من التكلفة! والسودان به من المراعي والأنعام والأنهار ما يكفي غذاء العالم العربي، لكن الحال ليست كذلك، بل جوع وشدة وانقطاع المياه في أحيان كثيرة، والنفط العربي ينبغي أن يغني عائده لا أقول العالم العربي بل الإسلامي والحال كما ترون! فلا إنفاذ لإرادة الله الشرعية في جل البلدان العربية ولا اتباع للأسباب التي أوتينا. وأما مصالح العباد فكثير من الساسة لا يعبأ بها، بل يسخر الأسباب ليحصل لنفسه ومصلحته الشخصية ما حباه الله البلاد.

وبناء على ما سبق فإننا إذا أردنا التمكين فلا بد لنا كخطوة أولى من الرجوع إلى ديننا أفراداً وجماعات ودولاً، فقد قال رسول الله ﷺ: "إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ"(١).

ثم كخطوة تالية لا بد من أخذ الأسباب المشروعة لتحقيق نهضة

---

(١) سنن أبي داود ٣/ ٢٧٤ (٣٤٦٢)، وصححه الألباني.

شاملة تمتلك الأمة بها مفاتيح قوة العصر؛ إن أمتنا غنية بالطاقات في كل المجالات؛ في ساحات الفكر والمال والتخطيط والتنظيم والقوى المادية، إنها مليئة بالمواهب والطاقات المعطلة، والأموال المهدرة، والأوقات المبدَّدة، والشباب الحيارى، تنتظر قيادتها الواعية لكي تأخذ بقاعدة ذي القرنين في الجمع والتنسيق ومحاربة الجهل والكسل والتخلف ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: ٩٥]. وهنا تأتي القيادة الربانية لتربط الخيوط والخطوط، وتنسق المواهب والطاقات، وتتجه بها نحو خير الأمة ورفعتها.

إن قصة ذي القرنين تعطي ملامح خطة محددة للنهوض بالأمة، قوامها:

١ - تمكين الله ﷻ، ومَدّ عباده المجاهدين بالقوّة والتأييد والدعم.

٢ - استحقاق المسلم لتمكين الله ﷻ له، وهذا لا يحصل إلا بالعمل واتخاذ الأسباب الممكنة لعمارة الأرض، وبالسعي لتحكيم منهج الله سبحانه وتعالى في هذه الأرض، لتحقيق سعادة الإنسان ورخائه.

فلننظر إلى الكلام الدقيق في قصة ذي القرنين إذ يختصر ذلك بأسلوبٍ قرآنيٍ رائع: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي أيّدناه ومددناه بالتمكين والعلوّ في الأرض، ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ أي منحناه أسباب الظهور والعلوّ.

ولكي لا يظن أن الله منح ذا القرنين التمكين دون تعبٍ ولا نصبٍ ولا بحثٍ عن أسباب القوّة، نقول: معنى الشق الثاني من الآية: أن ذا القرنين، كان عالِماً يمتلك العلم والقوّة المادية، وقويًّا غنيًّا، وعادلًا صالحًا، فاستحق تأييد الله وتمكينه، لأنه امتلك أسباب ذلك، فمكّنه الله وأيّده ونَصَرَه، فحكم بالعدل والقسط، وبمنهج الله الواحد الأحد.

تمكين الأمة بين الضعف البادي والأمل الحادي

الضعف الذي تعانيه الأمة اليوم لا يخفى، لكن لا ينبغي أن نفقد الأمل، فالأيام دوَل، وكم من أمة مرت بأوقات عصيبة، ثم عاودت الوقوف، مع أن منها أمما كافرة لا تتبع الحق، فكيف بأمتنا التي ارتضى الله ﷻ أن تحمل مشعل الهداية منذ أربعة عشر قرناً إلى أن يرث الله الأرض!

إن قصة ذي القرنين تبعث على التفاؤل بمستقبل الأمة، فإنه لما بلغ مغرب الشمس وجد قوما محسنين وقوما مسيئين، وعامل كلا بما يستحق ووضع حدا للفساد. لكنه لما بلغ بين السدين وجد الأمر أشد، فيأجوج ومأجوج فسادهم عظيم، فلم يواجههم، ولم يضم أرضهم، وقد يكون هذا لعلمه بشيء من الغيب كقول الله ﷻ لعيسى عند خروجهم آخر الزمان "لا يدان لأحد بقتالهم"(١)، أو لأنه قدر أنه مع قوته لن يستطيع مقاومتهم، أو على أقل تقدير ستكون باهظة والأولى عدم المواجهة، فاختار بذل وسعه لكف شرهم، وسعى لتقليل ضررهم ونجح في إيقافه حتى حين.

ومبعث التفاؤل أمران؛ أولهما أننا إذا اخترنا اليوم عدم المواجهة في معارك غير متكافئة فلنا أسوة، ولكن علينا تقليل وإيقاف ضرر أعدائنا، ببناء العقيدة والتوحيد وإعداد العدة المادية والمعنوية، والعاقبة للمتقين.

إن الفساد في بلاد المسلمين يمكن إيقافه إذا وجدت الإرادة؛ بمعاقبة المسيء، وكفه عن إساءته عبر القنوات والمؤسسات وغير ذلك. أما الفساد الخارجي فقد لا نستطيع إيقافه، كالذي يأتينا من إيران أو الغرب، فلا

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٥٠ (٢٩٣٧).

سلطان لنا عليهم، لكننا نستطيع أن نحد آثاره بتحصين الناس من الأفكار الرافضية، والتغريبية المدمرة، وفي المقابل ببث عقيدة أهل السنة وتثبيتها. إننا لا نستطيع في عصر الفضائيات والشابكة أن نبني سداً يحول بين الناس وبينها، لكننا نستطيع أن نبني لكل فرد سداً داخليا ذاتيا بالتعليم والتوعية وتقوية داعي الخير والصلاح في النفوس، وهذه هي المعركة الكبرى.

والأمر الثاني الباعث على التفاؤل وجه الشبه بين أمتنا اليوم والقوم بين السدين، فنلحظ تكاسلا وضعفا من أبناء أمتنا في عمارة الدنيا، بل يُتهم عالي الهمة بأنه يلهث وراءها وأنه باع آخرته بدنياه، وبهذا رضينا لأنفسنا الهوان، إذ ذلت أمتنا فمدت يدها لعدوها لتأكل وتشرب وتعيش، وازدادت مع بُعدها عن دينها وكتاب ربها ظلمة على ظلمة، وتأخر بهذا قطار أمتنا وتجاهَلَنا العالم وغَدونا لا نُهاب ولا يُعبأ بنا، وصارت بلادنا تعد متخلفة بعد أن كنا قادة الدنيا، وبعد أن كنا نبتكر في سائر العلوم وينهل الغرب من حضارتنا، صارت بلادنا من أعلى معدلات الأمية، وما أشبه هذه الحال بحال القوم بين السدين: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾! فالشبه موجود، بل ربما كانت حالهم أسوأ، ومع ذلك تمكنوا بفضل الله ثم بمساعدة ذي القرنين من دفع عدوهم، ومنع تعديه عليهم ونشر الفساد فيهم.

لقد وصل ذو القرنين بين السدّين، ليجد قوماً ضعفاء متخلّفين، يعانون عدوان يأجوج ومأجوج وفسادهم، فيطلبون منه أن يجدَ لهم الحل الأمثل لمنع عدوانهم، وكان قراره ألا يدخل في معركة معهم، لكنه طلب من هؤلاء أن يعينوه ليساعدهم على حماية أنفسهم، ويتعلموا فنون الحماية، ويكتسبوا خبرات تنفعهم، ويتدربوا على العمل الجاد المثمر الذي يجعلهم يبنون السد بأيديهم؛ وهذا أدعى للحفاظ عليه وإصلاحه إن أصابه شيء.

إن ذا القرنين رفض أن يكون هؤلاء المستضعفون عاطلين، فلم يستعن بجيشه ولا بآخرين، إنما استعان بهؤلاء أنفسهم، وطلب منهم أن يأتوا بالحديد ثم يقوموا ببناء السد بإشرافه بحيث وصل به إلى قمة الجبلين، ثم صهر الحديد، وأفرغ عليه القطر، ليكون في غاية المتانة والقوة.

إذن فهو قوّى هؤلاء الضعفاء الذين كان يهاجمهم يأجوج ومأجوج، بأن علّمهم كيف يعينون أنفسهم، وكيف يبنون السد، وجعلهم يشتركون في البناء ويقيمونه، وأعانهم بخبرته وعلمه فقط؛ ليأخذوا الثقة بأنهم يستطيعون حماية أنفسهم، وليتعلموا ما يعينهم ويحميهم.

الإسلام ينهانا أن نعوِّد الناس الكسل أو نعطيهم أجرًا بلا عمل؛ لأن ذلك يفسد المجتمع، فالإنسان متى تقاضى أجرًا بلا عمل لا يمكن أن يعمل بعد ذلك. لقد قام ذو القرنين بمهمة الحاكم الممكَّن له، فقوَّى المستضعف، وجعله قادرًا على حماية نفسه ولا يعتمد على حماية أحد، ولم يترك الناس في مقاعد المتفرِّجين، بل نقلهم إلى ساحة الجد عاملين.

كان فقه ذي القرنين في التعامل مع الشعوب المستضعفة هو السعي لنقلها من الجهل والتخلف والضعف إلى العلم والتقدم والقوة، وكان يدير العمل بروح الجماعة، ويشترك بنفسه مع غيره، لما في ذلك من تنشيط ورفع للمعنويات، يدل على ذلك ضمير المتكلم الذي يتقابل مع ضمير المخاطب في القرآن؛ مما يشير إلى روح الحماسة والتعاون المشترك، ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [الكهف].

من هنا يظهر أن القيادة الحكيمة تستطيع أن تفجِّر طاقات المجتمع،

وتوجُّهه لتحقيق الخير والغاية المنشودة. لقد استطاع ذو القرنين أن يحول أمة كاملة من أمة تشتري سلامتها إلى أمة تصنعها، من شعب متكاسل إلى فرق عمل متعاونة، تسعى بجد لتحقيق أمنها من خلال إنجاز مشروعها الضخم، فأكسبهم ذلك قيماً جديدة تمثلت في حب العمل واكتساب المهارات وتقدير الوقت والكشف عن ثرواتهم وبث التعاون بينهم.

ويحسن بنا هنا أن نلاحظ أمراً في غاية الأهمية، هو أنّ هؤلاء القوم الضعفاء، انتصروا على عدوّهم مع ضعفهم لأسبابٍ مهمةٍ جداً، أهمها:

١ - أنهم سلّموا أمرهم لقيادةٍ حكيمةٍ قويةٍ واثقةٍ، تحكم بما أنزل الله.

٢- أنهم فعلوا ما طُلِبَ منهم، وبذلوا ما عليهم من جهد، واتخذوا كل الأسباب الممكنة التي توافرت لهم -على تواضعها- لرد العدوان عن ديارهم ووطنهم، ولصدّ الجبّارين في الأرض ودحرهم وإسقاطهم.

٣- أنهم استمروا في البحث عن تحرير أنفسهم من سطوة عدوّهم، إلى أن وجدوا الحل الأمثل، من غير أن يقعوا في حبائل عدوٍ آخر.

ففي الطريق نحو التمكين لابد من ثقة بين القادة وباقي الأمة أو شريحة التغيير والبناء، فلابد للقائد أن يمنح الثقة لأفراد الأمة ويشعرهم بها ويذكي فيهم استغلال قدراتهم. وقد أعلن ذو القرنين ذلك بقوله: "فأعينوني بقوة"، كأنه يقول: ليس بالخراج تشترون أمنكم لكن بقوة أبدانكم وفكركم، فنجح أن يحولهم لطاقات بشرية هائلة نفذت أكبر ردم، وبهذا يقدِّم لكل مسؤول أو قائد منهجًا أساسيًّا، وطريقة عملية لتربية الشعوب على الاستقامة، والسعي نحو العمل لتحقيق العبودية الكاملة لله.

فتنة السلطان من خلال سورة الكهف

هذه هي الفتنة الكبيرة الرابعة التي تناولتها سورة الكهف، وبرغم أن الكلام عن هذه الفتنة مهم وضروري في كل وقت وحين، إلا أنه في هذه الأيام صار أكثر أهمية وإلحاحا بسبب ما شهده عام (١٤٣٢) من أحداث هزت وما زالت تهز العالم العربي فيما يعرف بالربيع العربي، إذ سقط حكام ومنهم من ينتظر، ورأينا وما زلنا نرى صوراً بشعة من صور التمسك بالسلطة ولو على حساب الأشلاء والدماء ومئات الجثث بل آلافها!

تلخيص فتنة السلطة وطريق الخلاص منها:

تتلخص فتنة السلطة في أن الناس مختلفون في رغباتهم وأهوائهم؛ دينية ودنيوية، وهذا يؤدي إلى نوع تنافس وصراع، فكل فرد أو مجموعة يسعى لتحقيق مصالحه وفق رغباته. فإما أن يحسم بطريقة توافقية، وإما أن يحسم بنوع صدام يتسلط فيه الأقوى على الأضعف.

والمانع من وقوع الصدام قانون أو عقد اجتماعي مقبول من جميع الأطراف ينظم العلاقة بينها، وفي غيابه تكون الغلبة للأقوى، كما في النظم الاستبدادية، إذ يحاول المستبد إخضاع الضعفاء لمراده أو التوسع في دنياه على حسابهم ليتمتع برغد العيش وبممارسة التسلط والتحكم في رقاب العباد. وقد تستقر مثل هذه الحال في المجتمع بحيث تشكل نوعاً من العقد الاجتماعي ينقسم فيه المجتمع إلى طبقتين؛ طبقة الحكام وطبقة المحكومين، وقد تتطور الأمور إلى تقديس الطبقة الأولى أو تأليهها كما كان حاصلاً في الحضارات القديمة في فارس ومصر والصين وغيرها.

وإذا لم تستقر هذه الحال فإن احتمال انقلاب المستضعف على جلاده تكون قائمة، وفي اللحظة التي يكتشف فيها المستضعفون قوتهم ويعيدون اكتشاف ذواتهم ويرفضون رق مستعبديهم ويجدون من أنفسهم رغبة وقدرة على التضحية تبدأ الخطوة الأولى للانعتاق من نير الاستبداد.

في زماننا يبرز النظام الديمقراطي كأشهر نظام ينظم مسألة السلطة، وفي النظم الديمقراطية تعطى السلطة للأكثرية على حساب الأقلية عن طريق الانتخابات، فتخضِع الأكثرية الأقليات لرغباتها ومصالحها. ولا يخلو تسلط الأكثرية من خطر عدم تمثيل رغبات الناس بصورة عادلة؛ فلو قدر أن فريقاً حصل على نسبة ٥١٪ وحصل الآخر على نسبة ٤٩٪، فإن للأول أن يحكم ويقر القوانين ويتصرف في شؤون الدولة بخلاف رغبة ٤٩٪ من الناس، أي النصف تقريباً، ولا شك أن هذا لا يبدو عادلاً ولا ممثلاً حقيقياً لرغبات الناس، ولا يخلو من نوع تسلط فج وإن كان برضا الأطراف، حيث يقدرون أن هذا النظام أخف ضرراً من غيره.

والنجاة من هذه الفتنة تكون بخضوع الحاكم والمحكوم للإرادة الشرعية، فيحكم الحاكم في الرعية بإرادة الله الشرعية، التي يجب أن يقوم العقد -في المجتمع المملوك حاكمه ومحكومه لرب العالمين- عليها، فلا اعتبار لأغلبية وأقلية، ولا اعتبار لأهواء الناس ورغباتهم التي تجمع بين الخير والشر، وإنما الاعتبار للحق والخير المطلق الذي جاء من لدن حكيم عليم، يعلم ما يُصلح خلقه وما يَصلح لهم، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة].

وقد عرضت سورة الكهف لثلاثة من أصحاب السلطات:

الأول- ملك كافر يحارب الدين ويصد عن سبيل الله؛ يدعو إلى

عبادة غير الله وتحكيم غير شرع الله وهو المسمى عند المفسرين دقيانوس، وقد ذكروا له عجائب في أَطْر الناس على الكفر، وحسبك ما ذكره الله تعالى عن أعوانه في القرآن: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾، وهو الذي فر منه الفتية، وله نظائر في بلاد الله؛ انتقم الله منهم في بعض بلاد الشرق الشيوعية، ومنهم نسخ مصغرة في عالمنا الإسلامي رأينا ونرى عاقبة أمرهم، والحمد لله رب العالمين.

والثاني- ملك ظالم مغتصب لممتلكات الناس، ذكر في قصة الخضر مع موسى: ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾، وما أكثر الحكام الذين يتخوضون في أموال شعوبهم ومن يدخل تحت سلطانهم قديما وحديثا، وقد رزئت الأمة منذ فقد الخلافة ، بفتنة السلطة المتوسعة في المال العام، وجعل أهل العلم من الفروق بين الخليفة والملك توسع الأخير في المال، وتعفف الأول، ولذا عدوا عمر بن عبدالعزيز خامس الخلفاء الراشدين.

والثالث- ملك عادل مقسط لم تفتنه السلطة مع سلطانه العظيم الذي بلغ مشرق الأرض ومغربها، وهو ذو القرنين.

هذه النماذج الثلاثة تمثل النتائج الممكنة لفتنة السلطة، ولا يخرج أحد ممن ابتلي بها عنها، فمن تصرف فيها وفق شرع الله وأحسن القصد سلم، وإلا عاد السلطان والعزُّ وبالاً عليه في العاجل أو الآجل.

فأما دقيانوس الملك في عهد أصحاب الكهف، فاستغل قوته لفرض أهوائه على الناس، وصدهم عن الحق، وسام من خالفه سوء العذاب ظلما وعدوانا، وأما الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً فقد استغل قوته للتوسع في شهوته المالية على حساب الضعفاء، فعم شره وطم إذ لم يكن أحد ينجو

من شره، ولا شك أن كلا منهما سقط في فتنة السلطة، وعليه من الإثم ويلحقه من العذاب بحسب سوء صنيعه ومخالفته للشرع؛ فأما من كفر ففي النار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾ [البقرة]، وأما من ظلم فإن لم يكفر، فيناله العذاب بقدر إساءته ما لم يتب.

وأما ذو القرنين فسار بسيرة مختلفة؛ لقد مكن الله له في الأرض فعمل بالأسباب، حتى ظهر على الناس فحكم بموجب إرادة الله الشرعية لا بأهوائه ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ٨٧ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ٨٨﴾ [الكهف]، ثم لم يأل جهداً في القيام بمصالح العباد، فلما شكا له القوم ظلم يأجوج ومأجوج وإفسادهم وعرضوا عليه خرجاً ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ٩٨﴾ [الكهف]. فكانت عاقبته نيل محبة الله ﷻ إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ٤٢﴾ [المائدة]، وكانت عاقبته أن خلد الله ذكره في كتابه إلى يوم الدين، وجعل له في قلوب المؤمنين محبة، وعلى ألسنتهم ذكرا حسنا ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ٨٠﴾ [الصافات]، قال ابن كثير: (أي: هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله، نجعل له لسان صدق يذكر به بعده بحسب مرتبته)[1]، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فيبدأ الإنعام من أول ساعات يوم القيامة؛ قال النبي ﷺ: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ"[2]، ثم "إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ الله عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ﷻ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا"[3]، وتتوالى النعم حتى يستقر في الجنة ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٣.
(٢) صحيح البخاري ٦/ ٢٤٩٦ (٦٤٢١)، صحيح مسلم ٢/ ٧١٥ (١٠٣١).
(٣) صحيح مسلم ٣/ ١٤٥٨ (١٨٢٧).

ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ [النساء].

سبيل النجاة من فتنة السلطان:

إن الله سبحانه يختبر عباده ويبتليهم بما شاء على وفق حكمته وعلمه، لكن رحمته بعباده اقتضت ألا يتركهم هملا نهبا للفتن، بل بين لهم على ألسنة رسله وفي كتبه المنزلة سبل النجاة وطرق الهداية، وللنجاة من فتنة السلطان أسباب متعددة بينها كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، وليس هذا مقام حصرها، لكننا نمر على شيء منها باختصار، فمن ذلك:

١ - الإيمان وتقوى الله: وهذا يبدو جلياً في قصة ذي القرنين، إذ دلت سيرته الحسنة على تمسكه بذلك فأثنى الله عليه وخلد ذكره دليلاً على نجاته من هذه الفتنة العظيمة، بخلاف ملك الفتية وملك قصة الخضر، فالأول كافر، والثاني لو كان موحداً لم تحجزه تقوى الله عن ظلم عباد الله وأخذ أموالهم بغير حق، ولكل منهما من العذاب وسوء المآل بحسبه.

٢ - عدم السعي لها: فعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: "قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا"(١).

٣- السلطة تكليف لا تشريف: قال رسول الله ﷺ: "أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"(٢).

٤ - تحديد الهدف: أن يكون ملكا صالحا مصلحا، وتجد هذا في سيرة ذي القرنين الذي نشر الدين والعدل في جميع الجهات؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ

---

(١) صحيح البخاري ٩/ ٦٣ (٧١٤٧)، صحيح مسلم ٣/ ١٢٧٣ (١٦٥٢).

(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٥٠ (٢٥٥٤)، صحيح مسلم ٣/ ١٤٥٩ (١٨٢٩).

سَبَبًا ﴾، فمن حدد هدفه وحمل الهم وسعى وفق، وإلا كان كلا على أمته.

٥- حسن اختيار البطانة والأعوان: قال ﷺ: "مَا اسْتُخْلِفَ خَلِيفَةٌ إِلَّا لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالخَيْرِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ"(١)، فالحاكم المصلح لا بد أن يقرب من يعينه على الصلاح من أهل المعرفة، ويبعد أهل الفساد والضلال، وشاهد ذلك في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

٦- الرفق بالرعية: قال ﷺ: "اللهُمَّ، مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ"(٢)، ورفق الله به يلزم منه الوقاية من الفتنة، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

٧- استشعار خطر السلطة: فعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: "قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَة، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا"(٣)، ولو استحضر كل مسؤول أن الولاية مغرم ووظيفة شاقة لا مغنم فيها إلا الأجر، لقامت دولة الخلافة الراشدة!

إن السلامة لا يعدلها شيء، فمن علم من نفسه ضعفاً فلينأ بنفسه عن الولايات، ومن وجد في نفسه قدرة على حملها فبحقها. ومن حقها:

أ= الحكم بالشرع؛ قال: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

ب= الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٤٣٨ (٦٢٣٧).
(٢) صحيح مسلم ٣/ ١٤٥٨ (١٨٢٨).
(٣) صحيح مسلم ٣/ ١٤٥٧ (١٨٢٥).

ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ [الحج].

ج= العدل: قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة]، وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: ٥٨].

د= التعفف: عن المال المباح إذا لم تكن له حاجة كما فعل ذو القرنين عندما عرضوا عليه خرجاً، ناهيك عن أكل أموال الناس بالباطل كملك الخضر عليه السلام.

هـ= عدم المحاباة: فينبغي أن يكون كل الناس أمام الحاكم سواء، فلا يميز أحداً لقرابة أو صداقة أو شرف أو غير ذلك، وقد قال رسول الله ﷺ: "إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا"(١)، ويمكن تلمس هذا في حكم ذي القرنين في أهل المغرب فإنه رتب الثواب والعقاب على أفعالهم لا على منازلهم.

وبعد، فهذه بعض الأسباب التي تعين على النجاة من فتنة السلطان، ومما ينبغي التنبه له أن هذه الفتنة ليست مختصة بالولايات العامة، بل كل من ولي أمرا من أمور المسلمين له حظ منها بحسبه، فالزوج، والوالدان والمعلم والمربي وصاحب العمل، وغيرهم، معرضون لهذه الفتنة، وينبغي لكل منهم أن يتخير من أسباب النجاة ما يناسبه.

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٢٨٢ (٣٢٨٨)، صحيح مسلم ٣/ ١٣١٥ (١٦٨٨).

فتنة السلطان وواقع الأمة اليوم

حال الأمة اليوم لا يخفى على أحد، فالأمة ممزقة إلى دول متعددة لا يجمعها جامع، ولكل من دولها حاكم يستقل بدولته، وبعد أن كنا أمة واحدة بحاكم واحد، صرنا دولا ممزقة متفرقة، والأنكى أن هذه الدول نفسها تتمزق إلى دويلات أو يراد بها ذلك. وبعد أن كان الحكم في الأمة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبعد أن كان الحكام يحكمون بشرع الله على شيء من التقصير، صار الحكم في جل البلاد الإسلامية للقوانين الوضعية، واتخذ كثير من الحكام شرع ربنا جل وعلا ظهريا، فزاد البلاء.

إن تغييب الشرع عن الحكم من مظاهر فتنة السلطان، ومن ضيع حق الله في تحكيم شرعه لا يبعد أن يضيع حقوق العباد، فيسير فيهم بسيرة سيئة، يأخذ أموالهم، وينهب ثرواتهم ويحكمهم بالحديد والنار، ويملأ السجون بالأبرياء ويسومهم سوء العذاب، ويعادي أولياء الله، ويواد أعداءه، ويضيع الأمانة ويتحالف مع أعداء الأمة! وهذا أو بعضه واقع في كثير من بلاد المسلمين منذ أمد، ولكن دوام الحال من الحال، وشدة الضغط تؤدي إلى الانفجار، فرأينا جميعاً انفجار غضب عدد من الشعوب في وجه جلاديها الذين حكموها فلم يعدلوا في حكمهم، وتولوا الأمانة فضيعوها، وأعطوا المهلة تلو المهلة من الله فظنوها إهمالا!

إن ما نراه اليوم في عالمنا العربي من آثار فتنة السلطان، فلو أن الحكام تنبهوا لهذه الفتنة وأخذوا بأسباب النجاة ما حصل ذلك، بل لساد الود والوئام بين الحكام والرعية إن ساروا فيهم بسيرة سوية. وليس هذا وقت (ليت) ولا البكاء على الأطلال، فما شاء الله كان، وقدر الله وما شاء فعل.

الوقت الآن لتصحيح الأخطاء لمن في فسحة من أمره، وقت الاعتبار بحال من مضى إلى مصيره البائس، يستوي في هذا من على كرسيه في بلاد المسلمين ومن يستعد لاعتلاء كراسي تركها أصحابها غير مأسوف عليهم. فهل يجد هؤلاء الحكام ناصحين مخلصين يرشدونهم ويأخذون بأيديهم إلى مرضاة ربهم وسعادتهم وسعادة شعوبهم في الدنيا والآخرة؟ اللهَ ندعو أن يوفق حكام بلاد العرب والمسلمين ومحكوميهم إلى ما يحب ويرضى.

العامة وفتنة السلطة

فتنة السلطة عظيمة، لأنها باب لالشهوات من زينة الدنيا وملذاتها، ولئن كانت فتنة لمن واقعها، فإنها فتنة لغيرهم ممن يقتربون منهم ولو كانوا من أهل الديانة! ولا سبيل لتخلص العامة منها إلاّ باعتزالها تارة كما فعل أصحاب الكهف، حتى لا يدخلوا في أهواء القائمين عليها، وتارة يكون الخلاص من شرها بالتحايل، كما صنع الخضر لأصحاب السفينة.

أما الاعتزال فقد لا يتأتى في عصرنا دائماً، وقد يكون خوض غمارها والاحتكاك بأصحابها لابد منه لبعض الناس، فليحذر المخالط حينها وليتق الله ربه فقد زلت في طريقه أقدام كثيرة كانت راسخة ثابتة!

يقول الأستاذ فتحي يكن ﷺ في مقال بعنوان فتنة السلطة: (ويحضرني في هذا المقام ما أورده ابن الجوزي في صيد الخاطر عن تجربته في مقاربة الحكام قال: (كنت في بداية الصبوة قد ألهمت سلوك طريق الزهاد، بإدامة الصوم والصلاة، وحببت إلي الخلوة، فكنت أجد قلبًا طيبًا، وكانت عين بصيرتي قوية الحدة، تتأسف على لحظة تمضي في غير طاعة، وتبادر الوقت في اغتنام الطاعات، ولي نوع أنس، وحلاوة مناجاة، فانتهى الأمر

أن صار بعض الولاة يستحسن كلامي، فأمالني إليه، فمال الطبع، ففقدت الحلاوة. ثم استمالني آخر، فكنت أتقي مخالطته خوف الشبهات، وحالتي قريبة، ثم جاء التأويل، فانبسطت فيما يباح، فعدم ما كنت أجد من استنارة، وصارت المخالطة توجب ظلمة القلب، إلى أن عدم النور كله، فكان حنيني إلى ما ضاع يوجب انزعاج المجلس، فيتوبون ويصلحون، وأخرج مفلسًا فيما بيني وبين حالي! وكثر ضجيجي من مرضي، وعجزت عن طلب نفسي، فلجأت إلى قبول الصالحين، وتوسلت في صلاحي، فاجتذبني لطف مولاي بي إلى الخلوة على كراهة، ورد قلبي علي بعد نفور، وأراني عيب ما كنت أوثره، فأفقت من مرض غفلتي)[1].

هذه الحالة تصيب من يسترسل في المخالطة خوفاً أو طمعاً وانجذاباً وراء حظوظ النفوس التي تهفو للوجاهة، فضلاً عن المصالح الشخصية والمآرب الدنيوية. فكم من (إسلامي) التقمته حيتان السلطة وابتلعته قصور السلاطين، وكم من (داعية) لحق بالحكام وترك دعوته وخان الأمانة، ونكث العهد وطعن إخوانه. لا أقول هذا تجنياً، ولا أتحدث عن ذلك افتياتاً أو افتراضاً، وإنما أتكلم عن أحداث جرت في عدد من الأقطار سمعتها بأذني، ورأيتها بعيني، وعانيت الكثير من آثارها وعواقبها.

- في مصر، وفي الخمسينات، التهمت السلطة من الدعاة والعلماء من التهمت، وكان أحدهم عضواً في مكتب الإرشاد.

- وفي العراق باع بعض مبادئه بعرض زائل وأصبح مطية لطاغوت البلد ومن زبانيته، وأصبح بأسه على إخوانه الذين سبقوه بالإيمان شديداً.

- وأذكر أن آذناً في مسجد تعهدته الحركة الإسلامية في الأردن فتعلم

---

(١) صيد الخاطر ص:٩٣ بتصرف واختصار.

وتعمم، ثم رشحته لعضوية المجلس النيابي ونجح، فلما أحس بحلاوة الموقع حتى انقلب عدواً لحركته وجماعته وما يزال على ذلك حتى اليوم.

- ومن الجديد مما وقع على هذا الصعيد، أن أحدهم استماله السلطان، فاستمرأ مجالسته مع إنكار جماعته لسياسته، وحجبها الثقة عن حكومته، فيتذرع بأنه يتابع أحوال الرعية من خلال الراعي، ويقضي حاجات الناس من خلال الحاكم، وكانت النتيجة أنه لم يتمكن من إنجاز قضية! وسقى جماعته المنية في الانتخابات النيابية.

الجانب الآخر: هذا الجانب المظلم والمعتم يقابله الجانب المضيء الوضيء، الذي نرى فيه أرتالاً من الدعاة يصدعون بالحق ولا يخشون في الله لومة لائم). انتهى المقصود من كلام الأستاذ بتصرف.

ولئن كان القرب من السلطة فتنة، فكيف بالصراع الذي تزهق فيه الأرواح من أجلها؟! وقد وقع كثيرا من أفاضل على مر التاريخ!

تأمل حال أفغانستان بعد الشيوعية، والحال في الجزائر في أثناء التسعينيات، والوضع في الصومال، والوضع في اليمن، وتأمل وتأمل وسل ربك السلامة والعافية!

والخلاصة أن هذه الفتنة لا يسلم منها أحد، إلا من عصمه الله وأيده وسدده، لا فرق في ذلك بين العامة والخاصة، ولا فرق بين أهل الدين وغيرهم. ولئن كان تنكب طريق النجاة من أهل الفسق مرذولا فإنه من أهل الإيمان أشد، ولئن لم يستيقظ من فتن بالسلطة من أهل الإيمان من سكرتها فإن العاقبة عليهم وعلى من معهم ومن يثق بهم وخيمة، فنسأل الله ﷻ أن يهدي قلوب عباده الذين ولاهم أمر المسلمين في مشارق الأرض

ومغاربها ويأخذ بنواصيهم إليه، عسى أن يبدل ما نحن فيه ويرفع عن هذه الأمة ما نزل بها من عنت وجور من القريب والبعيد.

****

قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾

تنتقل الآيات لمشهد من مشاهد يوم القيامة، لا سيما وأن هذه المشاهد ستمر على الجميع بالمواقعة أو بمشاهدة من يواقعها، فليس المخاطب بها فردا دون آخر أو فئة دون أخرى.

الأمر في الدنيا مختلف فقد يمر على الإنسان نوع بلاء ولا يمر عليه غيره، ولكن أحداث القيامة ستمر على الكل، والمؤسف أن كثيرا منا لا يتمثل أنه مخاطب بها وما فيها من مشاهد وكأنها لقوم آخرين، فينبغي أن يعرف كل واحد أنه سيندم يومها؛ لو كان مسيئاً لإساءته، ولو كان محسناً لأنه لم يزد في إحسانه، فيدفعه ذلك لمزيد من العمل وتعويض ما فات.

وقد كثر ذكر هذا اليوم العظيم إجمالا وتفصيلا في القرآن، وتنوعت صوره ومشاهده، لما في التكرار والتنوع من أثر عظيم على القلب، إذ تأخذ به إلى ربه جل وعلا مخبتا منيبا مجيبا داعيه، ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف].

فقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾

قال ابن الجوزي: (في المشار إليهم ثلاثة أقوال.

أحدها: أنهم يأجوج ومأجوج. ثم في المراد ب «يومئذ» قولان.

أحدهما: أنه يوم انقضى أمر السدِّ، تُركوا يموج بعضهم في بعض من ورائه مختلطين لكثرتهم؛ وقيل: ماجوا متعجبين من السدِّ، والثاني: أنه يوم يخرجون من السدِّ تُركوا يموج بعضهم في بعض.

والثاني: أنهم الكفار. والثالث: أنهم جميع الخلائق. الجن والإنس يموجون حيارى. فعلى هذين القولين، المراد باليوم يوم القيامة)[١]، ولعل الأقرب والأنسب للسياق القول الثالث وهو ما اختاره ابن كثير قال: (وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي: الناس يومئذ، أي: يوم يُدكُّ هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون ويفسدون ويتلفون، وهكذا قال السدي في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: ذاك حين يخرجون على الناس. وهذا قبل يوم القيامة وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه عند قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء] وهكذا قال هنا: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ قال ابن زيد في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾: هذا أول يوم القيامة، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ على أثر ذلك ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾)[٢].

قال ابن عاشور: (والجملة عطف على التي قبلها ابتداء من قوله حتى إذا بلغ بين السدين، فهذه الجملة -لذكر صنع الله في هذه القصة الثالثة من قصص ذي القرنين إذ ألهمه دفع فساد ياجوج وماجوج- بمنزلة جملة ﴿قُلْنَا يَٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ في القصة الأولى، وجملة ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾، فجاء أسلوب حكاية هذه القصص الثلاث على نسق واحد)[٣].

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾

قال البغوي: (﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لأن خروج يأجوج ومأجوج من

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٥٣ بتصرف يسير.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٩ بتصرف واختصار.

(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ٤٠.

علامات الساعة)[١]، وهذه العلامات إذا بدأت تتابعت مسرعة إلى نفخ في الصور، قال ابن الجوزي: (﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ نفخة البعث)[٢]، ذلك أنه ينفخ فيه نفختان كما دل الكتاب والسنة، خلافاً لمن قال ثلاث، فإن هذا لم يأت إلا في حديث منكر كما قال العلامة أحمد شاكر رحمه الله[٣]، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر]، وعن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: "ما بين النفختين أربعون. قالوا أربعون يوماً؟ قال أبيت، قالوا أربعون شهراً؟ قال أبيت، قالوا أربعون سنة؟ قال أبيت"[٤]، فالنفخة الأولى نفخة الصعق تميت الخلائق إلا من استثنى الله ﷻ بقوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، والنفخة الثانية نفخة البعث والنشور، وهي المقصودة هنا بدليل قوله: ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾.

قال ابن الجوزي: (في «الصور» قولان؛ أحدهما: أنه قرن ينفخ فيه؛ روى عبد الله بن عمرو أنه سأل رسول الله ﷺ عن الصور، فقال: "هو قرن ينفخ فيه"[٥] وقال مجاهد: الصور كهيئة البوق. وحكى ابن قتيبة: أن الصور: القرن، في لغة قوم من أهل اليمن... وهذا اختيارُ الجمهور.

والثاني: أن الصور جمع صورة؛ يقال: صورة وصور، بمنزلة سورة وسور، كسورة البناء؛ والمراد نفخ الأرواح في صُوَرِ الناس، قاله قتادة: وأبو عبيدة. وكذلك قرأ الحسن، ومعاذ القارىء، وأبو مِجْلَز، وأبو المتوكل «في الصُّوَر» بفتح الواو. قال ثعلب: الأجود أن يكون الصور: القرن، لأنه

---

(١) تفسير البغوي ٥/ ٢٠٩ بتصرف يسير.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٥٣ بتصرف يسير.
(٣) ينظر زاد المسير ٣/ ٦٩، حاشية ٢.
(٤) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٧٠ (٢٩٥٥).
(٥) سنن الترمذي ٤/ ٦٢٠ (٢٤٣٠)، وصححه الألباني، والسائل فيه أعرابي.

قال ﷻ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾؛ ولو كان الصُّوَر، كان: ثم نُفخ فيها أو فيهن؛ وهذا يدل على أنه واحد؛ وظاهر القرآن يشهد أنه يُنفخ فيه مرتين)[١].

والصواب ما عليه الجمهور كما دل ظاهر القرآن، وجاء مصرحاً في حديث "الصُّورُ قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ"[٢]، وعن أبي سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: "كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ! قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، توكلنا على الله ربنا"[٣].

وقوله: ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾

قال القرطبي: (﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ يعني الجن والانس في عرصات القيامة)[٤]، وقال ابن كثير: (﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ أي: أحضرنا الجميع للحساب ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة]، ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف: ٤٧])[٥]، قال البغوي: (في صعيد واحد)[٦]، وهذا إيذان ببدء حساب الخلائق.

(١) زاد المسير ٢/ ٣٦١ بتصرف واختصار.
(٢) سنن أبي داود ٤/ ٢٣٦ (٤٧٤٢).
(٣) سنن الترمذي ٥/ ٣٧٢ (٣٢٤٣)، وصححه الألباني.
(٤) تفسير القرطبي ١١/ ٦٥.
(٥) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠٠.
(٦) تفسير البغوي ٥/ ٢٠٩.

حديث يأجوج ومأجوج

أولاً- حقيقتهم: سبق معنا أن يأجوج ومأجوج أمتان مفسدتان في الأرض ضرب ذو القرنين عليهم ردماً كي لا يخرجوا ويعيثوا في الأرض الفساد، فضلاً من الله ورحمة بالعباد، وذكرا في موضعين من القرآن؛ في سورة الكهف كما مر، وفي سورة الأنبياء: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧ ﴾ [الأنبياء]، كما ورد ذكرهم في عدد من الأحاديث بينت شأنهم قبل فتح الردم، وبعده من فساد عريض وعيث في الأرض لا يكفه عن أهلها إلا الله ﷻ.

و في أصلهم وصفاتهم كثير من الأقوال التي لا يصح منها شيء، قال الرازي: (من الناس من وصفهم بقصر القامة وصغر الجثة بكون طول أحدهم شبراً ومنهم من وصفهم بطول القامة وكبر الجثة وأثبتوا لهم مخالب في الأظفار وأضراساً كأضراس السباع)(١)، وقال ابن كثير: (حكى النووي، رحمه الله عن بعض الناس: أن يأجوج ومأجوج خلقوا من مني خرج من آدم فاختلط بالتراب، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم، وليسوا من حواء. وهذا قول غريب جدًا، لا دليل عليه لا من عقل ولا نقل، ولا يجوز الاعتماد على ما يحكيه بعض أهل الكتاب، لما عندهم من الأحاديث المفتعلة. وفي مسند أحمد عن سَمُرَة؛ أن رسول الله ﷺ قال: "وَلَدُ نوح ثلاثة: سام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك". قال بعض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبي الترك، قال: إنما سموا هؤلاء تركًا؛ لأنهم

(١) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ٢٥١.

تركوا من وراء السد، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكن كان في أولئك بغي وفساد. وذكر ابن جرير عن وهب بن منبه أثرًا طويلا عجيبًا في سير ذي القرنين، وبنائه السد، وكيفية ما جرى له، وفيه طول وغرابة ونكارة في أشكالهم وصفاتهم، وطولهم وقصر بعضهم، وآذانهم. وروى ابن أبي حاتم أحاديث غريبة في ذلك لا تصح أسانيدها)(١).

والتحقيق أنهم من ذرية آدم ﷺ، لقوله ﷺ: "يقول الله ﷻ يوم القيامة: يا آدم. يقول: لبيك ربنا وسعديك. فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار. قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف -أراه قال(٢)- تسعمائة وتسعة وتسعين فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم. فقال النبي ﷺ: من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ومنكم واحد"(٣)، وما داموا كذلك فالأصل أنهم كغيرهم من بني آدم، فلا يعدل عن هذا إلا بدليل.

ثانياً- حالهم بعد بناء الردم: سبق بيان عجز يأجوج ومأجوج عن تسلق الردم أو نقبه، لكنهم لم يستسلموا، ففي الحديث أنهم مذ حبسوا خلف الردم يسعون لنقبه والخروج من محبسهم، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدا، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٥ بتصرف واختصار.
(٢) الشك من حفص بن غياث راوي الحديث عن الأعمش، ينظر فتح الباري ٨/ ٤٤٢.
(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٧٦٧ (٤٤٦٤).

على الناس، حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدا، إن شاء الله، ويستثني، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس"(١)، قال ابن كثير رحمه الله: (وهذا إسناده قوي، ولكن في رفعه نكارة؛ لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه، لإحكام بنائه وصلابته وشدته. ولكن هذا قد روي عن كعب الأحبار: أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون: غدًا نفتحه. فيأتون من الغد وقد عاد كما كان، فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون كذلك، ويصبحون وهو كما كان، فيلحسونه ويقولون: غدًا نفتحه. ويلهمون أن يقولوا: "إن شاء الله"، فيصبحون وهو كما فارقوه، فيفتحونه. وهذا مُتَّجه، ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب. فإنه كثيرًا ما كان يجالسه، فحدث به فتوهم بعض الرواة أنه مرفوع، فرفعه. ويؤكد ما قلناه -من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شيء منه، ومن نكارة هذا المرفوع- قول الإمام أحمد)(٢) ثم ذكر رحمه الله حديث زينب رضي الله عنها قالت: "استيقظ النبي ﷺ من النوم محمراً وجهه يقول: لا إله إلا الله. ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه. -وعقد سفيان(٣) تسعين أو مائة- قيل: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث"(٤).

ولا تعارض لأن الآية تصف حالهم عند بناء الردم وأنهم عجزوا عن

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٦/ ٣٦٩ (١٠٦٣١)، قال الأرناؤوط: صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٧٦).

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٨.

(٣) هو سفيان بن عيينة رحمه الله.

(٤) صحيح البخاري ٦/ ٢٥٨٩ (٦٦٥٠)، صحيح مسلم ٤/ ٢٢٠٧ (٢٨٨٠).

نقبه، وليس فيها ما يدل على استمرار هذه الحال وبقائها ولا ما يدل على إعراضهم عن المحاولة، بل إن الحديث الأخير ليدل على أنهم أخذوا وقتاً طويلاً حتى أمكنهم فتح هذه الفتحة الصغيرة، وهذا يعني أن ما دلت عليه الآية من عدم استطاعتهم بقي دهراً طويلاً، والله أعلم.

ثالثاً- هل خرج يأجوج ومأجوج؟

ذهب بعض المعاصرين إلى أن الردم فتح من زمن وأن يأجوج ومأجوج هم الروس، وهذا مخالف لما دلت عليه آيتا الكهف والأنبياء من اقتراب فتح الردم من يوم القيامة، إلا أن القائلين به ردوا على الاستدلال بالآيتين بما ذكره الشنقيطي رحمه الله وهو قولهم: (إنما تدل الآيات المذكورة في الكهف والأنبياء على مطلق اقتراب يوم القيامة من دك السد. واقترابه من يوم القيامة لا ينافي كونه قد وقع بالفعل، كما قال: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ١]. وقال: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١﴾ [القمر]، وقال النَّبي ﷺ: «ويل للعرب، من شر قد اقترب، فتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها»، وقد قدمناه في المائدة. فدل القرآن والسنة على أن اقتراب ما ذكر لا يستلزم اقترانه به، بل يصح اقترابه مع مهلة، وإذًا فلا ينافي دك السد الماضي المزعوم الاقتراب من يوم القيامة، فلا يكون في الآيات دليل على أنه لم يدك السد إلى الآن. فالجواب ما قدمنا أن البيان بالآيات ليس وافياً بتمام الإيضاح إلا بضميمة السنة، ولذا ذكرنا أننا نتمم مثله من السنة لأنها مبينة للقرآن)[1]، ثم ذكر رحمه الله الحديث وفيه: "ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤٠٧ بتصرف واختصار.

على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء ويُحصَر نبي الله عيسى وأصحابه"(١) ثم قال: (وهذا الحديث الصحيح قد رأيت فيه تصريح النَّبي ﷺ: بأن الله يوحي إلى عيسى خروج يأجوج ومأجوج بعد قتله الدجال. فمن يدعي أنهم روسية وأن السد قد اندك منذ زمان فهو مخالف لما أخبر به النَّبي ﷺ مخالفة صريحة لا وجه لها. ولا شك أن كل خبر ناقض خبر الصادق المصدوق ﷺ فهو باطل لأن نقيض الصادق كاذب ضرورة كما هو معلوم. ولم يثبت في الكتاب ولا السنة شيء يعارض هذا الحديث الذي رأيت صحة سنده، ووضوح دلالته على المقصود. والعمدة في الحقيقة لمن ادعى أن يأجوج ومأجوج هو روسية، ومن ادعى من الملحدين أنهم لا وجود لهم أصلاً - هي حجة عقلية في زعم صاحبها؛ يقول: لو كان يأجوج ومأجوج وراء السد إلى الآن، لاطلع عليهم الناس لتطور طرق الموصلات، لكنهم لم يطلع عليهم أحد ينتج: فهم ليسوا وراء السد إلى الآن، هذا عمدة حجة المنكرين وجودهم إلى الآن وراء السد، [قال:] فقولكم: لو كانوا موجودين وراء السد إلى الآن لاطلع عليهم الناس غير صحيح. لإمكان أن يكونوا موجودين والله يخفي مكانهم على عامة الناس حتى يأتي الوقت المحدد لإخراجهم، ومما يؤيد إمكان هذا ما ذكره في المائدة من جعل بني إسرائيل يتيهون في الأرض أربعين سنة في قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة]، وهم في فراسخ قليلة، يمشون ليلهم ونهارهم ولم يطلع عليهم الناس حتى انتهى أمد التيه، لأنهم لو اجتمعوا بالناس لبينوا لهم الطريق. وعلى كل حال، فربك فعال لما يريد،

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٥٠ (٢٩٣٧).

وأخبار رسوله ﷺ الثابتة عنه صادقة)[1].

شبهة أخرى: يشكك بعض المعاصرين في وجود يأجوج ومأجوج اليوم لأن الأقمار الصناعية لم تترك بقعة إلا مسحتها بالأجهزة الحديثة وصورتها فكيف لم يكتشف هؤلاء القوم وأعدادهم هائلة كما نعلم؟

فيقال: إضافة لما قاله الشنيطي رحمه الله إنه قد ورد في الحديث أنهم يحفرون "حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدا" وهذا مشعر بأنهم في مكان كالغار أو في غابة كثيفة ملتفة الأشجار بحيث لا يصل إليهم شعاع الشمس، ووجود مثل هذا المكان وبخاصة الغار بحيث يكون في منطقة وعرة لا يصل إليها البشر ولا تتمكن الأقمار الصناعية من رؤية ما بداخله ممكن لا يحيله العقل.

تنبيه- يظن بعض الناس أن المقصود بيأجوج ومأجوج المغول أو التتر، وهذا القول أوجه من القول بأنهم الروس لاشتباه حال الأولين بيأجوج ومأجوج، في كثرة عددهم وسرعة انتشارهم في الأرض وعظيم الفساد الذي خلفوه في كل مكان حلوا فيه، وعظم مصاب أمة الإسلام بهم، ما يجعل اشتباههم بيأجوج ومأجوج وجيهاً، لكن الحق الذي لا مراء فيه أنهم ليسوا هم، وأنهم لم يخرجوا بعد بدلالة حديث مسلم السابق وغيره مما سنذكر طرفاً منه إن شاء الله، لكن العجيب أن يقول بهذا بعض أهل العلم، مع الدلالة الصريحة لتلك الأحاديث على أنهم لا يخرجون إلا بعد نزول المسيح عليه السلام، وممن قال بهذا ابن عاشور في تفسيره لآيتي الكهف والأنبياء كما مر، قال رحمه الله: (وبناء على هذا التفسير تكون هذه الآية

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤٠٨ بتصرف واختصار.

وصفت انتشار ياجوج وماجوج وصفا بديعا قبل خروجهم بخمسة قرون فعددنا هذه الآية من معجزات القرآن العلمية والغيبية. ولعل تخصيص هذا الحادث بالتوقيت دون غيره من علامات قرب الساعة قصد منه مع التوقيت الإنذار للعرب المخاطبين ليكون ذلك نصب أعينهم تحذيرا لذرياتهم من كوارث ظهور هذين الفريقين فقد كان زوال ملك العرب وتدهور حضارتهم على أيدي ياجوج وماجوج وهم المغول والتتار كما بين ذلك الإنذار النبوي في ساعة من ساعات الوحي. فقد روت زينب بنت جحش أن النبيء ﷺ دخل عليها فزعا يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج هكذا» وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها. والاقتراب على هذا نسبي على نسبة ما بقي من الدنيا بما مضى منه كقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾ [القمر])[1]، وبطلان هذا القول في ضوء الأحاديث الصحيحة المصرحة بأن خروجهم بعد نزول المسيح عليه السلام لا يخفى، فلزم التنبيه كي لا يغتر أحد بهذا الكلام، وأما زوال ملك العرب على يد المغول فقد كان مؤقتاً، وليس هو المقصود، بل المقصود أعظم وأشد، وهو ما بينته الأحاديث مما يكون من يأجوج ومأجوج عند خروجهم، والله المستعان.

رابعاً- حالهم بعد الخروج: سبق أن الله سبحانه جعل لهذا الردم ولمحبس يأجوج ومأجوج خلفه أجلاً، حتى إذا انقضى تحقق وعد الله بفتح الردم وخروجهم، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧﴾ [الأنبياء] قال

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/١٤٨ بتصرف واختصار.

الشوكاني: (والمراد بفتح يأجوج ومأجوج فتح السدّ)[١]، وقال ابن كثير: (أي: يسرعون في المشي إلى الفساد، والحَدَب: المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس، وعكرمة، وأبو صالح، والثوري وغيرهم، وهذه صفتهم حال خروجهم، كأن السامع مشاهد، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾ [فاطر]: هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، يعلم غيب السموات والأرض)[٢].

وقد جاءت الأحاديث بصفة خروجهم وما يكون منهم من العجائب، فمن ذلك حديث النواس بن سمعان ﷺ، وفيه يقول النبي ﷺ بعد ذكر الدجال وما يكون منه: "فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين[٣] واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفَسِه إلا مات. ونفَسُه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لُد فيقتله ثم يأتي عيسى ابنَ مريم قومٌ قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء ويُحصَر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغب

---

(١) فتح القدير ٥/ ٨١.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٣٧٢ بتصرف واختصار.
(٣) قال النووي في شرح مسلم ١٨/ ٦٧: ومعناه لابس مهرودتين أي ثوبين مصبوغين بورس ثم بزعفران وقيل هما شقتان والشقة نصف الملاءة.

نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف(١) في رقابهم فيصبحون فرسى(٢) كموت نفس واحدة ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم(٣) فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم يرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَفة(٤) ثم يقال للأرض أنبتي ثمرك وردي بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقِحفها(٥) ويبارك في الرِّسل(٦) حتى إن اللِّقحة(٧) من الإبل لتكفي الفئام(٨) من الناس واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفي الفخْذ من الناس فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر(٩)فعليهم تقوم الساعة"(١٠).

ومنه حديث أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يفتح يأجوج ومأجوج، يخرجون على الناس، كما قال الله ﷻ: ﴿مِّن كُلِّ

---

(١) دود يكون في أنوف الإبل والغنم.

(٢) أي قتلى.

(٣) أي دسمهم ورائحتهم الكريهة.

(٤) أي كالمرآة.

(٥) هو مقعر قشرها.

(٦) اللبن.

(٧) هي القريبة العهد بالولادة.

(٨) الجماعة الكثيرة.

(٩) أي يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما تفعل الحمر ولا يكترثون لذلك.

(١٠) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٥٠ (٢٩٣٧).

حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ [الأنبياء]، فيغشون الأرض، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه، حتى يتركوه يبسا، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان هاهنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس إلا أحد في حصن أو مدينة قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض، قد فرغنا منهم، بقي أهل السماء"، قال: "ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمي بها إلى السماء، فترجع إليه مختضبة دما، للبلاء والفتنة، فبينا هم على ذلك، بعث الله دودا في أعناقهم، كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقهم، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حسا، فيقول المسلمون: ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو". قال: "فيتجرد رجل منهم لذلك محتسبا لنفسه قد أظنها على أنه مقتول، فينزل، فيجدهم موتى بعضهم على بعض، فينادي: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا، فإن الله قد كفاكم عدوكم. فيخرجون من مدائنهم، وحصونهم، ويسرحون مواشيهم، فما يكون لها رعي إلا لحومهم، فتشكر عنه كأحسن ما تشكر عن شيء من النبات أصابته قط"[1].

قال ابن كثير: (والأحاديث في هذا كثيرة، والآثار عن السلف كذلك، وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث مَعْمَر، عن غير واحد، عن حميد بن هلال، عن أبي الصَّيف قال: قال كعب: إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج، حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل قالوا: نجيء غدا فنخرج، فيعيده الله كما كان. فيجيئون من

(١) مسند أحمد ١٨/ ٢٥٧ (١١٧٣١)، قال الأرناؤوط: إسناده حسن.

الغد فيجدونه قد أعاده الله كما كان، فيحفرونه حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول: نجيء غدا فنخرج إن شاء الله. فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه، فيحفرون حتى يخرجوا. فتمر الزمرة الأولى بالبحيرة، فيشربون ماءها، ثم تمر الزمرة الثانية فيلحسون طينها، ثم تمر الزمرة الثالثة فيقولون: قد كان هاهنا مرة ماء، ويفر الناس منهم، فلا يقوم لهم شيء. ثم يرمون بسهامهم إلى السماء فترجع إليهم مُخَضَّبة بالدماء فيقولون: غلبنا أهل الأرض وأهل السماء. فيدعو عليهم عيسى ابن مريم، ﷺ، فيقول: "اللهم، لا طاقة ولا يَدَين لنا بهم، فاكفناهم بما شئت"، فيسلط الله عليهم دودا يقال له: النغف، فيفرس رقابهم، ويبعث الله عليهم طيرا تأخذهم بمناقيرها فتلقيهم في البحر، ويبعث الله عينا يقال لها: "الحياة" يطهر الله الأرض وينبتها، حتى إن الرمانة ليشبع منها السَّكْن". قيل: وما السَّكن يا كعب؟ قال: أهل البيت -قال: "فبينما الناس كذلك إذ أتاهم الصَّريخ أن ذا السُّويقَتَين يريده. قال: فيبعث عيسى ابن مريم طليعة سبعمائة، أو بين السبعمائة والثمانمائة، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ريحا يمانية طيبة، فيقبض فيها روح كل مؤمن، ثم يبقى عَجَاج الناس، فيتسافدون كما تَسَافَدُ البهائم، فَمَثل الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه ينتظرها متى تضع؟ قال كعب: فمن تكلف بعد قولي -أو بعد علمي- هذا شيئا فهو المتكلف. هذا من أحسن سياقات كعب، لما شهد له من صحيح الأخبار)[1].

فهذا هو ما صح من خبر يأجوج ومأجوج وما يكون منهم من فساد

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٣٧٦ بتصرف يسير.

وإفساد في المستقبل، كما كان منهم في زمن ذي القرنين، وأما ما سوى ذلك من القصص والحكايات فمحض وهم وخرافة، سواء كان من الإسرائيليات أو من اختراع القصاص، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾﴾

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما انتهت الآيات إلى وقت نفخ الصور إيذاناً بالحساب، ناسب أن يأتي تفصيل ما أعد الله من جزاء للفريقين اللذين لا ثالث لهما؛ من آمنوا به وبرسله، ومن كفروا به وكذبوا الرسل، وهنا يأتي المشهد الأول للحساب ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾، وقد حذرت بداية السورة كل عاقل ومتبصر وكل حاذق ومتفطن، كي لا يصل لهذه المرحلة ولا تعرض عليه جهنم؛ بل ليكون نزله الفردوس، فقال الله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴿٧﴾﴾ [الكهف]، ثم بين لنا بعض هذه الزينة في سياق هذه السورة كفتنة المال والجاه والولد، وفتنة السلطان، وفتنة القوة والعدد، كي يحصل البلاء ويجري على البشر الاختبار، وهم على بينة من أمرهم. وبعد أن مضى الحديث عن أصحاب الكهف، وصاحب الجنتين، وعن

الدنيا وزينتها، وبعد قصة موسى والخضر عليهما السلام، وقصة ذي القرنين وما تخلل ذلك من تحذير وإنذار ووعد ووعيد وترغيب وترهيب، أردف الله ﷻ ببيان ما للفريقين، فكأن النهاية هنا نتيجة المقدمة هناك، وحاصل سياق السورة وما فيها من الفتن والابتلاء.

فقوله: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾

قال ابن كثير: (يقول تعالى عما يفعله بالكفار يوم القيامة: إنه يعرض عليهم جهنم، أي: يبرزها ويظهرها، ليروا العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون أبلغ في تعجيل الهم والحزن. وفي مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زِمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها")[١]، وقال الشنقيطي: (وقال بعض العلماء: اللام في «للكافرين» بمعنى على، وهذا يشهد له القرآن؛ لأن العرض في القرآن يتعدى بعلى؛ كقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وقوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦]، وقوله: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨]، ونظيره في كلام العرب البيت الذي قدمناه في سورة هود، وهو قوله:

هتكت له بالرمح جيب قميصه ... فخر صريعاً لليدين وللفم

أي خر صريعاً على اليدين.

وقد علم من الآيات: أن النار تعرض عليهم ويعرضون عليها؛ لأنها تقرب إليهم ويقربون إليها. كما قال في عرضها عليهم: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾، وقال في عرضهم عليها: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ الآية،

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠١ بتصرف يسير.

ونحوها)(١)، ولا تعارض بين المعنيين، فإن جهنم تبرز للكافرين يوم القيامة ويرونها من مكان بعيد كما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان]، ثم تقرب منهم تجرها الملائكة، ويقربون منها تسوقهم الملائكة لتلقيهم فيها، قال ابن عاشور: (وعرض جهنم مستعمل في إبرازها حين يشرفون عليها وقد سيقوا إليها فيعلمون أنها المهيئة لهم)(٢)، وفي هذا من عذاب النفس وألمها ما الله به عليم، نسأل الله العافية.

قال ابن عاشور: (وتأكيد فِعلَي فجمعناهم وعرضنا بمصدريهما لتحقق أنه جمع وعرض حقيقي لا مجاز، وفي تنكيرهما تهويل)(٣)، قال ابن عثيمين رحمه الله: (ولذلك نُكِّر، يعني عرضاً عظيماً تتساقط منه القلوب، ومن الحِكَم في الإخبار الله عز وجل بذلك أن يصلح الإنسان ما بينه وبين الله، وأن يخاف هذا اليوم، ويستعد له، ويصور نفسه كأنه تحت قدميه، كما قال الصِّديق:

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ في أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَدْنَى من شِرَاكِ نَعْلِهِ

فتصور هذا وأنه ليس بينك وبينه إلَّا أن تخرج الروح ثم ينتهي كل شيء)(٤).

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾

قال ابن عاشور: (ونعت الكافرين بـ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ﴾ تنبيه أن مضمون الصلة هو سبب عرض جهنم لهم، أي الذين عرفوا بذلك في الدنيا، والغطاء: مستعار لعدم الانتفاع بدلالة البصر على تفرد الله بالإلهية،

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤١١ بتصرف واختصار.
(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٤٢ بتصرف يسير.
(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ٤٢ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير القرآن للعثيمين ٦/ ١١٢ بتصرف يسير.

وحرف (في[1]) للظرفية المجازية، وهي تمكن الغطاء من أعينهم كأنها محوية للغطاء، و(عن) للمجاوزة، أي عن النظر فيما يحصل به ذكري)[2]. قال ابن كثير: (أي: تعاموا وتغافلوا وتصامُّوا عن قبول الهدى، كما قال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف] وقال هاهنا: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه)[3]، وقال السعدي رحمه الله: (لا يقدرون على سمع آيات الله الموصلة للإيمان، لبغضهم القرآن والرسول، فإن المبغض لا يستطيع أن يلقي سمعه لمن أبغضه، فإذا انحجبت عنهم طرق العلم والخير، فليس لهم سمع ولا بصر ولا عقل نافع، فقد كفروا بالله وجحدوا آياته، وكذبوا رسله، فاستحقوا جهنم)[4].

فالمنفي ليس الإبصار والسمع الحقيقي، إذ لهم أعين يرون بها وآذان يسمعون بها، لكنهم كما قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف]، قال ابن كثير: (أي: ليس ينتفعون بالجوارح التي جعلها الله سببا للهداية كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف] وقال: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة] هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة] ولم يكونوا كذلك إلا عن الهدى، كما قال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

(١) في المطبوع (من).
(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٤٢ بتصرف يسير.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠١ بتصرف يسير.
(٤) تفسير السعدي ١/ ٤٨٧ بتصرف يسير.

[الأنفال]، وقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج]، وقال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف]. وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: الذين لا يسمعون الحق ولا يبصرون الهدى، كالأنعام التي لا تنتفع بالحواس إلا في الذي يعيشها من ظاهر الحياة كما قال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٧١] أي: ومثلهم في دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ﴾ أي: من الدواب؛ لأنها تستجيب لراعيها إذا أَبَسَّ بها(١)، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء؛ ولأن الدواب تفقه ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر فإنه خلق ليعبد الله فكفر؛ ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر، كانت الدواب أتم منه؛ ولذا قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾)(٢).

وهذه حال كثير من العلمانيين والليبراليين في بلادنا، فالذي يقرأ ما يكتبون في وسائل الإعلام يعجب لحالهم، فكأنهم ما ولدوا في هذه البلاد ولا عاشوا ولا درسوا ولا تعلموا فيها أصول الإيمان والعقيدة، ومن دخل على مواقعهم على الشابكة قفَّ شعر رأسه مما يراه من كفر بواح وتكذيب بآيات الله وإعراض عن منهجه، وسخرية واستهزاء بالله ورسوله؛ كل هذا وأكثر بزعم حرية الرأي والتعبير، ولا تجد فيهم من ينكر! وأمثلهم طريقة

---

(١) أبس بالناقة دعاها للحلب، وهو أن يقول لها: بِسْ بِسْ وهو ضرب من زجر الإبل (لسان العرب: ب س س).

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٥١٣ بتصرف واختصار.

قد يرد على صاحبه ويخالفه رأيه مع احترامه في اختيار ما يريد!

هذه هي الحرية المزعومة التي جعلوها صنماً يعبد من دون الله، وما هي إلا زندقة وفتنة صماء وردة صلعاء، هذه هي الحرية التي يبشرون بها ويريدون نشرها في بلادنا، لا بلغهم الله ما يريدون.

قال ابن عاشور: (﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ تَخَلُّصٌ من أغراض الاعتبار بما في القصة من إقامة مصالح الدنيا على أيدي أوليائه، إلى غرض التذكير بالموعظة بأحوال الآخرة، وهو تخلص يؤذن بتشبيه تموجهم بتموج الناس في المحشر، تذكيرا للسامع بالحشر وتقريبا بحصوله في خيال المشركين. فإن القادر على جمع أمة كاملة وراء هذا السد، بفعل من يسره لذلك من خلقه، أقدر على جمع الأمم في الحشر بقدرته، لأن متعلقات القدرة في الآخرة أعجب. وقد تقدم أن من أهم أغراض السورة إثبات البعث، واستعمل الماضي موضع المضارع لتحقيق وقوعه)(١).

وقوله: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾

قال ابن الجوزي: (أي: أَفَظَنَّ المشركون ﴿أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ فيهم ثلاثة أقوال؛ أحدها: الشياطين، قاله ابن عباس، والثاني: الأصنام، قاله مقاتل، والثالث: الملائكة والمسيح وعزير وسائر المعبودات من دونه، قاله أبو سليمان الدمشقي)(٢)، قال الشنقيطي: (والأظهر المتبادر من الإضافة في "عبادي" أن المراد نحو الملائكة وعيسى وعزيز، لا الشياطين ونحوهم،

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٤١ بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٥٤ بتصرف يسير.

لأن هذه الإضافة للتشريف غالباً)[١]، ويجاب بأنه إن كان الغالب فلا يلزم أن يراد في كل موضع، فالمراد أشمل لأن الآية لا تخص الذين عبدوا الصالحين من الملائكة والأنبياء وغيرهم، بل عامة في الذين اتخذوا من دون الله أولياء، ولا شك أن أولاهم بالخطاب قوم النبي ﷺ وقد كان أكثر ما يعبدون الأصنام، وليست كلها لصالحين، كما كانوا يعبدون الشياطين، كما قالت الملائكة يوم سألهم الله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ]، قال ابن كثير: (﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ يعنون: الشياطين؛ لأنهم هم الذين يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم)[٢]، وينفصل عن هذا بأنه لا تعارض بين الأقوال، فمن قال الملائكة أو الشياطين أو الأصنام كان يمثل بأفراد من جنس الأولياء المتخَذين، والقول الأخير شامل لها جميعاً فيصار إليه.

قال الشنقيطي: (الهمزة في قوله: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ للإنكار والتوبيخ. وفي الآية حذف دل المقام عليه، قال بعضهم: تقدير المحذوف: أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ولا أعاقبهم العقاب الشديد؟ كلا! بل سأعاقبهم. بدليل قوله بعده: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾، وقال بعض العلماء: تقديره: أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء وأن ذلك ينفعهم؟ كلا! بل يضرهم. ويدل لهذا قوله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقوله عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. ثم إنه تعالى بين بطلان ذلك بقوله:

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤١٣ بتصرف يسير.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٢٤.

﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس]، وما أنكره عليهم هنا من ظنهم أنهم يتخذون من دونه أولياء ولا يعاقبهم، أو أن ذلك ينفعهم، جاء مبيناً في مواضع، كقوله في الأعراف: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ﴾ [الأعراف: ٣]. فقد نهاهم عن اتباع الأولياء من دونه في هذه الآية، لأنه يضرهم ولا ينفعهم، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن، كقوله: ﴿وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ [الكهف: ٢٦]، وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود]، وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقوله: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ﴾ [الأنعام: ٧٠]، ونحوه من الآيات)[1].

وانظر لحال الحكام الذين اتخذوا أمريكا والغرب أولياء ينتصرون بهم، هل نفعوهم؟ كانت أمريكا تناصرهم وتؤزهم على الشر أزاً، ولكنها تخلت عنهم أحوج ما يكونون، بل ذهبت أبعد من ذلك ووقفت ضدهم.

وهؤلاء سيتبرأ بعضهم من بعض: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة]، وهذا التبرؤ من العذاب النفسي الذي قد يكون أشد من الجسدي.

وهنا لا بد أن يبحث في شأنه وأحواله هل ولايته مخالفة لولاية الله ﷻ، كانت لأمير أو وزير، أو زوجة أو أولاد، أو غير ذلك، فكل من اتخذ ولاية مخالفة لولاية الله سبحانه فهو داخل في الآية.

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤١٣ بتصرف واختصار.

ومعنى (أعتدنا) أعددنا وهيأنا وأرصدنا، قال الألوسي: (من العتاد وهو ادخار الشيء قبل الحاجة، وقيل: أصله أعددنا فأبدل من إحدى الدالين تاء والمعنى واحد أي هيأنا)(١)، قال البغوي: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾ أي: منزلاً، قال ابن عباس: هي مثواهم. وقيل: النزل ما يهيأ للضيف؛ يريد هي معدة لهم عندنا كالنزل للضيف)(٢)، وعلى الثاني يجري الكلام مجرى الاستهزاء والتهكم، لأن من حق الضيف أن يكرم نزله، وبما أنهم عطلوا عقولهم واستهزؤوا بآيات الله وتعامَوا عن الحق؛ استهزأ الله بهم وجعل لهم جهنم منزلا، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾ [التوبة]، قال ابن عاشور: (وحقيقة التبشير: الإخبار بما يظهر سرور المخبر (بفتح الباء) وهو هنا مستعمل في ضد حقيقته، إذ أريد به الإخبار بالعذاب، وهو موجب لحزن المخبَرين، وهذا معدود عند علماء البيان استعارة، ويسمونها تهكمية لأن تشبيه الضد بضده لا يروج في عقل أحد إلا على معنى التهكم، أو التمليح)(٣). قال ابن عاشور: (وإظهار الذين كفروا دون أن يقال: أفحسبوا، بإعادة الضمير إلى الكافرين في الآية قبلها، لقصد استقلال الجملة بدلالتها، وزيادة في إظهار التوبيخ لها. وجملة إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا مقررة لإنكار انتفاعهم بأوليائهم فأكد بأن جهنم أعدت لهم نزلا فلا محيص لهم عنها ولذلك أكد بحرف "إن")(٤).

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٣٩ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير البغوي ٥/ ٢١٠.
(٣) التحرير والتنوير ٣/ ٢٠٧ بتصرف واختصار.
(٤) التحرير والتنوير ١٦/ ٤٤.

ومع تأكيد هذا المعنى في الكتاب والسنة؛ إلا أن الصمم في آذان الكفار حال بينهم وبين قبول الحق وإفراد الله ﷻ بالعبادة والوحدانية، فعموا وصموا واتخذوا من دونه أولياء شتى فتاهوا في الضلال.

وما أكثر ألوان الشرك عند أهله، فمنهم من عبد البشر كعيسى وعزير عليهما السلام، ومنهم من عبد الملائكة، ومنهم من عبد الأصنام والجن، والشمس، والقمر، والأحجار، والأشجار، نسأل الله العافية.

ومهما اتخذ الإنسان من أولياء وعبدهم من دون الله فلن ينفعه ذلك ولن يأتيه بخير كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الفرقان]، ثم إن كل هذه المعبودات تتبرأ ممن عبدها يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفرقان].

وقوله: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴾

قال الشنقيطي: (المعنى: قل لهم يا نبي الله: هل نخبركم بالأخسرين الذين هم أخسر الناس أعمالاً وأضيعها. فالأخسر صيغة تفضيل من الخسران وأصله نقص مال التاجر)(١)، وقال الألوسي: (﴿أَعْمَٰلًا﴾ تمييز، وجمع -مع أن الأصل في التمييز الإفراد، والمصدر شامل للقليل والكثير- للإيذان بتنوع أعمالهم وقصد شمول الخسران لجميعها)(٢).

(١) أضواء البيان ٣/ ٤١٤ بتصرف يسير.
(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٤٢١ بتصرف يسير.

قال الطبري: (﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أيها القوم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الذين أتعبوا أنفسهم في عمل يبتغون به ربحاً فنالوا به عَطَبا وهلاكا ولم يدركوا طلبا، كالمشتري سلعة يرجو ربحا، فخاب رجاؤه ووكس، عنى بقوله: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ كلّ عامل عملا يحسبه فيه مصيبا، وأنه لله مطيع، وهو لله مسخط، وعن طريق أهل الإيمان جائر؛ كالرهابنة والشمامسة وأمثالهم من أهل الاجتهاد في ضلالتهم، وهم مع ذلك بالله كفرة، من أهل أيّ دين كانوا)[1]، قال ابن القيم: (﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣﴾ [الكهف]، هم الذين عنى بقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان]، وبقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ۝١٦٧﴾ [البقرة])[2].

قال البغوي: (واختلفوا فيهم: قال ابن عباس وسعد: هم اليهود والنصارى. وقيل: هم الرهبان ﴿الَّذِينَ﴾ حبسوا أنفسهم في الصوامع. وقال علي: هم أهل حروراء)[3]، وهذا ليس خلافاً على التحقيق، فهذه الأقوال ليست عن سبب نزول الآية وفيمن نزلت، قال ابن كثير: (ومعنى هذا عن علي ﷺ: أن الآية تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت فيهم على الخصوص بل هي أعم؛ فإن الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١٢٦ بتصرف واختصار.
(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ١/ ٩ بتصرف يسير.
(٣) تفسير البغوي ٥/ ٢١١ بتصرف يسير.

﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ [الغاشية] وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]. وقال في هذه الآية: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أي: نخبركم ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾؟ ثم فسرهم: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: عملوا أعمالا باطلة غير مشروعة ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون محبوبون)(١).

وذهب ابن عطية إلى أن الاستفهام لا ينتهي عند: ﴿أَعْمَٰلًا﴾ بل عند: ﴿صُنْعًا﴾، قال: (المعنى: قل لهؤلاء الكفرة توبيخا: هل نخبركم بالذين خسروا عملهم وضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم مع ذلك يظنون أنهم يحسنون فيما يصنعونه؟ فإذا طلبوا ذلك فقل لهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾، وهذه صفة المخاطبين من كفار العرب المكذبين بالبعث)(٢)، وهو قول له وجاهته، إلا أنه ضعف بقية الأقوال بقوله: (ويضعف هذا كله قوله بعد ذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾ وليس من هذه الطوائف من يكفر بلقاء الله، وإنما هذه صفة مشركي عبدة الأوثان، فاتجه بهذا ما قلناه أولاً، وعلي وسعد رضي الله عنهما ذكرا أقواماً أخذوا بحظهم من صدر الآية)(٣)، ويجاب عن ذلك بأجوبة: منها أن هذه الأقوال لا تحدد من نزلت فيهم الآية كما سبق، ومنها أن هؤلاء يظنون أنهم إن لقوا الله ﷻ أكرمهم، وظنهم باطل، فهم كافرون بلقاء يعذبهم الله فيه، فأنزلوا منزلة من يكفر بلقاء الله مطلقاً، وهذا يشبه قول ابن الجوزي: (جحدوا دلائل توحيده، وكفروا بالبعث والجزاء، وذلك أنهم بكفرهم برسول الله ﷺ

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠٢ بتصرف واختصار.
(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٣٤٤ بتصرف واختصار.
(٣) السابق.

والقرآن، صاروا كافرين بهذه الأشياء)(١)، ويجاب كذلك بأن كل من كفر بآيات الله ولقائه فهو من الخاسرين، لكن منهم من يعلم أن عمله في ضلال كإبليس، وكمن وصفهم الله ﷻ بقوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وكرؤوس الكفر من أصحاب الملل العالمين بضلال ما هم عليه، ولا يمنعهم من الإيمان إلا رئاستهم، ولسان حالهم ومقالهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، فليس هؤلاء هم المعنيون وإن كانوا خاسرين، بل المعنيون من يظنون أنهم على شيء، ويحسبون أنهم إن لقوا الله أثابهم، كصاحب الجنتين الذي قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف].

وهذه حال كثير من كفار قريش كالعاص بن وائل الذي نزل فيه: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم]، قال صاحب الجلالين: (﴿وَقَالَ﴾ لخباب بن الأرت القائل له تُبْعَثُ بعد الموت والمطالِب له بمال ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ على تقدير البعث ﴿مَالًا وَوَلَدًا﴾ فأقضيك)(٢)، وكأبي جهل الذي روي أنه قال يوم بدر: (اللهم أولانا بالحق فانصره)(٣)، وكالجهال من أتباع رؤوس الكفر الذين تابعوهم تقليداً.

وأما إدخال الخوارج في الآية فقد قال الشنقيطي رحمه الله: (معناه أنهم يكون فيهم من معنى الآية بقدر ما فعلوا، لأنهم يرتكبون أموراً شنيعة من الضلال، ويعتقدون أنها هي معنى الكتاب والسنة، فقد ضل سعيهم وهم

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٥٥.

(٢) تفسير الجلالين ٥/ ٣٢٦.

(٣) الخصائص الكبرى للسيوطي ١/ ٣٤٥.

يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وإن كانوا أقل من الكفار المجاهرين)[١].

وما قاله رحمه الله صحيح، وهذه حال كل من أعرض عن الكتاب والسنة وطلب الهدى في غيرهما، كالخوارج والرافضة وضلال الصوفية، الذين حدث عنهم رسول الله ﷺ بقوله: "افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة وسبعون في النار، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة وسبعون في النار. قيل يا رسول الله من هم؟ قال: الجماعة"[٢].

وهذه حال الزنادقة وكثير من العلمانيين والليبراليين في بلادنا وغيرها من البلاد، فهم يخططون ويقومون بالمشاريع لتغريب الأمة وسلخها عن تراثها وثوابتها ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، لكفرهم وإنكارهم البعث والنشور فهم يرون أن الشريعة ليست ربانية أصلاً، أو لجهلهم وضلالهم وظنهم أن ذلك لا يعارض مراد الله، وهذا من تزيين الشياطين لهم.

وإن المرء ليعجب من جلد صبرهم على باطلهم وجهادهم في سبيله بالمال والجهد والوقت، فمنهم من يحاول نشر الفساد من عشرين سنة وأكثر، ثم هو يقمع ويمنع المرة بعد المرة، حتى تغيرت الأحوال ونال ما أراد، ومع ذلك فواهِمٌ من يظن أنهم يحصلون سعادة الدنيا لاستمتاعهم بالشهوات والملذات، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤١٥ بتصرف واختصار.

(٢) سنن ابن ماجه ٢/ ١٣٢٢ (٣٩٩٢)، وصححه الألباني.

[النور]، قال القاسمي ﷺ: (﴿فِي الدُّنْيَا﴾: أي من الحدّ وغيره، مما يتفق من البلايا الدنيوية)[١]، وقال السعدي ﷺ: (﴿أَلِيمٌ﴾، أي: موجع للقلب والبدن، لغشه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشر لهم، وجراءته على أعراضهم)[٢].

وفي مقابل هؤلاء يعجب المرء ويتألم من عجز بعض المؤمنين وضعف مواقفهم، بل بعضهم لا تجد له موقفا، وأشد منه من له موقف سلبي يحاول أن يعوق الآخرين عن العمل وعن مدافعة الأولين بحجج واهية، ولمثل هذا كان عمر يقول: (أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة)[٣].

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾

قال ابن كثير: (أي: جحدوا آيات الله في الدنيا، وبراهينه التي أقام على وحدانيته، وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة)[٤]، وهذا يدخل فيه المشركون المكذبون بالبعث والنشور أصالة، وغيرهم من أهل الكتاب دخولهم فيه يبينه قول ابن الجوزي: (ذلك أنهم بكفرهم برسول الله ﷺ والقرآن، صاروا كافرين بهذه الأشياء)[٥]، قال ابن عثيمين ﷺ: (قوله تعالى: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾، الكونية أو الشرعية؟ الظاهر كلتاهما، لكن الذين كذبوا الرسول ﷺ،كذبوا الشرعية، ولم يكذبوا الكونية، والدليل أن الله أخبر أنهم إذا سُئلوا: من خلق السموات والأرض؟ يقولون: الله ﷻ، ولا

---

(١) محاسن التأويل ٧/ ٣٤٠.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص: ٥٦٤ بتصرف يسير.
(٣) الحسبة لابن تيمية ص: ١٨٥.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠٢.
(٥) زاد المسير ٤/ ٢٥٥.

أحد منهم يدعي أن هنالك خالقاً مع الله، لكنهم كذبوا بالآيات الشرعية، كذبوا الرسول ﷺ؛ كذبوا بما جاء به، فهم داخلون في الآية)(١).

وأما حبوط عملهم فمعناه بطلانه وعدم قبوله، كما قال: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان]، قال ابن كثير: (وهذا يوم القيامة، حين يحاسب العباد على ما عملوا من خير وشر، فأخبر أنه لا يتحصل لهم من الأعمال -التي ظنوا أنها منجاة لهم- شيء؛ لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص وإما المتابعة. فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية، فهو باطل. فأعمال الكفار لا تخلو من هذين، وقد تجمعهما، فتكون أبعد من القبول، لأنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها شيء، فلما عرضت على الحكيم العدل، إذا إنها لا شيء بالكلية)(٢).

لطيفة- قال سيد قطب رحمه الله: (وأصل الحبوط انتفاخ بطن الدابة حين تتغذى بنوع سام من الكلأ ثم تموت، وهو أنسب شيء لوصف الأعمال؛ تنتفخ وأصحابها يظنونها صالحة رابحة ثم تنتهي إلى البوار!)(٣)، وهذا معنى لطيف تشهد له اللغة، قال ابن فارس رحمه الله: (الحاء والباء والطاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على بطلانٍ أو ألَمٍ. يقال: أحبط اللهُ عملَ الكافر، أي أبطله. وأمّا الألَمُ فالحَبَط: أن تأكل الدَّابةُ حَتَّى تُنْفَخ لذلك بطنُها)(٤).

قال ابن الجوزي: (﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾... في معناه ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه الميزان يثقل بالطاعة، والكافر لا طاعة له.

والثاني: أن المعنى: لا نُقيم لهم قَدْراً. قال ابن الأعرابي: يقال: ما

---

(١) تفسير القرآن للعثيمين ٦/ ١١٤ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ١٠٣ بتصرف واختصار.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٨٣ بتصرف يسير.

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢/ ١٢٩.

لفلان عندنا وزن، أي: قَدْر، لخسَّته. فالمعنى: لا يُعتدُّ بهم، ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة، والثالث: أنه قال: "فلا نقيم لهم" لأن الوزن عليهم لا لهم، ذكره ابن الأنباري)[1]، وكل الأقوال واقعة بهؤلاء المكذبين.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٥٥.

قدْر المؤمن وقدْر الكافر عند الله

الله سبحانه لا يقيم للكفار وزناً يوم القيامة، فهم في الحساب أذلاء حقراء، ومن بعده في نار جهنم مهانون منسيون، مع أنهم في الدنيا كانوا يختالون ويتطاولون على عباد الله المؤمنين، ولربما كان لهم من الأجسام والأموال والهيئات والشارات ما يلفت الأنظار ويثير الدهشة والإعجاب، لكن العبرة بالخواتيم، قال تعالى في المنافقين منهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [المنافقون]، قال تعالى مرشداً نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة]، وقال: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة]، وقال هنا في الكهف: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾.

وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا: "إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة. اقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾"(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "بينا صبي يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة فقالت أمه اللهم اجعل ابني مثل هذا فترك الثدي وأقبل إليه فنظر إليه فقال اللهم لا تجعلني مثله ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع -قال فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٩ (٤٤٥٢)، صحيح مسلم ٤/ ٢١٤٧ (٢٧٨٥).

ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه فجعل يمصها[١]- قال: ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل فقالت أمه اللهم لا تجعل ابني مثلها فترك الرضاع ونظر إليها فقال اللهم اجعلني مثلها فهناك تراجعا الحديث فقالت حلقى مر رجل حسن الهيئة فقلت اللهم اجعل ابني مثله فقلت اللهم لا تجعلني مثله ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون زنيت سرقت فقلت اللهم لا تجعل ابني مثلها فقلت اللهم اجعلني مثلها قال إن ذاك الرجل كان جبارا فقلت اللهم لا تجعلني مثله وإن هذه يقولون لها زنيت ولم تزن وسرقت ولم تسرق فقلت اللهم اجعلني مثلها"[٢]، وعند البخاري: "أما الراكب فإنه كافر وأما المرأة فإنهم يقولون لها تزني وتقول حسبي الله ويقولون تسرق وتقول حسبي الله"[٣].

فالعبرة ليست بالصور الزائلة وإنما بالمعاني الباقية، والموازين عند الله غير موازين الدنيا، فعن سهل بن سعد الساعدي قال: "مر رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك في هذا؟ فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حري إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع. قال: فسكت رسول الله ﷺ. ثم مر رجل فقال له رسول الله ﷺ: ما رأيك في هذا؟ فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا"[٤]، ويصدقه قول

---

(١) القائل هو أبو هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٢٦٨ (٣٢٥٣)، صحيح مسلم ٤/ ١٩٧٦ (٢٥٥٠).

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٢٧٩ (٣٢٧٩).

(٤) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٦٩ (٦٠٨٢).

النبي ﷺ: "رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره"(١)، قال النووي رحمه الله: (مدفوع بالأبواب أي لا قدر له عند الناس فهم يدفعونه عن أبوابهم ويطردونه عنهم احتقارا له لو أقسم على الله لأبره أي لو حلف على وقوع شيء أوقعه الله إكراما له بإجابة سؤاله وصيانته من الحنث في يمينه وهذا لعظم منزلته عند الله تعالى وإن كان حقيراً عند الناس وقيل معنى القسم هنا الدعاء وإبراره إجابته، والله أعلم)(٢).

فإذا كان الكافر لا وزن له عند الله، فقدر المؤمن عنده على النقيض، قال النبي ﷺ: "رأيت قبيل الفجر كأني أعطيت المقاليد والموازين، فأما المقاليد: فهذه المفاتيح، وأما الموازين: فهذه التي تزنون بها، فوضعتُ في كفة، ووضعت أمتي في كفة، فوزِنتُ بهم فرجحتُ، ثم جيء بأبي بكر فوُزِن بهم فوزَن، ثم جيء بعمر فوزن فوزن، ثم جيء بعثمان فوزن بهم ثم رفعت"(٣)، وعن علي رضي الله عنه قال: "أمر النبي ﷺ ابن مسعود فصعد على شجرة أمره أن يأتيه منها بشيء، فنظر أصحابه إلى ساق ابن مسعود حين صعد الشجرة، فضحكوا من حموشة(٤) ساقيه، فقال رسول الله ﷺ: ما تضحكون؟ لَرِجل عبد الله أثقل في الميزان يوم القيامة من أُحُد"(٥)، ومن تأمل الحديثين لم يتمالك نفسه من الدهشة والعجب، فرجلا ابن مسعود على دقتهما في ميزان البشر أثقل عند الله من جبل أحد، لما حواه قلبه من إيمان، فإذا كان هذا وزن رجليه، فكم وزنه هو رضي الله عنه عند الله؟

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٢٤ (٢٦٢٢).

(٢) شرح النووي على مسلم ١٦/ ١٧٤.

(٣) مسند أحمد (٩/ ٣٣٨)، قال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

(٤) الحموشة: الدقة، انظر لسان العرب ٦/ ٢٨٨ مادة (حمش).

(٥) مسند أحمد ٢/ ٢٤٣، قال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

ثم إن ابن مسعود الذي هذا وزنه عند الله ليس سوى واحد من أمة محمد الذين وزن بهم عثمان فوزن، وعثمان واحد من الأمة ووزن بهم عمر فوزن، وعمر واحد من الأمة ووزن بهم أبو بكر فوزن!

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾

قال ابن كثير: (أي: إنما جزيناهم جهنم لكفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزوًا؛ استهزؤوا بهم، وكذبوهم أشد التكذيب)(١)، قال الرازي: (﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الذي ذكرناه وفصلناه من الوعيد جزاؤهم على أعمالهم الباطلة، وقوله: ﴿جَهَنَّمُ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ ثم بين تعالى أن ذلك الجزاء على مجموع أمرين: كفرهم وأنهم أضافوا إلى الكفر أن اتخذوا آيات الله ورسله هزواً، فلم يقتصروا على الرد والتكذيب حتى استهزؤوا بهم)(٢).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾

قال ابن عاشور: (هذا مقابل قوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ على عادة القرآن في البشارة بعد الإنذار، وتأكيد الجملة للاهتمام لأنها في مقابلة ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾، لكي لا يظن أن جزاء المؤمنين غير مهتم بتأكيده مع ما في التأكيدين من تقوية الإنذار والبشارة، وجعل المسند إليه الموصول بصلة الإيمان وعمل الصالحات للاهتمام بشأن أعمالهم، فلذلك خولف نظم الجملة فلم يقل: جزاؤهم الجنة. وقد تقدم نظير هذا في المخالفة بين وصف الجزاءين عند قوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠٣ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ٢٥٥ بتصرف واختصار.

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الكهف]، وفي الإتيان بـ﴿كَانَتْ﴾ لأن استحقاقهم الجنات مستقر من قبلُ، مهيأ لهم، وجيء بلام الاستحقاق تكريما لهم بأنهم نالوا الجنة لإيمانهم وعملهم، كما قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الزخرف]، وجمع الجنات إيماء إلى سعة نعيمهم، وأنها كثيرة كما في الحديث: "إنها جنان كثيرة")[1]، وقال ابن الجوزي: (﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ قال ابن الأنباري: كانت لهم في علم الله قبل أن يُخلَقوا)[2].

قال الطبري: (يقول تعالى ذكره: إن الذين صدقوا بالله ورسوله، وأقرّوا بتوحيد الله وما أنزل من كتبه وعملوا بطاعته، كانت لهم بساتين الفردوس، والفردوس: معظم الجنة، كما قال أمية:

كانَتْ مَنازِلُهُمْ إذْ ذاكَ ظاهِرَةً   فِيها الفَراديسُ والفُومانُ والبَصَلُ

واختلف في معنى الفردوس ؛ فقيل: أفضل الجنة وأوسطها، وقال آخرون: البستان بالرومية، وقال آخرون: البستان فيه الأعناب، والصواب في ذلك ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ)[3]. فمنها حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها. قالوا: يا رسول الله أفلا ننبئ الناس بذلك؟ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٤٩ بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٥٦.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ١٣٠ بتصرف واختصار.

وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة"[١]، وعن أنس ﷺ قال: "أصيب الحارثة يوم بدر وهو غلام فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة مني فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب وإن تكن الأخرى تر ما أصنع. فقال: ويحكِ أو هُبِلتِ! أوَجنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة وإنه في جنة الفردوس"[٢].

قال السعدي رحمه الله: (أي: إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وشمل هذا الوصف جميع الدين، عقائده وأعماله، أصوله وفروعه الظاهرة والباطنة، فهؤلاء -على اختلافهم في الإيمان والعمل الصالح- لهم جنات الفردوس. يحتمل أن المراد أعلى الجنة، وأوسطها، وأفضلها، وأن الثواب لمن كمل فيه الإيمان والعمل الصالح، كالأنبياء والمقربين. ويحتمل أن يراد جميع منازل الجنان، فيشمل جميع طبقات أهل الإيمان، من المقربين والأبرار والمقتصدين، كل بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين؛ لعمومه ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس، ولأن الفردوس البستان المحتوي على الكرم، أو الأشجار الملتفة، وهذا صادق على جميع الجنة، فجنة الفردوس نزل وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأي ضيافة أجل وأعظم منها، محتوية على كل نعيم، للقلوب والأرواح والأبدان، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة المشجية، والمآكل اللذيذة، والمشارب الشهية، والنساء الحسان، والخدم،

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٧٠٠ (٦٩٨٧).

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٤٦٢ (٣٧٦١).

والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة الدائمة، وأعلى ذلك وأفضله التنعم بقرب الرحمن ونيل رضاه الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرءوف الرحيم، فلله تلك الضيافة، ما أجلها وأجملها، وأدومها وأكملها، وهي أعظم من أن يحيط بها وصف، أو تخطر على القلوب، فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علما حقيقيا يصل إلى قلوبهم، لطارت إليها قلوبهم بالأشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحدانا، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذات منغصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقاتا تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من نعيم الحقب آلاف مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة نفذت، فكان ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله)(١).

وفي الآية أن إيمان القلب لا يكفي لدخول الجنة كما ادعت المرجئة، فلا بد من العمل الصالح، ومذهب أهل السنة أن الإيمان اعتقاد بالجنان وقول باللسان وعمل بالأركان. وتظاهرت آي القرآن على الربط بين الإيمان والعمل الصالح، قال الشنقيطي: (ذكر الله في الآية أن الأعمال الصالحة والإيمان سبب في نيل الفردوس. والآيات الموضحة لكون العمل الصالح سبباً لدخول الجنة كثيرة جداً. كقوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف]، وقوله: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف] أي بسببه، وقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف]. وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ

(١) تفسير السعدي ص: ٤٨٨ بتصرف.

عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [مريم]، إلى غيرها من الآيات.

تنبيه- فإن قيل هذه الآيات فيها الدلالة على أن طاعة الله بالإيمان والعمل الصالح سبب في دخول الجنة. وقوله ﷺ: « لن يدخل أحدكم عمله الجنة » قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: « ولا أنا إلا يتغمدني الله برحمة منه وفضل » يرد بسببه إشكال على ذلك. فالجواب: أن العمل ليس سبباً لدخول الجنة إلا إذا تقبله الله، وتقبله فضل منه، فسبب دخول الجنة هو ما تقبله الله بفضله، وغيره لا يكون سبباً لدخولها. وللجمع أوجه أخر، هذا أظهرها. والعلم عند الله تعالى)(١).

أما النزل فقد تقدم الكلام عنه؛ فإما أن يكون من المنزل أو من مكافأة الضيف، وهو على الثاني على حقيقته هنا، بخلاف الكفار فللتهكم والاستهزاء، فشتان بين مهان ومكرم. فهذه الجنان العظيمة هي مكافأة عباد الله الصالحين إذا نزلوا ضيوفاً على رب العزة، وفي مقابلة هذا النزل بذاك يظهر فضل الله أكثر وأكثر، فبضدها تتبين الأشياء. قال ابن كثير: (﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي: مقيمين ساكنين فيها، لا يظعنون عنها أبدًا، ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ أي: لا يختارون غيرها، ولا يحبون سواها، كما قال الشاعر:

فَحَلَّت سُوَيدا القَلْب لا أَنَا بَاغيًا ... سواها ولا عَنْ حُبّها أَتَحَوّلُ)(٢).

قال البقاعي: (تعريض بالكفرة في أنهم يصطرخون في النار ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] عكس ما كان في الدنيا من ركونهم إليها، ومحبتهم طول البقاء فيها، وعزوف المؤمنين عنها، وشوقهم إلى ربهم بمفارقتها)(٣).

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤١٨ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠٤.
(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٨٦.

لطيفة- قال ابن كثير ﵀: (في قوله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ تنبيه على رغبتهم فيها، وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائمًا أنه يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الخلود السرمدي، لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولا ولا انتقالا ولا ظعنًا ولا رحلة ولا بدلا)(١).

فأنى لهم السأم وأنى لهم التحول وهم في جنة ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، أم أنى لهم السأم وأنى لهم التحول عن هذا المنزل الذي لم ولن يروا إكراماً وضيافة في غيره يقارب أو يشبه ما لقوه.

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠٤ بتصرف يسير.

المفهوم الصحيح للربح والخسارة

جُبل الإنسان على حب تحصيل المنافع ودفع المفاسد، وما من إنسان يحب أن يكون خاسراً في أي مجال أو درب يسلكه، بل إنه يحب أن يحقق المكاسب والأرباح دوماً، وقد راعى القرآن هذا فخاطب بما يوافقه في كثير من الآيات، يدعو لتحقيق الفوز والربح والبعد عما فيه خسران مبين.

ولئن كان كثير من الناس لا يعرف من الربح والخسارة إلا ما تعلق بالأموال والمتاع الفاني، فالإسلام يدعو للربح الحقيقي الباقي ويحذر من خسارة ليس وراءها خسارة؛ يدعو لجنة عرضها السماوات والأرض فيها ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، الجار أحمد والرحمن بانيها، لا تعب فيها ولا مرض، لا هم فيها ولا حزن، باقية إلى الأبد؛ ويحذرهم ناراً تلظى لا تبقي ولا تذر، يلقى الكفار فيها مكاناً ضيقاً مقرنين، في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً مهانين، طعامهم الزقوم والغسلين، لا يسمن ولا يغني من جوع، وشرابهم حميم يشوي الوجوه، النار طعامهم وشرابهم وفراشهم، وهي على ذلك باقية إلى الأبد.

إن كل خسارة في الدنيا يمكن أن تعوض أو يزول ضررها قريبا، أما إن أتت القيامة وقد كتبه الله من الخاسرين فأنى تعوض؟ بل الأمر كما بين ربنا جل وعز: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون].

فمن العجيب أن تجد الرجل الطويل العريض حريصاً ذكياً في أمور دنياه حاذقاً في شؤونه من تجارة وزراعة وصناعة، ثم تجده في أمور آخرته

بليداً مفرطاً! وما أجمل وأجمع ما قال ابن القيم رحمه الله في وصفه: (وأعظم الخلق غروراً من اغتر بالدنيا وعاجِلِها، فآثرها على الآخرة، ورضي بها من الآخرة؛ حتى يقول: الدنيا نقد والآخرة نسيئة، والنقد أنفع. ويقول بعضهم: ذرة منقودة ولا درة موعودة. ويقول آخر: لذات الدنيا متيقنة ولذات الآخرة مشكوك فيها، ولا أدع اليقين للشك. وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله، والبهائم أعقل منهم، فإن البهيمة إذا خافت مضرة شيء لم تقدم عليه ولو ضُرِبت، وهذا يقدم على ما فيه عطبه وهو ينظر بين مصدق ومكذب، فهذا الضرب إن آمن فهو من أعظم الناس حسرة لأنه أقدم على علم، وإن لم يؤمن فأبعد له. وقول القائل: النقد خير من النسيئة، فجوابه أنه إذا تساوى النقد والنسيئة فالنقد خير، وإن تفاوتا وكانت النسيئة أكبر وأفضل فهي خير، فكيف والدنيا كلها كنفس واحد من أنفاس الآخرة كما في حديث المستورد بن شداد قال: قال رسول الله: "ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع"[1]. فإيثار النقد على هذه النسيئة من أعظم الغبن وأقبح الجهل، وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلى الآخرة، فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلى الآخرة؟ فأيما أولى بالعاقل: إيثار العاجل في هذه المدة اليسيرة وحرمان الخير الدائم في الآخرة؟ أم ترك شيء حقير صغير منقطع عن قرب ليأخذ ما لا قيمة له[2] ولانهاية لعدده ولا غاية لأمده! وأما قول الآخر: لا أترك متيقنا لمشكوك فيه، فيقال له: إما أن تكون على شك من وعد الله ووعيده أو تكون على اليقين، فإن كنت على اليقين فما تركت إلا

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٥٦١ (٢٣٢٣)، وصححه الألباني.

(٢) أي لا يقدر بقيمة.

ذرة منقطعة فانية عن قرب لأنه متيقن لا شك فيه ولا انقطاع له، وإن كنت على شك فتأمل آيات الرب الدالة على وجوده وقدرته ووحدانيته وصدق رسله وتجرد وقم لله ناظراً أو مناظراً حتى يتبين لك أن ما جاءت به الرسل عن الله لا شك فيه وأن خالق هذا العالم رب السموات والأرض يتعالى ويتقدس عن خلاف ما أخبرت به رسله ومن نسبه إلى غير ذلك فقد شتمه وكذبه وأنكر ربوبيته وملكه)[١].

وضرب ﷺ مثالاً للدنيا والآخرة وما جعل الله من فرق بينهما، وما أراده من العباد فيها فقال: (ملك خط مدينة في أصح المواضع وأحسنها هواء وأكثرها مياها وشق أنهارها وغرس أشجارها وقال لرعيته تسابقوا إلى أحسن الأماكن فيها فمن سبق إلى مكان فهو له ومن تخلف سبقه الناس إلى المدينة فأخذوا منازلهم وتبوؤوا مساكنهم فيها وبقي من أصحاب الحسرات. ونصب لهم ميدان السباق وجعل على الميدان شجرة كبيرة لها ظل مديد وتحتها مياه جارية وفي الشجرة من كل أنواع الفواكه وعليها طيور عجيبة الأصوات وقال لهم لا تغتروا بهذه الشجرة وظلها فعن قليل تجتث من أصلها ويذهب ظلها وينقطع ثمرها وتموت أطيارها وأما مدينة الملك فأكلها دائم وظلها مديد ونعيمها سرمدي وفيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فسمع الناس بها فخرجوا في طلبها على وجوههم فمروا بتلك الشجرة على أثر تعب ونصب وحر وظمأ فنزلوا كلهم تحتها واستظلوا بظلها وذاقوا حلاوة ثمرها وسمعوا نغمات أطيارها فقيل لهم إنما نزلتم تحتها لتحموا أنفسكم وتضمروا مراكبكم

---

(١) الجواب الكافي ١/ ٢٢ بتصرف واختصار.

للسباق فتهيؤوا للركوب وكونوا على أهبة فإذا صاح النفير استدركتم حلبة السباق فقال الأكثرون كيف ندع الظل الظليل والماء السلسبيل والفاكهة النضجة والراحة ونقتحم الحلبة في الحر والغبار والتعب والسفر البعيد والمفاوز المعطشة التي تنقطع فيها الأمعاء وكيف نبيع النقد الحاضر بالنسيئة الغائبة إلى الأجل البعيد ونترك ما نراه إلى ما لا نراه وذرة منقودة في اليد أولى من درة موعودة بعد غد، خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به، ونحن بنو اليوم وهذا عيش حاضر كيف نتركه لغائب في بلد بعيد لا ندري متى نصل إليه. ونهض من كل ألف واحد وقالوا والله ما مقامنا هذا في ظل زائل تحت شجرة قد دنا قلعها وانقطاع ثمرها وموت أطيارها ونترك المسابقة إلى الظل الظليل الذي لا يزول والعيش الهنيء الذي لا ينقطع إلا مِن أعجز العجز وهل يليق بالمسافر إذا استراح تحت ظل أن يضرب خباءه عليه ويتخذ وطنه خشية التأذي بالحر وبالبرد وهل هذا إلا أسفه السفه فالسباق السباق والبدار البدار

حُكْمُ المَنِيَّة في البرية جاري ... ما هذه الدنيا بدار قَرَار
اقضوا مآربكم سِراعاً إنَّما ... أعماركم سَفَرٌ من الأسفار
وتراكضوا خيل الشباب وبادروا ... أن تُسْتَرَدَّ فإنَّهن عواري
ودعوا الإقامة تحت ظل زائل ... أنتم على سفر بهذي الدار
من يرج طيب العيش فيها إنما ... يبني الرجاء على شفير هار
والعيش كل العيش بعد فراقها ... في دار أهل السبق أكرم دار

فاقتحموا حلقة السباق ولم يستوحشوا من قلة الرفاق وساروا في ظهور العزائم ولم تأخذهم لومة لائم والمتخلف في ظل الشجرة نائم فوالله ما كان إلا قليل حتى ذوت أغصان الشجرة وتساقطت أوراقها وانقطع

ثمرها ويبست فروعها فقلعها قيمها من أصلها فأصبح أهلها في حر السموم يتقلبون وعلى ما فاتهم من العيش يتحسرون أحرقها قيمها فصارت هي وما حولها نارا تلظى وأحاطت النار بمن تحتها فلم يستطع أحد الخروج فقالوا أين الركب الذين استظلوا معنا تحت ظلها ثم راحوا وتركوه؟ فقيل لهم ارفعوا أبصاركم تروا منازلهم فرأوهم من البعد في قصور مدينة الملك وغرفها يتمتعون بأنواع اللذات فتضاعفت عليهم الحسرات ألا يكونوا معهم وزاد تضاعفها بأن حيل بينهم وبين ما يشتهون وقيل هذا جزاء المتخلفين وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)[1].

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾

المناسبة لما قبلها:

قال البقاعي: (لما تم الجواب عن أسئلتهم على أحسن الوجوه مخللاً بما تراه من الحجج البينة الملزمة لهم بفصل النزاع، وأتبع ذلك بقص الأمر الذي بإغفاله تجرؤوا على الكفر، وهو أمر البعث إلى أن ختمه بما يقتضي أن معلوماته لا تحد، لأن مقدوراته في تنعيم أهل الجنة لا آخر لها فلا تعد، وكان اليهود اعترضوا على قوله ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء] بأنهم أوتوا التوراة، وكان لكل ما سألوا عنه من الفصول أمور تهول، وربما قال قائل: ما له لا يزيد ذلك شرحاً؟ قال تعالى آمراً بالجواب، معلماً لهم

---

(١) عدة الصابرين ١/ ٢٠٥.

بأنهم لا يمكنهم الوقوف على تمام شرح معلوماته، وآخر مقدوراته، قطعاً لهم عن السؤال، وتقريباً إلى أفهامهم بضرب من المثال: ﴿قُل﴾)(١) الآية.

لطيفة- كما بدأ الله سبحانه السورة بتشريف نبينا محمد ﷺ بعبوديته المستلزمة لبشريته وبتشريفه بالوحي: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾ [الكهف]، أنهى السورة بمثله ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، فمن تأمل ختام السورة وجدها عادت لتأكيد ما افتتحت به، عن نبوة النبي ﷺ وعبوديته وما تفضل الله ﷻ عليه من نعمة إيتاء الكتاب، فكان ختاماً بديعاً، ونعيد هنا ما سبق نقله لفائدته، قال ابن عاشور: (لما ابتدئت السورة بالتنويه بشأن القرآن ثم أفيض فيها من أفانين الإرشاد والإنذار والوعد والوعيد، وذكر فيها من أحسن القصص ما فيه عبرة وموعظة، وما هو خفي من أحوال الأمم، حول الكلام إلى الإيذان بأن كل ذلك قليل من عظيم علم الله. فهذا استئناف ابتدائي وانتقال إلى التنويه بعلم الله؛ مفيض العلم على رسوله ﷺ، لأن المشركين لما سألوه عن أشياء يظنونها مفحمة وأن لا قبل له بعلمها علّمه الله إياها، وأخبر عنها أصدق خبر، وبينها بأقصى ما تقبله أفهامهم، وبما يقصر عنه علم الذين أغروا المشركين بالسؤال، وكان آخرها خبر ذي القرنين، أتبع ذلك بما يعلم منه سعة علم الله وسعة ما يجري على وفق علمه من الوحي إذا أراد إبلاغ بعض علمه إلى أحد رسله، وفي هذا رد عجز السورة على صدرها)(٢).

سبب النزول:

قال ابن عاشور: (قيل: نزلت لأجل قول اليهود للرسول كيف تقول

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٨٦ بتصرف واختصار.
(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٥١ بتصرف واختصار.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ وقد أوتينا التوراة، ومن أوتيها فقد أوتي خيرا كثيرا، وعن ابن عباس: قال حيي بن أخطب: في كتابكم ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩] ثم تقرؤون: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ ؟! فنزل قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ الآية)[1].

التفسير:

قال ابن كثير: (قل يا محمد: لو كان ماء البحر مدادًا للقلم الذي تكتب به كلمات ربى وآياته الدالة عليه ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ أي: لفرغ قبل أن يفرغ من كتابة ذلك ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ أي: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهلم جرا، لما نفدت كلمات الله، كما قال: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧﴾ [لقمان] يقول: لو كان البحر مداداً لكلمات الله، والشجر كله أقلام، لانكسرت الأقلام وفني البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحدًا لا يستطيع أن يقدر قدره، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول. قال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور، وقد أنزل الله: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾)[2]، وما أشبه ما قاله الربيع بقول الخضر لموسى: "ما علمك وعلمي وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره"[3].

يقول صاحب الظلال: (البحر أوسع وأغزر ما يعرفه البشر، والبشر يكتبون بالمداد كل ما يكتبون؛ وما يسجلون به علمهم الذي يعتقدون أنه

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٥١ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠٤ بتصرف واختصار.
(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٧ (٤٤٥٠).

غزير! فالسياق يعرض لهم البحر بسعته وغزارته في صورة مداد يكتبون به كلمات الله الدالة على علمه؛ فإذا البحر ينفد وكلمات الله لا تنفد. ثم إذا هو يمدهم ببحر آخر، ثم إذا الآخر ينفد وكلمات الله تنتظر المداد! وبهذا التصوير المحسوس والحركة المجسمة يقرب إلى التصور البشري المحدود معنى غير المحدود، ونسبة المحدود إليه مهما عظم واتسع. والمعنى الكلي المجرد يظل حائراً في التصور البشري حتى يتمثل في صورة محسوسة. ومهما أوتي العقل من القدرة على التجريد يظل في حاجة إلى تمثل المعنى في صور وأشكال ونماذج، ذلك شأنه مع المعاني المجردة للمحدود، فكيف بغير المحدود؟ لذلك يضرب القرآن الأمثال للناس؛ ويقرب إلى حسهم معانيه الكبرى بوضعها في صور ومشاهد، ومحسوسات ذات خصائص وأشكال على هذا المثال. والبحر في هذا المثال يمثل علم الإنسان الذي يظنه واسعاً غزيراً. وهو محدود. وكلمات الله تمثل العلم الإلهي الذي لا حدود له، ولا يدرك البشر نهايته؛ بل لا يستطيعون تلقيه فضلاً على محاكاته. ولقد يدرك البشر الغرور بما يكشفونه من أسرار في أنفسهم وفي الآفاق، فتأخذهم نشوة الظفر العلمي، فيحسبون أنهم علموا كل شيء، أو أنهم في الطريق! ولكن المجهول يواجههم بآفاقه المترامية التي لا حد لها، فإذا هم على خطوات من الشاطئ، والخضم أبعد من الأفق الذي تدركه أبصارهم! إن ما يطيق الإنسان تلقيه من علم ضئيل قليل، لأنه يمثل نسبة المحدود إلى غير المحدود. فليعلم الإنسان ما يعلم؛ وليكشف من أسرار الوجود ما يكشف ولكن ليطامن من غروره العلمي، فسيظل أقصى ما يبلغه علمه أن يكون البحر مداداً في يده. وسينفد البحر وكلمات الله لم

تنفد؛ ولو أمده الله ببحر مثله فسينتهي وكلمات الله ليست إلى نفاد)[١].

وقولـــه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

قال الطبري: (قل لهؤلاء المشركين يا محمد: أنا بشر مثلكم من بني آدم لا علم لي إلا ما علمني الله، والله يوحي إليّ أن الذي يجب أن تعبدوه ولا تشركوا به واحد لا ثاني له ولا شريك ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ فمن يخاف ربه يوم لقائه ويراقبه ويرجو ثوابه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ فليخلص له العبادة، وليفرد له الربوبية ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ولا يجعل له شريكًا في عبادته، وذلك إذا راءى بعمله الذي ظاهره أنه لله وهو مريد به غيره)[٢].

وقال ابن كثير: (﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فمن زعم أني كاذب، فليأت بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به، عما سألتم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلعني الله، وأنا أخبركم ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته، ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي: ثوابه وجزاءه الصالح، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ موافقًا لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل. لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابا على شريعة رسول الله ﷺ)[٣].

وقال السعدي: (﴿قُلْ﴾ يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لست بإله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله،

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٨٥ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١٣٥ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠٥ بتصرف واختصار.

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ عبد من عبيد ربي ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ فضلت عليكم بالوحي، الذي يوحيه الله إلي، الذي أَجَلُّه الإخبار لكم: أنما إلهكم إله واحد، أي: لا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذي ينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه. ولهذا قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ موافق لشرع الله، من واجب ومستحب، ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ أي: لا يرائي بعمله بل يعمله خالصا لوجهه، فمن جمع بين الإخلاص والمتابعة ينال ما يرجو ويطلب، ومن عدا ذلك خاسر في دنياه وأخراه، قد فاته القرب من مولاه، ونيل رضاه)(١).

فائدة: تبين الآية أن النبي ﷺ يشترك مع بني آدم في أصل البشرية، ومن هذه الجهة لا فرق بينه وبينهم، قال ابن عثيمين رحمه الله: (ولذلك كان يغضب كما يغضب الناس، ويمرض كما يمرض الناس، ويجوع كما يجوع الناس، ويعطش كما يعطش الناس، ويتوقى الحر كما يتوقاه الناس، ويتوقى سهام القتال كما يتوقاها الناس، وينسى كما ينسى الناس، كل الطبيعة البشرية ثابتة للرسول ﷺ وكان له ظِلٌّ كما يكون للناس)(٢).

ومع الاشتراك في البشرية إلا أنه ﷺ -كباقي الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم- فضل بالنبوة والرسالة، المنحة الإلهية التي لا تنال بكسب ولا برياضة وإنما بمحض اصطفاء الله ﷻ، وأهم معالمها الوحي، ثم المعجزات التي يجريها الله ﷻ على أيدي أنبيائه، ثم ما قد يطلعهم عليه من الغيب، كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن]. وفي التركيز على التوحيد في آخر كلمة من السورة، لفت

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٨٩ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير القرآن للعثيمين ٦/ ١٢١ بتصرف واختصار.

إلى أهميته، فقد يعمل الإنسان صالحا لكنه يخلطه بالشرك وبإرادة غير الله فيجعله الله كأن لم يكن، كما قال: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان]، وفي اقترانه بالعمل الصالح لفت إلى الحرص على صلاح العمل، فقد يكون المرء موحداً ويأتي بأعمال صالحة لكنه يخلطها بسيئة قد تحبط عمله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات]، وعَنْ ثَوْبَانَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: "لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ ﷻ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا"(١).

فمن أتى بالتوحيد الخالص وكان عمله صالحاً، ولم يقع بما يحبط العمل، فأولئك الذين أراد الله، ولذا نقول لمن يتحير في الحكم على الرجال أو الجماعات ولا يدري الصواب: انظر في عمل كل، ومن يدعو إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله وتولي أوليائه والتبرؤ من أعدائه، فإذا عرفت فالزم!

---

(١) سنن ابن ماجه ٢/ ١٤١٨ (٤٢٤٥)، وصححه الألباني.

الخاتمة

وفيها سرد لمعالم رئيسة للخروج من الفتن ذكرت في مواضع متفرقة من السورة صراحاً أو تلميحاً

قمنا عبر الصفحات الماضية بسياحة علمية تربوية روحية، تنقلنا فيها بين آي السورة، نلتقط دررها، ونكشف أسرارها، رجاء أن ينفعنا الله بما أودع فيها من الفوائد والدروس، ولئن كان الكمال من المحال لما يلازم البشر من العجز، فإنني أدعو الله أن نكون قد وفقنا لنيل ما نتمنى، وما كان من حق وصواب فمن الله وحده، والحمد لله على توفيقه، وما كان من خطأ وزلل فمني ومن الشيطان، وأنا عائذ عنه وأستغفر الله منه.

وفي الختام أعرض لمعالم رئيسة للخروج من الفتن أرشدت إليها السورة الكريمة عبر آياتها:

١- جماع الخير كما أرشدت السورة التمسك بالكتاب القيم الذي لا عوج فيه القرآن، فمتى اعتصم العبد به أمن الفتنة.

٢- تذكر بأس الله وعذابه: (لينذر بأساً شديداً من لدنه)، (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً)، (إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها)، وغيرها من الآيات ولاسيما أواخر السورة.

٣- تذكر ثواب الآخرة وما أعده الله للمؤمنين: (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً).

٤- النأي عن الخوض في الدين بغير علم: (ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً).

٥- الإيمان الصادق سبب للهداية (آمنوا بربهم وزدناهم هدى).

٦- سؤال الهداية والثبات من بيده هداية القلوب وإضلالها: (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا).

٧- المجاهرة بالبراءة من الكفر من أسباب تثبيت الله للعبد على الحق، (وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً).

٨- الابتعاد عن مواجهة الظلمة في حال عدم القدرة على تغيير المنكر (فأووا إلى الكهف)، (إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً).

٩- الفرار من الفتن واعتزالها والبعد عن التصدر لها، (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله).

١٠- صبر النفس مع الصحبة القانتة لربها تريد وجهه، لا تخطيهم لغيرهم: (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا).

١١- ذكر الله والبعد عن الغفلة، وعدم طاعة الغافلين عن ذكره: (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا).

١٢- التفكر في حقيقة البشرية ومبدأ أمرها ومصيرها (أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً)، (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض).

١٣- شكر النعم ونسبتها لمسديها جل وعلا، (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا الله).

١٤- تذكر المعاد وأهوال يوم البعث والنشور وما وراءه (ويوم نسير

الجبال) إلى قوله: (أحدا).

١٥- اتخاذ الشيطان عدوا والعلم بأنه عدو لنا (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً).

١٦- تدبر القرآن وما صرفه الله من الأمثال فيه، (ولقد صرفنا في هذا القرءان للناس من كل مثل).

١٧- ترك المراء والجدال وقبول الحق والإذعان إليه متى بدا: (ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق).

١٨- الإقبال على آيات الله والحذر من الإعراض عنها عند التذكير بها: (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسيت ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا).

١٩- الحذر من الظلم بأنواعه وأعظمها الشرك ومحاربة تفشيه في المجتمع: (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا).

٢٠- التواضع للعلم وطلبه ولو كلف ذلك المرء عنتاً، فقد حرص عليه أكمل الخلق المسدد بالوحي في زمانه موسى عليه السلام وسافر في طلبه، (لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا).

٢١- التَّروي في الأمور التي لم نحط بها من جهة واقعها أو أدلتها.

٢٢- الصلاح لأن نفعه يعود على الذرية: (وكان أبوهما صالحاً).

٢٣- التعامل مع الخليقة بالشرع لا الأهواء كما في قصة ذي القرنين.

٢٤- القيام بواجبات الولاية على وجهها، لأنها تقوم على إصلاح شؤون المولى عليهم وخدمتهم، مع إقامة دين الله وحكمه.

٢٥- العبادة والعمل على بصيرة لا بالأهواء، فقد أخبر الله عن أناس ضل سعيهم في الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

٢٦- تحقيق التوحيد والنأي عن الشرك وأسبابه.

فهذه جملة أسباب معينة على الثبات وعاصمة بإذن الله من الفتن، أسأل الله أن يعصمني وعامة المسلمين من الفتن ما ظهر منها وما بطن، و(الحمد لله الذي أنزل الكتاب على عبده ولم يجعل له عوجاً)، وصلى الله وسلم على النبي المصطفى والرسول المجتبى، وعلى آله وصحبه الذين ارتضى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس الموضوعات